شخصيات صهيونية (١٤)

بنيامين نتنياهو

رئيس وزراء اسرائيل

مكان تحت الشمس

ترجمة : محمد عوده الدويري

مراجعة وتصويب : كلثوم السعدي



طبعة
منقحة ومزيدة



شخصيات صهيونية (١٤)

مكان تحت الشمس

- عنوان الكتاب: **مكان تحت الشمس**
- تأليف: **بنيامين نتنياهو / رئيس الوزراء الإسرائيلي**
- ترجمة: **محمد عودة الدويري**
- مراجعة وتصويب: **كلثوم السعدي**
- **الناشر: دار الجليل للنشر والدراسـات والأبحـاث الفلسطينـية**
- الطبعة: **الثالثة مزيدة ومنقحة**
- سنة النشر: **٢٠١٥م**
- رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: **(١٣٢٩ / ٣/2015)**
- الواصفات: / **التراجم // السياسيون // الصهيونية// إسرائيل/**
- **(ردمك) ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٤١٥-٢٠-٤**

حقوق الطبع محفوظة للناشر

- العنوان: **عمان**
- هاتف: **٥١٥٥٦٢٧ - ٥١٥٧٦٢٧**
- فاكس: **٥١٥٣٦٦٨ - عمان - الأردن**
- ص.ب ٨٩٧٢ - رمز بريدي ١١١٢١
- بريد الكتروني: **darjaleel@gmail.com**

شخصيات صهيونية (١٤)

مكان تحت الشمس

تأليف: بنيامين نتنياهو / رئيس وزراء إسرائيل

ترجمة: محمد عودة الدويري

مراجعة وتصويب: كلثوم السعدي



طبعة مزيدة ومنقحة / ٢٠١٥

المحتويات

تقديم وتنويه

يحس المرء، وهو يقرأ كتاب "مكان تحت الشمس" لزعيم الليكود، بنيامين نتنياهو، أن الرجل، جمع أوراق التطرف، من جميع أطرافها، ووضعها في ملف، تأبطه إلى طاولة المزايدات، سعياً لبلوغ قمة هرم السلطة.

لقد لملم نتياهو غوغاء التاريخ اليهودي، أفتأت على الحقائق، وطوع الجغرافيا، وشكل من كل ذلك جسراً، لخوض الزحام، تشرئب عنقه نحو بريق الحكم، دونما وازع من الخلاقيات الأمانة العلمية والتاريخية، فالغاية عنده تبرر الوسيلة.

كانت "الكارثة" أول محطات نتياهو لينطلق منها إلى قناتين مما يسمى مسيرة الشعب اليهودي:

- الأولى: وهي البكاء على الاطلال، وتتصل بمأساة الشعب اليهودي، ابان الحكم النازي، وهي مخصصة لكسب تعاطف الشعوب الأخرى، وابتزاز حكومتها، باعتبارها مسؤولة عن المأساة الكارثة دونما التفات إلى عنصر التقادم.
- الثانية: وترتكز إلى قدرة العنصر اليهودي على النهوض من تحت الانقاض، ذلك أن "الأفران" التي احرقت اجساد اليهود، لم تكن قادرة على اخماد روح الارادة اليهودية، وفي ذلك اشارة واضحة إلى "تميز" شعب اللـه المختار، الذي فصل لان يكون السيد المطاع، وما عداه خدماً.

على أن تعامل نتنياهو، مع موضوع الكارثة يدخل في باب الاسقاط، ذلك أن الشعب العربي عموماً، والفلسطيني خصوصاً، ليس لهم أي علاقة، لا من قريب ولا من بعيد فيما يسمى بالكارثة.

أحقية اليهود في أرض فلسطين، أخذت من نتنياهو جهداً كبيراً، من خلال خلط أوراق التاريخ والجغرافيا والتوراة والتلمود، ومستنداً في ذلك إلى شهادات صهيونية أو مشاعية

للصهيونية، أصحابها كانوا ذات يوم من سدنة الاستعنار، الذي وجدوا في اليهود وسيلة لتحقيق الاهداف الاستعمارية مقابل الثمن.

ان المستمسكات التي استشهد بها نتنياهو لتغيير اسم فلسطين إلى مسمى "أرض إسرائيل"، لا تخرج عن اطار القصص الخرافية، التي ربما تنطلي على السذج من الأطفال، أو تصلح لان تكون مادة للتسلية، ومع ذلك فثمة أناس في العالم الغربي يصدقونها، في غياب اعلام عربي مواز، يستصرخ الحقائق بالقول والعمل.

ولم ينس نتنياهو أن يعزف الحان الديمقراطية، التي ينعم بها شعبه، ودولته فيما بعد، ويجعل منها مقياساً لصنع السلام، ذلك أن الدول الديمقراطية من وجهة نظره هي القادرة على احلال السلام، واستبعاد الحرب، مؤكداً أن سلاماً بين الديمقراطية الإسرائيلية، لا يتسنى له أن يتحقق مع الدكتاتوريات العربية.

مثل هذا الطرح، قد يكون مقبولاً لدى دول الغرب التي لا تتوفر لها الدرجات الدنيل من الحقائق عن "ديمقراطية" إسرائيل، التي تتميز بين اليهودي الغربي ونظيرة الشرقي، والعلماني والمتدين، وعن "الفلاشا" حدث ولا حرج، حتى إذا ما وصلنا إلى "العربي الإسرائيلي"، فهو مواطن من الدرجة الأخيرة.

لقد مضى الزمان الذي كانت فيه الديمقراطية الإسرائيلية تثير الاعجاب، ذلك أنها أصبحت لا تتعدى السباب والتقاتل في الكنسيت وفي الحكومة، وسيادة لغة الشوارع.

لعل أكثر ما يثير الانتباه في كتاب "مكان تحت الشمس" ذلك الفصل الذي يتحدث عن العداء العربي- الإسرائيلي، ذلك أن نتنياهو آثر تحييد الاقتتال على الأرض، باعتبارها أرضاً إسرائيلية مسلماً بها، ليس للفلسطينيين أي حق فيها، ليحيل الصراع، إلى كراهية العرب للغرب، ولان إسرائيل تنتمي إلى الغرب،بل هي جزء لا يتجزأ منه، لذلك انتقلت الكراهية العربية إلى اليهود، كتحصيل حاصل.

وهذا الاستنتاج ليس ساذجاً، ذلك أنه اعلامي تحريضي في هذفه الأول، ويدخل في اطار العداء العرقي، وهو أمر مغاير للحقيقة تماماً، والاصطفاف اليهودي الغربي، الذي يعرف بالاستعمار قديمه وحديثه، هو الذي خلق حالة العداء، وما يسمى بالحضارة الغربية، ليس سمة من سمات الأمة العربية، ويبدو أن نتنياهو، اغفل حقيقة أن العرب هم أساس الحضارات، وتناصى أنهم آباء العلوم والاداب والطب... وأن الغرب عموماً مدين لهم في كل ما وصلوا إليه.

سلسلة طويلة من الاوراق المختلطى الهشة، نجدها ماثلة في كل جملة وكلمة ومصطلح في كتاب نتنياهو، ولعل الباحثين عن الفكر الصهيوني في أقصى يمينه، يستطيعون أن يجدوا ضالتهم في كتاب نتنياهو، بدءاً بالكراهيةوالحقد مروراً بالتطرف والارهاب، وانتهاء بالاطماع التوسعية، وهم سيجدون فكر الليكود في أجلى صورة، الذي ما زال يحلم بأرض إسرائيل الشرقية، مجسداً بمقولة "الأردن ضفتان هذه لنا وتلك أيضاً".

كتاب نتنياهو صدر بالانجليزية أولا، وتحت عنوان " مكان بين الأمم"، ومن ثم ترجم إلى العبرية تحت اسم "مكان تحت الشمس"، ولم تكن الاتفاقية السليمة بين الأردن وإسرائيل قد وقعت، وفي ظل تأييد الليكود للاتفاقية، تساءلنا، عما إذا كان نتنياهو يضمر غير ما يعلن، فحاولنا عبر طرف ثالث انتزاع زثيقة منه، يحدد من خلالها موقفه من معاهدة السلام الأردنية- الإسرائيلية تحديداً، ومواقفه من النزاع العربي- الإسرائيلي عموماً، وقد آتت جهودنا أكلها، حيث خصنا نتنياهو بمقدمة للطبعة العربية، كتبها باللغة الانجليزية، ووجدنا، استكمالاً للفائدة أن تصورها كما جاءت، اضافة إلى ترجمة أمينة لها باللغة العربية اضافة إلى تعقيبنا عليها محل مقدمة الكتاب الأصلية، التي سنوردها أيضاً في مطلع الكتاب.

في القراءة الأخيرة لكتاب "مكان تحت الشمس"، كانت الغصة قد بلغت الحلقوم، من فرك ما جاء في الكتاب من اساءات، تجرأ من خلالها على اتهام شخصيات عربية مشهود لها بالاصالة والشرف والوطنية.

هذا الاشكال، وضعنا أمام أحد أمرين لا ثالث لهما:

- الأول حذف الفقرات المسيئة، وهي على كثرتها ستفرغ الكتاب من مضمونه، وفضلاً عن ذلك، لـيس لدينا مصلحة في تشذيب افتراءات المؤلف.

- الثاني: ابقاء هذه الفقرات على حالها، ذلك أننا لسنا بحاجة إلى استدعاء فطنة القـارئ، القـادر عـلى تمييز الغث من السمين، وهذا ما اعتمدناه، وهو في المحصلة يعبر عن وجهة نظر المؤلف.

كتاب "مكان تحت الشمس" لزعيم حزب الليكود بنيـامين نتنيـاهو، واحـد مـن المؤلفـات الـصهيونية المبرمجة، اعد ليكون برنامجاً انتخابياً، يخوض بموجبه انتخابات الكنيست القادمة، فضلاً عن أنه ورقة عمل يهتدي بها إذا ما اعتلى نتنياهو سدة الحكم، فهو يرسم ابعاد الفكر الصهيوني مجـسدة في شـخص كنـا قـد تنبأنا بأنه سيكون رئيس الوزراء الإسرائيلي القادم، وهذا ما حدث فعلاً، فقد اعتلى سـدة الحكـم عـلى رأس الليكود وثلة من المتطرفين، ليرسم خطوط الدولة العبرية من جديد، موشحة بالغطرسـة والاسـتكبار وأرض إسرائيل الكاملة".

والـلـه الموفق

أسرة دار الجليل

نقرأ سيرة حياة بنيامين نتنياهو، فنجد في ثناياهـا صـهيونياً حتـى النخـاع، لم يـصل، هكـذا، إلى كـرسي رئاسة الوزراء، على حين غرة، بل مهد الطريق لبلوغ القمة، عبر سلسلة طويلـة مـن العمـل المـبرمج، تـأبط افكار جابوتنسكي، منطلقا نحو العلم والمعرفة، اجاد لغة الخطـاب، وعـرف مـن ايـن تؤكـل كتـف جمهـور السامعين، على مساحتي أميركا، والدولة العبرية، رغم أنه غض بمقياس الـزعماء الـذين تربعـوا عـلى كـرسي الحكم في إسرائيل.

رسم نتيناهو طريق بلوغ الهدف، في ترحاله بين واشنطن وتل أبيـب، أميركيـا حـد الانخـراط في سـلك "السي.آي.ايه"، ويهوديا حد توظيف خبراته ومعلوماته، واسراره، في خدمـة الـصهيونية، ووليـدتها إسرائيـل، اعتنق الفكر اليميني المتطرف، وانكب على ترجمته عملا ميدانيا.

في الطريق إلى الزعامة، عرج نتنياهو على مناصب في وزارة الخارجية، بعد الخدمة في الجـيش، ووجـد في مركزه سفيرا لإسرائيل لدى الامم المتحدة، فرصته للتعامل مع الادارة الاميركية، وتنمية قدراته الخطابيـة، طرح وجهات نظره، باسلوب فن الممكن، لفت الانظار، واقترب من مراكز منع القرار، وحظي بثقتها.

مزواج، اقترن بثلاث نساء، وخانهن، باعترافه الصريح، وذلك لا يعتبر سبة في العرف اليهـودي، ذلـك ان اليهودي القادر على اقامة علاقات مع أكثر من امرأة، هو المشهود له بالقوة، والذي يستاهل الزعامة.

جمع نتيناهو كل مؤهلات الزعامة، وهو بعد، لم يتجاوز السابعة والاربعين، فقد اسـتطاع ان يلملـم كـل اطـراف اليمـين، ليـصوغها في لاءات انتخابيـة، مـا فتنـت ان اصـبحت حقـائق عـلى أرض الواقـع، فهـو، كاترابـه مـن اهـل اليمـين الإسرائـيلي، يـؤمن بـالقوة سـلوكا، لتطويـع الامـة

العربية، ويرفع لواء حق شعب الـلـه المختـار في ارض فلـسطين، والأمـن الإسرائـيلي يقـع في رأس أولوياتـه، ويضع "دمقرطة"- الدول العربية شرطاً للسلام.

نتصفح سيرة نتنياهو، فنجدها خليطاً من الدعاية والترويج للتميز اليهـودي، الـذي يـصنع المعجـزات، وينبيء بخير الشعب الإسرائيلي، والشر المستطير لاعدائه العرب، الذين يتجرأون على رفض معادلـة الـسلام التي وضعها، ويكفي نتنياهو فخراً، انه حصل عـلى شـهادة "حُـسن سـلوك يهوديـة"، مـن عميـد الارهـاب الإسرائيلي اسحق شامير.

ولنا كلمة.....

يحسن بالعرب الذين انتصبوا امام المذياع والتلفاز لمراقبـة نتـائج الانتخابـات الإسرائيليـة، الا ينتظـروا اربع سنوات اخرى، ليشهدوا سقوط نتنياهو، لانه تعبير حي عن صدى الشارع الإسرائيلي، مـن جهـة، ولان الرهان على الزعامة الإسرائيلية تعبير حي عن السقوط العربي.

سيرة حياة نتيناهو لا تعنينا، الا بالمقدار الذي يتشكل من قراءتها وخز الضمير، وردم تداعيات الماضي، بما تعنيه من ضعف وفرقة وتشتت، ودرس وعبرة للمستقبل، ذلك انه سـيعيد صـياغة المـشروع الـصهيوني، باضافات جديدة.

هذه هي قصة حياة بنيامين نتنياهو، لنقرأها من الألف إلى الياء، فلعلها تثير فينا الحمية، وتعيد الينـا صدى "امجاد ياعرب امجاد".

"دار الجليل"

ولد بنيامين نتنياهو في مستشفي "اسوتا" في تل أبيب، بتاريخ ٢٣-١٠-١٩٤٩.

احتفال بذكرى عيد ميلاده جرى في الساحة الواسعة التي كانت تحيط بالبيت العربي الكبير الذي كانت تسكنه عائلته في شارع هبورتسيم/١٢، في حي الطالبية في القدس، وكان آنذاك في الثالثة من عمره كانت تلك فترة تقشف، كانت والدته، تسيلا، تربي الفراخ في الساحة، وفي صباح أحد الايام الحزينة وجد "بيبي"(بنيامين) ان جميع الفراخ ميتة، ويذكر بعض رفاق الطفولة لبنيامين، ان بيت عائلته كان خاليا من الحيوانات الاليفة بسبب معارضة الاب، ولم تكن في غرفته العاب مبعثرة، وكان يسوده السكون الثقيل، بيت كانوا يلعبون فيه الشطرنج، ويتلقون دروساً خاصة في التاريخ من الاب، بيت يختلف عن البيوت الاخرى التي عرفوها، بيت امتاز بالتعليم والانضباط الشديدين، كانت العائلة كلها، مجندة لتهيئة محيط ينطوي على الاحترام والتبجيل للاب، لنشاطه المهني، في اعقاب شعوره بالاحباط، منذ عودته إلى القدس بعد قضاء سنوات عديدة في الولايات المتحدة.

سكنت عائلة نتنياهو في أحد البيوت الكبيرة في الطالبية: بيت خاص يتألف من ست غرف، وكراج للسيارة، وساحة واسعة ومستودع، كانت الغرف مفروشة بالسجاد الذي غطى الارضيات العربية المرسومة واثاث ثقيل ومجمل، وكتب كثيرة، من ضمنها كتب تاريخ وعلوم، باللغتين العبرية والانجليزية، وصحف ومجلات أمريكية، كانت نادرة جداً في البلاد، في تلك الفترة.

كان المدى يتردد دائماً في فناء البيت لذلك كان يتم تحذير الأولاد الذين يأتون للعب مع بنيامين، من رفع اصواتهم، لئلا يزعجوا البروفيسور بن تسيون نتنياهو.

كان وجود الاب في البيت بصورة دائمة، لكن لم يكن أحد يراه تقريباً، كان يشبه الظل الثقيل، كان أولاد الجيران يعرفون، انه إذا لم يكن مسافراً إلى الخارج، سيكون وراء باب مغلق

في غرفة عمله، لم يعتد الظهور والتحدث اليهم، كانوا يرونـه احيانـاً يقـف عـلى الـشرفة، غارقـاً في التفكـير، وحينما فشل بنيامين ذات مرة في اسكات رفاقه الذين دخلوا إلى البيت، لطمته امه على وجه بشدة.

اعتاد أولاد حي الطالبية اللعـب جماعـات حتـى الغـروب، في الـشوارع التـي لم تكـن آنـذاك مكتظـة بالسيارات، وفي الحقول الفتوحة وعلى الرغم من الخلفية اليمينية للاب، لم ينـضم الابنـاء الثلاثـة إلى حركـة الشبيبة "بيتار" مثل "الامرا" الحقيقيين في حركة "حيروت" دان مريدور، وشقيقه سالي، أو روبي ربلين.

كان أولاد نتنياهو اعضا في قبيلة (سبط) "متسادا" التابعة لحركـة هتـسوفيم (الكـشافة) وقـد بـرز في حركة الشبيبة بشكل مميز شقيق بنيامين، (يوني) الشقيق الاكبر لبنيامين، الذي اصـبح اسـطورة في القبيلـة، كما ان رجل التلفزيون، ميخائيـل كـرفين، قائـد كتيبـة "همعبيلـيم" يتـذكر جيـداً ايـضاً، الكـشاف، بنيـامين نتنياهو، بني بيغن، مريدور، ربلين، وبقية العائلات الكبيرة التابعة لحركة حيروت لم تكن تعرف ابنـا عائلـة نتنياهو.

ان سيطرة نتنياهو على "الامراء" في الليكود، والاذلال الـذي حـاول ان يلحقـه ببنيـامين بكـل مـن دان مريدور وبني بيغن، اثناء تشكيل الحكومة الجديدة، يمكننا اعتباره شيئا من تـصفية الحـسابات العائليـة - الداخلية التي كانت بدايتها في عام ١٩٤٨.

حسب اقوال، بيبي، كان الاخوان الثلاثة ابناء نتنياهو، مجموعة متراصة جداً، اندمجت جيـداً في واقـع الشارع، لكن رفاق طفولته، والذين لا يزال على اتصال مع بعضهم حتـى اليـوم، لا يـستطيعون ان يتـذكروا هذا.

ولد، يوني، بيبي، وعيدو، بفارق ثلاث سنوات بين الواحد والاخر، وزمـلاء بيبـي، يذكرونـه كواحـد مـن شلة تضم خمسة أولاد، نمت معاً منذ المدرسة:

عوزي بيلر (اليوم، بروفيسور في الطـب)، والـدكتور جـابي فيكـر، ورجـل التلفزيـون، اليعيـزر يعـاري، واريئيل برزيلاي الذي قتل في حرب "يوم الغفران" "حرب تشرين".

كان جميعهم أولاداً جيدين من عائلات منتظمة، لكنهم يختلفون ايديولوجياً عن البيت الذي ترعـرع فيه نتنياهو.

كانت هنالك نقاشات سياسية بـين أولاد الـشلة الـصغيرة، لكـنهم يـذكرون احـداث الـشباب في الحـي والكشافة ومعسكرات العمل في الصيف، اما نتنياهو فيذكره زملاؤه كولد مختلف قليلاً، لم يكـن ابـداً ولـداً حقيقاً، كان جدياً، رابط الجأش، وكل من كان يعرفه في طفولته، يذكره بهـذه الـصفة: "لم يكـن ولـدا ابـداً". لقد وصفوه بأنه كالذي كان يركبه ظل دائما، أي ما يشبه البلوغ قبل الأوان.

وفي الرسالة التي بعث بها يوني إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس عشر، كتب الشقيق الأكبر يقول، انـه لا يستطيع ان يصدق ان هذا هو عمره الحقيقي: "لانك كنت دائما تبدو لي اكـبر بكثـير مـما انـت عليـه في الحقيقة"، كان ٤٤ طالباً يدرسون في صف بنيامين نتنياهو في مدرسـة "دروم يوميـات مدرسـة تلـك الفـترة، اواخر الخمسينات، تعكس لنا شريحة سكانية اشكنازية ثرية، كان معظم الطـلاب "ابنـاء ذوات"مـع رغبـة قوية في التميز.كان هناك،عوزي ابن البروفيسور اهارون بيلر،المحامي يئير جولن،ابن القاضي موشـه جـرلن، ونحما كوبر، ابنة الدكتور يوسف كربر، وبنيامين نتنياهو ابن البروفيسور مؤلف الموسـوعة العبريـة، وابنـاء كبار الموظفين في المجلس البلدي، ووزارة الخارجية، والصحفيين وغيرهم، ولكـن كـان يـدرس إلى جـانبهم في نفس المدرسة، ابناء الفقراء والعاملين في الخدمات ايضاً.

كان الثلث فقط من الامهات يعملن خارج البيت، وفي كافة البيوت تقريبـا، كـانوا يتحـدثون بلغتـين، عـلى الاقل، العبرية والايدش، وكان القليل منهم يتحدثون العبرية والعربية.

امـا ملـف التلميـذ بنيـامين نتنيـاهو، فكـان الوحيـد المـسجل فيـه: "في البيـت يتحـدثون اللغة العبرية فقط". الجميع، يعرفون ويـذكرون ان بيبـي عـرف اللغـة الانجليزيـة، وتعـرف عـلى أمريكا، في سن مبكرة جدا كما كان بيبي مختلفا دائما في لباسه عـن زملائـه، كـان مرتبـا وملابـسه

مكوية، والجميع يذكرونه بانه كان اديبا جدا في تعامله مع الكبار، وقليل الكلام، ولا يعرب عن مشاعره الا قليلا. حينما كان بيبي في الصف الثاني، سافرت عائلته إلى الولايات المتحدة، ثم عاد إلى الدراسة في الصف الرابع الابتدائي، اما المربية التي رافقت الطالب

نتنياهو، حتى نهاية الرحلة الاساسية فهي روث روبنشتاين وفي ملفه الذي عثرنا عليه في ارشيف بلدية القدس، وكان يعود للصف السادس، عام ١٩٦١، حصل التلميذ بنيامين نتنياهو، من المربية روبنشتاين على علامات عالية جدا، في كافة مواد المطالعة، كما امتاز في موضوع الغناء ايضا لدى المعلم فكطال.

وصفت المربية روم بنشتاين التلميذ نتنياهو بأنه "مجتهد، نشيط، وسريع الاستيعاب"، واضافت انه "مؤدب، يساعد والديه، ويكثر من القراءة".

اما بالنسبة للعمل في المدرسة فقالت انه "مسؤول، دقيق في التنفيذ والوقت". وحول قدراته تقول: "انه اجتماعي، منضبط، ضحوك، جريء، نشيط، ومنفذ للتعليمات".

يقول نتنياهو، ان امه تسيلا، كانت تقول، ان ابنها الأكبر سيكون كاتباً، والثاني رساماً، والثالث طبيباً، ولم تتوقع لاي منهم مستقبلاً سياسياً.

وقال بنيامين نتنياهو في مقابلة مع صحيفة يديعوت احرونوت: ان ابي لم يكن يرغب في دخولي إلى الحياة العامة، لم يعتقد بأن هذه فكرة جيدة، كنا اسرة غير سياسية ابداً، كنا نفكر فقط بالتعليم والحياة الاكاديمية، غير ان بعض رفاقه في المدرسة، يؤمنون بأن الضربة التي تلقاها الاب من حزبه، وتنكره للسياسة بالذات، هما اللذان شحنا نتنياهو بالطموحات السياسية والتي اصبحت فيما بعد يمينية متطرفة، حيث يقول أحد زملائه: كان مجادلاً كبيراً في المواضيع السياسية لم تكن آراؤه مبلورة ومتطرفة فحسب، بل كانت ترتكز على نظرة استعلاء كان يخفيها في البيت، نتيجة للاحباط المهني والسياسي لوالده، كان واضحاً بالنسبة له، ان من لا يفكر مثله، يكون مخطئاً.

ويقول زميل طفولة اخر: كان ابوه يعيش، ولديه شعور دائم بـالظلم، والقـى بطموحاتـه عـلى كاهـل ابنائه، فوسط مشاعرهم الطفولية، كانوا يشعرون بضرورة النضال بدلاً منه، لاسترداد كرامته المهدورة".

ففي مقابلة شخصية مع ليفنا برزيل، في "يديعوت احرونوت" وجـه نتنيـاهو-بـصورة نـادرة - انتقـاداً شديداً لطريقة التعليم التي تلقاها من والده: "ترعرعت مع فكرة اهمية استثمار كل ما لديك من جهـود، فيما تفعله، أي الميول إلى تسخير كل ما تملك للعمل، وتبين لي في السنوات الاخيرة ان هذه طريقة مغلوطة، حيث ان البعد الشخصي والاسري، هما جزء مهم جداً في الحياة.

وعن امه، قال نتنياهو في نفس المقابلة: كانت امي متعمقة وعملية جداً، لقد اعطتنا قـدراً كبـيراً مـن الاستقلالية، وتركت العمل التربوي ليوني.

كان يوني نتنياهو، يرى في نفسه، انه فعلاً هو المربي لاشقائه الصغار، حيـث كانـت اللــهجة التربويـة ملموسة في جميع رسائله اليهم، اثناء مرحلتي طفولتهم وشبابهم.

وكانت تلك الرسائل تعبر عن حرارة ومحبة غير عـاديتين، كـان يكـنهما لـشقيقيه، ويقـول أحـد زمـلاء بيبي: كان مهماً جداً، بالنسبة ليوني وبيبي، ان يظـلا متفـوقين في الدراسـة، طيلـة الوقـت، وان يـستحقا ان يكونا ابنين لوالديهما، وربما كان عيدو الصغير هو فقط الذي استطاع التحرر قليلاً من هذه اللعبة العائلية.

في عام ١٩٦٣، أبلغ بن تسيون وتسيلا نتنياهو، ابناءهما الثلاثة ان العائلة ستسافر إلى فيلادلفيا، حيث حصل الأب على وظيفة تعليمية في كلية دربي، في تلك المدينة، اضافة إلى عرض لتأليف "موسوعة يود اياكا" (مجموعة الكتب المؤلفة للشؤون اليهودية، باللغات الاجنبية)، باللغة الانجليزية.

ويحـــرص نتنيـــاهو عـــلى التأكيـــد، ان الـــسفر كـــان اجباريـــاً، نظـــراً لحـــصول الاب عـــلى عمـــل في الولايـــات المتحـــدة، امـــا العائلـــة فتقـــول انـــه في اعقـــاب تنكـــر المؤســـسات الأكاديميـــة الإسرائيليـــة

للاب نتنياهو، لم يكن امامه خيار سوى المغادرة إلى الولايات المتحدة، ومن المشكوك فيه، ان تكون عائلة نتنياهو تصف سفرها بأنه "هجرة معاكسة" ولكن، في حقيقة الامر، استمرت اقامة بن تسيون وتسيلا نتياهو في الولايات المتحدة،١٤سنة متواصلة.

لقد شحذت السنوات التي امضاها نتياهو في الولايات المتحدة، والزيارات الفصلية التي كان يقوم بها لإسرائيل، الشعور بالتميز لديه، حيث اصبح ابطاله التربويون من الأمريكيين، غير ان حاضره ظل إسرائيلياً جداً، وكان اسير فكرة ان عائلة نتنياهو هي الميل الإسرائيلي لعائلة كندي، وبعد ذلك ببضع سنوات، تعزز التشابه بين العائلتين، حينما سقط يوني في ساحة المعركة، مثلما سقط الاخ الأكبر من بين ابناء عائلة كندي الاربعة، جوزف كندي كطيار مقاتل في أوروبا.

كان نتنياهو، اثناء وجوده في الولايات المتحدة، على اتصال دائم مع زملائه بالمراسلة، وكان اثناء السنة الدراسية، يعمل في مطاعم محلية لكي يوفر المال اللازم لرحلاته إلى إسرائيل، في كل عطلة صيفية، مثلما كان يفعل شقيقاه ايضا، وكان يسكن اثناء الاجازة في بيت صديقه الجيد، عوزي بيلر، وكان الامدقا، العيدون يتظرون كل سنة، قدوم بيبي، وامتبارا من ا- التاسع، كانت تنتظره ايضاً ميكي، مريام فايسمان، التي اصبحت جزءاً من الشلة، وزوجته فيما بعد، وام ابنته، عومة.

ويقول أحد الاصدقاء عنها: "كانت جميلة، متفوقة في الدراسة، صلبة، وحريصة على نفسها جدا، وباردة، مثله في اثناء العطلة الصيفية كانا معاً، وحينما يسافر تبقى تنتظره، كلنا رافقنا هذا الغرام، الذي اضفي هالة اخرى، على مكانة بيبي".

لم تكتف "الخماسية المرحة" بمعسكرات العمل وجولات الكشافة، بل اعتادوا الاتصال بالكيبوتسات بمبادرة منهم، وكانوا سعداء حينما يدعون للعمل هناك.

كان أحد معسكرات العمل تلك، في كيبوتس جيشر، في غور الأردن، حيما كانوا في السادسة عشرة من اعمارهم، ووصل نتنياهو إلى هناك وهو يعاني من مشكلة في الركبة، يقول

أحد زملائه: لكن كانت لديه قوة ارادة غير عادية ومثابرة هائلة، انني اتذكره، كان في نهاية كل يـوم عمـل، يجلس ساعات طويلة على الخزانة في الغرفة، ويمرن رجله بتمارين العلاج الطبيعي.

ان الزمالة بين نتنياهو وبين نواة الطفولة المقدسية، ظلت مستمرة طيلة الوقت ولا تـزال قائمـة حتـى اليوم، رغم ان معظم اعضائها هم اليـوم عـلى الجانـب الثـاني، مـن المـتراس الـسياسي، وسـيظلون يـسمونه "بيبي" على الرغم من طلبه الصريح، منذ بدء الحملة الانتخابية، بأن يدعوه بنيامين.

ويقول أحد رفاق الطفولة: "اعتقد ان بيبي تطور كثيراً من انتقال عائلته إلى الولايات المتحدة، لكننـي اعتقد انه تضرر جداً على صعيد المشاعر، فالرحلات المتكررة بين إسرائيل والولايات المتحدة، جعلته معـزولاً في المجتمعين، هناك وهنا، وهذه العزلة ساهمت في رسم عالمه الشعوري وشـحذت شـعوره عـدم الانـتماء الكامل. لديه في المجتمعين (الأمريكي والإسرائيلي)، لقد جعلته يهوديـاً مـشرداً، مـثلما حـدث لابيـه، وكانـت ملموسة جدا لديه في مراحل لاحقة، من حياتـه، في الفـترات مـابين، حـالات زواجـه المختلفـة، وفي الحـزب، وحتى الآن، اثناء تشكيل الحكومة.

ادى السفر إلى الولايات المتحدة، إلى تفكيك الاسرة حيث عـاد يـوني بعـد حـوالي سـنة ونـصف الـسنة للخدمة في الجيش الإسرائيلي، ثم لحق به بيبي وعيدو، بينما بقي الوالدان في الولايات المتحدة وكانـا قلـيلاً ما يأتيان لزيارة إسرائيل.

وفي كانون ثان ١٩٧٥، بعد مضي ١٢ سنة على انتقال عائلة نتنياهو إلى الولايات المتحدة واثناء تعرضـه لحالة من الحنين إلى الماضي، كتب يوني إلى ابويه رسالة مليئة بالشوق والذكريات الحارة، عـن الفـترة التـي عاشتها العائلة في شارع "هبورتسيم" في القدس.

ورد الابـوان عـلى هـذه الرسـالة، برسـالة تحمـل عاصـفة مـن المـشاعر الجياشـة. في قاعـة الـدخول في المدرسـة الثانويـة "توتلنهـام" الواقعـة في ضـاحية فـاينكوث القريبـة مـن فيلادلفيـا،

توجد صورة ملونة صغيرة، خلف لوحة زجاجية، لرئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد، بنيامين نتنياهو، وتحت الصورة، بطاقة مكتوب عليها سطران على الآلة الطابعة بنيامين نتنياهو، دفعة عام ١٩٦٧، انتخب للتو لرئاسة الحكومة في إسرائيل.

لقد وصلت عائلة نتنياهو إلى فاينكوث في اواخر صيف عام ١٩٦٣، كانت عائلة مقدسية، كان ابناها الأكبر يوني١٦ سنة وبيبي ١٧سنة، يكرهان الانفصال عما تركاه خلفهما: الشلة من الحارة ومن المدرسة، اللغة، والواقع.

وفي فاينكوث، التي تبعد مسافة عشر دقائق سفر فقط، عن فيلادلفيا، وفيها جالية يهودية ثرية وكبيرة، قدم لعائلة نتنياهو، بيت واسع وجميل مع حديقة، وتلفزيون ملون، من كان يسمع بمثل هذه الاشياء في القدس المتواضعة في مطلع الستينات؟

على صعيد مستوى الحياة، كانت فيلادلفيا، انتقالاً إلى الأحسن، اقامت عائلة نتنياهو في بيت حجر من طابقين، مع حديقة، يمثل الصورة الكلاسيكية، للطبقة الأمريكية المتوسطة.

وكانت وظيفة بن تسيون، كمحاضر في التاريخ في كلية درومنسي، تعيل العائلة بمستوى جيد من الرفاهية.

لا تعتبر درومنسي ضمن الكليات البارزة والراقية في الولايات المتحدة، وكان بن تسيون مؤمناً،بأن شخصاً باحثاً مثله، يستحق عرضاً افضل، وفعلاً بعد بضع سنوات، حصل على وظيفة في جامعة راقية وكبيرة، هي جامعة "كورنل" في بلدة اتاكا، في شمال ولاية نيويورك.

كان الشعور بالغربة والتنكر وعدم الانتماء لدى الولدين الكبيرين لعائلة نتنياهو ملموسا في رسائلهما إلى زملائهما في القدس، وبخاصة بنيامين "بن"- حيث لم يكن أحد يدعوه في الرحلة الثانوية بإسم "بنيامين"، أو "بيبي" فالمعلمون والتلاميذ يتحدثون عن السور الخفي الذي بناه حول نفسه، وبخاصة في كل ما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية.

يقول دان سلتسر، زميل بنيامين في الصف وفريق كرة القدم: "لم اذكر انني رأيته في حفلات الصالونات، في نهاية يوم السبت، كنا أولاداً مدللين، إلى درجة كبيرة، إلى جانبه".

حينما كان زملاء – "بن" يتواجـدون في الحفـلات كـان يفـضل هـو مطالعـة كتـاب في البيـت، وكانـت نشاطاته الوحيدة في المدرسة، خارج اطار التعليم، كرة القدم، ولعبـة الـشطرنج، وكـان متميـزاً في الاثنتـين، وكان في حالات نادرة فقط، يخرج بصحبة صديق من حركـة "هـشومير هتـسعير" المحليـة، ومـع زميلـه في الصف، يهودية لحضور فيلم في السينما المحلية، وبعد ذلك تناول الكوكا كولا، والشيبس.

كان اصدقاؤه الوحيدون، هم اولئك الذين كانوا يبدون اهتماماً بالشيء الذي يثير اهتمامه هو - إسرائيل.

قالت زميلته على مقعد الدراسة، زلدا راين شثيرن في مقابلة مـع صـحيفة محليـة، الاسـبوع المـاضي: "كان (بن) يتوق إلى إسرائيل بصورة فظيعة كنا طيلـة الوقـت نتحـدث عنهـا، عـن فكـرة الـوطن للـشعب اليهودي، كان يبدو احياناً جدياً إلى درجة مخيفة، حينما كنا نتناول الحديث حول هذه المواضيع.

وفي احدى المرات، شكوت اليه، بأن والدي طلبا مني البقاء في الاعياد اليهودية، وخسرت بسبب ذلـك، امتحانات ودروسا.

وقال لي "بن" انني يجب ان اكون فخورة بهذا، وانه مهم جدا المحافظة عـلى التقاليـد اليهوديـة"، امـا معلموه، فكان واضحا لهم، ان بنيامين هو شاب بالغ ضمن مجتمع أولاد، وتقول معلمـة الادب الانجليـزي، ماري بنشنر، كان بنيامين يدرك كم هو أكثر بلوغاً من زملائـه في الـصف، وان مـا يـشغلهم، لا يـشغله هـو، وببساطة، لم يجد معهم لغة مشتركة.

كانت حرب فيتنام، حينذاك، في ذروتها، وكـان زمـلاء بنيـامين يخـشون اللحظـة، التـي يجنـدون فيهـا ويرسلون إلى هناك، وكانت تلك المشاعر والمخاوف لديهم، غير مفهومة، بالنسبة لبنيامين نتنياهو، ربما كـان ذلك "تعبيرا عن الدلال الأمريكي".

يقول معلمه في التاريخ، بوب ستراتون: "كانت له هوية واضحة: كان إسرائيلياً ووطنيـاً متعـصباً، كـان التناقض بينه وبينهم مدهشا".

اما عن المشاكل الانضباطية لدى بنيامين، فلا مجال للحديث ابداً، حيث حينما طرحنا هـذه المواضـيع امام معلميه، ردوا علينا بالضحك المثير للدهشة قائلين: لم يكن لديه وقت لهذا"، كان يعرف ما يريد، وكـان واضحاً بالنسبة له، انه يسير نحو تحقيق ذلك، حتى عندما اطـال زمـلاؤه في الـصف شـعور رؤوسـهم عـلى طريقة "البيتلز"ظل هو على القصة المحافظة. وماذا بالنسبة لعلاقته مع الفتيات؟.

تقول المعلمة بنثنتر انه كان شاباً جميلاً، وكانت البنات في المدرسة معجبات به جداً، لكنه لم يكن ابداً يستغل شعبيته لدى الجنس الاخر، بالعكس، كان منضبطاً وخجولاً تقريباً، لم تكن له صديقة دائمة.

كان ابناء نتنياهو يأتون إلى المدرسة، في سيارة الباص، واحيانا بسيارة العائلة، في حين كان كثـيرون مـن زملائهم يأتون بسيارات ثمينة اشترتها عائلاتهم لهم غير ان بنيامين لم يكن يقدر هذه الامور بشكل خاص.

إذا كان نتنياهو يواجه بعض المشاكل في مجـال الانـدماج الاجتماعـي، فقـد كـان مـبرزا عـلى الـصعيد الدراسي، حيث ابقى الجميع، تقريباً، على مسافة بعيدة خلفه.

ويقول، سام ستيرن، زميل بنيامين في الدراسة ومعلم لمـادة الجـبر حاليـاً، في نفـس المدرسـة: "تريـد ان أُلخص لك الموضوع؟ حينما كان "بن" يشير، كنا جميعا نحضر الاقلام لتسجيل كل كلمة، ببساطة، كنا نعرف ان ما سيقوله، هو الجواب الصحيح"، ان الحقائق تتحدث عن نفسها، فالفتى البـالغ مـن العمـر ١٤ سـنة، الذي وصل إلى الولايات المتحدة، مع لغة انجليزية معقولة ولكن بلهجة إسرائيليـة واضـحة، اصـبح يكتـب ويتحدث اللغة الانجليزية بصورة متكاملة تقريبـاً، في غـضون وقـت قـصير، ولم تعـد اللـــهجة الإسرائيليـة ظاهرة فيها، وكان ذلك نتيجة لجهد كبير واستيعاب سريع جداً، وكانت علاماته في المرحلـة الثانويـة ثابتـة، (جيدا جدا فما فوق)، فقد انهى الصف الثاني عشر في المرتبة الرابعـة في الدفعـة، وفي الامتحانـات النفـسية

تمهيداً للإلتحاق بالجامعة، جاء ترتيبه ضمن العشرة الثانية في الدفعة، وتجدر الاشارة إلى ان مدرسة توتلنهام، كانت حينذاك احدى افضل المدارس في ولاية بنسلفانيا.

تقول صديقة مقربة من عائلة نتيناهو: "كانت هناك آمال كبيرة علقها الوالدان على ابنائهم، لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى ممارسة الضغط عليهم، صحيح ان الوالدين، وبخاصة الاب بن تسيون كانا كثيري الالحاح، لكنهما لم يكونا من صنف الوالدين اللذين يفترضان انضباطاً صارماً في البيت، ويطلبان من أولادهما علامات عالية فقط، فقد كان يوني، و"بن" ايضاً يحبان الدراسة، لم تكن هناك ضرورة لارغامهما، بل العكس، كانا يطلبان المزيد".

كما تشير هذه الصديقة إلى حقيقة ان الاب لم يكن يرى انه يجب ارسال ابنائه للدراسة في مدرسة يهودية، لكن بنيامين عاد إلى إسرائيل، ولديه معلومات عظيمة في التوراة واليهودية، وكل هذا حصل عليه من ابيه، الذي كان يدرس ابناءه بنفسه".

المعلمون والزملاء في المدرسة، يتذكرون بنيامين، ليس فقط بفضل تفوقه في الدراسة، بل لما امتاز به من الوضوح والصفاء الفكري، فقد كان يكتب بصورة مدهشة، وكان يعرف ما يكتب، لانه كان يطالع كثيرا جدا، ولكن المعلمة بنثنتر، وغيرها من المعلمين كانت متأثرة كثيرا بقدرة بنيامين على بلورة موقف والتمسك به، حتى لو كان مختلفا، أو غير شعبي، كان يستمتع بتبني رأي مختلف، والدفاع عنه.

غادر بنيامين نتنياهو المدرسة الثانوية "تشلتنهام" دون ان يودع زملاءه، ففي ٧ حزيران ١٩٦٧، اليوم الثاني لحرب الايام الستة، وبينما كان يجري الاحتفال بمنح شهادات التخرج لطلاب الدفعة، كان بنيامين قد اصبح في إسرائيل، فقد غادر المدرسة قبل شهر من الموعد الرسمي لانهاء السنة الدراسية، لكي يلتحق بالجيش.

وتقول معلمته بنثنتر ان احداً لم يفاجأ حيث كان واضحاً بأن مكانه هناك، فقد كان يقول دائماً، انه يريد ان يعمل لصالح دولته، وانا متأثرة جداً بحصوله على هذه الفرصة.

في صيف عام ١٩٧٢، بعد خمس سنوات من الخدمة في وحدة استطلاع هيئة الاركان العامة، تم تسريح النقيب بنيامين نتنياهو من الجيش الإسرائيلي.

كان جندياً جيداً وضابطاً جيداً، لا أكثر من هذا ولا اقل، فهو لم يترك وراء جنودا مغمى عليهم من شدة تقديرهم لقائدهم الذي يغادرهم، مثلما لم يترك بصماته في التمارين أو العمليات، التي قامت بها الوحدة، مثلما لم ترو حوله القصص اثناء الخدمة، ولا الأساطير التي جرى تضخيمها في السنوات الاخيرة، كما انه لم يكن كمن اشير اليه، بأنه مناسب ليكون رئيساً للاركان العامة، ولكن، من جهة اخرى، يجب التاكيد، على انه، على مدى عشرات السنين، من عمر الوحدة، ثمة عدد قليل فقط وصلوا هذه المرتبة، عميرام ليفين يحمل رتبة لواء حالياً، كان احدهم، واولئك الذين خدموا تحت قيادته، ناهيك عن الحديث عن الاجيال التي جاءت بعده، لم يتعبوا من الحديث عن عجائبه، وكذلك ايهود براك كان هكذا، وموشيه يعلون، اليوم برتبة لواء ورئيس لشعبة الاستخبارات العسكرية، وغيرهم.

تجند بنيامين نتنياهو في الجيش الإسرائيلي في شهر آب ١٩٦٧، بعد انتهاء حرب الايام الستة بقليل، وكان وصل إلى إسرائيل وحده، حيث عثر عليه رجال الوحدة (وحدة الاستطلاع) في قاعدة الاستيعاب والتصنيف، وجرى ضمه إلى مجموعة المستجدين المخصصين للوحدة.

في آب١٩٦٧، كان عدد قليل جداً من الشباب يسمعون عن وحدة استطلاع هيئة الاركان العامة، واقل منهم الذين كانوا يعرفون ماهية طبيعة هذه الوحدة، فقد كانت الوحدة محاطة بستار من الغموض، كان هناك من وصلوا إلى الوحدة عن طريق العلاقات العائلية أو الاصدقاء، اما بالنسبة لبنيامين نتنياهو، فكان الامر مختلفا: طاقم كبير، برئاسة داني يتوم، (رئيس الموساد الحالي)، اقام خيمة صغيرة في طرف قاعدة الاستيعاب والتصنيف، تحت ظل شجرة كينيا، وكان رجال الوحدة يتجولون في القاعدة ببرياتهم الحمراء،ويفحصون من هو المجند المناسب لارساله إلى الخيمة، وهناك كان ضابط كبير من الوحدة، وربما قائدها

شخصيا، هو الذي يقابل المرشحين للإلتحاق بها، وكان عوزي يئير، الذي قتل بعد سنوات في عملية فندق سافوي، هو الذي قابل بنيامين وقرر ضمه إلى الوحدة.

كان المستجدون يمضون حوالي اسبوعين في قاعدة الاستيعاب والتصنيف قبل بدء فترة التدريب، في تلك الفترة، كانوا يقومون بأعمال للمحافظة على اللياقة البدنية، وبينما كان الجميع يركضون في كل مساء مسافة ٢ كم، كان نتنياهو يركض٤ كم كان يتمتع بلياقة بدنية أدهشت أفراد الطاقم جميعهم.

أمضوا فترة تدريب المستجدين في إطار المظليين، وكانوا على مدى أربعة اشهر تقريباً، ينصبون الكمائن على طول الحدود الطويلة التي نشأت بعد حرب الأيام الستة.

أما المرحلة المشهورة للوحدة، فقد بدأوها في حيفا١٢٠ كم، ٤٢ ساعة سيراً على الأقدام، دون توقف وفي هذه المرحلة جرى تقسيمهم إلى طاقمين. كان عميرام ليفين، هو الذي قاد الطاقم الذي ضم بنيامين وأنهوا الرحلة في قاعدة الوحدة، وبدأوا الخدمة.

وصل إلى الوحدة، حوالي ٢٠ شخصاً، مقسمين إلى طاقمين عملا بصورة متوازنة، واحياناً معاً، وفي النهاية أصبحا طاقماً واحداً بقيادة ليفين.

وكان من بين المجندين، في طاقم ليفين بنيامين نتنياهو، ومن خلال القصص حول شخصية الجندي بنيامين، والضابط فيما بعد، يتضح أنه كان إنضباطياً جداً، حريصاً ذا طاقة ودوافع غير عادية، حتى داخل وحدة كهذه.

في أحد اللقاءات الأخيرة لأعضاء الطاقم، استنكر عميرام ليفين بقوله: أن نتنياهو جاء إلى الوحدة ولم تكن لديه أية معلومات في الملاحة البرية، اذ لم تكن لديه خلفية كيبوتسية، ولم يشترك في رحلات الحركة، ولم يتسن له الأطلاع على خارطة لمقياس٥٠,٠٠٠/١، ولكن حينما بدأ بتعلم هذا الموضوع، إنكب عليه بجديته البالغة التي أمتاز بها، وأصبح واحداً من افضل المتفوقين في هذا المجال. لقد برز "بيبي" بشكل خاص بقوة ارادته وكانت قدرته

تتحسن مع مرور الوقت. وبنيامين هو اعسر حيث يستخدم يده اليسرى، في كافة الاعمال الفنية، وفي مرحلة لاحقة، حينما قاد الطاقم بنفسه، كان يميل للأعتماد، بشكل خاص على ذوي القدرة الفنية.

يقول مرؤوسوه، أنه كان مؤدباً ومهذباً، خلافاً لزملائه الإسرائيليين فهو لم يتفوه أبداً بألفاظ سيئة ولا يستخدم الشتائم التي كانت دارجة في أوساط جنود الوحدة. ويقول ميخائيل، أحد افراد الطاقم :

لم نكن نجري نقاشاً سياسياً آنذاك، وكل ما أذكره حقاً، هو نقاش دار حول التدخل الأمريكي في فيتنام أنا بصفتي عضواً في حركة هشومير هتسعير، كان هذا الشيء مرفوضاً بالنسبة لي، أما "بيبي" الذي كان قد جاء من الولايات المتحدة منذ فترة قصيرة، وكان يقدر الأمريكيين فقد دافع عن التدخل الأمريكي بأصرار".

ويقول عموس. د :"كل ما أذكره، هو أنه حينما كان الجميع منهكين في السيارة بعد التدريب، أو كنا في طريقنا إلى عملية، كان "بيبي" ينفرد بشخص ما في زاوية، ليلقي عليه محاضرة في موضوع معين، ولو كان علينا ان نتكهن مستقبل بنيامين لقلنا حينذاك أنه سيكون أكاديمياً قطعاً.

وحدة استطلاع هيئة الأركان العامة، تابعة لشعبة الأستخبارات العسكرية، والغالبية العظمى من عملياتها سرية، حتى يومنا هذا، غير أن بعض العمليات التي شارك بنيامين فيها، سمح بنشرها فقد اشترك كجندي في الهجوم على مطار بيروت، عام ١٩٧٢، في أعقاب اختطاف طائرة "العال" الإسرائيلية إلى الجزائر، حيث تم نسف ١٧ طائرة ركاب تابعة لشركات طيران عربية، وكانت العملية بقيادة رفائيل ايتان، قد نفذتها وحدة استطلاع هيئة الأركان العامة مع وحدة استطلاع المظليين، ويقول أحد المشتركين في العملية : جميعنا كنا نتجول هناك بالبريهات الحمراء. لم يكن أي منا يلبس الخوذة الفولاذية فقد اراد رفائيل ايتان أن يعرف العالم، بأن المظليين الإسرائيليين، كانوا في بيروت".

وفي صيف ١٩٦٩، نفذ طاقم وحدة استطلاع هيئة الأركان العامة، عملية معينة في منطقة قناة السويس، وكانميناحيم دجلي قائد الوحدة، قد قرر تكرار العملية، أما المصريون الذي تعلموا درساً، على ما يبدو من العملية الأولى فقد نصبوا كميناً وحينما نزلت القوة الإسرائيلية إلى الماء، تعرضت لاطلاق نار كثيف. وأثناء الأنسحاب أصيبت الزوارق، ومن بينها الزورق الذي كان فيه بنيامين، وصدرت الأوامر بالقفز إلى المياه، وبنيامين الذي كان يحمل رشاش "ماج" الثقيل وصناديق المعدات ايضاً، بدأ يغرق في مياه القناة، وتم إخراجه من الماء، بينما كان خائر القوى.

في تلك السنوات، في ذروة حرب الأستنزاف، نفذت الوحدة عمليات كثيرة جدا، كانت تصل أحياناً إلى عدة عمليات في الشهر الواحد.

أراد عميرام ليفين، أن يرسل بنيامين للأشتراك في دورة ضباط، لكن بنيامين رفض في البداية، وقال : سأتيكم بضابط جاهزة أخي "يوني".

كان يوني قد اشترك في دورة ضباط مظليين ثم سرح من الخدمة، وعاد إلى الولايات المتحدة للدراسة، لكنه أقتنع أخيراً، واشترك في دورة الضباط التي أنهاها كضابط متفوق، وفي تلك الأثناء، جاء يوني إلى الوحدة ايضاً في البداية عمل في إطارالطاقم الذي يقوده شقيقه الأصغر، ثم تسلم قيادة طاقم منفصل. وفي عام ١٩٧٢ اشترك الضابطان من عائلة نتنياهو في أنقاذ الرهائن من طائرة شركة"سفنا" التي أختطفت وارغمت على الهبوط في مطار اللد. وأصيب بنيامين في يده، أثناء العملية، من نيران القوات الإسرائيلية.

كما سبق أن شارك في المحاولتين اللتين سبقتا اختطاف الضباط السوريين في لبنان، الذي أدى في نهاية الأمر إلى أطلاق سراح الطيارين الإسرائيليين، الذين كانوا اسرى لدى السوريين.

كانت العلاقة الوثيقة بين الشقيقين، بارزة جداً. وفي وقت لاحق، أصبح الأشقاء الثلاثة ابناء عائلة نتنياهو، يخدمون في نفس وحدة الأستطلاع بعد تجنيد الأخ الأصغر عيدو للجيش، وأصبح الثلاثة طاقماً يصعب اختراقه.

ويقول معظم الذين خدموا تحت قيادة بنيامين، أنه كـان قائـداً حريـصاً،يهتم بـأدق التفاصـيل لكنـه يعتمد على رجاله، ويؤكدون أنه كان مستقيماً جدا.

يقول تسفيا: "حينما عدنا من أحدى العمليات في لبنـان، إكتـشف بنيـامين أن جميـع الجنـود تقريبـاً يحملون في جيوبهم اشياء للذكرى،مثل منفضة سجائر مذهبة وغيرها، وقد غضب كثيراً، ثم أمر بجمع كـل ما لدى الجنود، والتخلص منها، كما أصدر أمراً واضحاً، بان طاقمنا لا يأكل مجاناً في أي مكان، وهو أمركـان مألوفاً آنذاك،أحياناً بعلم اصحاب المطاعم،وأحياناً لا.

ويجمل أفراد الطاقم على وصفه بانه كان "جدياً جداً و نظيفاً جداً".

لم يتذكر افراد طاقم نتنياهو، أية مجادلات سياسية ويقولون أن النقاش كان يدور دائماً، حول مواضيع مثل كميات المياه التي يجب أن تسقى بها مزارع الموز، وكم يساوي يوم العمل في الكيبوتس، وهكذا.

ويقول ميخانيل اليوم، "ربما، تكون هناك معجزة ويظهر أنه "بيبي" نفسه، ذلك الذي نتذكره منذ تلك الأيام، الذي يختلف عن رجل السياسة الذي نراه اليوم، كنت أود وآمل أن يحدث، هذا رغـم أننـي أعـترف بأن التجربة أثبتت، أن السياسة تفسد الرجال".

لقد مضت ٢٥ سنة على تسريحهم من الجيش ولا يزال افراد طاقم نتنيـاهو يلتقـون بـصورة منتظمـة ولكن في السنوات الأخيرة فقط، بدأ نتنياهو يحضر هذه اللقاءات.

ويقول يورام:"لم تبق لديه صداقة حميمة. فهو ليس من الاشـخاص الـذين تتكـون لـديهم مثـل هـذه الصداقة، مع أنه ليس بالضابط الذي يترك وراء الأساطير ولكن إذا مـا حـاول أحـد البحـث، فلـن يجـده في الزاوية في كل ما يتعلق بخدمته العسكرية.

عــشرون ســنة والبروفيــسور لينــون جرويــسر يعمــل كمستــشار خــاص للطلبــة الجــامعيين في المعهــد التكنولــوجي في ماســشوستس (إم. إي. تي) لكنــه لم يــنس بعــد، أول لقــاء لــه مــع شــاب

إسرائيلي في الثالثة والعشرين من عمره، قدم نفسه إليه باسم "بن نيتاي"، مثلما لم ينس اللقاء الأخير معه، ولا أحداث الفترة ما بين اللقاءيين.

يقول جرويسير. "دخل علي في أحد الأيام شاب وقال لي. أنه يريد أن يحصل عندنا على درجة (إم.إيه) في الهندسة المعمارية خلال اربع سنوات، لقد سبق لي أن قابلت طلاباً ابدوا رغبتهم في إنهاء الدراسة بأسرع ما يمكن ولكن بمثل هذه السرعة؟. أوضحت له أن هذا غير ممكن لا يوجد من يستطيع النهوض بهذا العبء لكنه أصر سألته عن سبب سرعته إلى هذه الدرجة فقال لي أنه في الثالثة والعشرين من عمره، وأنه أصدر خمس سنوات من عمره في الجيش الإسرائيلي.

قلت له، أنني رغم ذلك، لن أساعدك لأن هذا الأمر لن ينجح اذ كان العديد من الطلبة الذين سبقوه في مثل هذه المحاولة وسرعان ما أدركوا أنها مستحيلة، وأن العبء مخيف لكنه لم يتراجع، وقال أنني أكثر جدية من كل أولئك الطلبة الآخرين. ولا أدري كيف أقنعني بأن أمنحه فرصة لم أصدق بأنه يستطيع القيام بذلك. قلت له هيا نبدأ بخمسة "كورسات" في الفصل، ثم نرى بعد ذلك.

تجدر الأشارة إلى أن معظم الطلاب يواجهون صعوبة في أربعة كورسات، وفي النهاية كانت علاماته ليست جيدة جداً في جميع الكورسات لكنه اجتازها بنجاح حيننذ، اضفنا إليه كورسين واستطاع النجاح.

لا تسألني كيف؟. لقد أنهى متطلبات الدرجة الجامعية الأولى بكالوريوس في سنتين ونصف السنة، وهو ما يحصل عليه الطلاب في أربع سنوات كحد أدنى، وبعد مضي سنتين أخريين، حصل على الدرجة الثانية ماجستير في ادارة الأعمال واشترك في أربعة كورسات تمهيداً لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية، وكان ينقصه فقط تقديم الأطروحة لكي ينال شهادة (إم. إيه) ايضاً في الهندسة المعمارية.

الأطروحة، هي كل ما تبقى بالنسبة له. ولو أراد ذلك، لقدمها دون أي مشاكل، ومنذ ذلك الوقت مـر علي الكثيرون لكنني لم ار مثله.

إنني لا أعتقد بأنه عبقري لكنه لامع. لقد عرفت من هم أكثر المعية منه، واكثر مهارة منـه، في مجـال الهندسة المعمارية بالتاكيد.

لكنه كان ضمن مجموعة الجيدين بين النخبة، مع شيء واحد، كان يميزه عن الجميع، هو أنه كان أكثر الاشخاص الذين عرفتهم طموحاً وتركيزاً، مع استعداد مدهش للعمل بصعوبة، لكي يحقق مايريد، لذا، فأنـا لست مندهشاً ولم يفاجئني وصول "بن نتاي" هذا إلى منصب رئيس الحكومة في إسرائيل وهو في السادسة والأربعين من عمره.

فهذا الرجل، حينما يقـرر بأنـه يريـد شـيئاً، لا يعيقـه شيء، بعـدما شـاهدته في العمـل في بوسـطن في السبعينات، لقد استمر فصل حياة بنيامين في بوسطن٦ سنوات، من ١٩٧٢-١٩٧٨.

كان واضحاً بالنسبة لبنيامين نتنياهو، منذ تسريحه من الجيش الإسرائيلي، أنه سوف يستغل، إلى أقصى حد، الميزات والحقوق العائدة له، كونه مواطناً أميركياً (كـأبن لأم مـن مواليـد أمريكـا). وبفـضل الجنـسية الأمريكية، حصل بنيامين على بعثته بشروط محسنة، وكان باستطاعته العمل فيما بعـد، دون قيـود، خلافـاً للطلاب الأجانب، الذين يصعب عليهم الحصول على تأشيرة عمل. وبعد بضع سنوات، عندما دخـل"بيبـي" إلى الخدمة في سلك وزارة الخارجية، طلب منه التنازل عن الجنسية الأمريكية.

لا يوجد أي دليل على أن نتنياهو خطط للبقاء في الولايات المتحدة. ويقول أحد زملائه في الدراسـة في معهد (إم. إي. تي) ان هذا لم يكن خياراً بالنسبة لنتنياهو أبداً.

تجدر الأشارة، إلى أن بنيامين، قبل أيـضاً في جامعـة هارفـارد، لكنـه فـضل المعهـد التكنولـوجي لأنهـم وافقوا على طلبه، بشأن برنامج دراسي سريع.

لم يكن بنيامين قلقاً بشأن نفقات المعيشة في تلك الفترة، فقد منح المعهد لبنيامين وميكي نتنياهو، شقة في سكن الأزواج، كانت ميكي تدرس لنيل الماجستير في جامعة برنديس، في بوسطن أيضاً، وكانت تكاليف التعليم متدنية جداً، بحيث غطاها بنيامين بحصوله على قرض بشروط سهلة، سدده بعد أنهاء دراسته.

وهب والدا ميكي لمساعدتهما، في حين اشترى والدا بنيامين لهذين الزوجين الشابين، سيارة فولكس فاجن قديمة بـ ٥٠٠ دولار. كما حصل بنيامين على مساعدة كتبرع متواضع من أعمامه، زكاري، واسموس ميلو (ميليكوفسكي) سابقاً، وكانا من اصحاب الملايين اللذين جمعا ثروة من العمل في مجال الحديد.

هناك من يقول أنهما يمينيان متطرفان في آرائهما، حتى أكثر من شقيقهما الأكبر بن تسيون نتنياهو.

يقول الأصدقاء أن ميكي، كانت أكفأ وأنجح واحدة بين الزوجات الثلاث اللواتي تزوجهن بنيامين نتنياهو. كانت ذات عقل تحليلي، لامع وكان لديها حيوية وأنفتاح غطى حتى على زوجها بنيامين.

لدى أندلاع حرب "يوم الغفران"، ترك بنيامين نتنياهو دراسته. في نفس الليلة كان في نيويورك، ولكنه من مسرحي وحدة استطلاع هيئة الأركان العامة، تم ترحيله على متن أول طائرة متوجهة إلى إسرائيل، تحمل المتطوعين ذوي الأفضلية العسكرية الأعلى.

وقاتل في جبهة قناة السويس وهضبة الجولان، وبعد حوالي خمسة اسابيع، أي في شهر تشرين ثان، عاد بنيامين إلى مقعد الدراسة وقد عوض ما خسره، اثناء فترة العطلة ما بين الفصلين الدراسيين.

ومع ذلك، وجد بنيامين وقتاً للإنضمام إلى النشاط الأعلامي، فقد كانت تلك اياماً صعبة بالنسبة للأعلام الإسرائيلي، أيام مقارنة الصهيونية بالعنصرية، في قرار الجمعية العامة للأمم

المتحدة، الأيام التي أستطاعت الدعاية الفلسطينية، داخل الجامعات الأميركية، وضع إسرائيل في الظل، حيث قام نتنياهو وأثنان من الزملاء الجيدين عوزي لنداو(عضو كنيست حالياً)، ويوسي ريمر، بكتابة نشرات إعلامية وزعوها على الطلاب في مختلف الجامعات في بوسطن وسرعان ما وصلت أخبارهم إلى مسامع القنصل العام الإسرائيلي، في بوسطن، كولت ابيطال، التي أعجبت ببنيامين بشكل خاص وعرضت عليه فوراً القاء سلسلة محاضرات مقابل ٢٥ دولاراً لكل محاضرة. وكانت كولت هي التي رتبت لنتنياهو أول ظهور تلفزيوني له في مناظرة مع المثقف الفلسطيني- الأمريكي البروفيسور أدوارد سعيد، في موضوع "هل يجب أن تقام دولة فلسطينية ".

كان بنيامين وميكي يدرسان دون كلل أم ملل. لكنهما كانا يعرفان ايضاً كيف يستغلان كل ما تعرضه بوسطن عليهما، كما كانا يتمتعان بجولات نهاية الأسبوع في الصيف والتزلج على الجليد في الشتاء وكان معظم أصدقائهما طلاباً إسرائيليين.

لقد أنتهت حياة السعادة واصداء الروتين بالنسبة لنتنياهو يوم ٤ تموز١٩٧٦ اليوم الذي قتل فيه شقيقه يوني نتنياهو في مطار عنتيبة، وكل من يعرف نتنياهو بنيامين يقول، أن مقتل يوني أصابه بصدمة نفسية فظيعة ويقول صديق قريب منه في تلك الفترة : ` لقد اصبح انساناً آخر، حتى ذلك الحادث كان شاباً ساذجاً، متفائلاً ومؤمناً، ومنذ تلك اللحظة، اصبح الأنشغال بمقتل يوني يستحوذ على تفكير بنيامين".

لقد غير مقتل يوني، كل سلم الأولويات لدى أخية بنيامين. حيث إحتلت الرغبة في تخليد ذكرى شقيقه المركز الأول في حياته، بينما أحتلت الدراسة المركز الثاني وخلال السنتين اللتين تلتا مقتل يوني، كرس بنيامين جهده ووقته لعدة مشاريع تستهدف تخليد ذكرى شقيقه، من بينها تأسيس معهد يونتان لمحاربة الأرهاب.

وتقول كولت ابيطال، أن بنيامين طلب منها ترتيب لقاء له مع شمعون بيرس وزير الدفاع آنذاك، للحصول على مساعدته في هذا الموضوع.

ويقول بعض الأصدقاء، أن عائلة نتنياهو وخاصة بنيامين، تقدر جداً تعاون بيرس معها، ولن ينسوا ذلك إلى الأبد، ويقول صديق مقرب من العائلة، ان غضب نتنياهو على الجمهور الذي شتم بيرس، أثناء القاء نتنياهو خطاب الفوز في مباني الأمة، لم يكن تمثيلاً بل كان مخلصاً وحقيقياً.

ويقول البروفيسور جروبيسر، أن بنيامين دخل إلى مكتبه آخر مرة، عام ١٩٧٢، ليبلغه قراره بالتوقف عن الدراسة نهائياً. وأنه يتنازل عن الفرصة لانهاء متطلبات الماجستير في الهندسة المعمارية، وأنه لن يواصل لنيل شهادة الدكتوراة في العلوم السياسية، بل سيكتفي بشهادة الماجستير في إدارة الأعمال، ولم أستطع تغيير رأيه.

ويقول أحد أصدقائه : أن بنيامين أصيب بصدمة فعلاً، جرا، مقتل شقيقه يوني، لكن الحقيقة هي أنه قبل الحادث، كان بنيامين يدرك أنه لن يصبح مهندساً معمارياً كبيراً، لذا قرر التوجه إلى إدارة الأعمال.

وحينما اراد ممارسة العمل الذي يكسبه الخبرة والعلاقات، قرر تسلق أعلى جبل في المنطقة. المنطقة – شركة (بي.سي.جي) - BOSTON CONSUGTING GROUP " أحدى شركات الأستشارات الأقتصادية الراقية في الولايات المتحدة، وكان العمل هناك بمثابة الحلم للخريجين الجدد في مجال ادارة الأعمال.

فقد أوصت بزيارة مكلوجين التي قابلته للوظيفة، بقبوله، وقالت أنها أعجبت بأصراره وثقته بنفسه، كما أن علاماته العالية في الدراسة، كان لها دور في قبوله في الشركة. وقبل اسبوعين من مقتل يوني، تلقي بنيامين البلاغ المنشود من الشركة : قبلت في الوظيفة.

في شركة "بي.سي.جي"، يذكرون بنيامين أنه كان يعمل على مدار إلى ٢٤ ساعة، دون حساب وفي إطار عمله سافر إلى السويد، كعضو في طاقم مشروع إستشاري للحكومة السويدية.

في عام ١٩٧٨، رزق بنيامين وميكي بأبنتهما "نوعه" غير ان بنيامين، كان آنذاك غارقاً في علاقة غرامية سرية مع زميله له في العمل بالشركة تدعى فيلركايتس، تحمل شهادة في إدارة الأعمال ايضاً، وفيلر البريطانية، كانت أبنة لأب يهودي وأم نصرانية وكانت تكبر بنيامين بسنتين وكانت تعمل في الشركة قبله.

وقالت بربارة كلوجين هذا الأسبوع : أنهما كانا زوجاً غير منطقي جداً. فقد كان هو استفزازيا، مصراً على رأيه، ورومانسياً ايضاً، بينما كانت هي كالمياه الهادئة.

ويقول زملاء له، أن العلاقة الغرامية ظلت قائمة سراً بينهما عدة اشهر، حتى قام بنيامين بعمل لا يختلف كثيراً عما قام به بعد ذلك بحوالي ١٥ سنة،في قضية "شريط التسجيل"

وبعد وقت قصير، أبلغ نتنياهو ادارة الشركة بقراره العودة إلى إسرائيل ثانية، وقد فوجيء المسؤولون عنه بهذا القرار.

كان نتنياهو يكسب من عمله في الشركة ما يعادل حوالي (١٠٠) ألف دولار سنوياً بعد سنتين فقط من إنتهاء دراسته، وكان مدراء شركة (بي.سي.جي) سيهبوه أكثر لو عملوا لصالح من تركهم: وظيفة مدير تسويق في شركة اثاث إسرائيلية، صغيرة حسب المقاييس الأمريكية، براتب كان يعادل ربع ما كان يكسبه في بوسطن.

من المحتمل أن تكون الأزمة في حياته الشخصية، هي أحد الأسباب التي دفعته للعودة إلى إسرائيل، غير أن زملاءه يقولون، أنه كان سيعود إلى البلاد، في غضون وقت قصير، في جميع الأحوال.

عاد نتنياهو، ميكي، ونوعه، إلى البلاد معاً. لكن علاقتهما الزوجية كانت على وشك الأنتهاء، جرت عدة محاولات لرأب الصدع، لكن ميكي رفضت الصفح عنه، وعندما عرفت أن فيلر وصلت هي الأخرى إلى إسرائيل، قررت الطلاق من بنيامين، ويقول أحد الأصدقاء، أنها قالت له: خذ حقائبك وأرحل، يكن لديها أي تردد ابداً كانت الضربة قاسية، ولكن، رغم

هذه الضربة، ظلت العلاقات بينهما بعد الطلاق، منتظمة، ربما لأن ميكي سرعان ما وجدت سعادتها مع زوجها الثاني، دورون هيرن، وقد أسف والدا بنيامين جداً على الطلاق من ميكي، التي كانت تربطهما بها علاقات حميمة ووثيقة،أما مع فيلر فلم تكن لهما علاقات ابداً.

وكثيرون من أصدقائه كانوا يتساءلون عن سبب تفضيل بنيامين، فيلر على ميكي.

كان كل خطاب يلقيه بنيامين نتنياهو، السفير لدى الأمم المتحدة، في أواخر الثمانينات، يعتبر أحد العروض الناجحة داخل مقر الأمم المتحدة.

فقد كان وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز صديقاً له، وكان الرئيس رونالد ريغان يتصل به هاتفياً من الطائرة رقم ١ في سلاح الجو الإسرائيلي".

وكل هذه الحقائق، غير مختلف عليها، غير أن هناك اشخاصاً لا يهضمون الأدعاء بان بنيامين نتنياهو كان أنجح سفير لإسرائيل لدى الأمم المتحدة بعد ابا ايبان، ويعترف هؤلاء الأشخاص، وبينهم زعماء يهود، بأنهم كانوا يميلون إلى تصديق الخطابات اللينة التي يلقيها نتنياهو، لكنهم كانوا سرعان ما يكتشفون فيها آراء صقورية متطرفة.

ويقول بعض الصحفيين الذين عرفوه في تلك الفترة أنه كان لغوياً خطيراً، وانساناً لم يتردد في خداع وسائل الأعلام.

تقسم الحقبة الدبلوماسية التي أداها نتنياهو في الولايات المتحدة إلى فترتين:

- من ١٩٨٢ - ١٩٨٤ في واشنطن في منصب نائب السفير موشيه آرنز

- من ١٩٨٢-١٩٨٧ في نيويورك، في منصب السفير الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة.

ولا شك بأن هذين المنصبين كانا بالنسبة لنتنياهو، أداة فعالة جداً لتقدمه السياسي. ويقول رالف سويمن الباحث في الوفد الإسرائيلي، لدى الأمم المتحدة والمستشار المقرب لنتنياهو طيلة السنوات الأربع التي عمل فيها كسفير، أن الأغبياء والسُّذج فقط من بين الذين

عملوا مع نتنياهو، كانوا لا يدركون التساؤل هل الرجل الذي لا يزال في الخامسة والثلاثين من عمره، يطمح ليكون رئيساً للحكومة لأ أنه لم يقل ذلك صراحة ابداً، لا خلال الجلسات المغلقة، ولاعلانية بالطبع، لكننا جميعاً، كنا نعرف إلى أين يطمح في الوصول.

وبينما كان نتنياهو نفسه يلتزم الحذر، كان ابناء اسرته يتحدثون صراحة عن الهدف، "سيكون رئيساً للحكومة"- هكذا تنبأت في تلك الفترة، الأم، تسيلا، أثناء حفلة عشاء مع أصدقاء يهود، في الولايات المتحدة.

ومن خلال نظرة إلى الوراء، نستطيع أن نرى أن كل خطوة، تقريباً، قام بها نتنياهو، على مدى السبع سنوات ونصف السنة، التي امضاها في الولايات المتحدة، كانت تخدم هدفاً مزدوجاً : الدولة، وهو نفسه.

وفي واشنطن أصبح مدير تسويق شركة "ريم" سابقاً شخصية مشهورة، بين عشية وضحاها، وقد بدأت انطلاقته من الموقف الأحتكاري الذي منحه لنفسه، "كخبير في معالجة الأرهاب"، من خلال إستغلال مشاريع تخليد ذكرى شقيقه يوني، الذي أصبح شخصية بارزة فيها.

ويقول ليؤون فيزلتير، وهو مثقف يهودي، كان محرراً في مجلة "نيوريبو بليك" والذي لا يعتبر من المؤيدين لنتنياهو، أن ادارة الرئيس الأمريكي رونالد ريغان أحبته فقد كان موضوع الأرهاب، هو الشغل الشاغل لادارة ريغان، الأمر الذي خدم نتنياهو بصور جيدة ومتكاملة".

لقد فتحت أمام نتنياهو، أبواب في الأدارة الأمريكية لم يعرف حتى السفير الإسرائيلي كيف يدخلها فقد كسب ود سفيره الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة جين كيرك باتريك وجورج شولتز فيما بعد، ففي كل مرة زار شولتز نيويورك، كان يلتقي مع نتنياهو.

لم يخجل نتنياهو من التفاخر بعلاقاته، فقد حصل الصحفيون الذين جاءوا لاجراء مقابلة معه م في مكتبه في الأمم المتحدة على نسخة من الرسالة التي بعث بها إليه شولتز: "بن العزيز، لفت إنتباهي أثناء رحلتنا الطويلة، من واشنطن إلى بالي (أندونيسيا)، أن الرئيس قرأ كتاب "ارهاب - كيف يستطيع الغرب التغلب عليه" كما أن الرئيس ونانسي، شاهداك على شاشة التلفزيون، وقالا لي أنك قمت بعمل رائع".

ويقول رالف سويمن : كنت لديه في المكتب، حينما تحدث إليه الرئيس ريغان شخصياً بالهاتف، وهذا يدل على الود بينهما، لقد كان لنتنياهو تأثير حقيقي على الأدارة الأمريكية بشأن دفعها لانتاج سياسة متشددة تجاه مشكلة الأرهاب.

والى جانب العلاقات مع الأدارة الأمريكية عمل نتنياهو في مجال تنمية علاقاته مع وسائل الأعلام، فهو لم يسمح أبداً لمساعديه بالتعامل مع الصحفيين الكبار، بل كان يقوم بذلك شخصياً. لقد "أطعمهم"، وقد خدمته هذه العلاقة جيداً كما أنشأ نتنياهو علاقات مميزة مع تشارلز كراوث هامر، وهو كاتب عمود في صحيفة واشنطن بوست، ومع سوزان جرمند من صحيفة وول ستريت جورنال، ومع ايف روزنتال، محرر نيويورك تايمز سابقاً، وكاتب عمود حالياً في نفس الصحيفة وهو يكتب اراء نتنياهو، ومع إيلي فايموت، ابنة كاترين جراهام ناشرة الواشنطن بوست، وغيرهم كثيرين.

وعلى صعيد وسائل الأعلام الألكترونية، سرعان ما أصبح نتنياهو نجماً لا منافس له بين الدبلوماسيين الأجانب في الولايات المتحدة.

لا شك أن مظهره الجذاب، ولغته الأنجليزية الجيدة، وخلفيته الأمريكية، كلها أمور ساعدته، ولكن لا يمكن إنكار كفاءته الطبيعية التي ظهرت لديه في كل ما يتعلق بالتعامل مع المسؤولين ونجوم قنوات التلفزيون الأمريكية.

لقد ظهر نتنياهو أكثر من أي دبلوماسي آخر، وأكثر من معظم كبار موظفي الإدارة الأمريكية، في برنامج "نايت لاين" وغيره من البرامج المماثلة.

كان نجاح نتنياهو في الولايات المتحدة كبيراً بشكل خاص، لدى النساء اذ يقول لاري لينغ من شبكة (سي. إن. إن) الذي استضاف نتنياهو في برامج عديدة، أنه بعد كل ظهور لنتنياهو على الشاشة، كانت تنهال على مكتبه المكالات الهاتفية من النساء وجميعهن يسألن إذا كان متزوجاً وكيف يمكنهن الوصول إليه.

لقد غطى نتنياهو على دبلوماسي إسرائيلي آخر، هو مئير روزن، السفير الإسرائيلي في واشنطن، وعلى القنصل الإسرائيلي في نيويورك موشه يجار، وأدى هذا الوضع في البداية إلى حدوث مجابهات ونزاعات بين وفد إسرائيل لدى الأمم المتحدة وبين القنصلية الإسرائيلية في نيويورك، ولكن سرعان ما أجبر جمع الخصوم إلى الأعتراف بتفوق نتنياهو.

كان الصراع الدعائي الاكبر الذي خافه نتنياهو في الأمم المتحدة، يدور حول المطالبة بفتح أرشيف الوثائق النازية التي كانت الأمم المتحدة تحتفظ به، وقد جرت تغطية هذا الصراع الذي قاده نتيناهو بشكل محكم من قبل وسائل الأعلام الأمريكية، وأخيراً فتح الأرشيف وقام فريدمن، بتفتيشه لمدة ثلاثة اسابيع لكنه لم يعثر على أي شيء جديد أو جدي.

ويقول فريدمن: "قال إلى صياد النازيين، شمعون فزنتال، الذي كان مستاء من كل هذه القضية، أن هناك أشخاصاً يبنون سيرة حياتهم على جثث القتلى والضحايا".

لم يكن باستطاعة نتنياهو أن يختاز لنفسه فترة عمله كسفير لبلاده لدى الأمم المتحدة لقد كانت فترة عمله صعبة جداً، وفي ذروة العداء لإسرائيل، الأمر الذي تطلب منه العمل ليل نهار، ففي بعض الأحيان كان يغلق على نفسه باب مكتبه حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. وجميع الذين عملوا معه، يؤكدون أنه كان منظماً، دقيقاً، يهتم بأدق التفاصيل.

ويقول سويمن: قبل كتابة أي خطاب، كان يطلب تزويدة بخلفية مفصلة، وجميع خطاباته تقريباً كان يكتبها بنفسه وكان في معظم الأحيان، يلتزم الحذر في صياغة خطاباته غير أنه كان أحياناً يشذ عن هذه القاعدة.

ففي أحدى المرات، بعث بمقالة إلى صحيفة نيويورك تايمز، شبه فيها السوريين بالصراصير التي تختبيء تحت الحجارة، وتظهر حينما نقلب الحجر عنها، وقد أثار هذا التشبيه ردود فعل غاضبة جداً.

لقد بقي أولئك الذين عملوا تحت إمرة نتنياهو أوفياء له، حتى بعدما تركوه، وكذلك زوجتا نتنياهو، ميكي وفيلر، لم تتفوها بكلمة واحدة ضد نتنياهو بعد طلاقهما، لأنه كان يلاطفهما ويبعث اليهما برقيات ثناء.

إحدى الصحف التي أجرت مقابلة مع نتنياهو، في تلك الفترة، نشرت القابلة تحت عنوان :"هل يمكن أن يصبح هذا الشاب خريج مدرسة توتلنهام في فيلادفيا، رئيساً لحكومة إسرائيل؟، وكل من قرأ المقابلة، أدرك أن السؤال كان بلاغياً، لكن الأجابة كانت ايجابية".

تجدر الأشارة إلى أن معظم العمل الرامي إلى وضع الأسس للمنصب المنشود، قام به نتنياهو، بعيداً عن مقر الأمم المتحدة، اذ لم يسبق ان كان هناك سفير إسرائيلي لدى الامم المتحدة، ألقى محاضرات بعدد ما فعل نتنياهو أمام الجالية اليهودية في الولايات المتحدة. لكنه بذل ايضاً، جهوداً مكثفة، وخاصة في الأماكن التي كان يعتقد بأنه سيحظى فيها بالشهرة مثل : الجالية اليهودية-السورية في بروكلين، أو رون لاودر، من امبراطورية منتجي ادوات التجميل إستي لاودر الذي أصبح أحد أصدقائه المقربين.

لاودر هو الذي نصحه بتعيين "المستشار العجيب"، أرتور فينكلشتاين وهو الذي دفع أتعابه أيضاً.

ولكن، بينما كانت حياة نتنياهو الدبلوماسية السياسية تدار بسيطرة محسوبة كان يفقد السيطرة على حياته الخاصة، فمنذ البداية كان ` بيبي" وفيلر مختلفين في الغاية والخلفية والثقافة والطابع، والآن، إنضم إلى هذه الأختلافات ايضاً، حقيقة جديدة، هي انه بدلاً من موظفة اقتصادية رفيعة المستوى. أجبرت هذه الزوجة الأنجليزية للقبول بوظيفة تجميل رمزية، اضافة لزوجة السفير، الأمر الذي أحدث لدينا شعوراً بالإحباط.

لم يكن نتنياهو يمنح حياته الخاصة كثيراً من وقته ففي نيويورك، كان يعمل١٨ ساعة، في اليوم والليلة. وكانت جميع عطل نهاية الأسبوع تقريباً، مخصصة لإلقاء محاضرات لدى الطوائف اليهودية في أنحاء الولايات المتحدة،وليس للأستراحة. حتى عندما كان نتنياهو، يستضيف أحداً في بيته، كانت الضيافة رسمية، وتتعلق بالعمل.

ويقول بعض الأصدقاء، أن بيت نتنياهو، كان يشهد حالات عديدة من الصراخ والمشاجرة كانت فيلر هي التي تصرخ دائماً، وهو يرفع صوته عليها أحياناً فقط، لكن الأثنين حرصاً دائما على إخفاء خلافاتها حتى عندما هجرت البيت كان سائق سيارة نتنياهو يحضرها من مسكنها الجديد للوقوف مع زوجها السفير في المناسبات العلنية. بدأ الشقاق النهائي بينهما في ١٩٨٧، حينما أوشك نتنياهو على ترك نيويورك، وبدء حياته السياسية في إسرائيل، لقد عرفت فيلر أن إسرائيل لا تناسبها.

ويقول الأصدقاء، أن فيلر ونتنياهو اتفقا على الأنفصال في نيويورك لكنهما قررا أنه من الأفضل ان يفعلاه في إسرائيل وفعلا جاءت فيلر معه، ثم انفصلا بعد وقت قصير وهناك من يقول أن نتيناهو أعطاها قبل الأنفصال مبلغاً من المال، يساوي ثمن شقة سكنية.

على أية حال، اشتمل اتفاق الأنفصال بينهما، على موافقة متبادلة للمحافظة على السرية، ولا يزالان يحافظان عليها حتى الآن.

وعلى الرغم من أن فيلر تزوجت بعد وقت قصير من رجل أعمال نيويوركي، لا تزال تحمل اسم نتنياهو (وهذا ايضا ما نص عليه اتفاق الأنفصال). وتعمل الآن في منصب رفيع في امبراطورية "لاودر" وتدير مشروعاً في مجال الأعلام التلفزيوني بالكوابل في اوروبا الشرقية.

أن احدا لا يعرف بالضبط ماذا حدث في المقابلة التي جرت بين بنيامين نتنياهو، وبين الحاخام ملوبيبتش، في بروكلين تلك المقابلة الثنائية التي رتبها لنتنياهو، شمريا هرئيل، الذي

سبق أن عمل إلى جانبه في وحدة استطلاع هيئة الأركان العامة ثم أصبح فيما بعد، نشيطاً فعالاً في حركة "حباد".

لقد سحر نتنياهو الحاخام، حيث تحدث عن الطريقة التي يجب ان يحارب بواسطتها الأرهاب، وعن قوة الصمود اليهودية، الأمر الذي جعل الحاخام يتبناه ويضمه إلى قلبه، بخطوة غير عادية وحينما أراد نتنياهو إنهاء عمله في الولايات المتحدة استدعاه الحاخام ملوبيبتش، وأمره بالبقاء في الولايات المتحدة، أينما يحتاجونه، غير أنه قبل أنتهاء فترة خدمته في الأمم المتحدة، كان نتنياهو يعرف أنه سيعود لممارسة النشاط السياسي في إسرائيل.

لقد جمع الحاخام ملوبيبتش عدداً من نشيطي حركة "حباد" الذين اصبحوا "ضباط ميدان" له في إسرائيل وهم : آبي طاوب، تاجر مجوهرات من نتانيا، عضو مركز الليكود، وأدفيد نحشون، مديرعام "نكية همتسفوت" التابعة لحركة "حباد"، وشمريا هرئيل الذي كان نائباً لنتنياهو في قيادة طاقم في الأستطلاع.

يقول آبي طاوب: أصدر الحاخام أوامر صريحة لمساعدة "بيبي"على طول الطريق وقد صدرت هذه الأوامر منذ اللحظة التي قرر فيها نتنياهو الدخول في المعترك السياسي، ولم تتغير حتى يومنا هذا. وكانت أوامر الحاخام تقضي بضرورة مساعدة نتنياهو إلى الأبد، ما دام لم يتنكر لمبادئه.

لقد جند طاوب، اعضاء آخرين من أجل نتنياهو، بمن فيهم موظفون وعاملون في مصنع المجوهرات التابع له: عندما رشح نفسه لانتخابات الليكود الداخلية عام ١٩٨٨، قاموا بتوزيع نشرات والصقوا طوابع، وتحدثوا هاتفياً مع أعضاء في مركز الليكود، ووضعوا تحت تصرفه سيارات وهواتف متنقلة وصلوا من أجله.

وتحتفظ حركة "حباد" باشرطة تسجيل فيديو تحتوي على لقاءات نتنياهو مع الحاخام ملوبيبتش وصور من مؤتمرات "حباد" والتي حضرها نتنياهو، والمحاضرات التي القاها في مناسبات "حباد" في سفينة بعرض البحر.

وحينما أوشك نتنياهو على العودة إلى إسرائيل للأنقضاض على الحلبة السياسية، كتب إليه الحاخام ملوبيبتش : "ليكن صعودك إلى إسرائيل صعوداً بكل المفاهيم. وتمنى له أن يستغل قدراته ٠٠ وحينما ولد يئير نتنياهو في عام ١٩٩١ بعث إليه الحاخام رسالة مطبوعة كتب في نهايتها بخط يده "ليضيء حظكم" وهو أمر كان نادر الحدوث.

يقول نحشون: قبل أن يلقى نتنياهو خطاب فوزه في مباني الأمة، دعا إلى غرفته في مبنى الكنيست عضوي "حباد"، دافيد نحشون وشمريا هرئيل، قبلنا، وقال : كل هذا بفضلكم.

ثم قال للحاضرين : "هؤلاء أخواني الحقيقيون".

كانت العلاقة الوثيقة مع بلاط الحاخام ملوبيبتش إحدى أكثر العلاقات فائدة بالنسبة لنتنياهو، منذ زيارته الأولى للبلاط في بروكلين قبل ١٢ سنة وحتى معركته الأنتخابية الأخيرة،التي شوهد أثناها اعضاء "حباد"وهم يحملون لافتات ضخمة كتب عليها: "نتنياهو جيد لليهود".

لقد قرر نتنياهو الأنضمام للسياسة الإسرائيلية قبل إنتهاء فترة عمله في الأمم المتحدة. إعتاد القدوم إلى إسرائيل في زيارات متتالية، وفي كل زيارة كان يعمل من أجل وضع الأسس لمعسكر وتجنيد النشطاء، والتعرف على مساعدين شخصيين والقيام بجولات تعرف على المنطقة. كما أن كبار السن في الليكود، وحركة بيتار، ومقاتلي حركة إيتسل، إتخذوه ربيباً لهم يرعونه، وينظمون له حفلات العشاء الفاخرة في محطة الوقود "ابيبيت" على شارع حيفا، في ساعات ما بعد الظهر ايام الجمعة.

خلال إحدى زياراته لإسرائيل، في طريقه للتمهيد لاحتلال الليكود، اراد نتنياهو القيام بجولة في عيادة العمال "كوبات حوليم" في اريئيل حيث أستقبل هناك بصدر رحب، لدى سامي دافيد، نشيط الليكود من اصل عراقي، الذي كان مسؤولاً عن ادارة العيادات في المستوطنات الصغيرة.

ومنذ تلك الزيارة، ظل سامي دافيد إلى جانب نتنياهو، حتى إحتل الليكود في ربيع عام ١٩٩٣. ولكن دافيد، شأنه شأن الأخرين الذين عملوا مع نتنياهو، وجد نفسه مبعداً عنه، وتجدر الأشارة إلى أن الأشخاص المقربين من نتنياهو يصفونه بأنه يتخلى عن الذين يعملون إلى جانبه بطريقة إستعمل وإرم". ولدى زيارته لمستوطنة ارئيل طلب نتنياهو مقابلة رئيس فرع الليكود في المستوطنة، يعقوب إكست. سأله : إلى أي معسكر تنتمي؟ اجابه إكست : لم يسبق أن انتميت لأي معسكر. ولكن إذا أتيت سأنضم اليك". ومنذ تلك اللحظة، بدأت العلاقة بينهما، حتى ورد اسمه أخيرا كمرشح لمنصب أقتصادي في الأدارة الإسرائيلية الجديدة.

ويقول إكست، أن نتنياهو عرض عليه تفصيلات بشأن الأهداف التي يجب تحقيقها، وبسط خطة مفصلة مؤلفة من عدة مراحل:أولاً نحصل على الموقع الأول في قائمة الحزب، ثم نصل إلى الكنيست، بعد ذلك أصبح وزيراً، وحيننذ سأحتل الليكود،ثم نجري انتخابات داخلية على زعامة الحزب، ومن هناك إلى رئاسة الحكومة.

ويقول إكست : رأيت أن لديه قدرة على الأستيعاب السريع والتفكير الصافي. وقلت لزملائي أن صاحبنا، سيصبح رئيساً للحكومة قبل أن يبلغ الخمسين من عمره.

لقد تحققت المرحلة الأولى من خطة نتنياهو، بعد أن أنتخب في المركزالأول لقائمة الحزب، وفي المركز الخامس في السباعيات.

وأدرك "أمراء" الليكود، حينذاك، عام ١٩٨٨، أن مصيبة حلت بهم، اسمها نتنياهو، وبدأوا يعملون ضده في جميع المجالات، ومن بينها وسائل الاعلام، لكنه ظل يقول:"سيأتون إلي راكعين يمشون على أربع".

أما شريك نتنياهو، موشه أرنس، فقد مارس الضغط من أجل أن يشغل منصباً في حكومة اسحق شمير، في حين عين نتنياهو في منصب نائب وزير في وزارة الخارجية،

وسرعان ما سمعت اصوات الأنفجارات بينـه وبـين وزيـر الخارجيـة دافيـد ليفـي. وذلـك بعـد أن اسـتحوذ نتنياهو على أهتمام وسائل الأعلام العالمية الأمر الذي لم يسر ليفي. لدرجة أنه أمر بالغاء مؤتمر صحفي مع المراسلين الأجانب، كان مقرراً أن يعقده نتنياهو، الأمر الذي أحدث إرباكاً على صعيد العمل الخارجي.

وأعتقد ليفي، أنه قزم نتنياهو، حينما نجح في نقلـه مـن وزارة الخارجيـة، إلى منـصب نائـب وزيـر في مكتب رئيس الحكومة شامير لكن تلك كانت غلطة خطيرة من جانبه، لأن نتنياهو أصبح المتحدث الرسمي باسم الحكومة.

وفي مؤتمر مدريد ١٩٩١،كان بروز نتنياهو واضحاً.حيث وصف نفـسه بأنـه "صـقر واقعـي" أي أنـه لا يؤمن بأن العالم كله ضد إسرائيل، وبعد أيام الظهور في مدريد، جاءت الهزيمة الكبيرة، حينما فقـد الليكـود السلطة في صيف عام ١٩٩٢، ووسط الصدمة والأرتباك اللذين سادا حركة الليكود المهزومـة، كـان نتنيـاهو اول من نهض ليعلن عزمه على التنافس على رئاسة الحركة، لكي يقودها إلى الفوز في الأنتخابات القادمة.

يقول يعقوب إكست :" في أنتخابات ١٩٨٨، كنا طاقماً صغيراً طلائعياً، أما في ١٩٩٢ فكـان طـاقم بيبـي أمبراطورية، استأجرنا مكاتب في قلب هرتسليا، وشغلنا عـشرات الأشـخاص بـالأجرة، وحـوالي ٢٠٠ متطـوع، وكانت التبرعات تصلنا من الخارج والداخل. وكان الهدف هو تجنيد حوالي١٥٠ ألف عامل.

ويقول أحد مساعدي نتنياهو السابقين:"أراد نتنياهو أن يفرض نفسه كمرشح وحيد لرئاسة الحكومـة. فقد أرغم المنافسين الآخرين على إقرار نظام متشدد وجـدول زمنـي مـضغوط، بحيـث يناسـبه هـو فقـط. وينص النظام، على أنه إذا فاز مرشح، ويريدون تغيير نتيجة الأنتخابات، يجب الحصول عـلى موافقـة ٥٧% من أعضا المركز. وقد حاول "الأمراء" محاربته في الموضوع، لكنهم فشلوا.

في ربيــع عــام ١٩٩٧، إحتــل نتنيــاهو قلعــة زئيــف (مقــر الحــزب)، وهــزم دافيــد ليفــي، وبنــي بــيغن وموشــيه كتــساف، في المنافــسة عــلى رئاســة الليكــود. ثــم عــين ليبرمــان في منــصب مــدير عــام

الليكود، حيث سيطر الأثنان على الحزب في غضون فترة قصيرة، اعادا بناء عدة مؤسسات في الحزب، وأقالا كتائب عمال لا حاجة لهم، توصلا إلى تسويات مالية مع المكلفين، ووضعا رجالهما في كل موقع ومنصب تنفيذي ذي اهمية.

في كانون ثان ١٩٩٣، قبل موعد الأنتخابات لزعامة حزب الليكود بشهرين، حدثت قضية شريط التسجيل، بعدما وصلت معلومات إلى طاقم نتنياهو بأن معسكر دافيد ليفي يجمع معلومات ومواد مصورة ومسجلة توثق قضية غرامية، بين نتنياهو وأمرأة أخرى.

وقد تملك الذعر طاقم المساعدين المستجدين لنتنياهو، الذين تسببوا في إخافة نتنياهو نفسه، مما دفعه للقيام بإجراء متسرع، حيث ذهب إلى التلفزيون وفي بث حي ومباشر، اعترف نتنياهو بأنه خان زوجته.

وفي نفس الوقت، هاجم شخصيات كبيرة في الليكود بقوله أنهم "شلة مجرمين" وألمح إلى أن رجال دافيد ليفي يعملون باساليب المافيا، لكي يبعدوه عن المنافسة على زعامة الحزب.

إحتفل خصوم "بيبي" بهذا الإجراء المتسرع من جانبه، وأعتقدت الدوائر السياسية، بأن نتنياهو خسر حياته السياسية في ضربة واحدة، وبخاصة تأييد المتدينيين له. لكن الحقيقة كانت مختلفة، غير أن القليلين فقط هم الذين أدركوها. فقد قال آبي طاوب، مؤيد نتنياهو في حركة حباد:"هذا شأنه أنها مشكلته نحن لا ندخل إلى فراشه مثلما لا نهتم بسفره يوم السبت، أو بتناوله طعاماً ليس على الطريقة اليهودية ".

وجد نتنياهو نفسه في قلب عاصفة سياسية معركة حامية وقاسية مع دافيد ليفي ورجاله، ودوامة عائلية. لكن صفات نتنياهو التي اكتسبها في طفولته، برزت من جديد. لقد حدد نتنياهو لنفسه هدفاً وكان على استعداد للتنازل عن الكثير من أجل تحقيقه. وكان الهدف بالطبع، رئاسة الحكومة.

لقد لين موقفه على الصعيد العائلي الداخلي، إعتذر، وأعترف بالخطأ ثم نهض من بين الأنقاض خاض معركة للوصول إلى رئاسة الحكومة - وحقق فوزاً كبيراً.

ليس من قبيل الصدفة أن تصر سيدة إسرائيل الأولى على أن يدعوها "سارة نتنياهو" وليس "السيدة نتنياهو" فهي ليست مجرد "زوجة السيد" صحيح أنها تحرص على الظهور مع زوجها في كل مناسبة تقريباً، لكنها تصر على ان تجلس إلى جانبه على المنصة، وهذه الأمور يهتم مساعدو رئيس الحكومة بإفهامها للمسؤولين عن تنظيم الأجتماعات والمناسبات التي يحضرها الزوجان.

يقول المقربون من سارة، أنها لا تعتزم الأختفاء عن أنظار الجمهور، مثل سونيا بيرس. وقد عين رجل كموظف علاقات عامة، إلى جانب سارة، لمعالجة كل ما يتعلق بما ينشر في وسائل الأعلام عن "العائلة".

ولدت سارة نتنياهو عام١٩٥٨، من حواء وشموئيل بن ارتسي، بعد ثلاثة أبناء أكبر منها، وترعرعت في كريات عمل، وهي حي سكني مؤلف من بيوت خاصة متواضعة أصبحت فيما بعد جزءاً من كريات جيعون.

كان أبوها شموئيل طالبا في مدرسة دينية، ثم تركها، وعضوا في حركة ايتسل، وكان معلما للتوراة في المدارس الثانوية، وأمها، حواء، هي مقدسية من الجيل السابع في البلاد.

يقول أحد الأصدقاء أن عائلة بن أرتسي كانت مشبعة "بالتناخ" فالأبن الأكبر "متنيا" فاز بجائزة مسابقة "التناخ" وهو في العاشرة من عمره. وكذلك الأخيران الأخران فازا بجائزة معرفة "التناخ" الخاصة بالشبيبة وحينما ارادت سارة ايضاً الأشتراك في الجائزة، أندلعت حرب يوم الغفران وشوشت برنامجها.

وكل من يعرف أبناء بن أرتسي يقول، أن ثلاثتهم من العباقرة فالاكبر "مثنيا" حصل على درجة بروفيسور وهو في التاسعة والعشرين، ويعمل الآن مدرساً لمادة الرياضيات في الجامعة العبرية، اما حاجي فهو من مؤسسي مستوطنة بيت أيل، ومدرس "التناخ" في مدرسة يتسورون في القدس، وفي كلية دافيد يلين والأخ الثالث أمتسيا، طيار هليوكبتر، يعيش حالياً في الولايات المتحدة ويعمل كمهندس كمبيوتر.

غير أن سارة لم تكن بنفس المستوى، فقد كانت من ضمن الطالبات الجيدات، أولئك اللواتي يجلسن في البيت ويدرسن كثيراً، كانت فتاة لطيفة لكنها ليست بارزة بصورة مميزة ولم تكن تخرج مع الشباب، وسبق أن عملت مراسلة لصحيفة معاريف لشؤون الشبيبة. واثناء خدمتها العسكرية في الجيش تنازلت عن منصب مراسلة مجلة "بماحانية" العسكرية وفضلت الخدمة كفاحصة كفاءة نفسانية وقد تعرفت على زوجها الأول، دورون نبيبرغر، أثناء خدمتها العسكرية، انفصلا بعد سبع سنوات من الزواج الذي لم يثمر ابناء. وبدأت العمل كمضيفة في شركة الطيران الإسرائيلية، "العال" إلى جانب الدراسة في العلوم النفسانية، لنيل شهادة الماجستير من الجامعة العبرية، حيث تخصصت هناك بعلوم نفس الطفل. وحصلت مؤخراً على الشهادة بأمتياز.

جرى أول لقاء بين سارة وبين نتنياهو عام ١٩٨٩ كان نتنياهو آنذاك، نائباً لوزير الخارجية، ويكبرها بتسع سنوات تعرفا أثناء رحلة جوية، ثم تزوجا في آذار١٩٩١في منزل والدي نتنياهو في القدس،بحضور عدد قليل من الأصدقاء ورئيس الحكومة آنذاك اسحق شامير. وبعد بضعة أشهر ولد إبنهما الاكبر يئير.

وظلت الحياة الزوجية بينهما تسير هادئة حتى كانون ثان ١٩٩٣ حينما تفجرت قضية شريط التسجيل حيث اتصل أحدهم هاتفياً بمنزل نتنياهو، بينما كانت سارة وإبنها فقط في البيت، وقال المتحدث: "أن هناك علاقة غرامية بين زوجك وأمرأة أخرى، لدينا اثباتات من ضمنها صور. واذا لم ينسحب من المنافسة على زعامة الليكود، سننشر القصة".

بعد المكالمة إتصلت سارة بزوجها وطلبت إليه العودة إلى المنزل فوراً. ولدى عودته، قرر الأعتراف ليس أمامها فقط، بل من على شاشة التلغزيون ايضاً وتألمت سارة من القضية، لكنها رفضت الأدلاء بمقابلات صحفية.

وحاول بعض الأصدقاء تسوية الأمر والاصلاح بين سارة ونتنياهو، ثم عمل نتنياهو كل شيء من أجل مصالحة زوجته. وتدخل والد سارة في الموضوع، من أجل الأصلاح لانه لم

يكن راغباً في أن تطلق ابنته للمرة الثانية، ولم يحدث انفصال بين الزوجين، وقبل سنة ونصف السنة ولد لهما الأبن الثاني أفنير.

وكل من يعرف سارة يقول أنها تغيرت منذ تلك الحادثة، واصبحت أكثر غيرة على نتنياهو تريد دائماً أن تعرف أين يوجد في كل دقيقة ومع من يقضي أوقاته طيلة اليوم والليلة.

من جهة أخرى، فان نتنياهو معني جداً في أن يقدم للجمهور الآن نموذجاً للحياة الزوجية السعيدة وقد أعلنت سارة، أنها رغم كونها زوجة رئيس الحكومة، تخطط لمواصلة العمل في مهنة الطب النفساني، وهي مسجلة في الأدارات العامة التابعة لقرية "ملخيشوع" للمعالجة من الأدمان على المخدرات، ورابطة "يدبيد" التي ترعى الأولاد الذين يعانون من ضائقة.

وقبل معرفة نتائج الأنتخابات، اعلنت سارة، أنه حتى لو فاز زوجها برئاسة الحكومة ستتم المحافظة على الحياة العائلية والخاصة، وأيام السبت، والأجازات، ستكون أموراً مقدسة بالنسبة للعائلة. وكل من يعرف سارة متأكد من أنها لن تتنازل في هذا الشأن حتى لرئيس الحكومة.

"يديعوت احرنوت"

١٩٩٦/٦/٢١

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

ان نشر كتاب "مكان تحت الشمس" باللغة العربية يعتبر مصدر سعادة ومناسبة طال انتظارها بالنسبة لي. فخلال سنوات خدمتي الدبلوماسية في واشنطن والامم المتحدة، أتيحت لي فرص عديدة لمقابلة مسؤولين من الدول العربية. وفي العديد من هذه اللقاءات، كان بعضها سرياً، اكتشفت من خلال الذين تحدثت معهم هوة كبيرة في الادراك فيما يتعلق بإسرائيل والإسرائيليين. وبشكل معين، فيما يتعلق بحزبي، وحركة (تكتل) الليكود فقد فهم واعتبر على ان يشكل المخلب في كره العرب، وفي ولعه وحبه للإستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي العربية، ومعارضته لأي نوع من انواع السلام مع جيرانه العرب. فتوقيع حكومة الليكود اول معاهدة سلام مع دول عربية، وذهاب حكومة ليكود اخرى إلى مؤتمر السلام في مدريد، وابقاء حكومات الليكود المتعاقبة على علاقات ودية غير رسمية مع ست دول عربية على الأقل خلال خمس عشرة سنة في السلطة، كل ذلك طرح جانباً. فقد ترسخ في الاذهان: ان حزب العمل يعمل من اجل السلام، وان الليكود ضد السلام.

ان أحد الاهداف الرئيسة لهذا الكتاب، هو ازالة هذه الخرافة: فلا شيء يمكن ان يكون ابعد عن الحقيقة، من انه لا اساس البته للتأكيد بان نصف الشعب الإسرائيلي لا يريد السلام. فليس هنالك خلاف في إسرائيل فيما يتعلق بالرغبة في انهاء الصراع مع العالم العربي. فمن الصعب ان لا تجد عائلة واحدة في البلاد لم تفقد اقرباء أو اصدقاء لها في الحروب المستمرة بين العرب واليهود، وفي العمليات"الإرهابية" المستمرة على الدوام.

ان الاختلاف والانقسام القائمين، ليس حول الرغبة في السلام، وانما حول السبيل الحقيقي لتحقيق السلام. فوجهة نطرنا لتحقيق السلام يجب ان تبنى على دعامتين: الأولى، وجود نوايا مخلصة للسلام من جانب شركائنا العرب. والدعامة الثانية، هي ان الشروط أو الأوضاع الأمنية التي ستحمي إسرائيل، يجب ان تثبتها تلك النوايا بدرجة لا تقل عن النوايا

المسالمة. ولأن كلا الشرطين مرضيان، فلقد ايدت بقوة معاهدة السلام الإسرائيلية مع الأردن. فعلى مدى عقدين من الزمن، اظهر الملك الحسين التزامه الجلي الواضح بإنهاء الصراع مع إسرائيل، والمواقع الإسرائيلية على طول نهر الأردن (وفي جبال السامرة المشرفة عليه) منحت إسرائيل ترتيبات امنية وافرة مند أي تطورات معادية محتملة من الشرق.

وعلى نحو مماثل، فان كلا الشرطين انطبقا على معاهدة السلام الإسرائيلية مع مصر: فالرئيس انور السادات اظهر التزامه الحقيقي بالسلام، بشكل مثير، بتوجهه مباشرة نحو الشعب المصري قائلاً له "لا حرب اخرى بعد اليوم" وترتيبات القوات المحدودة في صحراء سيناء الشاسعة، منحت إسرائيل حاجزاً ضخماً بشكل واف ضد أي قوة قد تنشأ في مصر لديها نوايا لخرق السلام. فهذان الشرطان كانا مطلوبين تماماً، فمن السهل للمرء ان يرى ماذا كان سيحدث فيما لو تبع اغتيال السادات قيام حكومة اسلامية عسكرية في مصر، فلأصبحت معاهدة السلام الإسرائيلية- المصرية، عبارة عن قطعة من الورق لا قيمة لها، ولكان يجب على إسرائيل ان تعتمد على العمق الاستراتيجي لسيناء لمنع اندلاع حرب اخرى.

ومع ان كلا هذين الشرطين، فيما يتعلق بصدق النوايا والامن، قد انجزا في معاهدتي السلام المعقودتين مع كل من الأردن ومصر، فلا أحد منهما مقنع بشكل وافٍ فيما يتعلق بمعاهدة السلام مع منظمة التحرير الفلسطينية. فبموجب بنود معاهدة اوسلو، تعهد عرفات بالغاء تلك الفقرات في الميثاق الوطني الفلسطيني التي تدعو لازالة إسرائيل، وشطب أي حافز أو دافع يدعو للحرب. وتعهد ايضاً على نحو مماثل، بازالة الإرهاب الصادر عن الفصائل التابعة لمنظمة التحرير. الا انه، ما ان استقر في غزة واريحا، حتى قام عرفات باطلاع مستقبليه الفلسطينيين، على ان معاهدة السلام مع إسرائيل هي لا شيء أكثر من اتفاقية سلام مؤقتة، كمعاهدة صلح الحديبية، التي عقدها النبي محمد مع قريش في مكة (فقد طرح محمد تلك المعاهدة التي عقدها مع قريش جانباً عندما استطاع ان يحشد قوة كافية لاجبار قريش

على الخضوع له(*). علاوة على ذلك، فان عرفات كرر القول بان هدفه الاساسي سيظل ثابتاً بعد معاهدة اوسلو حيث قال: "ان التزامنا ما زال قائماً وان قسمنا شرعي... لمواصلة جهادنا الطويل، جهادنا الشاق، جهادنا الصلب، على طريق الشهادة، وطريق التضحية". وقال عرفات في تمجيده لمنفذي العمليات الانتحارية: اننا جميعا نسعى للشهادة".

وبذلك فقد فشل عرفات في الاختبار الحاسم الأول للسلام: في تغيير المناخ النفسي وذلك بتعزيز وتشجيع المواقف العامة في قيام مصالحة وتسوية حقيقيتين. وينبثق من هذا الاخفاق الأول الاخفاق الثاني : الانفجار الحقيقي للارهاب من الأرض التي تسيطر عليها منظمة التحرير. فمنظمة التحرير قامت بعمليمات ردع مخادعة للعناصر المسلحة وحتى انها قامت من حين لاخر بملاحقة عناصر حماس وذلك من اجل الاستهلاك المحلي الإسرائيلي والغربي ايضاً. ولكن بدلاً من نرع سلاح حماس ومنظمة الجهاد، فقد سعت لعقد تحالف تكتيكي معهما. مقترحة عليهما بأنه بدون وقف مؤقت للعمليات الإرهابية، فان حكومة حزب العمل الإسرائيلية، لن تكون قادرة على التخلي عن المزيد من الأراضي، وحثت منظمة التحرير العناصر المسلحة الإسلامية ان توقف هجماتها الإرهابية بشكل مؤقت، على أساس الفهم من انها يمكنها استئنافها فيما بعد من مناطق اوسع مسيطر عليها فلسطينياً. فالنموذج المرغوب منه اصبح واضحاً: فارهابيو حماس يضربون داخل إسرائيل، ليقوم النا طقون باسم منظمة التحربر بالتوضيح، بان السبيل الوحيد لوقف عمليات الإرهاب هو مواصلة "عملية السلام"، أي اعطاء الفلسطينيين المزيد من الأراضي، التي يمكن لحماس من خلالها، شن المزيد من الهجمات، وهكذا تتكرر الحلقة. وحيث ان الرأي العام الإسرائيلي يتملكه التعب جراء ذلك، فقد لا يكون هنالك لعرفات سوى ان يلجأ إلى اتخاذ خطوات حقيقية ضد

(*) هذه مقارنة سخيفة يوردها المؤلف .فلا مجال لمقارنة معاهدة السلام الفلسطينية مع صلح الحديبية الذي عقده الرسول (ص) مع كفار قريش،والذي كانت اهدافه ومبرراته معروفة ومفهومة تاريخياً.خاصة معروفون بنكث العهود وهذا كلام مردود عليه لأن التاريخ يشهد كم نكث اليهود وخانوا العهود والمواثيق. منذ اقدم العصور.

العناصر الاسلامية المسلحة، على الأقل إلى ان يحقـق خطتـه في انـشاء دولـة فلـسطينية عـلى طـول حـدود إسرائيل ما قبل عام ١٩٦٧.

ومما يدعو للأسف، مع ذلك، ان الحوافز التحريرية والإرهابية التي ستتركز باحكـام وبعمـق في سـبب وجود ومبرر مثل هذه الدولة، فان ليس مـن المحتمـل ان تختفـي في حـال قيامهـا أو انـشائها، بـل انـه في الحقيقة من المحتمل ان تزداد عندما يكون في المتناول أو المتيسر تحقيـق هـدف ازالـة إسرائيـل. ولا حتـى ايضا مع وجود اسس لديمقراطية فلسطينية، قد تؤسس هنـااك، يمكنهـا ان تـوفر قـوة أو ثقـلاً موازنـاً ضـد الإرتداد إلى الروح النضالية المتزايدة. وبالرغم مـن العطـف الـذي يحـصل عليـه مـن وسـائل الاعـلام، فـان عرفات قد بنى نظاماً مستنداً إلى الخـوف مـن الاغتيـالات الـسياسية، وعمليـات الاختطـاف وعـدم وجـود حريات صحافية. لـذلك فـإن العمليـة الحاليـة القائمـة بـين الفلـسطينيين وإسرائيـل، تـدفع بمنطقتنـا نحـو اضطراب وصراع عظيمين وليس باتجاه السلام، بل باتجاه الخطر نحو حرب متجددة بشكل مطلق.

وبدلاً من الإلتزام بالمناداة حالياً بتحويل الضفة بكاملها إلى دولة فلسطينية متفجرة، فإن هذا الكتـاب يضع أو يقدم نهجاً بديلاً لقيام سلام بين إسرائيل والعـرب الفلـسطينيين. يـدعو إلى قيـام حكـم ذاتي فعـلي للفلسطينيين مع الاحتفاظ بسلطات مركزية معينة، معظمها امني، في ايدي الإسرائيليين، وفي اعتقـادي فـإن تسوية نهائية ستكون ثابتة وراسخة فيما لو أنجز توازن حقيقي بين مطلبين أو حاجتين مختلفتين : تـدخل إسرائيلي ادنى في الشؤون الفلسطينية، واجراءات امنية قصوى ضد الإرهاب والتهديـدات العـسكرية الآتيـة من الشرق. فنحن بحاجة لبناء واقع جديد على الأرض، يربط إسرائيل، والفلسطينيين والأردن، وذلك لضمان الامن لجميع الاطراف. فبوجود الامن يمكن ان يكون هنالك تدفق حر للتفاعل بين جميع الاطراف. وبـدون وجود الامن، فسيكون هنالك فقط واقع الاغلاقات والعوائق القديم، ونقاط التفتيش، والركود الإقتصادي.

اننــي عــلى ادارك تــام، بــان العديــدين في الــوطن العــربي ســيطلبون المزيــد، مطــالبين بأنــه يجب على إسرائيل ان تعيـد المزيـد مـن الأراضي العربيـة المـسلوبة. وبمـا ان يهـودا والـسامرة هـي اراض

عربية مسلوبة، اذن فان يافا، وعكا والرملة هي بنفس المستوى، وبالتالي فان هذا يـشمل جميـع إسرائيـل. فإن لم يكن لليهود حق بالعيش في منطة يهودا، التي تشكل مهد الحضارة اليهودية، فـما هـو الحـق الـذي يملكون للعيش في اجزاء اخرى من الدولة اليهوديـة ؟هـذه هـي المـسألة الاساسـية الكـبرى، وهـي التبريـر الأخلاقي لوجود الدولة اليهودية، الذي يسعى هذا الكتاب لمعالجتها وطرحهـا. فهـو يقـدم دلـيلاً تاريخيـاً وقانونياً، يمكـن ان يـدهش العديـد مـن القـراء العـرب، مـن الـذين تـأثروا بالـشعارات المعاديـة لإسرائيـل والصهيونية. ومع ذلك، فان هذا الاختبار هو اسـاسي. فانكـار حـق الـشعب اليهـودي في العـيش في وطنـه الوحيد كان الامل الحقيقي للصراع العربي - الإسرائيلي. وانا لا اصر بالضرورة عـلى شركـاء (جـيران) إسرائيـل بان يقبلوا توصياتي المعنية من اجل ايجاد حل للصراع العربي-الإسرائيلي. ومع ذلك، فانني اصر، على قبولهم بحق إسرائيل في الوجود، بشكل لا غموض فيه، فبدون مثل هذا القبـول لا يمكـن ان كـون هنالـك تـسوية ممكنة. وسيكون على القيادة الفلسطينية، بشكل خاص، نبذ الافكار والنوايا التي تقبل بوجود إسرائيل مـن الناحية التكتيكية حالياً، وذلك رفضها فقط فيما بعد. وسيكون عليهم التخلص مـن الافكـار التـي سـيطرت على السياسات الفلسطيينية لمدة سبعين عاماً، وهي فكرة الغزو الصليبي الصهيوني الجديـد لمنطقـة البحـر المتوسط. يجب ببساطة، ان لا يوصف الشعب اليهـودي بالـصليبيين الجـدد. فـنحن شـعب قـديم امتـدت جذوره في هذه الأرض بعمق نحن نشعر بأننا مرتبطون بها بقوة كشعور أي عربي تجاه قريته وبيتـه. فـإذا ما ساد سلام حقيقي، فإنه يجب على ابناء سارة وابناء هاجر ان يدركوا هذه الحقيقة الاساسية، وان يعملوا على ازالة الافكار والدعوات الهدامة والمبتورة التي دعو لطرد الواحد والآخر من ارضه.

انني لا اشك بأنه من الممكن ان ينشأ مثل هـذا التعـايش الحقيقـي. صـحيح انـه سـيتطلب، مبدئياً، الإبقاء أو الاحتفـاظ بقـوة الـسلام المـسلح، لكـن مثـل هـذا الـسلام المحـصن قـد اسـتمر نحـو نـصف قـرن بـين الولايـات المتحـدة والاتحـاد الـسوفياتي، وحتـى انهيـار الإتحـاد الـسوفياتي

ونشوء الديمقراطية هناك والتي سهلت قيام سلام غير مسلح. ولكن بعكس الحالة الأمريكيـة -الـسوفياتية، فانه ليس لدى إسرائيل مصلحة في انهيار الوضع الداخلي لانظمة الدول العربية، الا ان لديها اهتمامـاً فـيما يتعلق بمسألة الديمقراطية فيها. انني لا اتحدث هنا عن التبني الظاهري لمؤسسات ديمقراطية التـي تكـون معرضة للحركات غير الديمقراطية للاستيلاء على السلطة. بل اتحدث عن نشوء مؤسسات مدنية ترتكز على التعددت واحترام حقوق الفرد. واعتقد بأنه لا شي يحول دون امكانية تحقيق ذلك. وانني لا اشارك وجهـة النظر المؤيدة، التي تقول ان المجتمع العربي غير قادر على استيعاب الديمقراطية بشكل متوارث، وان مقدر له ان يعاني للأبد تحت الحكم المستبد المطلق. فهنالك حضارات وشعوب عانت من الحكـم المطلـق لـزمن طويل جداً. وتحولت إلى الديمقراطية في هذاالقرن، مثل الشعب الـروس والـشعب اليابـاني، وربمـا الـشعب الصيني في المدى القريب. فلا يوجد هنالك سبب يحول دون تتبع الحضارة العربية لنفس النهج، كـما هـي الحال بالنسبة للممارسات الديمقراطية النشطة لمواطني إسرائيل العرب أو بالنسبة للعرب الأمريكيين، وكما هي الحال بالنسبة للخطوات الأولية للديمقراطية في الأردن.

بيد انه اولاً، يجب على العالمين العربي والاسلامي مواجه التحدي من قبل التطـرف الاسـلامي المـسلح، وان يقوما باتخاذ خيار تاريخي ما بين الحداثة واسلوب القرون الوسطى. وانني اعـارض بثبـات محـاولات البعض لتعريف الاسلام، على ان العدو الجديد لإسرائيل أو للغرب بعد انهيـار الـشيوعية، فـنحن لا نواجـه التحدي من العقيدة العظيمة للاسلام، وانما من دول ومنظمات معينـة تـشوه وتحـرف وتـستقطب. بعـض المعتقدات الاسلامية الرئيسة. لـذلك يجـب عـلى المجتمعـات العربيـة، ان تقـرر، فـيما إذا كانـت ستخـضع لتفسير ضيق وملتو للعقيدة الاسلامية، أو فيما إذا كانت سـتقاوم هـذا الإرتـداد. وربمـا يعتـبر هـذا اعظـم تحـد للجميـع، ويـؤثر بقـوة في المجـال العـربي- الإسرائـيلي. وفي الواقـع، فـان إسرائيـل لا يمكنهـا التـدخل في هذه العملية. بل انه الخيـار الـذي يجـب ان تقـوم بـه المجتمعـات العربيـة نفـسها، ويمكـن للمـرء ان

يصلي، فقط، من اجل قيام الزعماء العرب بالسير بهذه المجتمعات في الطريـق الـصحيح. لـيس فقـط فـيما يتعلق بالعلاقات ما بين اليهود والعرب، بل ايضاً ما بين العـرب والعـرب. وعـلى نحـو مطلـق، فانـه اختبـار وتنافس بين قوى التـسامح وقـوى التطـرف أو التـشدد التـي سـتقرر الوضـع أو الـشكل الحقيقـي للـشرق الأوسط الجديد الذي سنشهده: فاما يكون هنالك الانجراف نحو العنف العسكري، أو التقدم باتجـاه حـل للنزاع وانتشار السلام والتقدم للجميع.

اخـيراً، فـإنني مـن خـلال محتويـات هـذا الكتـاب بمجملـه،، تناولـت مختلـف النزاعـات الـسياسية والاجتماعية الاسلامية والعربية (المواجهة لإسرائيل، والغرب، والسياسات الداخليـة، الـخ). ولا اعنـي بـدلك ضمنياً بأنه لا يوجد هنالك استثناءات للظاهرة التي اقوم بوصفها. فالعالم العربي، وحتى بشكل اوسع العالم الإسلامي، عبارة عـن نـسيج معقـد في تـركيبتهما، حيـث يزخـران بـالأمور الإسـتثنائية فعـلى سـبيل المثـال، المعارضة الواسعة المبكرة للصهيونية وإسرائيل في العالمين العربي والاسلامي كان يتخلـلـها دومـاً الاختلافـات والانشقاقات، ومع ذلك فقد كانا يختاران اخراسها واخمادها. وعلى نحو سماوٍ فان العداء التاريخي للغرب اتخذ ايضاً من قبل اطراف اظهرت صداقتها الحقيقية للعالم الغـربي (فعـمان والمغـرب يعتـبران مثـالاً عـلى ذلك، وهنالك دول اخرى). لذلك فان هدفي لم يكن منصباً على معالجة القوى المتماثلـة، وانمـا عـلى القـوى المهيمنة الحالية التي فرضت واوجدت الوضع التاريخي للصراع العربي الإسرائيلي. ومـما يـدعو للـسرور، ان عدد ومجال الدوافع المعادية لإسرائيل وللغرب التي ازدادت على مدى العقـود الاخـيرة، قـد خلقـت فعليـاً املاً متزايداً لنشوء مستقبل مختلف وافضل للعرب واليهود على حد سواء.

المؤلف

بنيامين نتنياهو

الكنيست ١٩٩٥/٩/١١

مقدمة المؤلف للطبعة العبرية

اعتدت خلال عملي كسفير لإسرائيل لدى الامم المتحدة،في منتصف الثمانينات، الالتقاء احياناً بصورة سرية مع أحد السفراء العرب في الأمم المتحدة.

في أحد اللقاءات، قال لي الدبلوماسي العربي: "أنني أقول لإخواني العرب - لقد انتهى الأمر".

سألته: ما الذي انتهى؟

اجابني: الخيار العسكري العربي."فمنذ حرب حزيران لم تعد لدينا امكانية اخضاع إسرائيل في ميدان المعركه: وان أية حكومة إسرائيلية لن توافق على العودة إلى خطوط عام ١٩٦٧. انني اقول لاخواني: لا خيار لدينا سوى التسليم بوجود إسرائيل".

لقد انطوت تلك المحادثة على اعتراف جديد كان ينتشر تدريجياً في كل الدول العربية بعد الانتصار الإسرائيلي في حرب الايام الستة.

ادى هذا الانتصار إلى نقل حدود الدولة من ضفاف نهر اليركون إلى ضفاف نهر الأردن، ومن مشارف النقب إلى قناة السويس.

في مثل هذا الوضع، لم يعد بمقدور الجيوش العربية التغلغل إلى قلب إسرائيل في اجراء سريع ومفاجىء.

وقد اتضحت للعرب صحة هذا التقرير في حرب يوم الغفران، التي نشبت على حدود إسرائيل الموسعة وبدأت في ظل ظروف تفاؤلية، بالنسبة للعرب، ولكن. في نهايتها، وقف الجيش الإسرائيلي على ابواب القاهرة ودمشق.

ادى الاعتراف بعدم قدرة العرب على هزيمة إسرائيل في حدودها الموسعة إلى خلق نظريتين مختلفيتن في العالم العربي:

النظرية الأولى، تقتضي بضرورة التسليم، ولو بحكم الأمر الواقع، بوجود إسرائيل، والشروع في نهاية الأمر بالتفاوض معها على السلام.

ادت هذه النظرية إلى مصالحة تدريجية بين الأردن وإسرائيل، تم في نهايتها التوقيع على معاهدة سلام رسمية بين الدولتين. وكانت تلك هي نظرية السفير العربي، الذي كنت اتحدث معه في الامم المتحدة، وعناصر اخرى في العالم العربي، تتقدم بثبات منذ حرب الأيام الستة، نحو تحقيق سلام رسمي وكامل مع إسرائيل.

غير انه، في المقابل، تطورت في الاوساط العربية نظرية اخرى مختلفة في غايتها. اذ اعتقد اصحاب هذه النظرية ان العرب غير مضطرين للتسليم بوجود إسرائيل، وباستطاعتهم مواصلة السعي للقضاء عليها، فان لم يكن بالإمكان تدمير إسرائيل ضمن حدودها الحالية، فيجب اعادتها اولاً إلى الحدود الضيقة التي سبقت حرب الايام الستة، ومن ثم شن هجوم مدمر على الدولة اليهودية. ومن اجل اعادة إسرائيل إلى خطوط ١٩٦٧، يجب العمل ضدها عن طريق الدمج بين الهجمات الارهابية والعنف. ومن ثم الإنتفاضة، بالاضافة إلى ممارسة ضغوط عربية على الدول الغربية التي ستحمل إسرائيل على الإنسحاب.

تقود منظمة التحرير الفلسطينية التوجه الثاني منذ أكثر من عشرين سنة، منذ اللحظة التي تبنت فيها، بشكل رسمي، "مشروع المراحل" في ٨ حزيران ١٩٧٤ وبناء على هذا المشروع، تقيم منظمة التحرير الفلسطينية في المرحلة الاولى، دولة فلسطين على أي منطقة من الأرض يخليها العدو الصهيوني، وفي المرحلة الثانية، يتم ابرام احلاف عسكرية بين هذه الدولة وبين دول المواجهة الأخرى، بغية شن هجوم مشترك على إسرائيل المصغرة، لتدميرها.

حتى عام ١٩٩٢، عملت كافة الحكومات الإسرائيلية من اجل تقوية النظرية الاولى في العالم العربي، والتي، على اساسها، سعت لتحقيق مصالحة تدريجية بين العرب وإسرائيل، في حدودها الموسعة.

وعلى الرغم من وجود خلافات في الرأي حول خطوط الحدود الدقيقة، كان هناك اجماع وطني واسع بشأن عدم العودة إلى حدود عام ١٩٦٧وعدم السماح بقيام دولة فلسطينية غرب نهر الأردن.

لقد ادى انهيار دولة الإتحاد السوفياتي. التي كانت تدعم الدكتاتوريين العرب، وهزيمة العراق في حرب الخليج، إلى خلق ظروف دولية مريحة لتحقيق الهدف الإسرائيلي-اي، تحقيق تسويات سلمية مع العرب، لا تسلب من إسرائيل مكاسبها في حرب الأيام الستة وعلى اساس هذا المفهوم شرعت إسرائيل لاول مرة في مفاوضات مباشرة مع كل جيرانها في مؤتمر السلام الذي عقد في مدريد عام ١٩٩١.

غير انه لدى تسلم حكومة يسارية السلطة في عام ١٩٩٢. طرأ تحول حاد في السياسة الإسرائيلية، فمن خلال تجاهل مدهش للهدف النهائي المعلن من قبل منظمة التحرير الفلسطينية،عملت حكومة إسرائيل يداً بيد مع عرفات، في اتفاق اوسلو ١٩٩٢، وتبنت، في واقع الأمر، المرحلة الاولى من "مشروع المراحل" الفلسطيني - انسحاب إسرائيلي فعلي إلى خطوط عام١٩٦٧ وخلق الظروف لإقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة (باستثناء المستوطنات التي ستبقى في المرحلة الإنتقالية بمثابة جزر معزولة في منطقة فلسطينية معادية، والقدس التي التزمت الحكومة الإسرائيلية ببحث وضعها في المرحلة النهائية للمفاوضات).

كيف حدث هذا التحول في السياسة الإسرائيلية؟

ان من يدرس التيارات الفكرية التي تفرض أي اجراء سياسي، يمكنه ان يدرك طيلة السنوات الماضية، كيف نجحت الدعاية العربية في التغلغل عمقاً داخل اوساط واسعة في اليسار الإسرائيلي، وعن طريقه إلى أجزاء اخرى من المجتمع اليهودي في البلاد.

لم يكن من الصعب على منظمة التحرير الفلسطينية،ادراك انه لن تكون هناك امكانية لحمل إسرائيل على الانسحاب، دون حملة اعلامية شاملة تؤدي إلى احداث تغيير في الرأي العام العالمي، ومن ثم في الرأي العام الإسرائيلي.

دمجت الاستراتيجية التي تبنتها المنظمة بين الارهاب والإنتفاضة، وبين الإدعاءات الإعلامية التي ظلت تؤكد باستمرار حق الشعب الفلسطيني في "أرض إسرائيل".الإدعاء الذي لاقى قبولاً لدى بعض الجمهور الإسرائيلي كحقيقة غير قابلة للجدل.

ومن خلال التأكيد على الظلم الذي تسببه إسرائيل بسيطرتها على شعب آخر واحتلال أرضه، ظت منظة التحرير تكرر التأكيد على ان السلام يمكن تحقيقه بعد زوال الإحتلال فقط، أي بعد اقامة دولة فلسطينية، إلى جانب دولة إسرائيل المصغرة.

لم يكن بالإمكان نجاح هذه الدعاية لولا جهل اجزاء واسعة من الجمهور الإسرائيلي بحق الشعب الإسرائيلي في أرضه، وتاريخ النزاع العربي - الإسرائيلي، والأهداف الحقيقية لمنظمة التحرير الفلسطينية وشركائها، والخطر الفظيع الذي يمكن ان يهدد إسرائيل في حالة عودتها إلى خطوط ١٩٦٧.

لكن هنالك سبباً آخر لنجاح هذه الدعاية. سبباً يجب اعتباره ظاهرة مزمنة موجودة لدى الشعب اليهودي لاكثر من مائة عام. فمنذ ظهور الحركة الصهيونية السياسية وبدء عملها الجاد للنهضة القومية اليهودية، بدات تظهر بين يهود اوروبا الشرقية، حركات يسارية متطرفة تحقد بشدة على الصهيونية واهدافها. هذه الحركات مثل "بوند" التي نادت بمستقبل يهودي اشتراكي في المهجر، والشيوعيين اليهود الذين اعتبروا الحركة الصهيونية اداة الامبريالية البريطانية تتوقف عن اثارة الجماهير اليهودية في الشتات ضد الصهيونية، وابراز اخطائها واخفاء انجازاتها. وقد زاد هذا التحريض. بشكل خاص في اعقاب اعمال المقاومة العربية الأولى في البلاد عام ١٩٢٠، وذلك عندما استخدموا المقاومة العربية التي نظمها الحاقدون على اليهود من البريطانيين، كدليل على ان الصهاينة يحاولون احتلال أرض ليست لهم واقتلاع العرب منها وهم اصحابها الحقيقيون.

في الفترة التي سبقت حرب الاستقلال وفي السنوات الأولى للدولة انتشرت تدريجياً هذه الادعاءات من قبل معارضي الصهيونية في اوساط اليهود، لتصل إلى اوساط يسارية داخل

الحركة الصهيونية نفسها. ومع اشتداد المقاومة العربية واصبحت هذه الادعاءات حقائق مسلماً بها، غير انها ليست معلنة، لدى شريحة واسعة من اليسار الصهيوني.

هذا الاعتراف الداخل، بان تقدم الحركة الصهيونية يتوقف على قمع العرب في البلاد االذين كان قد اطلق عليهم اسم "الشعب الفلسطيني" كان بمثابة الاساس الفكري الذي خلق الخلفية الشعورية لإستيعاب وقبول الدعاية العربية في اعقاب حرب الأيام الستة. وهكذا تبلور لدى هذا الجمهور الاستعداد لقبول ادعاءات منظمة التحرير ومؤيديها، بان إسرائيل ملزمة بأن تعيد للعرب الاراضي التي احتلتها في عام ١٩٦٧، واعتبار هذه الاعادة، بمثابة تعويض للعرب، أو تلبية جزئية لمطالبهم العادلة، يمكن أن يجعلهم يتصالحون مع الصهيونية.

في الواقع، تحولت الرغبة في التخلص من المناطق إلى ما يشبه احدى المسلمات لدى الاشخاص "المفكرين" الأخلاقيين"، و"المثقفين"، لا يجوز معارضتها: يجب على إسرائيل الخروج من المناطق، بما فيها هضبة الجولان، التي لا يوجد فيها عرب تقريباً.

ولكي يبرروا الانسحاب على هذه الجبهة، يورد مؤيدوها مقارنة كاذبة بين نزع السلاح من منطقة سيناء، بموجب اتفاقيات كامب ديفيد، التي ابقت بأيدي اسرائيل العمق الاستراتيجي التي تحتاجه للدفاع عن نفسها، وبين انسحاب اسرائيلي من مرتفعات الجولان، التي حتى لو تم نزع السلاح منها، ستبقى اسرائيل مكشوفة لهجوم مستقبلي.

أما ما يتعلق بمناطق الضفة الغربية، فإن أهميتها من حيث الحق اليهودي التاريخي في هذه البلاد، لا تحظى حتى بالتطرق إليها من قبل مؤيدي الانسحاب ولم تعد لها في نظرهم أية أهمية أمنية.

لذا أصبح الطموح في التخلص أو الانفصال عن قلب أرض اسرائيل مبدأً أيديولوجياً وأمرا الهياً لدى قسم كبير من الجمهور الاسرائيلي.

ولتحقيق هذا الهدف تجنّد عدد من الكتّاب، والمسرحيين والمحاضرين والصحفيين المعروفين في الدولة، وفي سبيل ذلك، كانوا على استعداد لتجاهل كافة المؤشرات الانذارية التي تؤكد بأن منظمة التحرير الفلسطينية وشركاءها لم يتنازلوا قيد أنملة عن خطتهم لإبادة إسرائيل. حتى أنهم كانوا على استعداد لقبول تفسير ياسر عرفات المضحك بأنه قصد السلام، عندما دعا المسلمين، في أعقاب اتفاق أوسلو، إلى الجهاد من أجل تحرير القدس.

وهذا الاستعداد لتقديم تنازلات بعيدة المدى، تمت تغطيته منذ البداية، من قبل مسؤولي حكومة رابين، من خلال تقدمهم الانتقائي في مرحلة الانسحاب من غزة وأريحا كجزءمن اتفاق أوسلو.

لقد سميت هذه المرحلة "بغزة وأريحا أولاً"، مع تركيز خاص على غزة، التي كانت في نظر جزء كبير من الجمهور الإسرائيلي ليست ذات قيمةأمنية أو تاريخية، بل عبئاً ومصدراً للازعاج، ولذلك لميعارضوا التخلي عنها.

ولكن بعد مرحلة الانسحاب الأول هذا، اتضح نهائياً أن ما هو قادم بمقتضى اتفاق أوسلو، هو تحقيق المطلب العربي في الانسحاب إلى خطوط عام ١٩٦٧، وإقامة دولة فلسطينية، وجعل القدس الشرقية عاصمة لهذه الدولة.

ومن قبل اعداد الرأي العام لمواصلة الانسحاب، كان لا بد من التغلب على ثلاثة عناصر رئيسية:

* المخاوف الأمنية السائدة لدى جمهور من تسليم مناطق استراتيجية في وسط البلاد وشمالها لسيادة عربية.

* الرابطة الوطنية العميقة مع هذه الأجزاء من البلاد، التي تشكل قلب الوطن اليهودي.

* التعبير العملي لهذه الرابطة (العلاقة) المتمثل باستيطان يهودي واسع في هذه المناطق.

لذا كان على دعاة الانسحاب الغاء أهمية كل واحد من هذه العناصر لدى الرأي العام الإسرائيلي، وبحماس متزايد، أخذوا يدعون بأن العدو ليس عدواً، والوطن ليس وطناً والاستيطان ليس استيطاناً، إنما هو عبء زائد ألقي على كاهل العناصر الأمنية ويجب التخلص منه.

إن الزعماء اليساريين بتجاهلهمالمنهجي لنوايا منظمة التحرير الفلسطينية المعلنة، يوافقون في قرارة أنفسهم على الادعاء العربي، بأن الصهيونية تستند إلى خطيئة، تتمثل في احتلال أراض شعب آخر، غير أن موافقة اليسار الإسرائيلي هذه لا تنطوي على تأييد تشويه تاريخي خطير فحسب، إنما تعزز مقاومة العرب لدولة إسرائيل، وتمنحهم عدالة أخلاقية لدى الرأي العام العالمي، وتقوّض الايمان بعدالة قضيتنا، لدى شعبنا في الداخل وفي المهجر.

إن نظرية ما بعد الصهيونية هذه تعتبر أكثر خطورة على مستقبلنا من هجمات خارجية، حيث أن تنازل دولة إسرائيل عن المبادئ الصهيونية يعتبر تنازلاً عن مصدر حياتها، وعندئذ تبدأ بالذبول.

إن الافتراض القائل بأنه يمكن اصلاح الظلم الذي لحق بالعرب عن طريق إعادة الضفة الغربية إلى حكم عربي، مانعين بذلك إثارة مطالب مشابهة بالنسبة لمناطق أخرى، كان خرج منها العرب في عام ١٩٤٨، يعتبر افتراضاً فارغاً.

لا يمكن إصلاح الظلم الكبير عن طريق تقليص حلبة الجريمة لتقتصر على المناطق الواقعة داخل الخط الأخضر.

إذا لم يكن هنالك حق لليهود في الاستيطان في الخليل وفي بيت ايل، فليس لهم الحق أيضاً في البقاء في حيفا ويافا، كما تدعي منظمة التحرير الفلسطينية.

عبثاً يحاول دعاة الانسحاب، التخلص من هذا الاستنتاج ويمنعهم تفاؤلهم الساذج من رؤية هذا المبدأ الأساسي.

إن من شأن التنازل عن الضفة الغربية تعزيز المطالبة العربية بالجليل والنقب ومناطق أخرى في دولة إسرائيل فقط.

أضف إلى ذلك أنه ليس من الصعب الادراك سلفاً أنه بعد أن تحصل المنظمات الفلسطينية من الحكومة الاسرائيلية عن التنازلات المطلوبة منها اليوم، ستستأنف بقوة أكثر الأعمال الارهابية ضد اليهود، قبل أن تشن حرباً حاسمة، فها هي قد حصلت عن طريق الارهاب، من حكومة إسرائيل على عقارات بالغة القيمة، وما الذي يمنعهم من الايمان بأنهم قد يحصلون على مكاسب أخرى عن طريق استئناف الأعمال الارهابية وتوسيع نطاقها؟

وبناءً على هذا المفهوم، سواء بالنسبة للهدف النهائي أو بالنسبة لأسلوب تحقيقه، تشكل منظمة التحرير الفلسطينيةمرشداً وفياً لحماس ولبقية الحركات الإسلامية المتطرفة.

إن المعنى العملي لتسليم مناطق لمنظمة التحرير الفلسطينية هو، على أية حال، تسليم هذه المناطق إلى قوى الارهاب والإسلام الأصولي.

هكذا سيؤدي الاستمرار في تطبيق اتفاق أوسلو إلى تطويق إسرائيل بحزام من قواعد الارهاب الإسلامي، هدفها الوحيد القضاء على دولة إسرائيل.

إن الهدف من هذا الكتاب هو تفنيد الفرضيات الأساسية للنظرية الخاصة بعناصر النزاع العربي – الإسرائيلي وطرق تسويته، كما تعرضها الدعاية العربية – تلك الفرضيات التي أصبحت مسلماًبها، لدى شريحة لا بأس بها من الجمهور الإسرائيلي. لقد جاء التعبير عن الاعتراض على هذه الفرضيات في مجالين رئيسيين:

هذ، الفرضيات في مجالين رئيسيين:

- المجال الأخلاقي - عرض النظرية الصحيحة وحق الحركة الصهيونية، وتعرية كذب الإدعاءات العربية المضادة.

- لف المجال العملي - عرض النظرية السياسية والامنية المطلوبة لضمان بقاء دولة إسرائيل، وتحقيق سلام حقيقي مع جيرانها.

مقابل خطة اليسار الإسرائيلي المؤدية بالضرورة. إلى استئناف المطالبة العربية بتطبيق مشروع التقسيم من عام ١٩٤٧. وتطبيق حق العودة، يبين هذا الكتاب، بانه توجد طرق اخرى اخلاقية ومألوفة عالمياً. في مجال معالجة مشاكل الأقليات القومية- طرق لا تنطوي على تعريض وجود الدول. التي توجد فيها مثل هذه، الأقليات. للخطر.

يطرح هذا الكتاب نظرية مختلفة لحل هذه المسألة، ويرفض الراي القائل، بان الطريق الوحيدة لحل مشاكل الأقليات بيننا. هي تنفيذ سياسة الترحيل (ترانسفير) بالنسبة للعرب. أو "فصل الشعوب" الذي يعني خروج اليهود من المناطق التي يعيش فيها عرب ايضاً. بما فيها مناطق داخل الخط الأخضر، والتي سيطولها التمرد ضد الحكم اليهودي.

كما ان الكتاب يبّين، ايضاً، كيف يمكن ان نحافظ ونوسّع دائرة السلام بيننا وبين الدول العربية، دون القيام باجراءات قد تعرض السلام للخطر، وتؤدي في نهاية المطاف إلى انهياره.

مثلما ان السلام التدريجي بيننا وبين العرب، اصبح ممكناً كنتيجة للإلغاء الخيار العسكري للقضاء على الدولة العبرية في اعقاب انتصارنا في حرب الايام الستة كذلك، ستؤدي عودتنا إلى خطوط عام ١٩٦٧ لإبتعاد العرب تدريجياً عن السلام، ولزيادة الاعمال الإرهابية، لتأخذ أبعاداً أوسع. من كل تلك التي عرفناها حتى اليوم، واستئناف حالة حرب دائمة بيننا وبين العرب في الداخل والخارج.

وفي اعقاب التنازلات الكبيرة في مجالي الأرض والقوة، التي ستطلبها إسرائيل في انسحابها لخطوط ١٩٦٧. وبعد مراسيم الدعاية الإحتفالية التي سترافق التوقيع على اتفاقيات هذا الإنسحاب. سيتبدد الغبار الذي يثقل على رؤية الأمور على حقيقتها. وسنقف مقزّمين ضعفاء. في مواجهة واقع مر ومحزن : عندئذ ستسمع من حولنا. وبشدة أكثر. المطالب

المطروحة اليوم ايضاً بشأن مواصلة التنازل عن المناطق التي احتللناها بصورة غير مشروعة، وخلافاً لاتفـاق التقسيم الاصلي، وسنجد ايضاً بيننا، من يؤيد الادعاء بأنه ليس لنا الحق في الإحتفاظ، حتـى في هـذا الجـزء الصغير من البلاد المتبقي بأيدينا.

هذه المسيرة، سـتؤدي بالـضرورة، امـا إلى حـرب جديـدة فظيعـة، أو إلى القـضاء عـلى دولـة إسرائيـل "بالطرق السلمية"، هذه المسيرة التي يجب علينا ان نوقفها. وهذا التوقف ممكن، عن طريق الـتخلي عـن سياسة التنازلات المتلاحقة واستبدالها بسياسة واعية وشـجاعة، تعمـل عـلى تجنيـد الرغبـة في البقـاء لـدى الشعب، وتجدد ايمانه القوي بمستقبله.

نحن نقف الآن على اعتاب فترة تاريخية تنطوي على آمال واخطار معاً، فالنظام العالمي القديم انهار، في حين ما زال النظام الحالي الجديد بعيداً عن القدرة على الوقـوف عـلى قدميـه، والـضمان الوحيـد لبقـاء دولة صغيرة في فترات عاصفة كهذه،هي قدرتها على التحرك بصورة صحيحة بـين التيـارات المتلاطمـة لهـذا الواقع، وان تستحضر من داخلها، الإصرار المطلوب للنضال، من اجل حقهـا في تكـريس وجودهـا في وطنهـا العتيق، وبناء مستقبلها من جديد عليه.

وانه لا يدعو للأسف، اننا نرى طبقات معينة من الجمهور الإسرائيلي تركض بجنون، نحو مـا هـو مفـروض علينا من منظمة التحرير الفلسطينية- ركضاً ينبع من روح مجنونه سيطرت على جزء من الشعب. ومن تفضيل ما هو "آني" على ما كان وما هو آت معاً، ورؤية سياسية وأمنيـة قـصيرة المـدى، والـتخلي عـن حقـوق الـشعب اليهودي في أرضه، التي تعتبر الأساس الاخلاقي الوحيد لاحتفاظنا باي جزء من هذه البلاد.

ان أحداً لا يعلم ما ينتظر الشعب اليهودي في القـرن الواحـد والعـشرين. ولكـن علينـا بـذل كل جهد ممكن. لـكي نـضمن ان يكـون مـصيره افـضل مـن مـصيره في النـصف الاول مـن القـرن العشرين، قرن الكارثة. فمن جهة، ثباتنـا، مـن جديـد، عـلى "أرض إسرائيـل"، واسـتئناف الـسيادة اليهوديـة وقـوة الـدفاع اليهوديـة، واحيـاء الثقافـة اليهوديـة، عـلى اسـاس القـيم الدائمـة

لشعب إسرائيل - كل هذه الأمور، تعتبر مؤشرات لثورة كبرى في وضعنا القـومي، التـي بمقـدورها ايـضاً، ان تؤدي إلى قبولنا لدى معظم جيراننا كحقيقة قائمة في المنطقة، وضمان مستقبل الشعب اليهودي كله.

ومن جهة ثانيه،تبرز حالياً مؤشرات اخرى لا تبشر بالخير لشعبنا. اننا نشهد تصاعداً جديـداً للاسـامية، بما فيه موجة قوية من الكراهية لإسرائيل، من جانب القوى الإسلامية التي تـزداد قـوة، كـما نـشهد زيـادة سريعة في الانصهار اليهودي في المهجر - وهما العنصران اللذان يشكلان اهـم عنـاصر المـشكلة اليهوديـة في العالم.

غير ان المسألة اليهودية برمتها، لا تشغل اليسارين في الزعامة السياسية، الذين تـسيطر علـيهم فكـرة تحرير الفلسطينيين من نير الاحتلال الإسرائيلي، من خلال خروجنا من قلب وطن الشعب اليهودي.

ان الإعتراف بان الشعب اليهودي ايضاً يجب ان يكون له مكان تحـت الـشمس، وان لـيس لـه مكـان آخر سوى "أرض إسرائيل"، ليس هو النظرية التي تحرك رجال اليسار. اليوم، وعلى أيـة حـال، فـان الفكـرة ليست متجذّرة في فهم عميق لمصادر الحق اليهودي على هذه الأرض، وفي معرفة الشروط المطلوبة لترسيخ هذا الحق فعلياً.

غير انه، بدون ايمان قـوي بعدالـة قـضيتنا. لـن نـستطيع مواجهـة التحـديات، ودون معرفـة واضـحة بوضعنا الوهطي. لن يخلق فينا مثل هذا الايمان.

على أية حال، ان تنمية وعينا الوطني. هو الأمر الذي سيحدد مصير صراعنا الطويل مع العالم العـربي، وهو الذي سيضمن مستقبل الامة في عهد السلام ايضاً. وهو موضوعنا الرئيسي في هذا الكتاب.

المؤلف

مدخل

تعتبر عودة اليهود إلى منصة التاريخ كأمة ذات سيادة، حدثاً فريداً في تاريخ البشرية، ولكن، رغم خصوصيته، لا يمكننا البحث في صراع الشعب اليهودي في سبيل اقامة دولة إسرائيل، بعيدا عن توق كافة الامم لنيل الحرية والاستقلال.

لذا يمكننا ادراك تكوّن الحركة الصهيونية، بصورة كاملة، من خلال التطرق إلى الصراعات الكبيرة التي هددت مسيرة التاريخ في القرنين الاخرين - الصراع يين الطموحات القومية، وبين الطموحات الامبريالية، الاصطدامات يين المطالبة بحق تقرير المصير، وبين الايديولوجية الشيوعية، التي تعتبر دولية وفوق دولية من اساسها.

لهذا السبب، لا بد ان تكون هنالك تأثيرات عظيمة للتقلبات السياسية التي تشهدها نهاية القرن العشرين، على مستقبل دولة إسرائيل.

من الصعب ايجاد قرائن تاريخية للانهيار المدهش الذي اصاب الاتحاد السوفياتي،ففي لحظة، انفجر الحلم السوفياتي لتحقيق حكم عالمي يشرف على سلسلة من المناطق المنضبطة من اوروبا الشرقية وحتى أمريكا اللاتينية.

وهكذا، بشكل مدهش، تبخر الايمان بالشيوعية كنظرية يمكن ان تؤدي إلى نظام عالمي وعدالة بشرية- نظرية آمن بها ملايين الناس، بحماس بلغ درجة التعصب الديني.

ان انهياراً مزدوجاً كهذا، الذي اصاب اكبر امبراطورية في التاريخ (من حيث المساحة)، واكبر كنيسة في التاريخ (من حيث عدد اتباعها)، لا بد ان يترك اثاراً سياسية عظيمة تطول كافة الامم والدول.

ليس عبثاً ان يدور الان جدال حاد حول مبادى جديدة يمكن ان تساعد البشرية على تهدئة عالم عاصف.

من المفهوم في حد ذاته، ان يتركز هذا الجدال، في البداية، حول الجمهوريات السوفياتية السابقت والدول التي شكلت الكتلة السوفياتية، ونالت حريتها الان. غير ان ستكون هناك اثآر على التسويات التي ستتبع.

في هذه الدول، على بقية اجزاء العالم، وعلى الطريقة التي بوساطتها، يتم حل النزاعات القومية والعرقيّة المختلفة التي تندلع في العالم صباح مساء.

ان المجتمع الدولي وهو يسعى لتحقيق نظام جديد، يعود مرغماً تقريباً، إلى النقطة التي سبقت ظهور الشيوعية،فظهور الشيوعية والحرب الباردة التي تمخضت عنها، كانا بمثابة جليد، طمر تحته كثيراً من المشاكل غير المحلولة من القرن التاسع عشر، مشاكل ربما كانت طيلة عشرات السنين غير مرئية، لكنها ظلت مجمّدة ومحفوظة جيداً (على غرار ما نشهده الان في الصراع العرقي المتجدد في البلقان).

في الواقع، هناك من يدعي بأن القرن التاسع عشر لم يكن ذا مشاكل ابداً. اذ انه في اعقاب هزيمة نابليون في عام ١٨١٥، اصبح هذا القرن هو الأهدأ منذ الفي سنة- منذ "سلام روما" الذي تحقق بتهديد العساكر. لقد اقتسمت الامبراطوريات المتنازعة فيما بينها، العالم، كمناطق نفوذ، دون الحاجة إلى الدخول في حروب كبيرة أو التسبب في كوارث خاصة. غير انه تحت الواجهة الخارجية الهادئة تلك، كان هناك غليان لا ينقطع. حيث ان قبائل تاريخية عريقة، وامارات مستقلة، ومدناً كبيرة على غرار ما كان سائداً في العصور الوسطى، تعاونت معاً في انحاء اوروبا، واوجدت أمماً محددة، وانتقل ملايين الاشخاص من القرى إلى المدن الكبرى الصناعية.

وهذه المسيرة، لا زالت قائمة في عصرنا هذا، انتقلت من اوروبا إلى اسيا وافريقيا، وهي تغيّر وجه العالم كله اليوم.

الحركات القومية، التي ظهرت في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، سرعان ما اصطدمت بالنظام العالمي في تلك الفترة وبعد "ربيع الشعوب" القصير قُمعت الثورات القومية في عام١٨٤٨ دون رحمة.

غير انه في نهاية الامر، عندما انهارت الامبراطوربات الكبيرة في اعقاب الحرب العالمية الاولى، دعت الضرورة إلى ايجاد حلول لمختلف المشاكل المتعلقة بتقرير المصير للشعوب الحي كانت ضمن سيطرتها.

وعلى أية حال، بعد الانتصار في الحرب العالمية الاولى عملت دول الحلفاء يداً واحدة، من اجل وضع نظام عالمي جديد، وقعت على معاهدة فرساي، انشأت عصبة الامم، واعترفت رسمياً بنظرية تقرير المصير، التي نادى بها الرئيس ويلسون.

كان مؤتمر فرساي، في الواقع، اول مؤتمر في سلسلة طويلة من المؤتمرات الدولية التي عقدت في الفترة ما يين١٩١٩-١٩٢٢، من اجل تقرير نتائج الحرب العالمية الاولى، وكان رئيس حكومة بريطانيا ديفيد لويد جورج، أحد مهندسي هذه الاجتماعات (المؤتمرات)، قد شارك بما لا يقل عن ٣٣ مؤتمراً في تلك الفترة.

كان من ابرز تلك المؤتمرات (بالنسبة لليهود)، مؤتمر فرساي (الذي عقد في كانون ثان١٩١٩)، ومؤتمر لندن الاول (نيسان١٩٢٠)مؤتمر سوار في فرنسا(آب ١٩٢٠).

ولعدة اسباب، يمكننا تعريض القرارات التي اتخذت في تلك المؤتمرات بأنها "تسويات فرساي".

لقد تمخض عن مؤتمر فرساء والمؤتمرات التي تلت خطت مفصلة، تحدد بموجبها من يأخذ كذا... ولماذا.

كانت تلك الخطة تستند في اساسها إلى نظرية ويلسون التي تمنح الحق للجماعات القومية المتفرقة باقامة دولة لها، تستطيع في اطارها تحديد نمط حياتها باسلوبها الخاص وبمحض حريتها.

لم يكن بالامكان دائما تطبيق هذه الخطة حسب هذا المفهوم. ففي حالات معينة، عندما كان يبدو عدم وجود امكانية عملية لمنح كل قومية مكانة مستقلة، كان يتم تجميع عدة امم في

دولة واحدة، كما حدث في تشيكوسلوفاكيا، يوغسلافيا، غير ان هاتين الحالتين كانتا فريدتين. فمثلاً، حظيت جمهوريات البلطيق-ستونيا، لاتفيا، ولتوانيا- التي تتمتع كل واحدة منها بلغة وتاريخ وثقافة خاصة بها، بمكانت امم مستقلة. كما حظيت بالاستقلال ايضاً، بولندا، التي كانت مقسمة طيلة ما يزيد على مائة عام، بين روسيا، بروسيا، والنمسا.كما تم تحرير هنغاريا، التي كانت تخضع آنذاك تحت حكم الامبراطورية النمساوية-الهنغارية.

وبناء على هذا المقياس، كان من المقرر ان تتحرر ارمينيا، جورجيا، واذربيجان من النير الروسي.

كما ان اقاليم في انطوليا الغربية المأهولة بأغلبية يونانية، كان مقرراً ان تنقل إلى اليونان، وكذلك البانيا، نالت استقلالها، في حين نالت كردستان حكماً ذاتياً. اما استراليا، كندا، وجنوب افريقيا، فقد أُعترف بها لاول مرة كدول ذات سيادة، ومُنح اعتراف مماثل لشعب واحد آخر هو: الشعب اليهودي.

كانت الحالة الودية، مختلفة، بالطبع، اذ انه خلافاً لبقية الشعوب، كان الشعب اليهودي مشتتاً، بعد ان هجر موطنه قبل مئات السنين، غير ان هذا الامر لم يكن كافياً لتغيير قرار دول الحلفاء، في مطلع القرن الحالي، القاضي بحق اليهود في دولة خاصة بهم، بل على العكس، عزز تشردهم المأساوي المستمر، الايمان بأنهم يستحقون دولة خاصة بهم، تضع نهاية لتشردهم.

علاوة على ذلك، ساد آنذاك اتفاق واسع على ان من حق اليهود ان يقيموا من جديد حياتهم القومية في وطنهم العتيق، فلسطين، التي كانت حتى عام ١٩١٧ تحت حكم الامبراطورية العثمانية، التي اختفت لتوها من العالم. وهكذا حظيت الحركة الصهيونية بالاهتمام الذي حظيت به حركات اخرى، كانت تطالب بتحقيق اهدافها القومية.

بعد ذوبان جليد الحرب الباردة، التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، عاد عالم فرساي ليطفو على السطح من جديد، حيث بدأ المجتمع الدولي ينفض الغبار عن مبادئ فرساي،

ليعيد الحياة إلى التسويات التي تقررت آنذاك: المشاكل غير المحلولة (مثل البلقان وتشيكوسلوفاكيا)، عادت لتندلع بشدة، وكأن شيئاً لم يحدث منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى. وعادت جمهوريات البلطيق لنيل استقلالها. وكما ان الحرية التي ضمنتها معاهدة فرساي لشعوب وسط وشرق اوروبا، اعيدت إلى نصابها، حتى ان اتحاد اوروبا الغربية الذي اعلن عنه ببهجة كبيرة، والذي يرى الكثيرون بأنه محاولة للقضاء على الولاءات القومية، لا يظهر أية مؤشرات بأنه قد ينجح في احداث تحول كبير في مشاعر الانتماء القومي والعرقي. وهكذا نشهد من جانب جديد تأثيراً متزايداً للمشاعر القومية كقوة دافعة في الحياة الدولية، ولقدرة الصمود لكثير من الحلول التي تحققت في مطلع القرن الحالي لنزاعات قومية متنوعة- حلول حظيت بموافقة وقبول دول العالم.

غير ان الامر مختلف بالنسبت للقومية اليهودية، فهناك حكومات وزعماء دول، يتنكرون اليوم لما كان مقبولاً في فرساي، كحل عادل للمشكلة اليهودية، ومعظم هؤلاء، موافقون على ان للشعب اليهودي حقاً في دولة خاصة به، لكنهم يرفضون تماماً ما تم اقراره في فرساي، بشأن مساحة الوطن اليهودي، ففي افضل الحالات يوافق زعماء العالم على ان يلقوا لليهود بعض الفتات من الاقتراح الاصلي.

لقد تم في فرساي، التعهد لليهود باقامة دولة في فلسطين. وشمل الوطن القومي آنذاك ضفتي نهر الأردن.

هذه المنطقة التي تُسمى "أرض إسرائيل الانتدابية" (المنطقة التي كُلّفت بريطانيا عام١٩٢٠ ان تقيم فيها وطناً لليهود)، شملت اراضي دولتي الأردن وإسرائيل اليوم،غير أن الكثيرين يدعون اليوم،ان اليهود لا يستحقون حتى٢٠% من هذه الاراضي (اي، إسرائيل بما فيها الضفة الغربية وغزة)، ويطالبون بأن يكتفي الشعب اليهودي ب١٥% فقط من منطقة الانتداب الاصلية (إسرائيل، بدون الضفة الغربية وغزة).

ان خطوة كهذه، ستبقي لليهود دولة يبلغ عرضها حوالي ١٩ كم، تزدحم مدنها ومستوطناتها على طول شواطىء البحر المتوسط، في حين يظل العرب الذين يقودهم زعماء كارهون لليهود، يسيطرون عليهم من على جبال الضفة الغربية التي تشرف على الدولة برمتها. وهكذا لن يبقى من تعهدات فرساي للشعب اليهودي الحي تقضي بأن يحصل على دولة ضمن مساحة معقولة، ذات قدرة على البقاء واستيعاب١٥ مليون يهودي وذريتهم، سوى "جيتو" مبتور الجناحين، مضغوط بصورة تثير الشفقة، في قطاع ساحلي ضيق.

أي مقابل غريب هذا : في فرساي، ثم التعهد للشعب اليهودي ببيت قومي في وطنه التاريخي، على ارض تبلغ مساحتها خمسة اضعاف مساحت دولة إسرائيل حالياً. وقد أعطي هذا التعهد في اعقاب اعتراف دولي واضح بحق اليهود في العودة إلى الاوض التي اخرجوا منها رغم ارادتهم، معزز بتعاطف العالم مع المعاناة الفظيعة التي لحقت بالشعب اليهودي اثناء فترة تشرده الطويلة٠

والان، بعد سبعين سنة، من مؤتمر فرساي، وبعد ابادة ستة ملايين يهودي في الكارثة، وبعد خمس حروب، حاول العرب بها ابادة ما تبقى من الشعب اليهودي، الذين تجمعوا على هذه، الارض الصغيرة، التي اعترف بها كأرض لهم، يقولون لنا ان هذة، الارض كبيرة للغاية بالنسبة للشعب اليهودي.

والاسوأ. من هذا، انهم يقولون لنا، ان الرغبة في ان يكون عرض دولتنا ٦٥كم بدلاً من ١٥ كم، تعتبر دليلا على ان الشعب اليهودي شعب عدواني وتوسقي.

كيف حدث ان الصهيونية، التي تمتعت بتأييد دولي في مطلع القرن الحالي، تتعرض لهجمات شديدة إلى هذا الحد، في نهايته؟ وكيف حدث، ان الحركة حظيت بدعم حماسي من قبل زعماء كبار مثل وودرو ويلسون،لويد جورج، جورج كلمنصو، وتوماس مسريك، تتعرض الان لانتقادات سلبية، ولضغوط مستمرة، من جانب زعماء العالم في عصرنا هذا ؟

ما هو السبب وراء تحول مصطلح "صهيوني" الذي سبق ان تفاخر يهود ومسيحيون باطلاقه على انفسهم، إلى مصطلح مرفوض، أو على الاقل، مثير للشكوك، كيف حدث هذا التغيير بعيد المدى

ولكي نجيب على هذه الاسئلة، يجب علينا ان ندرس اولاً الصعود المذهل للحركة الصهيونية التي استعانت باكبر دول عظمى في العالم، ومن ثم تخلي تلك الدول العظمى نفسها عن هذه الحركة.

الفصل الأول

ظهور الحركة الصهيونية

في خريف عام ١٨١٥، زار ثيودور هرتسل، مراسل الصحيفة النمساوية المشهورة (Neue) Freie presse في باريس، صديقه الكاتب المعروف، ماكس نورداو. اراد هرتسل الاستماع من نورداو إلى تعقيبه على فرضيته القائلة: "ان اللاسامية المتصاعدة تعرض يهود اوروبا لخطر لم يسبق له مثيل، ومن شأن، هذا الخطر ان يدفع باعداد كبيرة من اليهود إلى صفوف الشيوعية، الامر الذي من شأنه زيادة أوار اللاسامية. وهذه التطورات، حسب رأي هرتسل، ستكون مأساوية ليس فقط بالنسبة لليهود، بل لاوروبا كلها. والحل الوحيد هو اقامة دولة يهودية فوراً، وخروج اليهود المطاردين اليها".

كان هرتسل صريحاً بالنسبة للقبول الذي حظيت به أفكاره لدى الاوساط اليهودية المتنفذة في اوروبا. وقد اقترح عنيه أحد اصدقائه ان يشرح خطته امام نورداو، الذي كان عالماً نفسانياً.

قال هرتسل:"يعتقد شيف انني مجنون".

رد عليه نورداو، الذي كان يكثر من الكتابة حول افول نجم المدنية الاوروبية، بقوله: "إذا كنت أنت مجنوناً، فأنا مجنون مثلك ايضاً. انني اقف إلى يمينك، وتستطيع ان تثق بي". وهكذا، بعد ان جنّد هرتسل، نورداو، إلى جانبه، بدأت شراكة مدهشة ومميّزة، مزجت بين نبوءة وهدف عملي، انبثق عنهما قيام الحركة الصهيونية السياسية، تلك الحركة التي أحدثت ثورة في تاريخ الشعب الإسرائيلي.

كان جبل صهيون، في قلب مدينة القدس، في نظر هرتسل ونورداو، يمثل رمز اقامة الدولة اليهودية من جديد، التي سيعود اليها عدد كبير من يهود الشتات لتجنيد حياتهم القومية. ولهذا اطلقا على حركتهما اسم "صهيونية".

بالطبع، كان للحركة الصهيونية سابقات عديدة، بدءاً بطموحات اليهود المستمرة، منذ العهد القديم، لاستعادة حياتهم السيادية في وطنهم، وحتى مطالبات الخلاص القومي التي نادى بها الحاخام يهودا القلعي من صربيا، في الاربعينيات من القرن التاسع عشر، والحاخام تسفي هيرش كليشر من بولندا، وموشه هاس العلماني، في الستينات من ذلك القرن.

كان هاس يأمل، في البداية ان يجد حلاً للمسألة اليهودية في اطار الشيوعية، لكنه تمسك في نهاية الامر بفكرة النهضة السياسية للشعب اليهودي على أرضه.

من الاهمية بمكان، الاشارة هنا، إلى انه سبقت هرتسل، الحركة اليهودية القومية التي نمت في روسيا في سنوات الثمانينات من القرن التاسع عشر، بزعامة م ل. ليلايبلوم، وليئون فينسكر، لقد تناول كتاب فيسكر المختصر والجريء، بعنوان "تحرير الذات"، الذي صدر عام ١٨٨٢، بعد سنة واحدة من المذابح في روسيا، كافة المواضيع الرئيسية التي طُوّرت، فيما بعد، من قبل هرتسل.

لقد أثار كتاب فينسكر الوعي القومي اليهودي لدى اوساط عديدة في يهود روسيا، وبعث روح الحياة في الرغبة بالاستيطان في "أرض إسرائيل" الذي بدأ في مطلع عقد الثمانينات.

لم يقرأ هرتسل كتاب فينسكر، قبل ان يؤلف كتابه "دولة اليهود" عام ١٨٩٦، لكنه توصل إلى نفس الاستنتاجات بنفسه، اضف إلى ذلك انه عندما كتب هرتسل افكاره، لم يكن يعلم ابداً بأنه اصبحت هنالك أرضية خصبة لاستيعابها في اوساط الطوائف اليهودية المتواجدة في شرق اوروبا. غير انه سرعان ما اصبح هرتسل معروفاً لدى هذه الحركة، بعد أن بدأت افكاره تترك اصداءً في العالم اليهودي، لكن هرتسل كان مختلفاً عن أي ايديولوجي، أو حالم يهودي سبقه.

في عام ١٨٩٤، غطى هرتسل، بتكليف من الصحيفة، محاكمة درايفوس في باريس، وقد دفعته المشاهد اللاسامية التي رافقت المحاكمة، إلى التفكير في المسألة اليهودية، وسرعان ما

بلور خطة محددة، لحل هذه المسألة: سلسلة اجراءات عملية لاقامة دولة قومية يهودية حية في "أرض إسرائيل"، تكون شاطئ أمان، وبيتاً لملايين اليهود المقيمين في اوروبا، الذين يسيرون نحو نهاية فظيعة، وسعى هرتسل إلى الحصول على تأييد الدول العظمى ودعمها لاستيطان يهودي في "أرض إسرائيل" يحمي نفسه بقوة جيشه.

ولتحقيق هذه الغاية، طلب وضع كافة الموارد والطاقات المالية التي يملكها الشعب اليهودي، في كافة انحاء العالم، واسس صندوق (Trust Jewish Cononial) صندوق الاستيطان اليهودي - الذي استخدم قسم بسيط من رأس ماله، لاقامة البنك القومي الإسرائيلي محدود الضمان.

ان الطابع السياسي الذي اضفاه هرتسل على الحلم اليهودي القديم في العودة إلى "أرض إسرائيل"، هو الذي أثار خيال ملايين اليهود وغير اليهود في انحاء العالم.

كان جدّي الحاخام نتان ميلايكوبسكي، الذي تجنّد للحركة الصهيونية في شبابه، في عقد التسعينات من القرن الماضي، واحداً من عدد لا يعد ولا يحصى من المتحمسين لهذه البشرى، واصبح أحد مبشري هذه الحركة الرئيسيين، ونشر مبادئها بين اليهود في شرق سيبيريا حتى مينوسوتا في الولايات المتحدة الأمريكية. وبعد فترة من الوقت، في عام ١٩٢٠، اثبت أنه ليس من الذين يقولون ولا يفعلون، انما يقول ويفعل: حمل عائلته الكبيرة، وأبحر من ترايست إلى حيفا، واستوطن في "أرض إسرائيل".

انني احتفظ بصورة له بصفته عضواً في أحد المؤتمرات الصهيونية الاولى. وتعود الصورة إلى المؤتمر الصهيوني الثامن الذي عقد في لاهاي عام ١٩٠٧. كان جدّي، آنذاك، في السابعة والعشرين من عمره، وكان ذلك اول مؤتمر يشارك فيه. وفي نفس المؤتمر، شارك ايضاً حاييم فايتسمان، الذي اصبح بعد بضع سنوات، رئيساً للهستدروت الصهيونية العالمية، وفيما بعد، أول رئيس لدولة إسرائيل، وكذلك الكاتب والخطيب زئيف جيبوتنسكي، الذي تزعم، فيما

بعد، الحركة الاصلاحية، وحدثت بين الاثنين خلافات وصدامات حول اهداف الحركة الصهيونية، غير انـه في عام ١٩٠٧، ساد بينهما اتفاق في الرأي تجاه معظم المواضيع.

لم يجتذب المؤتمر إليه نشطاء سياسيين فحسب، بل شارك في ذلك المـؤتمر حـاييم نحـمان بيالـك، اكـبر الشعراء اليهود في العهد الجديد.

كان بريق فكرة هرتسل وقوتهـا كبـيرين لدرجـة جعلـت عـدداً كبـيراً مـن أفـضل الكتـاب والمثقفـين، والفنانين اليهـود في اوروبـا ينـضمون اليهـا، كـما حظيـت بتعـاطف جميـع الامـم المتحـضّرة، والحكومـات الاوروبية.

حددت الصهيونية السياسية الطريق لتحقيق نظام حكـم يهـودي قـومي، ووفّـرت الايحـاء لاسـتيطان جماعي في الوطن اليهودي المهجور.

كان التأييد للفكرة الصهيونية، مذ البداية بين من هم غير يهود، اكبر بكثير منه في الاوساط اليهوديـة. فقد تمكن هرتسل، على سبيل المثال، من مقابلة قيصر المانيا فيلهلم الثاني، الامر الذي لم يكن سهلاً بالنسبة لصحفي يهودي آنذاك.

لم يكن سرّ تأثير هرتسل، يكمن في شخصيته وميزاته الخاصة فحسب، انما في حقيقة كونه أول يهـودي يكتشف فن السياسة، واستغلال المصالح المشتركة على الصعيد السياسي.

فقد وصف هرتسل امام القيصر الالماني، الحركة الصهيونية، بأنها عبارة عن مشروع من شأنه اجتـذاب قسم من المتطرفين الشباب في المانيا، ويقيم في مفترق طرق لالمانيا، وتفتح امام القيصر الطريق إلى الهند.

وطلب هرتسل الرعاية الالمانية للحركة الصهيونية، على افتراض ان المانيا ستجني ربحا سياسيا، غـير ان القيصر كان معنياً ايضاً بتخليص مملكته من بعض المرابين اليهود.

كـما نجـح هرتـسل في مقابلـة الـسلطان الـتركي في القـسطنطينية في ايـار مـن عـام ١٩٠١، وفي حـديث مـع الـسلطان، ذكـر هرتـسل مـا حـدث لانـدروكلوس، الـذي اقتلـع الـشركة مـن كـف

الاسد، وقال للحاكم التركي، المفلس "جلالتك، هو الاسد، وربما اكون انا الاندروكلوس وربما توجد شوكة يجب اخراجها. والشوكة حسبما اراه انا، هي الدين الوطني على جلالتكم". اقترح هرتسل اقتلاع هذه الشوكة بوساطة ارباب المال اليهود.

ان الاهتمام الذي ابداه زعماء العالم بالمشروع الجديد الذي لازال في مهده، يدل على صحة اسلوبه وشخصيته. ففي تشرين اول وتشرين ثان ١٨٩٨، أي بعد سنة واحدة فقط من اول ظهور للحركة الصهيونية في المؤتمر الصهيوني الاول، التقى هرتسل مرتين بالقيصر الالماني.

كما ان الانفتاح الذي لقيه هرتسل في بلاط الملوك وكاتب السياسيين الكبار في عصره، لم ينسه، ولو للحظة، الاهمية العليا التي تكمن في تجنيد مؤيدين للصهيونية، في اوساط الشعب اليهودي نفسه.

وكانت الشخصية الكبيرة بعد نررداو، من بين المثقفين اليهود الذين جندهم هرتسل، هو الكاتب اليهودي البريطاني المعروف، يسرائيل زنجفيل، حيث قام زنجفيل بترويج الافكار الصهيونية، في اوساط يهود بريطانيا، التي كانت آنذاك اكبر دولة في العالم، غير ان التأييد الحماسي الذي حظي به هرتسل لم يكن مصدره الصالونات اليهودية في وسط اوروبا وغربها، انما من جماهير اليهود من اوروبا الشرقية - في بولندا وبروسيا.

هناك، وجد هرتسل الطبقة اليهودية المثقفة التي تبنت الصهيونية بحماس الشباب المتمرد على "الجيتوهات" المغلقة، التي كان يعيش فيها، آنذاك معظم ابناء شعبه.

بدأ هرتسل معركته الجماهيرية في السادسة والثلاثين من عمره، وتوفي بعد ثماني سنوات فقط، في الرابعة والاربعين. لكنه، في غضون هذه الفترة القصيرة، نجح في احداث ثورة لا سابق لها في تاريخ شعبه. وفعلاً لم تكن رؤية هرتسل الثاقبة جنوناً.اذ ان الفظائع التي تنبأ سلفاً، الذي لقيته فكرته، تحققت خلال خمسين سنة.

فقد اتحدت المواقد اللاسامية المتفرقة، لتشكل حريقاًً واحداً هائلاً، يلتهم الجالية اليهودية القديمة في اوروبا، وفي نفس الوقت، وقف الشعب اليهودي على عتبة اقامة دولة إسرائيل، وكل هذا كان وفقاً لتنبؤات هرتسل.

كيف كانت نوعية أرضية الرأي العالم العالمي التي تجذّرت فيها عميقاً افكار هرتسل؟

كان التأييد الذي حظيت به الصهيونية من جانب الدول العظمى في العالم، في مطلع القرن العشرين، يكمن في نظرة جيدة للشعب اليهودي، تطورت في عصر الثقافة، وابرزت الحق الطبيعي في الحرية لكل بني البشر.

فقد اكد كثيرون من اقطاب الحركة الثقافية العالمية ان اليهود عوقبوا على ذنب لم يقترفوه وسلبت حقوقهم بدون مبرر، لذا فللشعب اليهودي الحق في العودة لاحتلال مكانة محترمة، ومتساوية مع بقية الشعوب.

ها هو، روسو، صاحب الكثير من افضل وأسوأ الافكار التي كونت شخصية الحركة الثقافية، يفهم جيداً خصوصية وضع الشعب اليهودي، ويقول: "يعرض اليهود أمامنا فكرة ليست بالعادية: قوانين نوما، ليكورجوس، وسولون، انتهت. في حين ان قوانين موسى الاقدم بكثير، ما زالت قائمة، اثينا، اسبارطة، روما، دمرت واختفت من العالم، هي وشعوبها، غير ان اليهودية لم تفقد ابناءها، على الرغم مما لحق بها من خراب، انهم يعيشون في اوساط كل الامم، لكنهم لا ينصهرون فيها، ليس لهم زعماء منهم، لكهم ما زالوا امة: ليس لديهم دولة، لكنهم رعايا...".

في البداية، بدا ان حل المشكلة اليهودية امر سهل حيث يحصل اليهود على المساواة في الحقوق المدنية والدينية في المجتمعات التي يعيشون ضمنها.

ففي الولايات المتحدة، بدأ يتكون فيها آنذاك مجتمع جيد يقام على اساس المبادىء الثقافية، كتب جفرسون، انه سعيد جداً باعادة الحقوق المدنية إلى اليهود". وحدث تقدم

مماثل ايضاً في اماكن مختلفة في اوروبا. وبدا آنذاك ان المشكلة اليهودية في طريقها إلى الحل... احقاً هذا؟

روسو، الثوري والمتشكك، في آن واحد، تحدث عن شكوكه في هذا المجال. اذ لم يكن روسو واثقاً من قدرة اليهود على المساهمة في الحريّات الجيدة، في المجتمع الجديد، بما فيها حرية التعبير: لن اصدق ابداً، بأنني استمع إلى مطالبة جديّة من جانب اليهود، طالما لا توجد لهم دولة حرّة، ومدارس وجامعات خاصة بهم ستطيعون ان يتحدثوا فيها دون خوف. عندئذ فقط، نستطيع ان نعرف ما يريدون.

بأقواله هذه، كان روسو، بين الاوائل الذين اشترطوا الحرية الفردية بوجود حرية قومية.

في هذا القرن الذي نعيش فيه، عصر الدكتاتورية، اعتقد الكثيرون أنه يمكن اقامة حرية قومية حقيقية دون حرية فردية، لكن روسو يلمّح هنا، إلى فكرة عكسية تماماً: ان اليهود كأفراد، لن يستطيعوا أبداً ان يكونوا احراراً بحق، الاّ إذا توفرت ليهم دولة حرّة خاصة بهم.

بعد وقت ما، طوّر الصهاينة هذه الفكرة ووصلوا إلى استتاج انه لن يكون بمقدور اليهود، إلى الابد، التمتع بمساواة حقيقية، الا إذا عاش ابناء شعبهم المطاردون في دولة خاصة بهم، وكذلك اليهود الذين يمكن ان يبقوا في الشتات في الدول التي يتمتعون فيها بمساواة بالحقوق مع الاغلبية، ستكون لهم مكانة مريحة. واذا لم يكن الامر كذلك، يكون لهم وطن ذو سيادة، يعزز شعورهم بهويتهم ويمكن ان يهاجروا اليه، إذا رغبوا في ذلك كما هي ايرلندا بالنسبة للايرلنديين، وايطاليا للايطاليين، والصين للصينيين، الذين يعيشون في أمريكا، غير ان مشكلة اليهود، كانت تنبع من حقيقة انهم لا يملكون مثل هذا الوطن.

لقد وصف اللورد بيرون صعوبة وضع اليهود في مؤلفه."الالحان العبرية" بقوله: "حتى الحمامة وجدت لها عشاً، عرين لكل رجل، وصخرة لكل ارنب، ولليهودي - قبر فقط".

ان فكرة المساواة في الحقوق المدنية ضرورة، لكنها غير كافية لحل المشكلة اليهودية. بدأ هذا الرأي يتعزز ببطء، في بادىء الامر، ثم بدأ يتسارع مع مرور الوقت. وسرعان ما تبلور

الاعتراف بأن اعادة بناء القومية اليهودية في الوطن اليهودي فقط، ستؤدي إلى حل مرضي. فهـذا مـن شـأنه اعادة اليهود إلى وضع طبيعي، ليس كأمة فحسب، انما كأفراد أيـضاً. قـال الـرئيس الأمـريكي، جـون ادامـز: "أتمنى ان يعود اليهود إلى يهودا كأمة مستقلة، لانني اعتقد... انه بعد ان يعـودوا إلى مكانـة مـستقلة، لـن يكونوا مطاردين بعدها، سيزيلون من على انفسهم، التصلب والغرابة في طباعهم".

كما ان نابليون، كان شريكاً بالرغبة في رؤية اليهود عائدين إلى وطنهم، بعد ان ادرك، على ما يبدو، ان منح جنسية فرنسية لليهود الفرنسيين، لن يعوضهم عن رد اعتبارهم القومي.

في عام ١٧٩٩، عندما كان جيـشه يقـف عـلى بعـد٤٠ كـم مـن القـدس، اعلـن نـابليون: "افيقـوا ايهـا الإسرائيليون حان الوقت للمطالبة بوجودكم السياسي كأمة بين الأمم".

في القرن التاسع عشر، تزايد التعاطف مع اليهود في بريطانيـا والولايـات المتحـدة، وتزايـد ايـضاً عـدد الزوار من الغرب إلى "أرض إسرائيل"، كما بدأت حركة هجرة يهودية متزايدة اليها، وظهـر اول المـشروعات المحددة لاستيطان يهودي واسع النطاق، في "أرض إسرائيل".

كل هذه الامور، ادت إلى تعزيز التأييد الغربي لفكرة النهضة القومية اليهوديـة. وانـبرى كتّـاب وادبـاء وصحفيون وفنانون وسياسيون، في بريطانيا وأمريكا وفرنسا، لترويج فكرة عودة اليهود إلى وطنهم المهجور، واعادة تعميره.

ففي عام ١٨٤٠، على سبيل المثال، كتب اللورد شفتـسبري انـه متـأثر بالنـسبة لامـال ومـصير الـشعب اليهودي. وقال:"كل شيء جاهز لعودتهم إلى فلسطين...

ان الحيوية الكامنة في الشعب اليهودي تتجسد من جديـد بقـوة مدهـشة... لكـن النهـضة الكـبرى لا يمكن ان تحدث الا في الأرض المقدسة".

في عام ١٨٤٠، اقترح اللورد فلمرستون، وزير خارجية بريطانيا، تـوفير الحمايـة لكافـة اليهـود في "أرض إسرائيل"، وتعهد ان يقنع السلطان التركي، بأن الخير يمكن ان يجنـي، فقـط، مـن حقيقـة ان يقتنـع اليهـود الموزعون في اوروبا وافريقيا، بالقدوم والاستيطان في فلسطين.

كذلك، قال اللورد ليندسي في عام ١٨٤٧: "لقد حافظ الشعب اليهودي على البقاء بصورة مدهشة... وربما توفرت امامه الان الفرصة للبدء في مرحلة اخرى من وجوده القومي، وربما يعود ليملك وطنه من جديد". وفي ١٨٤٥، دعا السير جورج جاولر، حاكم جنوب استراليا ومؤسس "الصندوق للاستيطان في فلسطين"، إلى توطين المزارع والحقول الفلسطينية، بابناء الشعب النشط، الذي يمنح حبه الأكبر لأرضه".

كان السياسيون البريطانيون، الذين اعلنوا عن تأييدهم للنهضة القومية اليهودية، من المعروفين وذوي الاهمية في الادارة البريطانية وهم: فلمرستون، شفتسبري، ومزرائيلي، اللورد سولبري، واللورد مانشستر. كما اعلن عدد من الرؤساء الأمريكيين عن تأييدهم للصهيونية ومن ضمنهم: وليام ماكنلي، ثيودور روزفلت، وليام تبت.

منذ مطلع القرن التاسع عشر فصاعداً، بدأت الحركة الصهيونية، على أية حال تتمتع بتأييد متواصل من جاب عناصر ذات نفوذ في العالم غير اليهودي. وقد تم التعبير عن هذا التأييد، في ادب تلك الفترة ففي عام ١٨٧٦ تنبأت الكاتبة الانجليزية المعروفة، جورج اليوت، بالنهضة اليهودية في كتابها "دنيئل ديروندا" الذي يقول فيه بطل القصة:"لدينا ما يكفي من كنوز الحكمة لتأسيس مجتمع يهودي جيد اصلي، بسيط، وعادل، على غرار المجتمع القديم - جمهورية تكون فيها مساواة في الحماية - المساواة التي اشرقت كنجم على جبين مجتمعنا القديم، وتألق بين ممتلكات الشرق الظالمة، أكثر من ضوء الحرية الغربية... لان المجتمع الذي سينشأ في مشارف الشرق، سيكون مزيجاً من ثقافات كافة الامم ذات الاهمية في العالم، ويحظى بتأييدها".

اندمج في هذه الحركة الجماهيرية ايضاً تيار بالغ الاهمية، زادت قوته في القرن الماضي، هو الصهيونية المسيحية. فقد آمن اتباع هذه المدرسة، بأن خلاص البشرية الروحاني، لن يتحقق، الا بعد تجميع الشتات اليهودي وفقاً لما ورد في التناخ.

على أية حال، كانت الصهيونية سواء بالنسبة لليهود أو المسيحيين بمثابة تحقيق لنبوءة قديمة: "ويحمل معجزة للغرباء، ويجمع إسرائيل الشتات، ومجتمع اليهود من كافة اقطار الأرض". هكذا، قال يشعياهو. كا تنبأ يحزقيل:"وخلصتكم من الغرباء وجمعتكم من كل الاقطار، وأحضركم إلى ارضكم".

لقد استخدم رجال دين مسيحيون هذه الآيات، قبل خمسين سنة من ظهور الصهيونية. ففي عام ١٨١٤، نشرت في نيويورك الموعظة المشهورة للقس، جون مكدونالد، اكد فيها الدور المركزي الذي تنبأ به النبي يشعياهو، للدولة الجديدة في أمريكا، في اعادة اليهود إلى أرضهم، قال القس: "يا سفراء أمريكا، انهضوا، واستعدوا لاسماع بشرى السعادة والخلاص لابناء شعب منقذكم، الذين يعانون من الظلم... ارسلوا ابناءهم واستخدموا اموالهم في سبيل تحقيق هذه الرسالة الالهية".

في ١٨٢١ دعا المبشّر ليفي برسونس بقوله:"في قلب كل يهودي، تتأجج رغبة لا يمكن اخمادها لاستيطان الأرض التي أُعطيت لاجدادهم إذا دُمرت الامبراطورية العثمانية، فان معجزة فقط يكمنها ان تمنع عودة اليهود الفورية إلى أرضهم، من كافة اقطار العالم".

وكلما زاد حجم الاستيطان اليهودي في القدس والخليل وصفد، وزاد الاهتمام الدولي بالصهيونية، كان يتضح أكثر فاكثر، بأن التنبؤات ستتحقق.

في عام ١٨٤١، وقبل خمسين سنة من انعقاد اول مؤتمر صهيوني، اعلن زعيم "المرمونيم" اورسون هايد: "ان فكرة نهضة اليهود في فلسطين، تقوى يوماً بعد يوم... لقد بدأت العجلة الكبرى بالدوران، لا شك في ذلك، وان الرب قد امر بأن تدور هذه العجلة على محورها.

ومن اجل ازالة أية شكوك في هذا الموضوع، كان هنالك بعض المسيحيين، على استعداد لمساعدة العجلة على الدوران.

في عام١٨٤٤، عُيّن، ووردر كرسون، قنصلاً للولايات المتحدة في القدس، لكنه بدلاً من ذلك، ساعد على انشاء مستوطنة يهودية - مسيحية اسست في انجلترا.

وبعد ذلك بحوالي خمسين سنة، حشدت الصهيونية المسيحية قوة ملموسة. وفي اعقاب المذابح في روسيا، عام ١٨٨١، وعدما بدأت هجرة كبيرة من اوروبا الشرقية، استطاع القس الأمريكي وليام يوجين بليكستون، تجنيد دعم ما يزيد على٤٠٠ أمريكي من ذوي الشهرة- بينهم جون د. روكفلر، ج ف. مورغن، واعضاء كونغرس ذوو اهمية، قضاة ومحررو صحف- وتقديم عريضة للرئيس بنجامين هاريسون، طلب فيها، العمل في سبيل اعادة الشعب اليهودي إلى أرضه.قال بلكستون في عريضته: منذ ما يزيد على الف وسبعمائة سنة، ينتظر اليهود، بصبر، هذه الفرصة الفريدة، هيا نعدهم إلى الأرض التي سلبت منهم ببشاعة.

ظل بلكستون مخلصاً لفكرته. فبد أكثر من عشرين سنة، وعدما نوقش اقتراح اقامة وطن قومي لليهود في اوغندا، ارسل كتاب تناخ إلى هرتسل، واشار فيه بوضرح إلى كل النبوءات التي تتحدث عن عودة اليهود إلى أرضهم.

والى جانب النشاط الصهيوني - المسيحي، ظهرت في العالم غير اليهودي، حركة علمانية مؤيدة للفكرة الصهيونية، ومن جانب آخر: برز الاهتمام العلمي بالتناخ والتراث اليهودي.

فقد استخدم الباحثون، على مختلف انواعهم، طيلة القرن التاسع عشر، الاساليب الجديدة في التنقيب عن الاثار، وتحليل رموز اللغات، والكشف عن المضمون التاريخي للاثار المكتشفة في ارام نهرايم، وفي اماكن اخرى في الشرق الاوسط. غير ان أرض التناخ، جذبتهم أكثر من أية أرض اخرى.

هل هناك حقيقة تاريخية في قصص "المكراه" ام انها مجرد تخيلات فقط؟

هل فعلاً هنالك وجود للاماكن الوارد ذكرها في التناخ؟ وهل يمكن تحديد مواقعها اليوم بدقة؟ وعلى ماذا سيعثرون إذا ما حضروا في هذه المواقع؟

لقد شملت محاولات الاجابة عن هذه الاسئلة، العالم كله، وسرعان ما ظهر باحثون استعان كل واحد منهم بابحاث من سبقه:

ادوارد روبنسون، الأمريكي (الذي عمل في أرض إسرائيل في الفترة. ١٨٣٧-١٨٣٨ و١٨٤٥-١٨٤٧).

وتيتوس توبلر، الالماني(١٨٤٥-١٨٤٦).

ه.و.جرين،الفرنسي(١٨٥٢-١٨٧٥).

وكلود كوندر،البريطاني(١٨٧٢-١٨٧٧).

اجمل عالم الآثار الأمريكي، الذي حفر في "أرض إسرائيل" في العقد التاسع من القرن التاسع عشر، ما قام به اولئك الباحثون الطلائعيون بما يلي: "يدل عمل الباحثين الاربعة التالية اسماؤهم على تقدم منطقي. روبنسون، وضع المبادىء الصحيحة للبحث.وتويلر، استخدم هذه المبادئ. بدقة كبيرة،ولكن في مجال جغرافي ضيق فقط. وبنفس الدرجة من التعمق حاول جرين اجراء بحث ودراسة للمنطقة كلها - يهودا، شومرون، والجليل - لكنه كان يعاني من ضيق الامكانات التي يعمل بها باحث وحدة في العادة، فيما نجح، كونر، الذي ترأس وفداً جيداً مزوداً بالمعدات اللازمة، في سد الثغرات الكثيرة التي خلفها سابقوه في المجال الطوبغرافي".

ثم انضم اليهم السير تشارلى ويلسون، والسير تشارلي وورن (اللذان اكتشفا اثاراً هامة في القدس)، وشارل كلرمون جنو (الذي حدد موقع "جيزر" التي تعود لعهد المكراه)، وفلندرس بتري (الذي اتبع اسلوب دراسة الفخار كوسيلة لتحديد تاريخ الاثار).

لقد شجعت بعض الدول الاوروبية، الابحاث التي يقوم بها مواطنوها، بعد ان كان بالامكان دراسة الطاقة السياسية والعسكرية للبلاد التي يجري التنقيب فيها، وبخاصة بريطانيا التي امتازت باستغلال ابحاث "المكراه" لاغراضها:

في٢٢ حزيران ١٨٦٥، تأسس برعاية الملكة فكتوريا ما عرف بـ (Palestine Exploration Fund-PEF)، من قبل مجموعة من السياسيين والمثقفين ورجال الدين

البريطانيين وكان، فيما بعد، تأثير كبير جداً، لهذا الصندوق، على النظرة إلى أرض إسرائيل، التي بدأت تتبلور في بريطانيا وفي اماكن اخرى. كا ان عدداً من الباحثين المذكورين آنفاً، قد موّلوا ابحاثهم من هذا الصندوق، لكن اهم عملية موّلها الصندوق، كانت ارسال كلود كوندر، إلى أرض إسرائيل، للقيام بدراسة واسعة النطاق في غرب البلاد، فقد ترأس طاقماً مؤهلاً، وقام كونر برسم اول خريطة حديثة للمنطقة - من نهر الأردن حتى البحر المتوسط، ومن جبال لبنان حتى صحراء سيناء. كان للدراسة العلمية التي أجريت على أرض إسرائيل دور هام في تبديد الضباب، الذي كان يغطي هذه أرض، في الرأي العام الدولي. اذ انه، قبل هذه الدراسة، كانت الفكرة عن هذه الأرض، انها مجرد مملكة "المكراه" الخيالية، لكن خلال اجراء الدراسة اصبحت هذه المملكة حقيقة متجسدة اذ لم تعد القدس منطقة مهجورة، بل مدينة، وكذلك الامر بشأن بيت لحم، الناصرة، الخليل، ويافا.

صحيح ان هذه الاماكن، قد تقلص حجمها، لتصبح صغيرة وقليلة السكان، لكنه تبين انه ليس بالضرورة ان تبقى هكذا، وكثير من الباحثين النين زاروا المنطقة، استنتجوا انه من الممكن اعادة الازدهار لهذه المدن، شريطة السماح لليهود باستيطانها من جديد.

في ١٨٧٥، صدر كتاب "أرض الميعاد"The Land Of Promise" تأليف عالم الاثار والباحث السير تشارلز وورن، اقترح فيه على البريطانيين، استيطان هذه الأرض، من خلال رغبة معلنة بادخال اليهود اليها تدريجياً.

لم يكن لدى وورن ادنى شك في ان هذه الأرض تستطيع ان توفر مصادر الرزق لسكانها اليهود، وعلى هذا الاساس - هكذا كان يؤمن - "سيعود يسرائيل إلى أرضه".

واضاف وورن: يجب ان نطلب من الجمهور الاعتراف بهذه الحقيقة، وفي نفس الوقت، بعث الحياة القومية اليهودية، كلها أو بعضها، برعاية دولة عظمى واحدة أو اكثر".

كما ان كلود كوندر، كانت لديه القناعة بأن أي شعب آخر، لن يستطيع العودة لبناء هذه الأرض بحماس ونشاط، مثلاً سيفعل اليهود، وكان واضحاً له، انه بعد ان يبدأ اليهود في العمل، ستنهض البلاد من جديد بسرعة.

ان البحث العلمي الذي اجري في "أرض إسرائيل" حول، البشرى الصهيونية إلى مشروع عملي يمكن تنفيذه سواء بالنسبة لليهود أو لغير اليهود، اوجد الحماس العلمي مشاريع عملية للاستيطان، مثل اقتراح السير لورنس اوليفنت، لعام ١٨٧٩، الخاص باسكان يهود في جلعاد، الخطة التي حظيت بتأييد رئيس حكومة بريطانيا وولي عهدها ووزيري خارجية بريطانيا وفرنسا.

في ١٨٩٨، بعد نحو مائة عام من الاهتمامين الديني والعلمي بأرض إسرائيل، اعرب السيد ادفين شروين وولنر، القنصل الأمريكي في أرض إسرائيل عن المزاج العام التالي: شعب إسرائيل، بحاجة إلى وطن، إلى أرض يستطيع القول انها أرضه، إلى مدينة يستطيع ان يجسد فيها خلاصه. كل هذه الامور ليست بيده الآن. بيته الحالي، بين الغرباء.... الدول التي يعيش فيها ليست له... يمكن ان نحقق آمال شعب إسرائيل بوطن خاص به، لكنها لن تتحقق الا في فلسطين... انني أؤمن بأنه لن تطول الايام، حتى تصبح فلسطين بأيدي شعب يعيد لها خصوبتها القديمة.الارض،تنتظر، والشعب مستعد للقدوم،وهو سيأتي اليها فعلاً في اللحظة التي تؤمن له فيها الحياة والمتاع".

لقد اثر الصهاينة اليهود، وغير اليهود، من بريطانيا والولايات المتحدة، المتدينون والعلمانيون معاً، بصورة مباشرة، على ارآء السياسيين ذوي الاهمية في مطلع القرن التاسع عشر مثل، ديفيد لويد جورج، ارثر بلفور، و وودرو ويلسون. جميعهم كانوا مثقفين ومطلعين في تاريخ "أرض إسرائيل" وتاريخ الشعب اليهودي المليء بالمعاناة. وكتب بلفور يقول: ينصب اهتمامي فقط، على ايجاد بعض الوسائل التي يمكن بواساطتها، وضع نهاية للوضع الحالي الفظيع الذي يعيشه كثيرون من ابناء الشعب اليهودي".

لقد ساعدت صهيونية هؤلاء السياسيين الغربيين من غير اليهود، الصهيونية اليهودية، على تحقيق هدفها - نهضة الشعب الإسرائيلي.

غير انه كان هناك عنصر آخـر، اقنـع هـؤلاء الـزعماء بـصق الـصهيونية – لا يقـل اهميـة عـن الـتراث اليهودي في المكراه، والبعث العلمى لأرض إسرائيل، والاعتراف بمعاناة اليهود. كان رجال فرسـاي، اولاً وقبـل كل شيء، ذوي فكر سياسي، درسوا مسألة النهـضة القوميـة اليهوديـة، عـلى اسـاس مبـادىء سياسـية مثـل: الحقوق القومية. وتقرير المصير، مثلما درسـوا مطالـب قوميـات اخـرى. ومـن خـلال منـه الدراسـة، نجـح الصهاينة اليهود في اقناعهم بعدالة مطالبهم.

وفعلاً، كان زعماء الحركة الصهيونية، بدءاً من هرتـسل، شركـاء طبيعيـين لكبـار الـسياسيين مـن ابنـاء جيلهم (كانت هناك حالات نبعت فيها هذه الشراكة من علاقات سابقة، قبل ان يصبح لويد جـورج رئيـسا لحكومة بريطانيا بوقت طويل، عمل محامياً وكيلاً لهرتسل ووضع صيغة انشاء منطقة رعايـة بريطانيـة في فلسطين.

لقد ادرك هرتسل، نورداو، وزملاؤهم، انه إذا كانوا يريدون النجاح فعلاً في مهمتهم الـصعبة، المتمثلـة في تجميع شتات اليهود في تلك الزاوية المهملة والفقيرة في آسـيا، يجـب علـيهم الحـصول عـلى تأييـد دولي واسع، وتعزيز الاعتراف بالعدالة التاريخية والضرورة السياسية لهذ المهمة.

قال الصهاينة ان اليهود، يعب ان يحصلوا على دولة خاصة بهم في "ارض إسرائيل"، ووافق زعماء العالم على ذلك، رغم معرفتهم بأنـه لا توجـد سـابقة لمحاولـة اقامـة دولـة مـن لا شيء، كـما عرفـوا ان المـشروع الصهيوني، قد يثير مقاومة من جانب سكان المنطقة. في مطلع القرن، كان الرأي العام العالمي يميل بوضـوح إلى جانب اليهود.

واليوم، يدعي العرب انه في فـترة مـؤتمر فرسـاي لم تكـن لليهـود أيـة حقـوق سياسـية، عـلى أرض إسرائيل وان مثل هـذه الحقـوق، كانـت فقـط للعـرب الـذين يعيـشون عـلى هـذه الأرض، لهــذا فهــم يقولــون ان الجريمــة القديمــة التــي ارتكبهــا المجتمــع الــدول المتمثلــة بتأييــد الحركـة الـصهيونية، لم تكـن في عـام ١٩٤٨، ولا في عـام ١٩٦٧، انمـا في عـام ١٩١٧ وذلـك عـدما

اصدرت الحكومة البريطانية اعلان وعد بلفور، وتعهدت لليهود باقامة وطن لهم في "أرض إسرائيل" بيد انه من الواضح، ان زعماء العالم، آنذاك، كانوا يرون الامور بصورة مختلفة. كانوا يعتقدون بأن هناك حقاً تاريخياً خاصاً لليهود في هذه الارض، وهذا الحق يغطي على أية مطالب محتملة من جانب سكان المنطقة.

ماذا كانت مصادر هذا الاعتراف الواسع بحق اليهود التاريخي "بأرض إسرائيل"؟

لكي نجيب على هذا السؤال يجب ان نبدأ اولاً بتحديد طبيعة الحقوق التاريخية بشكل عام.

هناك من يدعي بأنه، لا معنى للمناقشة النظرية للحقوق التاريخية للشعوب، وان اقامة الدول تنجم في الواقع عن عدة عناصر. إذا بحثنا المسألة على الصعيد التجريبي، وليس على الصعيد الاخلاقي نجد ان هذا الادعاء، ينطوي على درجة لا بأس بها من الحقيقة. واذا كان المبدأ هو ان صاحب القوة هو صاحب الحق، فهذا يعني ان الممثل الاخير هو صاحب الحق. وبناء على هذا التعريف، فان إسرائيل هي صاحبة الحق في السيادة على "أرض إسرائيل"، لكن من الواضح، انه ليس هذا هو المقياس المناسب عندما يتعلق الامر بنهضة اليهود القومية، واذا كان "اليهود يقيمون في فلسطين بمقتضى حقهم وليس كصدقة" كما قال تشرتشل في عام ١٩٢٢، فمن الاهمية بمكان، فهم القاعدة الاخلاقية لدولة اليهود. وبالنسبة لمطالب اليهود القومية، فان السؤال الرئيسي هو: هل يحق للشعب الذي فقد أرضه المطالبة بها من جديد،بعد مرور اجيال عديدة ؟وبشكل خاص،هل يحق ذلك،حتى لو استوطن هذه الأرض شعب آخر؟

يكرر مؤيدو العرب طرح هذين السؤالين، ويجيبون عليهما بالسلب دائماً. كما يدعون بأنه لا يوجد لليهود نزاع مع العرب، بل مع الرومانيين الذين طردوهم من هذه البلاد في البداية، وعندما جاء العرب، كانت البلاد خالية تقريباً من اليهود.

اما اليهود ومؤيدوهم، فلا يكثرون من الجدال حول هذه الادعاءات، التي يثيرها العرب بوضوح وباستمرار، ومما لا شك فيه ان هناك اجابات على هذه الادعاءات.

معظم الاشخاص يعرفون، بدرجات مختلفة، تاريخ اليهود خلال السنوات الالف الاولى من هذا التاريخ، وهى ما يعرف بعهد التناخ: انهم يعرفون ان اليهود، ابناء إسرائيل كانوا عبيداً في مصر، واصبحوا شعباً بعدما تحرروا من العبودية، ونالوا حريتهم، وتلقوا توراة موسى. كما يعرفون بأنهم استوطنوا ارض آبائهم وبعد ان احتلوها بقيادة يهوشع بن نون.

في سنة ١٠٠٠ قبل التاريخ تقريباً، نشأت في "أرض إسرائيل" مملكة موحدة برئاسة الملك داوود، ومنذ ذلك الحين، ظلت تلك الملكة تصارع دولة اثر دولة، من اجل الحفاظ على استقلالها السياسي.

ينتهى تاريخ شعب إسرائيل الوارد في التاخ، بعودة صهيون، وتجديد الاستقلال اليهودي، في عهد كوروش ملك الفرس، عام ٥٣٨ قبل الميلاد.

اما الاسكندر الأكبر، الذي احتل البلاد من ايدي الفرس فلم يمنح السيادة لليهود، لكنه في عام ١٦٢ قبل الميلاد تمرد اليهود على الحكم اليوناني، ونجحوا بقيادة الحشمونائيم، لكنهم فقدوا استقلالهم من جديد، لدى استيلاء الرومانيين على البلاد في عام ٦٣ قبل الميلاد ولكن، حتى عدما كانت البلاد تحت الاحتلالين الفارسي واليوناني، طيلة مئات السنين، استمر اليهود في تعميق جذورهم القومية في هذه الأرض.

كيف أُقتلع اليهود اخيراًمن أرض إسرائيل؟

وبشكل عام، نلقي بالتهمة على الرومانيين فقط، فالاعتقاد السائد، هو ان الرومانيين هم الذين انهوا السيادة اليهودية، وسلبوا الأرض من ايدي اليهود، وطردوهم منها إلى الشتات، الذي استمر حتى يومنا هذا.

غير ان هذا الاعتقاد ليس صحيحاً، فخراب بيت المقدس على ايدي الرومانيين في عام ٧٠م، كان حدثاً كبيراً فعلاً في تاريخ اليهود على "أرض إسرائيل"، لكن ليس هو الحدث الذي ادى إلى تصفية السكان اليهود، في هذه البلاد.

من هنا، نجد ان الادعاء السائد ألفا سنة من الشتات" ادعاء ينطوي على التضليل: لم تبدأ الهجرة مع خراب بيت المقدس، بل كانت هنالك جالية يهودية كبيرة ونشطة تعيش في الاسكندرية وبابل، وفي اماكن اخرى في العالم القديم، منذ مئات السنين، قبل قدوم الرومانيين. ومن الخطأ ايضاً القول، ان الرومانيين هم من انهوا الحياة القومية اليهودية على "أرض إسرائيل" فقد حدث هذا الامر، بعد مئات السنين من الاحتلال.

ففي عام ١٣٥م، أي بعد ٦٥ سنة، من خراب القدس، كرر اليهود تمردهم على الرومانيين بزعامة باركوخفا، وتم قمع تمرد باوكوخفا بوحشية، لكن البلاد كانت يهودية في معظمها، وبعد وقت قصير من التمرد، حصل اليهود من الرومانيين على درجة كبيرة من الحكم الذاتي، استمر ما يزيد على٢٥٠ سنة.

في سنة ٢١٢م، عندما منح القيصر "كركلا" الجنسية الرومانية لمعظم مواطني الامبراطورية، حجبها عن اولئك الذين ليس لهم أرض خاصة بهم، وقد حصل اليهود على الجنسية، لانهم اعتبروا شعبا له أرض خاصة به، وتجدر الاشارة ايضاً، إلى ان اهم المؤلفات القانونية اليهودية، المشناه والتلمود المقدسي، كتبت في "أرض إسرائيل" ابان الحكمين الروماني والبيزنطي، وتدل على وجود حياة فكرية نشطة في تلك الفترة الطويلة.

والمدهش ايضاً، انه في عام٦١٤ كان اليهود يناضلون من اجل الاستقلال، وذلك عندما قاتل جيش يهودي، تم تجنيده في البلاد، إلى جانب الفرس، الذين غزوا البلاد وساعدهم على احتلال القدس والقضاء على الحكم البيزنطي.

ان ما يدل على حجم وحيوية السكان اليهود في القرن السابع، هي حقيقة اشتراك ما يزيد على ٢٠ الف مقاتل يهودي، في حصار مدينة صور.

ولكن في عام٦٢٦، بعد بضع سنوات من عودة البيزنطيين برئاسة القيصر هيركوليوس، دخل العرب إلى "أرض إسرائيل" بعدما دمروا نهائياً الاستيطان اليهودي الكبير والمزدهر، في شبه الجزيرة العربية.

كان الحكم البيزنطي قاسياً بالنسبة لليهود،ولكن في عهد الحكم العربي فقط، اصبح اليهود اقلية قليلة في "أرض إسرائيل" ولم تعد لهم قوة قومية حقيقية.

في بادئ الامر، علق اليهود آمالاً كبيرة على المحتلين الاسماعيليين، كما عرفوا في تلك الفترة، ولكن في غضون سنوات قليلة، اتضحت سياسة العرب، وتلاشت كافة آمال اليهود. خلافاً للمحتلين الذين سبقوهم.

غمر العرب البلاد بموجات كبيرة من المهاجرين الذين كانوا في اغلب الحالات ابناء عائلات الجنود الذين وصلوا مع الكتائب التي رابطت في البلاد. لقد طبق الاستيطان العربي المسلح، عن طريق مصادرة الاراضي والبيوت والقوى العاملة. ونجحت هذه السياسة في تحقيق ما لم تنجح فيه من قبل، أي دولة عظمى في البلاد - اقتلاع الفلاح اليهودي من أرضه. ومن هنا، نجد ان اليهود لم يسلبوا العرب أرضهم، انما العرب هم الذين سلبوا أرض اليهود.

ما هي اهمية هذه الاقوال؟ فقد مضى أكثر من ١٢٠٠ سنة: امم اتت، وامم ذهبت، والتاريخ مستمر.

حتى لو كان صحيحاً ان العرب هم الذين اكملوا عملية اقتلاع اليهود من "أرض إسرائيل" ما الضير في ذلك؟ لقد احتلوا البلاد، وهي لهم منذ ذلك الحين.

ان الجدال بين العرب واليهود، حول حقوقهم التاريخية في "أرض إسرائيل"، يشبه، من وجوه عديدة، الجدال حول حقوق ملكية انسان على بيته، فاذا طرد صاحب البيت من بيته، يظل حقه في البيت قائماً. وماذا يحدث إذا اجرى الساكن الجديد تغييرات في البيت لتتلاءم مع احتياجاته في الوقت الذي لا زال صاحب البيت حياً ولا يوافق نهائياً على التغييرات التي أُدخلت على بيته؟

وهنا ايضاً، يكون حق صاحب البيت مفضلاً على حق الساكن الجديد. فكيف إذا جعل الساكن الجديد البيت بيتاً له، وسمح ايضاً بتدميره: لا شك في انه ليس له أي حق فيه، وان صاحب البيت الاصلي له الحق في العودة إليه واستعادة كل ممتلكاته.

عل هذا الاساس، يجب ان نطرح سؤالين مبدأيين فيما يتعلق بالادعاءات المتناقضة التي يوردها العرب واليهود بشأن حقوقهم التاريخية:

- اولاً: هل ظل اليهود متمسكين بادعائهم ان الأرض تعود لهم ابان سنوات شتاتهم؟

- ثانياً: هل نال العرب ملكية قومية وحيدة على هذه الأرض بعد ان طردوا اليهود منها؟

واضح ان الاحتلال في حد ذاته، لا يمنح المحتل حقوقا قومية في الاراضي التي احتلها. فورا، كل ادعاء اقليمي قومي، يقف شعب منفرد، يختلف عن غيره، له ارتباط مستمر بقطعة ارض محددة.

وهذا هو اساس الادعاء اليهودي، وهذا هو السبب ايضاً، الذي من اجله يحرص العرب على التاكيد، على انه قبل مئات السنين، نشأ شعب عربي منفرد وخاص، على أرض إسرائيل - الشعب الفلسطيني.

خلافا لما هو متبع في حل الخلافات بين الافراد، حول حق ملكية بيت ما، ليس بمقدور الادعاء بالتقادم، تسوية خلافات حول وطن قومي، في النزاعات بين الشعوب. ويمكننا ادراك هذا الامر في ضوء ما يحدث الان في اوروبا الشرقية، التي تشهد الان نزاعات قومية عمرها مئات السنين. لكن هناك نموذجاً اقرب، يتمثل في قضية الاحتلال العربي لاسبانيا.

استولى العرب على شبه الجزيرة العربية في عام ٧١١ واحتفظوا بمعظم اراضيها مئات السنين. ولم يبق بأيدي الاسبان سوى قطعة أرض جبلية صغيرة في الشمال، واصبح المسيحيون في بقية البلاد، مع مرور ايام، اقلية، والمسلمون اغلبية حاسمة، وعندما حرر الاسبان أرضهم، كانت مختلفة على الصعيدين الاجتماعي والسياسي.

عادت قرطبة إلى ايدي المسيحيين بعد٥٠٠ سنة ومملكة غرناطة بعد ٨٠٠ سنة، وطيلة هذه الفترة الطويلة، لم تتوقف اسبانيا عن كونها وطنا للاسبان رغم علاقات المسلمين بالأرض، ورغم الحضارة العربية المزدهرة التي نشأت في تلك البلاد. وهذا هو السبب

الرئيس الذي يمنع أي انسان من الإدعاءأن الاسبان الحقوا ظلماً تاريخياً بالعرب في اسبانيا، عندما احتلوا أرضهم من جديد.

ان ما حققه الاسبان بعد٨٠٠ سنة، حققه اليهود بعد ١٢٠٠ سنة ه لكن المبدأ متشابه. والأكثر اهمية هي الفروق في الطريقة والظروف، التي بواسطتها، حقق الشعبان نهضتهما القومية:

عاد الاسبان واحتلوا اسبانيا بالنار والدم، في حين قام اليهود بذلك عن طريق الاستيطان المشروع حسب قوانين البلاد، وامتلكوا السلاح للدفاع عن النفس فقط.

حارب الاسبان الامة التي اقامت أحد المراكز الحضارية الهامة في تاريخ البشرية، واستعادوا لانفسهم بلادا مستغلة ومسكونة في معظمها. في حين لم يجد اليهود الذين عادوا إلى أرض إسرائيل فيها سوى ارض الخراب، وعدد قليل من السكان.

ان القاسم المشترك بين إسرائيل واسبانيا، هو استمرار بقاء الشعب الذي احتلت أرضه، والامل الذي لم ينقطع لدى ابناء هذا الشعب في العودة لاقامة وطنه القومي على أرضه.

في الواقع، نجح الاسبان في الاحتفاظ بجزء من أرضهم، ومن هذا الجزء بدأوا بتحريرها، لكن هذا الامر سهّل عليهم المهمة فقط: انه لم يحدد حقهم الاساسي في العودة اليها.

ورداً على هذه التبريرات، يورد مؤيدو العرب ادعاءات مختلفة: المؤرخ البريطاني، ارنولد توينبي، مثلاً، لم يحب الشعب اليهودي، لانه لم يتصرف حسب منطق التاريخ. لقد اراد توينبي ان يفرض قيوداً قانونية على الادعاءات القومية، على غرار القوانين التي تنظم تسوية الخلافات المدنية بين الافراد. لذا يرى توينبي، انه لو عاد العرب واحتلوا "أرض إسرائيل" من ايدي اليهود، بعد خمسين سنة، مثلاً، يمكن اعتبار هذا الاحتلال عادلاً. ولكن في المقابل، بما ان اليهود احتلوا الأرض من العرب، بعد فترة زمنية اطول بكثير، يجب الا يكون هذا

الاحتلال عادلاً، غير ان ادعاءات التقادم هذه المتعارف عليها في القانون المدني، لا تتلاءم ابداً مـع النزاعـات القومية. وما يجب عدم اللعب بالارقام، كما يفعل توينبي، وان أية فترة زمنية، طالت ام قصرت، يجـب ان لا تلغي حق شعب في أرضه، ان الحـق سـاري المفعـول، مـن الناحيـة التاريخيـة، ولا يلغـى الا إذا اختفـي المطالبون به.

وعلى هذا الصعيد يختلف اليهود في حقيقـة الامـر عـن أي شـعب اخـر في التـاريخ: عـلى الـرغم مـن بقائهم في الشتات مدة تزيد على الف سنة، فقد رفضوا الاختفاء.

ان تاريخ الشعوب مليء بنماذج الامم التي تلاشت ارادتها القوميـة بعـد اجلائهـا عـن أرضـها بـالقوة، وانصهرت، كنتيجة لذلك، مع شعوب اخرى، وحضارات اجنبية، أو انها استولت على أرض اخـرى، وجعلتهـا وطناً قومياً جديداً لها.

في الواقع، كان هناك يهـوداً انـصهروا في بوتقـة شـعوب اخـرى، ولكـن كـأفراد فقـط، امـا التجمعـات اليهودية، فقد رفضت الانصهار والاختفاء، كما رفض اليهود فكرة اقامة كيـان سـياسي مـستقل في أي مكـان آخر - في بيروبيدجان، الارجنتين، اوغندا، ومنشوريا - ولم يتخلوا عن رغبتهم في العودة إلى "أرض إسرائيـل"، واليها فقط.

في عام١٩٠٣، في اعقاب احداث كيشينيف، واجهت الحركة الصهيونية خطر انقسام عميق، عـدما بـدا ان هناك امكانية لتمكين الصهيونية من اقامة وطن قومي لليهود في شرق افريقيا، التي كانت آنذاك تحـت الحكم البريطاني، والتخفيف من معاناة اليهود في شرق اوروبا، وقـد اهمـل "مـشروع اوغنـدا" اخـيراً عـدما رفض زعماء يهود شرق اوروبا هذه الفكرة واصروا على اعتبار "أرض إسرائيل" وحدها، هـي الوطن القـومي الوحيد، الذي يمكن ان يكون اليهود مستعدين لاقامته.

ربمـا نـستطيع ادراك اسـلوب هرتـسل الـواقعي الـذي كـان يـرى كـضرورة ملحـة، ايجـاد ملجـأ، ولـــو مؤقتـــاً، لانقـــاذ ملايـــين اليهـــود مـــن اوروبـــا، لكـــن اخـــلاص الـــشعب الإسرائـــيلي لأرض

إسرائيل، كان اقوى من الرغبة في التخلص من الخطر الذي كان يهدد يهود اوروبا، وفي نهاية الامر، كانت قوة هذا الاخلاص، هي الوسيلة الوحيدة لتعبئة جماهير الشعب اليهودي، لعمل سياس منسق.

عبثا، حاول هرتسل ان يشرح موقفه بأن اوغندا لا تعدو كونها محطة في الطريق إلى "أرض إسرائيل"،وليست الهدف النهائي للشعب اليهودي.

في الواقع، ظل اليهود طيلة عدة اجيال يحملون آمال العودة إلى وطنهم، وهذا الشوق لم يكن دافعاً مؤقتاً فقط، اذ انه كلما مرت السنون، تزايد هذا الدافع، بدلاً من ان يتلاشى أو يضعف. وكان الحنين إلى الوطن، يمثل بالنسبة للشعب اليهودي، سبب بقائه وصراعه الفريد من نوعه، كان تعبيراً لرغبته في العودة، واقامة وطنه القومي على أرضه القديمة، التي يحتلها غرباء، ليس لانها أرض اجداده فحسب، انما لانه رأى فيها الفرن الذي صهرت فيه هويته وايمانه، وفيها فقط، سيكون قادراً على العودة لاحيائهما، بعد سنين من الشتات والمصاعب.

لا يمكننا عدم المبالغة في اهمية فكرة عودة صهيون، في تاريخ اليهود، وقيام دولة إسرائيل، رغم ان أحد الآراء. السائدة اليوم، يقضي بأن الكارثة كانت السبب الرئيس لاقامة دولة اليهود.

صحيح انه في اعقاب الكارثة، نشأ تعاطف مع اليهود من جانب كثيرين من ابناء الشعوب الاخرى - هذا التعاطف الذي سهل، إلى درجة كبيرة، اقامة دولة إسرائيل. ولكن، مع ذلك، يجب ان نذكر هنا، ان الكارثة كانت عملية ابادة فظيعة، قضى فيها على ملايين اليهود الذين كانت اعينهم ترنو إلى صهيون، وادت إلى القضاء تقريباً على القاعدة البشرية لدولة يهودية دائمة. كانت الكارثة ذروة طريق طويلة من الكوارث، التي حلت بالشعب اليهودي - اعمال قتل ومذابح ومحاولات ابادة شعب.

دون فكرة العودة إلى صهيون، ربما لم تكن الكارثة لتؤدي إلى شيء، سوى قليل من التعاطف والمؤاساة من جانب الغرباء، وربما كان ملايين اليهود النين قتلوا في الكارثة

يشكلون ضربة مميتة للشعب اليهودي كله. ولولا ان الكارثة كانت مسبوقة بالفي سنة من الآمال بالنهضة القومية، ومائة سنة من العمل الصهيوني في سبيل العـودة واعـادة تـرميم الـبلاد الغربـة، لمـا قامـت دولـة إسرائيل ابدا.

ان فكرة عودة صهيون، هي، على أية حال، جزء لا يتجزأ من سر بقاء الشعب اليهودي. وكانت القـوة المحركة في ولادة دولة إسرائيل، وهي المفتاح لاستمرار بقائها.

لقد حوفظ على حلم العودة متكاملاً، منذ العهد القـديم وحتـى يومنـا هـذا، بفـضل الطـابع الخـاص لليهودية ذاتها. يعتقد ابناء العالم الغربي، بشكل عام، ان اليهودية، شأنها شأن المـسيحية، مجـرد ديـن، لـذا فهي لا تشمل وعياً قومياً. لكن اليهودية، منـذ بـدايتها، كانـت دينـاً وقوميـة معـاً. كـما ان الغربـاء الـذين استوعبتهم واعتنقوا دينها، اصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الامة، مـثلما قالـت رون المؤابيـة إلى نعمـي: "شـعبك شعبي، والهك الهي".

وفي أرض الشتات، زادت اهمية هذه الازدواجية في اليهودية. فبعد ان فقد اليهـود أرضـهم، وحكـومتهم، ولغتهم، ووزعوا في انحاء العالم، اصبح الدين الاداة الرئيـسة للمحافظـة عـلى هـويتهم وطموحـاتهم القوميـة. وداخل هذه الاداة، سكب اليهود احلام العودة إلى صهيون، وتجميع الشتات في أرض إسرائيل.

الديانة اليهودية، بما يتكرر فيها من ايام الصوم في ذكرى خراب القدس، والصلاة التي تقرأ ثلاث مـرات في اليوم "تجمعنا سوياً"، من مختلـف اقطـار الأرض لنعـود إلى أرضـنا" وعـادات اخـرى مختلفـة لاحيـاء "ذكـرى الدمار" على غرار "اذا نسيتك يا قـدس"، اصـبحت مجموعـة مـن ذكريـات المـاضي وآمـال المـستقبل في أرض الاجداد.

ان هذه العلاقة القائمة بين الشعب والأرض، تميز اليهودية عن بقية الاديان الاخرى. فالكاثوليـك، عـلى سبيل المثال، لا يصلون من اجل ان يكونوا السنة القادمة في الفاتيكان". وفريضة الحج، التـي يؤديهـا اتبـاع الديانات الاخرى، هي عبارة عن رحلات موسمية إلى مواقع مقدسة يستطيع المؤمن ان يجد فيهـا ويعمـق شعور وحدته مع ربه.

ولكن عندما ظل اليهود في مختلف البلدان يصلون طيلة مئات السنين من اجل "السنة القادمة في القدس"، كانوا يقصدون شيئاً آخر مختلفاً في غايته: لم يكن ذلك هو امل الفرد في العودة إلى المدينة المقدسة للصلاة فيها، انما رغبة شعب كامل في العودة لبناء حياته القومية على أرضه، التي تعتبر القدس قلبها.

بعد ان فقد اليهود في أرض إسرائيل، مكانة الاغلبية من حيث عدد السكان والقوة المسيطرة، جاءت مئات من سنين الامل والحنين لاستعادة السيادة اليهودية على هذه أرض، ويمكننا ان نجد خلال تلك الفترة الطويلة، وافراً من المؤلفات التي تعبر عن هذا الأمل بين سطور الشعر والنثر،بأقلام كبار الأدباء والشعراء والمثقفين اليهود.

ففي القرن الثاني عشر، على سبيل المثال، اعلن الحاخام يهودا هليفي، الذي كان يقيم في اسبانيا، ان عودة اليهود إلى ارضهم، هي الامل الوحيد لوضع حد لمعاناتهم على ايدي العرب، الذين لم يشهد اليهود امة أكثر عداء منهم، ولا امة اساءت الينا وفرقتنا وقللت عدنا وحقرتنا، أكثر منهم. لكن الحاخام اكد بقوله: "لا يمكن الا ان يأتي من نسل سليمان رجل يجمع شتاتنا".

لقد ذهب الحاخام هليفي إلى ابعد من هذا ايضاً فقد قال في القرن الثالث عشر: ان الاقامة في "أرض إسرائيل" واجب ديني، مكلف به كل انسان يهودي، وطبق هذا القول على نفسه، اذ هاجر إلى أرض إسرائيل، وساعد على ترميم الطائفة اليهودية، التي كانت قد ابيدت تقريباً في الحملات الصليبية.

في القرن السادس عشر، برزت فكرة تقضي بأن التحالف بين اليهود والمسيحيين قد يؤدي إلى احتلال البلاد من ايدي المسلمين - الامر الذي الهب حماس وآمال كثير من يهود ايطاليا والبرتغال.

اقام مهاجرون من اسبانيا الحي اليهودي في الخليل بعد ان اعادوا ترميمه، في حين اعادو، دون يوسف نسي، من البرتغال، ترميم انقاض طبريا باذن من السلطان. وادت هذه العودة

ايضاً إلى بعث الحياة الفكرية والثقافية اليهودية في صفد، وحتى نهاية القرن، كان يقطن فيها مـا بـين ١٠-٢٠ ألف يهودي.

وفي القرن السابع عشر بدأ يهود بولندا الاستعدادات للعودة إلى صـهيون. بعـد ان كـانوا توقفـوا عهـا لفترة قصيرة، بتأثير من الحركة المسيحية، بزعامة شبتاي تـسفي، ولكـن رغـم خيبـة الامـل التـي سـادت في أعقاب قضية شبتاي تسفي، واصل حاخامات يهود اوروبا الشرقية الدعوة إلى تنظـيم جماعـات للاسـتيطان في "أرض إسرائيل".

وبالفعل، وجد الطلائعيون الصهاينة، الذين بدأوا بالوصول إلى "أرض إسرائيـل"، اواخـر القـرن التاسـع عشر، في عدة مـدن، تجمعـات يهوديـة صـغيرة، أقامهـا تلاميـذ كبـار الحاخامـات هـؤلاء، ويهـوداً آخـرين استوطنوا هناك قبلهم. وفي القدس ذاتها، كان اليهود في تلك الفترة يشكلون أكبر عنصر سكاني.

وهكذا، شيئا فشيئا، عاد اليهود إلى أرضهم واستوطنوا فيها. كـان مـن بيـنهم مـن اجتـازوا، سـيراً عـلى الأقدام، صحراء روسيا، ومروا عبر دمشق وبيروت، ودخلوا البلاد من جهة الشمال، وآخرين أبحروا إلى ميناء يافا عبر البحر الابيض المتوسط، الذي كان يعج بالقراصنة. وفور ان وطئت أقدامهم "أرض إسرائيل" انضموا إلى الجاليات القديمة في الخليل، طبريا، صفد، أو القدس، التـي ظلـوا يحـافظون عـلى وجـود يهـودي طيلـة أجيال، على هذه الارض المهجورة. ونتيجة لهذا لم تكن هنالك فـترة في تـاريخ شـعب إسرائيـل. كانـت فيهـا البلاد خالية تماماً من اليهـود، (في قـرى بقيعـين وشـفر عـام (شـفا عمـرو)، في الجليـل ظـل يهـود يقيمـون باستمرار مذ العهد القديم وحتى يومنا هذا).

غير أن الهجرة بمجموعات كبيرة، لم تكن ممكنة حتى ظهـور الحركـة الـصهيونية الحديثـة في النـصف الثاني من القـرن التاسـع عـشر، حيـث عـبَّر اليهـود عـن حـبهم بـالعودة إلى أرض صـهيون، بـصورة عمليـة وسياسية.

إن مؤلفات هاس (روما والقدس من عام ١٨٦٢)، وفينسكر (تحرير الذات، عام ١٨٨٢)، وغيرهما كانت بمثابة مدماك آخر في الايمان بإمكانية الخلاص في الوقت الحاضر.

في اعقاب موجة المذابح في روسيا، عام ١٨٨١، تُرجمت هذه الطموحات والآمال إلى حركة صهيونية عمليّة لاستيطان "أرض إسرائيل" تحت اسم "هواة صهيون" التي تمخضت عنها هجرة يهودية واسعة النطاق، وأدت هذه الافكار والمشاعر إلى تهيئة الأرض لظهور الصهيونية السياسية قبل حوالي مائة عام، عندما بدأت الامبراطورية العثمانية تتهاوى.

وللمرة الأولى، مذ تدمير الهيكل الثاني، برزت فرصة سياسية حقيقية لاعادة بناء السيادة اليهودية وهجرة يهودية جماعية إلى "أرض إسرائيل". وبرز على المنصّة رجال ذوو بصيرة، أمثال هرتسل نوردو، أدركوا هذه الفرصة التاريخية التي سنحت امامهم. لم يقترح هرتسل خطة مفصلة ومحددة لانشاء الدولة اليهودية فحسب، إنما أقام المؤسسات التي ستدير هذه الدولة، في المستقبل، مثل "الهستدروت الصهيونية العالمية" والمؤتمرات الصهيونية التي عقدت الواحد تلو الآخر، منذ عام ١٨٩٧ فصاعداً.

نجح هرتسل في ترجمة المشاعر الصهيونية الطبيعية التي كانت تدق في قلوب ملايين اليهود، إلى حركة سياسية، عرفت كيف تأخذ بنظر الاعتبار العالم الحديث.

لقد أفلح أيضاً في فهم لعبة القوى في السياسة والتاريخ. وكانت لديه معرفة كاملة بأن يهود اوروبا يواجهون خطراً مدمراً، إلى جانب إيمانه الكامل بامكانية العودة لاقامة دولة ذات سيادة. لذا عمل هرتسل من أجل الفكرة الصهيونية، بكل ما أوتي من سرعة ونشاط.

ثم جاء من بعده أشخاص بعثوا الروح في الصهيونية في بلدان كثيرة وعملوا على إقامة الدولة، وفي نفس الوقت بدأ طلائعيون يهود بحملة لاستيطان البلاد.

كان "الافندية" العرب، الذين يملكون معظم الاراضي، قد تركوها واهملوها إلى درجة كبيرة، في حين كانوا هم أنفسهم يعيشون حياة بذخ ورفاهية في بيروت أو دمشق. في حين

حوّل المستوطنون اليهود المستنقعات والأراضي الصخرية الوعرة إلى أراض زراعية خصبة غُطّيت في بادئ الأمر بالمستوطنات القروية ومن ثم بالمدن. وقد ساعد عدد من أرباب المال اليهود، من أمثال، موشه مونتفيوري،

والبارون روتشيلد، مشروع الاستيطان اليهودي، وكانت أول مستوطنة أُقيمت في "أرض إسرائيل" من جديد في عام١٨٨٢ من قبل رجال الهجرة الأولى، ريشون لتسيون. وكانت مستوطنة زراعية أقامها يهود قادمون من روسيا، تلقوا الدعم المالي من البارون روتشيلد.

في ١٨٩٦، عندما جاء إلى ريشون لتسيون، ابرامام ماركوس، والد جدي لأمي، وجد فيها مجموعة من المنازل المشيّدة والمدهونة باللون الأبيض مع أسقف من القرميد الأحمر، تقف شامخة في قلب صحراء رملية مترامية الأطراف. وكان ابراهام، عضو حركة "هواة صهيون" يطمح لأن يكون فلاّحا مثقفاً. ففي النهار كان يغرس الأشجار، وفي الليل يواظب على دراسته. وعندما وُلدت أمي في بيتح تكفا، القريبة، عام ١٩١٢، كانت الأسرة قد أصبحت تسكن في قلب بيارات زرعها أبناؤها، في بيت جميل يزيّنه صفّان من أشجار النخيل على مدخله، لكن اقلاء فقط هم الذين استطاعوا التمتع بمثل هذه الحياة الهانئة. إذ أن معظم المهاجرين الجدد كانوا يعيشون في ظروف أصعب بكثير.

ففي عام ١٩٢٠،عندما جاء جدّي لأمي الحاخام نتان ميلوبسكي، إلى "أرض إسرائيل" لم تكن فيها طرق معبدة ولا وسائط نقل حديثة، لقد نزل ابناء الأسرة من السفينة إلى الشاطئ بزوارق تجديف، اذ لم يكن آنذاك في يافا ميناء حقيقي. وبعد أن مكثوا فترة ما في أول بيوت بُنيت في تل أبيب، سافروا بطرق ترابية إلى سمخ، في رحلة استغرقت يومين كاملين، ومن هناك إستقل جدي وأبي سفينة إلى طبريا مع الأمتعة، بينما تابع بقية أفراد الأسرة طريقهم على متن عربة. وبعد قضاء ليلة في طبريا توجهت الأسرة على متن عربة إلى صفد، وفي روش بينا تم استبدال الخيول التي تجرها. وباستثناء روش بينا كانت المنطقة كلها قاحلة، إلاّ من عدة

مضارب بدوية، كانت بمثابة نقاط في المنطقة، متفرقة هنا وهناك. وهكذا فان الرحلة من يافا إلى صفد، التي تستغرق اليوم ثلاث ساعات، إستغرقت آنذاك ثلاثة ايام.

لقد غيّرت موجات المهاجرين التي جاءت الواحدة تلو الأخرى منذ عام ١٨٨٢، وجه البلاد كلياً. حيث شق اليهود الطرق وعبّدوها، واقاموا المدن والمستوطنات والحقول الزراعية والمستشفيات والمصانع والمدارس. وكانت كلما زادت الهجرة اليهودية، زاد عدد السكان العرب في البلاد أيضاً. حيث وصلت إلى البلاد هجرة عربية جماعية بحثاً عن امكانيات العمل التي توفرت لهم، ومستوى الحياة الافضل، الذي توفر لهم بفضل الاقتصاد اليهودي النشط.

في عام ١٩٣٩، قال الرئيس الأمريكي فرنكلين روزفلت: "لقد زادت هجرة العرب إلى فلسطين منذ عام ١٩٢١، بدرجة كبيرة على هجرة اليهود اليها في كل الفترات الأخيرة". وبفضل التحسّن الذي طرأ على الاقتصاد والصناعة والتجارة، طرأ ارتفاع متزايد على الأجور والتصنيع في اوساط عرب "أرض إسرائيل" قياسا على الدول العربية المجاورة. ففي عام ١٩٤٧، كانت أجرة العامل العربى في يافا، ضعف أجرة العامل في نابلس التي لم يستوطنها يهود أبداً.

كما أن المعامل الصناعية التي يملكها العرب، زاد عددها ٤٠٠% في الفترة مابين ١٩٣١-١٩٤٢، وزاد عدد العمال في هذه المصانع عشرة أضعاف في الفترة ما بين ١٩٣١-١٩٤٦.

كانت الزيادة المؤثرة في الهجرة العربية إلى المناطق التي يقيم فيها اليهود. فمنذ عام ١٩٢٢، السنة الأولى للانتداب البريطاني، وحتى عام ١٩٤٧، زاد عدد العرب في المدن المختلطة بنسب كبيرة: ٢٩٠% في حيفا، ١٥٨% في يافا، ١٣١% في القدس (مقابل٦٤% في الخليل، ٥٦% في نابلس،٣٧ % في بيت لحم، التي كان يقيم فيها عدد قليل من اليهود).

لكن الهجرة العربية إلى المناطق التي أصبح يملكها فيما بعد ملايين اليهود، لم تغير شيئاً في الرأي الذي ساد العالم، بأن هذه الأرض مخصصة لتكون وطناً قومياً لليهود، تكون فيه أقلية عربية.

وعلى أية حال، ان المطالبة اليهودية في السنوات المائة الأخيرة بحق اليهود على "أرض إسرائيل"، تعززت بفضل الجهود التي لا تعرف الكلل لاستيطان الأرض واعادة إخصابها من جديد.

وعلى الرغم من أن مطالبة اليهودية كانت شديدة، ربما كانت ستضعف قليلاً، لو أظهر العرب درجة مماثلة من الاصرار والاخلاص للأرض خلال الاجيال التي سبقت ظهور الصهيونية.

ويدعي العرب اليوم، أنه عندما إعترف المشاركون في مؤتمر فرساي بحق اليهود التاريخي على "أرض إسرائيل" تجاهلوا وجود أمة أخرى كانت قد نشأت، في تلك الأثناء، على هذه الأرض، أمة عربية - فلسطينية، أوجدت روابط حضارية وتاريخية مع هذه الأرض لا تقل عن تلك الخاصة باليهود.

ويقول العرب: لقد أخطأ زعماء العالم عندما آمنوا بأنهم "يمنحون أرضاً بلا شعب إلى شعب بلا أرض".

لويد جورج، اللورد بلفور، وودرو ويلسون، وسياسيون كثيرون آخرون، في مؤتمر فرساي، كانوا رجالاً مثقفين، أذكياء وذوي بصيرة، فهل فعلاً أعمتهم رغبتهم في احياء الماضي التناخي إلى درجة جعلتهم يتجاهلون الحقائق السكانية والقومية التي كانت قائمة في "أرض إسرائيل" في تلك الفترة؟ كلا، وألف كلا. لقد عمل هؤلاء الزعماء من خلال إدراك واضح للوضع الذي كان سائداً آنذاك في "أرض إسرائيل"، الذي كان معروفاً وموثقاً جيداً.

على أية حال، يدعي العرب ان اليهود احتلوا "أرض إسرائيل"، من أيدي شعب عربي عاش عليها مئات السنين، وكان صاحبها الشرعي. فقد أعلن ياسر عرفات في كلمته في الأمم المتحدة عام١٩٧٤ ما يلي:

"بدأ الغزو اليهودي في عام١٨٨١... كانت فلسطين آنذاك أرضاً خضراء يسكنها أبناء شعب عربي كان مشغولاً ببناء حياته وباثراء نشط لثقافته الداخلية".

ويرى العرب في عام ١٨٨١، علم الهجرة اليهودية الأولى، بداية الغـزو الـصهيوني. في ذلـك العـام، كـان عدد اليهود في القدس أكبر من عدد سكانها العرب منذ ٦٠ عاماً.

لقد تعمقت جذور هذا الادعاء، الذي يكرره الناطقون العرب، وكأن اليهود اغتصبوا الأرض من اهلهـا العرب، في اوساط واسعة في الغرب وفي إسرائيل أيضاً، إلى درجة أصبح من الـصعب جـداً إقتلاعهـا. غـير ان هذا الادعاء ليس له أي أساس تاريخي. فالوصف الذي يورده عرفات وغـيره، "لأرض إسرائيـل"، قبـل عـودة اليهود اليها، بأنها أرض خضراء مكتظة بالسكان، يتناقض تماما مع مئات التقارير التي أوردهـا شـهود عيـان اوربيون وأمريكيون، زاروا البلاد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن ضمنها تقارير كبار علماء الآثـار من روبنسون فصاعداً.

في القرون الأخيرة، عدما بدأ الغرب يهتم بأبحاث فترة "المكراه" زاد تيار الزوار "لأرض إسرائيل" وشمل أدباء وعلماء آثار وجغرافيين، وغيرهم. ودوّن كثيرون منهم بالتفصيل، ما شاهدوه في مذكراتهم وفي صـحف تلك الفترة. وجميعهم، بدون استثناء، يوردون اوصافاً ديمغرافية وطبيعية تختلف كلياً عـما يحـاول عرفـات تصويره.

في عام ١٦٩٧، كتب هنري موندرل، ان الناصرة هي عبارة عن "قرية صغيرة ليـست ذات اهميـة"، وفي نابلس يوجد شارعان فقط، واصبحت أريحا -قرية حزينة قذرة"، وعكا عبارة عن "خربة كبيرة".

في ١٧٣٨، كتب عالم الأثار البريطاني، توماس شو، عن "أرض إسرائيل" أنها أرض قاحلة لا يوجـد فيهـا شيء... نظراً لقلة عدد السكان"، وفي عام١٧٨٥، وصـف قـسطنطين فرنـسوا وولنـي، الأرض بقولـه: "وجـدنا صـعوبة في التعرف على القدس... يبلغ عدد سكانها ما بين ١٢-١٤ ألف نسمة... المكان الثاني الجدير بالـذكر هنـا هـو بيـت لحم... فلاحة الأرض سيئة... يحتمل ان يكون في هذه القرية٦٠٠ رجـل قـادرين عـلى حمـل الـسلاح... والمكـان الثالث والأخير من حيث الاهمية هو الخليل، أقوى قرية في هذه المنطقة.. تستطيع تجنيد٨٠٠-٩٠٠ مسلح.

في عام ١٨٣٥، وصف الشاعر الفرنسي، الفونس دي لامارتن المنطقة بقوله:"خارج أبواب القدس، لم نـر مخلوقاً حياً، ولم نسمع صوت مخلوق. صادفنا فراغاً وسكوناً تامين يخـيم عـلى المدينـة، عـلى الطـرق، عـلى البلاد كلها.... إنها قبر لشعب كامل".

في عام ١٨٥٧، كتب القنصل البريطاني في "أرض إسرائيـل"، جـيمس بـين، إلى المـسؤولين عنـه في لنـدن: "البلاد خالية إلى درجة كبيرة من سكانها، لذا فهي بحاجة ماسة إلى مجموعة كبيرة من السكان".

أما الكاتب الأمريكي الذي اشتهر برحلاته إلى "أرض إسرائيل" مارك توين، الذي زار البلاد في عام ١٨٦٧، فقد وصف إنطباعاته عنها في كتاب "رحلـة ملـذّات في الأرض المقدسـة"The Lnnocents Abroad :"في سـهل مرج بن عامر بكل طوله وعرضه - ثلاثون ميلاً لكل جهة - لا تجد ولو قرية واحدة. إنما تجد في الواقـع مـا بين٢-٣ مضارب بدوية صغيرة، ولكن ولا قرية دائمة واحدة. تستطيع ان تركب لمسافة عشرة أميال في هـذه المنطقة دون أن تصادف ولو عشرة أشخاص".

ويضيف: "ان من تشتاق نفسه لرؤية العزلة الموحشة، فليذهب إلى منطقة الجليـل وطبريـا الحزينـة. اما أريحا الملعونة فهي اليوم عبارة عن خربة مهدمة، تماماً، كما تركها يهوشع بن نون، قبـل مـا يزيـد عـلى ثلاثة الاف سنة... وبيت لحم المقدسة، خالية من كل مخلوق ذي حياة".

ويصف ضواحي القدس بقوله: "كلما أبعدنا... ترتفع درجة الحرارة وتصبح الأرض أكثر صخرية وعراءً منفّرة وقاحلة. كثيرة الحجارة بشكل لا يصدّق. لا توجد فيها حتى ولو شجرة واحدة. حتى أن أشجار الزيتـون والـصبر، التي اشتهرت بها هذه الأرض، فليس لها وجود هنا. والقدس الشهورة، أجمل أسـم في التـاريخ، فقـدت حجمهـا التاريخي وأصبحت قرية حزينة".

لقــد تكــررت انطباعــات تــوين هــذه في انطباعــات خبــير الخــرائط البريطــاني المعــروف ارتــور فــرنين ســتانلي، عنــدما كتــب عــام ١٨٨١، (العــام الــذي يعتــبره عرفــات بدايــة الغــزو الــصهيوني

واقتلاع سكان محليين نشطين من أرض خضراء)، يقول: "لن أبالغ إذا قلت انه على مسافة ميل وراء ميل لا نرى في منطقة يهودا علامة حياة، ولا وجوداً لقرية مأهولة واحدة".

إن اهمية الأمر لا تكن في ادعاء عرفات هذا، إنما في ان هذه الكذبة التي يكررونها باستمرار وباسهاب، قد احتلت مكان الحقيقة التي كانت جليّة بالنسبة لكل إنسان مثقف في القرن التاسع عشر، وهي ان الأرض كانت خالية تقريباً، وكانت تتسع لملايين اليهود الذين عاشوا آنذاك في "جيتوهات" اوروبا في ظروف لا تحتمل، وفي ظل خطر متزايد، وكانوا يتوقون إلى العودة للبلاد لاحيائها من جديد.

من المفهوم، انه كان هناك عرب في "أرض إسرائيل"، وفي منتصف القرن التاسع عشر، كان عددهم يزيد على عدد اليهود فيها. ولكن حتى نهاية الربع الثالث من ذلك القرن، كان عدد سكان البلاد يهوداً وعرباً حوالي ٤٠٠ ألف نسمة، أقل من ٦% من عدد سكانها اليوم.

عام ١٨٨١، بدأ الاستيطان اليهودي في "أرض إسرائيل"، ومع انتهاء الحرب العالمية الاولى، كان عد السكان في ضفتي نهر الأردن بلغ ٦٠٠ ألف نسمة، منهم حوالي٦٠٠ ألف غرب النهر، غير ان هذا العدد كان ضئيلاً بالمقارنة مع عدد السكان الذي يمكن ان تستوعبهم هذه البلاد.

عام ١٨٩٨، زار القيصر الالماني،"أرض إسرائيل"، ولدى اجتماعه بهرتسل قال له:"إن المستوطنات التي شاهدتها سواء الالمانية منها أو تلك التابعة لابناء شعبك، يمكنها ان تكون نموذجاً لما يمكن ان نفعل في هذه البلاد. يوجد هنا مكان للجميع.

عندما أدرك سياسيون واعون، أمثال ووردو ويلسون ولويد جورج، الوضع المهمل في أرض إسرائيل، ادركوا ان الوجود العربي القليل في هذه البلاد، الذي لا يستغل الأراضي الخالية لسد الاحتياجات المتواضعة للسكان، لا يمكن ان يكون عنصراً حقيقياً مقابل مطالبة ملايين اليهود من كل أنحاء العالم، بدولة خاصة بهم، خاصة إذا أخذنا بالاعتبار المنطقة

العربية الواسعة (التي تبلغ مساحتها ٥٠٠ ضعف "أرض إسرائيل"القريبة لها) التي تشكل الـوطن القـومي للعرب.وبهذه الروح قال زئيف جيبوتنسكي امام لجنة أقلية في "أرض إسرائيل" لكنني أنفي ان يكون مثـل هذا الوضع سيلحق بهم الأذى. ان هذا الأمر سيئاًً لأي شعب ولا لأية أمة، توجد لـديها عـدة دول قوميـة قائمة الآن، وستكون لها دول قومية أخرى في المستقبل. جزء صغير، فرع واحد من هذا الشعب - وليس فرعـاً كبيراً - سيضطر للعيش في دولة اجنبية... وواضح بالنسبة لي، أن أية أقليـة تفـضل ان تكـون أغلبيـة، ويمكننـا ان ندرك رغبة عرب "أرض إسرائيل"، الذين يفضلون ان تكون "أرض إسرائيل" الدولة العربية الرابعة أو الخامسة أو السادسة...، ولكن عندما نقارن بين مطالب العرب ومطالب اليهود في الخلاص، نكون وكأننا نساوي بين مطالـب صاحب الشهيّة، وبين مطالب الذي يحتضر جوعاً".

في إطار محاولاتهم لترسيخ مطالبهم التاريخية "بأرض إسرائيل"، لم يشوّه العرب الظـروف الديمغرافيـة والطبيعية لهذه الأرض في القرن التاسع عشر فحسب، إنمـا حـاولوا إقنـاع العـالم، بـأن عـرب أرض إسرائيـل، بلوروا خلال مئات السنين الاخيرة هوية قومية خاصة بهم، مفردة ومختلفة.

وقد قاموا بهذ المحاولة من خلال المعرفة، أنه بدون هوية كهذه، لن يستحقوا تقرير المصير. لـذا فهـم يدعون ان اليهود الذين غزوا البلاد، استولوا على بلاد مستقلة هي فلسطين، كان يعيش فيها شعب منفصل وخاص - الفلسطينيون.

غير أن هذا الادعاء أيضاً يسخر من الحقيقة التاريخية الصريحة. فبعد احتلال العرب في القرن السابع لم تعد هناك فلسطين، كما يقول البروفيسور برنارد لويس:

"منذ إلغاء الدولة اليهودية في العهد القديم وحتى بداية حكم البريطانيين، لم تكن للمنطقة المعروفـة باسم فلسطين أية حدود باستثناء الحدود الادارية. وكانت المنطقة جزءاً إدارياً من ضمن كيان اكبر".

قسّم الأتراك البلاد إلى اربع مناطق ادارية عرفت باسم "سناجق": منطقة القدس، وشملت سيناء وامتدت إلى داخل افريقيا، في حين كانت السامرة، والجليل، وشرق الأردن، تشكل ثلاث مناطق منفصلة أخرى. ثم قسّم الحكام الأتراك: الواحد بعد الأخر، المنطقة إلى أجزاء ووزعوها حسب مناطق نفوذهم لم تكن دولة فلسطين العربية قائمة أبداً، كما لم تكن هنالك منطقة عربية تحاذي منطقة أرض إسرائيل. حتى أن اسم فلسطين نفسه لم يعد مستعملاً بين العرب،البريطانيون هم الذين أحيوه، ومنهم صادره العرب لأنفسهم، في القرن الحالي.

من هم الذين كانوا زعماء تلك الأمة الفلسطينية الخيالية خلال المائتي سنة من حكم المماليك، والأربعمائة سنة من الحكم التركي ؟ وما هي المنظمات السياسية، أو المؤسسات الاجتماعية، أو المؤلفات الأدبية أو الفنّية أو الدينية أو حتى تبادل الرسائل الخاصة، التي ورد فيها ذكر أو تعبير عن علاقات تلك الأمة بهذه الأرض المجزأة والمقسّمة؟

كل هذه الأمور لا وجود لها نهائياً. فطيلة هذا التاريخ الطويل، لم يعرب السكان العرب في "أرض إسرائيل"، ولو تلميحاً، عن رغبة في الاستقلال القومي، أو فيما يعرف اليوم تقرير المصير". كان هنالك عرب عاشوا في "أرض إسرائيل"، مثلما عاش عرب آخرون في أماكن أخرى كثيرة، لكن لم يكن هناك شعب فلسطيي ذو وعى قومي أو هوية قومية، أو حتى مصالح قومية مشتركة؛ ومثلما لم تكن هناك دولة فلسطينية، لم يكن هناك شعب فلسطيى، أو ثقافة فلسطينية.

كانت تلك أيضاً، إستنتاجات اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بيل) التي حاولت في عام ١٩٣٧ تحديد مستقبل أرض إسرائيل-:

-في القرون الاثني عشر، منذ الاحتلال العربى، اختفت هذه البلاد تقريباً عن المنصة التاريخية... وسواء، على الصعيد الاقتصادي أو السياسي، بقيت هذه البلاد خارج تيار الحياة الرئيسي في العالم. وعلى الصعيد الفكري والعلمي والادبي كذلك، لم يكن لها دور في المدنية".

هناك من يدعي أنه في الثلاثينيات، اتخذ هذا الموضوع مغزى سياسياً، ولذلك لا يمكننا إقرار حقيقة تاريخية بالاعتماد على أقوال قيلت في تلك الفترة. غير أنا لا نستطيع أن ننسب مثل هذا المغزى لتقارير شهود العيان الذين زاروا البلاد في القرن السابق. فها هو الدارس السويسري، فيلكس بفنه، الذي زار أرض إسرائيل عام ١٨٥٨ يقول عن الوضع الذى شاهده هنآك: لم يعرف الصليبيون الذين احتلوا الأرض المقدسة كيف يحتفظون بها، ولم يسبق لها أن كانت بالنسبة لهم أكثر من ميدان معركة ومقبرة. اما العرب الذين أخذوها منهم فقد تركوها هم أيضاً ليسيطر عليها الأتراك والعثمانيون.... هؤلاء، حولوها إلى صحراء قاحلة، لا يبرزون على السير فيها دون خوف. والعرب أنفسهم، الذين هم سكانها، لا يمكن اعتبارهم سوى أنهم يخيمون فيها. لقد نصبوا خيامهم في حقولها الرعوية، أو أنهم اتخذوا لأنفسهم ملاجىء في خرابها. إنهم لم يؤسسوا شيئاً فيها، لانهم غريبون عن الأرض، لم يسبق أن ملكوها. وان رياح الصحراء التي جلبتهم إليها، قادرة على حملهم في أحد الأيام، دون أن يخلفوا وراءهم أية آثار يمكن أن تدل على عبورهم عليها".

وعندما تجول ادوارد روبنسون، كلود كوندر، وعلماء آثار آخرون، في البلاد، لأول مرة، استطاعوا التعرف، بسهولة نسبية، على المواقع الأثرية اليهودية، لأن العرب لم يهتموا حتى ولو بتغيير أسمائها، وتركوا الأسماء العبرية القديمة (مع بعض التحريف في العربية).

ومن بين المواقع اليهودية التي لم تتغير أسماؤها تقريباً، وجد الباحثون مدينة يرمياهو، عناتوت (عناتا)، وميادين المعارك التي خاضها المكابيون في لبونه (لوبان) وفي بيت حورون (بيت عور)، والحصن الأخير لباركوخفا، بيتار (بتير)، وشيلا (سلوان). وعراد (تل عوريد)، واشكلون (عسقلان) وبئر شيفع (بئر السبع)، بنى براك (ابن ابريق)، بيت شآن (بيسان)، بيت شيمش (عين شمس)، ادورايم (دورا)، اشتموع (السموع)، ومئات المواقع الأخرى.

في حقيقة الأمر، أقام العرب خلال ١٢٠٠ سنة من وجودهم على أرض إسرائيل، مدينة جديدة واحدة هي الرملة.

هذه الحقائق الواضحة، دفعت السير جورج أدام سميث، مؤلف كتاب "الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة" (The Historical Geograghy of the Holy Land)عام ١٨٩١ ما يلي:

- لا توجد أية حضارة محلية في فلسطين يمكن أن تكون بديلاً للحضارة التركية، سوى الحضارة اليهودية التي منحت فلسطين كل شيء ذي قيمة إلى الأبد".

لقد كان زعماء العالم محقين عندما لم يبحثوا في فرساي مطالب الفلسطينيين القومية. إذ لم يطرح أي زعيم عربي في فرساي (ولا في أرض إسرائيل أيضاً) مثل هذا الطلب.

فيصل،ابن شريف مكة، وملك العراق فيما بعد، الذي ترأس الوفد العربي، كان مشغولاً في تحقيق الاستقلال للدولة العربية الذي كان يأمل في ان تشمل سوريا اليوم والعراق وشبه الجزيرة العربية، وفي الحقيقة اعتبر العرب، الصهاينة حلفاء لهم بالقوة. وتجدر الإشارة أيضاً إلى انه خلافاً لما يدعونه اليوم بأن البريطانيين وعصبة الأمم كانوا يعرفون جيداً انه يوجد في "أرض إسرائيل" عرب يعارضون التسوية التي تقضي باقتطاع جزء صغير في منطقة الشرق الأوسط، من السيادة العربية، ليقام فيه وطن قومي لليهود. وقد تم التعهد لهؤلاء، العرب بمنحهم حقوق المواطنة الكاملة، وبما أنه كان يعيش في "أرض إسرائيل" ٥% فقط من ملايين العرب الذين كانت بريطانيا قد حررتهم من الامبراطورية العثمانية.

في نظر بلفور، لحانت للصهيونية جذور بعيدة في الماضي، ومتطلبات في الحاضر، وآمال مستقبلية، تزيد في عمقها ادعاءات وطموحات ٢٠٠ ألف عربي كانوا يعيشون آنذاك في الأرض العتيقة".

تم التوقيع على اتفاقيات فرساي، و سُلّم الانتداب على "أرض إسرائيل" للبريطانيين في مؤتمر سان - ريمو ١٩٢٠ بعد أن قام محرّضون من دمشق بإثارة اضطرابات دامية في القدس، قتل فيها ستة يهود وجرح مئات آخرين.

تجدر الاشارة إلى أنه في تلك الاضطرابات أيضاً لم يطلب العرب الاستقلال لفلسطين، بل ضمها إلى سوريا الستقلة.

عبرت السياسة البريطانية بوضوح عن الاتفاق العام بأنه يوجد شعبان، شعب عربي، وشعب يهودي، وان الاثنين لهما الحق في الحصول كل على حصته. وفي كانون أول، ١٩١٧، بعد فترة قصيرة من إصدار وعد بلفور، أجمل اللورد روبرت ساسل، نانب ون مر الغارجية البريطاني سياسة بلاده بكلمات بسيطة:"نرغب في ان تكون البلاد العربية للعرب، وأرمينيا للأرمن، ويهودا لليهود".

بعد عدة سنوات من مؤتمر فرساي، وعندما اتضح للورد لويد جورج، أن العرب يدعون بأنهم ظلموا في أرض إسرائيل وفي اماكن أخرى، قال: "لا يوجد شعب حقق مكاسب أكثر من العرب، مما تعهدت به الول الحليفة للشعوب المقهورة. فبفضل التضحيات الكبيرة التي قدمتها دول الحلفاء، وبخاصة بريطانيا وامبراطوريتها، نال العرب استقلالهم في العراق والسعودية وسوريا وشرق الأردن، رغم أن معظم الثعوب العربية قاتلت في الحرب إلى جانب الاتراك... العرب الفلسطينيون (بشكل خاص) حاربوا من أجل السلطان التركي".

ولهذا لم يفاجأ أحد، في الثاني من تشرين ثانٍ- ١٩١٧، عندما أشار بلفور بصورة رسمية في رسالته إلى الاتحاد الصهيونى- البريطاني، بواسطة اللورد روتشيلد، إلى أن بريطانيا تنظر بعين العطف للطموحات اليهودية بانشاء وطن قومي يهردي في "أرض إسرائيل" وكان الجميع يعرفون آنذاك أن هذه الطموحات تعني تحقيق أغلبية يهودية في البلاد، وحكماً يهودياً، في نهاية الامر. وقد عرفت تلك الرسالة فيما بعد باسم "وعد بلفور": "تنظر حكومة جلالته بعين العطف لتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في أرض إسرائيل، وستبذل كل ما في وسعها لتحقيق هذا الهدف من خلال ادراك واضح، بأنه لن يحدث شيئ، قد يمس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في أرض إسرائيل، ولا في الحقوق والمكانة السياسية لليهود في أي مكان آخر".

بالنسبة للسكان العرب، أكد وعد بلفور على أنهم سيظلون يتمتعون بحقـوق مدنيـة ودينيـة في أرض إسرائيل. اعتقد الجميع أنه لا ضير في وجود أقلية عربية وسط اليهود طالما أُحترمت حقوقهـا الفرديـة، كـما ورد صراحة في وعد بلفور.

في عام ١٩٢٠، سلمت عصبة الأمم، بريطانيا، مهمة الانتداب على أرض إسرائيـل في مـؤتمر سـان ريمـو، على أساس وعد بلفور المؤيد للصهيونية من عام ١٩١٧، حيث ضم إلى كتاب الانتداب كجزء لا يتجـزأ منـه: يكون صاحب الانتداب مسؤولاً عن أن تسود في الدولة ظروف سياسية، وادارية واقتصادية، تـضمن إنـشاء الوطن القومي اليهودي".

كما أن صيغة كتاب الانتداب، اشتملت على دعوة للسماح بهجرة يهوديـة واسـتيطان يهـودي مكثـف في البلاد".

كانت هذه التسوية عادلة في نظر بريطانيا. إذ قبل فترة وجيزة، كان البريطانيون قد حرروا العرب من الحكم التركي الذي اسـتمر مئـات الـسنين، ومنحـومم بـلاداً واسـعة لتحقيـق طموحـاتهم القوميـة واعتقـد البريطانيون، أن اليهود أيضاً، يستحقون إعترافاً خاصاً، نظـراً لإخلاصـهم لبريطانيـا ومـساهمتهم في المجهـود الحربي في الحرب العالمية الاولى.

فقد حارب عدد كبير من اليهود في إطار جيوش دول الحلفا، وساهموا في إنتـصارها، في حـين لم يفعـل العرب شيئاً، للتحرر من نير الحكم التركي.

معظم العرب، وبخاصة، عرب أرض إسرائيل، ساعدوا الاتراك المسلمين بالذات، كما أشار لمريد جـورج. ويستثنى من ذلك، بعض الهجمات المتفرقة على الخـط الحيـدي الحجـازي، التـي نفـذتها عـصابات عربيـة بقيادة لورنس. في حين، بالإضافة إلى مئات الآلاف من الجنود اليهود الذين قدموا في جيـوش دول الحلفـاء، إشتركت في الحرب، الكتائـب العبريـة التـي :أُقيمـت في إطـار الجـيش البريطـانى بمبـادرة صـهيونية بقيـادة الكولونيل، جون هنري بترسون، حيـث قـدمت هـذه الكتائـب مـساهمة كبـيرة في الحـرب ضـد الاتـراك في مناطق شومرون، والجليل، وشرق الأردن.

على أية حال، أبدت بريطانيا، التزاماً تجاه المطلب التاريخي لليهود على "أرض إسرائيل" من خلال الاعتراف بمساهمتهم في المجهود الحربي، وبحقوقهم التاريخية. لذا لم يكن مستغرباً أبداً أن يؤكد السياسيون البريطانيون حقوق اليهود في إطار كتاب الانتداب الصادر عن عصبة الأمم، ولم يواجه هذا التأييد أي إعتراض من جانب أحد، نظراً لأن كثيرين آخرمن، كانوا يعترفون بهذه الحقوق آنذاك.

في حقيقة الأمر، لم يمنح الانتداب اليهود الحق على هذه الأرض، إنما اعترف بعق موجود وقائم، وأكد العلاقات التاريخية للشعب اليهودي بهذه الأرمنى وحقه في إعادة بناء وطنه القومي عليها.

لقد بدا هذا الاعتراف في تلك الايام طبيعياً ومطقياً، لأن معظم أبناء الطبقات المثقفة، آموا أن حق الشعب اليهودي على أرض إسرائيل، يحمل عليه بحكم التاريخ، ورغبة هذا الشعب المستمرة في العودة لاحياء وجود، القومى عليها.

إن أفضل من استطاع التعبير عن حق اليهود هذا، كان ويستون تشرتشل، عام ١٩٢١، عندما قال: "واضح للغاية ان العدالة تقضى بأن يكون لليهود الموزعين، مركز قومي ووطن قومي يتحدون فيه من جديد، وأين يمكن أن يكون مثل هذا الوطن، إن لم يكن في فلسطين، التي يرتبطون بها إرتباطاً وثيقاً وعميقاً، منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة؟ نحن نعتقد أن هذا الأمر سيعود بالفائدة على العالم، وعلى اليهود، وعل الامبراطورية البريطانية وعلى العرب أنفسهم الذين يعيشون في فلسطين... سيكون هؤلاء شركاء في خير وتقدم الصهيونة".

كان تشرتشل متمسكاً برأيه، ان اليهود سيكونون قادرين على بناء وطنهم القومي على أرض إسرائيل، وجلب الفائدة أيضاً لسكان البلاد من العرب. وقد رد على العرب الذين طلبوا منه عدم السماح لليهود بشراء أراضٍ في أرض إسرائيل، والاستيطان فيها، بقوله: -إن أحداً لم يسء اليكم... فالمهمة الملقاة على عاتق اليهود، أصعب بكثير من مهمتكم. فما عليكم سوى الاستفادة من ممتلكاتهم.

في حين أن اليهود ملزمون بايجاد مصادر عيش للاشخاص الذين يجلبونهم إلى بلاد خربة.

وفي أعقاب تعرضه لـلـهجوم والانتقاد في مجلس النواب البريطاني، بسبب منعه اليهـود امتيـازاً لاقامـة مشروع كهربائي على نهر الأردن، قال تشرتشل: يقولـون إلي أن بامكـان العـرب عمـل ذلـك بأنفـسهم. مـن يصدق هذا؟ إذا تركوا عرب فلسطين لشأنهم فلن يقوموا باجراءات مفيدة لـريّ فلـسطين وكهربتهـا، حتـى ولو بعد ألف سنة. إن الأسهل بالنسبة لهم الإقامة - معموعة مـن البـشر ذوو منطـق فلـسفي - في مـروج قاحلة تحرقها الشمس، وترك مياه نهر الأردن تتدفق دون عوائق، إلى البحر الميت".

كانت نظرة التأييد هذه سـارية، بـالطبع، عـلى جـانبي المحـيط، حتـى أن أحـداً لم يـستغرب إعـتراف الولايات المتحدة بوعد بلفور. فقد تمت المـصادقة عـلى هـذا الاعـلان في حزيـران ١٩٢٢ مـن قبـل مجلـسي النواب والشيوخ الأمريكيين، وصادق عليه الرئيس الأمريكي وورن.ج. هأردنغ، في شهر أيلول.

وهكذا، في ١٩٢٢، بعد عشرات السنين من العمـل الـسياس بلغـت المعركـة الـصهيونية ذروة نجاحهـا الدولي. حيث إعترف الكثيرون بصدق طريقها، وحظي زعماؤما بالتقدير والاحترام، وكان هـدفها الأسـاسي - إقامة وطن قومى لليهود على ضفتى نهر الأردن - مقبولاً على العالم كله تقريباً.

في الحقيقة، أن الوطن القومي اليهودي، كان من المقرر له أن يكون صـغيراً ومتواضـعاً، معظمـه أرض صحراوية ومستنقعات، وكله معرّض لأشعة الشمس الحارقة، لكنه كان خالياً وواسعاً... وعلى هـذا الأسـاس سدّ الحاجة الرئيسية.

ألم يعمل أباؤمم (اليهود) في أرض جلعاد شرق النهر، وغرسوا الكروم في يهودا، واصطادوا الأسماك مـن بحيرة طبريا وأبحروا بنفسهم من شاطئ، يافا؟

ذرية اليهود، ستقوم بكل هذه العمال، وأكثر من هذا. كما تنبأ هرتسل في كتابه "التنفيلانـد"، سـتحيي مدينـة اليهود تقاليد قديمة، وبنفس الوقت ستطور العلوم والتكنولوجيا؛ وستكون "جمهورية تحمـل ثقافـة وأحاسـيس اهم الأمم في العالم". كما تنبأ، جورج اليوت.

وستزدهر أكثر من بريق الحريّة الغربية بين مملكات الشرق الظالمة".

في عام ١٩٢٢، وعلى الرغم من سحب العاصفة التي كانت تقترب أكثر فأكثر من فوق رؤوس اليهود في اوروبا بدا وكأنه في القريب العاجل سيكون هنالك ملجأ آمن لليهود. إذ لم يكن مستقبل اليهـود ورديّـاً إلى هذه الدرجة منذ ألفي سنة.

الفصل الثاني
التخلي عن الصهيونية

لم تجر الأمور كما يجب. إذ أنه قبل عام ١٩٢٠، عندما كُلفت بريطانيا بانشاء وطن قـومي يهـودي، في مؤتمر سان ريمو، كانت عناصر مختلفة في الحكومة البريطانية قـد بـدأت تعمـل ضـد الالتـزام البريطـانى في مؤتمر فرساي. وقبل المـصادقة في مجلـس عـصبة الامـم عـلى الانتـداب عـام ١٩٢٢، كـان واضـعو الـسياسة البريطانية قد بدأوا بالتراجع عن عزمهم تنفيذ اعلان وعد بلفور.

وفي إطار سياستها الجيدة، تراجعت بريطانيا عن التعهدات التـي أخـذتها عـلى عاتقهـا بموجـب وعـد بلفور. إذ أصبح ما بدا في نظر البريطانيين حقائق اخلاقية ووعوداً قومية قبل تسلمهم الانتداب رسـمياً، في نظرهم الآن، سياسة غير واقعية.

ففي عام ١٩٢٢، انتزعـت بريطانيـا شرق الأردن مـن منطقـة الـوطن القـومي اليهـودي. وبجـرة قلـم واحدة، انتزع من الاراضي الخصصة للشعب اليهودي ما يقارب٨٠ % من هـذه الاراضي، وتـم اغـلاق شرق الأردن بكاملها في وجه الاستيطان اليهودي حتى يومنا هذا.

سلمت بريطانيا هذا الجزء من أرض إسرائيل إلى الملك عبد اللـه، الذي ينتمى إلى الأسرة الهاشمية من مكـة، وتوجته أميراً وأقامت من أجله دولة جيدة باسم "شرق الأردن"، واليوم (المملكة الأردنية)، تلك الدولة التي لا زالت تعانى حتى اليوم من الظروف الاصطناعية لولادتها.

على خلفية الادعاء بأن الاستيطان اليهودي في "أرض إسرائيل" هو السبب الذي أثـار الاضـطرابات العربيـة، أصدرت بريطانيا، عام ١٩٣٠ "الكتاب الابيض" ضمنه قيوداً كثيرة على مجرة اليهود إلى البلاد وعلى شراء الاراضي. وقد بدأت سياسة الحصار البريطانية تزداد قوة في سنوات الثلاثينات. وعشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبعد صـدور "كتـابين أبيـضين" خنقـت بريطانيـا الهجـرة اليهوديـة، بـصورة كاملـة تقريبـاً، وحـددت شراء اليهـود

للأراضي بجزء ضئيل فقط من البلاد. حتى أن الرئيس الأمريكي فرنكلين روزفلت لم يتردد في أن يـسأل وزيـر خارجيته، كوردل هال: "لقد كنت في فرساي، وأعرف ان البريطانيين لم يخفوا عن أحد أنهم

تعهدوا بفلسطين لليهود. فلماذا يتراجعون عن تعهداتهم تلك الآن.

ما هو سبب هذا التحوّل؟ وما هي القوى السياسية التي اسـتطاعت التـأثير عـلى بريطانيـا العظمـى، لجعلها تتخلى من جانب واحد، عن تعهدها باقامة وطن قـومي لليهـود، وتبقـيهم دون وطـن ولا قـوة، في الوقت الذي كانت فيه آلة الدمار الهتلرية تسحق، بوحشية، وسط أوروبا؟

لقد تبنت حكومة، لويد جورج، وعد بلفور وأيدته في فرساي، لسببين لا يختلفان كثيراً عـن التبريـرات التي يطرحها كثير من الأمريكيين، لدعم إسرائيل اليوم. فقد آمن، لويد جورج، بأن تأييد فكرة إنـشاء وطـن قومي لليهود، له ما يبرره على الصعيد الأخلاقي (نظراً لصدق الادعاء اليهودي) لكنه إعتقـد أيـضاً أن دعـم الحركة الصهيونية ينسجم مع المصالح البريطانية. وشأنه شأن القيصر الألماني، رأى هـو أيـضاً، اليهـود كقـوة يجب أخذها بعين الاعتبار. إذ أن تحالفاً مع امة يهودية في أرض إسرائيل تتواجد في محاذاة قناة الـسويس، وتشرف على الطريق البرية إلى الهند، سيكون بالنسبة لبريطانيا ثروة ذات أهمية على مـدى الايـام. ولهـذه الاسباب آمن، لويد جورج، بأن تعزيز قوة اليهود في "أرض إسرائيل" يعني تعزيز قوة بريطانيـا نفـسها، وفي نفس الوقت، تقوية القيم الغربية، التي كان يرى ان بريطانيا مسؤولة عن المحافظة عليها.

كان التحوّل في نظرة بريطانيا إلى الحركـة الـصهيونية، بعـد سـقوط حكومـة لويـد جـورج، ينبـع مـن تغييرات أساسية في الأسلوبين التالين:

- أولاً: توصل السياسيون البريطانيون إلى استنتاج بأن التحاف مع العرب أفـضل بكثـير لبريطانيـا مـن تحالفها مع اليهود.

- ثانياً: بما أن معظم الزعماء العرب عارضوا الاستيطان اليهودي في "أرض إسرائيل"، ادعى البريطـانيون أن تفضيل الصهيونية سيلحق الظلم بالعرب.

هاتان النظريتان المتعلقتان بالمصالح السياسية، ومسألة العدالة، تبلورتا في بريطانيـا خـلال الفـترة مـا بين الحربين العالميتين، لكنهما ظلتا قائمتين في النصف الثاني من القرن الحالى. وكانتا قاعدة للاستعداد الـذي أبداه البريطانيون، مع مرور الزمن، لقبول الادعاءات العربية كحقائق مجردة، وهما اللتان حددتا إلى درجة كبيرة، السياسة الاوروبية والأمريكية تجاه إسرائيل حتى اليوم.

يجدر بنا اذن، فهم مـصدر هـاتين النظـريتين، والتعـرّف عـلى مـدى الفائـدة التـي حققتهـا الـسياسة البريطانية، التي اعتمدت عليهما، على صعيدي العدالة والمصالح البريطانية.

بالطبع، لم تكن معارضة إقامة وطن قومى لليهود، سياسة كل من بلفور، ولويد جورج، انما جاءت من جانب موظفي وزارتي الدفاع والخارجية البريطانيتين.

في الحرب العالمية الأولى، احتلت بريطانيا من أيدي العثمانيين جـزءاً كبـيراً مـن العـالم العـربي. كانـت مثاليات، ويلسون وبلفور، قد اندمجت جيداً في دعاية الحرب، ولكـن منـذ اللحظـة التـي انتقلـت بهـا إلى أيدي سوريا، وأرض إسرائيل، والعراق، والعربية السعودية، بدأت بريطانيا تواجـه مـشكلة عمليـة:"شـخص ما" يجب ان يحكم هذه البلدان، وهذا "الشخص" كان عبارة عن مجموعة صغيرة ومتماسكة من الموظفين "المستعربين".

في وزارة الخارجية، أمضوا سنوات طويلـة في تعلـم اللغـة العربيـة، والاقامـة في امـاكن عديـدة، مثـل القاهرة أو الخرطوم، وأصبح لديهم اعجاب رومانسي ب "البدوي الأصيل".

كان هؤلاء يعلمون بانشاء امبراطوريـة عربيـة مواليـة لبريطانيـا، تمتـد مـن الـسودان وحتـى العراق، وضـم هـذه الإضـافة الـشرق أوسـطية إلى الامبراطوريـة البريطانيـة لتـشكل إتـصالاً بريـاً بريطانيـاً، مـن جنـوب افريقيـا حتـى الهنـد. وخـلال الحـرب، ناضـل هـؤلاء الموظفـون بـاخلاص،

من أجل تحرير العرب من الحكم العثماني، واجتهدوا لابراز زعماء عرب، يقومون بتوحيد القبائـل العربيـة المتفرقة ويضعونها إلى جانب بريطانيا. ويبدو أن هؤلاء "المستعربين" لم تـزعجهم حقيقـة أن مئـات الآلاف من العرب، حاربوا وقتلوا إلى جانب الأتراك بالذات، وان بضع مئات فقط من البدو، تم اقناعهم بـصعوبة، للمشاركة في القتال إلى جانب دول الحلفاء، بعد أن حصلوا على رشوة مالية وسياسية سـخية جـداً. لم يـول "المستعربون" أهمية كبيرة لمجموعة السكان العرب القليلة في "أرض إسرائيل"، لكن المنطقة بالذات، كانت في نظرهم تشكل جسراً برياً استراتيجياً يربط بين القاهرة ودمـشق وبغـداد. ونظـراً لـرغبتهم في كـسب ود العرب، كان هؤلاء الموظفون البريطانيون على استعداد لتبنـي العـداء العـربي للـصهيونية ودمجـه في إطـار سياستهم. وهكذا، على سبيل المثال، طلبوا بعد وقت قصير من الانتداب، ضـم أرض إسرائيـل لـسوريا التـي أصبحت تحت سيطرتهم.

فور سقوط القدس بأيدي البريطانيين، في ١١ كانون أول ١٩١٧، وبعد شـهر واحـد عـلى صـدور اعـلان وعد بلفور، كانت قد بدأت تظهـر مـؤشرات لمقاومـة الـصهيونية في أوسـاط المـوظفين البريطـانيين في أرض إسرائيل. ولم يكن هدف هؤلاء المعارضين تحقيق العدالـة، أو تنفيـذ تعهـدات حكـومتهم، بـل كـسب ثقـة العرب. إذ سارع البريغادير جنرال جلبرت كلايتون، المستشار السياسي للجنرال اللنبي، للاعراب عـن تحفظـه من وعد بلفور، حيث اعلن: "علينا.. أن ندرس ما إذا كان الوضع يستوجب حقاً دعماً غير محـدود للحركـة الصهيونية، حتى لا نثير ضدنا عداء العرب، في هذه "اللحظة الحرجة بالذات".

وجاء في ادعاء كلايتون أمام السيد مارك سايكس، الموالي للصهيونية:"أرى من واجبي الاشارة إلى انه في الوقت الذي نعمل فيه لأجلهم (لأجل الصهاينة) بهذا النشاط الذي نقوم به، فاننا نعرض انفـسنا لامكانيـة ان تصبح الوحدة العربية حقيقة واقعة، وتقف ضدنا".

لقد لاقى موقف كلايتون، التأييد من المندوب السامي البريطاني عـلى مـصر الـسير رجنلـد فينجايـت، الذي حذر اللنبى من أن سايكس، تمادى كثيراً في دعمه للصهيونية، واذا لم يعتدل فقد يقلـب الأمـور رأسـاً على عقب.

كا أن الحاكم العسكري الجديد للقدس، رونالد ستورس، عمل هو أيضاً، على تبرير حماس البريطانيين تجاه المشاريع الصهيونية. وطالب بالنظر بتعاطف مع مطالب العرب المحليين، وان يتم أي تغيير يحدث على الأرض بصورة تدريجية، لكي لا نثير عداءً مستديماً.

اما الجنرال اللنبي نفسه، فقد رفض السماح حتى بنشر اعلان وعد بلفور في "أرض إسرائيل"، وبدلاً منه، نشرت ادارة الحكم العسكري إعلاناً بشأن النية في التشجيع والمساعدة على انشاء حكم وادارة محلية للسكان في سوريا و "مسوفوطمية".

وافترض الوجهاء العرب، بالطبع، ان هذا الاعلان ينطبق عليهم أيضاً، إذ كانت "أرض إسرائيل" في نظرهم جزءاً من سوريا (حتى أن البريطانيين أرسلوا لهم نسخاً من الاعلان). وقد وصف جيبوتنسكي سياسة الحكم العسكري البريطاني في "أرض إسرائيل"، "إعتذار عن هفوة اللسان التي صدرت عن بلفور".

وسرعان ما وصلت الإشاعات بشأن هذه المعارضة لسياسة حكومة صاحب الجلالة الرسمية، إلى وزارة الخارجية في لندن. وكان بلفور لا زال على سدة الحكم، وبدأ العمل فوراً.

في ٤ آب ١٩١٨، وصلت برقية إلى الحاكم العسكري البريطاني في "أرض إسرائيل"، تتضمن تعليمات واضحة بشأن إعتبار اعلان وعد بلفور سياسة بريطانية رسمية وملزمة، بكل معنى الكلمة، غير أن هذا لم يؤثر على الحكم العسكري البريطاني، الذي ظل يسخر من سياسة إنشاء وطن قومي لليهود، ومن اليهود أنفسهم، وبصورة علنية وصريحة.

أما الجنرال، ارتور موني، الذي حل محل الجنرال اللنبي في رئاسة ادارة الحكم العسكري، فقد اشتكى بشأن أصدقاء لويد جورج "اليهود" وأمر بطباعة نماذج رسمية باللغتين الانجليزية والعربية فقط، ورفض أيضاً الوقوف اثناء عزف نشيد هتكفا (الأمل). في حين شكل الحاكم العسكري البريطاني لمنطقة يافا اللفتنانت كوليرنيل، هابرد، أول منظمة سياسية عربية وموطنها، بهدف استخدام الممثلين العرب الذين وضعهم على رأس هذه المنظمات،

كوسيلة لمحاربة الصهيونية. وترددت أنباء مفادها أن هابرد أعلن، أنه إذا اراد العرب تنظيم مظاهرات ضد اليهود، فانه لن يمنعهم.

أما بالنسبة لفكرة السماح لليهود بـالقوم والعـيش في أرض إسرائيـل، فقـد أعربـت اجهـزة المخـابرات البريطانية عن مخاوفها من نتائج مثل مند الخطوة غير المسؤولة، وضغطت على وزارة الخارجية، لثنيها عن اعطاء تأشيرات هجرة لليهود، إلى حين استقرار الوضع العسكري.

توصل جيبوتنسكي الذي كان حتى ذلك الوقت من مؤيدي التعـاون مـع بريطانيـا، إلى اسـتنتاج يـصر للأسف، وهو أن الادارة البريطانية أُصيبت "بوباء اللاسامية". واضاف جيبوتنسكي: "أن الكراهية لليهود التي سادت أوساط الجيش البريطاني في أرض إسرائيل خلال الفترة ١٩١٩-١٩٢٠ لم يكن لها مثيل حتـى في روسـيا وبولندا.

لكن الادارة البريطانية كانت تضم عدداً من الأشـخاص المؤيـدين المخلـصين للـصهيونية، حيـث نهـض هؤلاء للدفاع عن الصهيونية، رغم ان هدفهم كان خدمة سياسة لويـد جـورج وبلفـور. وكانـت آراء هـؤلاء معارضة تماماً لنظرية المؤيدين للعرب. كانوا يؤمنون بأن بريطانيا لا تستطيع الاعـتماد عـلى العـرب، لفـترة طويلة، وان العرب المؤيدين لها، سيظهرون في نهاية الأمر ضعفاً، وغير مستقرين. لذا، فان مصلحة بريطانيا تتطلب دعم اليهود بالذات، لكي يتمكن هؤلاء من ان يبنوا في قلب الشرق الأوسـط، قاعـدة غربيـة قويـة، تساهم في استقرار المناطق العربية المجاورة.

كـان عـلى رأس المنـادين بهـذه الفكـرة، الكولونيـل، رتـشارد مـاينر تـسهاجن، رئـيس فـرع المخـابرات البريطانية في الشرق الأوسط، الذي كان لعملياته المضللة الناجحة دور كبير في المساعدة عـلى طـرد الأتـراك من أرض إسرائيل، عام ١٩١٧.

ويعــترف مــاينر تــسهاجن، بأنــه، كــان في بدايــة طريقــه، ذا ميــول لاســامية، غــير أن افكــاره بــشأن اليهــود والــصهيونية تغــيرت، بعــد أن بــدأ بتــشغيل عمــلاء مخــابرات يهــود وعــرب، أثنــاء

الحرب. وعندما عُيّن في منصب الضابط السياسي الرئيس. في "أرض إسرائيل" عـام ١٩١٩، أصـبح واحـداً مـن أكبر الصهاينة من غير اليهود، في تاريخ الصهيونية، حتى أنه اجتمع فيما بعد مع هتلر، بهدف محاولة انقاذ يهود من المانيا وجلبهم إلى "أرض إسرائيل".

وكان تأييد، ماينر تسهاجن، للصهيونية ينبع، أولاً وقبل كل شيء، من ايمانه بأن هذا التأييد ينسجم مع المصلحة البريطانية.

ويقول عن نفسه: انه بصفته مندوباً لوزارة الخارجية البريطانية في "أرض إسرائيل"، كان "معـزولاً بـين الغرباء في تأييده للصهيونية". ومع ذلك ظل يتمسك برأيه القائل: ان دعم فكرة انشاء وطن قومي لليهود، يخدم بوضوح المصلحة البريطانية، ويقول: "قد نواجـه تحـدياً قوميـاً، يـؤثر عـلى مكانتنـا. اننـا لا نـستطيع مصادقة العرب واليهود في آن واحد، لذا اقترح ان نصادق أولئك الذين يمكن ان يحافظوا على عهدهم - أي اليهود - فعلى الرغم من أننا عملنا الكثير من أجل العرب، إلاّ أنهم لا يعرفـون مـا هـو الاعـتراف بالجميـل، حتى أنهم سيكونون عبئاً علينا، في حين سيكون اليهود ذخراً لنا... أضف إلى ذلك ان اليهـود أثبتـوا قـدرتهم على الحرب، منذ ان احتل الرومان القدس. أما العربي فهو مقاتل حقير، رغـم أنـه قـومي جـداً في مجـالات السلب والتخريب والقتل... ان من شأن إقتراحي، تعزيز مكانتنا في الشرق الأوسط".

قبل ثلاثين سنة من قيام دولة إسرائيل، كان ماينر تسهاجن واثقاً تماماً، من ان تحالفاً مـع اليهـود المؤيـدين للغرب، سيكون في نهاية المطاف الطريق الوحيدة لحماية مكانـة بريطانيـا في الـشرق الأوسـط، إذ قـال:"في عـام ١٩٦٦، من المقرر ان تنتهي سيطرتنا على قناة السويس، وفي تلك السنة سنُطرد من مصر، بحيث تستطيع مـصر، حينئذ إغلاق القناة في وجه سفننا... لقد اعتبرت فلسطين دائماً مفتاح الدفاع عن الشرق الأوسط. لهـذا توجهـت (في الاسبوع الماضي) إلى فايتسمن، للاستيضاح منه، فيما إذا كانت بريطانيـا سـتكون قـادرة عـلى الحـصول عـلى قواعـد عـسكرمة بحريـة وجويـة في فلـسطين، بعـد أن تقـام فيهـا دولـة يهوديـة مـستقلة. أضـف إلى ذلـك،

أننا نستطيع الاعتماد على اليهود بالمحافظة على الاتفاقيات، في حين لا نستطيع الثقة بالعرب إطلاقاً... واذا كانت لدينا قواعد في فلسطين، فستكون مكانتنا في الشرق الأوسط مضمونة إلى الأبد".

بلغ الصراع بين، ماينر تسهاجن، وبين معارضي الصهيونية على مستقبل الانتداب، ذروته، في آذار ١٩٢٠، عندما توّج فيصل، بتأييد المستعربين البريطانيين ملكاً على سوريا كلها، بما فيها "أرض إسرائيل"، وبما ان موظفي الادارة البريطانية في "أرض إسرائيل" كان محظوراً عليهم ضم "أرض إسرائيل" رسمياً إلى مملكة فيصل، نظموا سلسلة من المظاهرات العربية العنيفة، مطالبين بوضع حد لسياسة الوطن القومي اليهودي، وضم "أرض إسرائيل" إلى سوريا. وبتنسيق كامل مع فيصل، رعى حاكم القدس، ستورس، ورئيس اركانه، ريتشارد ووترس تايلور، مجموعة من العرب المتطرفين، كان من المقرر لهم أن يؤيدوا المطالبة بضم "أرض إسرائيل" إلى سوريا، التي انتقلت السلطة فيها، كما أسلفنا، إلى أبناء اسرة فيصل، الهاشميين. وترأس هذه المجموعة مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، الذي اعتمد البريطانيون عليه لتأييد ضم "أرض إسرائيل" لسوريا.

يقول، ماينر تسهاجن، الذي أُضطر لزرع عملاء لمراقبة النشاطات المعادية للصهيونية. داخل الادارة البريطانية، ان، ووترس تايلور، توجه إلى هؤلاء العرب، مطلع عام ١٩٢٠، بشأن تنظيم مظاهرات عنيفة ضد اليهود، لاقناع الادارة البريطانية، بان السياسة الوالية للصهاينة ليست شعبية ولا مقبولة". كا أن ستورس، والملك فيصل، كانا على اطلاع على سرّ هذه الخطة.

اجتمع، ووترس تايلور، مع الحسيني، وأكد له الأهمية الحاسمة لمثل هذه الاضطرابات. وقد كتب ماينر تسهاجن تقريراً عن هذا الاجتماع، جاء فيه: "اجتمع ووترس تايلور مع الحسيني يوم الاربعاء قبل عيد الفصح، وأوضح له أنه، في عيد الفصح، ستكون ليه فرصة ذهبية، ليظهر للعالم كله، أن العرب في فلسطين لن يتحمّلوا سيطرة اليهود على أرضهم، وأن

الصهيونية مرفوضة، ليس من قبل رجال الادارة البريطانية في فلسطين، وانما في "وايت هول (الحكومة البريطانية)، واذا ما اندلعت الاضطرابات، وكانت على درجة كافية من العنف في القدس، خلال أيام عيد الفصح، فسوف يوصي الجنرال بولس، والجنرال اللنبي، بالتخلي عن فكرة الوطن القومي اليهودي".

في يوم الاضطرابات، غُطيّت شوارع القدس، بمنشورات جاء فيها: "الحكومة معنا، اللنبي معنا، اذبحوا اليهود، إن من يقتل اليهود لا يعاقب". كما هتف محرضون عرب: "يعيش ملكنا، الملك فيصل، باسم الملك ندعوكم لمحاربة اليهود".

وتم ابعاد افراد شرطة يهود من وظائفهم ولم تشاهد قوات الأمن في أي مكان، باستثناء بعض افراد الشرطة العرب، النين ساهموا في الواقع بالاضطرابات. هكذا، ترك الشارع للجمهور الذي شرع في أعمال القتل والاغتصاب والنهب لمدة ثلاثة أيام متتالية، دون أي ازعاج.

وتم الافراج عن معظم المتظاهرين العرب الذين اعتقلوا، حتى قبل انتهاء الاضطرابات حيث عادوا لينضموا إلى زملائهم. ونجم عن هذه الاضطرابات، مقتل (٥٦) يهودياً وجرح (٢١١) آخرين. واخيراً، بعد أن هدأت الاضطرابات، وعاد النظام إلى نصابه، اعتقل البريطانيون اثنين من العرب بتهمة اغتصاب امرأتين يهوديتين، وعشرين من اليهود بينهم جيبوتنسكي، بتهمة تنظيم قوة للدفاع الذاتي. في حين فرّ الحاج أمين الحسيني، الذي أشرف على الاضطرابات، من البلاد.

وفي اجتماع عقده وجهاء مسلمون، فور إنتهاء الاضطرابات قال أحد زعماء المحرضين، عارف العارف : " من حسن حظنا أن الادارة البريطانية تقف إلى جانبنا، ولن نُمس بسوء. لهذا أقترح مواصلة ضرب اليهود.

في الأيام الأولى التي تلت الأحداث، بدا للحظة أن سياسة ماينر تسهاجن، ستتغلب على سياسة "المستعربين". فالاحتجاجات التي بعث بها إلى وزارة الخارجية في لندن، التي كانت

ما زالت مؤيدة للصهيونية، اضافة إلى افادته أمام لجنة التحقيق الخاصة، التي أُقيمت بعد الأحداث، أحدثت هزة لدى الحكرمة البريطانية، بلغت درجة جعلتها تقرر حل ادارة الحكم العسكري. حيث تم إقالة الجنرالين لويس بولس، وو‌ترس تايلور، وأُفرج عن جيبوتنسكي وزملائه. وفي تموز ١٩٢٠، سُلمت "أرض إسرائيل" إلى سلطة المندوب السامي، الذي كان معروفاً بأنه مزيد لامع للصهيونية - هاربرت صموئيل.

في تلك الأثناء هاجم الفرنسيون دمشق، واطاحوا بنظام الحكم الهاشمي، الذي أقامه البريطانيون هناك، وسيطروا على سوريا. وهكنا تلاشت نهائياً خطة "المستعربين" لضم "أرض إسرائيل" إلى سوريا تحت الحكم البريطاني. غير أنه لم تمض بضعة أشهر، حتى اتضح أن المعركة بشأن الوفا. بتعهد البريطانيين، ستكون قاسية وطويلة. إذ كتب الكولونيل بترسرن يقول: "ذهب بولس، لكن السياسة التي أسسها لا زالت قائمة. فالموظفون اللاساميون الذين أحضرهم معه ما زالوا في مواقعهم". أما صموئيل، فعلى الرغم من نواياه الطيبة، لم يستطع التغلب على مرؤوسيه، الأمر الذي جعل الوضع يزداد تدهوراً بسرعة.

واصل موظفو المندوب السامي شكواهم من كراهية العرب للبريطانيين، بسبب اليهود، واهتموا بتعيين العرب في المناصب المهمة في الادارة، حتى في جهاز الأمن. ونتيجة لضغط الموظفين الوالين للعرب، عفا، هاربرت صموئيل، عن الحسيني كبادرة حسنة تجاه العرب. وهكذا عاد كبير المحرضين إلى القدس ليباشر عمله فوراً.

وخشية حدوث "مجابهة مع أصدقائنا العرب" تم اقناع صموئيل بالتخلي عن معارضته لفصل شرق الأردن عن بقية اجزاء "أرض إسرائيل".

وعندما شغر منصب مفتي القدس، رشح الحاج أمين الحسيني نفسه لهذا المنصب، بهدف استخدام الوجاهة والقوة الاقتصادية، التي يتمتع بها المفتي، ضد اليهود. وعندما أُجريت الانتخابات لمنصب المفتي، هُزم الحسيني وحصل على المركز الرابع فقط، غير أن مؤيدي العرب في الادارة البريطانية، عزلوا الفائز الحقيقي وضللوا صموئيل، بأن الحسيني هو المثل

الوحيد لعرب "أرض إسرائيل". وأخيراً عُيّن الحسيني في المنصب الجديد الذي أُنشئ من أجله، منصب "المفتي الأكبر" مدى الحياة. وهكذا، وبجرة قلم مصرية، منح البريطانيون الشرعية لأكبر وأعنف عنصر في وسط عرب "أرض إسرائيل" ومنحوه مكانة الزعيم الأعلى. وهكذا، تحدد نموذج زعامة عرب "أرض إسرائيل" التي ظلت قائمة، حتى نهاية القرن العشرين.

وكتب عنه ماينر تسهاجن يقول :"انه يكره اليهود والبريطانيين، ويعتبر تعيينه جنوناً حقيقياً. في حين اجمل لويد جورج هذا الموضوع بقوله: "صموئيل، رجل ضعيف".

في عام ١٩٢١، كانت جذور العداء لليهود قد تعمقت في لندن ذاتها. في تلك السنة انتقلت المسؤولية على أرض إسرائيل، من وزارة الخارجية إلى "دائرة الشرق الأوسط" وهي دائرة خاصة أُقيمت في وزارة المستعمرات.

كان رجال الدائرة من قدامى بناة الامبراطورية، الذين تعود احوالهم إلى مستعمرات بريطانية مثل، كينيا، سيراليون، وجنوب روديسيا. وترأس الدائرة السير جون أفلن شاكبرغ، وكان رجلاً مشبعاً باللاسامية، ويمقت الصهيونية واليهود. كان شاكبرغ من كبار من مؤيدي النظرية القائلة أنه من أجل ترسيخ قبضتها في الشرق الأوسط، يجب على بريطانيا معارضة الصهيونية، لكي تكسب ثقة وولاء رعاياها العرب، في مصر والعراق والخليج العربي.

على الرغم من أن معظم من مؤيدي العرب من البريطانيين (المستعربين) كانوا مفتونين بسحر "النموذج العربي" الذي كانوا يصفونه، "خفايا الشرق"، كان لديهم سبب آخر لنقل تأييدهم من الصهاينة إلى العرب. فقد اعتقد هؤلاء الموظفون، ان السيطرة على العرب، ستكون أسهل من السيطرة على اليهود. بحيث يمكن تضليلهم إلى ما لانهاية، وتأجيل مطالبتهم بالاستقلال - طالما بقي عداؤهم لليهود، يمنعهم من معارضة الحكم البريطاني.

كان من بين زملاء شاكبرغ، في وزارة المستعمرات، عد من قدامى الحرب العالمية الأولى، الذين عُرفوا بحبهم للعرب، ومنهم، توماس ادوارد لورنس، المعروف بلقب "لورنس العرب".

كان لورنس قد اشتهر في بريطانيا وأمريكا، بفضل تمثيلية ناجحة، بالغت في وصف معركة البريطـانيين ضد العثمانيين، وعرضت لورنس مع مجموعة صغيرة من العرب، كأبطال رئيسيين لهذه الحركة.

ولكي يرسخ شهرته، سعى لورنس بـاصرار، لإثـارة الانطبـاع، بـأن بريطانيـا مدينـة جـداً للعـرب عامـة، ولفيصل والهاشميين، خاصة.

في تلك الفترة، ترأس وزارة المستعمرات وزير تنقصه الخبرة هـو، وينـستون تشرتـشل، حيـث اسـتطاع موظفوه ذوو الخبرة في الوزارة، من امثال، شاكبرغ، ولورنس، إستغلال عدم خبرته، وجعله ينفذ سياستهم.

تسلم تشرتشل مهام منصبه، وهو معروف كمؤيد قـوي للـصهيونية. وفي شـباط ١٩٢٠، أثـار الهلـع في قلوب الموظفين الموالين للعرب، عندما قال لصحيفة "صاندي هارولد" انـه يتنبـأ بقيـام دولـة يهوديـة عـلى ضفتي نهر الأردن... يعيش فيها ثلاثة أو أربعة ملايين يهودي".

أقواله تلك، كان تشرتشل وفيّاً لروح "فرساي" التي أيدت بوضوح، حـق الـشعب اليهـودي في العـودة والاستيطان على ضفتي الأردن، في الأماكن التي عاش فيها في عهد المكراه.

وفي حينه كتب بلفور إلى لويد جورج بهذا الشأن، ان الحدود الشرقية "لأرض إسرائيـل" يجـب أن تمـر بعيداً إلى الشرق من نهر الأردن، بغية توفير امكانية تطوير الزراعة الصهيونية.

وقد وافق هاربرت صموئيل على ذلك بقوله: "لا يمكن ان يعـيش شـعب كبـير دون أرض. وكـل خبـير يعرف أنه من أجل ازدهار فلسطين، يجب ان تكون لها أرض مناسبة إلى الشرق من نهر الأردن".

كما أن أمم صحيفة بريطانية "التايمز" كتبت آنـذاك، أن "أرض إسرائيـل" بحاجـة إلى حـدود عـسكرية جيدة تكون قريبة قدر الامكان من حدود الصحراء".

وأضافت الصحيفة: نهر الأردن... غير مناسب ليكـون الحـدود الـشرقية لفلـسطين، وواجبنـا كأصـحاب إنتداب، أن نهتم بأن لا تعيش فلسطين اليهودية، في صراع دائـم، بـل تكـون دولـة قـادرة عـلى إدارة حيـاة مستقلة وقومية مزدهرة".

وبعد بضع سنوات، أجمـل اللـورد، أرنولـد، نائـب وزيـر المـستعمرات، الموقـف الرسـمي البريطـاني في الحرب العالمية الأولى في خطاب القـاه أمـام البرلمـان البريطـاني، عـلى النحـو التـالي:"خـلال الحـرب، إعترفنـا باستقلال العرب ضمن حدود معينة... وجرت مناقشة مسألة تحديد المناطق التي ستكون مـشمولة داخـل هذه الحدود، غير أنه لم يكن هنالك أي خلاف بشأن شرق الأردن. ولا شك بأن شرق الأردن مشمولة ضـمن الحدود التي تطرق اليها اعلان وعد بلفور (إبان الحرب)". وكما قال الملك عبـد اللـــه انـه: "بعـون اللـــه، تمكنت من اقامة حكومة شرق الأردن بفضل فصل هذا الجزء من الأرض عن اعلان وعد بلفور، الـذي كـان مشمولاً ضمن حدوده منذ أن قررت اتفاقية سايكس بيكو من عام ١٩١٦، أن يكون تحت النفوذ البريطاني.

ويبدو أن الأمير عبدالـلـه، شأنه شأن أخيه فيصل، عرف أهمية هجرة اليهـود إلى شرق الأردن واقامـة البنية الاقتصادية هنـاك، وقـد جـرت محـاولات في عـامي ١٩٢٤و١٩٢٥ لبيـع وتـأجير أراض في شرق الأردن ليهود من "أرض إسرائيل" الغربية. وتم إحباط هذه المحاولات، في نهاية الأمر، من قبل الادارة البريطانية في البلاد.

غير أنه في ضوء التأييد القوي لاستيطان يهودي شرق نهر الأردن، كان واضحاً لموظفي دائرة الشرق الأوسط، أنه إذا ما تركوا تشرتشل لشأنه، فانه سيحاول تحقيق فكرة اقامة "الدولة اليهودية على ضفتي نهـر الأردن". لـذا سارعوا إلى العمل بهدف إحباط هذه الامكانيـة. فقـد نقـل شـاكبرغ ولـورنس وزملاؤهـم معلومـات كاذبـة إلى تشرتـسل، مفادهـا أن منـاطق شرق الأردن قـد تعهـدت بهـا بريطانيـا لفيـصل والأسرة الهاشـمية مـن مكـة، خـلال الحــرب. وهكــذا أدى الأمــر إلى انــشاء نظــام حكــم الامــير عبداللــــه، شــقيق فيــصل، عــلى شرق

الأردن (بدعم من جيشه الخاص البالغ آنذاك حوالي ٢٠٠ جندي، رغم احتجاجات المندوب السامي، صموئيل وغيره، الذين ادعوا أن شرق الأردن جزء لا يتجزأ من "أرض إسرائيل".

وادعى لويد جورج بشدة، أنه حتى لو لم يكن هنالك خيار سوى جعل شرق الأردن إقليماً عربياً، يجب إعتباره "إقليماً عربياً من فلسطين يهودية، أو إقليماً مضموماً اليها".

كان موظفو تشرتشل، على قناعة بأن مثل - التسويات ستكسبهم ولاء العرب. وقالوا لتشرتشل ان مثل مذ الهدية للعرب، لن تضر باليهود نهائياً. وكان تشرتشل، شأنه شأن زعماء غربيين كثيرين، جاءوا بعده، ليس مطلعاً على التفاصيل الكاملة للقضية، لكي يتمكن من دحض هذا الادعاء.

وفي تلك الأثناء، نُقل ماينر تسهاجن، إلى دائرة الشرق الأوسط في لندن، ومرة أخرى وجد نفسه معزولاً في محاولاته جعل بريطانيا تفي بتعهداتها لليهود، وكتب يقول: "الجو السائد في وزارة المستعمرات معادٍ جداً لليهود، وأسوأ الموجودين هناك، شاكبرغ، المسؤول عن دائرة الشرق الأوسط... كدت أنفجر عدما سمعت أن تشرتشل اقتطع شرق الأردن من فلسطين. لقد أرضوا الأمير عبدالله على حساب البيت القومي اليهودي الممتد على كل فلسطين التناخية. كما كان لورنس إلى جانب تشرتشل، وبالطبع، استغل نفوذ، لديه... وهكذا تقلص الوطن القومى اليهودي إلى ثلث مساحة فلسطين المكرائية. وتعلن وزارة المستعمرات والادارة البريطانية في فلسطين حالياً أن بنود الانتداب المتعلقة بالوطن القومى اليهودي، لم تعد تنطبق على شرق الأردن.. و كل هذا لم يتفوهوا به إلاّ عندما أرادو مصالحة أمير عربي".

وبغضب شديد، طلب ماينر تسهاجن مقابلة تشرتشل: -... ذهبت إليه وأنا في حالة غضب شديد. استمع تشرتشل لأقوالي كاملة: قلت له سنلحق ظلماً شديداً باليهود، فها هو

التزام آخر نتنصل منه، ومن غير النطق ان نرى وعد بلفور يتجزأ، وأن نرى التخريب في سياسة جلالته بشأن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين "المكرائية"، وان نرى أن دائرة الشرق الأوسط، المسؤولة عن تنفيذ تعليمات الانتداب، تكن العداء لليهود...

قال تشرتشل: انه يدرك ما أقوله وتعهد باعادة النظر في القرار. ورغم اعتقاده بأن الوقت متأخر بالنسبة لامكانية التغيير، لكنه قال: ربما يمكن تعيد فترة زمنية لحكم الامير عبدالله في شرق الأردن.

ولإنصاف تشرتشل، نقول، انه نجح في صد محاولات "المستعربين" لاقناعه بالغاء تطبيق وعد بلفور على المنطقة الواقعة غرب نهر الأردن، غير أن تأييده هذا للصهيونية، لم يكن كافياً لاضعاف العرب. فقد أدرك هؤلاء، أن بريطانيا في طريقها للرضوخ لمطالبهم، نتيجة الاضطرابات التي يقومون بها في "أرض إسرائيل".

في أيار ١٩٢١، شرع الجمهور العربي بسلسلة هجمات ضد اليهود في أماكن مختلفة من البلاد، قُتل خلالها حوالي ٥٠ يهودياً، بينهم الكاتب يوسف حاييم برنر. وكان أول هجوم، في تلك السلسلة، على يهود في يافا. وبعد الاحداث كتب القاضي العسكري في الادارة البريطانية، هورس صموئيل مايلي: "عرب يافا... بدأوا يقتلون ويجرحون وينهبون اليهود، تحت غطاء رسمي، وبمساعدة عدد كبير من شرطة يافا... جمهور من العرب هاجم مقر المهاجرين التابعين للجنة الصهيونية، بالحجارة والعصيّ. في البداية، احبط المهاجرون المحاولة لكن سرعان ما تعزز المهاجمون بعدد من الشرطة العرب المسلحين بالبنادق والقنابل والذخيرة. اقتحم أفراد الشرطة المنزل ثم تبعهم الجمهور وقتل ثلاثة عشر شخصاً من المهاجرين...".

في اعقاب هذا الهجوم على يافا أدرك البريطانيون ماذا يجب عليهم ان يفعلوه: "اضطرابات الأول من أيار، وقتل اليهود في مقر المهاجرين، كانت بمثابة إشارة واضحة إلى أن عرب يافا يعارضون نهائياً أية هجرة يهودية جديدة إلى البلاد. واتصل المندوب السامي،

الذي كان يفضل الدبلوماسية على القوة، هاتفياً، بعد ٤٨ ساعة فقط من الأحداث، بنائب حاكم يافا، ميلر، وأمره أن يبلغ العرب، أنه بناء على طلبهم، ستتوقف الهجرة اليهودية حالياً".

لكن العرب لم يستريحوا لهذا التعهد، وفي الأسبوع التالي واصلوا مهاجمة مستوطنات يهودية أخرى في انحاء البلاد. وأُمر الجنود البريطانيون بعدم اطلاق النار. وقُتل خلال الأحداث ٣٥ يهودياً وجُرح المئات.

ويقول القاضي صموئيل، أن ستورس أوصى بإغلاق الرشاوى على العرب، على أمل الامتناع عن القيام بثورة علنية. وقبل رأيه هذا، وفرض لاول مرة حظر على الهجرة اليهودية. ورغم أن هذا الحظر استمر بضعة أشهر فقط، إلاّ لأنه تحدد هنا النموذج الذي بموجبه هُضمت حقوق اليهود بضغط من الابتزاز العربي - تلك السابقة التي سرعان ما أحتلت مكان وعد بلفور، كسياسة بريطانية فعليّة.

في تلك الايام لم تكن التعهدات العربية في نظر "المستعربين" البريطانيين، إبتزازاً. إنما كانوا راضين عن مقاومة العرب لذلك الشعب، الذي لا يحظى بالتعاطف في أي مكان آخر في العالم. هؤلاء "المستعربون والاستعماريون الذين سيطروا على شعوب بأسرها، يدعون الآن بأن وجود نظام حكم يهودي في "أرض إسرائيل" سيلحق الظلم بالعرب، سكان المنطقة، لأنه سيكون نطاماً استعمارياً، نظاماً غريباً على المنطقة.

مثل هذا الادعاء قاله إستعماري بارز آخر عام١٩٢٠، هو اللورد كرزون، وزير الخارجية البريطانية الجديد. حيث قال كرزون: ان الانتداب الذي "تفوح الرائحة اليهودية من كل بند فيه" ليس منطقياً من أساسه، بالنسبة للعرب.

وفي عام ١٩٢١، ورد رأي مماثل، على لسان القائد الجديد للجيش البريطاني في "أرض إسرائيل"، الجنرال كونغريب. حيث قال في منشور وزعه على جنوده: صحيح انه لا يطلب

من الجيش ابدا. رأي سياسي، لكنه لا يستطيع تجاهل الظلم الـذي يلحـق بـالعرب، عنـدما يـسمح لليهـود بالاستيطان في فلسطين. وسرعان ما أدى هذا التوجه، إلى تأثير قوي على السياسة البريطانية في المنطقة.

لقد استنتج، إدجار رتشموند، مستشار المندوب السامي للشؤون العربية،بأن الصهيونية"تتلقى الإيمان من روح شريرة"-وبدأ يخطط لتسليم الحاج أمين الحسيني، منصب المفتي الأكبر كخطـوة تـصحيحية لهـذا الظلم.

أدى العداء للصهيونية، الذي كان يتزايد في لندن، والتخوف من تهديدات العرب، إلى تقلـيص محاولـة دعم إنشاء كيان يهودي قوي في "أرض إسرائيـل". وهكـذا بـدأت الـسياسة البريطانيـة تغـرق في تناقـضات داخلية.

لقد اتضح لماينر تسهاجن، ان التراجع في موضوعي الاستيطان والهجـرة، بـدأ يـؤثر أيـضاً عـلى مـسائل استراتيجية، وذلك عندما حاول في عام ١٩٢٣ تحقيـق نظـام لتعـاون عـسكري مـستقبلي بـين اليهـود وبـين البريطانيين في أرض إسرائيل:

"لم يرغب تشرتشل في أن أطرح هذا الموضـوع في جلـسة لجنـة شـؤون فلـسطين، لأنـه خـشي رداً معاديـاً. وسألته عما إذا كانت الحكومة البريطانية لا زالت ملتزمة بوعد بلفور. وأجاب،ب "نعم"، لكنه أضاف انه في هذا الوقت، يجب التقدم ببطء لان الحكومة لن توافق أبداً على تطبيق سياسة، من شأنها إثارة مقاومة العرب".

كان الاخلاص لوعد بلفور لا زال يعشعش في قلوب مجموعة من الشخصيات العامة البريطانيـة مثـل، اللورد ياشيا ووجود، فيندهام ديس، وليوبولد أمري، ولكن نفوذهم ضعف خلال سنوات معدودة، لدرجـة أنه بدأ يتلاشى نهائياً.

في التاسع مـن آب١٩٢٩، هـاجم جمهـور مـن العـرب، يهـود الخليـل والقـدس وصـفد ومـستوطنات أخـــرى. وظـــل العـــرب يمارســـون هجماتهـــم طيلـــة ثمانيـــة أيـــام، دون ان يـــردعهم أحـــد.

قتلوا (١١٣) يهودياً وجرحوا المئات، ودمـروا سـت مـستوطنات يهودية تـدميراً كـاملاً، مـن بينهـا الطائفـة اليهودية القديمة في الخليل. ومرة أخرى، أحجم البريطانيون عـن التـدخل، لكـنهم هـذه المـرة، كـانوا أكـثر صرامة، في مصادرة الاسلحة غير القانونية من "أيدي اليهود". ومن خـلال الـشعور باليـأس، كتبـت صـحيفة "دافار": "هل يوجد قانون يفرض على رجالنا التخلي عن حياتهم وحيـاة أولادهـم، ويـترك بنـاتهم يتعرضـن للاغتصاب وممتلكاتهم للنهب؟ أي نظام وأي قانون هذا الذي يطلب من بني البشر مثل هذا الطلب؟؟.

في تلك الأثناء، كان اللورد بنسفيلد، وزيراً للمستعمرات. ورغـم ان هجـرة اليهـود إلى "أرض إسرائيـل" كانت تقلصت، إلى درجة كبيرة، في السنتين اللتين سبقتا أحداث ١٩٢٩، فقـد توصـلت الـوزارة إلى اسـتنتاج، يقضي بأن الهجـرة اليهوديـة، كانـت أحـد أسـباب الاضـطرابات الداميـة. ومـرة اخـرى، خـضعت بريطانيـا للمطالب العربية: أعلن وزير المستعمرات، انه من الآن فصاعداً، لن يتم تخصيص أراض لاستيطان يهـودي. كما دعا إلى ضرورة فرض رقابة مشددة على الهجرة، وحث اليهود على التخلي عن فكرة الوطن القومي.

طلب العرب عدم السماح لجيبوتنسكي بالدخول إلى الـبلاد، لأنـه كـان يـسعى لاقامـة دولـة يهوديـة، ورضخ البريطانيون لهم في هذا الموضوع أيضاً.

وهكذا، مرة واحدة، تبلورت العودة بكاملها: أوشكت بريطانيا على التخلي نهائيـاً، عـن فكـرة الـوطن القومي اليهودي. ومن الغريب، ان كثراً من اليهود لم يعترفـوا بهـذه الحقيقـة. حيـث رضـوا بـسماع بعـض التصريحات العلنية، التي يعبّر فيها البريطانيون عـن ودهـم للـشعب اليهـودي، بعـد كـل تنـازل يقدمونـه للعرب.

وبما أن الشعب اليهودي لم يجرّب حياة الدولة، طيلة عدة أجيال، فقـد أُصـيب معظـم اليهـود بقـصر نظر سـياسي فظيـع. لم يـدركوا دوافـع الـسياسة البريطانيـة ونتائجهـا المـدمرة، بالنـسبة لهـم، إذا لم يهبـوا لمقاومتها بشدة - تماماً مثلما لم يدرك يهود اوروبا ماذا كان النازيون سيفعلون بهم بعد بضع سنوات.

القليلون، مثل جيبوتنسكي، الذين ادركوا جيداً ما يدور مـن أحـداث، أُضـطروا لمحاربـة رأي الاغلبيـة، الذين رفضوا الاعتراف بالواقع، وطلبوا عدم الدخول في مجابهة مع بريطانيا، تلك الدولة العظمى آنذاك.

اعتاد الشعب اليهودي طيلة أجيـال عديـدة، الامتثـال للاوامـر، واعتقـد كثـير مـن اليهـود، أن مـسألة المجابهة مع بريطانيا يجب أن لا تخطر على البـال أبـداً. والغريـب، أن هـذا الـضعف اليهـودي، حـدث في الوقت الذي كان الرأي العام العالمي قد بدأ يـشعر بـالاجراءات المعاديـة للـصهيونية، التـي اتخـذتها وزارة المستعمرات البريطانية عام ١٩٣٠.

فعلى سبيل المثال، انتقدت لجنـة الانتـداب التابعـة لعـصبة الأمـم، موقـف بريطانيـا الاخلاقـي،خلال مناقشة مـسألة "أرض إسرائيـل" وفي عـام ١٩٣٠، أعلنـت ان بريطانيـا هـي المذنبـة في انـدلاع الاضـطرابات العربية في البلاد، كونها لم توفر الحماية الشرطية المطلوبة. غير أنه في ذلك الوقت، كان نفـوذ عـصبة الامـم ضئيلاً جداً، وتلاشى هذا النفوذ نهائياً مع غزو اليابانيين لمنشوريا، وغزو، موسوليني لاثيوبيا عام ١٩٣٥.

إن الفكرة الخيالية التي تبلورت في اعقـاب الحـرب العالميـة الاولى، والتـي تعهـدت الـدول العظمـى، بمقتضاها، باحترام التزاماتها تجاه الشعوب الصغيرة، كانت على وشك الافلاس المطلق في "أرض إسرائيل".

كانت أفعال بريطانيا تدل بوضوح، على مراجعة عامة، تمهيداً لتنصلها نهائياً من الصهيونية، بعد بضع سنوات. في عام ١٩٣٣، تسلم هتلر مقاليد الحكم في المانيا، وفي غضون ثلاث سـنوات فقـط، تـضاعف عـدد اليهود في "أرض إسرائيل". وادرك المستعربون البريطانيون وحلفاؤهم العرب، ان البلاد تتحول، أمام أعينهم، إلى ملجأ للمهاجرين اليهود القادمين من اوروبا، واذا لم يتصرفوا على الفور، سيحقق اليهود أغلبية في "أرض إسرائيل"، ويقيموا فيها دولة يهودية. وهكذا يتعرض للخطر، الحلـم بـشأن إتـصال إقليمـي تحـت سـيطرة الامبراطورية البريطانية في الشرق الوسط.

في ١١ نيسان ١٩٣٦، أعلن العرب الاضراب الشامل بهدف شلّ البلاد نهائياً لارغام السلطات على وقف الهجرة، أبـدى البريطـانيون تعاونـاً معهـم، ولم يمنعـوا الاضراب، وفرضـت عـصابات عربيـة يرعاهـا المفتـي الارهاب على البلاد كلها. وخلال "الثورة العربية" عـذّب رجـال العـصابات وقتلـوا معارضـيهم مـن العـرب، وهاجموا اليهود في كل زاوية. وظل الجيش البريطاني، وقتاً طويلاً، لا يتدخل ويصادر السلاح من اليهـود، في حين غض الطرف عن كميات السلاح الكبيرة، التي كانت تتدفق على العصابات العربية، اضافة إلى جماهـير المتطوعين العرب، الذين انضموا اليهـا مـن الـدول العربيـة المجـاورة. وبلـغ عـدد القـتلى اليهـود في نهايـة الاحداث ٥٠٠ قتيل، من ضمن سكان يبلغ عدهم حوالي نصف مليون نسمة.

ماينر تسهاجن، إستعرض المذبحة وتنبأ بقوله: "يا الـلـه... كيف تخلينا عن اليهود. إذا لم نتصرف بحذر، سنفقد شرق البحر الأبيض المتوسط، والعراق وكل شيء ذا قيمة في الشرق الأوسط".

في ذلك الوقت المتأخر أيضاً، كان هنالك بين البريطانيين من يعتقد، بـأن الـسلوك العنيـف للعـرب، يـبرهن لهم، أن مع اليهود فقط، يمكن ان تبرم بريطانيا حلفاً قوياً. وكـان ابـرزهم النقيـب، اورد فينجايـت، الـذي جنّـد ودرّب، في "أرض إسرائيل"، قوات يهودية لمحاربة الارهاب. وقامـت هـذه الوحـدات التـي عرفـت باسـم "سرايـا الليل" بعدة هجمات ضد العرب.

لقد شرح فينجايت ضرورة إعداد مجندين يهود بقوله:"نظراً لطبيعة المنطقة ومعرفتها، يقف الجـيش عاجزاً في مجابهة مقاتلي العصابات، وذلك رغم تسليحه الأفضل وتدريبه وانضباطه. لـذا فمـن المناسـب ان نشكل جماعات مختلطـة، تـضم جنـوداً بريطـانيين ومـواطنين موثـوقين مـن أبنـاء المنطقـة. واليهـود هـم الوحيدون الذين يمكننا ان نثق بهم. إنهم يعرفون المنطقة جيداً، ويتحدثون لغة البلاد. اضف إلى ذلك انهم يحسنون التدريبات الميدانية، كما انهم منضبطون وجريئون في المعركة".

ولكــن، في ضــوء الغليــان المــستمر في "أرض إسرائيــل"، حــال معظــم رجــال الادارة البريطانيــة للرضــوخ لمطالــب العــرب. لقــد اعتقــدوا ان الهجــرة اليهوديــة، هــي العنــصر الــذي يــدفع

العرب لمقاومة البريطانيين، وتأييد النازيين، كما آمنوا بأن الهجرة اليهودية تعرض للخطر أيضاً كل ما أقامه البريطانيون في الشرق الوسط، بجهد كبير جداً.

في عام ١٩٣٧، كتب أفلين شاكبرغ، الملحق في السفارة البريطانية في القاهرة، رسالة إلى والده "المستعرب" جو شاكبرغ في لندن، لخص فيها النظرية المؤيدة للعرب في القرن العشرين بقوله: كيف يمكن لنا أن نعرض للخطر مكانتنا في العالم العربي بسبب فلسطين"؟.

في واقع الأمر، كانت هذه النظرية قد تعمقت جذورها في لندن. ففي تموز ١٩٣٧، منحت اللجنة الملكية (لجنة بيل) تأييداً واضحاً للسياسة المؤيدة للعرب. وجاء في تقرير اللجنة، ان الانتداب، وانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، أمران قابلين للتنفيذ بسبب المقاومة العربية. واقترحت اللجنة تقسيم البلاد إلى دولتين، يهودية، وعربية: تمتد الدولة اليهودية على اجزاء من الأرض من قطاع الساحل والجليل - حوالي ٥% فقط من المساحة التي خصصت لانشاء الوطن القومي اليهودي بموجب الانتداب، ويواصل البريطانيون الاحتفاظ بالقدس وحيفا، في حين يتم ربط الدولة العربية مع شرق الأردن، وتشمل بقية اجزاء البلاد - حوالي ٩٠ % من مساحتها.

لكن العرب ادركوا جيداً ضعف الموقف البريطاني ورفضوا الخطة نهائياً. لقد طالبوا بكل شيء. وفي أيلول ١٩٣٧، قتل ارهابيون عرب الحاكم البريطاني الجديد لقضاء الجليل، الذي بدا في نظرهم مؤيداً متحمساً لمشروع التقسيم. وهكذا، تجددت الاضطرابات، وأصرّ العرب على مطالبهم القديمة: توقف مطلق للهجرة اليهودية، والتخلي عن فكرة اقامة وطن قومي لليهود في أرض إسرائيل.

وفي نهاية المطاف، رضخ البريطانيون لكل مطالب العرب. ففي مطلع عام ١٩٣٩، وضع رئيس الحكومة البريطانية، نفيل تشامبرلن، مبدأ التراجع الدبلوماسي الذي كان يهدف "لاحلال السلام نهائيا" ليس فقط في اوروبا، إنما في الشرق الأوسط أيضاً: وتنصلت بريطانيا من وعد بلفور.

نشر "الكتاب الأبيض" لحكومة تشامبرلن، في أيار ١٩٣٩، قبل أربعة اشهر مـن انـدلاع الحـرب العالميـة الثانية، التي رافقتها إبادة يهود اوروبا: تقرر في الكتاب الابيض، انه بعد دخول٧٥ ألف يهودي آخرين، يـتم توقيف الهجرة نهائياً، ومنذ الآن، ستعمل بريطانيا في سبيل إنشاء دولة "ثنائية القومية"، عربية ويهودية.

عندئذ أدرك كل من له عقل يفكر به، أن تشامبرلن قضى نهائياً على فكرة الدولة اليهودية.

بعد ستة أشهر فقط عـلى خيانتـه للتـشيكيين في ميـونخ، كـرر تـشامبلن نفـس الـسلوك عنـدما غـدر باليهود.

في حقيقة الأمر، رفضت عصبة الأمم هذا الاجراء البريطاني الذي يتناقض مع الانتداب، غير أنه في عـام ١٩٣٩، لم يكن أحد يهتم برأي - الهيئة التـي تحتـضر. لا يمكننـا تقـدير مغـزى خيانـة البريطـانيين للـشعب اليهودي، بشكل مناسب، إلاّ في ضوء ماحدث في اوروبا في سنوات الثلاثينات.

عندما رضخ البريطانيون للمطالب العربية، وفرضوا قيوداً على الهجرة اليهودية، أغلقوا في الواقع طرق التجارة بالنسبة لليهود الذين حاولوا الخلاص من اوروبا التي تشتعل النيران فيها.

كان الجستابو، يرسل إلى البحر سفناً محمّلة بيهود المانيا، لكي يثبت بأن أحداً لا يريدهم، في حين كـان البريطانيون يعيدون السفن من شواطيء البلاد إلى الموانىء التـي أبحـرت منهـا، واحيانـاً بعـد اطـلاق النـار عليها.

كان مغزى هذا السلوك واضحاً تماماً بالنسبة لماينر تسهاجن حيث قال: يعتزم الالمان تنظيف المانيـا مـن اليهـود، وهـم يـستطيعون عمـل ذلـك. ان احـداً لا يحـب اليهـود ولا أحـد يريـد م، لكننا تعهدنا بمنحهم وطناً في فلسطين. وبدلاً من ذلـك، نغلـق الابـواب في وجـوههم، في اللحظـة التـي يجـب ان تكـون مفتوحـة عـلى مـصاريعها. كـما أننـا نقلّـص مـن مـساحة وطـنهم في

الوقت الذي يجب علينا توسيعها. ان أفعال حكومة صاحب الجلالة في فلسطين، قريبة جداً من أفعال هتلر في المانيا. ربما تكون أفعال الحكومة البريطانية أكثر رقّة، لكن النتيجة بالنسبة لليهود هي واحدة - المسّ بأمنهم، والمعاناة، واليأس، والقتل".

لقد أغلق البريطانيون أبواب "أرض إسرائيل"، أكثر من عشر سنوات، في وجه اللاجئين اليهود الفارين من المحرقة الاوروبية.

ولم يعمل البريطانيون من أجل تدمير الوطن القومي اليهودي، الذي لم يكن ليقام دون الهجرة، فحسب، بل أصبحوا شركاء في جريمة إبادة اليهود في اوروبا. وها هو، اللورد هليفكس، وزير الخارجية البريطانية، الذي كان أحد المسؤلين الرئيسيين عن هذه السياسة، يشرح سبب تخلي بريطانيا عن التزامها بانشاء وطن قومي لليهود في "أرض إسرائيل"، فيقول: "توجد أوقات تتطلب أن تخلي إعتبارات العدالة المجردة، مكانها لاعتبارات تتعلق بسهولة الادارة".

عندما بدأت تصل إلى وزارة المستعمرات في لندن معلومات أولية بشأن إبادة اليهود في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، رفض جون شاكبرغ التوسلات بشأن فتح الابواب لانقاذ اللاجئين اليهود، مدعياً ان ذلك عبارة عن "تباكٍ صهيوني غير مسؤول". هناك أوقات نواجه فيها الواقع، ولا نستطيع الانحراف عن سياستنا بسبب المشاعر الانسانية المشوّهة، التي سادت قبل اندلاع الحرب، في عام ١٩٣٩.

وفعلاً، ظل البريطانيون طيلة سنوات الحرب العالمية الثانية، متمسكين باصرار بسياسة رفض "الانسانية المشوّهة" تلك. وعندما كان اليهود وقوداً لنيران هتلر، ظل البريطانيون يصدون كل لاجيء يهودي رغب في الوصول إلى "أرض إسرائيل".

لقد نجح بعض هؤلاء اللاجئين بالدخول إلى البلاد خلسة، في إطار ما عُرف "بالهجرة غير المشروعة"، ويعيش هؤلاء هم وذريتهم في دولة إسرائيل. لكن معظمهم لم يحالفهم

الحظ، وعادوا إلى أوروبا - إلى حتفهم. لم تكن هنالك دولة في العـالم تريـدهم، في حـين اغلقـت في وجههـم البلاد الوحيدة في العالم، التي كانت تنتظرهم.

في عام ١٩٤٥، مع انتهاء الحرب اضطر حاييم وايزمن المؤيد لبريطانيا. إلى الاستقالة من زعامة الحركـة الصهيونية. وفي خطابه الأخير كرئيس لـلـهستدروت الـصهيونية، اسـتعرض فايتـسمان بمـرارة، نتـائج نـصف يوبيل من السنوات التي أمضاها، وهو يؤمن بصداقة بريطانيا. بقوله : "هناك من قال لنـا أن ابعادنـا عـن فلسطين ضروري لرفع الظلم عن أمة اخرى، توجد لديها سبع دول تبلغ مـساحتها مليـون ميـل مربـع. وفي مناسبة أخرى قالوا لنا أنه إذا سمحوا للاجئين اليهود بالدخول، فمن شأن ذلـك تعـريض الأمـن العـسكري للخطر في سنوات الحرب.. كان من الأسهل بالنسبة لهم الحكم على يهـود اوروبـا بـالموت المحقـق، مـن أن يجدوا طريقة للتغلب على هذه المصاعب".

متى بعد ان تأكدت المعلومات بـشأن قتـل اليهـود في أوروبـا، وبـدأت تـصل الـصور مـن معـسكرات الابادة، لم تلن القلوب المتحجرة في الحكومة البريطانية. فقد صمم هؤلاء على منع إقامة دولة يهودية بـأي ثمن.

لذلك، طلبوا التأكد من أن يبقى الناجون من الكارثة في اوروبا. وبعد عام ١٩٤٥، ظلت بريطانيا تمنـع دخول اللاجئين اليهود إلى "أرض إسرائيل" بكل الوسائل التي كانت متوفرة لديها، وأبعدت كثيرمن منهم إلى افريقيا، والهند، وقبرص. وفي نفس الوقت واصل البريطـانيون تـسليح جيـوش الـدول العربيـة التـي كانـت تستعد لابادة اليهود في "أرض إسرائيل".

وفي نيسان ١٩٤٨، في الوقت الذي كانت قد بدأت تدخل جماعات عريبة مقاتلة غير نظامية إلى "أرض إسرائيل" من دول خارجية، جمعت الادارة البريطانية التي كانت تحتضر آنذاك، ما تبقـى لـديها مـن قـوة، لابعاد اليهود من البلاد.

ورغم كل هذه الجهود، فشلت السياسة البريطانية العادية للصهيونية فشلاً ذريعاً. وبالطبع، لم يفقد البريطانيون نفوذهم لدى العرب بسبب اليهود، إنما بسبب انهيار الامبراطورية البريطانية.

رغم كل هذا، كانت كراهية العرب للغرب قوية لدرجة كبيرة، جعلت تحريرهم من العثمانيين، والمعاداة البريطانية للحركة الصهيونية، واعادة سفن المهاجرين اليهود إلى المحرقة الاوروبية، غير قادرة على مساعدة بريطانيا على كسب تأييد العرب. إذ أنه، عندما حان وقت الاختبار الحقيقي، في الأيام الصعبة من الحرب العالمية الثانية، كافأ العرب البريطانيين، كعادتهم؛ اذ وقف العرب في العراق، وسوريا ومصر، علانية إلى جانب النازيين، تماماً كما تنبأ، ماينر تسهاجن. وكان بينهم من حج إلى برلين للتطوع في إطار المجهود الحربي الألماني، حتى أن الألمان شكلوا وحدة عربية، تم ضمها في وقت لاحق، إلى الخدمات السرية (إس. إس).

كانت هنالك أغنية شائعة آنذاك في الشارع العربي يمكن أن تعبّر تماماً عما كان يدور في خلد الجماهير العربية التي كانت تتمنى اللحظة التي يتخلصون فيها من البريطانيين والفرنسيين البغيضين، وهي:

"لامسيو ولا مستر، بعد اليوم. الله في السماء، وهتلر على الأرض".

في المقابل، تجند يهود "أرض إسرائيل" في إطار اللواء اليهودي في الجيش البريطاني وحاربوا بامتياز، وأكدوا نبوءة ماينر تسهاجن، بشأن إخلاص اليهود للدول الحليفة في ساعة الاختبار.

وبعد الحرب، ذكّر، ديفيد نيلس، أحد مستشاري الرئيس الأمريكي، ترومان،المقربين، بالدعم الذي قدمه يهود أرض إسرائيل للحلفاء إبان الحرب، كحقيقة تبرر السماح بهجرة مائة الف يهودي آخرين إلى فلسطين، وقال: يبدو لي أن ١٠٠ ألف يهودي آخرين، سيكونون عوناً لنا في تلك المنطقة، مثلما كان يهود فلسطين عوناً لنا في الحرب العالمية الثانية. أما العرب فلم تحصل دول الحلفاء منهم على شيء، بينما كانت مساعدة يهود فلسطين لها كبيرة".

كما أن، برتلي كرام، عضو اللجنة التي حققت في وضع اللاجئين، أعرب عن رأي مماثل، حيث قال: يجب أن لا ننسى كيف تجاهل يهود فلسطين خلافاتهم مع بريطانيا، وساعدوها بكل طاقتهم للقضاء على الناس... في أعمالهم هذه، سطّر اليهود فصلاً رائعاً، لم يرو بعد بكامله. وفي المقابل، أبدى الجمهور العربي في فلسطين، عدم اكتراث، بشكل عام، بالمجهود الحربي".

غير أن هذا الدرس البسيط، لم يدركه المستعربون-البريطانيون، الذين لم يتحولوا قيد أُنملة عن سياستهم تجاه اليهود. وخلال بضع سنوات، فقدت الامبراطورية البريطانية كل مواقعها في الشرق الوسط.

طيلة ثلاثين سنة، ظل البريطانيون يحاولون مصالحة وارضاء العرب، على حساب اليهود، وفي النهاية، تبين أن سياستهم لم تحقق لهم أية منافع - لكنها كلفت اليهود ثمناً باهظاً.

هنالك تأثير واحد، على الأقل، لتلك السياسة لا زال قائماً حتى يومنا هذا: لقد تم تبني سياسة وزارة الخارجية البريطانية من قبل معظم وزارات الخارجية في العالم. إذ كانت بريطانيا أكبر دولة عظمى في العالم، وحظى دبلوماسيوها بتقدير واحترام، وكثيرون هم الذين قلدوا سياستها.

وهكذا، إنتشرت نظرية "المستعربين" من وزارة المستعمرات ووزارة الخارجية البريطانيتين إلى وزارة الخارجية الأمريكية، وبخاصة، بعد أن عثرت شركات أمريكية في الثلاثينات على حقول نفط ضخمة في شبه الجزيرة العربية. وحققت هذه الشركات أرباحاً هائلة، واتسعت صناعة النفط خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، عندما زاد الطلب على النفط، نظراً لتوسع الصناعات في العالم، وبخاصة في العالم الغربي. وفي مطلع الستينات، قُدرت كمية النفط المتوفرة في حقول الخليج العربي بحوالي ٦٠% من احتياطي النفط المعروف في العالم.

وعندما فرضت الدول العربية المنتجة للنفط الحظر على تصديره، إلى الدول الغربية، عام ١٩٧٣، أدرك زعماء هذه الدول، أنهم يسيطرون على مصادر النفط في العالم كله، الأمر الذي

يوفر لهم امكانية رفع اسعار، دون قيود. ولكن سرعان ما تبين ان الواقع الاقتصادي غير ذلك، إذ إنضمت إلى الدول المنتجة للنفط دول أخرى جديدة، مثل بريطانيا والنرويج، وتم ايجاد بدائل للنفط، كمصادر للطاقة، مثل الغاز الطبيعي.

أضف إلى ذلك، أن الدول الغربية بدأت تطوّر صناعاتها وسياراتها بشكل يقلل من استهلاك الوقود، الأمر الذي أدى إلى انخفاض متتالٍ في اسعار النفط في السوق العالمية. وتبين كذلك أن سوق النفط هي مجرد سوق تجارية، وان العرب لم تعد لديهم القدرة على السيطرة على هذه السوق.

ولكن، في الثلاثينات، لم تكن هذه الأمور معروفة. لذا، ليس من الغريب، أن يتوصل موظفون أمريكيون كثيرون إلى استنتاج بشأن ضرورة الأخذ في الاعتبار المطالب العربية، ومن ضمنها إضعاف الصهيونية.

وفعلاً، منحت وزارة الخارجية الأمريكية "بصمتها" دعماً للكتاب الأبيض، الذي أصدره تشامبرلن، بشأن اغلاق مداخل "أرض إسرائيل" في الحرب العالمية الثانية. كما واصلت وزارة الخارجية الأمريكية معارضة الهجرة اليهودية إلى "أرض إسرائيل" بعد الحرب أيضاً، حتى أُقيمت دولة إسرائيل.

وعندما قرر الرئيس ترومان، رغم هذه المعارضة، تأييد مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة واقامة دولة يهودية، كتب رئيس طاقم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية، جورج كنان، انه بهذا القرار تكون قد أُنزلت ضربة قاسية بالهيبة الأمريكية في العالم الاسلامي، وتضررت كثيراً، المصالح الاستراتيجية الأمريكية في البحر المتوسط وفي الشرق الأوسط.

فيما بعد، كتب ترومان يقول: "في تلك الفترة كانت وزارة الخارجية الأمريكية منزعجة من الرد العربي، أكثر من انزعاجها من معاناة اليهود".

وتعززت هذه السياسة، مع مرور الوقت، عن طريـق وجـود مؤيـدين للعـرب في دائـرة الـشرق الأدنى التابعة لوزارة الخارجية. حيث انه على الرغم من أن الشعب الأمريكي كان يؤيد، بشكل عام، اليهود (وبعد ذلك، الدولة اليهودية) كانت نظرة موظفي وزارة الخارجية الأمريكية، مغايرة، في احيان كثيرة لهذا التوجه.

لا زال في أروقة وزارة الخارجية الأمريكية، من يدعي، حتى هذا اليوم، ان ابتزاز تنازلات من إسرائيـل، أو ارغامها على التخلي عن ثروة هامة لأمنها، سيؤدى إلى كسب ود العـرب وولائهـم لأمريكـا، وكـما كانـت الحال في الثلاثينات، فان هذه النظرية تعاني اليوم من قصر نظر شديد.

غير أن التيار المؤيد للعرب في الولايات المتحدة، لم يكـن مقتـصراً عـلى الدبلوماسـيين المحترفـين فقـط. ففي كل دولة في العالم، توجد مؤسـسة للـسياسة الخارجيـة، تـضم رجـال سياسـة، وأكـاديميين، وصـحفيين، وخبراء في الشؤون الخارجية.

في السبعينات، عندما تضاعف التأثير العربي، بفضل العائدات الضخمة من تجارة النفط، كانت معظم وزارات الخارجية في العالم،قد سلك الطريق المؤيدة للعرب.

وبعد نصف يوبيل من السنوات، مضت على قيام دولة إسرائيل، لا زالت عناصر مؤيدة للعرب تقـول: ان إسرائيل وُلدت بخطأ جغرافي - سياسي، إذ ان وجودها بالذات، يمنع الغرب من كسب تأييد العرب.

يصعب علينا تقدير مدى إحتفاظ تلك المجموعة من الدبلوماسيين بهذه النظريـة، التـي يعـرب عنهـا بعضهم، بصورة علنية، في أوقات متباعدة فقط، في حين أن البعض الآخر لا يفصح عنها أبداً.

لقـد اكتـشفت هـذه الحقيقـة، ذات يـوم، في نيويـورك، في آخـر يـوم لي، كـسفير لإسرائيـل لـدى الامــم المتحــدة، عنــدما ودعــت عــدداً مــن الدبلوماســيين الغــربيين: أحــدهم، أمــريكي، كانــت

تربطني بع علاقات ودية، دعاني إلى حيث وداعي. وبعد ان أفرغ عدة كؤوس من الويسكي، توجه اليّ فجأة قائلاً: كل شيء كان غلطة". وبما انني كنت اعرف آراءك التي تنتقد بعض الاجـراءات الإسرائيليـة، سـألته أي الاجراءات الإسرائيلية التي يقصدها. أجابني بقوله:"لا. ليست سياسة معينة. أقـول لـك ان إقامـة - الدولـة الملعونة، كان خطأً من أساسه. كان يجب علينا ان نمنع اقامتها لنوفر على الجميع كل هذه المصائب".

وربما ولكي تكتمل الصورة، روى لي مؤخراً أحد الدبلوماسيين الإسرائيليـين في لنـدن، أن شخـصية كبـيرة جداً في وزارة الخارجية البريطانية، قال في حالة عدم إنتباه: بأن الغلطة الاساسـية التـي ارتكبتهـا بريطانيـا، كانت وعد بلفور". حدث هذا عام ١٩٩٣.

فور انتهاء الكارثة، لم يكن باستطاعة حتى اولئك المؤيدين للعرب، منع حـدوث ثـورة في الـرأي العـام العالمي، تطالب بانصاف اليهود. وكان الطلب بـسيطاً وهـو: بمـا أن الـشعب اليهـودي عـانى كـل - المعانـاة الفظيعة، حان الوقت لتمكينه من اقامة دولة خاصة به.

صحيح، انه نتيجة للضغوط العربية ومساعدة بريطانيا تقلصت المساحة التي خصصت لليهـود حتـى بقى منها جزء ضئيل فقط، لكن ذلك كان أفضل من لا شيء، بالنسبة لشعب عـرف المعانـاة، وظـل يتعلـق بخيط الحياة، بما تبقى لديه من قوة.

لم يكن باستطاعة اليهود الانتظار أكثر من ذلك. ففي نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، زادت الحركـات السرية اليهودية من نضالها في سبيل فتح ابواب البلاد المغلقة في وجه الناجين من الكارثـة، وابعـاد الحكـم البريطاني من "أرض إسرائيل".

تصاعد هذا النضال، وتغللـه شن مجمات على الجيش البريطاني في -أرض إسرائيل- بعمليات عسكرمة حقيقية. وقد نفذت - الهجمات مجموعات من المنظمة العسكرية القومية (ايتسل) بقيادة مناحيم بـيغن، ومنظمة مقاتلي حرية إسرائيل (ليحيا التي كان ضابط العمليات فيهـا، اسـحق شـامير، ثـم انـضمت الـيهما منظة (الهجناة) التي كانت تخضع للقائد دافيد بن غوريون.

وأخيراً، تراجعت رغبة بريطانيا في مواصلة السيطرة على البلاد. وكانت معظم الهجمات موجهة ضد المنشآت التي كانت تخدم الجيش البريطاني والادارة البريطانية - الجسور ليلة الجسور المشهورة في ١٩٤٦، عندما فجرت الهجناة ١٢ جسراً رئيساً، والسكك الحديدية، مراكز الشرطة، قواعد عسكرية، نوادي ضباط، قيادات عسكرية، ومعتقلات كان يحتجز فيها رجال المنظمات السرية اليهودية (في هجوم على سجن عكا عام ١٩٤٧، حررت الهجناه٢٥١ معتقلاً يهودياً.

وبعد بضعة أشهر، عندما أعدم البريطانيون ثلاثة من رجال حركة "ايتسل" ردت عليهم الحركة باعدام جنديين بريطانيين وقعا في اسرها. وأثار هذا الاجراء جدلاً في البلاد، وأصاب بالذهول الجمهور البريطاني.

في أعقاب اعدام الجنديين البريطانيين، تعززت دعوة، تشرتشل، الذي كان في المعارضة آنذاك، بشأن ضرورة الانسحاب من "أرض إسرائيل".

كان لنضال الحركات السرية اليهودية، ضد الحكم البريطاني في البلاد، تأثير كبير وحاسم. إذ لم تعد الامبراطورية البريطانية المنهكة من الحرب العالمية الثانية، قادرة على الاحتفاظ بمئة ألف هندي في "أرض إسرائيل"، في حين طالب الرأي العام البريطاني، باعادة الجنود إلى بلادهم.

في عام ١٩٤٧، أعلنت بريطانيا عن عزمها الخروج من "أرض إسرائيل"، وأرسلت إلى الأمم المتحدة رأيها بشأن ما يجب عمله في هذه البلاد، وهكذا، وُلد مشروع التقسيم في الأمم المتحدة بصدور القرار رقم ١٨١ يوم ٢١ تشرين ثان ١٩٤٧.

ويقضي هذا القرار بتخصيص حوالي ١٠ % من مساحة "أرض إسرائيل" الانتدابية، وأُعطي الباقى للعرب، في حقيقة الأمر، لحد قرار التقسيم، مرة أخرى، حق اليهود في دولة مستقلة خامة- بهم. ولكن، لم يكن منالك أحد، يزمن بأن هذا المولود الحيث، سيعثر طوملا.

إذ ساد الاعتقاد في أوساط مزمي اليهود ومعارضيهم، في انحاء العالم، بأن مذ الدولة الصغيرة، سيتم احتلالها فوراً من قبل العرب، وأيد الخبراء العسكريون هذا التقدير.

وهكذا، أراح، على أية حال، كثيرون في العالم ضمائرهم، بأن خصصوا لليهـود دولـة، لا تزيـد مـساحتها على مساحة جزر الباهاما، من خلال الافتراض بأن القوة المشتركة للجيـوش العربيـة سـتنهي هـذه القـضية تماماً.

عل الرغم من هذا، وعلى الرغم من تقليص حقوقـه، قبـل الـشعب اليهـودي قـرار التقـسيم، ئ حـين رفضه العرب ونادوا بالحرب. وفوراً بعد اتخاذ القرار في الأمم المتحـدة، بـدأت قـوات عربيـة غـير نظاميـة، بدخول البلاد، بهدف منع اقامة

الدولة اليهودية. وفي غضون بضعة اشهر، إنضمت إلى هذه القـوات غـير النظاميـة، الجيـوش العربيـة لكل من مصر وسوريا والأردن والعراق ولبنان.

وعندما تـم الإعـلان اخـيراً عـن قيـام الدولـة اليهوديـة في ١٤ - أيـار ١٩٤٨، مـع خـروج آخـر الجنـود البريطانيين من البلاد، كانت "حرب الاستقلال" ضد الغزاة العرب في ذروتها. وكان الرأي الـسائد، آنـذاك، أن المسألة، مسألة وقت فقط، ولن يكون هذا الوقت طويلاً، حتى تُباد دولة إسرائيل.

دخلـت إسرائيـل "حـرب الاسـتقلال" في أسـوأ الظـروف، التـي خلفتهـا بريطانيـا. في البدايـة، قلـص البريطانيون إلى الصفر تقريباً، المنطقة التي خصصت للاستيطان اليهودي وعـدد اليهـود الـذين سُـمح لهـم بالقدوم اليها، ثم منعوا اليهود من التسلّح. في حين سمحوا بتدفق كميـات كبـيرة مـن الأسـلحة إلى العـرب دون عرقلة، كما لم يمنعـوا تعزيـز هـؤلاء العـرب بقـوات مـن الـدول المجـاورة. وهكـذا، دون طـائرات، ولا دبابات، ولا مدافع، وقفت القوات الإسرائيلية القليلة، لتواجه قوة تفوقها بعدة أضعاف في العدد والعدّة.

عنـدما هاجمـت الجيـوش العربيـة الـبلاد، كانـت حيـاة إسرائيـل متوقفـة عـلى قـدرتها عـلى الـصد. وفي عـشرين شـهراً مـن الحـرب المريـرة، قُتـل (٦٠٠) يهـودي معظمهـم مـن النـاجين مـن الكارثـة

النازية (من ضمن سكان عددهم ٦٠٠ ألف نسمة، وهي نسبة خسائر تعادل ٢.٥ مليـون امـيركي، في أيامنـا هذه).

في شهر حزيران، بلغت قوة اليهود درجة الصفر، لكـنهم رغـم ذلـك، ظلـوا يقـاتلون بـشراسة واصرار. عندئذ وافق العرب على وقف اطلاق النار، ربما لانهم لم يعلمـوا بـضعف إسرائيـل، التـي اسـتغلت الهدنـة لاعادة تسليح نفسها. ولدى تجد المعارك، تمكنت إسرائيل من تجميع قوات نجحت في صد الهجـمات التـي تعرضت لها، وأرغمت القوات العربية على التراجع إلى الوراء في عـدة قطاعـات مهمـة. وتـم التوقيـع عـلى اتفاقيات الهدنة في عام ١٩٤٩.

وأصبحت الدولة اليهودية، حقيقة قائمة. لقد جاءت إلى العالم بعد مخاض مؤلم. كما ان سنوات طفولة هذه الدولة الجديد، لم تكن سعيدة أبداً. إذ كانت تتعرض باستمرار لهجمات المتسللين العرب الذين كـانوا يدخلون عبر الحدود، بينما ظلت الدول المجاورة تهددها صباح مساء بالابادة.

والى جانب العداء العربي، حظيت إسرائيـل في سـنواتها الاولى بنظـرة دوليـة معقولـة. ففـي العقـدين الاولين لحياتها، خفّت حدة الكراهية العربية بسبب التضامن الاخلاقي، من قبل ملايين الناس في العالم، مع الشعب اليهودي، الذي عانى من الكارثة، ومع البطولة التي أبدتها إسرائيل في"حرب الاستقلال".

في تلك الفترة، وبينما كانت الدول العربية لا زالت، تلعق جراحهـا، ولم تجهـز اجهزتهـا الدعائيـة، أثـار هذا التعاطف مع اليهود تأييداً حماسياً لإسرائيل في دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية.

ففي هولندا، فرنسا، الدنمارك، ايطاليا، بريطانيا، والولايات المتحدة بشكل خاص، أُعتبر التأييد لإسرائيل بمثابة التضامن مع الجيد والايجابي. غير أن ذكرى الكارثة، ومعجزة ولادة دولة إسرائيـل، ضـعفتا مـع مـرور الوقت، وضعف معهما التعاطف مع إسرائيل.

ثم ظهر هذا التعاطف من جديد، لوقت قصير، اثناء الحصار الذي سبق حرب الايام الستة، ليخبو من جديد في اعقاب الانتصار المدهش، الذي حققته إسرائيل في تلك الحرب، ثم عاد التعاطف مـن جديـد مـع إسرائيل، عندما تعرضت لقصف صواريخ العراقية في "حرب الخليج" وذلك عندما ادرك العالم، مـن جديـد، من هو الضحية، ومن هو العدواني.

في النصف الأول من القرن العشرين، كانت الامبريالية البريطانية، التي استعانت بالعرب. هي الرائـدة في مقاومة الحركة الصهيونية. وفي النصف الثاني من هذا القرن، انقلبت الامور، فانتقلت الريـادة إلى أيـدي العرب انفسهم. فقد عرفت الدول العربية، التي نالت استقلالها، كيف تستغل الوسائل الاعلاميـة المكتوبـة والمرئية، والسفارات والخدمات الدبلوماسية، والثراء العظيم الذي مكنها من استخدام كافـة - الوسـائل، إلى درجة كبيرة.

في باديء الأمر، لم يدرك العرب قوة هذه الوسـائل كـسلاح سـياسي، وتـم توجيـه الدعايـة العربيـة في البداية نحو الداخل بشكل خاص، بهدف إقناع الشعوب العربية (وليس الشعوب الغربية) بعدالـة النـضال ضد إسرائيل. لم تكن انظمـة الحكـم العربيـة الجديـدة قـد كـسبت الخـبرة الـضرورية لادارة فـن الدعايـة الدولية، ولم تعرف كيف تصوغ مواقفها بعبارات معتدلة، وأكـثر اتزانـاً. وتعتـبر أقـوال الملـك سـعود، ملـك العربية السعودية، عام ١٩٥٤، افضل نموذج لتلك التصريحات: لأن إسرائيل بالنسبة للعالم العربي كالسرطان في جسم الانسان، وليس لها علاج سوى إقتلاعها مثلما نستأصل السرطان... إسرائيل، جرح مميت في الجسم العربي، ولن نستطيع أن نتحمل آلامه إلى الأبد. ليس لدينا الصبر لرؤية إسرائيل وهـي تحتـل فلـسطين زمنـاً طويلاً. نحن العرب نعد حوالي ٥٠ مليون نسمة. لماذا لا نضحي بعشرة ملايين، لكي نعيش بشرف واعتزاز؟".

كانت الدولة اليهودية كبش فداء، بالنسبة لأنظمة الحكم العربية، لصرف انظـار شـعوبها عـن فـشلها وسوء ادارتها، لكن هذا التطرف من جانب العرب لم يـنجح في اثـارة اللاصـهيونية في العـالم، وقليلـون هـم الذين قبلوا مثل هذه التصريحات القاسية، في العالم الغربي.

على أية حال، حظيت إسرائيل لفترة قصيرة بين عامي ١٩٤٨-١٩٦٧ بتعاطف لدى الرأي العام العـالمي، كان ينبع من التعاطف الاساسي مع الحركة الصهيونية الذي كان سائداً آنذاك في المجتمعات الغربية، ومـن تجاهل الغرب ولامبالاتهم تجاه الرأي العام العربي.

في تلك الاثناء كان المؤيدون للعرب في الولايات المتحدة يواصلون جهودهم، لدرجة انهم ضغطوا عـلى الرئيس ايزنهاور لمطالبـة إسرائيـل بالتنـازل عـن النقـب مقابـل الـسلام. وفي نفـس الوقـت لم يحـظ اولئـك المؤيدون للعرب، في تلك الفترة، بتعاطف من جانب الحركة الصهيونية.

في اعقاب حرب الايام الستة، انتهى التعاطف الذي كانت تحظى به إسرائيل لـدى الـشعوب الغربيـة، فخلافـاً للحكومـات تحـول الجمهـور في الـدول الغربيـة إلى التعـاطف مـع مـن بـدا في نظـرهم الاضـعف. واصبحت إسرائيل في نطر قسم من الجمهور الغربي، دولة تستطيع عمل ما تريد.

وعززت هذا الشعور، التصريحات المعجرفة التي تفوه بها الإسرائيليون في اعقاب العرب، وكأن انتصاراً واحداً، مهما كان كبيراً، يمكن ان يضع نهاية لصراع البقاء الذي تخوضه الدولة اليهودية الصغيرة ضـد العـام العربي الكبير والثري، وسرعان ما عرف العرب كيف يستغلون هذا التحول في الرأي العام الغـربي لـصالحهم، وبدأوا يظهرون إسرائيل كدولة عظمى في المنطقة تعتدي على الدول المجاورة لها والاضعف منها.

وهكذا، تناسى العالم نهائياً، حقيقة ان إسرائيل اسـتولت عـلى الاراضي التـي كانـت منطلقـاً لـلــهجوم عليها، وان العرب كانوا هم المبادرين بهذه الحرب، خارقين بذلك اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل.

وظلـت لـدى الـرأي العـام العـالمي حقيقـة واحـدة قائمـة، هـي ان إسرائيـل تحـتفظ بـأراض واسـعة تـــسكنها جماهـــير عربيـــة كبـــيرة، أي "إسرائيـــل"، تحتـــل اراضي عربيـــة-" وكـــان هـــذا الاعتقـــاد

كافياً لتخليص العرب من تهمة التسبب باندلاع الحرب والقائها على عاتق إسرائيل. ولكن في نفس الوقت ادرك العرب ان الحرب وضعتهم امام عائق عسكري كبير، إذا ما حاولوا شن حرب ضد إسرائيل، اذ ادى الانتصار الإسرائيلي، إلى ابعاد الحدود عن مداخل تل أبيب إلى نهر الأردن شرقاً، وراء سلسلة جبال عالية وصعبة الاجتياز. واتضح للعرب أنهم لن يستطيعوا التخطيط بجدية، لالحاق الهزيمة بإسرائيل بضربة عسكرية واحدة. واذا كانوا يريدون القضاء على إسرائيل، يجب عليهم اولاً تقليص حجمها واعادتها إلى الخطوط التي بدأت الحرب منها، أي اعادتها إلى خطوط ١٩٤٩.

كما ادرك العرب، ان ليس في مقدورهم تحقيق هذا الهدف بالطرق العسكرية، انما سيحققونها، إذا ما استخدموا الدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، في ممارسة ضغوط شديدة على إسرائيل. ولكن لسوء حظهم، برز في الولايات المتحدة بعد الحرب، توجه عكسي تماماً: بدأت تسمع اصوات تنادي بضرورة ابرام حلف عسكري مع إسرائيل التي اصبحت القوة الأكثر اهمية في المنطقة، وتم التعبير عن هذا التوجه، بعد وقت قصير، عندما بدأت الولايات المتحدة تقدم مساعدات عسكرية سخية لإسرائيل، زادت من صعوبة تحقيق الاهداف العربية ضد إسرائيل.

ومع ذلك، ظل بعض العرب يقولون، ان التأييد الأمريكي لإسرائيل، ليس بالامر الذي لا يمكن تغييره، لذا يمكن التأثير على الأمريكيين، إذا ما استفاد العرب من العناصر الأمريكية القديمة المؤيدة لهم، كما ادركوا اهمية الرأي العام، في رسم السياسة الخارجية في الدول اليمقراطية الغربية، لذا، تركزت الجهود العربية بعد حرب١٩٦٧، على الحاق الهزيمة بإسرائيل في المنافسة على الرأي العام الغربي: في وسائل الاعلام، في الجامعات، ومراكز السلطة.

ولكي يفوز العرب بهذا الصراع، اضطروا لادخال تعديلات اساسية على طريقة عرض النزاع في الشرق الاوسط. اذ لم يعد هنالك أحد في العالم الغربي مستعداً لسماع ادعاءات مثل إسرائيل "سرطان يجب استئصاله". لذا، كان من الضروري اعادة كتابة التاريخ، (تاريخ

الصراع)، وتضمينه شروحات تكون مقبولة للرأي العام، وايجاد مبررات مقنعة، تؤثر على الرأي الغربي، وتجعله يتخلى عن تأييد إسرائيل، وثم في "التاريخ المعاد" هذا، ادخال انتقادات للظروف التي اقيمت بها إسرائيل. فاذا اتضح ان انشاء إسرائيل بالذات كان جريمة اخلاقية، لم تنصف اليهود، بل الحقت ظلماً شديداً بالعرب، فان العالم الغربي سيبدي تعاطفاً مع الجهود الرامية إلى رفع هذا الظلم.

اكتشف العرب ان الأرض لهذا النوع من الدعاية قد مهدت من قبل "المستعربين" البريطانيين، اذ، كما اسلفنا، كرس هؤلاء المؤيدون، سنوات كثيرة لاقناع الحكومات الغربية، بأن هجرة اليهود إلى "أرض إسرائيل" تعتبر غلطة اخلاقية، كان من شأنها، فقط، دفع العرب وتحريضهم على ممارسة العنف، وان وجود دولة يهودية في قلب الشرق الاوسط، من شأنه توحيد العالم العربي ضد الغرب.

بعد حرب ١٩٦٧، بعث العرب الحياة في هذه التبريرات، واستخدموها، لتبرير عمليات الارهاب العربية، ومهاجمة إسرائيل في الامم المتحدة، وفرض الحظر على النفط.

وهكذا، بدأت الانظار تتجه منذ مطلع السبعينات إلى المتحدين العرب الذين كانوا يكررون منه الادعاءات "البريطانية القديمة".

وكما هي الحال في أي محكمة، وكما هو الامر في محكمة الرأي العام، هنالك اهمية حاسمة للسؤال: من الذي هاجم اولاً، ومن الذي بادر بالهجوم، من هو الطرف المهاجم ومن هو الطرف المدافع. لذا بدأ العرب بمعركة لا مثيل لها، لاقناع الرأي العام الغربي، بأنهم لم يبدأوا الهجوم، انما إسرائيل هي التي هاجمتهم عام ١٩٦٧، وهكذا لم يعد العرب هم المتهمين بل اليهود الذين صدوا الهجوم عنهم.

غير ان مهمة العرب، هذه المرة، كانت اصعب بكثير من مهمة "المستعربين" البريطانيين الذين سبقوهم، حيث كان اولئك يحاولون اقناع حكوماتهم فقط بمعارضة الصهيونية.

ولكن من اجل اثارة الرأي العام الحالي ضد إسرائيل، في الولايات المتحدة، التي اصبح لإسرائيل فيها اصـدقاء كثيرون وذوو نفوذ، يتطلب الامر قلـب الحقـائق والمعلومـات إلى درجـة كبـيرة، واكـبر بكثـير مـما احتاجـه المستعربون البريطانيون في حينه.

من اجل هذا، كان من الضروري ايجاد حقوق تاريخية عربية لمواجهـة الحقـوق التاريخيـة اليهوديـة، وان يمحوا من الذاكرة قرارات مؤتمر فرساي، وعصبة الامم، ووعد بلفور، واعادة كتابة تاريخ النـزاع، تـاريخ الحروب العربية ضد اليهود بعد قيام الدولة.

وفي سبيل انجاح ادخال هذه الأكاذيب إلى عقول مواطني العالم الغربي وحكوماته، كان يتوجـب عـلى العرب شن هجوم مباشر على الصهيونية بهدف زعزعة مكانتها كحركـة اخلاقيـة تـسعى لتحقيـق العدالـة. وكانت الادعاءات العربية الكاذبة كلها، تتركز على اظهـار حقيقـة ان خلـق دولـة إسرائيـل- كـان تـصرفاً لا اخلاقياً.لذا كان يتوجب عليهم القضاء تماماً على الشخصية الايجابية للحركة الصهيونية التي سـادت بـشكل خاص، في اعقاب الكارثة النازية.

ومن اجـل تحقيـق هـذا الهـدف الطمـوح، هـاجم العـرب إسرائيـل في كافـة الحلبـات، ووسـائل الاعـلام، والمؤتمرات، وسرعان ما اتضح لهم، ان افضل اداة بأيديهم، التي يمكن ان يصل نفوذهـا إلى كـل زاويـة في العـالم، والتي كانت تتمتع آنذاك بثقة دولية كبيرة، هي منظمة الامم المتحدة.

في الامم المتحدة، وفي حلبات اخرى، استعان العـرب بحليـف جديـد "الامبراطوريـة الـسوفياتية" التـي حلت محل الامبراطورية البريطانية المنهارة، فقد رعى الاتحاد السوفياتي نظام جمال عبـد النـاصر في مـصر، وانظمة دكتاتورية اخرى، وشأنه شـأن بريطانيـا مـن قبلـه، اسـتنتج الاتحـاد الـسوفياتي الـسابق ان وجـود إسرائيل يعتبر عقبة امام طموحاته الامبريالية في الشرق الاوسط، كان السوفيات فناني دعايات: لقـد علمـوا ودربوا كل المنظمات الارهابية المعادية للغرب، لبلورة تعبيرات مثل "داعية سلام"، و "تقرير مصير"، وهكذا اوجدوا الصيغة التي كان يحتاجها العرب للمس بالمكانة الاخلاقية لإسرائيل، في اوساط الرأي العام الغربي.

في عام ١٩٧٥، سيطر الممثلون السوفيات والعرب على المـؤتمر النـسائي الـذي رعتـه الامـم المتحـدة في مدينة مكسيكوسيتي، وارغموا المؤتمر على تبني قرارات تندد وتشهر بإسرائيل، وثـم عـرض هـذه القـرارات على الجمعية العمومية للامم المتحدة، التي اقرتها هي أيضاً.

لقد حقق العرب هدفهم عـن طريـق التخويـف الـسياسي والاقتـصادي - في تلـك الايـام كـان الابتـزاز النفطي العربي في ذروته، وبدا انه لا توجد قوة في العالم يمكن ان تصمد امامه. فكثير من الدول التـي كـان يجب ان تعلم الحقيقة، وعرفتها فعلا، رضخت رغم ذلك لقبول الأكاذيب.

وهكذا، في تشرين ثان ١٩٧٥، بعد ثماني سنوات فقط على هزيمتهم الكبرى في حرب الايام الستة، تمكن العرب من تحقيق اكبر نصر دعائي لهم: قررت الجمعية العمومية للامم المتحدة بأغلبية٧٢ صوتاً، مقابل٣٢ صوتاً، وامتناع٣٢ صوتاً، ان الصهيونية، الحركة القومية للشعب اليهودي، هي حركة عنصرية. وهكـذا نجـح العرب في تحقيق ما لم ينجح به اعتى اللاساميين في التاريخ.

بالطبع، ادرك العـرب ان قـوة إسرائيـل لا تكمـن في عـدد سـكانها، أو حجمهـا الجغـرافي، أو مواردهـا الطبيعية، فقد كان اعداؤها يفوقونها في كل هذه المجالات. لقد ادركوا ان ردع إسرائيل الحقيقي، هو قوتها الاخلاقية، وارادوا ان يمزقوا هذا الدرع بالذات. لذا حاولوا الصاق العيوب بالصهيونية، التي كانـت الـسبب في قيام دولة إسرائيل. علاوة على ذلك، يعتبر التراث اليهودي من مرتكـزات الحـضارة الغربيـة، ويـبرز دوره بشكل خاص، في تعريف مصطلحات مثل: العدالة، والحرية.

لقد عانى الشعب اليهـودي مـن الاحتقـار والاذلال والقمـع والعنـف، أكـثر مـن أي شـعب آخـر، ولم تنـشأ الحركـة الـصهيونية الا لتحقيـق الحريـة والعدالـة لـشعبها. وهكـذا، بعـد الفـي سـنة مـن العبودية، اصبح الشعب اليهودي حراً مستقلاً. هذا هو المعنى الحقيقي للصهيونية. في اواخـر العـرب العالميــة الاولى، وبعــد الحــرب العالميــة الثانيــة، كــان العــالم كلــه يعــترف بهــذه الحقيقــة.

شعوب كثيرة في العالم، ابدت اعجابها بالاصرار والجرأة اللذين تمتعت بها الحركة الـصهيونية، واعجبـت بمـا حققته هذه الحركة في بناء دولة حديثة على انقاض وطن قديم، وتجميع الشتات اليهودي مـن كـل انحـاء العالم، واحياء لغة قديمة. لقد احترمت هذه الشعوب قدرة إسرائيل على اقامة دولـة ديمقراطيـة وانـسانية، خلال تعرضها لحرب مستمرة وكراهية ليس لها مثيل في التاريخ.

حظيت، كل هذه الصفات بالتقدير، ليس في اوروبا والولايات المتحدة فقـط، انمـا في افريقيـا وفي دول نامية كثيرة اخرى، كانت الحركة الصهيونية وإسرائيل بالنسبة لها، نموذجاً يحتذى للاستقلال والتقدم.

هذه الحقائق، لم تغب عن عيون الانظمة العربية والشيوعية ايضاً، ولم تنبع هجماتهـم عـلى إسرائيـل من منطلق المصالح السياسية فحسب، اذ انهم كانوا يحقدون، في انفسهم على إسرائيـل، اذ لا شيء يمكـن ان ينزع القناع عن وجوه هذه الانظمة التي تختفي وراء اقنعة الشعارات مثل: "التحرر القومي" و"تقرير المـصير"، مثل وجود حركة تحرير قومية حقيقية. فمجرد وجود الحركة الصهيونية، كان من شـأنه تعريـة هـذه الانظمـة الاستبدادية. وبلغت هذه الانظمة ذروة الصفاقة عندما وصفت الحركة الصهيونية "بالعنـصرية" - تلـك الحركـة التي قال مؤسسها تيودور هرتسل ان معاناة الزنوج تقلقه ليس بدرجة اقل من معاناة اليهود انفسهم.

وبعـد حـوالي مائـة عـام مـن اقـوال هرتـسل هـذه، انقـذت إسرائيـل يهـود اثيوبيـا وهجـرتهم إلى إسرائيل.وبهذا اثبتت الحركة الصهيونية،بأنها الحركة الوحيدة في التاريخ، التـي تخـرج الـسود مـن افريقيـا، ليس لاستعبادهم، انما لتحريرهم.

في عام ١٩٨٥، وبمناسبة مرور عشر سنوات على قرار الامم المتحـدة بتعريـف الـصهيونية كحركـة عنصرية، نظمت ندوة خاصة في مبنى الامم المتحدة لمهاجمة هذا القرار. وثار غضب الـدول العربيـة ومنظمة التحريـر الفلـسطينية، كيـف نجـرؤ عـلى عقـد لقـاء سـياسي في "منطقـتهم"؟ حـاولوا منـع عقـد النـدوة، لكـنهم لم ينجحـوا. ومـما اثـار غـضبهم بـشكل خـاص، ان كـان أحـد

المتحدثين في الندوة، رحاميم اليعازرء، مهاجر جديد من اثيوبيا، الذي وصف بكلمات تمس شفاف القلب، الخلاص الشخصي الذي حظي به بهجرته إلى إسرائيل. وبعد ذلك اليوم هاجر إلى إسرائيل عشرات الالاف من ابناء طائفته.

ان اتهام الصهيونية، الكاذب، بالعنصرية، الذي يؤكده ابناء العالم العربي- هذا العالم الذي لا زال حتى اليوم يحتفظ بالعبيد السود (في دول الخليج)، والذي كان لعدة اجيال الرائد في مجال تجارة العبيد على طول سواحل افريقيا، والذي

يتحمل وزر اعمال القتل الفظيعة لمئات الالاف من السود في جنوب السودان على ايدي الاغلبية العربية - هذا الاتهام للصهيونية بالعنصرية، يجب ان لا يتعدى كونه نكتة تافهة. لكن العالم لم ينظر اليها هكذا. فالقوة المشتركة للعرب والسوفيات، منعتهم السيطرة الكاملة على الامم المتحدة والاستغلال اللامحدود لوسائل الاعلام التابعة لها. والحقيقة هي انه لولا حملة الأكاذيب في إسرائيل، التي شهدتها اروقة الامم المتحدة، فان هذه المؤسسة ليست مؤهلة لاصدار حكم في موضوع اخلاقي: لم تفعل الجمعية العمومية للامم المتحدة شيئا في العدوان السوفياتي على افغانستان الذي قتل خلاله ملايين الاشخاص: كما لم تحرك الامم المتحدة ساكناً، طيلة سبع سنوات كاملة لوقف اعمال القتل في العرب العراقية-الايرانية: كما لم تفعل شيئاً تجاه اعمال القتل في الشعب الكمبودي، والاعمال الفظيعة التي حدثت في اوروبا. ولم تتدخل نهائياً في مقتل مئات الالاف من المواطين في اوغندا، في ظل نظام حكم عيدي امين، وكذلك عجز الامم المتحدة في الصومال، اكبر شاهد عليها.

كل هذه الاعمال، تشكل خرقاً فاضحاً لاعلان مبادىء حقوق الانسان، تلك الوثيقة الاساسية التي من اجلها انشئت مظمة الامم المتحدة.

غير ان ايا من قرارات الامم المتحدة واعمالها الفاشلة لم يكن له ذلك التأثير القوي والعميق في الرأي العام الدولي، مثلما كان لقرار وصف الصهيونية بالعنصرية.

هناك من يصف هذا القرار بأنه مجرد هراء لا قيمة له، وبخاصة بعد قرار الغائه عام ١٩٩١، لكن هذا القول خطأ. اذ يجب ان نتذكر انه مضت١٦ سنة تمكن خلالها العرب من تعميق الوصف بالعنصرية، لدى الرأي العام العالمي، وحتى بعد الغائه رسمياً، لا زال مقبولاً لدى كثيرين من زعماء العالم وشعوبه.

اعود واكرر انه لم يسبق في التاريخ ان صادقت مؤسسة دولية على كذبة حقيرة كهذه، ضد شعب بأكمله.

في العهد الذي حدثت فيه الكارثة، يجدر بنا ان لا ننس ما الصقه النازيون بالشعب اليهودي، عندما وصفوه بأنه شعب ممقوت دنيء وحقير. ولولا غسيل الدماغ الذي قام به النازيون للشعب الالماني والشعوب الاخرى، لما نجحوا في تجنيد مئات الالاف من المتعاونين معهم لادارة آلة الابادة ضد اليهود، ولهذا

نجد ان الدول الاوروبية التي لم يتحقق فيها مثل هذا التعاون مع النازيين، نجا معظم اليهود فيها. فهذه قضية انقاذ يهود النمارك، معروفة جيدا: اعلن ملك الدنمارك انه إذا اضطر شخص ما من رعاياه لارتداء "الرداء الاصفر" (الذي يرتديه اليهود المتدينون)، فانه سيفعل هو ذلك نفسه. وتم بعد ذلك تهريب يهود النمارك بنجاح، إلى السويد المحايدة، وكذلك نجاة يهود بلغاريا بفضل تقصير الدعاية النازية في الوصول إلى الشعب البلغاري، الامر الذي جعله يقف إلى جانب اليهود.

بعبارة اخرى نقول، ان الافتراء، أو التشهير، مقدمة للقتل، أي بمثابة اذن بالقتل. شهروا به، وعزلو، عن بقية الشعوب، جعلوا حياة ابنائه مهدورة، في حين يحظى قاتلوه وقامعوه بالتأييد.

بعد خمسين سنة، يبدو التشهير بوصف الصهيونية بالعنصرية، هو نفس التشهير الذي اشاعه النازيون ونفس تلك اللاسامية، ولكن برداء جديد. ان اللاسامية لم تختف من العالم

بعد الكارثة، بل اصبحت أكثر حذراً في استخدام المصطلحات القديمة التي تثير الارتباك اليوم. لذا، فهم يغيرون المصطلح "اليهودية"، و"يهودي" الان بالقول "صهيونية" و "صهيوني". وبما انه- لا توجد في أيامنا هذه اسوأ من كلمة "عنصري"، تستخدم هذه الكلمة بدلاً من كلمات الاساءة القديمة مثل: "قتلة المسيح"، "المرابي"، و"المتآمر الدولي".

كل هذه التعبيرات اللاسامية تتستر الان تحت غطاء لغوي جديد، يسمح لكارهي إسرائيل بالقول: "انا لست لا ساميا"، انما لا صهيوني". أي وكان شخصا ما يقول:.نا لست معادياً لأمريكا، انما اعتقد فقط انه ليس للولايات المتحدة حق البقاء".

تمسكت الدعاية العربية بقرار الامم المتحدة المذكورة، طيلة ما يقرب من عشرين سنة، وبواسطته استطاعت ان تحك اكاذيب حول أي موضوع أو رأي يتعلق بإسرائيل.

وحتى الان، بعد ان الفي قرار الامم المتحدة بشأن الصهيونية، لا زالت الاراء التي تبلورت بفضله قائمة لدى كثيرين في العالم. فقد نجح العرب في تشويه سمعة إسرائيل، لدرجة تجعل كثيرمن في العالم يتجاهلون جرائمهم والصفح عن ممارساتهم الفظيعة، ليقولوا: يجب الاخذ بعين الاعتبار -المصائب التي لحقت بالفلسطينيين "والمعاناة الشديدة التي عاشوها".

لقد نجح العرب في ادخال اكاذيبهم التاريخية في وسائل الاعلام وجعلها تترسخ عميقاً في الرأي العام العالمي، تماماً مثلما خططوا للقيام به بعد حرب الايام الستة.

وهكذا، أحدثوا تحولاً مدهشاً اصبحوا هم انفسهم الجانب المتضرر الذي يطالب بالانصاف، فيما اصبحت إسرائيل كياناً غريباً عديم الاخلاق والمشاعر، كل اعماله تتناقض مع العدالة الانسانية، لان قيام هذا الكيان بالذات، هو ظلم لا يمكن التكفير عنه.

ما حدث، هو ان الحركة الصهيونية، التي اعتبرت في مطلع القرن العشرين، في نظر معظم شعوب العالم، حركة قومية اصيلة، اخرجت لدرجة كبيرة إلى خارج المعسكر، في نهاية هذا القرن.

فإسرائيل، هي الامة الوحيدة في العالم، التي تعتبر في نظر الرأي العام، مذنبة لكونها امة بالذات: انها ليست محقة في مطالبتها بحقها القومي على وطنها التاريخي، وتستحق العقاب لاستيطانها في قلب هذا الوطن، وهي مخطئة عندما تحاول حماية نفسها من اعداء يطمحون لخرابها.

تلك هي وجهة النظر التي بلورها الاستعماريون البريطانيون في عهدهم، لكنها مقبولة اليوم كحقيقة ناصعة في نظر الكثيرين الذين لا يرون من اين اتت ولا طبيعة النتائج التي ستؤدي اليها.

يدعي معظم السياسيين في العالم، بالطبع، انهم لم يتراجعوا عن الالتزام الاساسي الذي اعطى لليهود في مؤتمر فرساي. فهم يقولون، نحن لا نريد ابادة إسرائيل، انما نريد فقط المحافظة على التوازن المناسب بينها وبين العرب. غير انه خلف هذا الموقف تجاهلاً مدهشاً لمتطلبات البقاء الاساسية لإسرائيل.

فالولايات المتحدة التي تقيس عمقها الاستراتيجي بالاف الكيلومترات، تندد بإسرائيل التي تصر على التمسك بعمق استراتيجي يضم بضع عشرات من الكيلومترات. ويعلن العالم الغربي، صباح مساء، ان على إسرائيل ان تسعى لتحقيق السلام، وبنفس الوقت، يبيع إلى العرب اسلحة بكميات تفوق عشرات الاضعاف لما يبيعه لإسرائيل، كما ان الدول الاوروبية هي التي تزود اشد اعداء إسرائيل، بوسائل لانتاج الاسلحة السرية، ورغم المعرفة بأن هذه الاسلحة مخصصة لابادة إسرائيل تندد هذه الدول بإسرائيل عندما تحاول احباط هذا الخطر، مثلما فعلت في اعقاب الهجوم الإسرائيلي على المفاعل النووي العراقي. وهناك سياسيون كثيرون في العالم الفربي، يعرفون جيدا، انه دون هجرة يهودية، فان مستقبل إسرائيل يتعرض للخطر، ومع ذلك فهم مستعدون لعرقلة هجرة اليهود إلى إسرائيل، بغية استرضاء العرب.

لم يعد التنكر الدولي للصهيونية، يعبر عنه في ايامنا هذه، بالدعوة الصريحة للقضاء على دولة اليهود، بل بالرضى النفسي الذي تنطوي عليه مطالبة العالم كله حكومة بأن تتحمل اخطاراً لا تستطيع أية حكومة متزنة عاقلة، ان تقبل بها لنفسها أو لبلادها.

كما ان هذا التنكر يظهر المرة تلو الاخرى، كلما حاولت إسرائيل ان تدافع عن نفسها، شأنها شأن أية امة اخرى في العالم، تعتبر هي الدولة المعتدية، والنصيحة التي تسدى اليها هي ان تنتظر، دون حراك، الضربة القادمة التي ستحل بها.

ان هذا الالغاء التدريجي لحق إسرائيل في الدفاع عن النفس، يشكل تآكلاً مستمراً في تعهدات فرساي، فلو جردنا دولة ما من الوسائل المطلوبة للدفاع عن وجودها، فاننا نضع بذلك، حقها في البقاء، امام علامة استفهام. فالحق الذي لا يمكن حمايته، أو الدفاع عنه، لا بد ان يفقد مفعوله، في نهاية الطاف.

رأينا، على أية حال، ان التنكر المتزايد للمتطلبات الجفرافية، والسكانية، والعسكرية، للصهيونية، بلغ درجة كبيرة، نتيجة لعملة منهجية، كانت بدايتها في افعال المعارضين للصهيونية في العالم الغربي، في النصف الاول من القرن الحالي، واستمرت من خلال الدعاية العربية في النصف الثاني من هذا القرن. وكان الهدف من هذه الحملة، هو تقويض الايمان بالموقف الاخلاقي لإسرائيل، وهذا التقويض ألحق ضرراً لا يمكن تقديره بإسرائيل، بعدما تغلغلت شعارات الدعاية اللاصهيونية إلى اجزاء من الجمهور الإسرائيلي نفسه، الذين بدأوا يتضامون مع الادعاءات العربية.

غير ان الحملة السياسية العربية ضد إسرائيل، لم تكن لتحقق مكاسب بعيدة الاثر إلى هذا الحد، لو لم تكن منسجمة منذ البداية مع مصالح الدول الغربية، فالادعاء بأن ابتزاز تنازلات من دولة إسرائيل ينسجم مع المصالح الغربية، وبخاصة لصالح الولايات المتحدة بالذات، لا يختلف عن ادعاءات "المستعربين البريطانيين" خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، عندما حاولوا منع قيام الدولة اليهودية. وفي غضون عشرين سنة، تحولت بريطانيا من مؤيدة متحمسة للنهضة القومية اليهودية، إلى أحد المعارضيز الرئيسيين لهذه النهضة. واعتمد هذا التغيير على الافتراض بأن المصلحة البريطانية تستوجب الموافقة على المطالب العربية.

ومثلما ادعـى المـستعربون البريطـانيون بأنـه إذا منعـت بريطانيـا مجـرة اليهـود إلى "أرض إسرائيـل" ستحظى بود العرب، يدعي اليوم اتباعهم الأمريكيون، بأنه إذا نجحت الولايات المتحـدة في حمـل إسرائيـل على الانسحاب من الضفة الغربية وهضبة الجولان، والعودة إلى خطوط عام ١٩٦٧، فلن تحظى برد العرب فحسب، بل ستحل اساس النزاع في الشرق الاوسط، وتحقق سلاماً دائماً وتضمن استمرارية تدفق الـنفط إلى العالم الغربي.

الفصل الثالث

حقيقة القضية الفلسطينية

أول ضحايا حرب الخليج التي اندلعت عام ١٩٩١، لم تكن من البشر، انما كانت ابقاراً - ابقاراً مقدسة. فطيلة سنوات عديدة، ربى اعداء إسرائيل قطيعاً من هـذه الابقـار، مـسلمات سياسـية لا تجـوز مناقـشتها، وبنوا على اساسها نظرية مشوهة ومضللة حول طبيعة الشرق الاوسط، وموقع إسرائيل فيه.

ان الواقع المرير، الذي تمثل بالبابات العراقية، وهي تسحق ببشاعة دولة عربية، لا حول لهـا ولا قـوة، استطاع، ولو لفترة ما، ان يقوض عدداً من - المسلمات - (البقرات المقدسة).

كانت احدى هذه المسلمات، التي تضررت فورا مع الغزو العراقي، هي وجهة النظر القائلة، ان كافـة التقلبات التي يشهدها الشرق الاوسط، تنبع، بطريقة، أو بأخرى، مما سمي، بـ "القضية الفلسطينية".

قبل الغزو العراقي للكويت، كانت هذه الفرضية المقدسة، اساساً لكل الابحاث التـي تجـرى عـلى مـشاكل المنطقة وطرق حلها، اذ لم يمض يوم واحد تقريباً دون أن نسمع ناطقاً عربياً يقول ان القضية الفلـسطينية هـي "قلب" النزاع، أو "نواته" أو "جذره"، أو "العنصر الاساسي" له.

كان يتم التطرف إلى هذا النزاع دائماً وكأن الحياة في الشرق الاوسط، ستصبح فجأة، مثالية هادئة، لولا ذلك النزاع الوحيد والمثير للغضب، بين العرب وإسرائيل. وهكـذا نـشأ تـدريجياً الانطبـاع، بأنـه إذا تـم حـل القـضية الفلسطينية فقط، سيسود السلام في الشرق الاوسط على الفور.

لم تكن الانظمة العربية، فقط، تتبنى هذه النظرية. انما مجموعة كبيرة من حكومـات العـالم الثالـث، والكتلة السوفياتية، وساعدت الامم المتحدة على ترويج اهمية القضية الفلسطينية، ولم يمض وقت طويـل، حتى انضم الغرب، ايضا، لهذه الحملة.

ففي كل المناصب الدبلوماسية التي اشغلتها، منذ قدومي إلى واشنطن، كعضو في السفارة الإسرائيلية، عام١٩٨٢، وحتى تسلمي منصب نائب وزير في وزارة الخارجية، عشية الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠، اهتم دبلوماسيون غربيون من كافة الدول، وكافة المستويات، بأن يوضحوا لي، بأن السلام لن يتحقق في الشرق الاوسط، طالما بقيت القضية الفلسطينية دون حل. كلهم كانوا يؤكدون باصرار ان هذه القضية تشكل قلب النزاع في المنطقة.

وعندئذ، هاجم العراقيون الكويت، في آب ١٩٩٠، ومن الصعب تقدير حجم المفاجأة التي اصابت المجتمع الدولي لهذا الحادث، ففجأة تهاجم دولة عربية، دولة عربية اخرى، وتهدد دولة ثالثة دون أي علاقة مع القضية الفلسطينية، وكانت تعرية الوجه الحقيقي لصدام حسين، صدمة شديدة لعدد كبير من زعماء العالم، وبينهم اولئك الذين يعتبرون انفسهم اصدقاء لإسرائيل.

في العقد الذى سبق غزو الكويت، اعتبر صدام حسين عنصراً لا يشكل تهديدا للمنطقة، وصديقا للغرب ايضاً، الامر الذي جعل الدول الغربية تمنحه مساعدات عسكرية واقتصادية سخية جداً، وخلال الحرب بين العراق وايران، كتبت عدة صحف أمريكية، باقلام خبراء في شؤون الشرق الاوسط، تدعو لتفضيل العراق في الحرب، كسياسة مفيدة للمصالح الأمريكية، اذاً ليس من الغريب، ان يفاجأ الزعماء الغربيون الذين خدعوا طيلة سنوات، بهذه الفرضية، بعملية صدام حسين منه. ورغم ذلك، من الصعب الا نستغرب اندهاشهم هذا، اذ لم نكن بحاجة للانتظار، حتى يحدث غزو الكويت كي ندرك ان الشرق الاوسط مليء بالنزاعات والحروب التي ليس لها أية علاقة بالفلسطينيين، اذ ان العراق نفسها، كانت قد انهت، قبل سنة واحدة، حرباً طاحنة ضد جارتها ايران، تسببت في مقتل ما يزيد على مليون انسان، والحقت اضرارا جسيمة بالدولتين. كما ان استعراضاً سطحياً فقط، لتاريخ المنطقة، من شأنه ان يوضح لنا، ان شهية الحرب لم تكن ظاهرة مقتصرة على العراق وحدها. فمنذ

تأسيسها، في النصف الاول من هذا القرن، كانت جميع الدول العربية، تقريباً. متورطة في حروب، في محاولات انقلاب، في اعتقالات سياسية، ومؤامرات لا تحصى ضد جيرانها العرب وغير العرب. ففي شمال افريقيا، هناك نزاع بين ليبيا وتونس. وهاجمت ليبيا السودان. وفي عام ١٩٧٧، كادت ان تتورط في حرب مع مصر، عندما اجتازت دبابات ليبية الحدود المصرية - كل هذه كانت دولاً حاول القذافي اقناعها بوحدة اندماجية مع ليبيا- وكجزء من ايمانه ب"النظرية العالمية الثالثة" اعلن القذافي دعمه لحركات التحرر المختلفة في العالم، ومول محاولات عدة، للاطاحة بأنظمة حكم عربية - في مصر، والعراق، والمغرب، والسودان، وتونس، والصومال - وقتل زعمائها.

كما ان مصر بزعامة جمال عبد الناصر، حاولت في حينه اغتيال زعماء الأردن ولبنان والعراق. وفي عام ١٩٥٨، حاولت فرض حكمها على سوريا، وفي عام ١٩٦٢ شنت حرباً بشعة لاحتلال اليمن، استمرت حوالي خمس سنوات، وكذلك الجزائر والمغرب، ظلتا سنين طويلة على خلاف حول منطقتي كولومب بشار، وتنديف، ادى في النهاية، إلى حرب بينهما، عام ١٩٦٣. ومنذ عام ١٩٧٥، فصاعداً وجهت الجزائر عداها للمغرب، نحو الصحراء الغربية من منظمة "البوليساريو".

كما ان شبه الجزيرة العربية لم تكن هادئة. فحتى وقت ليس بالطويل، ظلت قوات سرية يمنية تدخل إلى اقليم ظفار بهدف اقتطاعه من سلطنة عمان.

وكذلك شمال اليمن وجنوبه، لم تتوقفا عن التآمر ضد بعضهما البعض، حتى دخلتا في حرب عامي ١٩٧٢،١٩٧٩. وفي عام١٩٩١، جرت محاولة لتوحيد اليمن، لكن الطرفين لم يكونا مرتاحين لهذ الوحدة. وفي عام ١٩٩٤،نشب حرب بينهما.وفي نفس الوقت يخشى الجانبان،العربية السعودية التي كانت في عهد ملكها الأول،، بن سعود، قد غزت اراضيهما، اضافة إلى اراضي كل من الأردن والعراق والكويت وبقية دول الخليج.

وفي حرب الخليج طردت العربية السعودية مئات الالاف من الرعايا اليمنيين، الامر الذي جعل من الصعب على الحكومة اليمنية استيعابهم.

وعلى الرغم من ان العراق هي التي غزت الكويت، عام ١٩٧٣، كانت الكويت تتعرض للازعاج المستمر من جانب العربية كسعودية بالذات، وكان الغزو العراقي الثاني في عام ١٩٩٠، هو فقط، الذي هدأ مخاوف الكويتيين من العريية السعودية - على الاقل، مؤقتاً. بالطبع، قامت العراق، قبل غزوها الكويت، بعدة اعمال عدوانية، فقد عملت سراً ضد دول عربية مختلفة، بينها عدوتها التقليدية، سورياء، وصديقتها المؤقتة في حرب الخليج - الأردن.

وفي عام ١٩٦٧، بلغ التوتر بين العراق وسوريا ذروته. اغلقت العراق انبوب النفط المار عبر الاراضي السورية، بينما ردت سوريا باغلاق حدودها مع العراق لمدة سنتين كاملتين. واستمرت المحاولات العراقية للاطاحة بنظام الحكم السوري طيلة حرب العراق - ايران، بسبب دعم سوريا للخميني.

وكذلك سوريا، كان لها مكانة محترمة بين الدول العدوانية، اذ هددت الأردن أكثر من مرة، وقتلت دبوماسييها، وزرعت قنابل في عمان، حتى انها غزت الاراضي الأردنية عام ١٩٧٠. وتعمل سوريا باستمرار، على تشويه سمعة رجال حزب البعث في العراق، وتسعى علانية وبلا هوادة، للاطاحة بنظام الحكم العراقي، خصمها الرئيسي في السيطرة على حوض الفرات، كما ان كل الاراضي اللبنانية تقريباً هي الان تحت السيطرة السورية. وهدف سوريا في لبنان، ليس السيطرة على حكومتها، لانها موالية لها اصلاً، وليس تعديل الحدود بين الدولتين، لان هذه الحدود كلها تحت السيطرة والسيادة السوريتين، انما تهدف إلى ابتلاع لبنان كلها. وكانت هذه المؤامرة قد حيكت منذ عام ١٩٤٦ عندما نالت الدولتان استقلالهما حيث اعلنت سوريا، آنذاك، رفضها الاعتراف بوجود دولة منفصلة عنها في لبنان. ولم تعترف بها. ومنذ مطلع السبعينات، بدأت سوريا تعلن ان لبنان هي جزء من "مجال دفاعها الاستراتيجي" وغمرت لبنان بجنودها. وقام الاسد بتصفية كل لبناني ابدى معارضة لوجود النظام السوري في لبنان، ولم يميز ابداً بين مسلم، أو مسيحي، أو درزي.

ومن اجل تبرير الاحتلال السوري للبنان، ادعى الاسد ان جيشه موجود في لبنان كقوة -حفظ سلام- بتكليف من الجامعة العربية (عندما استدعي في عام١٩٧٦ من قبل حكومة لبنانية يائسة)، وان امراً من الجامعة العربية فقط، يمكنه انهاء الوجود العسكري السوري في لبنان.

واخيراً، وفي عام ١٩٩١، عندما كانت الانظار كلها متجهة نحو الوضع في الخليج، عملت سوريا بلبنان ما لم تنجح العراق في عمله في الكويت - ابتلعت جارتها كلها، وغطت ذلك بمعاهدة صداقة صورية، بينها وبين لبنان المستسلمة.

ومثلما ادعى النظام السوري دائماً ان لبنان جزء لا يتجزأ من سورياء كذلك ادعى ايضاً ان "أرض إسرائيل" جزء لا يتجزأ من "سوريا الكبرى". وكل من يشكك في نوعية العلاقات التي ستسود بين سوريا ودولة فلسطينية بزعامة منظمة التحرير الفلسطينية، يجدر به ان يقرأ ما قاله حافظ الاسد، في احدى المرات، لياسر عرفات:

"إنك لا تمثل فلسطين مثلنا. يجب ان لا ننسى ابداً، حقيقة انه لا يوجد شعب فلسطيني، ولا كيان فلسطيني، توجد سوريا فقط، انت جزء لا يتجزأ من الشعب السوري، فلسطين هي جزء لا يتجزأ من سوريا. لذا، فنحن، السلطات السورية، الممثلون الحقيقيون للشعب الفلسطيني.

وبالفعل، ضربت سوريا بشدة منظمة التحرير الفلسطينية في معارك عام ١٩٧٦، في لبنان، وفي عام١٩٨٣ ايدت محاولة عسكرية ناجحة، قام بها فلسطينيون موالون لسوريا، لطرد منظمة التحرير الفلسطينية من طرابلس في شمال لبنان.

وفي ضوء كثرة الاعمال العدائية بين الدول العربية ذاتها، فلا عجب اذا، ان تزعج دول عربية، دولا اخرى، غير عربية، مجاورة لها.

- ليبيا، على سبيل المثال، احتلت جزءاً كبيراً من اراضي تشاد واقامت فيها حكومة صورية، إلى ان طردت من هناك في عام ١٩٨٦، على ايدي قوة فرنسية.

كما درب القذافي وحدات خاصة للاطاحة بانظمة حكم عدة دول افريقية، حتى طالت اعماله دولة السنغال البعيدة.

وتقول الحكومة المصرية، ان تورط القذافي في الارهاب الدولي، بلغ درجة ان استأجر، في حينه، القتلة للمس ليس بنظرائه من الزعماء العرب فحسب، انما لاغتيال زعماء غربيين، مثل مارغريت تاتشر، وفرنسوا ميتران، وهلموت كول.

وعلى غرار ليبيا، لم تكتف سوريا ايضاً بالعدوان على العرب فقط، اذ تطالب بالسيطرة على لواء الاسكندرونة التركي. لقد تمت تسوية هذا الموضوع عام ١٩٣٩، غير ان منطقة الاسكندرونة لا زالت تظهر في الخرائط السورية الرسمية، داخل حدود سوريا، واعلنت الحكومات السورية،اكثر من مرة، انها لا تعتزم التخلي عن المطالبة بهذه المنطقة. ويدرب السوريون جماعات كردية وارمينية متمردة على تركيا،يمدونها بالمال، حتى انهم ساعدوها على دخول الاراضي التركية.

وفي عام ١٩٩٤، تحدثت الصحافة عن توصل تركيا وسوريا إلى اتفاق سري بينهما يقضي بوقف النشاطات السرية السورية ضد تركيا، مقابل تسوية مشكلة اقتسام مياه نهر الفرات، لكن اياً كان، لا يستطيع تأكيد التوقيع على مثل هذا الاتفاق، أو ان سوريا ستلتزم بتنفيذه.

منذ حرب الخليج، تعتبر العراق الدولة العربية الأكثر عدوانية. غير ان صدام حسين، كان قد حاول الاستيلاء على الكويت، قبل ذلك بعشر سنوات، حيث حشد آنذاك، القوات على حدودها، واثار المطالب التاريخية العراقية بالكويت، وبدأ باصطناع الاحداث. على الحدود تمهيداً لغزوها. ولكن سنحت له آنذاك فرصة بدت أكثر اغراءً تمثلت بايران، التي بدت في نظره، بعد غياب الشاه، كدولة ضعيفة وجاهزة للسيطرة عليها. وقام صدام حسين بالغاء اتفاقية الحدود التي وقعها قبل ذلك بخمس سنوات مع شاه ايران، وسيطر على شط العرب المختلف عليه مع ايران. وهكذا اندلعت الحرب العراقية-الايرانية التي استمرت ثماني سنوات،أُستخدمت خلالها الاسلحة الكيماوية ضد السكان المدنيين، واوقعت خسائر بشرية تقشعر لها الابدان.

ان العنف في الشرق الاوسط، لا يعبر عنه بالاعمال العدائية بين الدول فحسب. فانظمة الحكم العربية خبيرة ايضاً في ممارسة العنف ضد مواطنيها، وتعتمد بشكل دائم على القوة، للمحافظة على بقائها. لذا، فليس من الغريب، ان تكون هذه الانظمة، انظمة دكتاتورية عسكرية، بكل معنى الكلمة.

ففي ليبيا، مثلاً، يمسك بمقاليد الحكم، عقيد، يعتمد على فئة قليلة من الضباط المخلصين له، وكذلك الوضع في الجزائر، اما العربية السعودية، فلا تكتفي بجيش واحد، بل بجيشين: - لكي يراقب احدهما الآخر، ويحميا العائلة المالكة من مواطنيها. وفي سوريا ايضاً، تسيطر على الحكم مجموعة من الضباط تعتمد على الاقلية العلوية، وتقمع أية معارضة من جانب السكان، مستخدمة ما لا يقل عن خمسة تنظيمات امنية واستخبارية منفصلة التي تراقب هي الاخرى بعضها البعض. وفي ظل نظام كهذا، لا تعتبر حتى المذابح الجماعية، ثمناً باهظاً في سبيل المحافظة على بقاء النظام: في عام ١٩٨٢، طوقت الدبابات والمدافع التابعة للرئيس الأسد مدينة حماة السورية، التي أُتهم سكانها بتأييد الاخوان المسلمين"، ودمرت وسط المدينة تدميراً كاملاً وقتلت ما بين ١٠-٢٠ الف مدني.

يجب ان لا نخطئ في فهم مغزى معظم المطالب اليمقراطية في دول مثل الجزائر والأردن، لان مصر هذه المطالبات، بشكل عام، الحركات الاسلامية المتطرفة، التي لا تربطها باليمقراطية أية رابطة. انها لا تسعى لتوزيع القوى السياسية والعسكرية في هذه الدول، على السكان عامة، انما للسيطرة عليها بصورة كاملة.

في ضوء هذه الصورة، يصعب علينا معرفة من يقمع أكثر - الحكام الحاليون لهؤلاء المواطنين ام اولئك الذين يطالبون "بتحريرهم".

ان العنف الداخلي، يمس بالعرب وغير العرب معاً. فالقومية العربية، تعتبر المنطقة الممتدة من المغرب وحتى الخليج العربي، منطقة عربية فقط، رغم انه تعيش في هذه المنطقة،

شعوب اخرى، وجماعات عرقية ودينية مختلفة - برابـرة، اكـراد، اقبـاط، مـسيحيون، دروز، يهـود، شركـس، واشوريون - يشكلون شريحة لا بأس بها من مجموع سكان المنطقة.

ان وجود هذه الاقليات غير العربية وغير الاسلامية، يمكن تحمله، بشكل عام، لكنهم لن يحصلوا ابـداً على المساواة مع العرب المسلمين، وسيظلون دائمـا يعتـبرون ابنـاء طبقـة ادنى، ومـن لم يـرضى بهـذ المكانـة المتدينة يتم قمعه بالقوة،وبوحشية احياناً.

في عام ١٩٣٣، قتل العراقيون اعداداً كبيرة من الطائفة الآشورية القديمة، ونهبوا ممتلكات آخرين، مما دفع الآف الاشوريين للفرار من العراق. وفي عام ١٩٤٥، اعلن الأكراد في شمال العراق عـن اقامـة جمهوريـة مستقلة، لكن الجيش العراقي قضى عليها فوراً. وحاول الأكراد الاعلان عن استقلالهم مرة ثانية، عام ١٩٦١، وقمعوا مرة اخرى بوحـشية، حيـث قتـل عـشرات الالاف، وبقـي حـوالي٢٠٠ الـف كـردي دون مـأوى. وفي السبعينات، طرد صدام حسين٢٠٠ الف كردي إلى ايران، وقام بتوطين مئات الالاف من الأكراد رغماً عـنهم، في مناطق قاحلة خارج وطنهم، على غرار ما فعل بطله نبوخذ نصر.

لقد تقرر في مؤتمر فرساي، مـنح حكـم ذاتي للأكـراد، لكـن البريطـانيين الغـوا القـرار، وضـموا منطقـة كردستان للعراق، بهدف السيطرة على النفط في منطقة الرمل الكردية، وادى عدم الاهـتمام الـدولي بتفيـذ قرارات فرساي الخاصة بالأكراد، إلى تمكين صدام حسين، من العمل كيفما شاء، ومواصلة جهوده الرامية إلى جعل منطقة كردستان عربية، وقد قمعت آخر محاولة استقلال اعلنها الأكراد، بعد هزيمة العراق في حـرب الخليج، على ايدي صدام حسين، بوحشية لا مثيل لها.

ولم يكن مصير الاقليـات الاخـرى في الـدول العربيـة افـضل كثـيراً، ففـي العـشرينات ابيـدت في سـوريا الاقليـة المـسيحية التـي كانـت تعـيش هنـاك، وبعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، طـرد عـشرات الالاف مـن الارمـن مـن اراضـيها. وبمقتـضى الاتفـاق الفرنـسي - الـسوري لعـام ١٩٣٦،

خصص حكم ذاتي للدروز في جبل الدروز في سوريا، حيث يشكلون الاغلبية هناك، لكن كل محاولاتهم لنيل هذا الحكم الذاتي، قمعت بشدة.

وفي عهد الرئيس جمال عبد الناصر، طردت مصر ابناء الطائفة المسيحية - اليونانية، وظلت تشجع اعمال العنف ضد المسيحيين الاقباط، في سنوات الستينات والسبعينات ايضاً، اما مصير المسيحيين السود في جنوب السودان، فقد كان مأساوياً بشكل خاص. فمنذ عام ١٩٥٦ فصاعداً بادرت الحكومات السودانية بسلسلة عمليات استهدفت تغيير ديانتهم بالقوة، من خلال تجويعهم المتعمد، وتسخيرهم للعبودية. وحسب احصائية حذرة، بلغ عدد القتلى في ذروة المعارك في السودان٥٠٠ الف قتيل، وهناك من يقول ان العدو تجاوز المليون. وفر مئات الالاف منهم إلى الدول الجاورة، رغم جهود العرب لالقاء القبض عليهم داخل حدود السودان.

على أية حال، ان ميول الحكام العرب، لاستخدام العنف، هو السبب الرئيسي لنشوب الحروب المستمرة ضد العرب، وغير العرب خارج حدودهم. وفي ضوء - القائمة الطويلة من اعمال العنف، من جانب الحكام العرب، ليس من الغريب ان يحاول الكثيرون الانتقام منهم باغتيالهم.

وفيما يلي قائمة تضم ضحايا العنف في العالم العربي:

١٩٤١- الرئيس السوري، حسني الزعيم، حكم عليه بالاعدام وأُعدم من قبل محكمة عسكرية بعد انقلاب موالٍ للهاشميين.

١٩٥٨- فيصل، ملك العراق، ورئيس وزرائه نوري السعيد، قتلا في الانقلاب الذي انهى الحكم الملكي في العراق.

١٩٦٠- هزاع المجالي، رئيس حكومة الأردن، قتل على ايدي عملاء مصريين عندما حاولوا اغتيال الملك الحسين.

١٩٦٣- الرئيس العراقي، عبد الكريم قاسم، قُتـل عـلى ايـدي جماعـة حـزب البعـث وضـباط وطنيـين اطاحوا بنظام حكمه.

١٩٦٤- اديب التشيشكلي، الرئيس السوري، قتل في جبل الدروز، انتقاماً لعمليات القصف التي تعرض لها الجبل في -عهده.

١٩٦٧- هواري بومدين، رئيس الجزائر، نجا من الموت في محاولة انقلاب عسكري.

١٩٧١- وصفي التل، رئيس حكومة الأردن، قُتل في القاهرة في شهر تشرين ثان، من قبل رجال منظمـة التحرير الفلسطينية.

١٩٧٢- الحسن ملك المغرب، نجا من هجوم جوي على قصره، قـام بـه طيـارون متمـردون مـن سـلاح الجو المغربي.

١٩٧٥- فيصل بن سعود، ملك العربية السعودية، قتـل بيـد ابـن شـقيقه، الـذي ألقـى القـبض عليـه وأعدم.

١٩٧٧-حمدي، رئيس اليمن الشمالي، قتل، على ما يبدو من قبل عناصر موالية للسعودية.

١٩٧٨- جشمي، رئيس اليمن الشمالي، قتل من قبل مبعوث يمني جنوبي حمل معه حقيبة ملغومة.

١٩٨١ انور السادات، رئيس مصر، قتل على ايدي عناصر اسلامية متطرفة، اثنـاء اسـتعراض عـسكري، جرى احتفالاً بالذكرى السنوية لحرب تشرين.

١٩٨٢- بشير جميل، رئيس لبنان، قتل بانفجـار قنبلـة وضـعت في مبنـى مقـر قيـادة حـزب الكتائـب اللبناني في بيروت.

١٩٨٤- العقيد القذافي، رئيس ليبيا، هوجم في مقره في طرابلس من قبل رجال -الجبهة الوطنية لانقـاذ ليبيا".

١٩٨٥- جعفر النميري، رئيس السودان، نجح في الفرار، اثناء محاولة انقلاب أطاحت بنظام حكمه

١٩٨٧ - رشيد كرامي، رئيس حكومة لبنان، قتل بتفجير طائرة الهليوكبتر التي كانت تقله في الجو.

١٩٨٩- رينيه معوض، رئيس لبنان، قتل بتفجير سيارة ملغومة، بعد توليه منصب الرئاسة ببضعة ايام.

١٩٩٢ - محمد بو ضياف، رئيس الجزائر. قتل من قبل مسلم متطرف، بعد اربعة اشهر من اعلانه الاحكام العرفية، بهدف منع الاسلاميين المتطرفين، من السيطرة على الدولة.

ومن اجل الاختصار، شطبت من القائمة احداثاً لا تعد ولا تحصى، من اعمال القتل والاغتيال نفذت ضد وزراء، وزعماء معارضة، وصحفيين، ومفكرين، ودبلوماسيين وموظفين، وحتى الاغتيالات التي وقعت في دول اسلامية صغيرة. أحد الباحثين اجرى دراسة في موضوع الحياة السياسية في الامارات الدكتاتورية التي تشكل دولة اتحادات الامارات العربية، في الخليج العربي، نشر نتائج دراسته في عام ١٩٧٧، جاء فيها:"الشيخ زايد، حاكم ابو ظبي، عزل شقيقه الشيخ شخبوط في عام ١٩٦٦، رشيد، حاكم دبي، عزل عمه في عام ١٩٣٢، احمد من ام القوين، اطلق النار على عمه الذي قتل والده صقر، من رأس الخيمة، طرد عمه في عام١٩٤٨، وفي اطار انقلاب داخلي، عام ١٩٧٢، تولى السلطة الشيخ سلطان مشارجه، بعد ان قتل شقيقه، خليل، على ايدي ابن عمه، الحاكم السابق، صقر بن سلطان. وفي ابو ظبي، الامارة الرئيسية في دولة الاتحاد، قتل ثمانية من ضمن١٥ اميراً من عائلة ابو فلاح.

صحيح، ان الاغتيالات في العالم العربي، خفت في السنوات العشر الاخيرة، لكن هذا الامر نابع من زيادة فعالية الانظمة الدكتاتورية. ففي سوريا والعراق، على سبيل المثال،

نجحت الأنظمة الحاكمة في السيطرة على البلاد، وحسنت جداً من قدرتها على إخماد أية شرارة معارضة داخلية بسرعة فائقة.

ان أحد الجوانب الأكثر ازعاجاً في حوادث سفك الدماء المستمرة في العالم العربي، هو ان هذه الأحداث لا يحكمها أي وازع أخلاقي. ومن هنا ينبع الاستعداد لاستخدام الأسلحة الكيماوية. فهنالك ثلاث حالات، على الأقل، من الحالات النادرة، التي أُستخدمت فيها الأسلحة الكيماوية بعد الحرب العالمية الاولى، وقعت في العام العربي:

* استخدام عبدالناصر غاز الخردل في اليمن في مطلع الستينات.

* قصف صدام حسين بقنابل كيماوية، الجيش الايراني خلال الحرب العراقية - الايرانية.

* قصف صدام حسين بالقنابل الكيماوية مدنيين أكراداً في بلاده، وقُتل ما لايقل عن الفي مدني كردي.

وفي الحرب العراقية - الايرانية هاجم الطرفان باستمرار سفناً تابعة لدول محايدة في الخليج العربي، وأثناء حرب الخليج، لوّث صدام حسين مياه الخليج بالنفط الخام، ووضع عن قصد، قوات عسكرية في مواقع أثرية. وهكذا أثبت صدام، انه حتى الموارد الطبيعية والثروات الأثرية التاريخية، لن تسلم من جرائم الحرب.

وبشكل عام، امتنع الحكام العرب عن استخدام العنف بهذه البشاعة ضد الدول الغربية. فقد ادركوا أن الغرب قوي، وان مهاجمة مصالحه، بصورة مباشرة، تنطوي على خطر جسيم. لذا استنتجواء أن الارهاب سيكون أداة أكثر فعالية وضماناً لتحقيق اهدافهم. لقد وفر الارهاب للانظمة العربية امكانية ضرب اهداف غربية، وفي نفس الوقت التنصل من كل مسؤولية.

إن دولاً عربية ذات سيادة، مثل سوريا والعراق وليبيا، وفرت عن طريق سفرائها، اسلحة ومعلومات وأموال، للمنظمات الارهابية التي عملت ضد الدول الغربية، وضد أهداف اخرى، حتى انها استخدمت في بعض الاحيان اجهزتها الاستخبارية، لتنفيذ هجمات

ارهابية. وهكذا حولوا الارهاب من ظاهرة محلية، تتميز بها السياسة الشرق اوسطية، إلى وباء دولي.

لذا يعتبر الارهاب الدولي. سلطة تصدير شرق أوسطية، والاساليب التـي يتبعهـا في انحـاء العـالم، مـن أساليب أنظمة العكم والمنظمات العربية التي توجهها: اختطـاف طـائرات، تفجـيرات، وضـع متفجـرات في السمارات، اغتيالات دبلوماسية، واحتحاز رهائن - كل هذه الأعمال كانت من اختراع الارهاب العربى، الذي تبنته منظمات ارهابية عالمية أخرى بعهدهم.

لقد انتشر الارهاب العربى في جميع أنحاء العالم، باستثناء دول الكتلة السوفياتية، وكانت ضـحاياه معرضـة لـلـهجوم في أي مكان - لندن، باريس، بانكوك، كراتشي، روما، فينا - حتى ادت السياسة المتشددة التي انتهجتهـا الولايات المتحدة تجاه هذا الموضوع، إلى تقليص هذا الوباء.

في الواقع، ليست كل دولة عربية هي، العراق أو سـوريا أو ليبيـا. هنـاك انظمـة حكـم عربيـة يمكـن وصفها، "مفترسة"، وهناك انظمة عربيـة أخـرى، "فريـسة" لهـا. هنالـك انظمـة عربيـة تميـل إلى الاعتـدال، وترغب في الابتعاد عن دكتاتورية الانظمة الراديكالية. لكن هذه الحقيقة لا تغير الـصورة العامـة البـشعة، التي يجب التعرّف عليها وفهمها، لكى نبلور رأياً متزناً عن السياسة الشرق أوسطية: العنف ظاهرة دائمة في الحياة السياسية في كل الدول العربية، وهو الأسلوب الرئيسى لتصفية الخصوم الداخليين، عرباً وغـير عـرب معاً.

حتى الآن، لم أتطرق لذكر النزاع بين إسرائيل والعرب، وذلك لسبب بسيط، هـو ان أيـاً مـن النزاعـات التي ذكرتها ليس له علاقة بالنزاع العربي - الإسرائـيلي. ورغـم ذلـك، تتركـز كـل المباحـات الجاريـة في اطـار "المسيرة السلمية" في الشرق الاوسط، على إسرائيل والفلسطينيين فقط. وهذه نتيجة مباشرة لعملية دعائية عربية، تستهدف صرف الانظار من الاسباب الحقيقيـة للعنـف والنزاعـات المـستمرة في منطقتنـا، وترسـيخ نظرية أن مصدر الاضطراب في المنطقة واحد فقط - هو القضية الفلسطيية.

ان الجهد الرئيسي لاخفاء الطابع الحقيقى للشرق الأوسـط، بُـذل في أروقـة الأمـم المتحـدة. إذ عنـدما وصلت إلى نيويورك لأول مرة، بصفتى سفير إسرائيـل لـدى الأمـم المتحـدة في عـام ١٩٤٨ تبـين لي،أن الأمـم المتحدة خصصت، سنوياً، دورتين كاملتين، للجمعية العمومية، كل دورة مدتها اسبوع، للتأكيد على مركزيـة القضية الفلسطينية في النزاعات الشرق أوسطية، سُمّيت الدورة الأولى "القضية الفلسطيية"، حيث تحدثت فيها دول عربية وغير عربية، الواحـدة تلـو الأخـرى، منـددة بإسرائيـل وجرائمهـا البـشعة في الفلـسطينيين، ودعتها لقبول الحل العادل للقضية الفلسطيية، ذلك الحل الذي اشتمل، بشكل عام، عـلى تفتيـت إسرائيـل على مراحل، أو تفكيكها فوراً.

أما الدورة الثانية للجمعية العمومية، المتعلقة بمنطقتنـا، فقـد سُـمّيت، "الوضـع في الـشرق الأوسـط". والغريب انه تبين لي، أن الكلمات التي ألقيت في الورة الثانية. كانـت مماثلـة لتلـك التـي أُلقيـت في الـورة الاولى، حتى أنها تكررت أحياناً كلمة، كلمة.

في عام ١٩٨٥، تساءلت، عن مدى حاجة الامم المتحـدة لعقـد دورتـين منفـصلتين؛ إذا كانـت تُلقـى في الدورتين نفس الكلمات، فلماذا لا نوفر الوقت ونعقد دورة واحـدة فقـط. وقلـت إذا كانـت هنـاك ضرورة لعقد دورة ثانية، فمن الافضل أن نناقش فيها الموضـوع الـذي عقـدت مـن أجلـه - أي "الوضـع في الـشرق الأوسط".

ولكى أوضح وجهة نطري بالضبط، وزّعت عـلى منـدوبي الـدول، قائمـة مفـصّلة اشـتملت عـلى اعـمال العنف التي وقعت في الشرق الأوسط في تلك السنة-١٩٨٥.

إذا اخــذنا بنظــر الاعتبــار كــون عــام ١٩٨٥، شــهد عــدداً قلــيلاً مــن اعــمال العنــف في الشرق الأوسـط، تبـدو القائمـة مقبولـة. إنهـا كتـالوج مـن التفجـيرات، والاختطـاف، والاغتيـالات، والاعـدامات، والانقلابـات، والنزاعـات الحدوديـة - كـل هـذا، إضـافة إلى الحـرب الداميـة التـي كانـت دائـرة آنـذاك بـين العـراق وايـران. وكانـت أهـداف اعـمال العنـف تلـك، الدبلوماسـيين،

الـصحفيين، الـسفارات، ومكاتـب الطـيران، وقتـل فيهـا أنـاس مـن كافـة القوميـات - عراقيـون، مغربيـون، سودانيون، ليبيون، أمريكيون، فرنسييون، بريطانييون، ايطالييون، سويسريون، هولنـديون، روس، يابـانيون، وكثيرون غيرهم. وفيما يلي قائمة لشهر واحد فقط.

<u>**قائمة أعمال العنف في الشرق الأوسط لشهر نيسان ١٩٨٥**</u>

١ نيسان - اكتشفت مصر مؤامرة ليبية ضد النظام المصري.

منظمة امل اختطفت طائرة لبنانية.

٢ نيسان - قتل قس هولندي في البقاع اللبنانى.

اعلن الجيش الشعبي في الصحراء الغربية، عن قتل (١٢٠) مغربياً.

٣ نيسان - قتل ٤، شخصا في معارك وقعت في صيدا في لبنان. العراق، تقصف طهران.

٤ نيسان - مهاجمة طائرة ركاب أردنية في أثينا من قبل عناصر منظمة "ايلول الاسود"

العراق تسقط طائرة ايرانية

عملاء سوريون يهاجمون السفارة الأردنية في روما

٦ نيسان - انقلاب السودان

١٢ نيسان-مقتل ٢٠ شخصاً بانفجار قنبلة وضعها رجال الجهاد الاسلامي في مطعم مدريد

١٣ نيسان - محاولة اغتيال إمام لبناني

مهاجمة كلانرة ركاب أردنية ئ اثينا من قبل عنامر منظمة.يلول الاسود-.

العراق تسقط طانرة ايرانية.

عملا. سوريون يهاجمون السفارة الأردنية في روما. انقلاب في السودان.

مقتل ٢٠ شخصاً بانفجار قنبلة وضعها رجال الجهاد الاسلامى في مطعم في مريد.

معأولة اغتيال إمام لبناني.

نجاة وزير نفط الامارات العربية من محاولة اغتيال. العراق تسقط طائرة ايرانية.

منظمة -أمل- تحاصر مغيمات لاجئين فلسطينيين ئ لبنان. تدمير مقر قيادة حركة -الرابطون- في طرابلس- لبنان. أسقطت العراق ثلاث طائرات ايرانية.

٣٠ نيسان - اكتشاف مؤامرة عراقية لمهاجمة سفارتي سوريا وليبيا.

من الصعب تجميع مثل هذه القائمة، التي تعتبر نموذجاً متميزاً لواقع مستمر وثابت، في مكان آخر من العالم، لأنه منذ عشرات السنين والشرق الأوسط، هو المنطقة الأكثر عنفاً، على وجه الكرة الأرضية.

ان معظم الأحداث التي اشتملت عليها القائمة ليست لها علاقة بإسرائيل، ولكن ليس من الضروري القول أن أياً من مراكز العنف هذه، يستحق مناقشته في الأمم المتحدة. وفي ضوء هذا الملخص الذي وزعته، احتج مندوبو الدول العربية: "بأي حق يتدخل المنوب الإسرائيلي بالشؤون الداخلية العربية؟ فكل ما أورده عبارة عن احدات وخصومات داخل "لاسرة العربية" ولا يحق للامم المتحدة مناقشتها في اطار - استعراضها للقضايا الدولية".

وعلى الرغم من أن الوضع في الأمم المتحدة تحسن بالنسبة لإسرائيل، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، واستئناف علاقاتها الدبلوماسية مع دول كثيرة بدءاًً من عام ١٩٨٩ فصاعداً، من الصعب ان نمحو الاضرار التي ألحقتها - المؤسسة بمكانة إسرائيل الاخلاقية في العالم.

في الأمم المتحدة، وفي وسائل الاعلام والدبلوماسية العالية عامة، عمل العرب على إخفاء العنف الداخلي فيما بينهم "تحت السجادة".

هنالك ما يدعو إلى العجب، بقدرة العالم على التركيز على النزاع العربي - الإسرائيلى الذي أودى بحياة حوالى ٧٠ ألف نسمة خلال خمسين سنة، وتجاهل نزاعات دامية في الشرق

الأوسط، أودت بحياة ملايين الاشخاص: الغزو المصري لليمن (٢٥٠ ألف قتيل)؛ الحرب الاهلية في الجزائر (مليون قتيل)؛ الحرب الأهلية فيي لبنان (١٥٠ألف قتيل)؛ الغزو الليبي لتشاد (١٠٠ ألف قتيل)؛ الحرب الأهلية في السودان (٥٠٠ ألف قتيل)؛ العرب العراقية - الايرانية (- من مليون قتيل)؛ وأخيراً حرب الخليج (١٠٠ ألف قتيل).

وفقاً لكل مقاييس، القتل والمعاناة، نجد أن أقل نزاع من هذه النزاعات، يفوق عدد القتلى فيه، ما سببه النزاع العربى - الإسرائيلي في خمسين سنة. وعلى هذا الأساس، يصعب على من لديه عقل يفكر، ان يقبل الادعاءات المشوّهة للحقيقة، وهي انه يمكن إنهاء كافة هذه النزاعات في الشرق الأوسط، إذا تم حل القضية الفلسطينية. ولكن، إذا لم تكن القضية الفلسطينية، فما هو سبب العنف المستمر في الشرق الوسط؟

أين يجب أن نبحث عن جذور الظواهر السياسية،والجتماعية،والنفسية،القوية التي يبو وكأنها حكمت بحرب دائمة، على أمة يبلغ تعدادما ١٥٠ مليون نسمة، كانت لها حضارة أثرت في الماضى على البشرية كلها؟ ولكي نجيب على هذا السؤال، يجب الانتباه إلى ثلاثة عناصر مركزية يتميز بها العالم العربي:

* أزمة الشرعية * الرغبة في الوحدة * العداء للغرب.

وكل واحد من هذه العناصر الثلاثة يغذّي الاخرين في دائرة سحريّة من الغليان والعنف، والعناهر الثلاثة، مرتبطة بتصاعد الاسلام المتطرف. منذ إنهيار الامبراطورية العثمانية، في أواخر الحرب العالمية الاولى، لم يتفق على مسألة: من هي الحكومة العربية الشرعية. ونتيجة لذلك، ظل أي هيكل سياسي أُقيم في العالم العربى، يرتكز على أرجل هشة. فغياب الامبراطورية العثمانية التي استبعدت العرب مئات السنين، ترك العالم العربي عبارة عن مستعمرات بريطانية وفرنسية.

كانت المصالح الاستعمارية، مادية بالدرجة الاولى. وعندما اتضح لبريطانيا وفرنسا عدم قرتها على السيطرة بصورة مباشرة على المناطق العربية الواسعة، حاولنا منح الاستقلال

"لدول" عربية، حديثة التكوين، شريطة عدم عرقلة نشاطاتها الاقتصادية، وبخاصة كل ما يتعلق بتزويد النفط. وقامت الدول العظمى بتقسيم المنطقة العربية التي كانت تحت سيطرتها إلى دول كثيرة (تضم الجامعة العربية ٢١ دولة)ء بحيث كانت كل واحدة من هذه الدول اصغر من ان تصبح دولة قوية بقدراتها الذاتية. وتم تسليم السيطرة الطلقة على هذه "الهيئات" الجديدة لعائلات عربية صديقة، على افتراض ان تقيم - العائلات علاقات جيدة مع أصحاب الجميل الاوروبيين. ومكذا نشأت في العالم مجوعة من المملكات من الغرب وحتى العراق.

في الشرق الأوسط، لم يكن، بالطبع، تقليد مماثل للنظرية الغربية الخاص "بالدولة القومية" التي توجد المميزات التي تبرر وجود دول منفردة. فالفرنسيون، مثلاً، يعرفون جيداً، الفوارق التي تميزهم عن الاسبان، والبريطانيين والالمانيين، وهم فخورون بهذه الفوارق.

ان الدولة القومية الاوروبية، على غرار "مدن الدولة" اليونانية والايطالية التي سبقتها استحسنتها الشعوب الاوروبية، لان معظم الاوروبيين يعتبرون أنفسهم ملزمين، بشكل طبيعي، بالولاء والانصياع لحكومة دولتهم، مهما كان نوعها. غير ان كثيرين من العرب يعترفون بأن الوضع مختلف في بلدانهم؟ فهم ملزمون بالدرجة الاولى، بالولاء للعائلة والعشيرة، ومن ثم للقومية العربية بشكل عام. لذا فان نظرتهم لوجود الوحدة السياسية داخل المنطقة العربية، تقسيم ظالم، ليس طبيعياً، ولا مرغوباً، للأمة العربية الكبيرة. ويمكن الافتراض، بأن هكذا أيضاً، سيشعر الأمريكيون فيما لو فرض عنصر أجنبي، على الولايات المتحدة الأمريكية، تفكيكها إلى دول مستقلة.

على هذا الأساس، نشأ منذ البداية توتر شديد في الدول العربية بين المواطنين والحكام. فالملك الذي توجته دولة عظمى أوروبية، يطالب رعاياه بالولاء له، في الوقت الذي كانوا يستطيعون منحه هذا الولاء، في أفضل الحالات، في ظل مشاعر متضاربة.

ومكذا، أصبح الملك، على أية حال، ليس زعيماً قومياً يعبّر عن الارادة العامة لشعبه، إنما سليل عائلة قوية إقطاعية. واصبحت النظرة العامة اليه، كمن هو معني فقط باستغلال اجهزة الدولة، لتأمين حياة مرفهة له وللمقربين منه، واحياناً بمساعدات سخية من الاجانب، المعنيين ببقاء نظام حكمه. ان هنا التنكر، من جانب العرب لملوكهم ولدولهم وللحدود التي تفصل بينها، هو، على أية حال، نتيجة لازمة عامة ناجمة عن اعدام الشرعية السياسية.

وبما أن الجمهور العربي سلّم، ظاهرياً، فقط، بوجود الحكومات المفروضة عليه من الاوروبيين، ولما كثرت المطالبات باستبدال "أنظمة الحكم الخائنة"، بأنظمة "عادلة" اخرى، تستمد شرعيتها من نسب الأجداد أو من الاسلام النقي، اعتقد الحكّام العرب، أنه، بالقوة فقط، يمكن قمع هذه الرغبات والمطالبات باستبدال انظمة حكمهم. وبما أن كل طلب من هذا النوع يكمن في طياته خطر التمرد أو الانقلاب على النظام، نشأ في الدول العربية وضع مزمن من عدم الاستقرار.

ومع مرور الوقت أصبحت لدى الانظمة العربية خبرة في مجال قمع الجماهير والسيطرة عليها، في حين يظهرون تجاه الخارج.ان وضعهم مستقر. غير أن المشكلة الأساسية ظلت قائمة - عدم وجود شرعية سياسية في كل ما يتعلق بأنظمة الحكم و الحدود التي تفصل بين محتلف الدول العربية.

لهذا السبب، نجد الزعماء العرب مشغولين باستمرار، ليس بحماية أنفسهم من الانقلابات والاغتيالات، فحسب، إنما بكل انواع محاولات "الاندماج"مع دول أخرى (لأن هذه المحاولات تنطوي بشكل عام، على محاولة سيطرة حكومة على اخرى، وسلبها شرعيتها).

مكذا، حاول عبدالناصر، في حينه، دمج مصر وسوريا والعراق في كيان سياسي واحد (الجمهورية العربية المتحدة)؛ كما حاولت العراق الاندماج مع الأردن وابتلاع الكويت؛ كما أن القذافي عرض نفسه على تونس، والسودان وحتى المغرب: بينما ابتلعت سوريا لبنان كمرحلة انتقالية في الطريق لتأسيس سوريا الكبرى.

كل تلك المحاولات الاندماجية، أُصيبت بفشل ذريع، لأن أي حاكم عربي، لم يكن مستعداً للتنازل عن اقل ما يمكن من السلطة، (باستثناء الضم الفعلي السوري للبنان بالقوة، عام (١٩٩١).

ان هذه المحاولات، تثبت صحة نبوءة لورنس العرب الذي قال: "ستمضي أجيال عديدة حتى تتمكن دولتان عربيتان من الاتحاد معاً بمحض ارادتهما".

ان الشعور بالاحباط لدى العرب، بسبب عدم قدرتهم على الاتحاد وتثبيت وضعهم السياسي، كان السبب وراء صيحة الاكبار التي سادت الشارع العربي من المحيط إلى الخليج، عندما غزا صدام حسين الكويت. إذ أن احتلال صدام حسين أحيا الأمل لدى الجماهير العربية، بأن ثمة زعيماً قوياً ينهض ليوحّد العالم العربي كله، تحت حكمه، (لم تكن بالطبع، هذه الصيحة صادرة أيضاً عن الحكام العرب، الذين خشي كل واحد منهم ان يكون الضحية التالية لصدام حسين.

كانت الحدود الجائرة التي رسمها الاوروبيون على خريطة العالم العربي، في نظر غالبية العرب، أكثر وأشد ظلماً من كل الاعمال الوحشية التي ارتكبها صدام ضد الكويتيين. لقد هتفوا، لبسمارك العربي، الذي حاول ان يمحو، بضربة واحدة، هذه الحدود، وبالغوا في احترامه وتقديره، لأنه استخدم القوة لاعادة توحيد العالم العربي من جديد.

برز هذا الشعور بشكل رئيسي، في اوساط الفلسطينيين الذين يعيشون في الضفة الغربية وغزة والأردن، الذين لم تدرك الدول الغربية مغزى حماسهم لدمار الكويت. كانت الكويت في نظر الفلسطينيين، تمثل رمز التدخل الاستعماري في الشسؤون العربية، في لبنان وإسرائيل أيضاً.

وبدا في نظرهم ان تدمير الكويت الموالية للغرب، خطوة اولى نحو تدمير إسرائيل. وتبين من استطلاع للرأي العام أُجري في آب ١٩٩٠، بعد وقت قصير من غزو الكويت، أن ٨٠% من الفلسطينيين يؤيدون صدام حسين. وفي وقت لاحق، هتفت الجماهير الفلسطينية:

"صدام، نحن معك حتى النصر"

ان الاحلام بشأن استعادة الهيبة العربية المفقودة، والاحتجاج الشعبي على وجود الحدود الاستعمارية المصطنعة، شكلت الأسس التي قامت عليها القومية العربية الشاملة. والتي أصبحت حركة قوية في العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية. كانت هذه القومية تطالب بتصحيح الضرر الذي أُلحق بالعالم العربي، من خلال إلغاء الحدود القائمة بين الدول، وتوحيد العالم العربي في اطار دولة عظمى قوية من "المحيط إلى الخليج". كان المعنى العملي لهذه الايدويولوجية، هو ضرورة البدء بازالة كافة المملكات التي تمثل، ا كثر من غيرها، إستغلال واذلال العالم العربي، على أيدي الغرب.

وهكذا، اطيح بالانظمة الملكية، الواحد تلو الآخر بانقلابات عسكرية أتت إلى الحكم بزعماء مثل جمال عبدالناصر، والقذافي، وصدام حسين، الذي عمل كل واحد منهم، من جانبه، الاطاحة بانظمة ملكية أخرى.

لم تبق ثفي عهدنا هذا سوى عدة أنظمة ملكية، (في العربية السعودية، الأردن، الامارات العربية في الخليج، والمغرب)، يتهددها خطر دائم، لانها تعتبر بقايا أخيرة من عهد يوشك أن ينتهي.

بما أن حجر الأساس لنظرية الوحدة العربية الشاملة، هو الرغبة في إلغاء كل الحدود، نجد أن لدى كل حكومة عربية تحمل هذه النظرية، قناعة بأن الشرق الأوسط، كله، أو على الأقل جزء كبير منه، عائد لها، ولها فقط، كان هذا هو الدافع وراء الغزو المصري لليمن عام ١٩٦٢، (كان عبدالناصر بحاجة إلى موطيء قدم في شبه الجزيرة لتحقيق احلامه التوسعية)،ووراء حروب صدام حسين "لتحرير الأراضي العربية" في ايران والكويت. وهذا دائماً، هو التفسير "لمعاهدة الصداقة" التي وقعت بين سوريا ولبنان، في أيار ١٩٩١، والتي أدت إلى سيطرة سوريا على كل الاراضي اللبنانية.

في أيلول ١٩٧٠، حاولت سوريا غزو الأردن والاستيلاء على أراضيها، ونجت الأردن من هذا الخطر وحافظت على استقلالها بعد أن هددت إسرائيل بالتدخل.

ان نظرية القومية العربية والوحدة العربية الشاملة، ترفض في الواقع، رفضاً باتاً، التقسيمات السياسية في العالم العربي، لكنها فشلت حتى الآن في محاولاتها شطب الحدود التي فرضتها الدول الغربية.

يبدو أن نظرية القومية العربية حققت فعلياً نبوءة لورنس العرب التشاؤمية عندما قال:"لم تنجح أبداً في اختيار حاكم للدولة العربية الوحدة، التي تنادي بها".

بالطبع، لم ينقص الوحدة العربية زعماء، فهذه الخريطة الليبية الرسمية، على سبيل المثال، يظهر فيها القذافي وهو باسط ذراعيه مطوّقاً العالم العربي كله. وكان القوميون العرب في كل من مصر وسوريا والعراق، يريدون دائماً ان تكون، مصر أو سوريا أو العراق، هي الدولة العربية العظمى المستقبلية. ومما يدعو للسخرية، أن الخلافات الداخلية بين الحكومات التي تمثل فكرة الوحدة العربية الشاملة، كانت دائماً العائق الرئيسي، في الطريق لتحقيق - الوحدة. وهذا هو السبب الذي جعل الخصام بين الأسد، وصدام حسين، من اشد الخصومات في العالم العربي. فالصراع بينهما يدور حول السؤال: من منهما يبتلع الآخر لكي يتزعم الامبراطرية الجديدة، التي يزيد الاثنان إقامتها دون تحفظ.

في العقد الأخير، خبت، إلى حد ما، شعلة الوحدة العربية "الكلاسيكية" التي تبناها جمال عبدالناصر، لتحل محلها طموحات محدودة أكثر، من قبل زعماء عرب ارادوا السيطرة أولاً على جزء واحد محدود من العالم العربي، مثل، شمال افريقيا، الخليج العربي، أو الهلال الخصيب. لقد ضعف الحماس للوحدة العربية الشاملة، نوعاً ما، لأنه بعد غياب عبدالناصر، لم يظهر عربي له نفس القوة، ولأن المطالبين بالزعامة أصبحوا يعيدون بعضهم البعض.

غير أن الرغبة في الوحدة العربية الشاملة، ستعود للظهور من جديد، في حالة ظهور زعيم عربي قوي بما فيه الكفاية، يستطيع التلويح بضمان "الوحدة العربية"، كما أثبتت ذلك

ردود الفعل الحماسية للجماهير العربية، في أنحاء الشرق الأوسط، في الأيام الأولى التي تلت احتلال صدام للكويت.

إن جذوة الحنين لتحقيق حلم الوحدة العربية، لا زالت متوهجة. إذ عندما تفشل القومية العربية في تحقيق هذا الهدف، تبرز، فوراً، قوة أخرى لتملأ الفراغ، وكلما ضعفت القومية العربية، كلما تعززت قوة الأصولية الاسلامية. وها هي قوتها تزداد في كل مكان.

أحياناً، تعمل الأصولية الاسلامية، يداً بيد، مع القومية العربية، لكنهما، بشكل عام، تتناقضان مع بعضهما البعض (مثلما هي الحال في مصر وسوريا والجزائر). منذ ثورة الخميني في ايران، أصبحت الأصولية الاسلامية معروفة لدى الغرب، أكثر من القومية العربية. ففي اعقاب احتجاز الرهائن في السفارة الأميركية في طهران عام ١٩٨٠، تلك القضية التي أدخلتها وسائل الاعلام إلى كل بيت في الولايات المتحدة الاميركية، لمدة سنة أو يزيد، أصبحت الحركة الاسلامية المتطرفة، في نظر العالم الغربي، قوة مجنونة خطيرة وممقوتة.

وفي الولايات المتحدة، والعالم الغربي عامة، ينظرمن بجديّة لتهديدات ايران بالقضاء على إسرائيل، والغرب، في حين ينظرون إلى التهديدات الصادرة عن القوميين العرب بعدم اكتراث، ويعتبرونها مراءاة، أو "تلميع سيوف". وهذا الفارق، يوضح أيضاً، استعداد الغرب لاعتبار حركة "حماس" خطراً حقيقياً على إسرائيل وعائقاً أمام السلام، في حين أُعتبرت منظمة التحرير (حتى قبل اتفاق أسلو عنصراً معتدلاً، وقليلون فقط، هم الذين ينظرون بجدية لتهديدات زعمائها (التهديدات التي سُمعت بعد اتفاق اوسلو أيضاً)، بشأن رغبتهم المستمرة بابادة إسرائيل في يوم من الأيام.

إن هدف الاسلام الأصولي، هو سيطرة الاسلام على العالم كله، والحاق الهزيمة بالكافرين غير المسلمين في حرب مقدسة "الجهاد". والاهداف الفعلية الفورية لهذا الجهاد، ليست هي الدول غير الاسلامية القوية التي يصعب عليهم مهاجمتها بصورة مباشرة، إنما الدول الاسلامية، بالذات. لذا يطمح الاصوليون إلى الاطاحة بكل الحكومات "الكافرة" في

(٤٠) دولة اسلامية، وشطب هذه الدول نهائياً الحكام العرب، العلمانيون، بمن فيهم العسكريون النين يسيطرون على أنظمة الحكم القومية التي تنادي بالوحدة العربية. فليس من الغريب إذاً، أن تبدي هذه الأنظمة عداءاً شديداً للمتطرفين الاسلاميين - أُعتقل عشرات الآلاف من أعضاء هذه الحركة، عُذّبوا وقتلوا، في دول عديدة في انحاء العالم العربي. السيد قطب، من كبار المنظّرين الاسلاميين، قضى مدة عشر سنوات في السجن المصري، في عهد عبدالناصر، قبل ان يُعدم في عام ١٩٦٦، كتب يقول: - ان الغاية من الجهاد هي حماية دين اللـه وشرائعه، وانقاذ البلاد الاسلامية فقط، وليس أية بلاد أخرى... ان كل بلاد تحارب الايمان، وتمنع المسلمين من القيام بواجباتهم الدينية، أو لا تطبق دين الاسلام، تصبح "ساحة حرب"، يجب محاربتها، حتى لو كان سكانها من ذريّة المسلم المؤمن "أو من أبناء قوميته".

فكرة أخرى مماثلة، أعرب عنها عبدالسلام فرج (الذي أُعدم هو أيضاً)، منظّر الجماعة الاسلامية التي اغتال رجالها أنور السادات في عام ١٩٨١ : هنالك من يقول ان على الجهاد ان يركّز جهوده، في أيامنا هذه، على تحرير القدس. صحيح أن تحرير الأرض المقدسة، هو أمر ملزم لكل مسلم... لكن علينا ان نؤكد بأن الحرب ضد العدو القريب منك، مقدمة على الحرب ضد العدو الأبعد. خاصة وأن الأول ليس فاسداً فقط، إنما هو أداة في خدمة الامبريالية... في كل الدول الاسلامية، يسيطر العدو على مؤسسات الحكم. ان العدو يتمثل في جماعة الحكام الحاليين، لذا من واجبنا محاربة هؤلاء الحكام".

ان دعوة الأصوليين الاسلاميين لاستعباد العالم كله من قبل الاسلام، تبدو هدفاً بعيداً جداً، ولكن إذا أضفنا إليها تمسكهم بالقيم الدينية، وضمان الجنة للمؤمنين، تنشأ أمامنا مؤامرة عظيمة.

ان مطالبة الاسلامين المتطرفين، المفاجئة بانتهاج الديمقراطية في العالم العربي، تدل على ان لديهم قناعة بقدرتهم على كسب تأييد الجماهير العربية في تأييد الانتخابات. وفعلاً، تبينت صحة موقفهم هذا في أكثر من مرة: في عام ١٩٩٢، أُضطر الجيش الجزائري لفرض احكام

عسكرية على الدولة، بهدف الغاء نتائج الانتخابات، التي حققت في الحركة الاسلامية انتصاراً واضحاً.

بالنسبة للحركة الاسلامية، شأنها شأن حركة القومية العربية، تعتبر الايديولوجيـة، هـي المفتـاح لفهـم مجريات الاحداث. فالحرب العراقية - الايرانية، التي كانت في بـدايتها حربـاً دفاعيـة، تحوطـت مـع مـرور الأيام إلى صراع حول تحرير الاماكن المقدسة في العربية السعودية وفي إسرائيل، التي يسيطر عليهـا "كفـار" (رغم ان العربية السعودية تطبق احكام الشريعة الاسـلامية، تعتـبر الجماعـة الوهابيّـة، في نظـر كثـير مـن المسلمين، جماعة كافرة، لأنها، حسب رأيهم لا تطبق الاسلام في كثير من الأمور الأخرى).

كما أن تآمر القذافي المستمر ضد الدول الافريقية لـه علاقـة أيـضاً بالايديولوجيـة الاسـلامية، وكـذلك الامـر بالنسبة للكراهية الشديدة لأمريكا، التي يعتبرها "الشيطان الأكبر" الذي يحاول اغواء العـالم الاسـلامي، لتحييـده عن الطريق المستقيم، طريق الايمان. وكان هذا هو الدافع أيضاً وراء أعمال عنف كثيرة أخرى نفـذها اسـلاميون متطرفون في انحاء العالم.

وبسبب الخوف من ثورة اسلامية في العربيـة الـسعودية، قُتـل حـوالي ٤٠٠ حـاج ايـراني في مكـة عـام ١٩٨٧، ودُمرت مدينة حماة السورية عام ١٩٨٢.

لقد أدى الصراع بين الحركـة الاسـلامية المتطرفـة، والقوميـة العربيـة، حـول الـسيطرة عـلى الفـرد العـربي، وتأثيرهما الشديد على السياسة العربية، إلى نتائج مأساوية ليس بالنسبة للعرب والمسلمين فقط. إذ أنه بـسبب رفض هاتين الحركتين الاعتراف بحقوق الجماعـات الاخـرى، فقـد رُفـض أي طلـب يتعلـق باسـتقلال سـياسي أو بالحريات الدينية، لمن هم ليسوا عرباً أو مسلمين.

صحيح أن العناصر المسيطرة في العالم العربي غير قادرة على حسم مسألة مـن الـذي يجـب ان يحكـم المنطقة الموحّدة، لكنهم يجمعون على ضرورة ان تكمن المنطقة كلها عربية واسلامية، دون تحديد.

لقد أُقتطعت هذه النظرية من التفسير المتشدد للقرآن الذي يقسّم العالم إلى منطقتين: "دار الاسلام، ودار الحرب". كما أن القرآن لا يترك مجالاً للشك، بالنسبة لاستعلاء المسلمين على الكافرين في المناطق الخاضعة لسلطة الاسلام، في حين يكلفهم بادارة حرب مستمرة ضد الكافرين في الديار الأخرى.

وبما أن العرب يعتبرون أنفسهم اوصياء على الاسلام منذ فجر أيامه الأمل، لا يعتزمون التنازل عن هذه المكانة. لكننا شاهدنا أن في المنطقة الممتدة من المحيط الأطلنطي حتى الخليج العربي،الذي يدعي العرب أنها أرضهم هم فقط، شعوباً وديانات أخرى، غير مستعدة للاعتراف بتفوق العرب المسلمين. وهؤلاء يعدون بالملايين، ويشكلون جزءاً هاماً مما اعتاد العرب على تسميته، بالعالم العربي. غير انه، في نظر القوميين العرب، والاسلاميين المتطرفين، لا تشكل هذه الأقليات أية عقبة. أي، أن أبطال العالم العربي الموحّد، سيفرضون عليهم، رغم أنوفهم، السيادة العربية الاسلامية.

وعلى هذه الخلفية فقط، يمكن أن نفهم رفض العالم العربي لوجود إسرائيل. فطيلة مئات السنين، عانى اليهود من الاذلال والمطاردة، على أيدي العرب، وكانوا يقتلون أحياناً كما كان يحدث لأقليات أخرى تعيش في اطار المجتمع الاسلامي. ولكن الشعب اليهودي، كان هو الوحيد، من بين كل هذ الأقليات في العالم العربي، الذي نجح في التغلب على هذا القمع، وتحقيق استقلاله. علاوة على ذلك، استطاع اليهود تأسيس حضارة "أجنبية" في قلب المنطقة العربية، وفصلوا بين جزأيها الشرقي والغربي. والأسوأ من ذلك كله،:هو أن الشعب الذي أحدث هذا التحدي الكبير، لم يكن عربياً ولا مسماً. لذا فعداء العرب الحالي لإسرائيل، تعود جذوره لعداء سابق، قديم جداً وأساسي، وان قيام دولة إسرائيل، عزز هذا العداء فقط.

إن توأم التطرف العربي - القومية العربية، والاسلام الأصولي - هما الجذور الحقيقية للنزاع في الشرق الأوسط. فكراهية الأجانب، التي يغذيها هذان التياران، ورغبتهما في التوسع وعداؤهما المتوقد للنظام العالمي الحالي - كل هذه الامور، لها دور كبير في إذكاء العنف الذي يسود منطقة الشرق الأوسط، وينطلق منها إلى أنحاء العالم.

هنالك، عدد كبير من العرب والمسلمين في الشرق الأوسط، لا يحبذون، في الواقع، السير في طريق الآلام التي ترسمها لهم هاتان الحركتان، لكن من مؤيدي التعصب الديني والقومية العربية، يُرعبون من حولهم، ويمنعون، أحياناً، ظهور زعامات قد تكون لديها الجرأة على العمل ضدهم، بوضوح واصرار.

كما أن غياب التقليد الديقراطي عن الساحة الشرق أوسطية، يخنق ويوقف أي تطوّر لتوجهات من شأنها كبح جماح التطرف العربي - الاسلامي.

لم يكن مصادفة، فشل الافكار السياسية الغربية في العالم العربي. إذ أن رفض النظام اليمقراطي وقيمه هو جزء من العداء العام للغرب، الذي تمتد جذوره عميقاً، لدرجة يمكن ان نعتبره عنصراً رئيسياً ثالثاً للصراع في الشرق الأوسط.

ان هذا العنصر، هو الأقل إدراكاً له، من كافة القوى المثيرة للتوتر في العالم العربي، مع أن لهذا العداء وزناً حاسماً في الجانب الدولي، للنزاعات في الشرق الأوسط.

ولكي نفهم تأثير العداء للغرب، في المجتمع العربي، على السياسة في الشرق الأوسط في أيامنا هذه، يجب علينا أن نستوضح أولاً جذوره التاريخية.

هناك شعوب باكملها، شأنها شأن الأفراد، تمت بتجارب مأساوية في ماضيها، وتظل هذه التجارب تؤثر على سلوكها وتفكيرها مدة طويلة بعد ذهاب تلك الاحداث المثيرة.

فالشعب الأمركي، مثلاً، لا زال تحت تأثير احداث الحرب الاهلية، والازمة الاقتصادية الشديدة في الثلاثينات، وحرب فيتنام، رغم أن غالبية الأمريكيين لم يعيشوا تلك الفترات الصعبة. والشعب اليهودي، مرّ، بالطبع، بتجارب أشد بكثير. فهو لا ينسى خراب القدس على أيدي الرومان في عام ٧٠ م، الذي وضع حداً لسيادته حتى يومنا هذا، ولا الكارثة التي تعرض. لها في هذا القرن، التي أُبيد فيها معظم يهود أوروبا.

هاتان المأساتان، تتقلص إلى جانبهما كل الكوارث التي لا تُحصى، التي عاشها الشعب اليهودي في الألفي سنة الماضية، وتشكلان العنصرين الرئيسيين وراء سعي اليهود لاستئناف

السيادة اليهودية، وبخاصة القدرة العسكرية الدفاعية. وباستثناء حالات نادرة جداً، لا يقتل اليهود بعضهم بعضاً، بسبب خلافات سياسية.

أسرد هذه الـنماذج، لأن الكثـيرين في العـالم الغـربي يميلـون إلى التقليـل مـن أهميـة وتـأثير التجـارب التاريخية الشديدة على سلوك الشعوب عامة. ولكن مآسي تاريخية كهذه هي التي خلقت موقـف العـرب تجاه الدول الغربية.

اقتحم العرب الحلبة العالمية في القرن السابع، بعد أن أسس النبي محمد دين الاسلام الجديد. وخلال وقت قصير جداً احتلوا كل الشرق الأوسط وشمال افريقيا، ودخلوا إلى اعماق أوروبا، وكان العرب مقتنعـين بأن انتصاراتهم تعبّر عن إرادة الـلـه، وتفوّق العرب والاسلام على الشعوب الأوروبية وعلى النصرانية.

وكانت انتصاراتهم الأولية، بمثابة المقدمة لتحقيـق الـسيطرة عـلى العـالم كلـه، مـثلما وعـدهم النبـي محمد، تماماً.

في كتابه "إنهيارنا وسببه"، كتب الامير شكيب ارسلان عام ١٩٤٤ ما يلي:

" جمع الاسلام ووحّد القبائل والشعوب العربية المتفرقة... ففرضوا سيطرتهم على نصف العـالم خـلال فترة قصيرة، في حوالي نـصف قـرن، بفـضل الحـماس النـابع مـن هـذه القـوة الديناميكيـة. ولـولا الحـروب الداخلية... لما استطاعت قوة على وجه الأرض منعهم من احتلال العالم كله".

لكن الأمور تطوّرت بصورة أخرى. فبعد أن بلغت الانتصارات ذروتها، بدأت تتقلص. ففـي عـام ٧٣٢م صد شارل مارتن، العرب في (فواتيا)، على بعد٢٤٠ كم من باريس، ومنذ ذلك الوقـت، اسـتطاع المـسيحيون خلال بضع مئات من السنين أن يعيدوا لأنفسهم المنـاطق التـي فقـدوها. لقـد احتـاج المـسيحيون إلى٢٥٠ سنة، حتى استطاعوا العودة إلى صقليّة، و٨٠٠ سنة، لاحتلال اسبانيا من جديد.

ان الانتصارات التي حققتها المسيحية الغربية وقدرتها على الـصمود في وجـه احـلام التوسـع العـربي - الاسلامي، جعلتها العدو الرئيسي للعرب، طيلة أجيال عديدة. كما تلقى العـرب إهانـة اخـرى في عـام١٠٩٩ عندما سقطت القدس بأيدي الصليبيين، الذين كانوا أقل منهم عدداً، لكنهم أكثر منهم تنظيماً. لكـن صـلاح الدين، استطاع الحاق الهزيمة بالصليبيين في معركـة حطـين عـام ١١٨٧، تلـك الهزيمـة التـي انهـت الوجـود الصليبي في أرض إسرائيل. لكن هذا النصر لم يعمّر طـويلاً إذ سرعـان مـا أُحتلـت المنطقـة كلهـا مـن قبـل. المماليك، ثم خضعت بعد ذلك لحكم العثمانيين مدة ٤٠٠سنة. كـما أن الأتـراك المـسلمين، حـاولوا إخـضاع المسيحية، وسيطروا على اجزاء كبيرة من أوروبا. غير أنه وفي عام ١٦٨٣، تلقى العثمانيون ضربة قويـة عـلى أبواب فينا، وبذلك انتهت محاولات سيطرة الاسلام على أوروبا.

كانت المجابهة الثانية، بين الغرب والعالم العربي، غزو نابليون لمـصر، عـام ١٧٩٨. في تلـك الفـترة، كـان الغرب مختلفاً. فقد تجاوز عهد النهضة، والثورة الثقافية، ونمت فيه حضارة حديثة وتكنولوجية.

اصاب احتلال نابليون لمصر، بجيش يضم بضعة الآف من الجنود، العالم العـربي، بـصدمة شـديدة فهـا هو عدوهم التاريخي، الذي كانوا ينظرون إليه دائماً بازدراء، يتفوق عليهم. حتى ان انسحاب نـابليون مـن مصر لم يكن نتيجة لضغوط من الشرق، انما من الغرب بالذات، من اوروبا.

ولم يتأخر الاوروبيون كثيراً في العودة. ففي الثلاثينات من القرن التاسـع عـشر، كانـت فرنـسا تحـتفظ بقواعد دائمة في الجزائر، بينما تواجد البريطـانيون عـلى سـواحل شـبه الجزيـرة العربيـة، ووضـعوا الاسـس المطلوبـة للانقـضاض عـلى قلـب العـالم العـربي. وفي عـام ١٨٨٢، احتـل البريطـانيون مـصر. ومـا لم يحتلـه البريطانيون والفرنسيون والايطاليون قبل الحرب العالميـة الاولى، سـقط بأيـديهم فـور انتهـاء الحـرب، مـع سقوط الامبراطورية العثمانية.

وحتى منتصف القرن العشرين، كان العالم العربي كله تقريباً بأيد غربية. وكـان ذلـك الوضـع في نظـر العرب، يشكل ذروة الاذلال، والنقيض تماماً لمكانتهم في العالم: ها هي اوروبـا نفـسها التـي كانـت بأيـديهم قبل فترة ما، تسيطر الآن، بقوة واستعلاء على كل العالم العربي، ذرية شارل مارتل، تحكم دمشق والجزائـر، بينما يرفع احفاد ريتشارد قلب الاسد، راية الصليب فوق ابراج القاهرة وبغداد.

ان الهزيمة الساحقة التي مني بها العرب، على ايدي اكبر اعداء الاسلام، احدثت ازمـة ثقـة وهويـة، لا زالت تترك بصماتها على افكار العرب إلى يومنا هذا، وحتى بعد ان حصلت الدول العربية على استقلالها.

وبدأ يلمس لدى العرب الشعور بالاحباط والخوف الدائم من ظهور عجزهم امام الغرب، مرة اخـرى، في مجابهة جديدة معه.

والاخطر من هذا، ان الغرب تغلغل داخل المجتمع العربي والاسلامي، ولوثه بـسلوكياته وافكـاره، - في الفلسفة، في العلوم، في النظرية القانونية، والايديولوجية الاجتماعية الغربية. وبدا ان الغرب حقـق انتـصاراً مطلقاً ونهائياً.

لقد عبّر المفكر المصري محمد تويحي، عن هذ الشعور بالخزي والاهانة لدى المجتمع العربي بقوله:

للحقيقة، اقول، ان كـل مـن يـتفحص الوضـع الحـالي للامـة الاسـلامية، يجـد انهـا تعـاني مـن مـشكلة كبيرة،فقد ارغمتها الظروف المتغيرة على تبني قوانين جديدة،مستمدة، بصورة مبـاشرة، مـن كتـب القـوانين الاجنبية... والتخلي عن شريعتها الدينية الاصيلة... ان الامة تعاني وتتألم، وتعيش تناقضات داخلية وانقساماً وواقعها يتناقض تماماً مع افكارها، وسلوكها يتناقض مع ايمانها. فما هذا الوضع المخيف الذي تعيشه الامة.

كـما ان هــذا اليـأس، الــذي كــان ينبــع مــن تفــوق الافكــار الغربيــة، عــبر عنــه بمــرارة، صــلاح الــدين البيطــار، أحــد مؤســسي حــزب البعــث، قبــل اغتيالــه عــام١٩٨٠، ببــضعة اشــهر حــين قــال: لم

يأت العالم العربي في القرنين الماضيين، إلى العالم ولو بفكرة اصلية واحدة. وفي المقابل ركزوا كل جهودهم لاستنساخ افكار الاخرين.

ان الاستقلال السياسي، لم يخفف كراهية العرب للغرب. صحيح ان الحرية وفرت لهم ادوات أكثر فعالية لتغيير وضعهم - على شكل حكومات قومية وطنية، وانظمة حكم اسلامية متطرفة وعدت باخراج العالم العربي من حالة الذل التي يعيشها، لتعيد إليه هيبته وكرامته التي سلبها الغرب منه، لكنهم فشلوا حتى اليوم، في تحقيق ذلك، ولم ينسوا للحظة اتهام الغرب بفشلهم هذا.

كانت مقاومة الغرب، وزيادة قوة العالم العربي، هما الفكرتين الاساسيتين لاشتراكية جمال عبد الناصر. اذ كانت تعلق على شوارع المدن المصرية ابان عهد عبد الناصر المنشورات والاعلانات التي تدعو الشعب إلى النهوض مثل: ارفعوا رؤوسكم، ايها الاخوة لقد ذهبت ايام الذل.

وفي عام ١٩٥٤ اعلن عبد الناصر: انا اطمئنكم اننا منذ بداية الثورة ونحن مشغولون بالتحضير للمعركة الكبرى ضد الاستعمار والامبريالية، كي تستعيد مصر احترامها الذي تستحقه.

كما ان القومية العربية التي يتبناها حزب البعث، من مدرسة حافظ الاسد، وصدام حسين، لا تختلف في جوهرها، مثلما يستشف من اقوال مؤسس حزب البعث، ميشيل عغلق: الان، كما كان في الماضي، تخشى اوروبا الاسلام، لكنها تعرف ان قوة الاسلام... نهضت لتحيا بصورة جديدة، هي القومية العربية، لذا فان اوروبا توجه كل ما لديها من اسلحة ضد هذه القوة الجديدة.

كذلك، الصيغة الاسلامية - الاصولية للناصرية التي تبناها القذافي في مبدئه "الطريق الثالثة" تعتمد على اساس العداء للغرب.

يقول القذافي: كنا فريسة، ولكن الآن... وقفت الفريسة على قدميها، وتطمح إلى الوقوف في وجه المفترس. ان العرب، الذين ظلموا على ايدي المستعمرين، بدأوا يشككون في قوتهم. انه لا يصدقون بأن اسس الحضارة الحالية وضعها العرب والمسلمون... وان العرب أو المسلمين هم الذين اوجدوا علوم الفلك، والكيمياء، والحساب، والجبر، والطب... لقد حان الوقت لنعلن للجميع حقيقة الاسلام كقوة قادرة على تحريك البشرية، تجلب لها التقدم وتغير مجرى التاريخ، كما فعلنا في الماضي... ان الحقائق التي نتحدث عنها، كانت قائمة، حتى قبل ان يخلق المجتمع الأمريكي.

لم يقتصر عداء العرب للغرب على الكلمات فقط، بل عبروا عنه بدعم وتأييدهم المستمر للاتحاد السوفياتي حتى انهياره، في دعايته المعادية للغرب، في الامم المتحدة، ودول عدم الانحياز، واعمال "الارهاب" التي كانت موجهة ضد اهداف غربية. ظهر هذا العداء جليا في تصريحات الزعماء العرب عندما فرضوا حظر النفط، بعدما بدا لهم، انهم استطاعوا خنق الاقتصاد الغربي.

لقد زادت فرحة العرب لدى مشاهدة اعضاء كونغرس أمريكيين يذهبون إلى عملهم راكبين على دراجات هوائية، ورجال الاعمال الذين يقفون ساعات عديدة على محطات الوقود في نيويورك، ولندن، وباريس. كان حظر النفط، عام ١٩٧٣، في نظر العرب كأصلاح لظلم تاريخي، وكاجراء عادل مثل نهوض الامة العربية ووقوفها على ارجلها، لترد على الغرب بما يستحقه.

ان علاقات الصداقة التي يقيمها عدد من الحكام العرب مع الولايات المتحدة، تضلل الحكومات الغربية، بأن الجمهور العربي شريك في هذه الصداقة ايضاً. غير ان هؤلاء الحكام يمثلون، بشكل عام، طبقة دقيقة جداً من المجتمع العربي والاسلامي المتقلب، والبرهان على ذلك هو ان العراق وليبيا مثلا اعتبرتا معتدلتين ومواليتين للغرب في عهد الملك فيصل، والملك ادريس، غيرتا جلديهما بين عشية وضحاها، بعد الاطاحة بنظامي الملك فيصل والملك

ادريس، لتصبحا مركزي عداء وكراهية للعالم الغربي. وهكذا حدث ايضاً في ايران الاسلامية بعد سقوط الشاه. لذا،فإن اعتماد الغرب على انظمة حكم عربية صديقة،هو في الواقع اعتماد على افراد وليس على شعوب.

وهؤلاء الافراد، قد يختفون عن الساحة فجأة، ليحل محلهم اشخاص أو مؤسسات معادية للغرب.

وعلى خلفية هذه الكراهية العميقة تجاه الغرب فقط، يمكننا ان نفهم، بصورة صحيحة، الرفض الشديد الذي يبديه معظم العرب لوجود إسرائيل. فإسرائيل في نظرهم، دولة اسسها يهود اوروبيون، ومبنية على اساس نموذج الدول الليبرالية الغربية، وتمثل سلاحاً للدول الغربية واداة يقصد بها الحاق الذل والهوان بالامة العربية من جديد.

في الثلاثينات، اعلن اميل غوري، مهندس عمليات قتل المتعاونين العرب في "أرض إسرائيل"، ان المذبحة التي تعرض لها يهود الخليل كانت تمثل هجوماً على الاحتلال الغربي، وعلى الانتداب البريطاني، وعلى الصهاينة. وهذه النظرية الاساسية، عبر عنها جمال عبد الناصر في الوثيقة الوطنية لمصر، حيث قال: بلغت المؤامرات الامبريالية درجات سلب أرض عربية في فلسطين، دون أية حق أو قانون، واقامة كيان فاشي عسكري يعيش على التهديدات العسكرية، ويكمن خطره في وجود إسرائيل بالذات كأداة للامبريالية.

وعشية اندلاع حرب ١٩٦٧، كرر عبد الناصر هجومه على الغرب اذ قال في٢١ ايار١٩٦٧ : نحن نقف امام إسرائيل والعالم الغربي - الغرب الذي خلق إسرائيل، واحتقرنا، نحن العرب، وتجاهلنا قبل عام ١٩٤٨ وبعده. انهم لم يأخذوا بعين الاعتبار مشاعرنا، أو حقوقنا... واذا كانت الدول العظمى الغربية، ترفض الاعتراف بحقوقنا وتسخر منا وتحتقرنا، فانه يجب علينا، نحن العرب، ان نعلمها كيف تحترمنا وتتعامل معنا بجدية.

وبنفس المعنى تحدث رئيس اركان الجيش السوري عشية حرب ١٩٦٧، عندما حاول تفسير دوافع الحرب بقوله: اعتقد ان إسرائيل ليست دولة، بل قاعدة عسكرية للمعسكر

الامبريالي... ان من يحرر فلسطين، يقود الامة العربية إلى الامام، إلى الوحدة الشاملة... ويستطيع ان يلقى إلى البحر بكل الانظمة الرجعية.

وبهذه الروح، قال الرئيس العراقي صدام حسين: ان الامبريالية، تستغل الصهيونية كذراع استراتيجية ضد الوحدة العربية وضد تقدم العرب وتطورهم. وهذه الحقيقة معروفة جيداً.

كان جمال عبد الناصر، الروح الحية التي اسست مظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة عام ١٩٦٤، وترك لدى هذه المنظمة نظريته، نظرية الوحدة العربية، المتوهجة ولا زالت هذه التركة قائمة نلمسها حتى هذا اليوم في السموم المعادية للغرب التي تفرزها فصائل منظمة التحرير الفلسطيية المختلفة، والتي تتبنى كل واحدة منها ايديولوجية خاصة بها، ترفض وجود إسرائيل، التي تمثل قاعدة للغرب الامبريالي.

فعلى سبيل المثال، قال جمال الصوراني، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام ١٩٨٦: لا نتوقع أي شيء اسمه السلام. ربما يكون وقفا لاطلاق النار، وطالما بقيت الامبريالية قائمة، وبقيت إسرائيل قائمة، لن يكون هنالك سلام.

والآن، وفي اعقاب اتفاق اوسلو، بالطبع، تحرص مختلف فصائل منظمة التحرير الفلسطينية على اخفاء عدائها للغرب الذى نتلقى منه دعماً سياسياً ومادياً سخياً. غير انه في حالات اخرى، مثل غزو الكويت، لا بد ان تتفجر هذه المشاعر لتظهر كراهية مفرطة.

في عصرنا، عندها تكون هنالك حقائق تاريخية اساسية غير معروفة، احياناً، للجمهور الواسع، يكون من السهل جداً، على الدعائيين العرب، اقناع الرأي العام الغربي، أنه لولا وجود إسرائيل، لاقام العرب علاقات ودية جداً مع العالم الغربي، ولكن، وللحقيقة، اقول، ان كراهية العرب للغرب نشرت قبل انضمام إسرائيل لقائمة اعداء العرب بألف سنة، اذن فالعرب لا يكرهون الغرب بسبب إسرائيل، بل يكرهون إسرائيل بسبب الغرب.

لقد اعتبر الزعماء العرب المعادون للغرب، دائماً وابداً، الصهيونية معبراً وممثلاً للثقافة الغربية، وغرسه غريبة تعمل على تقسيم العالم العربي، وما الصهاينة، سوى صليبيين جدد.

وهناك نغمة سائدة في العالم العربي تقول ان توحيد العرب تحت قيادة صلاح الدين جديد وقذف "دولة الصليبيين" الجديدة إلى البحر، هي مسألة وقت فقط.

وحقيقة ان إسرائيل،ترى بعلاقتها الغربية هذه،يمكن ان نلمسها بوضوح بتكرار اسم صلاح الدين على السنة، صدام حسين، والاسد، وعرفات فقد قال عرفات قبل فترة: "ان منظمة التحرير الفلسطينية، لا تطرح سلام الضعفاء، بل سلام صلاح الدين".

ان ما لم يقله عرفات هنا بوضوح، ويعرفه الشعب العربي جيداً، هو ان "سلام صلاح الدين" (اي الاتفاق الذي وقعه مع الصليبيين)، لم يكن سوى خدعة، اذ، بعد الاتفاق، استأنف المسلمون هجماتهم على الصليبيين حتى طردوهم نهائياً من الأرض المقدسة.

من المحتمل اذن، ان يكون هذا هو السبب الذى جعل الرئيس حافظ الاسد، يعلق في مكتبه صورة كبيرة لصلاح الدين، بطل الانتصارات، الذى طرد آخر الصليبيين.

ان الرغبة في تكرار انجازات صلاح الدين، في الوقت الحالي، كانت دائماً مصدر وحي للهجمات المتكررة على إسرائيل، والعمل المستمر ضد انظمة الحكم الموالية للغرب، والمحاولات العديدة لانهاء الوجود الغربي في الشرق الاوسط، على غرار ما حاولت العراق عمله بالكويت عام ١٩٩١، ومثلما نجحت سوريا في عمله بلبنان، وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي، اضطرت انظمة حكم عربية مثل سوريا، لابرام سلام تكتيكي مع الولايات المتحدة (واجراء مفاوضات سياسية مع إسرائيل) لا يمكنها تغطية نطرة الاحتكار والعداء التي يبديها العرب تجاه العالم الغربي.هذه المشاعر موجودة، وقد تتفجر في حالة ظهور أية مؤشرات ضعف من جانب الغرب، أو في حالة ظهور قوى جديدة على الساحة العالمية، تقف ضد العالم الغربي.

الان، نستطيع ان نفهم السبب الذي حال، سنة بعد سنة، دون تسوية النزاع العربي - الإسرائيلي، فكل حروب العرب ضد إسرائيل والاعمال العدائية التي قاموا بها ضدها في فترات ما بين الحروب، تنبع من ثلاث نظريات ترتبط ببعضها البعض، وتشكل معا النواة الحقيقية للنزاعات المتعددة في الشرق الاوسط:

* رفض القومية لوجود أية سيادة غير عربية في الشرق الاوسط.

* سعي الاسلام الاصولي لتطهير المنطقة من أي نفوذ غير اسلامي.

* عداء العالم العربي الشديد والتاريخي للغرب.

عندما نتفحص كل هذه العناصر مجتمعة، نرى بوضوح ان مصر رفض وجود إسرائيل، ليس خاصا بالدولة اليهودية: عداء العرب لإسرائيل، هو جزء واحد ضئيل فقط، من عداء اوسع بكثير، كان سيظل موجوداً، حتى لو لم تقم دولة إسرائيل.

كما يتضح ان الادعاءات التي يطلقها العرب لتبرير هجماتهم على إسرائيل ليست سوى ذرائع. فقد هاجم العرب اليهود وقتلوهم بوحشية، طيلة ثلاثين سنة أو يزيد قبل ان توجد دولة إسرائيل، أي قبل ان يكون هنالك لاجىء عربي واحد، خلقت بسببه "القضية الفلسطينية".

وهذه الاسباب الثلاثة، توضح دوافع الهجمات العربية على اليهود خارج "أرض إسرائيل" سواء قبل قيام الدولة، أو بعده، رغم انه لم يكن لليهود الذين عاشوا في الدول العربية، أية علاقة بالقضية الفلسطينية، وتوضح ايضا، لماذا خرج العرب لمحاربة إسرائيل، المرة تلو المرة، قبل ان تقام، ولو مستوطنة واحدة، وقبل ان تطأ قدم جندي إسرائيلي واحد، هضبة الجولان أو الضفة الغربية.

خلاصة القول ان حربي ١٩٤٨، و١٩٦٧، شنتا ضد إسرائيل المقلصة، دون المناطق المختلف عليها، وخلال فترة ما بين الحربين، تعرضت إسرائيل لهجمات "الارهابيين" والجيوش العربية، واودت بحياة المئات من المواطنين الإسرائيليين، كانت نيران القناصة

عملاً روتينياً على طول الحدود الإسرائيلية، بما في ذلك اطلاق النار على المزارعين اليهود، الذين كانوا يفلحون حقولهم في اسفل منحدرات الجولان. ان جذور العداء العربي لإسرائيل، لا تكمن في هذا الادعاء، أو ذاك الذي يمكن مناقشته، انما يعود لرفض اساسي لوجود دولة يهودية مستقلة بالذات.

ان من يأمل بأن يختفي هذا العداء الاساسي المتجذر من مراكز هامة في العالم العربي، في الوقت الذي لا زالت تتنافس فيه التيارات القومية العربية، والاصولية الاسلامية، على كسب الفرد العربي، فانه يأمل بتحقيق الكثير، وبسرعة أكثر من اللازم، وهذا، لا يعني ان سلاماً بين العرب وإسرائيل، أو بين العرب انفسهم، لا يمكن تحقيقه،ان السلام ممكن مع العناصر التي استطاعت التحرر من تهديد هذه القوى. ولكن عندما نتحدث عن مثل هذه العناصر يجب ان نفحص الطابع الخاص الذى سيكون لمثل هذا السلام، والشروط الخاصة التي يجب ان تتوفر لكي نضمن عدم خرق هذا السلام في المستقبل.

هناك في الغرب من يريد ان يرى في انتهاء الحرب الباردة "نهاية التاريخ" أي نهاية خطر الحروب والانقلابات الكبيرة. وهنالك من يعتقد ان السلام بين الدول العظمى سيجلب السلام ايضاً إلى الشرق الأوسط، وان الموضوع هنا، هو مجرد تسويات حل وسط، وضغوط.

لا شك في ان اختفاء الاتحاد السوفياتي احدث تغييراً في خريطة القوى في الشرق الاوسط، لفترة ما، غير انه باستثناء حقيقة ان انتهاء الحرب الباردة سلبت من العرب وصيهم السوفياتي، لم تكن لهذا الانتهاء علاقة بالثقافة السياسية الاساسية الخاصة بهذه المنطقة اذ ان جهاز سفك الدماء الشرق اوسطي، سيظل يعمل كآلة تدور بقوتها الذاتية، وتهدد السلام والاستقرار في اماكن كثيرة من العالم.

لذا، فبعد ان يصبح الخوف من التوسع السوفياتي ذكرى بعيدة، ستظل إسرائيل والغرب، وكثيرون من العرب، يخوضون مواجهة مع تطرف دينى اسلامي، ومع انظمة حكم راديكالية متمسكة برغباتها الاحتلالية والعنف.

من السهل على الانسان الغربي، ان يقلل من قيمة الخطر الذي تشكله هذه الدولة العربية أو تلك، اذ ان عد سكان الدول العربية (باستثناء مصر) قليل جداً، وقدرتها العسكرية ضعيفة، وهي بعيدة عن الغرب، لكن هذا التقدير خاطىء من اساسه.

عندما سمح الغرب لدولة صغيرة، مثل ليبيا (٤ ملايين نسمة) باستخدام الوسائل المتوفرة لدولة متقدمة على الصعيد التكنولوجي، لتحقيق الافكار المشوهة لزعيمها، نجح القذافي في رعاية حملة ارهابية عالمية. وعندما بدأت دولة اكبر مثل العراق (١٧ مليون نسمة) تتسلح بصورة حثيثة، نشأ هنالك خطر لا يمكن مقارنته مع خطر الارهاب الليبي، وفعلاً، كانت عراق صدام حسين، وما زالت، تمثل خطراً يمكن ان يكون قصة لكتب الاثارة: دولة ارهابية يتزعمها شخص يريد الانتقال من استخدام السيارات الملغومة إلى القاء القنابل النووية.

اذا نجح صدام حسين في أي وقت، بامتلاك السلاح النووي، ستكون تلك اول مرة في التاريخ، يكون استخدام السلاح النووي منوطاً بقرار رجل واحد، دون ان يكون هنالك تأثير كابح لهيئات سياسية، أو عسكرية، أو علمية، كما هي الحال في دول اخرى. لذا، فان الخطر على سلام العالم سيصبح اشد بكثير. وهكذا سيكون الوضع ايضاً إذا ما حصلت سوريا على السلاح النووي، غير ان الخطر الاشد من هذا كله يكمن في تسلح الجمهورية الاسلامية الايرانية بالسلاح النووي، وهذا الموضوع سأتطرق إليه فيما بعد.

وبدلاً من الاصغاء لتحذيرات إسرائيل بأن العراق تشكل خطراً حقيقياً وقريباً، سقطت حكومات الدول الغربية، في سنوات الثمانينات، في مصيدة الدعاية العربية، واقتنعت بأن مصر عدم الاستقرار في الشرق الاوسط، هو النزاع العربي - الإسرائيلي، والقضية الفلسطينية، وان كل الصعوبات ستنتهى إذا ما قدمت إسرائيل التنازلات المطلوبة منها.

لقد كانت النظرية بشأن مركزية الفلسطينيين في نزاعات الشرق الاوسط، قوية، لدرجة انه طيلة عشر سنوات كاملة من١٩٨٠-١٩٩٠، تمكنت العراق من اخفاء عملية تزودها الحثيث بالاسلحة، وشكلت غطاءً مريحاً لتجميع الاسلحة. بينما لاقت احتجاجات إسرائيل آذاناً مغلقة تماماً.

وفي عام ١٩٨١، عندما دمر سلاح الجو الإسرائيلي المفاعل النووي العراقي، الذي اوشك، آنذاك، على انتاج القنبلة النووية، تعرضت إسرائيل للتنديد من العالم كله، بما فيه الولايات المتحدة، ولم تعتذر أية دولة عن هذا التنديد، أو تتراجع عنه، حتى يومنا هذا، ولا ضرورة للقول ان احداً لم يعرب عن شكره للجيش الإسرائيلي الذي انقذ دولا عديدة من تهديد القنابل النووية العراقية.

وبعد حرب الخليج ايضاً، لم يدرك العالم بعد ما ادركه في حينه، لورنس العرب عام ١٩٢٨، ان معظم أنظمة الحكم العربية هي "دكتاتورية متعطشة للدماء" وانه لا اهمية للتصريحات الموجهة للغرب، من جانب الحكومات المعتدلة، لان هذه الحكومات تخضع في نهاية المطاف، لمواقف المتطرفين، وان قوات خارجية، فقط،هي القادرة على ضبط الإرهابيين والدكتاتوريين في الشرق الأوسط،وانه إذا ما تسلموا السيطرة على موارد الدولة الحديثة فانهم سيستغلونها المرة تلو الاخرى، لتحقيق أحلامهم في الوحدة العربية، أو الوحدة الاسلامية.

كل هذه الامور، نجح العالم العربي في اخفائها من خلال الصيغة التي ظل يكررها باستمرار، وهي ان القضية الفلسطينية (التي نشأت بسبب إسرائيل، بالطبع) تشكل قلب العاصفة الشرق اوسطية.

وفي عام ١٩٩٠، أي بعد حوالي ٢٥ سنة من حرب الايام الستة، كانت هذ الصيغة قد اصبحت حقيقية في نظر العالم كله تقريباً؛ وعندئذ، هاجم صدام حسين الكويت. ومع الغزو العراقي اضطر الزعماء العرب لاجراء حساب سريع. لم يرتاحوا بالطبع لامكانية ان يكتشف الغرب المغزى الحقيقي للصراع العربي - العربي، ويبدأ يسلط الاضواء على ما يسمونه بالنزاعات الداخلية في الاسرة العربية، ولكن، من جهة اخرى، لم يعد بامكانهم تجاهل الاخطار التي تهددهم من عدوانية الرئيس العراقي.

عندما ادرك صدام حسين انه قد يواجه ائتلافا يشمل كل الدول العربية ضده، حاول تحسين صورته العربية بأن عرض غزوه للكويت وكأنه جزء من النزاع العربي - الإسرائيلي،

ولكي يحدث التحول المطلوب في الرأي العام العربي، اثار فجأة القضية الفلسطينية التي لم تكن لها علاقة بغزو الكويت. وادعى ان الغزو يشكل ضربة للغرب ولعملائه العرب، والخطوة الاولى على الطريق لاقامة دولة عربية، تكون قوية بما فيه الكفاية، لتحرير القدس. ومن اجل تعزيز ادعائه هذا، طلب ان تنسحب إسرائيل من الاراضي الفلسطينية، قبل ان تقدم العراق أي تنازل في الكويت.

لكن الدول العربية التي وقفت ضد العراق، رفضت هذا الادعاء، واعلن ناطقون سوريون ومصريون وسعوديون، ان غزو الكويت ليس له أية علاقة بالقضية الفلسطينية.

وقال الرئيس المصري محمد حسني مبارك: إذا أردنا ان نربط بين القضيتين، فمعنى ذلك اننا لا نريد حل شيء. وقال السفير الكويتي في واشنطن: اننا لا نرى أية علاقة بين هاتين الازمتين... ان من يعتقد بأن صدام حسين قلق على مصالح الشعب الفلسطيني أو اللبناني، وهو يغزو الكويت، ويقتل اخوانهم الكويتيين، فانه يرتكب خطأً فادحاً.

لقد ادت الاعترافات العربية - إلى كشف الحقيقة ولو لفترة ما، والحقت ضرراً بالغاً بالنجاح الكبير الذي حققه العرب حتى الان، المتمثل بوضع القضية الفلسطينية في مركز العواصف في الشرق الاوسط، اذ للمرة الاولى، منذ عشرات السنين، تعرى امام انظار الكثيرين في العالم الغربي والشرقي معاً، الوضع العربي المعقد، مثلما لم يسبق ان تعرى من قبل، وهكذا اصبح من الصعب، بعد حرب الخليج، تجاهل قوة وتأثير مشاعر العداء السائدة بين العرب والمسلمين وبين انفسهم.

لكن "البقرة المقدسة" المتمثلة بمركزية القضية الفلسطينية، لم تلفظ انفاسها بعد. ولا زالت تدخل في صيغ ملتوية في محاولات متكررة لاثبات ان الاحتلال الإسرائيلي هو، رغم كل شيء، مصدر كل النزاعات في المنطقة. ومع مرور الوقت، نسي موضوع الكويت، لتعود القضية الفلسطينية إلى الحلبة من جديد، وتغطي الصورة الحقيقية للشرق الاوسط.

ولكي ندرك نتائج هذه الضبابية التي تغطي الشرق الاوسط، يلزمنا فقط، ان نستذكر الفترة التي سبقت حرب الخليج.

عندما زرت الولايات المتحدة في ايار ١٩٩٠، تعرضت لهجوم شديد من قبل عدد من اليهود الأمريكيين، من الحلفاء المخلصين لإسرائيل، على خلفية قضية نزل "سانت جون" في القدس الشرقية: احدى المدارس الدينية اليهودية، استأجرت، بمساعدة من الحكومة، بناية مقابلة لدير مسيحي، وحولتها إلى مدرسة داخلية لتلاميذها، واعربت الكنيسة عن معارضتها لهذا الاجراء الامر الذي اثار عاصفة، كانت مصدر سرور لاعداء إسرائيل، ومصدر اسف لاصدقائها.

وتعرضت لعدة اسئلة ضاغطة، من قبل عدد من هؤلاء الاصدقاء اعضاء نادي رؤساء المنظمات اليهودية الكبيرة في الولايات المتحدة مثل: كيف سمحت حكومة إسرائيل (كانت برئاسة الليكود آنذاك) لمثل هذا الاغتصاب ان يحدث؟ قلت لهم: انتم صادقون. هذه مشكلة كبيرة بالنسبة لنا الآن، لكنها ستهدأ في غضون اسبوع، ولكن لدينا مشكلة اكبر بكثير، وهذه لن تنتهي من تلقاء نفسها. سألوني: ما هي؟ قلت لهم: "صدام حسين". ان صدام حسين، هو المشكلة الاولى و الرئيسة بالنسبة للشرق الأوسط كله،ولنا. انه مجرد حجة لصرف الانظار، من جانب الليكود.

حدث هذا قبل غزو الكويت بثلاثة اشهر فقط. في تلك الفترة، كان اصدقاء إسرائيل واعداؤها على حد سواء،يؤمنون بأن القضية الفلسطينية هي اسم مرادف للنزاع في الشرق الاوسط، وجعل هذا التشويه، حقيقة مقبولة، يعتبر انجازاً مثيراً لآلة الدعاية العربية، ولا شك بأنه ألحق بإسرائيل ضرراً بالغاً.

غير ان تأثير هذا الانجاز العربي وصل إلى ابعد من هذا بكثير، حيث بسببه تشوشت رؤية العالم الغربي، الامر الذي حال دون قدرته على فهم نوعية الشرق الاوسط الحقيقية، واخطاره التي تهدد امن العالم بأسره.

الفصل الرابع

قلب حقيقة السبب والمسبب

كانت الحملة المخصصة لقلب السبب والمسبب في النزاع العربي - الإسرائيلي لا تقل نجاحا عـن نجـاح الحملة العربية بشأن مركزية القضية الفلسطينية في نزاعات الشرق الاوسط.

في بادىء الامر، قال العرب ان كل امراض المنطقة، مصدرها القضية الفلسطينية، وبعـد ذلـك، شرحـوا جوهر القضية: لم تكن هذه القضية من مضاعفات الهجمات العربية على إسرائيل، انما كانت السبب الاول لهذه الهجمات.

وبعد عدة سنوات من الدعاية العربية المتواصلة، طـرأ تحـول في الـرأي العـام الغـربي، تجـاه الحـرب العربية - الإسرائيلية بحيث اتخذ صورة واحدة فقط، هي ان إسرائيـل ضـد العـرب الفلـسطينيين: جـالوت العربي تحول إلى داود الفلسطيني، وداود الإسرائيلي تحول إلى جالوت الصهيوني.

غير ان الانقلاب لم ينطبق فقط على نظرية الحجم والقوة الخاصة بطرفي النزاع، انما طال ايضاً ترتيـب تسلسل الاحداث: لم يهاجم العرب إسرائيل هي التي هاجمت العرب وبدقة أكثر "الفلسطينيين".

وبدت سلسلة الادعاءات العربية الجديدة على النحو التالي: كل المشاكل في الشرق الاوسـط، مـصدرها القضية الفلسطينية، وهذه سـببها احـتلال الاراضي الفلـسطينية مـن قبـل إسرائيـل. ومـن هنـا، إذا انتهـى الاحتلال الإسرائيلي، ستحل كافة المشاكل التي يعاني منها الشرق الاوسط. لقـد بـرز هـذا الادعـاء الـبراق في اعقاب انتصار إسرائيل في حرب الايام الستة، وانتـشر بـسرعة فائقـة، وحتـى بدايـة الـسبعينات، كـان هـذا الادعاء قد شق طريقه من الدول العربية إلى العواصم الغربية. ففي محادثة مـع دبلومـاسي بريطـاني، مـن وزارة الخارجية البريطانية، قلت، ان إسرائيل لا تعتزم اعادة المناطق التـي احتلتهـا في حـرب الايـام الـستة،

خشية ان تتعرض لهجوم آخر من هذه المناطق. وكان رد الدبلوماسي البريطاني قد ادهشني اذ قال باستهزاء: أوه، حقاً. اعتقد انك لا تتوقع منا أخذ هذا القول على محمل الجد، لانكم انتم الذين بدأتم الحرب.

ما هي الحقائق؟ بعد ان فشلت الدولة العربية، فشلاً ذريعاً في محاولتها ابادة الدولة اليهودية عام ١٩٤٨، شرعت في حملة مستمرة من الاعمال الارهابية من خارج الحدود، وطيلة سنوات الخمسينات، ظلت إسرائيل هدفاً للهجوم عليها من كل جانب، وبخاصة من قواعد الفدائيين التي اقيمت في قطاع غزة، التي كانت بأيدي المصريين، وكان الهدف الرئيسي لحملة سيناء (عملية قادش) عام ١٩٥٦، وضع نهاية للغارات التي شنها الفدائيون في قلب إسرائيل. وادت تلك المعركة، إلى تصفية قواعد الارهاب في قطاع غزة، واستولت إسرائيل على شبه جزيرة سيناء ولكن نتيجة لضغوط من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، انسحبت إسرائيل من سيناء خلال بضعة اشهر، رغم ان عبد الناصر، لم يتخل عن عزمه ابادة إسرائيل.

وبعد فترة توقف قصيرة، استؤنفت، في مطلع الستينات اعمال ضد إسرائيل: اطلاق نار وهجمات على الإسرائيليين من هضبة الجولان التي كانت بأيدي السوريين، كانت ظاهرة يومية. وفي عام ١٩٦٦ بدأت منظمة التحرير الفلسطينية التي اسست عام ١٩٦٤، بتنفيذ عمليات ارهابية كثيرة من مناطق الضفة الغربية، التي كانت بحوزة الأردن، وفي تشرين ثان ١٩٦٦، هاجم الجيش الإسرائيلي قرية سموع الأردنية، ودمر قواعد الارهابيين هناك. زاد التوتر. وفي نيسان ١٩٦٧أسقط سلاح الجو الإسرائيلي ست طائرات سورية، حاولت حماية اعمال تحويل مصادر نهر الأردن التي كان يقوم بها السوريون. وفي تلك الاثناء، كان الجيش المصري قد افاق من هزيمته السابقة. واستمدت سوريا ومصر والأردن التشجيع من الاسلحة الحديثة التي حصلت عليها من الاتحاد السوفياتي (ومن بريطانيا، التي زودت الأردن) واستعدت للهجوم على إسرائيل في شهر ايار ١٩٦٧. كما ان دولا عربية بعيدة

حضرت هي الاخرى، جيوشها للمعركة، وكان لدى الكثيرين في العالم العربي، قناعة بأن هذه المـرة، سـتكون الهجوم الذي ينهي دولة اليهود. ولم يخف الزعماء العرب نواياهم.

في ٢٥ ايار، اعلن عبد الناصر: ان المشكلة التي تواجه الدول العربية هـي كيـف يمكـن ابـادة إسرائيـل نهائياً. في حين اعلـن الـرئيس العراقـي عبـد الـسلام عـارف، في٣١ ايـار: هـدفنا واضـح: محـو إسرائيـل عـن الخريط"-. وكذلك الرئيس الجزائري، هواري بو مدين، قال لشعبه في الرابع من حزيران، ان النضال العـربي يجب ان يؤدي إلى تصفية إسرائيل.

وفي ٥ حزيران، اليوم الذي بدأت فيه الحرب، دعت اذاعة دمشق مـستمعيها: "القـوا بهـم إلى البحـر" وقبل ذلك بستة ايام، في ٣٠ ايار، طار الملك الحسين، ملك الأردن، إلى القاهرة للتوقيع عـلى معاهـدة دفـاع مشترك مع مصر، وبمقتضى هذه المعاهدة، اقيمت قيادة عسكرية مشتركة لجيـوش مـصر والأردن وسـوريا، وبذلك ضاق الحبل حول عنق إسرائيل.

في تلك الاثناء صعدت مصر الوضع حتى بلغ حالة الحرب الحقيقية، عندما اغلقت الممر البحري الإسرائيلي الجنوبي في خليج ايلات، وامرت قوات الامم المتحدة التي كانت ترابط في قطاع غزة، باخلاء قواعدها.

دعت إسرائيل الأردن إلى عدم خوض معركة ضدها، غير انه في الخامس من حزيـران، عنـدما انـدلعت المعارك، قصفت المدفعية الأردنية إسرائيل على طول الحدود، بما فيها القدس، وتل أبيب ومطار اللد. وفي ٢ حزيران، دعا الملك الحسين جنوده بقوله: "اقتلوا اليهود حيثما وجـدتموهم اقتلـوهم، بـسلاحكم، بأيـديكم، باظافركم، وبأسنانكم.

ان تسرع العرب في خوض حرب مع إسرائيل، نجم عن "خطـأ" سـوفياتي (ابلـغ الـسوفيات العـرب ان إسرائيل تحشد قوات كبيرة على حدودها مع سوريا)، وعن مبالغـة العـرب بقـوتهم. اذ انـه بعـد ان افـاق العرب من هزائمهم السابقة، وجمعوا ترسانة ضخمة من الاسلحة، اعتقـدوا انهـم قـادرون، هـذه المـرة، ان ينهـوا عملهـم بـسهولة، نظـراً لان نـسبة القـوى كانـت تميـل بوضـوح لـصالحهم: (١- ٥ بالمـدافع، ١ : ٢.٤ بالطائرات، و ١ : ٢.٣ بالدبابات).

كان النصر العربي، بادياً في متناول اليد، لانه ما كان على العرب سوى بتر إسرائيل إلى جزأين، في اضيق نقطة -في منطقة نتانيا، التي كانت المسافة فيها بين الحدود الأردنية والبحر الابيض المتوسط ١٦ كم فقط.

ففي اطار مجرم منسق مع مصر من الجنوب وسوريا من الشمال، كان أي قائد أردني، حتى من المستوى المتوسط، قادراً على اجتياز هذا القطاع الضيق والوصول إلى البحر في غضون فترة زمنية قصيرة.

"في حقيقة الامر، كان لدى الجيش الأردني، افضل قادة عسكريين في الجيوش العربية، ولم يكن بمقدور الملك الحسين مقاومة اغراء الانضمام للحرب. علاوة على ذلك، تم التعهد للأردن بتوفير اسناد استراتيجي كامل من جانب العراق. وكما حدث في عام ١٩٤٨، اجتاز هذه المرة ايضاً، ثلث الجيش العراقي الاراضي الأردنية، وفي ٥ حزيران كان يقف قرب الحدود الإسرائيلية.

كما ان عبد الناصر، الذي دفع ب١٠٠ الف جندي إلى شبه جزيرة سيناء (خارقاً بذلك اتفاقية وقف اطلاق النار عام ١٩٥٦)، كان يعتقد انه من خلال حدود مصر القديمة يستطيع ان يضرب بسهولة السهل الساحلي الإسرائيلي اذ ان تل أبيب تبعد ٩٥ كم فقط عن قطاع غزة في حين تبعد اشكولون (عسقلان) عنها مسافة ٧ فقط.

ومن منطقة هضبة الجولان، التي كانت مصدراً لازعاج المستوطنات الإسرائيلية في غور الأردن، طيلة ١١ سنة، كان باستطاعة سوريا الانقضاض من مواقعها المسيطرة، والتغلغل في منطقة الجليل والوصول إلى السهل الساحلي الشمالي.

كثيرون، هم الذين لا يصدقون اليوم، تقدير القادة العسكريين العرب انه في حالة توفر ظروف مناسبة لبدء هجوم على إسرائيل يستطيعون التغلب عليها. وهذا التكذيب، ليس صحيحاً، اذ لم يكن أي واحد من هؤلاء القادة قادراً آنذاك على توقع الضربة الوقائية المفاجئة

التي قام بها الجيش الإسرائيلي والتي غيرت وجه الحرب، كما ان العرب استمدوا تشجيعا كبيرا من التطورات السياسية ايضا: توجهات إسرائيل إلى الولايات المتحدة والدول الاوروبية والامم المتحدة بشأن مساعدتها في فك الحصار الذي فرضته عليها الدول العربية، استقبلت بصمت.

عندما اغلق عبد الناصر مضايق تيران، قبل اندلاع الحرب بثلاثة اسابيع، طلبت إسرائيل من الولايات المتحدة ان تفي بالتزاماتها التي قطعتها على نفسها لإسرائيل، عام ١٩٥٦، مقابل الانسحاب من سيناء - أي ان يبقى الممر البحري الإسرائيلي في الجنوب، مفتوحاً.

في تلك الايام، كانت تتولى السلطة في الولايات المتحدة، أكثر الادارات الأمريكية تعاطفا مع إسرائيل. فالرئيس الأمريكي لينون جونسون، ونائب وزير الخارجية يوجين روستاو، والسفير الأمريكي لدى الامم المتحدة، ارثور جولدبرغ كلهم كانوا اشد المؤيدين لإسرائيل.

لكن، حتى هذه الادارة الصديقة، اخذت تماطل مدعية انها لم تعثر على نسخة الالتزام الأمريكي تجاه إسرائيل. وبدأ الحبل يشتد على عنق إسرائيل، صحيح ان الرأي العام الغربي وقف، دون تحفظ، إلى جانب إسرائيل. لكن الحكومات لم تحرك ساكناً لصالحها. وبقيت إسرائيل وحيدة في مواجهة العالم العربي.

وفي إسرائيل، سادت حالة نفسية سيئة، كانت اخر تجربة حربية خاضتها إسرائيل، في حملة سيناء، قبل ١١ سنة. وفي تلك الحرب، لم يهاجم العرب المدن الإسرائيلية، ولكن الان، بعد ١١ سنة، تقترب الحرب مرة اخرى. وكان التهديد حقيقياً أكثر بكثير.

في الخامس من حزيران، افقت من نومي على صوت انفجار هائل قريبا من بيتنا، صعدت راكضا إلى السطح، حيث شاهدت، مندهشا، القنابل الأردنية وهي تتساقط على القدس. سقط بعض القنابل على بيوت سكنية، وادت إلى مقتل٢٠ شخصا واصابة مئات آخرين، وكان مبنى الكنيست الإسرائيلية والمتحف من بين أهداف القصف الأردني.

بالنسبة لي، كان ذلك منظراً جيداً. كنت في الثامنة عشرة من عمري، وقد امضيت السنوات الثلاث الاخيرة في مدرسة ثانوية في فيلادلفيا في الولايات المتحدة، حيث كان والدي يعمل هناك باحثاً تاريخياً.. وفي اواخر شهر ايار ١٩٦٧، عندما اصبحت نوايا الحرب العربية أكثر وضوحا قدمت موعد امتحاناتي، وتوجهت إلى إسرائيل، ولم يحاول والدي منعي. وعندما هبطت الطائرة في مطار اللد، مساء يوم الاول من حزيران، كان المطار مظلما، وبعد قضاء ليلة مظلمة اخرى في القدس ايضا، خرجت ابحث عن اخي، كان يوني، آنذاك، في الحادية والعشرين من عمره، وكان استقال قبل بضعة اشهر من الخدمة الالزامية كضابط مظليين، لكن تم تجنيده مرة اخرى في الاسبوع الاخير من شهر ايار، في نطاق الاحتياط.

بقيت ابحث عنه حتى عثرت عليه في لواء رقم ٨٠/ بالقرب من الطريق المؤدية من الرملة إلى الخضيرة، واثناء الحديث معه سألته: ماذا تتوقع ان يحدث؟

اجابني بكل بساطة: "سننتصر ليس امامنا خيار".

ثم رأيته في المرة الثانية، بعد عشرة ايام، في مستشفي صفد. حيث كانت وحدته قد هبطت من طائرات هليوكبتر في ام لتف، خلف الخطوط المصرية، لتفتح الطريق للدبابات اثناء تقدمها في سيناء. ثم نقلوهم من سيناء إلى التلال الواقعة على سفوح هضبة الجولان. ومن هناك واصلوا تقدمهم إلى اعلى الهضبة، واثناء الهجوم على موقع سوري في "جلبينا"، قتل زميل يوني وعندما حاول انقاذه أُصيب هو الآخر بطلقة في يده.

عندما زرته في مستشفي صفد، بعد ٢٤ساعة على نهاية الحرب، كان يوني المصاب الوحيد الذي لم تقطع له يد أو رجل من بين المصابين في قسم الجراحة في المستشفى. (٧٧٧) جندياً إسرائيلي قتلوا في حرب الايام الستة، وفي اقل من اسبوع، حقق الجيش الإسرائيلي نصراً رائعاً على اولئك الذين ارادوا ابادة إسرائيل.

فقد الأردن كل الاراضي (الضفة الغربية والقدس): وفقدت سوريا هضبة الجولان، وفقدت مصر شبه جزيرة سيناء، وقطاع غزة، واصبحت إسرائيل التي كانت قبل الحرب

دولة صغيرة، الان دولة واسعة. وثلت حودها الشرقية التي كانت تبعد١٦ كم عن البحر، إلى نهر الأردن ٦٥ شرقاً، وشكلت سيناء حاجزاً برياً ضخماً بين إسرائيل ومصر. وزودت إسرائيل بمعظم احتياجاتها مـن الـنفط، اما في هضبة الجـولان، فقـد انقلبـت الامـور: اصـبح الجنـود الإسرائيليـون، لاول مـرة، ينطـرون إلى الجنـود السوريين من الاعلى.

بغض النظر عن الاسباب التي جعلت العرب يتخلون عـن الحـذر في الاقـوال والافعـال، عـشية حـرب الايام الستة، كانت تلك هي المرة الاخيرة التي كشفوا فيها امام العالم كله، هدفهم الحقيقي - القـضاء عـلى إسرائيل. لم يتوقعوا الضربة الجوية الوقائيـة في الـساعات الـثلاث الاولى للحـرب، التـي دمـرت سـلاح الجـو المصري تماماً، الذي كـان يـشكل العمـود الفقـري في قـوة العـرب الجويـة. وفي نفـس اليـوم، دمـر الجـيش الإسرائيلي سلاحي الجو الأردني والسوري، بعد ان بدءا الهجوم. وهكذا حظيـت الـدروع الإسرائيليـة بحريـة حركة مطلقة على الأرض، والطائرات الإسرائيلية بسيطرة كاملة في الجو - دمج لا مثيل له في حرب الصحراء ولم تطلق إسرائيل، طلقة واحدة، في جبهتي الأردن وسوريا، إلى ان تعرضت لـلـهجوم.

في (٥) حزيران قصف السوريون قاعدة سلاح الجو الإسرائيلي بالقرب من مجيـدو، واهـدافاً اخـرى في حيفا وطبريا، وبدأوا بقصف مدفعي من الجولان. وكذلك الحرب على الجبهة الأردنية، بدأت بعـد ان شرع الأردنيون بقصف شديد على اهداف داخل إسرائيل.

من هناك، نجد ان نظيري البريطاني الذي ادعى ان إسرائيل هي التي بدأت الهجـوم في حـرب ١٩٦٧، ربمـا صدق في كل ما يتعلق بمصر، لكن مصر كانت قد اعلنت في الواقع، الحرب عندما اغلقت مضايق تيران.

لذا، عندما وقفت إسرائيل امام خيارين: اما القـضاء عـلى الخطـر الـذى يهـدد حياتهـا، وامـا قذفها إلى البحر، اختارت الحياة: هبت للقيام بعملية غـير متوقعـة وحاسـمة لانقـاذ نفـسها مـن المصير الذي اعد لها العرب. ان المزاج الذى كان سائداً في اوساط جنود الجيش الإسرائـيلي آنـذاك، وجد تعبـيراً لـه في قـصة كـان يتـداولها الجنـود اثنـاء فـترة الانتظـار التـي سـبقت الحـرب، وقـد

روى لي يوني هذه القصة في رسالة بعثها من موقعه في بيارة قرب الرملة، في ٢٢ أيار ١٩٦٧، جاء فيها:

"جالسون، ننتظر. ما الذي ننتظره؟ الوضع، كما يلي: انجليزي، أمريكاني، وإسرائيلي، القي القبض عليهم في افريقيا من قبل قبيلة من اكلة لحوم البشر. عندما وضعوهم في القدرة، سمحوا لكل واحد منهم بأمنية اخيرة. طلب الانجليزي كأس ويسكي وغليون واعطي ما طلب، ثم طلب الأمريكي لحمة ستيك، واعطي ما طلب. اما الإسرائيلي فطلب من زعيم القبيلة ان يرفسه برجله على مؤخرته. في البداية رفض طلبه. ولكن بعد جدال رفسه بقوة على مؤخرته. اخرج الإسرائيلي مسدساً وقتل كل القبيلة. سأله الانجليزي والأمريكي: ما دمت تملك مسدساً طيلة الوقت. لماذا لم تقتلهم قبل ذلك؟

اجاب الإسرائيلي: مجانين. ليقولوا عني في الامم المتحدة انني المعتدي.

غير انه هكذا، تماماً، تصرفت الامم المتحدة ومعها معظم دول العالم. لم يمض وقت طويل حتى نددت الامم المتحدة بإسرائيل لرفضها طبخ نفسها في القدر الذي اعد لها عبد الناصر والعرب. صحيح ان هذا لم يحدث فوراً. في البداية كانت قرارات مجلس الامن الدولي موزونة ومتزنة تحت تهديد الفيتو الأمريكي)، ودعت إلى ضبط النفس والتفاوض لتحقيق السلام بين الاطراف. لكن قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة لم تكن كذلك. فسرعان ما عبر العرب عن شعورهم بالفشل، بواسطة الهجمات الغاضبة، وايدهم بذلك الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له لاسبابهم الخاصة بهم، وربما ان إسرائيل غزت افريقيا باحتلالها شبه جزيرة سيناء، فقد ندد بها بوصفها ذات نظام استعماري جيد. و لم تعد توصف بأنها اداة بيد الامبريالية، انما كأمبراطورية مستبدة بقوتها الذاتية. وقطع الاتحاد السوفياتي والعالم الثالث علاقاتهم الدبلوماسية مع إسرائيل ونددوا، بالمعتدي الجديد، ووصفوا ما قامت به إسرائيل للدفاع عن نفسها بأنه: جريمة بشعة ضد العالم العربي، واستفزاز خطير لشعوب آسيا وافريقيا وبقية العالم.

وحقيقة ان كل ما دار آنذاك، رغم ان إسرائيل دافعت عن نفسها ضد مجرم كـان يـستهدف وجودهـا بالذات، كانت مثابة انتصار لا بأس به للدعاية العربية، لكن العرب، ادركوا انه يجـب عـدم الإكتفـاء. بهـذ التهديدات من جانب الكتلة السوفياتية والصين والعالم الثالث، اذ بعد ان اسـتعادوا وعـيهم، اثـر الهزيمـة، بدأوا يتفحصون تكتيكهم ضد إسرائيل بصورة جذرية.

فبعد ان فقد العرب اراضي استراتيجية في حربهم ضد إسرائيل، وفقوا سلسلة الجبال التي تسيطر على وسط إسرائيل، ادركوا انهم لم يعودوا قادرين على توقيـع تحقيـق انتـصار سـهل: اولاً يجـب علـيهم اعـادة إسرائيل إلى الحدود الضعيفة التي كانت لهـا قبـل ١٩٦٧. لـذلك يجـب ان تمـارس عليهـا ضـغوطاً سياسـية شديدة، ومثل هذا الضغط يمكن ان يأتي مـن جانـب الغـرب فقـط، فإسرائيـل هـي دولـة غربيـة مرتبطـة بمساعدات أمريكية، لذا يتوجب على العرب كسب عطـف الـرأي العـام الغـربي، مـن خـلال حملـة دعايـة مستمرة ومحكمة وشاملة. عليهم ان يغيروا المفاهيم الاساسية للنزاع، وتغطية جـوهره الحقيقـي، وعرضـه بصيفة مقبولة، وحتى مقنعة، في نظر الجماهير الغربية.

قبل كل شيء، عليهم التوقف عن الاعلان عن نواياهم صراحة على غرار ما كـانوا يفعلـون قبـل حـرب الايام الستة، وتخفيف حدة اقوالهم إلى درجة كبيرة، فقـد اتـضح الان، ان الحـديث عـن القـاء إسرائيـل في البحـر لـيس مفيـداً، اذ لم تعـد الـشعوب في معظـم دول العـالم مـستعدة لـسماع مثـل هـذ الاقـوال. كـما ينبغي لهم صياغة ادعاءات جديدة لتبرير عدائهم، المثير للاستغرابه لإسرائيل. ولا يوجد افـضل مـن الـدليل على عدوانية إسرائيل، حقيقة كونهـا خرجـت مـن الحـرب الاخـيرة اكـبر واقـوى واوسـع اراضي مـما كانـت عليه قبل العرب، أي ان كـل المنـاطق التـي فقـدها العـرب في حـرب الايـام الـستة، والتـي كانـت منطلقـاً لاعتـداءاتهم عـلى إسرائيـل، حتـى عـام ١٩٦٧، اصـبحت الان تقـدم عـلى انهـا نمـاذج لتـشهية التوسـع الإسرائيلية. وهكـذا عرضـت نتـائج العـدوان العـربي، عـلى انهـا اسـباب لهـذا العـدوان. الآن، بـدأ الـزعماء العــرب يطــالبون باســتعادة هــذه المنــاطق، ونجحــوا في اقنــاع الكثــيرين بعدالــة مطلــبهم. واصــبحت

امامنا نظرية جديدة في العلاقات الدولية: لم يسبق ابداً ان استطاعت دول فقدت اراضي في حرب عدوانية، بتحويل نفسها إلى ضحية بهذه السرعة، بالتأكيد، لم تتصرف المانيا هكذا بعد الحرب العالمية الثانية، ولا اليابان أو ايطاليا حليفتاها لا توجد سابقة ابداً لمثل هذه الظاهرة التي يطالب فيها معتد مهزوم باستعادة ما فقد في الحرب، ناهيك عن كون العرب يطالبون بنفس الاراضي التي كانت منطلقاً للعدوان.

اعتمد التأييد الني حظيت به مطالب العرب باستعادة مناطق الضفة الغربية وغزة،على المبدأ الوارد في ميثاق الأمم المتحدة والذي يقضي بأن الإستيلاء على اراضي بالقوة، عمل غير مشروع،تماماً مثلما ان سرقة ممتلكات شخص ما، مخالفة للقانون، لكن هنالك كثيراً من المراءاة في هذا المبدأ، حيث ان الدول التي تنادي بهذا المبدأ، سبقت ان احتلت وضمت بحماس مناطق واسعة في العالم من اجل انشاء الامبراطوريات الضخمة وعندما كان الموضوع يخدم مصالحها، لم تتورع هذه الدول عن استخدام القوة في الماضي، كما انها لم تتردد في اللجوء إلى القوة، في الحاضر ايضاً، للمحافظة على ما بقي لديها من مناطق محتلة كلما دعت الحاجة.

واكثر من هذا: ان استيلاء إسرائيل على اراضي الضفة الغربية وغزة، كان مختلفاً، من حيث الهدف، عن كل النماذج التاريخية لاحتلال الاراضي بما فيها الصراعات التي خاضها الأمريكيون ضد الهنود الحمر، وضد المكسيك والتى حددت حدود الولايات المتحدة الأمريكية.

لم تخرج إسرائيل ابدا لاحتلال اراض، انما ارغمت على خوض حروب دفاعية الواحدة تلو الاخرى ضد انظمة حكم ذات ايديولوجية تصر إلى ابادة إسرائيل. هنالك اهمية حاسمة لحقيقة كون الاراضي التي يطالب العرب باستعادتها - سلسلة جبال الجولان، والضفة الغربية وقطاع غزة - كانت مناطق حشد عربية تمهيداً للهجوم على إسرائيل في حرب الايام الستة، وقواعد الارهاب خلال السنوات التي سبقت الحرب، حتى ان سوريا استغلت هضبة الجولان لتهديد مصادر المياه لإسرائيل، بينما دفعت مصر بقوات عسكرية إلى سيناء لهدف واضح، هو الهجوم على إسرائيل.

في مثل هذه الظروف فان استخدام القوة لاحتلال الاراضي، يشبه العمل ضد شخص مسلح بمسدس، اطلق عليك طلقتين، ويجب ان تأخذ المسدس من -يده قبل ان يطلق عليك النار في المرة الثالثة، فالدول التي كانت هدفا للعدوان، لها مصلحة عادلة في حماية نفسها من خطر هجوم آخر جديد.

لقد تم الاعتراف بهذا المبدأ في أكثر من حالة عرفتها دول كثيرة، حتى عندما كانت تواجه خطرا اقل بكثير مما تواجهه إسرائيل، فالولايات المتحدة، احتفظت بجزيرة اوكيناوا (حوالي ١٣الف كيلومتر عن شواطىء كاليفورينا) لمدة ٣٠سنة بعد الحرب العالمية الثانية، كضمان لعدم قيام اليابان بهجوم جديد، وهكذا، سيطر الاتحاد السوفياتي ايضاً على شرق اوروبا، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وبلغاريا، ورومانيا (بموافقة الولايات المتحدة)، مدعية ان هذه السيطرة تشكل حاجزا على وجه عدوان الماني جديد، وتجدر الاشارة إلى ان اليابان والمانيا كانتا مدمرتين: تم تجريدهما من الاسلحة ووضعتا تحت اشراف عسكري من جانب الدول الغربية، وكان احتمال مبادرتهما بشن عدوان عسكري، ضعيفاً جداً، ورغم ذلك، لم تكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على استعداد للمخاطرة ابداء لان الامر كان يتعلق بأمنهما القومي.

هيا، نتفحص وضع إسرائيل: مناطق الضفة الغربية، قلب وطن الشعب اليهودي، تبعد امتاراً معدودة عن القدس العاصمة، وبضعة كيلومترات فقط عن ضواحي تل أبيب، في الوقت الذي تواصل فيه الدول المجاورة لإسرائيل التزود بالسلاح، وواحدة منها لا تخفي نواياها بأنها ستستخدم الاراضي التي ستعاد اليها، لمهاجمة إسرائيل من جديد.

من الغريب ان الأكاذيب التي يروجها العرب حول غريزة التوسع الإسرائيلية، لا زالت مقبولة رغم ما وافقت عليه إسرائيل عام ١٩٧٩، في إطار اتفاق السلام مع مصر، بشأن اعادة٩١ % من الأراضي التي احتلتها في حرب دفاعية، وبعد ان استثمرت في تطوير شبه جزيرة سيناء مليارات الدولارات، بما فيها آبار النفط التي زودت إسرائيل بمعظم حاجتها

من الطاقة. وهو العمل الذي لم يسبق ان قام به طرف منتصر في التاريخ. أية أمة أخرى، يمكن ان تتنازل عن مصادر نفطها وتصبح مرتبطة باستيراد الوقود، سبيل تحقيق السلام، فقط؟

هنالك شيء واحد واضح، هو أن احتلال المناطق في عام ١٩٦٧، لا يمكن ان يكون مصدر النزاع بين إسرائيل والعرب الذي بدأ قبل ذلك بكثير، كما أن اللاجئين الفلسطينيين لا يمكنهم ان يكونوا هم أيضاً مصدراً لهذا النزاع. رغم ان العرب قبل ١٩٦٧، كانوا يستخدمون مشكلة اللاجئين لتبرير كراهيتهم لإسرائيل، غير أن هذه المشكلة لم تكن موجودة عام ١٩٤٨، وعندما خرج العرب لابادة إسرائيل بعد الاعلان عن ولادتها بقليل.

في اليوم الذي هاجمت فيه خمسة جيوش عربية دولة إسرائيل، أعلن عزام باشا،سكرتير عام الجامعة العربية آنذاك :"ستكون هذه حرب إبادة.مذبحة عظيمة سيتحدث التاريخ عنها كما تحدث عن مذابح المنغوليين والصليبيين".

في عدة أماكن. مثل حيفا وطبريا، توسل اليهود لجيرانهم العرب للبقاء في أماكنهم (وتم توثيق هذه المحاولات من قبل موظفين بريطانيين، وصحفيين غربيين كانوا في المنطقة). وفي أماكن أخرى هرب السكان العرب خوفاً من قوات الجيش الإسرائيلي، ولكن لا يجوز أبداً وصف خروج الأغلبية من العرب، من البلاد، بأنه جاء نتيجة لأعمال طرد.

وفي المقابل، أمرت الحكومات العربية السكان الفلسطينيين بمغادرة قراهم ومدنهم، وفتح الطريق أمام الجيوش العربية المتقدمة. ورغم ذلك، يتكرر الادعاء بان نصف مليون لاجىء عربي طردتهم إسرائيل، حتى أن هذا الادعاء أصبح مقبولاً، مع مرور الوقت، لدى الرأي العام العالمي.

غير أنه بعد "حرب الاستقلال"، كانت هنالك لحظات صراحة: في شباط ١٩٤٩، كتبت صحيفة "فلسطين" الأردنية ان الدول العربية شجعّت العرب الفلسطينيين على مغادرة

بيوتهم لوقت ما، لكي لا يعيقوا تقدم الجيوش العربية". كما كتبت صحيفة "الهدى" اللبنانية الصادرة في نيويورك، في حزيران ١٩٥١: "تعهد السكرتير العام للجامعة العربية، عزام باشا، للشعوب العربية بأن احتلال فلسطين وتل أبيب، سيكون بسيطاً، كنزهة عسكرية... وقبل عرب فلسطين نصيحة اخوانهم لترك منازلهم وممتلكاتهم والاقامة لوقت ما في الدول الشقيقة المجاورة، لكى لا تحصدهم نيران مدافع الجيوش العربية".

وفي عام ١٩٥٩، أوردت صحيفة "الدفاع" الأردنية أقوالاً أدلى بها لاجيء فلسطيني: قالت لنا الحكومات العربية، أُخرجوا كي نستطيع الدخول.

وفي عام ١٩٦٣، -كبت صحيفة "أخبار اليوم" القاهرية ما يلي: "جاء الخامس عشر من أيار... في ذلك اليوم توجه مفتي القدس إلى عرب فلسطين، داعياً إياهم لمغادرة البلاد لان الجيوش العربية تستعد للدخول وخوض الحرب عوضاً عنهم".

بالطبع، فضل الزعماء العرب ان ينسوا هذا الفصل من التاريخ، واعادوا صياغته من جديد. وبهذه الطريقة ازالوا عن انفسهم أية مسؤولية عن مشكلة اللاجئين، وحمّلوا هذا الوزر كله لإسرائيل فقط. وفي هذا الشأن ايضاً كما هو الحال بالنسبة للمناطق التي فقدوها في حرب الأيام الستة، عرض العرب نتائج حرب "الاستقلال" - اللاجئين - كسبب للحرب.

ولكن لكي تنجح هذه المكيدة، كان عليهم أن يضمنوا بقاء اللاجئين، لاجئين، مساكين، مشردين إلى الأبد.

إن العالمين بشؤون الئشرق الأوسط، يمتعضون لدى سماعهم أن منظمة التحرير الفلسطينية وعدة دول عربية أخرى، منعت بصورة منهجية، خروج اللاجئين من المخيمات. إذ كان اللاجئون، بالنسبة لمنظمة التحرير، كنزاً ثميناً لأغراض الدعاية وتجنيد المقاتلين. وعندما تدعو الضرورة لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية تتردد في استخدام القوة، لضمان عدم حل مشكلة اللاجئين.

إن رفض الزعماء العرب الشديد، حل قضية اللاجئين مأساوي بشكل خاص، لانهم كـانوا قـادرين عـلى عمل ذلك بسهولة، لو أرادوا. فمنذ الحرب العالمية الثانية أصبح ما يزيد عـلى٩٠ مليـون نـسمة، لاجئـين في أنحاء العالم، وتم حل مشكلتهم جميعـاً تقريبـاً وبنجـاح. حتـى ان إسرائيـل التـي كـان عـدد سـكانها عـام ١٩٤٨،٦٥٠ ألف نسمة فقط، وكان إقتصادها يئن تحت عـبء امنـي لا يحتمـل، اسـتطاعت اسـتيعاب٨٠٠ ألف لاجىء يهودي، من نفس الحرب التي خلقت مـشكلة اللاجئـين العـرب، وحقيقـة ان٥٠ مليـون عـربي كانوا يعيشون في الدول العربية عام ١٩٤٨، لم يستوعبوا، طيلة٤٠ سنة،٦٥٠ ألف لاجيء عربي، رغـم الـثراء الفاحش الذي نعموا به من تجارة النفط، تدل على مدى الوحشية التي استغل بها العرب معاناة اللاجئـين، من أجل توفير الذريعة للتنديد بإسرائيل فقط.

قال الدكتور، ألفن ريس، المستشار لـشؤون اللاجئـين التـابع "لمجلـس الكنـائس العـالمي": إن مـشكلة اللاجئين العرب، هي الاسهل من بين كل مشاكل اللاجئين التـي نجمـت عـن الحـروب. فهـؤلاء اللاجئـون لا يختلفون بشيء عن سكان الدول المقيمين فيها، لا من حيث دينهم، ولا لغتهم، ولا عنـصرهم، ولا تنظـيمهم الاجتماعي". وأفادت العنـاصر الأجنبيـة التـي حاولـت حـل مـشكلة اللاجئـين العـرب بعـد عـام ١٩٤٨، ان استيعاب هؤلاء اللاجئين في الدول العربية يمكن ان يكـون سـهلاً وطبيعيـاً جـداً. فقـد كتبـت لجنـة تقـصي الحقائق المنبثقة عن الكونغرس الأمريكي والتي أُرسلت لدراسة أوضاع اللاجئين في عام ١٩٥٣، ما يلي:

يجب ان تُلغى، بأسرع ما يمكن، صفة اللاجئين كمجموعة خاصة من الناس ترعاهم الامم ٠ المتحـدة. يجب أن يكون الهدف، هو تحويل اللاجئين إلى مواطنين في الدول العربية".

كما جاء في دراسة اجراها معهد(Chatham House)البريطاني، عام ١٩٤٩، انه إذا تم رصـد المـوارد الماليـة عـلى صـعيد دولي، سيتمكن معظم اللاجئين العرب من التوطن في العراق وسوريا؛ توجد لـدى هـاتين الـدولتين مـساحات واسـعة مـن الأراضي، خالية وجاهزة للتطوير الزراعي، يمكنها حل مشكلة تشغيل اللاجئـين". هنالـك دراسـة أخـرى، اجراهـا "المجلـس

الاستشاري للتطوير الدولي" افادت بأن العراق وحدها قادرة على استيعاب كل اللاجئين العرب.

على الرغم من السياسة العربية الهادفة إلى منع حل قضية اللاجئين، اتضح ان الواقع الذي ذكره الدكتور ريس، أقوى من نوايا الحكام العرب. إذ ان كثيرين من اللاجئين العرب اندمجوا في الاقتصاد والمجتمع، في الدول التي يقيمون فيها.

معظم العرب الفلسطينيين، يسكنون في بيوت خاصة بهم، وكثيرون منهم يعيشون كمواطنين ذوي حقوق في المملكة الأردنية. كما أن معظم العرب في الضفة الغربية ليسوا لاجئين مشردين لا بيوت لهم. انهم يملكون الجنسية الأردنية ويقطنون بيوتهم التي كانوا يعيشون فيها قبل قيام دولة إسرائيل. ان عدد اللاجئين الذين يعيشون تحت الحكم الإسرائيلي حوالي ٥٠٠ ألف. بعضهم يعيش في الضفة الغربية، لكن غالبيتهم تعيش في قطاع غزة، (معظم سكان القطاع ليسوا لاجئين)، جميع المحاولات الإسرائيلية لتفكيك مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية وغزة، واعادة اسكانهم، أحبطت، المرة تلو الأخرى، من قبل منظمة التحرير الفلسطينية والعالم العربي.

ان الوضع الخطير والحقيقي المتمثل في عدم وجود مأوى للفلسطينيين نشأ بعد حرب الخليج بالذات. بعد أن طردت الكويت الفلسطينيين من اراضيها، كرد على تعاونهم مع المحتلين العراقيين، إذ طرد حوالي ٣٠٠ ألف من أصل فلسطيني من الكويت (أكبر عملية ترحيل إجبارية في تاريخ العرب الفلسطينيين). ووجد جميعهم، تقريباً، مأوى لهم في الأردن، حيث أستقبلوا هناك كمواطنين بكل معنى الكلمة. واذا كان هنالك عدد مماثل من العرب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، لم يندمجوا حتى اليوم في المجتمع العربي، فان الأمر ناجم، اولاً وقبل كل شيء، عن الضغوط السياسية التي تمارسها الدول العربية والارهاب من جانب منظمة التحرير الفلسطينية. ورغم ذلك، لا يزال العرب يلصقون بإسرائيل تهمة استمرار بقاء مشكلة اللاجئين، التي تستخدم سلاحاً سياسياً ضدها.

ومع مرور الوقت، اتضح للدعائيين العرب، ان أمضى الأسلحة، قد تصبح عيمة الجدوى وغير فعّالة، إذا لم تشحذ من جديد. وربما يحتاج الامر إلى إضافة انواع جديدة من الأسلحة. وهكذا حدث للادعاءات العربية، مثل: "الاراضي المسلوبة"، واللاجئين المشردين، حيث تبين أنها لا تصمد دائماً أمام الاختبارات العملية في الرأي العام الغربي. لذا أضطر العرب لتبني تبرير ثالث جديد، يعتمد على مبدأ "تقرير المصير" المتعارف عليه في العالم: لقد سُلب الشعب العربي الفلسطيني حقوقه المشروعة، وان أحد هذه الحقوق هو حقه في وطن خاص به". وتجدر الاشارة إلى ان شعارات "تقرير المصير للفلسطينيين"، و "الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني"، أصبحت عملة متداولة، بعد هزيمة العرب في عام ١٩٦٧، فقط.

طيلة مدة حكم المملكة الأردنية للضفة الغربية، الذي استمر١٦ سنة، لم يتفوّه الحكام العرب، أو اجهزة الدعاية العربية بأي كلمة عن "وطن" للعرب الفلسطينيين في الضفة الغربية ولا عن "حقوقهم المشروعة". وكذلك الحال بالنسبة للحكم المصري في قطاع غزة: عندما كان الزعماء العرب يتحدثون عن "حقوق الفلسطينيين"، كانوا يقصدون دائماً إسرائيل، داخل حدود عام ١٩٦٧، أي حيفا ويافا وعكا، وكان الاستنتاج الطبيعي لهذه الاقوال واضحاً: لكي نحقق هذه "الحقوق المشروع" يجب اولاً تدمير إسرائيل.

أما التناقض فهو أن الذين كانوا يلقبون انفسهم "بفلسطينيين" في عهد الانتداب البريطاني هم يهود فلسطين، بالذات: الـ Palestine Post، والموسيقى الفلهرمونية الفلسطينية، كانتا يهوديتين. كما ان الجنود الذين خدموا في اطار اللواء اليهودي في الجيش البريطاني، كانوا يدعون من قبل البريطانيين "فلسطينيين"، وكان هذا المصطلح خاصاً، آنذاك، باليهود. صحيح أنه كان آنذاك إلى جانب "اليهود الفلسطينيين" "عرب فلسطينيين" أيضاً،بيد أنه في تلك الأيام لم يكن عرب "أرض إسرائيل" يرفعون شعارات قومية خاصة منفردة، وكانوا يؤكدون دائماً على "إنتمائهم للأمة العربية".

إن انتماء العرب الفلسطينيين للأمة العربية، لم يضعف مع مرور الوقت أبداً. فها هـو يـاسر عرفـات، زعيم منظمة التحرير الفلسطينية يقول: "ان مسألة الحدود لا تعنينا. ففلسطين ليست سوى نقطة واحـدة في المحيط العربي الواسع... أمتنا" هـي الامـة العربيـة الكـبرى، الممتـدة مـن المحـيط الاطلنطـي، إلى البحـر الاحمر وما وراءه". وكذلك، زهير محسن، عضو اللجنة التنفيذية التابعة لمنظمة التحريـر الفلـسطينية، ادلى باقوال مماثلة: "لا يوجد فرق كبير بين أردنيين، أو فلسطينيين، أو سوريين ولبنانيين. كلنا شعب واحد".

ولكن بعد حرب الأيام الستة بوقت قصير، بدأ العالم العربي يتحـدث عـن الـشعب الفلـسطيني الـذي أُحتلت اراضيه، وكأن امة فلسطينية قد خُلقت فجأة من العدم.

ان تكون أمة جديدة، هي عملية معقدة دائماً. فتطور هوية قومية مستقلة، يأتي دائماً كنتيجة لمـسيرة تاريخية طويلة، تبرز في نهايتها، علامات مشتركة، في الكيان الجديد مثل: اللغـة، الثقافـة، الـدين، والتـاريخ، تكون خاصة بهذا الكيان، لتمييزه عن بقية الكيانات الأخـرى. ولكـن، لـو افترضـنا، جـدلاً، أن الفلـسطينيين حققوا قفزة مدهشة، وبين عشية وضحاها، اكتسبوا الخاصيّة القومية، التـي تحتـاج شـعوب أخـرى مئـات السنين لإكتسابها، ولذا. فهم يستحقون وطناً قومياً خاصاً بهم. أين يوجد هـذا الـوطن القـومي. ومـن هـو الشعب الفلسطيني بالذات، الذي سيسكنه؟

مـن الأهميـة بمكـان، ان نـستمع إلى مـا يقولـه بهـذا الـشأن، الـزعماء العـرب، ومـن ضـمنهم زعـماء الفلسطينيين أنفسهم.

هذه منظمـة التحريـر الفلـسطينية الملتزمـة، بتحقيـق تقريـر المـصير للـشعب الفلـسطيني، ادعت لدى تأسيـسها، عـام ١٩٦٤، ان طموحاتهـا تـشمل كـل "أرض إسرائيـل" الـشرقية والغربيـة معـاً، أي إسرائيـل والمملكـة الأردنيـة الهاشـمية. وقـد تـم التأكيـد عـلى هـذه الاقـوال، أكـثر مـن مرة، وبوضوح، على غرار ما حدث، مـثلاً، في المـؤتمر الامـن للمجلـس الـوطني الفلـسطيني الـذي عقـد في شـباط - آذار ١٩٧١: "مـع الاحـترام والثنـاء عـلى شـعار تحريـر فلـسطين... لم يكـن

قصد الثورة الفلسطينية التفريق بين شرق النهر وغربه، كما أنها لا تـؤمن بامكانيـة فـصل نـضال الـشعب الفلسطيني عن نضال الجماهير في الأردن".

في ضوء محاولات التقارب، أو على الأقل الهدنة السياسية، بين الأردن ومنظمـة التحريـر الفلـسطينية، يتوخى زعماء المنظمة الحذر في تصريحاتهم العلنية، من التطرق إلى هذا المطلب القديم.

ولكن الحقيقة تظهر من خلال تصريحاتهم في الماضي.

كان من الممكن توقع قيام الأردنيين باتخاذ موقف متشدد تجاه هذه الاقوال، لكنهم لم يفعلـوا شـيئاً. في عام ١٩٧٠، قال ولي العهد الأردني، الامير الحسن، في كلمة أمام البرلمان الأردني:

"فلسطين هي الأردن، والأردن هو فلسطين، يوجد هنا شعب واحد وأرض واحـدة، لهـما تـاريخ واحـد وهدف واحد".

وقال الملك الحسين في حديث مع التلفزيون المصري عام ١٩٧٧ : "الشعبان، هما شعب واحد بالفعـل. وهذه حقيقة".

وفي مقابلة مع صحيفة عربية تصدر في باريس قال الحسين عام١٩٨١: "الحقيقـة هـي ان الأردن هـي فلسطين، وفلسطين هي الأردن". ثم كرر نفس الأقوال في مقابلة نشرتها صحيفة الأنباء الكويتية عام ١٩٨٤.

"الأردن هي فلسطين... يجب على الأردنيين والفلسطينيين أن يدركوا أن مصيرهم واحـد". ثـم قـال ان "الأردن نفسها هي فلسطين".

وفي عام ١٩٨٨، قال أبو اياد، من زعماء منظمة التحرير الفلـسطينية: "إننـا نطالـب بكونفدراليـة مـع الأردن، لأننا نفس الشعب".

وفي السنوات الأخيرة، غيّر الملك الحسين ومنظمة التحرير الفلسطينية لهجتهما إلى حد ما، بهذا الشأن، لتجنب النزاع المحتوم بينهما، والذي ينبع من السؤال:من يحكم فلسطين الشرقية(الأردن).

ولكن، سواء قيلت هذه الأقوال همساً، أم على رؤوس الأشهاد، فإن التصريحات العربية نفسها تؤكـد ما تقوله لنا الحقيقة التاريخية والمنطق الجفغرافي، وهو أن المنطقة التي يعلن الفلـسطينيون عنهـا كـوطن لهم تشمل حدود "أرض إسرائيل" الانتدابية، كما حُددت في حينها من قبل عـصبة الأمـم، وتـشمل منـاطق إسرائيل والأردن معاً.

من المضحك القول، أن عربيين يقيم أحدهما عـلى "أرض إسرائيـل" الـشرقية، والثـاني يقـيم عـلى بعـد عشرة كيلو مترات منه، على "أرض إسرائيل الغربية"، ولهما لغة واحدة وثقافة ودين مشترك، وهناك حالات كثيرة تتعلق بأبناء عائلة واحدة، أبناء نفس الأب والأم، وأشقاء حقيقيين، بالمفهوم البيولوجي للكلمة. وكان زعماء منظمة التحرير الفلسطينية والمسؤولون الأردنيون، أول من اعترفوا بهذا صراحة.

إن مـن يقبـل بنظريـة وجـود شـعب فلـسطيني يجـب عليـه أن يتـساءل: كـم هـو عـدد الـشعوب الفلسطينية المقـصودة؟ هـل يوجـد "شـعب فلـسطيني غـربي" في الـضفة الغربيـة لنهـر الأردن، و "شـعب فلـسطيني شرقـي" إلى الـشرق مـن النهـر؟ وكـم عـد الـدول العربيـة التـي يجـب ان نقيمهـا عـلى "أرض إسرائيـل" لتلبيـة مطلـب "تقريـر المـصير" لهـذ الـشعوب الفلـسطينية؟ لاشـك ان هنـاك في فلـسطين الانتدابيـة جماعتـين قـوميتين فقـط : يهـود وعـرب. وبـنفس الدرجـة مـن الواضـح أنـه توجـد في نفـس المنطقة دولتان فقط-إسرائيل والأردن. في الدولة العربية، الأردن، التي يبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة ملايين عربي، لا يوجد فيها يهودي واحد، بعد أن طرد كافة اليهود الذين عاشوا فيها، عام ١٩٤٨. وتمتد الأردن على أربعة اخماس المنطقة التي خصصتها، في حينه، عصبة الأمم، وطناً قومياً لليهود. أما الدولة الثانية، إسرائيـل فيبلغ عدد سكانها خمسة ملايـين نـسمة، سدسـهم عـرب، ولا تزيـد مـساحتها عـلى خمـس المنطقـة التـي

خصصت لليهود حسب الانتداب. وفي المنطقة الواقعة بين الدولتين، والتي هـي موضـوع الخـلاف الفـوري، أي، الصفة الغربية وشرق القدس، يعيش عربى و ٥٠٠ ٢ أف يهودي بالاضافة إلى ٢٥٠ ألف عـربي يعيـشون في قطاع غزة. إن مطالبة العرب الفلسطيين" بتقرير المصير"، مطالبة كاذبة، فسكان الأردن جميعهم عـرب فلسطييون (إذ ان الملك عبدالـلـه، جدّ الحسين، أراد في البدايـة أن يـسمي الأردن "المملكـة الفلـسطينية الهاشمية". ويشكل الأردنيون من أصل فلسطيني (من غرب النهر) أغلبـة مطلقـة مـن الـسكان الأردنيـين. وحقيقة أن قسماً من عرب فلسطين هاجروا عـام ١٩٤٨، إلى جـزء آخـر مـن فلـسطين، لا تـسمح لأي كـان بالقول ان العرب الفلسطينيين ليست لهم دولة خاصة بهم، وسُلبوا حق تقرير المصير.

إن معظم العرب الفلسطيين، يعيشون الآن في معظم منطقة فلـسطين الانتدابيـة، وقـسم كبـير مهـم يفضل هذه التسوية بما في ذلك استمرار حكـم العائلـة الهاشـمية في الأردن - الأمـر الـذي تريـده إسرائيـل بالتأكيد.لا داعي لتحويل الأردن إلى "دولـة فلـسطينية ". فقـد كانـت هكـذا، منـذ يـوم ولادتهـا. ومـا يمـى بالقضية الفلسطينية، يمكن حله في إطار الدولتين المـستقلتين، إسرائيـل والأردن، دون أن تقـام بـيهما دولـة ثالثة مصطنعة وغير مستقرة. فالمطالبة باقامة دولة عربية - فلـسطينية في الـضفة الغربيـة، تكـون الدولـة العربية الثانية والعشرين، ما هي سوى محاولة لدفع إسرائيل إلى حـدودها الهـشة، خطـوط الهدنـة لعـام ١٩٤٩، وتجريدها من الجزء اليسير الذي تبقى لها مما تعهدت به لها أُمم العالم، وعصبة الأمم، بشأن فرض سيادتها على فلسطين كلها.

إذاً، فمصدر النزاع العربي - الإسرائيلي ليس المنـاطق التـي نـشأت بعـد الهجـوم العـربي عـلى إسرائيل، عام ١٩٤٨، ولا حتى عدم تقريـر المـصير للعـرب الفلـسطينيين. إن جـذور النـزاع تكمـن في رفـض العـرب الـشديد الاعـتراف بحـق إسرائيـل في الوجـود، مهـما كانـت حـدودها، وبمـا أن ابواق الدعاية العربية كانت موجهة ضد إسرائيل فقط، فقد حظيـت هـذه الدعايـة بتأييـد عـدد كبـير مـن الـدول. غـير أن هـذه الـدول، ستـضطر لمعرفـة اسـتعدادها للـتمادي في تأييـد الخـدع

العربية هذه، وبخاصة التفسير المغلوط الني يقدمه العرب لمبدأ "تقرير المصير". لان المعركة التي يديرها العرب ضد إسرائيل، خلقت ما أنا مستعد لتسميته "المبدأ الفلسطيني".

الاقلية التي ترفض ان تكون أقلية، غير ملزمة بالبقاء أقلية. يجب التاكيد هنا، أن العرب لا يطالبون بمنح حقوق مواطنة للسكان الفلسطينيين في الضفة الغربية. لو كان هذا مطلبهم، لكان باستطاعة إسرائيل - بعد ضم هذه المناطق -ان تجعل جميع سكانها مواطنين فيها،أو أن تعرض عليهم منحهم حقوقاً فردية كاملة وفقاً للقانون الإسرائيلي كرعايا أجانب (وهكذا يحتفظ سكان الضفة بجنسيتهم الأردنية).

ان منظمة التحرير الفلسطينية، ومعظم الدول العربية ترفض هذه الامكانيات رفضاً باتاً، وترفض بشدة مجرد النظر في امكانية ان يعيش عرب الضفة الغربية في دولة إسرائيلية، ولو كانوا يتمتعون بالمساواة على صعيد حقوق الفرد. انهم غير معنيين بمثل هذه الحقوق. انهم يطالبون بحقوق وطنية على المناطق، أي إقامة دولة عربية اخرى، ونظام حكم عربي آخر، وجيش عربي آخر. إنهم لا يكتفون بوجود دولة فلسطينية شرق الأردن، التي تسيطر على معظم اراضي "أرض إسرائيل" وفيها اغلبية فلسطينية حاسمة. إنهم لا يوافقون على ان تعيش الأقلية الفلسطينية خارج حدود الأردن في منطقة خاضعة لإسرائيل، ويتمتعون بحقوق فردية كاملة، وفقاً لأية تسوية سياسية يتم الاتفاق عليها. انهم يرفضون كل هذه الامكانية باصرار. فالعرب الفلسطينيون الذين يعيشون في الضفة الغربية، تلك المنطقة الصغيرة، التي يبلغ طولها حوالي٩٠كم وعرضها ٤٥كم، يجب ان يحصلوا على دولة خاصة بهم.

ما الذى يحدثه "المبدأ الفلسطيني" هذا في العالم الشيوعي؟

لقد وصفت في مدخل هذا الكتاب، كيف ان المجتمع الدولي يعود الآن إلى أيام مؤتمر فرساي، ويبحث عن مبادىء سياسية، يستطيع بمقتضاها منح الاستقلال والسيادة لجماعات قومية وعرقية.

في حينه، كان الرئيس ويلسون، يطمح إلى ان تضمن اتفاقيات فرساي لكل أمة مفردة، دولة خاصة بها (ذلك الطموح الذي لم يتحقق في أي مكان من العالم بصورة كاملة)، غير أنه، هو أو غيره، من أصحاب فكرة تقرير المصير، لم يفكروا بأن كل أقلية قومية سيكون لها الحق في اقامة دولة مستقلة، إضافة إلى الوطن الذى يشكل فيه أبناء نفس الشعب أغلبية قومية.

وهكذا، على سبيل المثال، عند الحديث في فرساي عن تقرير المصير لليهود في "أرض إسرائيل" لم يطلب أي كان ان يكون من حق الاقليات اليهودية الكبيرة في انحاء العالم اقامة دولة خاصة بهم على أراضي الدول التي يعيشون فيها، وهكذا الوضع أيضاً، في النماذج التالية:

لا شك، مثلاً، ان اللتوانيين يحق أن تكون لهم دولة قومية مفصلة عن روسيا. ولكن، هل يحق للأقلية الروسية المقيمة في لتوانيا دولة خاصة بهم، في الوقت الذي توجد فيه دولة مستقلة للروس، هي روسيا؟ إن أياً كان، لا يستطيع قول هذا.

وكذلك، يحق للتشيكيين والسلوفاكيين، العيش في دولتين مفردتين، أو في دولة واحدة، حسب رغبتهم، ولكن هل من العدل القول، أن الأقلية الهنغارية في سلوفاكيا يحق لها المطالبة بدولة خاصة بها، بالاضافة إلى وجود الدولة الهنغارية المستقلة؟

وهكذا، أمثلة كثيرة، تعيش فيها أقليات على أوطان شعوب أخرى.

كما أن الولايات المتحدة الأمريكية معرضة لمثل هذا الكابوس. فمن المحتمل ان تنشأ في غضون عقد أو اثنين من الزمن، في مناطق جنوب غرب الولايات المتحدة، أغلبية "هسبانية "من المهاجرين القادمين من المكسيك. وليس من المستبعد ان يظهر من بين هؤلاء الهسبانيين، من يطالب بتطبيق "المبدأ الفلسطيني": لن يطالبوا معهم حقوقاً متساوية حسب القانون، بل سيقولون: بما أنهم يشكلون اغلبية محلية في المنطقة (التي أُحتلت في معظمها من المكسيك عام ١٨٤٨)، يحق لهم اقامة دولة خاصة بهم. ونستطيع الافتراض بأن يكون الرد الأمريكي

عليهم كما يلي:"لكن توجد لديكم دولة خاصة بكم، اسمها، المكسيك، أما في الولايات المتحدة، فمن حقكـم المطالبة بالحصول على حقوق المواطنة كاملة، لكن غير مسموح لكم المطالبة باقامة مكسيك ثانية". (تماماً، مثلما ان إسرائيل يجب ان تقول للسكان الفلسطينيين، الذين يطالبون بالـسيادة عـلى منـاطق تقـع داخـل حدودها.

ربما يبدو مثل هذا الحديث مع مهاجرين هسبانيين في الولايات المتحـدة، بعيـداً أو خياليـاً، ولكـن في المستقبل، ربما لا تبدو الأمور هكذا، وبخاصة، إذا سُمح للمبدأ الفلسطيني "بالانتشار".

ومن سخرية القدر، ان تطبيق "المبدأ الفلسطيني" سيلحق الضرر بحقوق الاقليات في العالم كله. فـاذا كانت كل أقلية تشكل في خطراً فعلياً على سلامة ووجود الدولة التي تعيش فيها. فلا بد أن تبحث الأغلبية في هذه الدول عن طرق لقمع وضغط مثل هـذه الأقليـات، أو ربمـا لتـصفيتها في النهايـة مـثلما يحـدث في البوسنة والهرسك،حيث يمارس هناك الصرب حملـة منهجيـة للتطهـير العرقي،ضـد أقليـة مـسلمة، تُـشكل أغلبية محلية. واذا كان يحق لكل أقلية الانفصال عـن الدولـة التـي تعـيش فيهـا، فلـيس مـن الغريـب ان يتوصل البعض إلى استنتاج، أنه من الأفضل لهم طرد هذه الأقلية من داخـل الحـدود والـتخلص مـن هـذه المشكلة نهائياً.

إن من شأن "المبدأ الفلسطيني"، على أية حال، أن يدخل إلى عالمنا أُسـس انقـسام وعـدم اسـتقرار، في الوقت الذي يسعى فيه الجميع لبلورة أسس للاستقرار.

ان هذه، قنبلة سياسية مؤقتة، قد تفجّـر النظـام الـداخلي في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وتقـوّض السلام بين دول متجاورة، تعيش أقلية من احداها، في اراضي الدولة المجاورة.

غير أن الخطر لا ينبع من "المبدأ الفلسطيني" نفسه فقط، إنمـا مـن الاسـاليب التـي اتبعتهـا منظمـة التحريـر الفلـسطيية لتطبيقـه: ارهـاب، ابتـزاز سـياسي، وعنـف لا يعـرف القيـود ولا الحـدود، في جميـع انحـاء العـالم. فمـن أجـل تحقيـق تقريـر المـصير- للفلـسطينيين. يمكـن قتـل

بريطانيين في بريطانيا. وفرنسيين، في فرنسا. وايطاليين في ايطاليا. اما قتل اليهود في كل مكان. فلا توجد عليه قيود أبداً.

قبل انهيار الاتحاد السوفياتي، كان باستطاعة دول كثيرة تأييد "المبدأ الفلسطيني" دون قلق. فقد جمّدت الحرب الباردة المطالب القومية داخل المناطق الواسعة، التي كانت خاضعة للسيطرة السوفياتية. حتى أنها فرضت قيوداً على حرية المناورة، للجانبين المتنازعين، في نزاعات قومية أخرى في أنحاء العالم.

صحيح أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي أيدتا في حينه اطراف النزاع في أمريكا اللاتينية، وآسيا، وافريقيا، لكنهما حاولتا دائماً ان لا تخرج الصراعات المحلية عن دائرة سيطرتهما. والآن. بعد ان تقلصت المنافسة بين الدول العظمى في العالم،إلى أدنى حد، لم تنشأ حالة عدم استقرار في النزاعات الاقليمية، فحسب، بل زادت حدتها. إذ قد يظهر "عرفاتيون" جدد في اماكن لا نتوقع ظهورهم فيها اليوم، ليعلنوا مطالبتهم "بالحقوق القومية". وليس من المستبعد أبداً ان يتمكنوا من التزود بأسلحة فتاكة من أجل تحقيق مبدأ "تقرير المصير" الذي ينادون به.

وعلى أية حال، هذا هو الخطر الجديد الذي تنطوي عليه إقامة دولة فلسطينية ثانية في الشرق الأوسط. ليس المقصود هنا التهديد الطبيعي الواضح على الوجود الإسرائيلي من الدولة الفلسطينية في مناطق الضفة الغربية وغزة، ولا من الخطر على السلام والاستقرار في الشرق الأوسط نفسه، فحسب، إنما التأثير الحتمي لتأسيس مثل هذه الدولة، على ازدياد المطالب بالاستقلال، من جانب أقليات قومية في انحاء العالم كله.

في الوقت الحالي، يعتبر الاصرار العربي على تطبيق "المبدأ الفلسطيني" أحد العناصر الرئيسة، التي تحول دون التوصل إلى حل متفق عليه ومستقر، لمشكلة النزاع بين العرب وإسرائيل. يجب ان نوضح أمراً واحداً هو: في أية تسوية يتم التوصل اليها، بغض النظر عن

كيفية رسم الحدود الدائمة على الخريطة، يجب ان يعيش العرب إلى جانب اليهود تحت سيادة إسرائيلية - إذ توجد داخل حدود عام١٩٦٧ أقلية عربية لا بأس بها، داخل إسرائيل.

وكما قال جيبوتنسكي في حينه، ان وجود أقلية لا يـشكل بالـضرورة، وضـعاً مأسـاوياً. فكـل الأمـم توجـد لديها اقليات خاصة بها. لكن المأساة الحقيقة هي ان تكون أقلية في كل مكان، مثلما وضع اليهود قبـل اقامـة الدولة اليهودية. لكن العداء العربي يستخدم منطقاً معكوسـاً: ففـي نظـر العـرب، الكارثـة هـي وجـود أقليـة عربية في أي مكان في الشرق الاوسط. يصعب عليهم مجـرد التفكـير بوجـود عـرب يعيـشون كأقليـة في دولـة إسرائيل، مثلما تعيش شعوب أخرى لأقليات بين العرب - رغم ان "عـرب إسرائيـل" يتمتعـون بحقـوق مدنيـة كاملة وبمساواة أمام القانون، اللتين لا تتمتع بهما الاقليات غير العربية، التي تعيش في الدول العربية.

ان "المبدأ الفلسطيني" لا يشكل النموذج الذي تستطيع إسرائيل تطبيقه على الاقلية العربيـة داخلهـا. فما هي النهاية؟ إذا كانت كل أقلية تستحق دولة خاصة بها، فهل يحـق أيـضاً لعـرب الجليـل والنقـب أن تكون لهم دولاً خاص بهم ؟ وهذا هو بالضبط، هدف منظمة التحرير الفلـسطينية: المطالبـة بحـق تقريـر المصير لعرب إسرائيل من خلال الدولة الفلسطينية التي ستقام في الضفة وغزة، أي إحياء مشروع التقـسيم لعام ١٩٤٧. والموافقة على مثل هذه الفكرة، تعني نهاية دولة إسرائيل.

تجدر الاشارة هنا، إلى أن الشعب اليهودي لم يسبق أن رغب في تطبيق هذا المبدأ على نفـسه. فحتـى الكارثة في أوروبا، كان اليهود يشكلون أقليات كبيرة في دول عديدة (١٠% من سكان بولندا، مـثلاً)، لكـنهم لم يطالبوا.أبداً بدولة خاصة بهم، في اماكن كانوا أغلبية فيها. وعندما نالوا استقلالهم في "أرض إسرائيـل"لم يطلب اليهود لنفسهم دولة ثانية، كما يطلب العرب اليوم.

أُستقبل "المبدأ الفلسطيني" بحماس بالغ في العالم الاسلامي، لان المسلمين يعتبرونـه توسـعاً مرغوبـاً في مجال الحكم الاسلامي.

قال الكاتب الأمريكي، تشارلز كراوتهامر، ان الانتفاضة ليست مقصورة على حالة عدم النـزاع العـربي - الإسرائيلي بالذات: إنها اسلوب عالمي من العنف ضد كل حكومة ليست مسلمة من جانـب أقليـة مـسلمة تريـد الانفـصال عـن هـذه الدولـة: هكـذا، بـدأت انتفاضـات في اذربيجـان، وطاجاكـستان، قبـل ان تنـالا استقلالهما من الاتحاد السوفياتي: وفي كـشمير ضـد الحكومـة الهنديـة: وفي اقلـيم كوسـبو ضـد يوغـسلافيا سابقاً: وفي شين جيان في الصين. وغيرها.

وهكذا، إذا كان "المبدأ الفلـسطيني" هـذا يعـرض للخطـر سـلامة دول كثـيرة، فكيـف حـدث أن رأت معظم دول العالم ان الطالبة العربية باقامة دولة فلسطينية، ثانية في الضفة والقطاع، لها ما يبررها؟

ان السبب الأول لذلك، هو أن العرب أوجدوا هويـة فلـسطينية جديـدة، وخلقـوا، بالأكاذيـب، شـعباً جديداً مختلفاً هو الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ليس المقصود هنا أقلية تنتمي لشعب كبير حقق استقلاله في اطار ٢١ دولة، بما فيها شرق الأردن، بل شعب جيد تماماً، يطالب بنيل حقوقه القومية.

لو طلب عرب الضفة الغربية إنضمامهم إلى الأردن، لـتقلص النـزاع واقتـصر عـلى مـسألة مكـان خـط الحدود بين إسرائيل والأردن، ولما كان أثار خيال المجتمع الدولي، أسير فكرة "تقرير المصير".

أما السبب الثاني لانتشار "المبدأ الفلسطيني" فهو قوة النفط العـربي. لا يمكننـا تجاهـل دور الجامعـة العربية وكارتل النفط العربي اللذين ظهرا في السبعينات كوسيلتين قومتين للـترويج لفكـرة "تقريـر المـصير" لعرب الضفة الغربية وغزة.

ليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ، التـي يحـاول فيهـا نظـام اسـتبدادي تـشويه مفهـوم تقريــر المــصير، لتهديــد ســلامة دولــة ديمقراطيــة صــغيرة. وابــراز ســابقة، تتمثــل في قــضية تشيكوسلوفاكيا عشية الحرب العالمية الثانية. وهـذه القـضية، تـستحق الدراسـة مـن جديـد، لأن

العرب يعيدون تطبيقها ضد إسرائيل، مستخدمين معظم الاجراءات التي اتخذتها المانيا ضد تشيكسلوفاكيا في الثلاثينات.

تقع تشيكسلوفاكيا، في مكان استراتيجي هام في قلب اوروبا، وكان احتلالها ضروريا لخدمة مخططات هتلر الرامية إلى السيطرة على القارة كلها، وتلك البلاد الصغيرة، كانت قادرة على تجنيد جيش مؤلف من (٨٠٠) الف جندي، يعتبر من اقوى الجيوش الأوروبية تدعمه صناعة عسكرية متطوّرة جداً. والأمر الآخر الذي عرقل تحقيق اهداف هتلر، هو حقيقة وجود سلسلة جبال عالية تقع على الحدود التشيكسلوفاكية - الالمانية تجعل من الصعب عليه الوصول إلى قلب الدولة وعاصمتها براغ. وكان التشيكيون قد أنشأوا في هذه الجبال تحصينات ومواقع، وعوائق عسكرية ضخمة، لدرجة، بدا فيها من الصعب، اختراق هذه

الخطوط، ويستشف من الافادات الواردة في محاكمة، نيرنبرغ، ان ضباط هتلر عارضوا بشدة فكرة الهجوم على التحصينات التشيكية، غير ان هتلر لم يكن يواجه عائقاً أرضياً فقط، بل عائقاً أرضياً آخر، هو الدول الغربية العظمى، تعهدت في مؤتمر فرساي، بضمان الحدود التشيكية من أي هجوم.

كانت فرنسا، آنذاك، قادرة على تجنيد (١٠٠) فرقة، أي ما يعادل ضعفا ونصف ضعف الجيش الألماني، وتعهدت خطياً بحماية تشيكسلوفاكيا من أي عمل عدواني، كما التزمت بريطانيا وروسيا أيضاً، بالمساعدة على حماية هذه الدولة. وعلى هذا الأساس، بدا ان النصر العسكري لهتلر غير ممكن، لذا شرع في حملة سياسية لم يسبق لها مثيل، تهدف إلى ارغام التشيكيين على التنازل عن سلسلة الجبال، وبذلك يكونون قد تنازلوا فعلياً عن أي أمل حقيقي للدفاع عن أرضهم وعاصمتهم. ادعى هتلر ان معظم سكان منطقة الجبال الحدودية، هم من الألمان، وان هؤلاء الثلاثة ملايين الماني، يحق لهم ممارسة حق تقرير المصير، بالطبع. أي يجب ان يحصلوا على دولة منفصلة عن بقية الملايين السبعة، الذين يشكلون سكان تشيكسلوفاكيا، رغم ان تشيكسلوفاكيا، كانت ديمقراطية نموذجية، وكان الألمان سكان

المنطقة الجبلية يتمتعون بازدهار اقتصادي وحقوق مدنية كاملة. ولكي يرسخ ويقوي ادعاءاته، أقام هتلر زعامة سياسية جديدة في الاقليم، كان هدفها،حسبما جاء على لسان زعيمها كونروهنلاين، هو المطالبة باستمرار، بشكل يبدو فيه أنا لن نرفض أبداً...- وأمر هتلر هنلاين بأن ينفي بشدة أنه يتلقى الاوامر من ألمانيا.

وليام شايرر، الذي كان آنذاك مراسلاً صحفياً في أوروبا، كتب في كتابه "ظهور وسقوط الرايخ الثالث"، ما يلي:

"وهكذا، أصبحت مشكلة الاقلية الالمانية في تشيكسلوفاكيا مجرد ذريعة بأيدي هتلر... للتآمر على البلاد التي راقت له وتقويضها، وتضليل أصدقائها، واخفاء هدفه الحقيقي، وهو تدمير الدولة التشيكوسلوفاكية والاستيلاء على اراضيها وسكانها لصالح الرايخ الثالث. ورغم ما حدث في النمسا،لم يدرك زعماء فرنسا وبريطانيا نوايا هتلر. ويبدو أنه طيلة فصلي الربيع والصيف، ظل رئيسا حكومتي فرنسا وبريطانيا، وكل العالم تقريباً، يؤمنون بأن كل ما يريده هتلر، هو انصاف أبناء شعبه في تشيكوسلوفاكيا".

بالاضافة لذلك، أقام متل حركة تحرير سودتية (الاقليم الجبلي سوديت)، تحت اسم "الطابور السوديتي الحر"، حيث بادرت هذه الحركة بتنفيذ عدة ثورات عنيفة مخططة جيداً، بحيث أُرغم التشيكيون على استخدام القوة ضدها. حتى ان هتلر، استدعى هنلاين سراً إلى برلين، ووجهه كيف يدير حملة دعائية من أجل."استقلال" اقليم سوديت. وظل، جبلس، رئيس اجهزة الدعاية النازية، طيلة الوقت، يدير معركة دعائية بشأن الارهاب التشيكي المزعوم ضد الاقلية الالمانية وكان هتلر يدعي بأن رفض التشيكيين، اعادة الاقليم إلى اصحابه الشرعيين، الألمان، يشكل عائقاً امام السلام، إذ كيف يمكن لألمانيا أن تقف متفرجة وهم يقمعون أبناء شعبها.

رفض هتلر مشروعاً لمنح الاقليم حكماً ذاتيا، وأصر على عدم الإكتفاء، بأقل من "تقرير المصير". حتى أن النازيين قلبوا الامور مدعيين ان التشيكيين يحاولون خلق أزمة في أوروبا

ليحولوا دون تفكك دولتهم، وان الخيار بين العرب والسلام، هـو بأيـدي التـشيكيين. لكـن هتلـر أوضـح ان هنالك طريقة سهلة لمنع نشوب الحرب، وتحقيق العدالة في نفس الوقت، وهي ان ترغم بريطانيا وفرنسا، تشيكلوفاكيا على عمل ما هو ضروري من أجل السلام، أي التنازل عن "المناطق المحتلة". ونجحـت مـؤامرة هتلر بأكثر مما توقعه. فقد تقبّلت حكومات الدول الغربية، وموجهو الرأي العام، نظريتـه بـسرعة غريبـة، وفي عامي١٩٣٧و١٩٣٨ مارس البريطانيون والفرنسيون ضغوطاً شديدة على تشيكلوفاكيا للاستجابة لمطالـب الألمان.

أُتهم الرئيس التشيكي، ادوارد بناش، بالتطرف، ونشرت الصحف الغربيـة شـعارات تحـدثت عـن قـصر نظر التشيكيين وتجاهلهم متطلبات السلام في أوروبا، والظلم الذي يكمن في رفضهم إعادة اقلـيم سـوديت لالمانيا.

وتحـت انـذار المـاني كـان مـن القـرر ان ينتهـي في١٩٣٨/٩/٢٨ عقـد في١٨ أيلـول، اجـتماع للحكومـة البريطانية شارك فيه رئيس الحكومة الفرنسية ووزير خارجيتها، حيـث تقـرر ان تـستجيب تشيكـسلوفاكيا الديمقراطية لمطالب هتلر.

رغم ان الغرب، التزم خطياً، في فرساي، بـالخروج للحـرب مـن أجـل حمايـة حـدود تـشيكلوفاكيا، تـم الاتفاق الان بان على التشيكيين التخلي عن اقليم سوديت من اجـل المحافظـة عـى الـسلام وعـلى المـصالح الحيوية لتشيكسلوفاكيا.

ومقابل ذلك، يحصل التشيكيون من بريطانيا وفرنسا على ضمانات دولية للحدود الجديدة... من كـل عدوان يُشن بدون استفزاز". وأعلن زعماء العالم الحرّ انه إذا لم يوافق التـشيكيون عـلى -هـذه الخطـة ولم ينقذوا السلام في أوروبا، سيتركون لمحاربة هتلر وحدهم. أصبح كل شيء الآن منوطاً بالتـشيكيين أنفـسهم"، هكذا قال تشامبرلن، رئـيس وزراء بريطانيـا آنـذاك. لكنـه، في الواقـع، لم يكـن منوطـاً بهـم أي شيء. فقـد أدرك تشامبرلن، انه إذا نشبت الحرب بين تشيكسلوفاكيا والمانيا، ربما تضطر بريطانيـا وفرنـسا للتـدخل. وعنـدما بـدأ

التشيكيون والألمان تعبئة قواتهم، زاد خوف تشامبرلن، وقرر شراء السلام مقابل تسليم درع الوقاية التشيكي. فقد سافر المرة تلو الأخرى إلى برلين، في محاولة لانهاء الصفقة مع الألمان، وأخيراً، قبل دقائق معدودة من انتهاء الانذار الألماني، وافق هتلر على عقد مؤتمر سلام دول في ميونخ، من أجل جلب السلام إلى اوروبا. وخلال احدى عشر ساعة متواصلة، ظل رئيسا حكومتي بريطانيا وفرنسا، يتوسلان إلى هتلر حتى استجاب أخيراً، ووافق على "حل وسط" يقضي باستلام اقليم سوديت بطرق سلمية.

وعدما أدرك رئيس حكومة تشيكسلوفاكيا، بناش، ان حلفاءه الديمقراطيين،أداة في خدمة المستبد النازي، أعلن عن رضوخ بلاده للإملاءات الظالمة. قائلاً: "لقد غدروا بنا بصورة مهينة".

في٣٠ أيلول شرع الجيش التشيكي بالانسحاب من اقليم سوديت، من الممرات الاستراتيجية والمواقع الحصينة على الجبال، ومن المشاريع الصناعية الكبيرة التي كانت تشكل العمود الفقاري في معركة الدفاع عن الدولة. غير ان هتلر لم يكتف باقليم سوديت، فبعد أن ضمّه إلى المانيا، قدم للتشيكيين قائمة جديدة من الطلبات. ومرة ثانية دبّرت المانيا احداثاً عنيفة بدت وكأن تشيكسلوفاكيا هي المسؤولة عنها، وعن قمع الأقلية الألمانية التي بقيت داخل تشيكسلوفاكيا المقلّصة. وبعد أقل من ستة أشهر من ضم اقليم سوديت إلى المانيا، في ١٥ آذار١٩٣٩.سحقت آلة الحرب الألمانية النازية، ما تبقى من تشيكسلوفاكيا. وبفقدانهم السلسلة الجبلية والمواقع الدفاعية، لم يستطع التشيكيون الصمود في وجه الهجوم الالماني. وأعلن هتلر: كان واضحاً إلى منذ البداية، بأنني لن استطيع الإكتفاء. بمنطقة سوديت الألمانية. ذلك كان مجرد حل جزئي". ولم تحرك الدول الغربية ساكناً في هذه المرة أيضاً. وثبت مرة ثانية، ان تعهداتها كانت لا قيمة لها.

لن نحتاج إلى جهد كبير، كي ندرك المقارنة بين قضية تشيكسلوفاكيا، وبين الجهود المبذولة لاقتطاع مناطق الضفة الغربية من جسم إسرائيل. فإسرائيل، مثل تشيكسلوفاكيا

تماماً، دولة صغيرة ديمقراطية، أقامت جيشاً كبيراً وقوماً يستعين في الدفاع عن الدولة، بمنطقة جبلية تـشبه اقليم سوديت - جبال الضفة الغربية التـي تعتـبر عائقـاً عـسكرياً قويـاً يحمـي عاصـمة إسرائيـل والـسهل الساحلي.

وكما فعل الألمان في حينه، أدرك العرب الان، انه طالا ظلت هذه الجبال بأيدي إسرائيـل لـن يهزموهـا بسهولة. كما أدركوا أن حربـاً ضـد إسرائيـل، وهـي تـرابط عـلى هـذه السلـسلة الجبليـة، ليـست واردة في الحسبان، ويمكن اخراج إسرائيل من هذه الجبال عن طريق ممارسة ضـغوط سياسـية، مـن جانـب الـدول العظمى الغربية.

هكذا، بدات الانظمة العربية بشن معركة هدفها اقناع الرأي العام في الغرب، وفي إسرائيل أيـضاً، بـأن سكان هذه الجبال (الذين يشكلون شأنهم شأن الالمان السودتيين، أكثر من ربع سكان إسرائيل) هم شـعب منفصل يحق له تقرير مصيره، واذا لم يُحترم هذا الحق، فستضطر الدول العربية، إلى شن حـرب لتحقيقـه. وهنا أيضاً، يُعرض رفض إسرائيل الانسحاب من منـاطق اسـتراتيجية حيويـة للـدفاع عنهـا، وكأنـه عـائق في طريق السلام. وعلى غرار مؤتمر ميونيخ، طلب العرب طيلة سنوات عديدة عقد مؤتمر دولي، وتدخل فعّـال من جانب الولايات المتحدة وأوروبا في المفاوضات، عـلى أمـل أن يوجـد تـشامبرلن أمـريكي، يُـرغم الطـرف الرافض على الرضوخ.

ويجب الاّ نستغرب، إذا رأينا ان العـرب اليـوم يطبقـون اجـزاء مهمـة جـداً مـن اسـتراتيجية الدعايـة النازيـة. لكـن المـدهش،هو أن أوسـاطاً رفيعـة في العـالم الغـربي، سـارعت إلى "ابـتلاع" هذا الطعم وهضمه. إذ لم يمر يوم تقريباً دون أن تنـشر فيـه الـصحافة الغربيـة مقـالاً أو تحلـيلاً لكبـار الـصحفيين الغـربيين في اوروبـا والولايـات المتحـدة، يحـث إسرائيـل عـلى الاسـتجابة لحـل كالذي فرض على التشيكيين في حينه. يقولون لإسرائيل، ان من الأفضل لها أن تتخلص مـن الأقليـة العربيــة الكبــيرة داخلهــا وتحقــق بــذلك ميــزات ديموغرافيــة قوميــة. وهــذا الادعــاء أيــضاً

ليس جيداً. ففي عام ١٩٣٨، كتبت صحيفة التايمز اللندنية، التي كانت أهم صحيفة غربية في ذلك الوقت، مقالاً افتتاحياً لخصت فيه قضية تشيكسلوفاكيا على النحو التالي:

"من الأنسب ان تدرس حكومة تشيكسلوفاكيا، ان كانت ترى أنه من مصلحتها ان تصبح دولة قومية أكثر عن طريق تنازلها عن مناطق هامشية، تضم مواطنين غرباء يجاورون شعباً يتحدون، معه من حيث العرق... يمكن ان تكون المميزات والمكتسبات التي ستحققها تشيكسلوفاكيا عن طريق تحويلها إلى دولة قومية، اكبر بكثير من الخسارة التي قد تلحق بها نتيجة التنازل عن اقليم سوديت الألماني.

أكتب كلمة إسرائيل بدلاً من تشيكسلوفاكيا، عرب فلسطين بدلاً من المان سودتيين، ويكون باستطاعتك عندئذ ان تنسخ نفس المقال، في أية صحيفة غربية تصدر في عصرنا هذا.

لقد أصبحت إسرائيل المهددة بالابادة على ايدي العرب في نظر الكثيرين من موجهي الرأي العام الغربي،هي الطرف المتطرف،الرافض،الذي يشكل عائقاً أمام تحقيق السلام. في حين ان العرب الذين يسعون لتدمير إسرائيل، ويعترفون بذلك علانية، داخل العالم العربي، يعتبرون الآن معتدلين ومنطقيين.

المواطنون في العالم الغربي، الذين لديهم سيرة طويلة من احترام حقوق الانسان، والتعاطف مع الحرية القومية يميلون للتضامن بسهولة مع الطموحات القومية للشعب الفلسطيني، الذي أُكتشف حديثاً، والذي آلمتهم معاناته، تماماً كما شعروا في حينه مع "السودتيين" في عهد هتلر.

لذا، فان الادعاء بشأن حق الفلسطينيين في تقرير المصير، قد ينجح أكثر من الادعاءات السابقة التي أثبتت فشلها، مثل عرض النزاع على أنه مشكلة لاجئين، أو توسع اقليمي إسرائيلي. وفور ان اكتشف العرب نقطة الضعف في الرأي العام الغربي، تجاه شعار "شعب مقهور"، يناضل من اجل حريته "بدأت آلة الدعاية العربية، انتاج مبررات مشتقة من هذا

الادعاء. وفجأة أدرك الدعائيون العرب ان باستطاعتهم اقناع الرأي العام الغربي، بصدق ادعاءاتهم، منذ عام ١٩٦٧: ان وجود إسرائيل في المناطق التي احتلتها بالذات، أمر غير اخلاقي من أساسه، وكل اجراء من شأنه زيادة قوة الدولة اليهودية، تصرف سيء، طالما ظلت إسرائيل متمسكة بهذه المناطق.

هناك أمران، ساعدا إلى درجة كبيرة، في إدخال هذه الأفكار إلى الغرب: الانتفاضة الفلسطينية، والهجمات المستمرة على المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ففي السنوات الأخيرة، ركّز هذان الموضوعان كل النشاطات المعادية لإسرائيل، في الحلبة الدولية بحيث وجهت كلها، لاصلاح الظلم الذي الحقته إسرائيل بالعرب الفلسطينيين. جاءت الانتفاضة، لمنظمة التحرير الفلسطينية، كهدية من السماء، عذما كانت في أسوأ أوضاعها في العالم العربي، وعلى الصعيد الدولي. في عام ١٩٨٢، دخل الجيش الإسرائيلي إلى لبنان، ودمر القواعد التي بنتها المنظمة هناك طيلة عشر سنوات. واستولى على المناطق التي كانت المنظمة تستخدمها لمهاجمة إسرائيل. وتم اجلاء قيادات المنظمة من بيروت إلى تونس، وبدأت مكانة المنظمة تتدهور بسرعة.

ونستطيع ادراك مدى هذا التدهور، في قضية تفجير باص إسرائيلي في القدس عام١٩٨٧ على أيدي "مخربين" من منظمة التحرير الفلسطينية: إذ بعد التفجير ندد زعماء فلسطينيون في الضفة الغربية وغزة، لأول مرة، وبصورة علنية بالارهاب. كانت المنظمة طيلة سنوات كثيرة، تخشى، وهي محقة في هذا، من معارضة علنية كهذه، لافعال ذلك الذي تبجح بكونه الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني.

كان السكان العرب في الضفة وغزة، بعيدين عن العيش في جنة على الأرض، ولكنهم تحت الحكم الإسرائيلي، شهدوا تحسناً كبيراً في مستوى حياتهم. إذ عندما دخلت إسرائيل إلى هذه المناطق في عام ١٩٦٧، وجدت أن القرن العشرين لم يصلهم بعد. لم تكن فيها صناعات

تقريباً، وكان الجهاز الصحي في بدايته، ولم تكن فيها مؤسسات للتعليم العالي، ومعظم النساء لا يقرأن ولا يكتبن.

بعد حرب الايام الستة، انتهجت إسرائيل سياسة ليبرالية، هدفها تحسين ظروف حياة العرب. أُقيمت جامعات، ومستشفيات وشقت طرق جديد. وحتى عام ١٩٨٥، كان عدد مشتركي الهاتف قد تضاعف اربع مرات، وتضاعف عدد مالكي السيارات خمسة أضعاف، وزاد حجم البناء في الضفة الغربية عشرة أضعاف. وفي عام ١٩٨٦، كان التيار الكهربائي يصل ١١% من البيوت في الضفة الغربية مقابل ٢٣ % عام١٩٦٧. وفي عام١٩٨٧، أصبح الفلسطينيون، سكان الضفة والقطاع أكثر المثقفين في العالم العربي. كما حظي الفلسطينيون تحت حكم إسرائيل بما لم يحظ به من حقوق معظم العرب في الشرق الأوسط - صحافة ناطقة بلسان احزاب وتيارات عديدة (منها من أبدت تأييداً لمنظمة التحرير)، وحق الاستئناف أمام جهاز القضاء الإسرائيلي ضد أي قرار حكومي. كان جسر الملك حسين على نهر الأردن مفتوحاً، وكان باستطاعة كل عربي فلسطيني، زيارة الدول العربية.

وفي اطار هذه الزيارات مُنحوا فرصة المقارنة بين حياتهم تحت الاحتلال الإسرائيلي القمعي، وبين ظروف حياة المواطنين في الدول العربية. وعلى هذا قررت الغالبية العظمى من سكان الضفة الغربية، أن وضعهم أفضل بكثير.

هذا، لا يعني أن العرب في الضفة الغربية، أصبحوا صهاينة، أو انهم سلّموا بوجود الحكم الإسرائيلي-لم يسبق أن تعاطف سكان محليّون تحت حكم عسكري مع الإدارة، وبخاصة إذا ما أُضطرت الادارة إلى مواجهة إرهاب مستمر.

فبسبب الارهاب، شوّشت حياة العرب وشهدت إزعاجات مثل حواجز التفتيش، وتدقيق الوثائق والهويات، منع التجول، اغلاق محلات ومدارس، وتفتيش في البيوت - ولم يبد في الأفق أي حل.

في السنوات العشرين، التي تلت حرب الأيام الستة، ظل الوضع السياسي للمناطق المحتلة معلّقاً، أولاً لان الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، رفضت ضمها لإسرائيل، وبنفس

الوقت لم توافق على التخلي عنها، ومن ثم، بعد اتفاقيات كامب ديفيد في ١٩٧٨، بسبب رفض العرب الاشتراك في مفاوضات لتحديد مستقبل المناطق.

وهكذا، حدث ان عاش العرب الفلسطينيون في الضفة والقطاع مدة عشرين سنة تحت حكم عسكري، دون ان يعرفوا كيف سيكون مستقبلهم السياسي. وحالة الغموض وعدم التأكد من المستقبل، يؤديان إلى توترات يمكن أن تتلاشى مع وجود حل نهائي.

عرب الجليل، على سبيل المثال، عاشوا هم أيضاً تحت حكم عسكري في الخمسينات، ولم يكونوا مرتاحين، ولكن عندما أُلغي الحكم العسكري، أصبحوا مواطنين متساوين في الحقوق، ويشاركون منذ ثلاثين عاماً بصورة فعلية في حياة الدولة ولهم تعبير سياسي وممثلون في الكنيست. ومع الوقت نشأ تعايش سلمي هادىء جداً مع اليهود في الدولة، وسيظل هذا الوضع قائماً طالما بقيت إسرائيل مضمونة المستقبل.

باستثناء مصر، رفض العالم العربي اتفاقيات كامب ديفيد، والتراجع عن المطالبة باقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع. وفي مثل هذه الظروف، لم يكن ممكناً اجراء مفاوضات مع إسرائيل حسبما ورد في اتفاقيات كامب ديفيد.

في١٩٨٧، بعد حوالي عشرين سنة من حرب الايام الستة، كان قد نشأ في الضفة الغربية وغزة، جيل جديد من العرب، عاش كل حياته في وضع سياسي غامض، وكان معرضاً للتحريض السام من قبل منظمة التحرير الفلسطينية، التي ملأت الفراغ السياسي. وكان واضحاً ان هذا الجيل الشاب سيتجه نحو التطرف. كما أن منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها، لم تكن قادرة على الاشارة إلى أية مكاسب حققتها، الأمر الذي جعل هذا الجيل الشاب، يوجه غضبه، ليس باتجاه إسرائيل فحسب، بل باتجاه منظمة التحرير أيضاً. وهكذا، تصوّز هؤلاء الشباب أن زعماء منظمة التحرير يعيشون في فلل هادئة على شواطيء تونس، وعلى الريفيرا الفرنسية. ومثلما أُغري الكثيرون بالشعارات الدينية، زاد عدد الشباب الغاضبين المتوجهين إلى حركة حماس الاسلامية المتطرفة، محاولين التنفيس، في اطارها، عن غضبهم. وكما هي

الحال في بقية انحاء الشرق الوسط، سرعان ما انتشر الاسلام المتطرف في الأوساط الشعبية الفقيرة، تلك كانت الخلفية لاندلاع الانتفاضة، التي تم في إطارها التعبير عن كل الاحباطات والغضب، باعمال عنف جماهيرية.

بدأت الانتفاضة في ٩ كانون أول ١٩٨٧، بعد أن دهست شاحنة إسرائيلية في حادث طرق اربعة من العرب الفلسطينيين بالقرب من غزة. وانتشرت الاشاعة بأن الحادث كان متعمداً، كانتشار النار في الهشيم. وفوراً، اندلعت اضطرابات جماهيرية عنيفة استمرت عدة اسابيع. وانتهزت منظمة التحرير الفلسطينية هذه الفرصة لتحسين مكانتها، وبدات تصب الزيت على النار. فغداة الحادث كتبت صحيفة الفجر المقدسية الموالية للمنظمة بأن الحادث كان عملاً مدبراً. وفي بغداد، استغل عرفات حماس الجماهير، ليؤكد ثانية أن إسرائيل على وشك الابادة حيث قال: يا أبناء غزة الأبطال، يا أبناء الضفة الأمجاد، يا أبناء الجليل الابطال، يا أبناء النقب الأشداء: ان نيران الثورة ضد الصهاينة الغزاة، لن تخبو... حتى تتحرر أرضنا - كل أرضنا - من أيدي هؤلاء الغزاة".

في حالات الإثارة، ينسى عرفات، أحياناً، مبادئ الحذر. وهكذا، دعا في تلك المناسبة، العرب، لتحرير "كل أرضنا" ولم يخف أبداً نواياه في السيطرة ليس على الضفة الغربية فقط، بل على الجليل والنقب، أي على مناطق إسرائيل داخل حدود عام ١٩٦٧. وعندما اقترح الياس فريج، رئيس بلدية بيت لحم، المحتل، وقفاً لاعمال العنف، رد عليه عرفات بقوله: "كل من يفكر في وقف الانتفاضة، قبل أن تحقق اهدافها، سيحصل مني على عشر طلقات في صدره". وفي غضون بضعة اسابيع، كانت أعمال الشغب العنيفة منظمة وممولة من قبل منظمة التحرير الفلسطينية. حيث تم تنظيم شبان عرب في إطار "اللجان الضاربة" وآمنوا بما وعدهم به عرفات أن النصر قريب.

هاجم هؤلاء الشباب السيارات الإسرائيلية المدنية،بالحجارة والزجاجات الحارقة، وفرضوا اضرابات عامة على السكان العرب، ومنعوا بالقوة العمال من التوجه إلى عملهم.

وقام أعضاء اللجان باشعال النيران بحوانيت العرب الذين خرقوا الاضراب، وهددوا التجار الذين ارادوا فتح حوانيتهم. كما اقتحموا المدارس أثناء الدراسة وارغموا التلاميذ على الخروج إلى الشوارع، وبذلك ارتفع عدد الأولاد الذين دفعوا حياتهم في اضطرابات الانتفاضة.

أما حركة حماس الاسلامية المتطرفة، فلم ترد أن تتأخر خلف منظمة التحرير، وأقامت لجان منافسة خاصة بها؛ خلال السنوات الاربع التي تلت اندلاع الانتفاضة، تنافست "المنظمتان الارهابيتان" على دفع الجمهور الفلسطيني لسفك الدماء.

في تلك الظروف، تصرف الجيش الإسرائيلي وفق ما هو مطلوب منه، بمقتضى معاهدة جنيف الرابعة. حاول الجيش حماية السكان العرب واليهود بواسطة تسيير دوريات على الطرق والشوارع، واعتقال المحرضين على اعمال العنف.

ورد اعضاء اللجان الضاربة بمهاجمة الجنود بالفؤوس والحجارة والزجاجات الحارقة، وحظوا بالشهرة والتقدير الدوليين. ومن اجل المحافظة على صفة الضعف، وعدم منح الجيش الإسرائيلي ذريعة لاستخدام وسائل خطيرة، أمرت منظمة التحيمر الفلسطينية رجالها عدم استخدام الاسلحة النارية.

إعتقد الكثيرون في الغرب، وفي إسرائيل أيضاً، ان الشبان الفلسطينيين الغاضبين في نابلس والخليل، يسعون إلى تحرير الضفة الغربية من نير إسرائيل، وهذا كل ما في الأمر. لكن لجان الانتفاضة، كانت ترى غير ذلك. لقد فُرض عليهم الهدف من قبل عرفات وحماس: "طرد اليهود من كل شبر من أرض فلسطين". فقد فسّر نشطاء الانتفاضة هدفهم هذا لمؤيديهم بواسطة منشورات كتبت على الجدران أو وزعت على المؤيدين باللغة العربية.

فقد جاء في منشور صادر عن فتح في٢١ كانون ثان ١٩٩١، أن اليهود هم ابناء القردة والخنازير، ومفهوم كيف يجب ان نتصرف معهم. في حين أعلنت حركة حماس في منشور

خاص بها: "لن تكون هنالك أية مفاوضات مع اليهود. ولن يكون هنالك تنازل عن سنتمتر واحد مـن أرض فلسطين. ان الطريق للتحرير هي طريق الجهاد".

أما بالنسبة لجيرانهم اليهود في الضفة الغربيـة، فقـد دعـا زعـماء الانتفاضـة العـرب إلى "حـرق الأرض تحت أقدامهم". وفي مناسبات قليلة، قام بعض العاملين في الصحافة الغربيـة، بـاجراء مقـابلات مـع زعـماء الانتفاضة، للوقوف على طموحاتهم الحقيقية. كان من بين هـؤلاء، يـوب سـيمون، مراسـل شـبكة (سي. بي. إس)، حيث اجرى مقابلة مع زعيم خلية مؤلفة من سبعة ملثمين، حيث اجابه بـصراحة مطلقـة قـائلاً: انـا اريد كل فلسطين... فلسطين غير قابلة للتجزئة. حيفا،يافا، عكا، الجليل، الناصرة - كل هذه هـي اجزاء مـن فلسطين".

إن أياً من هؤلاء الأجزاء، لا يوجد في الضفة الغربية، كلها اجزاء مـن إسرائيـل مـا قبـل ١٩٦٧، منـاطق مزدحمة بالسكان اليهود، وزعماء الانتفاضة مؤمنون أنها ستقع بأيديهم في نهاية المطاف.

ولكن بعد مضي بضعة أشهر، بدأ الجميع، باستثناء المتطـرفين جـداً، يـشعرون بالتعـب والاعيـاء، مـن ركضهم وراء الاحلام، وبدأ بريـق الانتفاضـة يـضعف. فالاضرابـات المتكـررة، أوقفـت الازدهـار الاقتـصادي، وتسلمت عصابات الفوضويين المحليّن تمولها فصائل متناحرة داخـل منظمـة التحريـر الفلـسطينية، مهمـة فرض القانون والنظام. وبدأ هؤلاء يمسّون بكل من اعتبروه متعاوناً مع إسرائيل، - أثريـاء، مثقفـين، خـصوم سياسيين، وما شابه ذلك، وفي نهاية الأمر، وجه الجهـد الرئيـسي مـن عنـف الانتفاضـة نحـو الـداخل - ضـد فصائل معادية، وضد كل من أُعتبر نموذجاً غير مرغوب فيه.

وبعد خمس سنوات من الانتفاضة، بلغ عدد القـتلى الفلـسطينيين الـذين قتلـوا عـلى أيـدي اخـوانهم (٧٥٠) شخصاً، أي مـا يقـارب عـدد الفلـسطينيين الـذين قتلـتهم قـوات الامـن الإسرائيليـة. وهكـذا بـدأت الانتفاضة تأكل أبناءها.

لم ينشر الكثير عن طابع الانتفاضة المعادي للمسيحية: معركة من العنف واشعال النيران والابتزاز، كانت موجهة ضد المسيحيين في الضفة الغربية، بقصد إرغامهم على بيع ممتلكات إلى المسلمين، وترك "الأرض المقدسة". اذ توجد اليوم في مكان مسيحي بارز، مثل بيت لحم، مثلاً، أغلبية مسلمة نتيجة لهجرة المسيحيين. فقد كتب القس جورج ابو حزان، في الصحيفة الكاثوليكية "تراسنطة"، أن الدول العربية، دفعت باموال كثيرة إلى الضفة الغربية، بهدف "أسلمة البلاد" واعرب عن خشيته من إنقراض الوجود المسيحي في الأرض المقدسة.

وقال ابو حزان أن المسيحيين خافوا على ارواحهم ولم يجرؤوا على الكلام. لكن هذه الحقائق لم تصل إلى البرامج التي بثتها شبكات التلفزيون الاجنبية عن الانتفاضة. مثلما حدث أثناء عمليات الطرد الجماعي للفلسطينيين من الكويت، إذ لم يكن أحد معنياً بهذا، كون المهجرين عرباً، على أيدي عرب. وكان الامر سيعنيبهم، لو حدث هذا على أيدي الإسرائيليين، (لقد برز المبدأ بقوة في اعقاب المذبحة التي نفذها أحد الإسرائيليين ضد الفلسطينيين في الحرم الابراهيمي في الخليل، وقتل خلالها ٢٨ فلسطينياً). كانت التغطية الاعلامية - المذبحة ضخمة في جميع انحاء العالم، كما كان متوقعاً، في الوقت الذي لم نسمع ولو كلمة واحدة عن مقتل ٧٣ إسرائيلياً على أيدي العرب خلال الأشهر الخمسة التي سبقت المذبحة.

ان الشعوب الديمقراطية تكره العنف، لذا فهي لا تحب الجنود وخاص أولئك الجنود الذين يضربون المدنيين، أو يلقون نظرات تخيف الاطفال. وبما أنه قيل للمشاهدين ان هذا الجيش الإسرائيلي، هو جيش احتلال، أي أنه جيش لا ضرورة لوجود ٠ هناك أصلاً، فقد استطاعت وسائل الاعلام ان تعرض العمليات الضرورية التي كان يقوم بها الجيش الإسرائيلي لفرض النظام والقانون، بصفتها جرائم لا تغتفر.

ان الشيء الذي لم يظهر مطلقاً على شاشات وسائل الاعلام العالمية، هو الطابع التنظيمي للانتفاضة، وحياة الخوف والرعب التي عاشها العرب تحت ظل الانتفاضة، كما لم تظهر

تعليمات اطلاق النار التي عُممت على الجنود الإسرائيليين، ولا محاكمات ٢٠٨ جنود إسرائيليين خرقوا هذه التعليمات.

ان الضربات التي الحقتها وسائل الاعلام، بإسرائيل، تعتبر مثيرة، في ضوء حقيقة انه، حتى هـذا اليـوم، لم تنطق هذه الوسائل بما فيه الكفاية، عما حدث في مصر والأردن من عمليـات قمـع "للانتفاضـات" التـي حدثت داخلهما، في نفس المناطق قبل عام ١٩٦٧.

حقاً ومن المعقول: يجب ان نحكم على دولة ديمقراطية، حـسب المعـايير الديمقراطيـة. ولكـن شـهدنا خلال سنوات الانتفاضة اندلاع عدة اضطرابات عنيفة وقعـت في دول ديمقراطيـة، كـان أشـدها تلـك التـي وقعت في فنزويلا والهند. فبعد يومين من الاضطرابات في فنزويلا عام ١٩٨٧، أعـادت الحكومـة النظـام إلى نصابه بثمن ١١١٩قتيلاً و٨٠٠ جريح. في حين أنه في الهند، وخلال عشرة أيام مـن حـصار "معبـد الـذهب"، قُتل ١١٣ شخصاً في اشتباكات حدثت بين الهندوس وقوات الشرطة. في هاتين الحالتين، كان عدد القتلى أكثر من عدد القتلى خلال سنة كاملة من الانتفاضة في المناطق.

عنـدما تنـدلع أحـداث تتخلـلـها أعـمال نهـب، وعنـف، ورجـم الـسيارات بالحجـارة، واشـعال النـيران بالحوانيت في دولة ديمقراطية، يجب على الحكومة اتخاذ الوسائل اللازمة المتـشددة لاعـادة النظـام والقـانون إلى نصابهما، لان واجب الحكومة - أية حكومة - هو إعادة النظام والقانون.

عندما اندلعت اضطرابات عنيفة في أمريكا، في "الستينات"، قُتل خلال بضعة أيام،٣٤ شخصاً في لـوس انجلوس، و٢٠ في نيويورك، و٤٣ في ديترويت، وعشرات آخرين في اماكن أخرى، وبلغ عدد المعتقلين عشرات الآلاف.

وعندما اندلعت الاضطرابات من جديد في١٢٥ مدينة أمريكية، أُضطرت الادارة الأمريكية إلى استخدام (٥٥) ألف شرطي وجندي لقمـع الاضـطرابات. وقُتـل آنـذاك ٤٦ شخـصاً وأعتقـل مايزيـد عـلى (٢١) ألـف شخص.

كما أن القذف بالحجارة، له مثيل في الولايات المتحدة وغيرها: ففي عام ١٩٩١، أُلقي القبض في ولاية مريلاند الاميركية على شابين ألقيا حجارة على سيارة ركاب. وأصاب أحد الحجارة فتاة في الخامسة عشرة، حيث أُصيبت بجروح بالغة. (في الضفة الغربية وغزة، مات إسرائيليون كثيرون نتيجة تعرض سياراتهم للرجم بالحجارة). وأدين الشابان في مريلاند بارتكاب عدة تهم وجهت اليهما:

"هجوم متعمد للقتل، هجوم بهدف إحداث عاهة، تدمير متعمد للممتلكات، وغير ذلك" وحكم عليهما بالسجن لمدة (٥٠٠) عام. وهكذا، ضُمن ان يقضى الاثنان بقية حياتهما وراء قضبان السجن. أليس من الطبيعي اذاً، ان تفرض الادارة الإسرائيلية في الضفة الغربية احكاماً وعقوبات مماثلة على راجمي الحجارة؟ ولكن رغم ذلك، فان راجمي الحجارة الذين لا يسببون ضرراً بالغاً، يُحكم عليهم بغرامات مالية فقط.

ان إسرائيل لاتحاكم وفقاً لمعايير دولية مألوفة: هذه معايير ليست ثنائية الوجه، بل ثلاثية الوجه: هنالك معيار للانظمة الاستبدادية العربية، ومعيار آخر، للدول الديمقراطية، ومعيار ثالث خاص بإسرائيل. ان المعيار الذي يحكم تصرفات إسرائيل يتطلب الكثير منها. ذلك لانه ينبع من الادعاء، بأن وجود إسرائيل بالذات في المناطق، يعتبر ظلماً وغير أخلاقي. لذا، يعتبر الجيش الإسرائيلي معتدياً في أية حالة يستخدم فيها القوة، بغض النظر عن مدى ضبط النفس الذى يبديه، أو ضرورة استخدام القوة.

وقد استغل العرب، بالطبع، هذا الوضع بكفاءة عالية، وسارعوا لعرض إسرائيل كقوة شيطانية، إلى درجة جعلت الجميع ينسون تاريخ النزاع وأسبابه.

في غضون وقت قصير، أصبحت الانتفاضة منصّة لتشرف منها، منظمة التحرير الفلسطينية، على حربها الدعائية ضد إسرائيل. فبعد بضعة اسابيع من الاضطرابات بدأ نشطاء منظمة التحرير بترتيب أحداث معينة هدفها إقناع الرأي العام: جماعات تلاميذ وأولاد

صغار، يتم ارسالهم إلى الشوارع للاصطدام بجنود الجيش الإسرائيلي، بهدف تصويرهم للصحافة ووسائل الاعلام، ثم اختاروا من يتحدث الانجليزية ليدعو إلى "عصيان مدني"، كل هذا هدفه إقناع الرأي العام الغربي، بضرورة تأييد "الجيدين"ضد "الأشرار".

وفي نفس الوقت أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية أن أياً كان، ليس بمقدوره وقف الانتفاضة، وان الطريق الوحيدة لوقفها هي اقامة دولة فلسطينية (تحت زعامة المنظمة، بالطبع) ملبيّن بذلك مطلب الفلسطينيين في حق تقرير المصير.

وهكذا، أصبح معظم الرأي العام الغربي يرى بإسرائيل، أنها هي المذنبة وعلى عاتقها تقع مسؤولية الأحداث كلها: الإسرائيليون، هم الذين طردوا الشعب الفلسطيني من أرضه وهم الذين يقمعونه الآن. خلاصة القول أن المواطنين في الدول الغربية، يشاهدون هذا الوضع بأم أعينهم، على شاشات التلفاز.

وعلى الرغم من القوة الدعائية التي انطوت عليها الانتفاضة، إلا انه لم يكن في مقدورها ان تكون منصة لشن هجمات سياسية ضد إسرائيل، وفي نهاية الأمر، بدأت تخف حدتها. لذا، انتقل ميدان المعركة بين إسرائيل والعرب حول تقرير المصير للفلسطينيين، إلى منصة أخرى - المستوطنات. فهذه المستوطنات يمكن استغلالها للاثبات بأن إسرائيل تحاول سلب الاراضي من اصحابها الشرعيين، أي الفلسطينيين. وهناك ميزة أخرى لميدان المعركة هذا، تتمثل في وجود قسم لا بأس به من الجمهور الإسرائيلي يعارض الاستيطان في مناطق الضفة الغربية وغزة، وينادي بتقليص هذا الاستيطان أو حتى ازالته نهائياً.

ان حق اليهود بالسكن في الخليل ونابلس وشرق القدس، معترف به من قبل العالم، تماماً كحقهم بالسكن في حيفا ويافا وتل أبيب، وغرب القدس - بمقتضى وعد بلفور، وقرارات مؤتمر فرساي، وقرار الانتداب الصادر عن عصبة الأمم.

في تلك الايام لم يكن هنالك مصطلح "الضفة الغربية"، وأن أحداً لم يقترح الفصل بين الضفة الغربية وبقية اجزاء البلاد. مع العلم أن الضفة الغربية تعتبر قلب البلاد، التي شهدت

أهم الاحداث في تاريخ الشعب الإسرائيلي قبل الشتات: ألون موريه، التي تلقى فيها ابراهيم وعداً بـالأرض: والخليل، التي دفن فيها أجداد الأمة: وبيت إيل، التي رأى فيها يعقوب نفسه على سلّم ورأسـه في الـسماء؛ وبيت لحم مكان قبر راحيل: واريحا التي دخل عن طريقها يهوشع إلى البلاد: ونابلس التي تلا فيها التـوراه على مسمع الشعب، وفي تربتها دُفن يوسف؛ وشيلا، مقرّ الشعب في عهد القضاة طيلة مئات السنين، قبـل أن تأخذ القدس هذا الدور؛ وبيـت حـورون، التـي هـزم فيهـا مكـابي، الـسلوقيين؛ وبيتـار، الحـصن الأخـير لباركوخفا؛ والأمم من هذا كله، المدينـة القديمـة في القـدس، قلعـة اليهـود، ومركـز الطموحـات الروحانيـة والسياسية للشعب الإسرائيلي. عندما طالب الـصهاينة، في مـؤتمر فرسـاي، "بـأرض إسرائيـل" واعـترف لويـد جورج، وويلسون وكليمنصو، بعدالة مطلبهم هذا، تركز تفكير هؤلاء الزعماء عـلى هـذه الأمـاكن أكـثر مـن غيرها.

إذاً، ليس من الغريـب ان يختـار مهـاجرون يهـود الاسـتيطان في هـذه المنـاطق بالـذات، خـلال فـترة الانتداب البريطاني. وفي القدس والخليل، انضم المهاجرون الجدد إلى الطائفة اليهوديـة التـي كانـت تعـيش هناك منذ مدة طويلة، وأنشأوا مستوطنات جديدة: كاليا، وبيت هعرباه، في غـور الأردن، عطـروت ونفيـه يعقوب، في "السامرة"، رمات رحيل ومستوطنات غوش عتصيون في "يهودا"، وكفار دروم، بالقرب من غزة.

كل هذه المستوطنات أُقيمت قبل ايجاد مصطلح "الضفة الغربية"، حتى أن أحداً لم يكن يرى أي فرق بينها وبين بقية المستوطنات التي نشأت حديثاً في مختلف انحاء "أرض إسرائيل". كما أن أحداً لم يـشكك في حق اليهود بالاستيطان في أي مكان من هذه الاماكن - باستثناء أولئك الذين رفضوا حق اليهود بالوجود في هذه الأرض نهائياً.

إذا كانت قرارات فرساي، اعترفت بحق اليهود بـالعيش في منـاطق "يهـودا والـسامرة وغـزة، واذا لم يكن هذا الحق موضع خلاف عندما أقيمـت في هـذه المنـاطق مـستوطنات يهوديـة قبـل قيـام الدولـة، فانـه يحـق لنـا طـرح الـسؤال التـالي: متـى فقـد اليهـود حقهـم بـالعيش في هـذه

المناطق؟ من أجل الحقيقة أقول، ان اليهود لم يسبق ان فقدوا حقهـم بـالعيش في منـاطق الـضفة الغربيـة وغزة. إنما فقدوا القدرة على تطبيق هذا الحق فعلياً. لقد تم تجميـد هـذا الحـق مؤقتـاً، عـام ١٩٤٨، بعـد "حرب الاستقلال". إذ احتل الجيش المـصري قطـاع غـزة، بيـنما اجتـاز الجـيش الأردني نهـر الأردن، دون أي استفزاز أو مبرر، واحتل يهودا والسامرة- والقدس الشرقية.

وفي كل مكان وصل إليه الأردنيون، شطبوا أي علامات تدل على وجود يهـود: في شرق القـدس، دمّـروا نهائياً الحي اليهودي القديم، والكـنس، ودنـسّوا المقـابر اليهوديـة، وطـردوا آلاف اليهـود مـن بيـوتهم. امـا بالنسبة لمستوطني غـوش عتـصيون، فلـم يكتـف الأردنيـون بطـردهم، إذ تجاهـل الجـيش الأردني الاعـلام البيضاء التي رفعوها وظل يطلق النارعليهم حتى قُتل منهم ٢٤٠ شخصاً. ودُمرت المستوطنات تماماً.

في عام ١٩٥٨، بعد تولي الملك الحسين العـرش، أقـرت الـسلطات الأردنيـة قانونـاً يحظـر عـلى اليهـود العيش داخل حدود المملكة. ورغم ان اتفاقيات الهدنة لعام ١٩٤٩، نصت على انه يسمح لليهـود الـدخول إلى القدس الشرقية لزيارة الأماكن المقدسة اليهودية، الا ان الأردنيين خرقوا هذه الاتفاقيات ومنعوا اليهـود من الدخول إلى هذه الأماكن.

عدما دخلت الأردن "يهودا والسامرة" عام ١٩٤٨، كانت المنطقة قليلة السكان. فما عدا المراكز البلدية مثل نابلس، الخليل، رام الـلـه، وبيت لحم، كانت هناك مدة قرى منتشرة على طول طرق سيئة، ومـضارب للبدو، هنا وهناك.

في عام ١٩٦٧، عادت الأردن لمهاجمة إسرائيل، وفقدت هـذه المـرة، كـل المنـاطق التـي احتلتهـا، عـام ١٩٤٨. وعندما فتح الجيش الإسرائيلي الطريق، عاد اليهود لدخول القدس القديمة والخليل ونابلس وأريحا، وأصبحوا قادرين مرة ثانية على تجسيد حقهم في الاستيطان بهـذه المنـاطق. وأُعيـد بنـاء الأحيـاء اليهوديـة المدمرة في القدس والخليل، وغوش عصيون. وكان معظم الذين أعادوا بناء مستوطنات غوش عصيون، هـم من أبناء أولئك المستوطنين الذين طردوا من بيوتهم عام ١٩٤٨.

ومع مرور الوقت، قرر حوالي ٣٢٥ ألف إسرائيلي العودة لممارسة حقهم في الاستيطان في شرق القدس والضفة الغربية وقطاع غزة. ويشمل هذه الرقم ١٤٠ ألف مستوطن في الضفة الغرمية، و ١٨٠ ألفاً في القدس القديمة والشرقية ونواحيها، و ٥٠٠٠ في قطاع عزة.

يتضح من الحقائق التاريخية والسياسية ان هذه المستوطات لا تشمل مطالبة يهودية جيدة أو تجاوزاً من جانب اليهود في هذه المناطق.

ولكن على الرغم من أن دولهم وقعت على اتفاقيات فرساي، وكانت مشاركة في قرار الانتداب البريطانى الذي تضمن اعترافاً بحق اليهود بالاستيطان في "أرض إسرائيل" كلها، انضم كثيرون من زعماء الدول الغربية. فيما بعد، للتنديد بالاستيطان اليهودي. وأخذوا يقولون، أنه رغم كل شيء، لا يحق لكم الاستيطان في هذه المناطق وطرد العرب من اراضيهم.

يمكننا. أن نجد مبرراً لهذا الادعاء، لو كان اليهود قد سلبوا، فعلاً، من العرب، أراضيهم. لقد نجح العرب مرة أخرى في تضليل الرأي العام، حتى أن كثيرمن في العالم الغربي بدأوا يتخيلون جماهير عربية تطرد من اكواخها من "قلب الضفة الغربية المزدحمة بالسكان"، لتبنى مكانها أحياء يهودية. لا يوجد شيء أبعد عن الحقيقة،من هذا القول.

* **أولاً:** زاد - سكان الضفة الغربية بنسبة ٥٠% منذ عام ١٩٦٧، من ضمنهم ٨٥ ألف مهاجر فلسطيني، سُمح لهم بالعودة في اطار مشروع جمع شمل العائلات.

* **ثانياً:** ان مناطق الضفة الغربية ليست مأهولة بالسكان بصورة مكتظة أبداً. إذ ان نسبة السكان فيها قليلة عملياً لا تتجاوز ١٥٠ نسمة للكيلو متر المربّع الواحد، أي ما يعادل نسبة ٢.٥% أقل مما مو في تل أبيب. ان معظم السكان العرب يتجمعون في شرقي القس، وفي أربع مدن أخرى تقع على سلسلة الجبال، ولا تشغل مساحات واسعة من الأرض، في حين أن بقية المساحات خالية.

إن المشاهد العادي، لما تبثه شبكات التلفزيون في العالم، الذي تعرض لمشاهدة برامج عديدة، طيلة عدة سنوات، عن اوضاع مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، يجد نفسه مرغماً على الاستنتاج بأن الضفة الغربية في منطقة واسعة، فقيرة، مكتظة، مليئة بالأكواخ و البرّاكيّات المزدحمة والمضغوطة بكثافة، وتمتد من تل أبيب حتى اريحا.

ان جولة مدتها ساعة من الزمن، تكفي لتفنيد هذه الكذبة: ان من يسافر بسيارة من تل أبيب إلى الشرق على طريق "قاطع السامرة" إلى غور الأردن، يمرُّ في طريقه على سلسلة جبلية، وتلال لا يوجد أحد عليها - لا عرب ولا يهود، لا أشعار، ولا بيوت. إنما يستطيع المسافر أن يشاهد، هنا وهناك، قرية عربية أو اثنتين، وما يلبث ان يجد نفسه في مناطق خالية من الناس. وأن من ينظر بعين بريئة، يدرك فوراً ان بالامكان إنشاء مدن كاملة في هذه المناطق، دون سلب ولو ذرة رمل واحدة، من أرض أي انسان.

هذه ليست حقيقة جغرافية فحسب، إنما حقيقة قانونية أيضاً. ففي عام ١٩٧٦، أصبحت إسرائيل صاحبة الاراضي العامة، التي كانت من قبل تحت سيطرة الحكومة الأردنية (حوال ٥٠% من مجوع الاراضي). ومعظم هذه الاراضي لم تكن مأهولة، ولم تكن هنالك قضايا قانونية تطالب بهذه الاراضي من جانب العرب. كما أن المحاكم الإسرائيلية تعترف بقانون الاراضي الأردني، كعنصر حاسم في تحيد الملكية القانونية لاراضي الضفة الغربية (باستثناء البنود التي تحظر على اليهود امتلاك أراضٍ).

في بعض الحالات، حدث ان طالب عرب من الضفة الغربية الحكومة بملكيتهم لاراض، وكسبوا قضاياهم فعلاً، لكن الحقيقة هي أن معظم الاراضي لم تصادر من أي شخص - كانت منذ البداية أراض دولة وخالية. في هذه الاراضي القاحلة، التي لا زالت على حالها، مثلما وصفها مارك تومن، وارتور ستل، قبل ما يزيد على مائة عام، تبعث إسرائيل فيها الحياة الآن.

يعيش في المدينة اليهودية، أريئيل، في "السامرة"، الان ١٣ ألف نسمة، وفيها مركز تجاري، وفندق، وكلية، وفرقة موسيقية أيضاً. والمدينة مصممة لاستيعاب أكثر من ١٠٠ ألف

نسمة، حتى أنه من خلال نافذة السيارة المارّة على الطريق، يمكن ان يدرك المرء بسهولة، أنـه لا يوجـد أي مانع يحول دون نموّ هذه المدينة وفقاً لما هو مخطط لها: بُنيت أرنيل على تلة خالية، ولا نرى حولها سـوى تلال مكشوفة عارية. وهذه هي الحال بالنسبة لمدن معاليه أدومـيم، عمنوئيـل، الكنـا، أورنيـت، جفعـات زئيف، إفرات، بيتار، ومستوطنات أخرى كثيرة.

ليس من الغريب، على أية حال، ان يبدأ العرب وعـل رأسـهم منظمـة التحريـر الفلـسطينية بالـصراخ والاحتجاج، منذ اليوم الاول الذي بدأ به اليهود ممارسـة حقهـم في بنـاء بيـوتهم والعـيش في شرق القـدس والضفة الغربية، بعد غياب دام ١١ سنة عن هذا لأماكن.

إن قرار منح اليهود الاقامة في هذا الاماكن. (التى لم يكلف الفلسطينيون أنفسهم عنـاء تأهيلهـا إبـان الحكم الأردني)، هو الذي أثار حملة التنيد الدولية بالنشاطات الاستيطانية الإسرائيلية في المناطق. وفي هذه المعركة، بلغ تكتيك قلب السبب والمسبب، ذروة بشاعته، فالغرب الذي نـدد بـشدة بـالتمييز العنـصري في جنوب افريقيا أصبح يساعد العرب على انشاء نظام حكم عنصري ضد اليهود عـلى غـرار الانظمـة المألوفـة في العالم العربي نفـسه. إ ان كـل الـدول العربيـة (باسـتثناء المغـرب) تفـضل عـدم وجـود يهـود (أو حتـى مسيحيين) داخل حدودها. وأكثر الدول العربية تعـصباً في هـذا الجـال، هـي بعـض المملكـات التـي تعتـبر معتدلة مثل العربية السعودية التي تحترم جوازات السفر المختومة بالخاتم الإسرائيلى، والأردن التـي تنـزل عقوبة الاعدام بحق كل من يبيع أرضاً لليهود.لكـن الولايـات المتحـدة والـدول الغربيـة، لم يـسبق أبـداً ان نددت بهذه القوانين اللاسامية، ولم تطلب من حكومتي الأردن والعربية السعودية تغييرها.

وفي المقابـل، تـصدر، المـرة تلـو المـرة، بيانـات تزيـد إقامـة نظـام عنـصري مـضاد لليهـود في الـضفة الغربيــة. ان هــذه الـدول تطالــب الإسرائيليــين بالتــسليم بــالقيود اللايهوديــة والبقــاء خارج حدود المناطق التي يريد العرب إغلاقهـا في وجـوههم. حتـى أن الغـرب يطالـب إسرائيـل، باستمرار، باقتلاع يهود ومـنعهم مـن الاسـتيطان، في أمـاكن مـن المقـرر ان يـسكنها عـرب فقـط.

وتبرز هذه الحقيقة، بشكل خاص، في حالة قيام يهودي بشراء أو استئجار بيت في سلوان، ذلك الحي القريب من مركز القدس.

لقد عاش اليهود في سلوان حتى عام ١٩٤٨، أي حتى تم احتلالها من قبل الأردنيين، وطرد سكانها اليهود منها. لكن اليهود الذين يشترون اليوم اراضي وبيوتاً في سلوان يتعرضون لعاصفة دولية، ويواجهون الادعاء الذي يمنع اليهود من الاقامة هناك، حتى لو لم يكن هنالك أي خطأ في حقوق الشراء الفردية.

سلوان، هي "شيلوح" المكرائية، وان النبع والبركة التي تقع في أسفلها، هما اللذان كانا يزودان القدس بالمياه في عهد الهيكل الأول. وحول هذا الموقع المائي الوارد ذكره في التناخ، والذي لا زال قائماً حتى هذا اليوم، بنى الملك داوود عاصمته وحصّنها. كتيف هشلوّح" هي بالذات مدينة داوود. وهنا، على بعد ٢٠٠م من حائط المبكى، يريون منع دخول مستوطنين يهود.

هنالك طلب آخر مماثل، يتعلق بالاستيطان اليهودي في الخليل. الخليل، هي أقدم مستوطنة يهودية في "أرض إسرائيل" وتاريخ الشعب اليهودي عامة، حيث إختارها أبونا ابراهيم للاقامة فيها، وفيها اشترى قطعة الارض المخصّصة لمقبرة لزوجته وأسرته. وكل آباء وأمهات الشعب اليهودي، باستثناء أمنا راحيل، مدفونون في قلب هذه المدينة. وفي الخليل أقام الملك داوود مملكته، وحكم فيها سبع سنوات، قبل ان ينتقل إلى القدس. ومنذ خراب الهيكل الثاني، تقيم جالية يهودية في الخليل باستمرار، حتى وقعت مذبحة (١٩٢٩) حيث قتل فيها عشرات اليهود، وهرب الباقون من المدينة.

بعد حرب الايام الستة، استنزف الاستيطان اليهودي في الخليل وضواحيها - في كريات اربع وغرش عصيون. هل هنالك تناقض أكثر مما تنطوي عليه محاولات العرب وصف اليهود في الخليل بأنهم غزاة غرباء في مكان ليس لهم؟؟ والأكثر ادهاشاً، هو انضام يهود بمن فيهم اوساط حكومية، للمطالبة باجتثاث الاستيطان اليهودي من المدينة التي وصفها دافيد بن غوريون "الشقيقة الكبرى للقدس" ودعا إلى توطينها بأعداد كبيرة من اليهود.

ان المطالبة بعدم الاستيطان في الخليل وفي ١٤٠ مستوطنة يهودية أخرى في الضفة الغربية، لا تبرز دائماً بالمطالبة بتفكيك المستوطنات القائمة، إنما بالمطالبة بتجميد البناء فيها (وبالطبع، لا يوجد أحد يتحدث عن تجميد أعمال البناء العربية). وأصبح هذا المصطلح سائداً بصورة أوسع بعد أن تسلمت حكومة العمل السطة في إسرائيل، عام ١٩٩٢، وتعهدت بتجميد جزء من المستوطنات. غير أن تجميد أعمال البناء في المستوطنات يعني العيلولة دون تقويتها ونموها الطبيعي والحكم عليها بالموت البطيء المؤكد. فالتجميد من شأنه منع إنشاء المستشفيات والمدارس، والبقالات، والمكتبات، والخدمات العامة من كل الانواع. ويعني ايضاً أن الابناء لن يستطيعوا بناء بيوتهم بالقرب من بيوت آبائهم، والمستوطنات الصغيرة، التي تصارع من أجل البقاء الاقتصادي، لن تستسطيع التطور وتثبيت دعائمها.

من الذي يريد الاقامة في مستوطنات مجمّدة ليس لها مستقبل؟ واضح ان أي إنسان لا يرغب بالاقامة فيها. لذلك فان مصطلح "تجميد" هو الكلمة السريّة السهلة لكل من يقصد "التصفية" بالذات. لكن سياسة التجميد لم تمس بالاستيطان اليهودي في الضفة الغربية فقط. فمعظم المستوطنين يسكنون في الاماكن التي اعتدنا على اعتبارها ضواحي: مناطق تطوير واسعة مخصصة للسكن والصناعة حول المدن الكبيرة المكتظة بالسكان. وهذه الضواحي تخدم التطوّر الطبيعي لكل مدينة، وجاءت بشكل عام لاغراض بلدية، وليست سياسة بالذات. ومعظم اليهود الذين يسمون "مستوطنين" (بما في ذلك الاحياء الجديدة في القدس ليسوا سوى سكان ضواحى، على غرار سكان نيوجرسى، ولونغ آيلندء حول نيويورك: إنهم يسافرون يومياً مدة ٢٠-٣٠ دقيقة من قلب الضفة الغربية إلى الاحياء التجارية في القدس أو تل أبيب ثم يعودون. وبون ضواحٍ، سيكون محكوما على كل مدينة كبيرة بالاختناق والاكتظاظ، ولارتفاع حاد في اسعار الاراضي.

تبعد تل أبيب عن "السامرة" بضعة كيلو مترات فقط، في حين أن القدس محاطة بالضفة الغربية من ثلاثة اتجاهات (شرق المدينة، يعتبر بنظر العرب وشركائهم من اليسار الإسرائيلى، جزءاً من الضفة).

ولكي ندرك مدى تأثير عدم السماح بالاستيطان حول هذه المدن، على نموّها، يكفينا ان نتخيل الوضع الذي ستؤول إليه نيويورك، إذا ما منعوا سكانها من السكن في نيوجرسي، أو كونتيكات، أو لونغ آيلند. من الطبيعي ان تتعرض نيويورك للاختناق والذبول.

ان المعركة حول انكار حق اليهود في العيش في قلب "أرض إسرائيل" وعاصمتها، تنبع من فكرة أن الضفة الغربية وشرق القدس هي أرض ليست يهودية، غزاها اليهود وسلبوها من اصحابها القدامى، وهذا تشويه مطلق للحقيقة التاريخية. إذ أن العرب لم يعمّروا الأرض بعد أن احتلوها، علاوة على بقاء يهود لمدة الاف السنين في أماكن مثل الخليل والقدس. وقبل حرب "الاستقلال"مبشرات السنين، كان يعيش يهود في قرى عديدة في الضفة الغربية.

بعد أن انهارت فجأة الاسوار التي كانت تفصل بين جزأي القدس، حتى حرب الايام الستة، بدأ الاف الإسرائيليين بالتدفق عبر المدينة القديمة إلى حائط المبكى، والى بيت لحم، والخليل ونابلس واريحا، وبيت ايل، والى كل مكان شهد بلورة الهوية اليهودية. ربما لم يكن هنالك يهودي واحد، لم يتملكه شعور بالفخر والاعتزاز في تلك الأيام، وكل واحد منهم عبّر عن هذا الشعور بطريقته الخاصة، وها هو أخي، يوني، شأنه شأن الكثيرين من ابناء الشعب الإسرائيلي، يكرّس اجازاته من الجيش، للقيام بجولات تعزف على قلب الوطن التاريخي. وأنا نفسي، لا زلت أذكر مناسبات مماثلة، خاصة خلال التدريبات والرحلات التي كنت أقوم بها كجندي في وحدة استطلاع. لقد تجولنا كثيراًً. صعدنا فوق التلال ونزلنا إلى الاودية، وسلكنا طرقاً وعرة. لا زلت أذكر الليالي التي توقفنا فيها أمام منحر بيت حورون، حيث تغلب هناك المكابيون على اليونانيون، في صراعهم اليائس من اجل الاستقلال، أو تطلعنا بنظراتنا نحو قلعة بيتار، التي قُمع فيها تمرد باركاخوفا، على أيدي الجيوش الرومانية. وقفنا هناك مجموعة من الشباب، في التاسعة عشرة من أعمارهم، نستشف نسيم الجبال: ها نحن عدنا من أجل كل أجيال الشعب اليهودي، الذين كانت لديهم الجرأة على ان يعلموا، وهم في أغوار الذل والمهانة والقمع، بالعودة إلى هذه الأرض.

وبعد بضعة اسابيع من حرب الايام الستة، عبّر موشه دايان، عن هذه المشاعر بالكلمة التي ألقاها على جبل الزيتون، خلال حفل نقل رفات قتلى المعركة على القدس، عام ١٩٤٨، حيث قال:

"اخواننا، الذين سقطتم في حرب التحرير: لم نتخل عن حلمكم، ولم ننس دوركم. عدنا إلى الجبل، إلى مهد تاريخ شعبنا، إلى تركة آبائنا، أرض القضاة، ومعقل مملكات آل داوود. عدنا إلى الخليل ونابلس وبيت لحم، وعنتوت، وأريحا ونهر الأردن".

لم يكن موشه دايان يصطنع الكلمات، إنما كان يعبّر عن مشاعر غير عادية. وفي نفس الوقت لم يعبّر كثيرون من الإسرائيليون عن شعورهم الحقيقي لدى عودتهم إلى قلب وطنهم. إن من عبّر بصراحة عن مشاعرهم تلك هم الاعضاء المتدينون في حركات الاستيطان التابعة لغوش إيمونيم، النين كانوا رأس الحرية في الحملة لاعادة بناء الستوطنات اليهودية القديمة، وبناء مستوطنات جديدة في الضفة الغربية.

على الرغم من أن اعداداً كثيرة من الإسرائيليين تضامنوا معهم (حتى لو لم يستوطنوا في المناطق) فقد ساد في العالم الرأي القائل أن من يطالب هذه المناطق هم جماعة هامشية متطرفة فقط في الجمهور الإسرائيلي. وتعزز هذا الرأي المزيّف بصورة أكثر مع ظهور حركة يسارية غوغائية، ظلت تصدر باستمرار ان على إسرائيل الانسحاب من المناطق المحتلة. في الوقت نفسه، لم تكلف الحكومات الإسرائيلية نفسها بأن تشرح للعالم العلاقة الشعورية العميقة التي تربط بين الإسرائيليين والأرض، واكتفت منه الحكومات بعرض الاعتبارات الأمنية، لكي تشرح سبب استمرارها في الاحتفاظ بمناطق الضفة الغربية وغزة.

وفي المقابل، لم يتردد العرب في المطالبة بحقهم على هذه الأرض عارضين مبررات تاريخية مزيّفة. وهكذا، بدأت تترسخ فكرة ان اليهود احتلوا بالقوة وطناً عربياً، ليس لهم فيه حق أخلاقي، ولا تربطهم به علاقات تاريخية.

وسرعان ما نسي العالم حقيقة ان العرب هم الذين طردوا اليهود من المناطق التي سكنوها حتى حرب ١٩٤٨ وان العرب هم الذين هاجموا إسرائيل من نفس هذه المناطق في عام ١٩٦٧ إن الاستعراض المستمر بلا انقطاع للمتحدثين الفلسطينيين امام كمرات التلفزيون العالمية، وهم ينددون بالمحتلين الإسرائيليين، نجح في شطب كل الحقائق التاريخية الواضحة من وعي الجمهور: إسرائيل، احتلت أرضاً أجنبية، يجب عليها إعادتها إلى اصحابها الشرعيين، وإلاّ - ستعرض نفسها لخطر الحرب.

لم تكن هذه، المرة الأولى في تاريخ إسرائيل، التي يعود فيها يهود إلى اجزاء من وطنهم، طردوا منها بالقوة. إذ قبل ٢١٠٠ سنة، فعل هكذا المكابيون بعد حرب تحرير دامت حوالي ٣٠ سنة. ويجدر بنا أن نقرأ اليوم نص الرسائل التي تبودلت في حينه بين الملك أنطيوخوس السابع، وبين شمعون الحشموناي، وهو الأخير من ضمن خمسة ابناء متتياهو الذي سقط في النضال من أجل الحرية.

إدعى انطيوخرس أن "أرض إسرائيل" هي جزء لا يتجزأ من الأمبراطورية الهيلانية التابعة له، تماماً مثلما يدعي العرب اليوم بأنها جزء لا يتجزأ من مجال سلطتهم.

ومكذا قال الملك: "إنكم تسيطرون على يافا، وجيزر، وحكرا، التي في القدس، من مملكتي. وجعلتم حدودها مهجورة. لقد ارتكبتم خطأً فادحاً في البلاد، واستوليتم على أماكن عديدة في مملكتي. والآن عليكم إعادة المدن التي احتللتموها... والّا، سنأتي لمحاربتكم".

وكان رد شمعون عليه، والذي يجب ان نكرره اليوم، على النحو التالى: "لم نأخذ أرضاً أجنبية، ولم نسيطر على أجانب، بل على تركة آبائنا التي احتلها أعداؤنا ظلماً في أحد الاوقات. وعندما أصبحت لدينا قوة، أعدنا لانفسنا تركة آبائنا".

هذه الأرض، التي تخرج مع كل ضربة فأس في أرضها بقايا من الماضي اليهودي. والتي لا زال الاسم العبري القديم يُلمس. في أسماء قراها؛هذه الأرض التي أصبح فيها ابناء

إسرائيل شعباً، والتى من أجلها ذرفوا بحراً من الدموع عبر التاريخ؛هـذه الأرض التـي مـع فقـدانها، حلّـت باليهود المصائب والكوارث والمعاناة والشتات والقتل الجماعي، لم تجربها أية أمة من قبل؛هذه الأرض التي من أجلها حارب اليهود ببطولة واصرار لا مثيل لهما في تاريخ الشعوب -هذه الأرض، هـي الأرض الاجنبيـة، التي يريد زعماء العالم اليوم إغلاقها في وجه الاستيطان اليهودي، والتي يُطلب من إسرائيل التنازل عنها من جانب واحد.

ان نضال العرب، اليوم، لإبعاد اليهود من "يهودا والسامرة" مثل نضالهم في الثلاثينـات لإبعـاد اليهـود من "أرض إسرائيل" كلها، لا يرتكز إلى الحق حتى لو حظي بتأييد دولي.

دولة اليهود، التي ضغطت نتيجة لخرق الالتزامـات الدوليـة والاحـتلال العـربي، إلى الـسهل الـساحلي الضيق وصعب الدفاع عنه، والتي رأت اليهود يطردون مـن المـدن القديمـة التـي أرادوا بناهـا مـن جديـد، والتي هاجمتها الجيوش العربية من الجبال المحيطة بها - هذه الدولة، يطلب منهـا الآن، مـن قبـل العـالم كله تقريباً، التسليم بتحويلها من جديد إلى جيتو ضيق وخانق، على طول خط الساحل، تسيطر عليه دولة فلسطينية معادية، نظيفة من اليهود، تقام على المرتفعات

الجبلية التي تشكل قلب الوطن القومي اليهودي. واذا كان في مطلع القرن العشرين، قـد تـم التعبـير عن موافقة دولية على اعلان اللورد سسيل: "عرب للعرب، ويهودا، لليهود"، ها هو العالم يطلب الآن ونحن على ابواب عام ٢٠٠٠ : "عرب للعرب - ويهودا، أيضاً". وهكذا يكتمل قلب السبب والمسبب.

الفصل الخامس
حصان طروادة

تمثلت الخطة الرئيسة التي استخدمها العرب في حربهم المائية ضد إسرائيل في تقليص وحصر مشاكل الشرق الاوسط بإسرائيل. في بادئ الامر، قلموا كل النزاعات الشرق أوسطية، لتقتصر على الصراع العربي - الإسرائيلي، ثم قلصوا هذا الصراع، إلى صراع بين الفلسطينيين وبين إسرائيل، ومن ثم قلصوا كل الفلسطينيين إلى "حركة تحرير" واحدة، هي منظمة التحرير الفلسطينية. وهكذا أُستكملت قلب الادوار في الرأي العام العالمي وأصبحت إسرائيل ذلك العملاق المتوحش، الذي تقف في مواجهته مجموعة صغيرة من الثوريين المخلصين المثاليين، وحتى الرومانسيين - مثل جورج واشنطن وحفنة المقاتلين المخلصين، الذين كانوا معه، مثلما اعتاد عرفات الادعاء، أمام الأمريكيين.

بهذه الطريقة أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. في الواقع لم تُنتخب المنظمة من قبل أحد، والتأييد "المطلق" الذى ادعى عرفات بأنها تتمتع به في الشارع الفلسطيني، اعتمد على اغتيال معارضيها، وتجاهل خصومها،لكن كل هذا لم يكن واقعياً:وافق العالم العربي بالاجماع على أنه في كل مرة يبعث فيها موضوع إسرائيل، يجب دفع منظمة التحرير إلى خط الجبهة الدعائية. وهكذا، سيتركز اهتمام الرأي العام الغربي على الجرائم التي ترتكبها الصهيونية ضد الفلسطينيين ولا يتحول إلى مواضيع "هامشية" مثل التسلح العربي الحثيث ضد إسرائيل. وكانت هذه الاستراتيجية فعّالة، لدرجة جعلت حتى أشد أعداء منظمة التحرير الفلسطينية من بين العرب، يدعمون مطالبتها بأن تكون الناطق الوحيد باسم الجانب الوحيد (أو الرئيس على الأقل) الذى تضرر في النزاع بين العرب وإسرائيل.

كيف نشأت هذه المنظمة؟ وهل تبنت الارهاب نتيجة لاحباط سياسي مؤقت، أم لأسباب أخرى؟ وهل الكفاح المسلح ضد إسرائيل، جاء رداً على احتلال اراضي فلسطين من

قبل إسرائيل في حرب الأيام الستة، مثلما تدعي منظمة التحرير باستمرار، أم أنه بدأ قبل ذلك بكثير؟.

تأسست منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة عام (١٩٦٤)، أي قبل اندلاع حرب الأيام الستة، بثلاث سنوات. لقد أقام الرئيس المصري، جمال عبدالناصر، هذه النظمة كأداة لمواصلة حربه الفاشلة ضد إسرائيل، وكوسيلة لزعزعة الاستقرار في الأردن. وبما أن هاتين الدولتين تحتفظان بكامل "أرض إسرائيل" الانتدابية، فان مبدأ "تحرير كل أرض فلسطين" الوارد في ميثاق المنظمة، يعني تحريرها من كلتا الدولتين معاً. تجدر الاشارة إلى انه في عام (١٩٦٤)، لم تكن إسرائيل تحتل ولو سنتمتراً واحداً من الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧. وعندما أُقيمت منظمة التحرير الفلسطينية بهدف تحرير "أرض فلسطين كلها" كان هدفها المعلن هو احتلال أراضي دولة إسرائيل، وبخاصة السهل الساحلي، الذي يعيش فيه ثلاثة أرباع سكان إسرائيل، وأمل معظم زعماء منظمة التحرير الفلسطينية من منطقة السهل الساحلي، من عكا، حيفا،يافا، وتأمل منظمة التحرير العودة إلى هذه الاماكن في يوم ما.

وقد تبنى الجلس الوطني الفلسطيني في أول مؤتمر له، دستور المنظمة المعروف باسم "الميثاق الوطني الفلسطيني" حيث تضمنت الوثيقة تفصيلاً لاهداف المنظمة الاساسية ومنها:

* البند رقم /١٥ : تحرير فلسطين.. واجب وطني.. من أجل طرد الغزو الصهيوني والامبريالى من الوطن العربي الكبير، وتطهير فلسطين من الوجود الصهيوني..."

* البند رقم/١٩ :"قرارات تقسيم فلسطين من قبل الأمم التحدة في عام ١٩٤٧، واقامة إسرائيل، باطلة من أساسها..."

* البند رقم/٢٠ : "ان الادعاءات المتعلقة بوجود علاقة تاريخية أو روحانية بين اليهود وفلسطين لا تنسجم مع الحقائق التاريخية، أو مع عناصر الدولة بمعناها الحقيقي

* البند رقم/٢١ : "الشعب العربي الفلسطيني الذي يعبّر عن نفسه بواسطة الثورة الفلسطينية المسلحة، يرفض كافة الحلول التي تأتي بديلاً لتحرير فلسطين كاملة...

لقد صودق على هذا الميثاق أكثر من مرة منذ عام ١٩٦٤، ويستشف منه أن الخلاف بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل لا يتعلق بالأرض، إنما بوجود إسرائيل كدولة بالذات.

أولاً، وقبل كل شيء، تعتبر إسرائيل في نظر اليثاق الفلسطينى، كياناً غير شرعي وجرم. وبناء على مبدأ أن (قيام إسرائيل باطل) بعنى إلغاء وجود الدولة اليهودية. دون أية علاقات لحدودها وحجمها. وهكذا ألغت المنظمة بمسحة يد تعلّق الشعب الإسرائيلي بأرض إسرائيل طيلة ٣٥٠٠ سنة، منذ عهد التناخ وحتى "وثيقة الاستقلال". وخلاصة القول، ان الهدف الأساسي لميثاق المنظمة، هو القضاء على وجود إسرائيل.

ان الطموح للقضاء على دولة بكاملها، أمر نادر لدرجة ان الكثير من يصعب عليهم التصديق، بأن مثل هذا الطموح قد يصلح لان يكون دافعاً لنشاط سياسي منظم.

تتحارب الامم مع بعضها البعض نتيجة لخلافات على الحدود، أو الموارد الطبيعية، أو حتى على أنظمة حكم، غير أنه لا توجد تقريباً سابقة في التاريخ الحديث، تتمثل في السعي للقضاء على وجود أمة بأكملها. حتى أن الحرب العالمية الثانية، التي تعتبر أسوأ ما في الحروب، لم تؤد إلى هكذا نتيجة: ان هزيمة المانيا واليابان، لم تكن أبداً ذريعة للقضاء عليهما كدولتين، وها هو، هذا الهدف الشاذ، المتمثل بشطب دولة مع شعبها بالكامل من على وجه الأرض، الذي اختارته منظمة التحرير الفلسطينية وتسعى لتحقيقه.

ولكي نقف على نوعية الحركة، التي تتبنى لنفسها مثل هذا الهدف، يجب علينا أن ندرس الخلفية التاريخية لظهورها وتطورها.

بدأت حرب العرب ضد اليهود، في مطلع القرن الحالي. وتعي منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها، أن تبلور الوعي الفلسطيني ومقاومة الاستيطان اليهودي بدأ في العشرينات والثلاثينات، وهي الفترة الحاسمة التي سبقت قيام دولة إسرائيل.

طيلة تلك السنوات، شنت عصابات عربية هجمات دامية على المستوطنين اليهود، وقتلـت معارضـيها المعتدلين في الوسط العربي، ورفضت كل التنازلات ومحاولات السلام من جانب اليهود.

ورغم أنه قتل في تلك الحرب الوحشية والطويلة مئات اليهود، فان أحداً لم يذكر أياً من الـذرائع التـي تسمع اليوم لشرح أسباب العداء العربي لإسرائيل : في تلك الفـترة، لم يكـن هنالـك "لاجئـون"، ولا "منـاطق محتلة"، أو "حدود". زد على ذلك، انه لم يكن مطروحاً نهائياً مبدأ تقرير المصير- الفلـسطيني أو العـربي، اذ في تلك الأيام، لم يقل العرب ان هذا هدفهم، حتى انهم رفضوا الاستقلال الذي عرض علـيهم، بمقتـضى قـرار التقسيم الصادر عن الأمم التحدة من عام ١٩٤٧. وفعلاً، لم يكن النزاع يتغذى من هذه العنـاصر، بـل مـن الرفض العربي لأي وجود يهودي، مهما كان، في "إسرائيل".

لقد دمرت عصابات القتلة، كل من حاول الوقوف في طريقهـا، وبخاصـة أولئـك العـرب الـذين نـادوا بالحلول الوسط والتعايش السلمي، وكان من أبرز اعداء الحركة الصهيونية قبل قيـام الدولـة، الحـاج أمـين الحسيني، المفتي الأكبر للقدس. إنه يمثل "الأب الشرعي" لمنظمة التحريـر الفلـسطينية. إذا لم تكـن هنالـك شخصية فلسطينية تأثرت بها زعامة المنظمة أكثر من الحسيني. ومع مرور الوقت، حظي كثيرون أيضاً مـن مساعدي ومؤيدي المفتي، أمثال، أميل خوري، وعبدالقادر الحسيني، بمكانـة ميثولوجيـة في تـراث منظمـة التحرير الفلسطينية.

منذ البداية، استعان عرفـات بقرابتـه الأُسريـة مـن المفتـي، بـصفته سـليل عائلـة "القـدوة" احـدى فـروع الحسينيين، بهدف تعزيز مكانته بين الفلسطينيين. كان المفتي في نظر عرفات مربياً ومرشداً.

في عام ١٩٨٥، قال عرفات بمناسبة مرور ثلاثين سنة على مؤتمر باندونغ (للدول الثورية وغير المنحـازة) أنه فخور إلى أبعد الحدود، بالسير على آثار المفتي، وأكد ان منظمة التحرير الفلسطينية، تـسير في الطريـق التي شقّها المفتي.

ما هذه الطريق، ومن مو المفتي؟

لكي ندرك أهداف المنظمة واساليبها، يجب دراسة الفترة التي نـشأت فيهـا القوميـة العربيـة في "أرض إسرائيل". في تلك الفترة تحدد اتجاه التطوّر المستقبلي لمنظمة التحريـر الفلـسطينية، ورسـمت سـيرة حيـاة مؤسسيها الذين نشأ كثيرون منهم في حركة المفتي.

ويتضح منا أيضاً، ان الفترة مابين الحربين العالميتين، كانت حاسمة في بلورة نظريات القـوميين العـرب تجاه يهود "أرض إسرائيل".

وكما أسلفنا، عُيّن الحاج أمين الحسيني،بمنصب المفتي الأكبر "لأرض إسرائيل" من قبل البريطـانيين عـام ١٩٢١، أي بعد أن أدانو، بالتحريض على اليهود في القدس القديمة، بأقل من سنة.

كانت حملة التحريض التـي شـنها المفتـي والعـصابات التـي شـكلها، العنـاصر الرئيـسة للاضـطرابات المعادية لليهود، التي وقعت في البلاد عـامي ١٩٢١، ١٩٢٩. ولكـن في حقيقـة الأمـر، كـان العـرب أنفـسهم أهدافاً لـلـهجمات الرئيسة التي شنها المفتي. بمساعدة منيعه، أميل الغوي، وبتمويل من النازيين والفاشيين الايطاليين، عذّب المفتي وقتل زعماء عرباً معتدلين، وأصحاب أراض كانوا على استعداد لبيعها لليهود، وكـل من بدا في نظره خائناً. كانت هنالك عائلات عربية كاملة، عارضت سياسة الحسينى، مثل عائلة النـشاشيبي المقدسية، تمت تصفيتها نهائياً أو هجرت المنطقة. قتل آلاف الفلسطينيين، وأُرغم حوالي٤٠ ألفاً عـلى الفـرار من البلاد. وفي اواخر الثلاثينات كانت سلطة الارهاب المتواصل، قد أدت إلى إسكات صوت العرب المعتدلين في البلاد، نهائياً.

في مؤتمر "المائدة المستديرة" لـزعماء الـشرق الأوسـط، الـذي عقـده البريطـانيون، عـام ١٩٣٩، لبحـث مستقبل "أرض إسرائيل" ادعى زعماء عائلة الحسيني أنهم "الممثل الوحيد للعرب الفلسطينيين".

كانت تلك الأعمال، في نظر الحسيني، لا تساوي شيئاً. لقد أراد الاستعانة بقوة عالمية في حربه ضد الاستيطان اليهودي،واقامة امبراطورية عربية تحت حكمه،والقضاء نهائياً على الوباء اليهودي.

وفي الثلاثينات، عندها تعززت قوة الفاشيين والنازيين في اوروبا، وجد الحسيني فيهم القوة التي يبحث عنها.

عندها تسلم هتلر السلطة عام ١٩٣٣، توجه المفتي لأول مرة إلى القنصل الألماني في القدس. وسرعان ما اكتشف التشابه الكبير بين نظريتي القومية النازية والعربية. كان التشابه بين هاتين الحركتين القوميتين، يبدو أمراً طبيعياً ومفهوماً لدى كثيرين من الشعب العربي.

فعلى غرار العالم العربي، كان عالم الناطقين بالألمانية أيضاً محطماً طيلة سنوات كثيرة، ومقسّماً لأمارات وطوائف متناحرة، كان بعضها يخضع لسلطة أجنبية (حتى تم توحيدها تحت السيادة البروسية). وكما هي الحال بالنسبة للعرب، كان الألمان يبحثون عن هويتهم، وكان شأنهم شأن العرب أيضاً، يكرهون الدول الغربية العظمى التي فككت الامبراطورية الألمانية في فرساي، بعد هزيمة المانيا في الحرب العالمية الأولى.

لقد بلور الألمان أخيراً هويتهم على النحو التالي: ألماني، يعني أنه ليس يهودياً، ولا بلشفياً، ولا ملوثاً بالوباء الغربي.وقد أسرت هذه الصيغة كثيرين من العرب، عبّروا عنها بتأسيس حركات واحزاب ومنظمات شبيبة عربية عالمية - اشتراكية في الثلاثينات، وبتوزيع واسع للأدب النازي العادي للسامية في العالم العربي، وبتأييد واسع لهتلر في الوسط العربي.

كان ضم النمسا واقليم سوديت إلى المانيا، على أيدي النازيين، قد لاقى ترحيباً وصدى إيجابياً لدى العرب، الذين اعتبروه اجراءاً نموذجياً يجشد قوة الشعوب المقهورة.

في أرض إسرائيل اسست عائلة المفتي، الحزب الفلسطيني العربي. واعلن زعيمه، جمال الحسيني، علانيه أن الحزب أُسس وفقاً للنموذج النازي. حتى أن حركة الشبيبة التابعة للحزب، أُطلق عليها اسم "الكشافة النازيين" لفترة ما.

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، كان المفتي يقيم في العراق، اجرى من هناك اتصالات مع قوات المحور، وحاول جمع التأييد لثورة موالية للنازيين في العراق وسوريا، (استعان بصلاح الدين البيطار، وميشيل عفلق، من مؤسسي حرب البعث).

في عام ١٩٤١، أطاح النظام العربي الجديد، الذي كان حليفاً للمفتي، بالنظام الملكي الهاشمي في العراق، واعلن الحرب على دول الحلفاء. وأخيراً أعاد الجيش البريطاني الملك إلى عرشه، في العراق. ولكن حتى تمكن الجيش البريطاني من العودة إلى بغداد، كان قد قتل حوالي ٦٠٠ يهودي.

خرج المفتي من بغداد إلى روما وبرلين، وعرض خدماته لمساعدة المجهود الحربي لكل من ايطاليا والمانيا، شريطة ان تعترفا، إعترافاً مبدئياً بوحدة واستقلال وسيادة أمة عربية ذات طابع فاشي، تشمل العراق وسوريا وفلسطين، وشرق الأردن.

في تشرين أول ١٩٤١، أمرت الحكومة الألمانية بياناً رسمياً في برلين، تعهدت فيه بالعمل على تصفية الوطن القومي اليهودي في فلسطين. طار المفتي إلى برلين، وقابل هتلر، لأول مرة، في ٢٨ تشرين ثان ١٩٤١. واعرب المفتي عن استعداده، للتعاون مع ألمانيا بشتى الطرق، بما فيها تجنيد لواء عربي يقاتل إلى جانب الالمان النازيين. وقال هتلر للمفتي ان الاثنين لهما هدف واحد مشترك هو إبادة يهود "أرض فلسطين".

من الان فصاعداً، واصل المفتي العمل بنشاط لصالح الالمان. وتحدث اكر من مرة عبر الاذاعة الألمانية، داعياً المسلمين أينما وُجدوا، للثورة ضد الحلفاء. حتى أنه نظم عمليات تخريب وتجسس داخل الدول العربية.

وفيما يلي نموذج مما أذاعه الحسيني في عام ١٩٤٢، ومنه نستطيع معرفة العلاقة الواضحة بين المجهود العربي الالماني النازي، وبين الطموحات العربية: -إذا انتصرت بريطانيا، لا سمح الله، سيسيطر اليهود على العالم كله. وستسلب بريطانيا وحلفاؤها من العرب الحرية والاستقلال.

وسيوجهون طعنة إلى قلب الوطن العربي، ويقتطعون منه اجزاء لاقامة دولة يهودية، التي لـن تقتـصر أطماعهـا على فلسطين، إنما تتوسع لتشمل بلاداً عربية أخرى... ولكن إذا هزمت بريطانيا وحلفاؤهـا، سـيتم حـل المـسألة اليهودية حلاً نهائياً، التي تعتبر بالنسبة لنا الخطر الأكبر.

كما أن المفتي جنّد مسلمين من الاتحاد السوفياتي ودول البلقان لوحـدات عربيـة خاصـة، أُقيمـت في اطار الجيش الألماني، من قبل فلسطيني آخر، هو فوزي القاوقجي. فبعد أن قـام بجولـة في يوغـسلافيا، تـم تجنيد حوالى ٦٠٠٠ مسلم تم دمجهم في وحدة جبلية تابعة لِـ"فابن - إس. إس" التـي اشـتركت فـيما بعـد، بقتل يهود يوغسلافيا.

وأعلن المفتي: "اقتلوا اليهود حيثما وجدتموهم".

"الـلـه يريد ذلك، والتاريخ يريد ذلك، والدين يريد ذلك أيضاً".

خلال الفترة من ١٩٤٢ - ١٩٤٤، عمل المفتي من قاعدته في بـرلين، وحـاول مـع انقـاذ يهـود مـن هنغاريـا ورومانيا، وبلغاريا، وكرواتيا، التي رغم استبعادهما من قبل هتلر، سـمحت لليهـود بـالهرب إلى "أرض إسرائيـل" وأماكن أخرى. واحتج المفتي على ان الألمان لم يتخذوا الاجراءات الكافية لمنع هروب لاجئين يهود من البلقان.

في١٣ أيار ١٩٤٣، على سبيل المثال، قدم المفتي كتاباً إلى وزير الخارجية الألماني روبن تروب، احتج فيـه على خطة تسمح بهجرة حوالي٤٠٠٠ ولد يهودي من بلغاريا، ورغم كـل هـذا، لم يكـن المفتـي راضـياً، كـان هدفه أبعد من منع هروب اليهود من اوروبا، كان يرغب في ان يرى إبادتهم جميعاً.

قال، ديتر فيليتسكاني، نائب، أدولف أيخمان، ان الحـسيني، كـان لـه دور في اتخـاذ قـرار إبـادة يهـود أوروبا. ويجب عدم تجاهل دوره هذا... فقد اقترح المفتي، أكثر من مرة، على السلطات الألمانية التـي كـان على اتصال بها، وعلى رأسها، هتلر، وتروب، وهملر، إبادة يهود أوروبا. كان يرى في ذلك حلاً مناسباً للقضية الفلسطينية".

كيف نجا هذا المجرم المقيت من العقاب؟

في اعقاب الحرب، اكتشف مجرمو حرب نازيون، وقدموا للمحاكمة في جميع أنحاء أوروبا - لكن هـذا لم يحدث في العالم العربي، حيث أُستقبل هناك النازيون والتعاونون معهم كأبطال. لقـد حظـي مئـات مـن الضباط النازيين بملاجئ في العواصم العربية، وتم تشغيلهم هناك كمستشارين في أعـمال القتـل. وبخاصـة، مصر، حيث حاولت اجتـذاب نـازيين لخـدمتها، مـن خـلال التنـافس مـع الأنظمـة الدكتاتوريـة في أمريكـا الجنوبية، التي ارادت هي كذلك، الاستفادة من التجربة الألمانية في قمع الشعوب.

وفعلاً، كان باستطاعة مصر التفاخر بما حصلت عليه من مجرمي الحـرب أمثـال، جـنرال ال (إس. إس) أوسكار ديرلونغر، الـذي قتـل آلاف اليهـود في أوكرانيـا، ثـم أصـبح الحـارس الشخـصي لجـمال عبـدالناصر، والدكتور هنريخ فلرمان، الذي أجرى تجارب على الانسان.

كما أن رجل "إس. إس" القاتل المشهور، الويس برونر، عاش سـنوات طويلـة في دمـشق كـضيف عـلى السوريين، وكمستشار للنظام الحاكم في المجال الأمني. وكذلك منظمة التحرير التي واصلت طريق المفتـي، وتعاونت منذ اليوم الأول لتأسيسها مع "النازيين الجدد".

لقد هزمت النازية في أوروبا، غـير أنهـا سرعـان مـا وجـدت لنفـسها مجـالاً مريحـاً لتبنيهـا في الـشرق الأوسط.

بعد الحرب أُستقبل الجنود والعملاء الذين حاربوا من أجل هتلر بحماس بالغ في أنحاء العالم العـربي. وأصبح المفتي نفسه ضيفاً على الحكومة المصرية، واستأنف "عمله كالمعتـاد"، أي نـشر نظريتـه الـسامّة في العالم العربي كله. وبالتعاون مع إبن عمه، زعـيم العـصابات، عبـدالقادر الحـسيني، أقـام المفتـي في عـامي ١٩٤٧و١٩٤٨، وحدات لتصفية اليهود. وترأس هذه الوحدات محاربون قدامى، حـاربوا إلى جانـب النـازيين أمثال، فوزي القاوقجي، وحمود رفاعي. كان الرفاعي، سورياً حارب في صفوف المظليين الألمان. وكان يستمد إيحاءه من دعوة الحسيني المشهورة: "إنني أعلن الجهاد. أقتلوا اليهود. أقتلوهم جميعاً".

في أيلول ١٩٤٨، أقام المفتي حكومة "عموم فلسطين" التي كان مـن المقـرر ان تكـون غـزة مقـراً لهـا. وعين شقيق ياسر عرفات، جمال، الذي خـدم مـع قـوات عبـدالقادر الحـسيني، سـكرتيراً لحكومـة المفتـي. (يدعي عرفات أنه قاتل إلى جانب الحسيني، ويمكن ايجاد الدليل على ذلك في التقرير الـذي يفيـد انـه، أي عرفات، كان مساعداً شخصياً له).

أيدت مصر الحكومة الفلسطينية، لكي تكون وزناً مضاداً للملك عبـدالملك في شرق الأردن، الـذي كـان يطالب هو الآخر، بأرض إسرائيل كلها.

في عام ١٩٥١، بعد هزيمة العرب في حرب "الاستقلال" أبدى الملك عبداللــه مـؤشرات واضـحة بـشأن رغبته في التوصل إلى سلام مع إسرائيل، واغتيل فوراً على أيدي عمـلاء المفتـي. ان الارهـاب الـسياسي الـذي طوّره المفتي وتلامذته، لا يزال يلقي بظله وتهديده على دول كاملة في الشرق الاوسط، حتى يومنا هذا.

لذا، ليس من الغريب، أن يحاول الملك فاروق، ملك مصر، تقليص تحركات المفتـي المتطرفـة وتحديـد مجال مناورته. عندما حاول المفتي الخروج إلى غزة لترؤس "حكومته" أمر فـاروق باعادتـه إلى مـصر فـوراً. وأخيراً هرب المفتي إلى بيروت. حيث مات هناك. وقبل موته، حظـي المفتـي برؤيـة سـقوط اعدائـه. ففـي ١٩٥٢، أُطيح بالملك فاروق، ليحل مكانـه نظـام اسـتبدادي بزعامـة جـمال عبـدالناصر. اسـتغل عبـدالناصر الجهاز الحكومي التوفر لديه، لاثارة الكراهية للغرب، وتنمية حلم الثأر من ممـثلي الغـرب، اليهـود الـذين اغتصبوا فلسطين.

وأدرك عبدالناصر، أن من يقود المعركة ضد إسرائيل، يضمن لنفسه زعامـة العـالم العـربي. لـذا لم يـأل جهداً في التأكيد على ضرورة القضاء على دولة إسرائيل.

وبثت وسائل الدعاية المصرية، ما خلفه المفتي مـن كراهيـة، في أوسـاط المتطـرفين في العـالم العربي، وبخاصة الفلـسطينيين الـشباب، الـذين إنـصهروا في الفـرن الـسياسى للقـاهرة الثوريـة في الخمــسينات. وكــان مثــل هــؤلاء الــشباب، الــذين هجــرت عــائلاتهم إسرائيــل، قبــل حــرب

"الاستقلال" أو خلالها، يتواجدون بكثرة في القاهرة، وسرعان ما انضموا إلى عجلة القومية العربية. ومن بين هؤلاء، نشأت فيما بعد، زعامة منظمة التحرير الفلسطينية - عرفات، أبو اياد، أبو جهاد، وغيرهم. وتلقى هؤلاء تدريباتهم العسكرية الاولية ئفي إطار الوحدات الفلسطينية التي شكلها عبدالناصر، لمحاربة إسرائيل.

في عام ١٩٦٤، دعا عبدالناصر، زعماء العالم العربي، لعقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة، لمناقشة موضوع واحد، كان الوحيد الذي يمكن ان يتفقوا بشأنه، وهو كيف يمكن القضاء على إسرائيل.

في ذلك المؤتمر، اقترح عبدالناصر تشكيل منظمة من العرب الفلسطينيين، تعمل في جميع أنحاء العالم، ومن أجل القضاء على الدولة اليهودية. ووافقت الدول العربية بحماس، واتفق الجميع على تمويل نشاطات المنظمة، التي تزعمها "بوق عبدالناصر"، أحمد الشقيري.

منذ البداية، أراد عبدالناصر ان تكون منظمة التحرير الفلسطينية أداة لخدمة القومية العربية تحت زعامته. كان من المقرر ان ترفع منظمة التحرير شعارات فلسطينية وتنفيذ عمليات محدودة ضد إسرائيل، بيد أنه كان واضحاً، أن على المنظمة ان تعمل باشراف وثيق من قبل الحكومة المصرية. للحيلولة دون وقوع ردود فعل غير مرغوبة من جانب إسرائيل.

وبعد فشله الذريع في اليمن عام ١٩٦٢، كان عبدالناصر بحاجة إلى فترة زمنية لاعادة بناء قوة جيشه. وبدا في نظره، أن القيام بشيء ما بشأن القضية الفلسطينية، (ضجة معينة)، يمكن ان يحسّن من صورته، دون ان يبالغ في المغامرة. وكان الشقيري مناسباً جداً لهذه المهمة: عندما كان الشقيري سفيراً للعربية السعودية في الأمم المتحدة، وصفه الدبلوماسي الايرلندي، كونرو كروز، بأنه "صفر مصفّر". غير انه سرعان ما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية تطور أفكاراً خاصة بها. فقد وقفت المنظمة على قدميها، بفضل النشاطات الارهابية التي نفذتها حركة "فتح" عرفات.

في تلك الفترة، حظيت "فتح" برعاية نظام البعث السوري، وكانت متورطة بعشرات الغارات على إسرائيل عبر الحدود مع الأردن. صحيح أن معظم الغارات كانت فاشلة، إلاً أن السمعة التي نالتها "فتح" بفضلها، أرغمت عبدالناصر على التخفيف شيئاً ما على قطاع غزة. في البداية سمح للشقيري بالقيام بعدة عمليات، وأخيراً وضع حركة "فتح" في مركز منظمة التحرير الفلسطينية وعين عرفات رئيساً للمنظمة.

وشيئاً فشيئاً، نجحت منظمة التحرير الفلسطينية بالتحرر من رعاية عبدالناصر كلها، وتبنت استراتيجية مستقلة خاصة بها. وقرت منظمة التحرير بزعامة عرفات، أن لا تكون رأس حربة لحرب عربية ضد إسرائيل، فحسب، بل العنصر المثير للحروب المأمولة. اعتقد زعماء منظمة التحرير أنهم إذا شنوا هجمات على إسرائيل واستطاعوا جرّها إلى عمليات انتقامية ضد الدولة العربية، ستتصاعد وتتسع دائرة العنف، حتى تبلغ الذروة، في حرب شاملة يدمّر العرب فيها إسرائيل. وطيلة العشرين سنة التي تلت ذلك.، ظل عرفات يؤمن أنه على الرغم من مخاوف الدول العربية من احتمال تعرضها لهزيمة أخرى في حرب مع إسرائيل، سينجح في إرغامها على الحرب. واصبح عرفات، بذلك، أكبر مثير للحروب في العالم العربي، حيث قال:"ان حرب الاستنزاف ضد العدو الصهيوني، لن تتوقف أبداً.. ان مصلحتي تستوجب حرباً جديدة في المنطقة، لانني أعتقد أن العلاج الوحيد لصدأ الامة العربية هو حرب حقيقية ضد العدو الصهيوني".

على أية حال، كان هدف حملة الارهاب التي شنتها منظمة التحرير الفلسطينية هو الدخول إلى إسرائيل واشعال نيران حرب جديدة بين العرب وإسرائيل. واعتمدت غارات عناصر المنظمة على الخبرة المكتسبة في الخمسينات من عمليات الفدائيين الذين رعاهم عبد الناصر. كان الفدائيون يدخلون إلى الاراضي الإسرائيلية، يقتلون مددنيين ويفجرون سيارات، ثم يعودون إلى قوم ف قطاع غزة، الذي كان آنذاك، تحت الحكم المصري، وفي الضفة الغربية التي كانت تحت الحكم الأردني. وردت إسرائيل بعمليات جرينة ضد قواعد الارهاب. وادت

عمليات الفدائيين، واغلاق مضائق تيران، في نهاية الامر إلى خروج إسرائيل في "حملة قادش" (حملة سيناء) ضد مصر عام، التي دمرت خلالها قواعد الفدائيين في قطاع غزة.

وعبد الناصر، الذي كان لا زال يذكر هزيمة جيشه امام الجيش الإسرائيلي وهو يطهر قواعد الفدائيين في سيناء عام ١٩٥٦، لم يعد مستعداً الآن لتمكين منظمة التحرير الفلسطينية من مواصلة عملياتها، من الاراضي المصرية. لذا، نقلت المنظمة جبهة عملها إلى الأردن، التي كانت تعتبرها جزءاً من فلسطين، ولم يكن الأردن قوياً بما فيه الكفاية لمنع منظمة التحرير من العمل انطلاقاً من اراضيها. كان يخشى رد الانظمة العربية في العراق وسوريا ومصر، التي كانت كلها تزيد، بالطبع، انتشار جيش التحرير الفلسطيني في الأردن.

في تلك الاثناء كانت عناصر المنظمة تهاجم اهدافاً داخل إسرائيل انطلاقاً من قواعدها في الضفة الغربية. ورد الجيش الإسرائيلي على هذه الهجمات بشن غارات شديدة، كانت ذروتها الهب وم على بلدة سموع في نهاية عام ١٩٦٦. وبذلك يكون ارهاب المنظمة قد ساهم بور في تصعيد التوتر الذي ادى، في النهاية، إلى اندلاع "حرب الابادة المأمولة ضد إسرائيل"، "حرب الايام الستة"، رغم ان هذا الارهاب لم يكن العنصر الوحيد أو الحاكم لاندلاعها.

ولكن، كما هو معلوم، لم تجر الحرب كما توقعتها منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية. فإسرائيل التي تنبأ الشقيري بكل ثقة، قبل ايام من الحرب، بابادتها، الحقت بالجيوش العربية هزيمة نكراء، وحررت المناطق التي كانت تنطلق منها المنظمة لمهاجمة إسرائيل و الضفة الغربية وغزة. عندئذ أُرغمت منظمة التحرير الفلسطينية على نقل قواعدها إلى الضفة الشرقية للأردن، ودخلت في مجابهة مباشرة مع نظام الحكم الأردني. كان الحسين لا زال يخشى العمل ضد دخول المنظمات إلى اراضيه، لذا كان يغض الطرف عن افعالها. ولكن كان كلما ابدى الحسين مزيداً من ضبط النفس، كلما زادت منظمة التحرير من قوتها. وبلغت صفاتة وجرأة المنظمة درجة انها بدأت تستعد "لتحرير" الضفة الشرقية اولاً، لتكون نقطة انطلاق لتحرير الضفة الغربية.

في عام ١٩٦٨، ابرمت منظمة التحرير الفلسطينية حلفاً علنياً مع ثلاث منظمات كانت غير مشروعة في الأردن، الحركة القومية العربية الموالية لعبد الناصر؟ وحزب البعث والشيوعيون بهدف الاستيلاء على الدولة. لكن هذه الخطة كانت ينقصها شيء واحد هو: انها لم تأخذ بالحسبان ان الملك الحسين لن يوافق على تسليم مملكته.

في تلك الاثناء كانت المنظمة قد اقامت دولة داخل دولة، وزادت حالات الاصطدام مع قوات الامن الأردنية، وارتدى رجال المنظمة ملابسهم العسكرية، وجبوا الضرائب من السكان، وجدوا موالين لقواتهم، وبدأوا يتدخلون في كل

وفي عام ١٩٧٠، تجاوزت تصرفات رجال عرفات الحدود، ردا على اعتقال عدد من الارهابيين، قام رجال المظمة بالسيطرة على فادق، واحتجزوا رهائن، وقتلوا الملحق العسكري الأمريكي في عمان.

بعد فشلها في الاستيلاء على الأردن، توجهت منظمة التحرير الفلسطينية إلى مهمة اسهل - الاستيلاء على لبنان. بدا آنذاك ان لبنان تعتبر جبهة مثالية لاستئناف الهجمات على إسرائيل، وبخاصة بعد ان حظيت بقية الدولة العربية، على منظمة التحرير العمل من داخل حدودها، في حين لم تكن في لبنان حكومة قوية قادرة على منع المنظمة من ذلك.

وخلافاً للوضع الحدودي بين الأردن وإسرائيل التي يفصل بينهما حاجز طبيعي هو نهر الأردن، تعتبر لبنان امتداداً جغرافياً لمنطقة الجليل الاعلى. و- المنطقة جبلية تكسوها الاشجار والشجيرات، الامر الذي يوفر امكانية التستر والهروب لعناصر المنظمة.

في عام ١٩٦٩، كانت قد وقعت عدة اشتباكات بين الجيش اللبناني، ورجال منظمة التحرير الفلسطينية الذين حاولوا احتلال مناطق في جنوب لبنان، مقابل الحدود الإسرائيلية، والتي عرفت باسم " فتح لاند " وسرعان ما انتشر النزاع في بيروت.

القى السوريون بكامل ثقلهم إلى جانب المغربين- بهدف زعزعة نظام الحكم اللبناني. في الواقع اعلن عرفات انه لا يعتزم ابداً التدخل في الشؤون الداخلية لاية دولة عربية (نكتة

مضحكة للغاية)، في ضوء ما قامت به المنظمة في الأردن ولبنان والكويت. ولكن حتى عام، كانت المنظمة قد استطاعت انشاء دولة "بحكم الواقع" في لبنان امتدت من غرب بيروت حتى الحدود الإسرائيلية. حيث اطلق من هناك رجال المنظمة في هجمات متكررة على اهداف داخل إسرائيل، كانت كلها اهدافاً مدنية تقريباً.

في عام ١٩٤٨، قُتل ١٨ مدنياً في كريات شمونه، و٢٦ آخرون في معلوت. وفي، قُتل مدنيون إسرائيليون في نهاريا (احد رجال المنظمة حطم رأس طفلة في الخامسة من عمرها امام والدها، ثم قتله. وكذلك عملية طريق الساحل،عام ١٩٧٨، نفذها رجال المنظمة الذين قدموا من لبنان، وقتلوا فيها٣٥ رمية. كما استخدمت المنطقة اللبنانية التي سيطرت عليها - من ومستوطنات إسرائيلية. وحتى عام ١٩٨٢، كان سكان المستوطنات الشمالية في تناقص مستمر، وكان يتم اغلاق مدارس، ومصانع، ومناطق استحمام، للتقليل من عدد المصابين نتيجة عمليات ا تلك، وبدأت المنطقة الشمالية بأسرها، مهددة بخطر الانهيار الاقتصادي، وتفريغها من السكان.

وعلى غرار ما حدث في الأردن، ادى تعاظم قوة المنظمة في لبنان إلى ردود فعل إسرائيلية، وحرب اهلية في لبنان. حيث اندلعت معارك بين الشيعة والمسيحيين وبين منظمة التحرير الفلطينية التي فرضت عليهم ارادتها بالقوة.

يعتبر سكان لبنان، خير شاهد على نوعية دولة منظمة التحرير الفلسطينية، في حالة قيامها، لانهم عاشوا في الواقع تحت نير دولة : لقد عانوا من مصادرة ممتلكات، وقتل جماعي، واعمال غيرها لا تحصى ولا تعد، ومن تجنيد اجباري لأولاد في الثانية عشرة من اعمارهم، في صفوف المنظمة. وا من هذا وذاك، تميزت دولة المنظمة بالفساد وجمع الاموال، وبخاصة من قبل زعمائها، بدءاً بعرفات نفس (تلك الظاهرة التي تكررت بصورة مدهشة، بعد انشاء السلطة الفلسطينية في غزة. وما، أكثر اولئك الذين يؤيدون اقامة دولة منظمة التحرير

الفلسطينية بمطالعة الكتاب النو الفه رفانيل يسرانيلي بعنوان -منظمة التحرير الفلسطينية، في لبنان" (The P.L.O in Lebanon).

لقد ادت اعمال المنظمة في لبنان والحرب الاهلية التي اشتعلت نيرانها هناك إلى قتل ما يزيد عن (١٠٠) الف شخص. وهنا ايضاً، كما هي الحال بالنسبة للحدود مع مصر والأردن، قامت إسرائيل برد عسكري على الهجمات ضدها. وبغية حماية مستوطنات الشمال، اجتاز الجيش الإسرائيلي الحدود وهاجم تجمعات المخربين، بداية، في عملية الليطاني- عام ١٩٧٨، ومن ثم في عملية "سلامة الجليل" عام ١٩٨٢. تلك العملية، التي اثارت في حينها انتقادات شديدة في العالم وفي إسرائيل ذاتها، استحقت في نهاية الامر الاسم الذي اطلق عليها. اذ منذ اقصاء المنظمة عن بيروت، وانشاء المنطقة الامنية في جنوب لبنان لم ينجح المخربون تقريباً، في الدخول إلى الاراضي الإسرائيلية من لبنان.

لقد ادت عملية سلامة الجليل في الواقع، إلى اشتباكات عسكرية بين إسرائيل وسوريا، لكن تلك كانت حرباً محدودة اقتصرت على الاراضي اللبنانية، واجوائها وليست حرباً شاملة، كما ارادتها منظمة التحرير الفلسطينية.

كانت إسرائيل تعتزم اجتثاث قواعد المنظمة فقط، غير أنه وخلال العملية اصطدمت القوات الإسرائيلية بمقاومة من جانب القوات السورية، التي تحتل (ولا زالت مناطق واسعة من الأراضي اللبنانية. دمّر الجيش الإسرائيلي بطاريات صواريخ سورية، واسقط سلاح الجو الإسرائيلى حوالي ١٠٠ طائرة مقاتلة سورية، وفقد طائرة مقاتلة واحدة. وبما ان رأس التنين في المنظمة، كان يقيم في غرب بيروت، اضطر الجيش الإسرائيلي لدخول المدينة، وتطويق المنطقة الغربية منها. وبعد حصار طويل، تم اخراج قيادات المنظمة من بيروت.

وتبين ان التهديد الذي تردد أكثر من مرة، بأن الجيوش العربية ستهب، هبة رجل واحد، ضد إسرائيل، فيما لو تجرأت على دخول عاصمة عربية، كان مجرد كلام فارغ: ان أي دولة

عربية لم تفعل شيئاً، لانقاذ منظمة التحرير الفلسطينية. لقد بدا آنذاك ان استراتيجية منظمة التحرير منيت بفشل ذريع على كافة الجبهات.

غير ان هذا التقدير، لم يكن هو ما حدث فعلاً. فبالاضافة للحرب الفاشلة التي خاضتها المنظمة على طول الحدود الإسرائيلية، ادارت المنظمة حرباً اخرى ايضاً، حققت لها نجاحاً لا بأس به. واقصد هناك "الارهاب الدولي" الذي بادرت به منظمة التحرير في اواخر الستينات، وشمل العالم كله خلال السنوات العشرين التالية.

كانت حرب الارهاب التي شنتها المنظمة موجهة، لاحتجاز رهائن والمطالبة مقابل الافراج عنهم، بالافراج عن "مخربين" مسجونين. لكن إسرائيل لم تستسلم: لم يسبق ان استجابت إسرائيل لمطالب المنظمة، وكان يتم القضاء على "المخربين". لذا ازدادت الميول لدى منظمة التحرير بشأن نقل حلبة الارهاب إلى خارج إسرائيل، أو بقة اكثر: ضرب الخطوط الجوية التي تربط إسرائيل بالعالم. اعتقدت منظمة التحرير انه عن طريق مهاجمة المسافرين والطائرات، تتوفر لديها فرص افضل للمس بإسرائيل، دون ان تكون لديها القدرة على الدفاع.

بدأت الحركة في الجو باختطاف طائرة العال" إلى الجزائر عام ١٩٦٨، ثم طائرة اخرى كانت في طريقها إلى لندن، وثالثة هوجمت على أرض المطار في زيوريخ. كما هاجم مغربون يابانيون يعملون في خدمة منظمة التحرير الفلسطينية، مطار اللد في إسرائيل، وقتلوا عشرات السياح الذين جابوا لزيارة إسرائيل. وعندما بدأت إسرائيل تطور وسائل واساليب لحماية طائراتها، انتقلت المنظمة لمهاجمة شركات طيران غير إسرائيلية، حيث نسفت طائرات أمريكية في الأردن، واختطفت طائرة بلجيكية كانت في طريقها إلى إسرائيل عام ١٩٧٢. وعندما اختطفت طائرة شركة "سابينا" البلجيكية، كنت انا أحد افراد الوحدة الإسرائيلية التي هاجمت الطائرة، واطلقت سراح الرهائن، باستخدام اساليب جديدة. ثم بلور الجيش

الإسرائيلي نظرية وقاية ضد مثل هذه العمليات، الامر الذي جعل المطار الدولي الإسرائيلي وشركة الطيران إسرائيلية، غير قابلين للاختراق. في هذه الحالة اضطرت منظمة التحرير الفلسطينية إلى الابتعاد في عملياتها أكثر فاكثر. وفي عام ١٩٦٧، نجح -الحريون- بتنفيذ خطة اختطاف طموحة جداً، حيث اختطفوا طائرة تابعة لشركة الطيران الفرنسية.يرفرانس- كانت تعلق في اجواء اوروبا، وارغموها على التوجه إلى مطار عنتيبة في اوغندا. وقدم حاكم اوغندا عيدي امين للخاطفين ملجأ، وقام جنوده بحراستهم. وهناك تم الافراج عن الركاب من غير اليهود، وبقي في الطائرة ١٠٦ من الركاب اليهود، حيث احتجزوا كرهائن. وهدد الخاطفون العرب والالمان بقتل الرهائن، إذا لم تفرج إسرائيل عن اعضاء المنظمة المسجونين لديها، بتهمة الاشتراك في اعمال ارهابية.

وفي اطار عملية لا مثيل لها في التاريخ العسكري، اقلعت جواً قوة عسكرية إسرائيلية لمسافة ٣٠٠٠ كم، إلى دولة معادية، وقمت على الغربين- وعلى الجنود الاوغنديين الذين ساعدوهم، وحررت الرهائن واعادتهم إلى إسرائيل، وقتل في عملية عنتيبة- ثلاثة من الرهائن، كما قتل خلالها، اخي، يوني، الذي قاد القوة المهاجمة. كانت "عملية يونتان"، كما أُسميت رسمياً من قبل الحكومة، المعركة الحاسمةفي الحرب ضد الارهاب الدولي. حيث بدأت في اعقابها اجهزة الامن الاوروبية، بشن هجمات معاكسة جريئة ضد الارهاب، الامر الذي ارغم منظمة التحرير الفلسطينية على البحث عن اشكال جديدة للارهاب.

منذ بداية عملها، تعاونت منظمة التحرير الفلسطينية مع منظمات اخرى في تخطيط وتنفيذ عمليات ارهابية. غير ان منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن مجرد واحدة من منظمات الارهاب العالمية، انما كانت المنظمة التي جعلت الارهاب مصطلحاً عالمياً في العهد الجديد، وكانت هي التي اوجدت فن تخويف بني البشر في العالم كله، وكانت اول من اختطف الطائرات ونسفها في الجو، واحتجاز الرهائن، واغتيال دبلوماسيين، وطلاب مدارس، ورياضيين، وسياسيين، واعمال وحشية اخرى. لقد حاكت منظمات عديدة اخرى في العالم،

اساليب منظمة التحرير الفلسطينية، لان نجاح ارهاب في مكان ما، يخلق ارهاباً مماثلاً في اماكن اخرى.

غير ان علاقات منظمة التحرير الفلسطينية مع المنظمات الارهابية الاخرى، لم تقتصر على مجال تقليما من قبل هذه المنظمات، انما منذ مطلع السبعينات، وحتى حزيران ١٩٨٢، عندما طردت المنظمة من لبنان، كانت "دولة منظمة التحرير" في لبنان معهداً وجلب للارهاب الدولي. حيث وجدت منظمات ارهابية من كافة ارجاء العالم، في هذه الدولة ملاذا، وقاعدة ترمب، وقاعدة انطلاق لتنفيذ هجمات ارهابية خارج لبنان. وجميع المخربين في العالم، مروا عبر معسكرات التدريب التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في صور وصيدا: ألالوية الحمراء- الايطالية، عصابات "بادرماينهوف"، من المانيا، "الجيش الجمهوري الايرلندي"، "الجيش الاحمر" الياباني، "العمل المباشر" في فرنسا، "جيش التحرير" التركي، جماعة "صالة" الارمنية، "حراس الثورة" الايرانيون، ارهابيون من أمريكا اللاتينية، ونازيون جدد من ألمانيا، جميعهم كانوا هناك.

من عش الدبور هذا، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، انتشر-فيروس الارهاب إلى جميع أنحاء العالم الغربي، وبمساعدة حكومات عربية في كثير من الاحيان، وبمساعدة دول من الكتلة الشيوعية. ولكن ما مدى الضرر الذي اصاب إسرائيل نتيجة هذه الاعمال؟

في اعقاب كل عملية ارهابية، كانت منظمة التحرير الفلسطينية، بالطبع، انها الحقت ضرراً بالغاً بإسرائيل. مثلا: اعلن ابو العباس، مساعد عرفات ورئيس أحد الفصائل التابعة للمنظمة، بعد الهجوم الذي نفذه رجاله على شاطىء نتسانيم، عام ١٩٨١، انه قتل وجرح في الهجوم حوالي (٥٠٠) إسرائيلي والحقت خسائر بفرع السياحة الإسرائيلي تُقدر بحوالي ٥ مليارات دولار. ولكن في الواقع، لم يقتل أي انسان، ولم تحدث أية اضرار.

في حقيقة الامر، كان حجم الاضرار التي الحقها الارهاب بإسرائيل هامشية. كما ان الخسائر في الارواح نتيجة هذه العمليات كانت اقل بكثير منها في حروب إسرائيل: خلال

ثلاثين سنة من الارهاب الذي مارسته المنظمة ضد إسرائيل، قتل بضع مئات من الإسرائيليين، مقابل ١١ الفاً قتلوا في حروب إسرائيل. ومع ذلك، القول، بالتأكيد، ان الارهاب الدولي الذي مارسته منظمة التحرير الفلسطينية نجح في الحان الذي فشلت فيه كافة الحروب العربية: لقد نجح في الحاق ضرر سياسي بالغ بإسرائيل.

لقد ساهم الارهاب في صعود المنظمة على المنصة العالمية، ومنح مصداقية لادعاءات المنظمة بشأن اليأس والمعاناة اللذين يعيشهما الشعب الفلسطيني الذي تمثله.

ففي بادى، الامر، لم يدرك العالم ان العمليات الارهابية تنفنه مينة غنية تتمتع بمم حوالى اثتي عشر ٠ دولة، انما كمجموعة من الاشخاص اليائسين، الذين ليس لديهم ما يدخرونه.

كانت منظمة التحرير، تسارع بعد كل انفجار يقع في عاصمة غربية، إلى الاعلان بأن هذا السر، هو نتيجة لعدم حل القضية الفلسطينية، وان هذا الن يتوقف، حتى ينتهي الاحتلال الإسرائيلي للاراضي الفلسطينية.

بعد وصولي إلى الولايات المتحدة، عام ١٩٢٢، ق بالجامعة قتل رجال منظمة التحرير الفلسطينية (١١) رياضياً إسرائيلياً في اولمبياد ميونخ. وكانت المنظمة قد نفذت قبل ذلك عمليات اختطاف طائرات، وقتلت السفير الأمريكي في السودان، غير ان اسم هذه المنظمة لم يكن مشهورا بعد. لقد استمعت إلى الانباء من ميونخ، في منزل بروفيسور إسرائيلي، كان يحاضر في جامعة برنيمى.

قال أحد الجلوس: على الاقل، سيعلم الجميع الان، من هم هؤلاء الاشخاص، ورد عليه البروفيسور: نعم. تماماً، خلال وقت قصير سيعرف العالم كله، طبيعة هؤلاء الناس.

لقد كان محقاً فعلاً. اذ سرعان ما دخل اسم منظمة التحرير إلى وعي وبيت كل انسان في العالم الغربي (والشرقي) وكلما ذاع صيتها، كلما زاد عد المقتنعين بأن فلسطين، يجب ان يتم تحريرها.

واصبحت الدول الواحدة تلو الاخرى، تنجرف وراء ادعاءات المنظمة بأنها تناضل من اجل حقوق الانسان، أو ان هذه الدول كانت ترضخ لابتزازات المنظمة. وكانت حملة القتل والتخريب والاختطاف المستمرة، مفيدة وفعالة، لدرجة جعلت المسلمين في "العالم الغربي"، يرون في معاناة الفلسطينيين، أقسى ظلم شهده عالمنا المعاصر، الذي يتطلب "بالطبع" معالجة فورية.

نستطيع ان نحكم على مدى نجاح المنظمة، في هذا المجال، من ما قاله الرئيس الأمريكى جيمي كارتر، عام. حيث توصل إلى استنتاج مفاده انه رغم العنف والوحشية التي تتصف بها اعمال الارهاب الفلسطينية، فان هنالك درجة لا بأمر بها من العدالة في ادعائهم بأن فظيعاً الحق بهم، وان هذا الظلم يمكن معالجته عن طريق منحهم حق تقرير المصير فقط، تماماً مثلما حل وضع اليهود باقامة دولتهم، حيث قال: لا توجد طرمقة للتهرب من الاعتراف بمدى تشابك وتقارب تاريخ وطموحات ومصير هذين الشعبين، العربي الفلسطيني، واليهودي... الفلسطينيون يعانون... من ظروف التشرد بين شعوب كثيرة، وان حقهم في منحهم حق تقرير المصير ووطن قومي خاص بهم، يعطى الآن بتأييد قوي في كل العالم.

ادى ارهاب منظمة التحرير إلى جعل العالم الغربي يعترف بضرورة حل القضية الفلسطينية، وذلك بقيام دولة فلسطينية، لكن زعامة المنظمة عرفت انه لكي تجني اكبر قدر من المكاسب السياسية، نتيجة لهذا الاعتراف، يجب عليها التهرب من المسؤولية المباشرة عن الاعمال الفظيعة التي نفذتها. صحيح ان اعمال الارهاب لفتت الانتباه للمنظمة، لكنها لم تجعل الارهابين الذين يتزعمونها، اشخاصاً يمكن لسياسيي العالم التحاور معهم. لذا بدأت المنظمة حملة نفي وتكذيب هدفها ابعاد عرفات وزعامة المنظمة عن مسؤولية الاعمال الارهابية الكثيرة التي نفذها رجالهم.

حتى في خضم الاعمال الارهابية، كانت المنظمة تدير معركة واسعة النطاق لعكس المعلومات المتعلقة باعمال ارهابية حيث نسبتها إلى "متطرفين" يعملون خارج سلطة المنظمة،

وان المنظمة نفسها هـي مدينـة متزنـة ومعتدلـة. في منتـصف الـسبعينات، اعلـن رجـال منظمـة التحريـر الفلسطينية ان المنظمة تـسعى لتحقيـق الـسلام، تـشجب العنـف والارهـاب، وتتبـع خطـاً جديـداً عمليـاً وواقعياً.

كانت المنظمة، آنذاك، تملك طائلاً من الاموال التي ابتزتها من الانظمة العربيـة الفنيـة. مثـل العربيـة السعودية والكويت. حيث مكنت هذه الاموال، المنظمة، من اقامة شبكة واسعة من المكاتب والثليـات في العالم كله، ومنها بثت المنظمة بشرى اعتدالها إلى الرأي العام الغربي، الذي كان متعطشاً لكـل شي، ينطـوي على امكانية حل النزاع الشرق اوسطي (يجب ان لا ننسى ان الغرب كان في تلـك الفـترة يعـيش تحـت نـير حظر النفط الذي فرضه العرب).

وقام ممثلو منظمة التحرير الفلسطينية، في اوروبـا، وأمريكـا الـشمالية والجنوبيـة، وآسـيا، واسـتراليا، بصفة دبلوماسيين معتدلين انيقين في لباسهم، بعرض بضاعتهم المعتدلة عبر شاشات التلفزيـون، ومـن عـلى صفحات الجرائد، وفي نوادي روتاري والكنائس، وحتى في الكنس اليهودية.

بدأت منظمة التحرير الفلسطينية، استخدام خطة "النفي" منذ عام ١٩٧٠، لدى اقامة منظمة "أيلـول الاسود" التي كانت اول منظمة في سلسلة عدد كبير من المنظمات الارهابية "المستقلة" ظاهريا. وقام رجال "ايلول الاسود" باغتيال رئيس حكومـة الأردن، وصـفي التـل، والـسفير الأمـريكي في الخرطـوم كليـا ونونيـل، ومساعد كرتيسر مور، والرياضيين الإسرائيليين في ميونخ، وغيرها. وادعـى عرفـات ان ليـست لـه أيـة علاقـة بمنظمة.أيلول الاسود، حتى جاء عام ١٩٧٣، ليعلن أحد كبار منظمة التحرير ان، ابو اياد، نائب عرفات، هو القائد المباشر "لأيلول الاسود".

ولكن رغم هذا الإكتـشاف، نجـح عرفـات في الادعـاء بـأن المنظمـة تخلـت، منـذ فـترة، عـن ممارسـة الاساليب المتطرفة، واصبحت منظمة معتدلة.

وعلاوة على محاولات اخفاء دور المنظمة في العمليات الارهابية، وجدت المنظمة طريقة اخرى لكسب الربح السياسي من الهجمات الارهابية التي كانت تشنها. فبين الحين والاخر كانت المنظمة تتطوع للتفاوض، بصفتها طرفاً "موضوعيا" بشأن الافراج عن الرهائن الذين يحتجزهم رجالها. وكانت مثل هذه المناورات تنجح احياناً. ففي عام ١٩٧٩، على سبيل المثال، تطوعت المنظمة للتوسط في اطار مفاوضات استهدفت اطلاق سراح الرهائن الذين احتجزوا في مقر السفارة المصرية في تركيا، من قبل منظمة سرية، عرفت باسم "نسور الثورة الفلسطينية".

واعترفت حكومة تركيا بالجميل لمنظمة التحرير الفلسطينية التي نجحت بانهاء الأزمة، وكافأتها بأن اعترفت بها دبلوماسياً. واتضح فيمابعد، ان مندوب المنظمة في "المفاوضات" كان هو نفس الشخص الذي خطط لعملية الاختطاف كلها.

لكن جهود منظمة التحرير للتنصل من مسؤولية الارهاب لم تفد، وواجهت ازمات متلاحقة، وخاصة وان الارهاب نفسه، تعرض لازمات ومشاكل. فبعد دخول الجيش الإسرائيلي إلى لبنان عام ١٩٨٢، دمرت "مملكة الارهاب" التي اقامتها منظمة التحرير الفلسطينية طيلة عشرات السنين. وانتقلت قيادة المنظمة إلى تونس، حيث فقدت هناك قدراً كبيراً من قدرتها على زرع الدمار.

في منتصف الثمانينات، بدأت الدول الغربية هجوماً واسع النطاق على الارهاب. وكان الهجوم سياسياً، قبل كل شيء. كان هدف الهجوم تعرية الدول التي تقف وراء الارهاب، ورفض الارهاب بصورة مطلقة بغض النظر عن هوية الارهابيين ودوافعهم المعلنة. وقد سبق هذا الاجراء جهد كبير، استغرق سنوات عدة، لحل الغرب على تغيير موقفه من الارهاب.

في اطار الجهود المبذولة لتحقيق مثل هذا التغيير في موقف الغرب، اسس "معهد يونتان"، تيمناً باسم اخي يوني وكان هدفه اطلاع جماهير الدول الغربية على نوعية الارهاب وطرق محاربته.

في المؤتمر الدولي الاول ضد الارهاب، الذي نظمه "معهد يونتان" والـذي عقـد في القـدس عـام ١٩٧٩، طرح الادعاء بأن الارهاب اصبح نوعاً من الحرب السياسية، التي تديرها انظمة حكم دكتاتورية، ضد الدول اليمقراطية الغربية. وقدم المشتركون في المؤتمر، وكان بينهم السناتور، هنري جاكسون، وجورج بوش، الـذي كان آنذاك مرشحاً للرئاسة الأمريكية، تفاصيل حول التورط المباشر لانظمة حكم عربية، والاتحاد الـسوفياتي والدول التي تدور في فلكه، بالارهاب الدولي.

وقالت مراسلة صحيفة "وول سـتريت جورنـال" التـي حـضرت المـؤتمر ان هـذه التفاصـيل، واجهـت معارضة شديدة واثارت غضب عدد كبير من الصحفيين الذين غطوا المؤتمر ان الاعتقاد بأن الارهـاب لـيس عملاً يائساً يقوم به افراد يائسون، انما هو اداة حرب تستخدمها دول ومنظمات قتلة، كان مرفوضاً في ذلك الوقت نظراً لعدم مصداقيته. بعد انهيار الاتحاد الـسوفياتي، تحـدثت مـع عـدد مـن مـوظفي دول الكتلـة الشرقية سابقاً، حيث استغربوا امامي، مـدى سـذاجة الـصحفيين الغـربيين وجهلهـم في هـذا الوضـوع. وفي المؤتمر الثاني الذي نظمه "معهد يونتان" والذي عقد في واشـنطن عـام ١٩٨٤، دعـا المـشتركون، الـذين كـان بينهم شخصيات من كبار السياسيين الأمريكيين إلى فرض عقوبات عسكرية وسياسية واقتصادية على الدول التي ترعى الارهاب.

لقد جمعت المحـاضرات والمناقـشات التـي دارت في هـذا المـؤتمر في كتـاب بعنـوان: الارهـاب: كيـف يستطيع الغرب التغلب عليه، واضفت إليه مقالاً مطولاً، اكدت فيه على ضرورة توجيـه ضربـات عـسكرية لدول الارهاب. وبعد وقت قصير من قيام الولايات المتحدة بضرب ليبيا، خصـصت مجلـة التـايم صـفحات كاملة لهذا المقال (الذي قرأه الرئيس ريغان) وربما كان هذا هو السبب الذي جعل عـددا مـن المعلقـين في الصحف العربية يتهمونني بأنني السبب وراء السياسة الأمريكية المتشددة.

منـذ بدايـة عمـلي في معهـد يونتـان، ومـن ثـم في اطـار وظـائفي الدبلوماسـية، آمنـت دائمـاً، بـأن المفتـاح للقـضاء عـلى الارهـاب الـدولي، يكمـن في تجنيـد الولايـات المتحـدة الأمريكيـة هـذه

الحرب. اذ انه منذ اللحظة التي تلك فيها الولايات المتحدة الطريق الصحيح، ستجر وراها بقية الدول الغربية. لكن لم يكن من السهل اقناع الادارة الأمريكية بتغيير وجهة نظرها في هذا المجال. بناء على النظرية التي كانت سائدة في الولايات المتحدة، في اواخر السبعينات ومطلع الثمانينات، فان سبب الارهاب، يكمن في اعمال القمع السياسي والاجتماعي، وان انهاء هذا القمع، فقط، هو الذي سيؤدي إلى وقف اعمال الارهاب.

لقد رفضت هذه النظرية منذ البداية. فالارهاب، بطبيعته هو اداة قمع، يستخدمها، عادة، الذين يتبجحون في الحديث عن "حقوق الانسان"، وحرية الانسان، وعندما يصلون إلى السلطة، يدوسون بأقدامهم كل الحريات الانسانية.

عملت بالتعاون مع زملائي في "معهد يونتان" على اساس فرضية ان الموقف الأمريكي ليس مبدأ غير قابل للتحمل عنه، انما هو واقع يمكن تغييره، ببذل جهود اقناع تكون موجهة بشكل رئيسي إلى الرأي العام الأمريكي، واعتمدت جهود الاقناع تلك، على كشف الحقائق التي كانت مخفية عن نظر الجمهور. ثم جمع الأدلة وبعد فحصها وتدقيقها بحرص شديد، نشرناها على نطاق واسع، حيث اتضح من هذه الادلة، بصورة لا تقبل التأويل، ان الارهاب الدولي، بعيد عن كونه عملاً يقوم به اشخاص متفرقون يائسون، وما هو الا ثمرة تحالف بغيض بين أنظمة حكم استبدادية ومنظمات ارهابية - تحالف، يجب محاربته والحاق الهزيمة به.

كان لدولة إسرائيل دور رئيس في تجنيد الولايات المتحدة لهذا الهدف، فعلى الصعيد العسكري، كانت إسرائيل تمثل النموذج للصراع الشديد ضد الارهاب. وفي رفضها الرضوخ لاملاءات الارهابيين، وهجماتها المستمرة على "المخربين" الذين احتجزوا رهائن من معلوت وحتى عنتيبة، واصرارها على ضرب قواعد الارهاب العربي حيثما كانت اثبتت إسرائيل بأنه يمكن محاربة الارهاب.

وعلى الصعيد السياسي، بذل الدبلوماسيون الإسرائيليون جهداً كبيراً لاقناع حكومات الولايات المتحدة والدول الغربية، بأنه يجب على هذه الدول ان تتصرف كما تتصرف إسرائيل.

بلغ هذا الجهد ذروته، اثناء فترة تولي موشيه ارنس، منصب السفير الإسرائيلي في واشنطن عام ١٩٨٢ وصل ارنس، إلى الولايات المتحدة، قبل عملية سلامة الجليل- بوقت قصير. وكما هو معلوم، اتخذت الولايات المتحدة، في تلك العملية، موقفاً معادياً لإسرائيل، ومارست عليها ضغوطاً شديدة، بما في ذلك تجميد تزويدها بطائرات حربية، وبذل ارنس الكثير من الجهد لكي يغير موقف الولايات المتحدة بصورة كاملة، معتمدا بشكل خاص على العلاقات المميزة التي نشأت بينه وبين الرئيس الأمريكي ريغان، ووزير خارجيته، شولتس.

وفي تموز ١٩٨٢، عندما انضممت إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن كملحق سياسي، كرست جهودي ايضا، لتغيير السياسة الأمريكية. وكذلك اسحق شامير الذي كان وزيراً للخارجية في حكومة مناحم بيغن كان يعم هذه الجهود دون تحفظ. وبعد ان اصبح رئيساً للحكومة، اكد شمير اهمية تنمية علاقات وثيقة مع الادارة الأمريكية، بهدف القضاء على الارهاب.

ولدى عودة ارنس إلى إسرائيل عام ١٩٨٣، ليعمل وزيراً للدفاع، عملت طيلة نصف سنة كقائم بأعمال السفير في واشنطن، إلى حين قوم السفير الجديد، مئير روزين.

في تلك الفترة، واصلت الاتصال الذي كان ارنس قد بدأه مع شولتس قبل ذلك. وكنت في مناسبات مختلفة، واجتماعات دبلوماسية، ومقابلات مع وسائل الاعلام الأمريكية، اهاجم بشدة، الارهاب الدولي وانظمة الحكم والمنظمات العربية، التي تقف وراء الارهاب. كنت اقول، انه يمكن الحاق الهزيمة بالارهاب، شريطة ان تتبنى الدول الغربية مبدأين اساسيين لمحاربته: الاول: رفض الرضوخ لمطالب الارهابيين. الثاني: ابداء الاستعداد لمحاربة الدول الداعمة للارهاب.

لقد دعوت مراراً وتكراراً لتبني سياسة متشددة تشمل فرض عقوبات سياسية واقتصادية، وحتى عسكرية، ضد هذه الدول.

وفي أحد الايام، دعاني شولتس إلى مكتبه ليقول لي، انه قلق من انتـشار موجـة الارهـاب. واضـاف، ان هؤلاء الارهابيين هم "حيوانات في صورة انسان"، وليس "من بني البشر" وانه قرر تغيير السياسة الأمريكية تجاه الارهاب من سياسة الامتصاص السلبي، إلى سياسة المقاومة الفعالة، رغم وجود من يعارض مثل هـذا التغيير. (كان يقصد بذلك بشكل خاص، وزير الدفاع، واينبرغر، الذي كان يعارض استخدام القوة العسكرية ضد الارهابيين). واقترح شولتس ان نجري سلسلة من الاتصالات بهذا الشأن، لكي نعد معاً، ما الـذي يجـب على الولايات المتحدة عمله بالتعاون مع دول العالم الحر، لمحاربة الارهاب.

تحدثت له عن نية "معهد يونتان" عقد مؤتمر دولي في واشـنطن حـول موضـوع الارهـاب، واقترحـت عليه ان يلقي كلمة في المؤتمر، تتضمن موقفه هذا ويشرح السياسة الأمريكية الجديدة.

في ٤ تموز ١٩٨٤، بعد مضي سبع سنوات على عملية الانقاذ في عنتيبة، عقد المؤتمر الثـاني الـذي نظمـه "معهد يونتان" في واشنطن، حيث قال فيه جـورج شـولتس مـا يـلي:"بفـضل الجهـود الكبـيرة التـي بـذلتها حكومات قلقة ومنظمات خاصة، مثل "معهد يونتـان"، بـدأت اخـيراً، شـعوب العـالم الحـر تواجـه مـشكلة الارهاب... ان ما عرفناه عن الارهاب، هو قبل كل شيء، انه ليس عنفاً جاء بالـصدفة، وغـير موجـه، ولـيس هدف. انه لا يشبه الهزة الأرضية أو العاصفة الهوجاء، من اعمال الطبيعة التي نقـف عـاجزين امامهـا. ان للارهابيين ومؤيديهم، اهدافاً محددة، والعنف الارهابي هو الوسيلة لتحقيق هذه الاهداف. وردنا يجب ان يكون مزدوجا: يجب علينا حرمانهم من الوسائل. ولكن يجـب علينـا، بـشكل خـاص، مـنعهم مـن تحقيـق اهدافهم. سيحاول الارهابيون اكتشاف نقاط ضعف لدينا، أو مؤشرات انقسام. علينـا أن نجعلهـم يبلغـون درجة اليأس من تحقيق أهدافهم... اعتقد انه، من الناحية العملية، لا يعتبر الدفاع الـسلبي وحـده، رادعـاً كافياً ضد الارهاب، وضد الدول التي تمنحه رعايتها. حـان الوقـت للتفكـير مليـاً، وبـصورة جديـة وعميقـة، بالوسائل الدفاعية الفعالة أكثر - دفاع بواسطة عمليات وقائيـة ضـد جماعـات الارهـاب قبـل تمكنهـا مـن توجيه ضرباتها.

في ضوء السياسة التي تبنتها حكومة إسرائيل التي اقيمت في عام ١٩٩٢، تلك السياسة التي تمكن الارهاب من تحقيق اهدافه، تبدو اقوال شولتس تلك، ضرورية جداً الآن.

يكرر اليساريون الإسرائيليون وممثلوهم في الكنيست الإسرائيلية، الادعاء بأنه لا يمكن وقف الارهاب أو حتى تقليص حجمه، الا من خلال المسيرة السلمية التي تعتبر رضوخاً لاملاءات الارهاب السياسية بالذات. لكن شولتس وريغان اتبعا سياسة مغايرة تماماً، وفي اعقاب سياستهما المتشددة تلك، توقفت الهجمات الارهابية كلياً، تقريباً في الثمانينات.

لقد قادت الولايات المتحدة الصراع. فرضت عقوبات سياسية واقتصادية ضد دولة إرهابية مثل ليبيا، سوريا، ايران. وعملت باصرار من أجل اعتقال قتلة منظمة التحرير الفلسطينية في قضية اختطاف سفينة أكيلي لورو. وفوق هذا كله. بعثت برسالة قوية للارهابيين في العالم كله، عندما قصفت، بالتعاون مع بريطانيا ليبيا عام ١٩٨٦، (ذلك الهجوم الذي كاد يودي بحياة القذافي نفسه).

وخلال تلك السنوات، التي شهدت التحول الكبير في السياسة الأمريكية تجاه الارهاب، كانت بداية تحول معاكس في السياسة الإسرائيلية، تمثل أبرزها في صفقة تحرير الارهابيين من منظمة أحمد جبريل، عام ١٩٨٦. إذ أنه بعد سنة من تشكيل حكومة الوحدة بين حزبي الليكود والعمل، وافقت حكومة إسرائيل برئاسة شمعون بيرس على الافراج عما يزيد على الف "مخرب" مقابل إعادة ثلاثة من جنود الجيش الإسرائيلي كانوا محتجزين في لبنان.

في الواقع، سبق هذه الصفقة، صفقات أصغر حجماً مثل الافراج عن ٧٦ -مخرباً- عربياً، مقابل إعادة مواطن إسرائيلي مختطف، في عهد حكومة مناحيم بيغن عام ١٩٧٩، لكن تلك الصفقات كانت لا تذكر قياساً بحجم الصفقة الثانية.

منذ البداية، إعتبرت صفقة جبريل، ضربة قوية لكل الجهود الإسرائيلية لبلورة جبهة دولية ضد الارهاب. فكيف تستطيع إسرائيل ان تنصح الدول الغربية والولايات المتحدة

بتبنى سياسة عدم الرضوخ لمطالب الارهابيين، عندما تكون، هي نفسها، قد رضخت بهذه الصورة المخزية للارهاب) وعلاوة على ذلك، كانت لدي قناعة بأن الافراج عن الف "مخرب" ودخولهم إلى مناطق الضفة الغربية وغزة، لا بد وأن يؤدي إلى تصعيد العنف، لأن هؤلاء المغربين سيستقبلون كأبطال، وكنموذج يحتذى للشباب الفلسطيني وكزعماء لجماعات ارهابية.

وبعد بضعة أيام من قرار الحكومة بهذا الشأن، كتبت إلى أحد الوزراء، من مقري في الأمم المتحدة، حيث كنت سفيراً لإسرائيل هناك، بأن صفقة جبريل هي اجراء قد يثير موجة جديدة من أعمال القتل وسفك الدماء على نطاق واسع. وفعلاً، أصبح اليوم واضحاً، أن اطلاق سراح المخربين، كان أحد العناصر الرئيسة، التي عززت المحرضين والزعماء الذين اشعلوا نار الانتفاضة. ولكن رغم رضوخ حكومة إسرائيل الهين للمغربين، إلاّ ان الرئيس الأمريكي ريغان ووزير خارجيته شولتس، قررا الامتناع نهائياً عن الرضوخ لمطالب الارهابيين، واتخاذ سلسلة اجراءات متشددة ضدهم.

وعندما التقيت بجورج شولتس، في واشنطن بعد حوالي سنة من اطلاق سراح "قتلة أحمد جبريل" في ١١ تموز ١٩٨٦، وصف شولتس، هذا الاجراء من قبل الحكومة الإسرائيلية، بأنه كان هذا خطأً فادحاً. لكن هذا الخطأ، كان لا يذكر، قياساً بما فعلته حكومة حزب العمل بعد توليها السلطة في عام ١٩٩٢. فبعد أن وصف شمير "صفقة" الافراج عن المغربين بأنها عملية "فريدة ووحيدة". جعلت حكومة رابين هذه العملية أمراً روتينياً. أضف إلى ذلك، أنها كانت تفعل هكذا، حتى دون مقابل، ما عدا الاعتقاد بأن الافراج عن القتلة، قد يرضي منظمة التحرير الفلسطينية والفلسطينيين، ويغير هدفهم الاساسي وهو القضاء على إسرائيل في يوم ما.

ولكن، كما أسلفنا، لم يكن الوهن الذي أصاب الفكر الإسرائيلي، في منتصف الثمانينات، قد أثر على السياسة الأمريكية بعد، وعلى العكس، بذلت الادارة الأمريكية جهوداً كبيرة

لتغيير موقف الدول الغربية تجاه الارهاب. ففي أعقاب القصف الإسرائيلي لليبيا عام ١٩٨٦، دعت الولايات المتحدة عقد مؤتمر قمة للدول الغربية الرئيسة في طوكيو، حيث اتخذ المؤتمر عدة قرارات هامة بشأن تبني سياسة غربية متشددة ضد الارهاب.

وفي عام ١٩٨٧، أقر الكونغرس الأمريكي تشر ضد الارهاب، تم بمقتضاه إغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في الولايات المتحدة. وجاء في القانون أن منظمة التحرير الفلسطينية تعتبر منظمة ارهابية تعرض للخطر مصالح الولايات المتحدة والدول الحليفة لها.

وبعد عشرين سنة، تمتع هذا الارهاب الدولي، وعلى رأسه إرهاب منظمة التحرير الفلسطينية، بحرية عمل مطلقة في العالم، تقرر أخيراً، مبدأ معاقبة الارهابيين والدول التي ترعاهم.

في مطلع عام ١٩٨٨، انحدرت منظمة التحرير الفلسطينية إلى اسفل نقطة وصلت اليها منذ تأسيسها. إذ لم تستطع من موقعها النائي في تونس، أن تطبّق دعوتها لمواصلة الكفاح المسلح ضد إسرائيل، وبدأت تندفع بسرعة نحو مكانة سياسية عديمة التأثير والأهمية.

وفي مؤتمر القمة العربية الذي عقد في عمان في تشرين ثان ١٩٨٧، لم تعد القضية الفلسطينية، تمثل المركز الأول على جدول أعمال المؤتمر كان الموضوع الرئيس في المؤتمر، الحرب الايرانية - العراقية التي كانت قد دخلت آنذاك عامها الثامن).

وعلى أية حال، قررت منظمة التحرير الفلسطينية أن عليها ان تغيّر بسرعة وبصورة جذريّة، صورتها الارهابية لدى الغرب، وايجاد طرق أخرى، تثبت فيها، أنها لا تزال قادرة على تحرير فلسطين. واتضح للمنظمة انه لكي تكون مقبولة لدى الدول الغربية، لا يكفي ان تنفي تورطها في الاعمال الارهابية، إنما يجب عليها ان تثبت للولايات المتحدة أنه طرأ تغير أساسي أيضاً، في نظرتها تجاه إسرائيل. لذا، بدأ الناطقون بلسان المنظمة يستخدمون صيغاً، تعبّر عن هذا التوجه، لدى مخاطبتهم العالم الغربي، في حين كان كل ناطق عربي يستطيع تفسير هذه الصيغ بصورة مختلفة، من حيث الغاية.

فالاصطلاح الدارج "مناطق محتلة"، على سبيل المثال، يشير إلى المناطق التي تسعى منظمة التحرير لتحريرها، تستخدم المنظمة هذا الاصطلاح، للاشارة إلى إسرائيل كلها، (المناطق التي أحتلت عام ١٩٤٨، لكن العالم الغربي يفسّر على أن المنظمة تقصد بذلك "الضفة الغربية وغزة" (أي المناطق التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧).

وأحيانا، كانت تصدر بعض الهفوات عن قادة المنظمة، عندما ينسى أحدهم الجمهور الذي يخاطبه. فمثلًا، تمزق قناع المنظمة، عندما قال أبو اياد، رئيس الجناح العسكري لحركة فتح خلال مقابلة مع شبكة (بي. بي. سي)، عام ١٩٨٥ : "عندما نقول فلسطين المحتلة... نعتبر ان كل فلسطين معتلة... ان مقاومتنا ستشمل كل مكان في المنطقة، وهذا لا يقتصر على الضفة الغربية وغزة فقط".

كما أطلق فاروق القدومي أقوال مماثلة في مقابلة مع الصحيفة الفرنسية (Quotidiem de Paris)، في نفس السنة: عندما نتحدث عن الكفاح المسلح، الذي اعترفت بمشروعيته، الأمم المتحدة، فاننا نقصد بذلك كافة المناطق المحتلة من فلسطين.. من حقنا محاربة العدو الذي احتل أرضنا، سواء تلك التي أُحتلت عام ١٩٦٧، أو عام ١٩٤٧".

غير أن مثل - الصراحة، كانت نادرة للغاية، في الصحافة الغربية، إذ حرصت المنظمة بشكل عام، على اخفاء نواياها. ومن بين الخطط الناجحة التي استخدمتها المنظمة لإثارة الانطباع بأنها أصبحت معتدلة، كانت خطة -إعلن وانف-: اذ يدلي زعماء المنظمة بتصريحات ذات أكثر من معنى، بحيث يمكن تفسيرها لأول وهلة، أنها -تنازل سياسي- مثل الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، وفوراً ينفون هذه التصريحات.

وأبرز نموذج على - الخطة يتمثل في الوثيقة التي وقعها عرفات في قيادته المحاصرة في بيروت عام ١٩٨٢، بحضور عضو الكونغرس الأمريكي، بول مكلوسكي. حيث قال مكلوسكي، ان عرفات أعلن أنه على استعداد للاعتراف بإسرائيل وفقاً لكل قرارات الأمم المتحدة - ذلك التصريح الذي سبق أن أدلى به عرفات قبل ذلك، وكان مشكوكا فيه للغاية.

لكن، مكلوسكي، وقع في الفخ، إذ سارع بابلاغ الصحف عن حدوث"انطلاقة سياسية"، تركت صدى في العالم بشأن "الانفتاح الجديد" من جانب عرفات، ولكن بعد بضع ساعات فقط، نفت منظمة التحرير الفلسطينية هذا الموضوع برمته.

وكما هي الحال في كل واحدة من الاستراتيجيات السابقة لمنظمة التحرير الفلسطينية، كان الهدف الرئيس للمنظمة من لعبة "الاعتراف بإسرائيل" هو كسب ود واشنطن. إذ قبل انهيار الاتحاد السوفياتي بوقت طويل، كان قد أدرك كثيرون من زعماء المنظمة، أن الطريق لممارسة الضغط الحقيقي على إسرائيل، لا تمر عبر الكرملين، إنما عبر البيت الأبيض، والرأي العام الأمريكي. وبدأ هذا الاعتراف يدخل شيئاً فشيئاً إلى العالم العربي كله، (وبعد انتصار الولايات المتحدة في حرب الخليج عام ١٩٩١، دخل إلى دمشق أيضا).

اعتمدت الاستراتيجية الفلسطينية، على مبادئ التقليص والتشويه التي تبنتها الدعاية العربية، والتي أثبتت فعاليتها دون أدنى شك: بعد أن تم تقليص النزاعات في الشرق الأوسط لتقتصر على الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين، وبعد أن "اتضح" أن المنظمة تحظى بتأييد الشعب الفلسطيني المطلق، طلب من الأمريكيين الآن قبول الحلقة الأخيرة في السلسلة: "تمثل المنظمة حلول الوسط والسلام، في النزاع، في حين تمثل إسرائيل العقبة أمام تحقيق السلام".

وبعد أن تنتهي هذه المرحلة من الاقناع بصورة ناجحة، ستشرع الولايات المتحدة باجراء اتصالات مع منظمة التحرير "المعتدلة"، وتمارس الضغط على إسرائيل "الرافضة". ولكن كي تنطلق - الحملة، يتوجب على منظمة التحرير تجاوز حاجز مرتفع: في عام ١٩٧٥، وقع وزير الخارجية الأمريكي، أنذاك، هنري كيسنجر، على مذكرة مع إسرائيل، تلزم الولايات المتحدة بالامتناع عن اجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية طالما لم تعترف هذه المنظمة بحق إسرائيل بالوجود، وبقرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢. وفي وقت لاحق، التزمت الولايات المتحدة أيضاً، بعدم اجراء اتصالات مع المنظمة، إلا في حالة توقفها عن ممارسة أعمال الارهاب.

لذا، فمن أجل تجاوز - العقبة، ولكي تكون مقبولة كطرف في الحوار مع واشنطن، كان يجب على المنظمة أن تخفي هدفها (القضاء على إسرائيل) وسياسة الارهاب التي ظلت تنادي بها. الأمر الذي جعل المنظمة تقر "الاعتدال" وتختار تكتيك اللغة المزدوجة، والتصريحات التي تستطيع نفيها بسهولة أمام الجماهير العربية.

في عام ١٩٨٨، تم التحول أخيراً، إلى صيغة الخلاص التي جعلت منظمة التحرير تحظى بالأمل المنشود من الولايات المتحدة. لقد تجادل عرفات حتى اللحظة الأخيرة، حول كل نقطة في ورقة التفاهم مع الولايات المتحدة، حتى تم الاتفاق اخيراً على صيغة ترضي الطرفين، وكان من المقرر أن يدلي عرفات أمام مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني الذي سيعقد في الجزائر في شهر تشرين ثان من نفس العام، بتصريح يكون مقبولاً لدى الولايات المتحدة، ثم بعد ذلك ببضعة أيام، يكرر تصريحه مع بعض التعديلات المتفق عليها مع الأمريكيين، خلال مؤتمر صحفي في جنيف. وفي المقابل، كان من المقرر أن تشرع الولايات المتحدة باجراء حوار مع المنظمة.

هنالك، شيء ما، غريب في هذه النظرية، التي ترى أن مجرد الادلاء بكلام فقط، يجيز قبول ارهابيين والتحاور معهم، ذلك لأن القرن الحالي شهد أكثر من ارهابي كذب بصورة دائمة، في سبيل تحقيق أهدافه. ناهيك عن أن الكلمات التي انتزعها الأمريكيون من فم عرفات، كما تنتزع السن المرمضة، لا تعني الكثير.

وفيما يلي التصريحات التي أدلى بها عرفات في جنيف حول موضوع الارهاب:

"إن المجلس الوطني الفلسطيني، يؤكد من جديد رفضه للارهاب بكافة أشكاله، بما في ذلك إرهاب الدول... وهذا الموقف واضح ونقي من أي شوائب. وعلى الرغم من ذلك، إنني أنبذ الارهاب بكل صوره وأشكاله، وفي نسر الوقت، أحيي الجالسين أمامي في هذه القاعة، الذين اتهمهم مستعبدوهم بالارهاب، عندما كانوا يناضلون في سبيل تحرير بلادهم من نير الاستعمار... كما أحيي باجلال واكبار الشهداء والمعذبين الذين سقطوا على أيدي

الارهاب والارهابيين وعل رأسهم صديقي أيام حياتي، ونائبي الشهيد الرمز، خليل الوزير (أبو جهاد) والشهداء الذين سقطوا في المذابح التي نفذت ضد رجالنا في المدن والقرى ومخيمات اللاجئين في الضفة الغربية وقطاع غزة، وجنوب لبنان".

صحيح، أن عرفات ندد بالإرهاب، لكنه في الجملة التي تلت التنديد، سحب البساط من تحت أقدام التنديد: فالإرهاب، حسب تعبير عرفات، هو ما فعلته إسرائيل بالفلسطينيين، وهذا ما هو على استعداد ومطلوب منه التنديد به، أما بالنسبة لما قامت به المنظمة نفسها، فعرفات يحيّي "أولئك الذين اتهموا" بالإرهاب، وعلى رأسهم أبو جهاد، الرجل الذي خطط لعملية القتل في نهاريا عام ١٩٧٤، ومذبحة طريق الساحل عام ١٩٧٨، وقتل البحارة الإسرائيليين الثلاثة في برشلونة عام ١٩٨٥، وعدة أعمال إجرامية أخرى.

كما أن الاعتراف، ظاهريا، بحق إسرائيل في الوجود لم يكن أكثر من مجرد "كلام سحر"، حيث قال:

"قبل ما يزيد عن أربعين سنة، اتخذت الأمم الوحدة القرار رقم ١٨١ (قرار التقسيم عام ١٩٤٧)، القاضي بإنشاء دولتين في فلسطين. أحدهما عربية فلسطينية، والأخرى يهودية. وعلى الرغم من الظلم التاريخي الذي ألحق بشعبنا، فان نظريتنا اليوم تقضي بأن ذلك القرار، لا يزال يلبي المطالب الشرعية الدولية التي تضمن للشعب العربي الفلسطيني سيادة واستقرارا وطنيا... إن المنظمة، تسعى لتحقيق تسوية شاملة بين أطراف النزاع العربي- الإسرائيلي، بما في ذلك دولة فلسطين، وإسرائيل، ودول مجاورة أخرى، في إطار المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط، على أساس القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨، من أجل ضمان المساواة والتوازن لكافة المصالح، وبخاصة حق شعبنا في الحرية والاستقلال الوطني، واحترام حق جميع الأطراف بالعيش بسلام وأمن.

في كل هذا "اللف والدوران" لم تكن هنالك كلمة واحدة، تعني أن المنظمة تعترف بإسرائيل أو أنها مستعدة لإبرام معاهدة سلام معها. والأشد من ذلك، هو أن المكانة البارزة

التي مُنحت لقرار ١٨١- قرار التقسيم لعام ١٩٤٧- تظهر فراغ التمثيلية من مضمونها، حيث بمقتـضى هـذا القرار يحق للفلسطينيين استعادة، ليس الضفة الغربية وغزة فقط، إنما أجـزاء كبـيرة أيـضاً مـن إسرائيـل في حدود عام ١٩٦٧، وبضمنها مراكز سكانية يهودية كبيرة مثل: يافا، اللـد، الرملـة، بـئر الـسبع، عكـا، نهاريـا، كريات جات، أشدود، أشكلون، ومساحات في الجليل والنقب. وتجدر الإشـارة ايـضاً، إلى أنـه بموجـب قـرار التقسيم لا تعتبر القدس جزءاً من دولة إسرائيل، انما يجب أن تكون تحت رعاية دولية. كل هـذا، ينـسجم جيدا مع طريقة منظمة التحرير الفلسطينية في الحديث عن السلام مع إسرائيـل بنـاء عـلى كافـة قـرارات الأمم المتحدة.

لقد كانت هذه الصيغة، مرغوبة دائماً، لدى العرب، لأنه من بين قرارات "الأمم المتحـدة". الموضـوعية تلك التي تقتطع من إسرائيل هضبة الجولان والقدس، وتغمر السهل الـساحلي بـاللاجئين العـرب، وتفـرض حظراً على الأسلحة، وعقوبات اقتصادية على إسرائيل، وباختصار، تفكك الدولة عملياً.

وعندما اقترحت منظمة التحرير الفلسطينية التوصل إلى سلام على أساس كافة قرارات الأمـم المتحـدة المتعلقة بالنزاع"، أو "وفقاً لقرار ١٨١"، فإنها كمن يبلغك انه مستعد لأن يكون صديقاً لك، إذا سمحت له فقط، ببتر رجليك".

لقد ضُخّمت، وأبـرزت التـصريحات التـي أدلى بهـا عرفـات في الجزائـر ومـن ثـم في جنيـف، في وسـائل الإعـلام المتحمـسة، وكأنهـا حـدث تـاريخي بـارز جـداً. واسـتغلت الولايـات المتحـدة وبريطانيـا تلـك التـصريحات فـوراً، كذريعـة للـشروع في مفاوضـات مـع المنظمـة، واسـتخدمها الـرئيس الفرنـسي، ميـتران، كمـبَرر لاسـتقبال عرفـات في بـاريس. واعتـبرت أكـبر الـصحف في العالم، خطاب عرفات، معجزة، أو كحدث يطول في أهميته اتفاقيات كامب ديفيـد. حيـث كتبـت صـحيفة نيويـورك تـايمس، مـثلاً؟ "إن النظريـة الأمريكيـة المتعلقـة بالعلاقـات بـين العـرب

وإسرائيل، تمر الآن في عملية تغيير... الشهر الماضي، ندد عرفات بالإرهاب، واعترف، تقريباً، بحق إسرائيـل في الوجود، ولذلك يكون قد حرق كل الأوراق.

يجدر بمن يرغب في تحليل التصريحات الصادر عن منظمة التحرير الفلسطينية، أن يذكر أن الـشيء المهـم لدى المنظمة، شأنها شأن أي نظام استبدادي، ليس ما تقوله للاستهلاك الخارجي، بل ما تقوله لرجالها في الداخل.

عندما كنت اعمل في الأمم المتحدة، كان المنـدوب الـسوفياتي يكـثر مـن الحـديث عـن رغبـة الاتحـاد الـسوفياتي في تحقيـق الـسلام في أفغانـستان. وكـان الجميـع يعرفـون أن تلـك الأقـوال لا معنـى لهـا، وأن السوفيات يواصلون قتل المتمردين الأفغان بصورة روتينية. ولكن، بعد أن بدأت الصحف الـسوفياتيه تـورد أقوال الجنود السوفيات من الجبهة الأفغانية في سهل فنجشير، الذين يناشدون حكومـة الاتحـاد الـسوفياتي بإنهاء الحرب، ويعد أن بدأت هذه الأقوال تُقرأ في الـشوارع في موسـكو وكييـف، أصـبح واضـحا أن تغيـيرا حقيقيا يوشك أن يحدث. وكذلك الأمر، بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، لا توجد أية أهمية لمـا يقولـه مندوبو المنظمـة في الأمـم المتحـدة في نيويـورك أو لمـا يهمـسونه بـاللغتين الإنجليزيـة والفرنـسية، في أذان الدبلوماسيين في جنيف، ولما يقوله مندوبو المنظمة لوسائل الإعلام الإسرائيلية والدولية بغية خداع وتضليل الرأي العام في إسرائيل والغرب. إن أكثر أهمية، هو مـا تقولـه المنظمـة لرجالهـا- باللغـة العربيـة. إذ هـذا تكشف المنظمة عن نواياها الحقيقية.

وفعلاً، بعد بضعة أيام على رفض عرفات للإرهـاب وتنديـده بـه. والاعـتراف الظـاهري بإسرائيـل، بـدأ الناطقون باسم المنظمة يشرحون للصحف العربية، أن تصريح عرفات يأتي في إطار سياسـة المنظمـة بعيـد-المدى، وأنه لم يحدث أي تغيير فعلي.

أولاً، اختفـى التـصريح بـشأن تخـلي المنظمـة عـن الإرهـاب: فبعـد مـضي خمـسة أيـام عـلى تـصريحه في جنيـف، قـال عرفـات في مقابلـة مـع التلفزيـون النمـساوي أنـه لم يقـصد رفـض الكفـاح

المسلح (أي، الارهاب)، وأنه هو وعدد آخر من زعماء المنظمة، أوضحوا بأن الكفاح المسلح لن يتوقف.

وسرعان ما توقفت وسائل الاعلام العربية عن محاولة الدفاع عن النوايا الثورية، ظاهرياً، التي تضمنها تصريح جنيف. بعد اسبوع من التصريح، قال سليم الزعنون، نائب رئيس المجلس الوطني الفلسطيني، وعضو اللجنة المركزية التابعة لحركة فتح: الكفاح المسلح، يجب أن يستمر في كل مكان، ضد العدو الصهيوني وحلفائه... لا يوجد أمامنا خيار سوى مواصلة كفاحنا المسلح، من أجل إلحاق الهزيمة بالعدو وإقامة دولتنا.

كما أعلن نائب عرفات، أبو اياد: "إن منظمة التحرير، لم يسبق ابداً ان التزمت بوقف الكفاح المسلح، ولن تندد به. وها هو، نايف حواتمه، زعيم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين يقول: أن الثورة الشعبية في فلسطين، متمسكة بقرارها مواصلة النضال حتى القضاء على الاحتلال الصهيوني، وتحرير فلسطين من البحر وحتى النهر، ومن الجنوب حتى الشمال.

ومرة أخرى يقوله أبو اياد: لم يسبق أبداً ان عنينا برفض الإرهاب، تجميد النشاطات العسكرية. وعندما طُلب من فاروق قدومي، التعقيب على تصريحات عرفات الرافضة للإرهاب، أجاب: "هذا تشويه لتصريحات الرئيس عرفات... نحن نندد بالإرهاب، وبخاصة الإرهاب الرسمي الإسرائيلي. وعندما سأله الصحفي الذي أجرى المقابلة معه، عما إذا كانت هذه الأقوال تفرغ الالتزام الذي اعتمد على أساسه وزير الخارجية الأمريكي، جورج شولتش، في إجراء محادثات مع المنظمة، من مضمونه، قال القدومي: "فليذهب شولتس إلى الجحيم، واعتقد، أنه ذاهب إلى هناك لا محالة".

وهكذا، أيضاً، كان مصير "الاعتراف" الذي أعلنته المنظمة بإسرائيل. فقد نفاه أبو اياد، نفياً باتاً أمام كل من ينطق باللغة العربية. ففي ١١ شباط ١٩٨٩، قال أبو اياد: لم يكن هنالك أي اعتراف من المنظمة بإسرائيل، سواء في إطار قرارات المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، ولا في مضمون خطاب عرفات في الأمم المتحدة في جنيف".

وأكد أقواله هذه، جورج حبش، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حيث قال: أن قرارات المجلس الوطني الفلسطيني لم تتضمن أية إشارة إلى الاعتراف بإسرائيل، ولا بحق إسرائيل في الوجود. لم نعترف بإسرائيل".

في ٨ أب ١٩٨٩، تبنت حركة فتح القرار الداعي لتصعيد العمل المسلح، ومختلف اشكال النضال، بغية انهاء الاحتلال الصهيوني لفلسطين. وقد اقرّت اللجنة التنفيذية التابعة لمنظمة التحرير هذا القرار في ٣٠ كانون ثانٍ ١٩٩٠. وكان هذا القرار مقدمة للبيان المشترك الذي اصدر. في نفس الشهر، عرفات والقذافي، وجاء فيه: "إن دولة اسرائيل، هي إحدى نتائج الحرب العالمية الثانية، ويجب ان تختفي وتزول كما زال جدار برلين، وبقية نتائج تلك الحرب".

لقد تكرر هذا المشهد من جديد، عندما تراجع عرفات ظاهريا عن الميثاق الفلسطيني وبخاصة البند الذي يستوجب القضاء على اسرائيل.

قبل تصريحات الجزائر وجنيف، وعندما كان يتعرض عرفات الى ضغط شديد من قبل الصحفيين الغربيين بشأن الميثاق الفلسطيني، كان يغيّر الموضوع، بشكل عام. ولكن عندما حوصر في الزاوية، اثناء زيارته للرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، في باريس، بعد مرور اقل من ستة اشهر على تصريحات الجزائر وجنيف، لم يكن باستطاعة عرفات التهرب من الاجابة على السؤال: كيف تعترف باسرائيل مخالفا بذلك نص الميثاق الوطني الفلسطيني".

وأجاب عرفات بقوله: "بالنسبة للميثاق، يبدو لي أن هناك تعبيراً فرنسياً: C'set Caduc، تعبيراً يعني أنه لا يتعلق بالموضوع، او بحكم الملغي".

وعلى الفور، بدأت وسائل الاعلام العالمية بعرض مشهد "سيرك" عادي، إذ بدأت تغطي العالم بتقارير، تفيد بأن عرفات تراجع عن الميثاق الوطني الفلسطيني. ومرة أخرى، كالعادة، أوضح عرفات والمنظمة ان كلمة (Cadue) لها معانٍ كثيرة وان اقوال عرفات فُهمت خطأ، لأن عرفات، أصلاً، لا يتمتع بصلاحيات الغاء الميثاق.

كما أعلن أبو اياد: لا عرفات، ولا صلاح (خلف ابو اياد) ولا أي زعيم أخر، يملك حق الغاء الميثـاق، لأن الميثاق هو من صلاحية المجلس الوطني الفلسطيني. ولكي يـتم الغـاؤه او تعديلـه، يتطلـب الأمـر موافقـة ثلثي المجلس.

وحول الاقتراح الداعي الى ان تشطب المنظمة البند التاسع عشر من الميثاق، الذي يتحدث عن القضاء على إسرائيل، قال ابو اياد: "نحن في منظمة التحرير الفلسطينية لا نقبل الغاء البند ١٩ من ميثاقنا".

وبالفعل، أعطت المنظمة مفعولاً لتصريحاتها باستئناف النشاطات الارهابية: ففي الاشـهر التـي تلـت تصريح عرفات فى كانون أول ١٩٨٨، جرت عشرات محاولات تسلل الى داخل اسرائيل من قبل خلايا ارهابية تنتمي لمنظمات تنضوي تحت قيـادة منظمـة التحريـر الفلـسطينية، التـي شـاركت في مناقـشات المجلـس الوطني الفلسطيني، والتي تظاهرت بالموافقة على قرار وقف الارهاب ضد اسرائيل.

ومن خلال التحقيق مع "المخربين" الذين ألقي القـبض علـيهم. وخـرائط الكيبوتـسات والمـستوطنات المدنية، التي كانت بحوزتهم، عرفت اسرائيل، أن معظم العمليات كانت تهدف الى ضرب الـسكان المـدنيين مباشرة. وقد نُفذت بعض تلك العمليات من قبل خلايا الجبهـة الديمقراطيـة لتحريـر فلـسطين، التـي كـان ياسر عبدربه أحد كبار قادتها، وعضو اللجنة التنفيذية التابعة للمنظمة، والرجـل الـذي تـرأس المفاوضـات مع الولايات المتحدة عـام ١٩٨٨، بـشأن استئناف الحـوار بينهـا وبـين منظمـة التحريـر الفلـسطينية. وقـد احتجت اسرائيل لدى الولايات المتحدة، غير أن الادارة الامريكية فضّلت تجاهل الأمر.

كـان في داخـل منظمـة التحريـر الفلـسطينية، التـي اسـتمدت وقاحتهـا، التـشجيع، مـن سـكوت الامـريكيين (مـثلما أدى سـكوت الاردنيـين الى تعزيـز قوتهـا عـام ١٩٧٠)، مـن قـرر تـصعيد الهجـمات. ففـي أيـار ١٩٩٠، حاولـت منظمـة ابـو العبـاس، قتـل عـدد كبـير مـن

الاسرائيليين فى عيد شفوعوت (نزول التوراة)، ومهاجمة شواطئ تل ابيب من البحر. أرسلت المنظمـة عـدة زوارق سباق، كانت تقل مخربين مدججين بالسلاح. وكان هدف الهجوم، المستجمّين، والـسياح في الفنـادق الواقعة على طول شاطئ تل ابيب، بالقرب من موقع السفارة الامريكية، فى شارع اليركون. ولحسن الحـظ، أُحبط الجيش الاسرائيلي العملية في اللحظة الاخيرة (وصلت الزوارق بطريق الخطأ الى شـواطئ نيتـسانيم)، ولسوء حظ منظمة التحرير الفلسطينية، كانت تلك العملية بمثابـة القـشّة التـي قـصمت ظهـر البعـير، اذ قررت الادارة الامريكية بأنها لن تستطيع تمكيـنهم مـن الاسـتمرار في تـضليلها. وفي الكـونغرس اقـرّ قـانون "ماك- لبرمان" الذي صدرت بموجبه التعليمات لوزارة الخارجية الامريكية، بـشأن ضرورة إبـلاغ الكـونغرس، بتقرير كل ثلاثةَ أشهر، حـول مـدى تقيـد المنظمـة بالالتزامـات التـي قطعتهـا عـلى نفـسها أمـام الولايـات المتحدة. وأرغمت عملية نيتسانيم، وموقف الكونغرس، وتركيز وسائل الاعلام عليها، الادارة الأمريكية، عـلى وقف الحوار مع منظمة التحرير، بعد مضي أقل من سنة على بدايته.

لكن منظمة التحرير الفلسطينية لم تعقد مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، ولم تمض اياما طويلة في صياغة وتبني قرارات معقدة هدفها تضليل الرأي العام الغربي فقط.

لقد اهتمت المنظمة بان تشرح من على الصحف العربية، أن مؤتمر الجزائر،كـان حقيقيـا، اتخـذ فيـه قرار حقيقي.

بعد ايام معدودة من تصريح جنيف، في ٨ كانون ثان ١٩٨٩، قال، رفيق النتشة، عضو اللجنة المركزيـة التابعة لحركة فتح، ومندوب المنظمة لدى العربية السعودية ما يلي: "ان اسلوبنا السياسي الحـالي، ينـسجم مع مشروع المراحل. وكانت هذه الأقوال تنطوي على ما يشبه الـصدى، لتـصريح ابـو ايـاد، نائـب عرفـات، الذي قال قبل اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني. في تشرين ثان ١٩٨٨: تجب علينا طـرح مبـادرة سياسـية، لا تنطوي على جديد بالنسبة لمشروع المراحل.. مبادرة توفر اداة جديدة لتحريك مـشروع المراحـل".فعـلاً، حيـث

قال: "ان قرارات المجلس الوطني الفلسطيني. تعتبر تطويراً المشروع المراحل الذي تمّ تبنيه في القاهرة قبل ١٤سنة. أن المشروع لم يتم تطويره طيلة هذه السنوات، ولا يوجد جهاز لتنفيذه. لذا خصص مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، لبعث الحياة من جديد، في مشروع المراحل، والعمل على تطبيقه.

ما هو مشروع المراحل، الذي يكثر رجال منظمة التحرير الفلسطينية الحديث عنه؟

خلال السنوات الأولى، التي تلت تاسيس المنظمة في عام ١٩٦٤، آمن زعماؤها بامكانية القضاء على اسرائيل بضربة واحده اذا تمكنوا، فقط، من التسبب في اندلاع حرب شاملة بينها وبين الدول العربية. حتى أن هزيمة العرب في عام ١٩٦٧، على فداحتها، لم تقنع المنظمة بضرورة التحوّل عن هذه السياسة. لقد كانت المنظمة متأكدة وواثقة، من أن الدول العربية ستعيد تسليح نفسها وتستأنف الهجوم على اسرائيل- وهكذا فعلت مصر وسوريا في حرب "يوم الغفران" عام١٩٧٣، فعلاً. غير أن نتائج هذه الحرب، كانت بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية مخيبة للآمال، أكثر من حرب ١٩٦٧. فالملك الحسين، فضّل عدم الانضمام لحرب ١٩٧٣، واسرائيل، كانت تتمتع بعمق استراتيجي في الجولان وسيناء، مكّنها من امتصاص الهجوم العربي المفاجئ. وعلى الرغم من ظروف بدء الحرب القاسية جداً، وفي غضون ثلاثة أسابيع كان الجيش الاسرائيلي يقف على ابواب دمشق والقاهرة. وهنا بدا لمنظمة التحرير، أن أحلامها بشان تحرير حيفا وعكا، اصبحت صعبة التحقيق أكثر من اي وقت مضى.

بعد هزيمة العرب فى حرب يوم الغفران ببضعة أشهر، اجتمع الجلس الوطني الفلسطيني فى القاهرة، لاعادة تقييم الوضع. وفى ضوء نتائج الحرب، توصل المجلس الى استنتاج يقضي بانه لا يمكن الحاق الهزيمة باسرائيل من خلال هجوم عسكري جبهوي، على حدود ما بعد ١٩٦٧. لذا فان هنالك ضرورة لمرحلة انتقالية، تعود فيها اسرائيل الى حدود ما قبل ١٩٦٧، التي من خلالها فقط، يصبح بالامكان توجيه ضربة مميتة لها.

وهكذا، وُلد مشروع المراحل الذي اقرّه المجلس الوطني الفلسطيني في ذلك المؤتمر بتاريخ ٨ حزيران ١٩٧٤.

وكان لمشروع المراحل، مبدآن أساسيان هما:

اولاً ؛ تقام دولة فلسطينية في اي منطقة تنسحب اسرائيل منها (بند/٢).

ثانيا؛ الدولة التي ستقام، تستخدم قاعدة لهجوم عسكري شامل على اسرائيل ا لمقرّمة (بند/٨).

وعلى الرغم من ان المجلس الوطني الفلسطيني صادق على مشروع المراحل، الا انه حدثت بين الحين والاخر، خلافات في الرأي، حول هذا الموضوع، داخل صفوف منظمة التحرير الفلسطينية.

فقد قال جورج حبش، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ان المرحلة الانتقالية تشكل عبئاً زائداً، لان معركة ارهابية متزايدة داخل اسرائيل والعالم، ستنجح في نهاية المطاف في تحقيق اهداف المنظمة. لكن عرفات، وابو اياد، اصرا على ان الدمج بين الارهاب والسياسة، سيكون أكثر جدوى من الإرهاب لوحده، وتعززت نظريتهما بعد أن زاد اصرار الغرب، بقيادة ادارة ريغان على العمل بشدة تجاه الارهاب.

وكان القصف الجوي الامريكي لليبيا، عام١٩٨٦، بمثابة رسالة واضحة، بانه من الآن فصاعداً ستتحمل الحكومات والمنظمات مسؤولية الارهاب الذي زرعته، وقد استوعبت هذه الرسالة جيدا في دمشق، وطهران، وعواصم اخرى ارهابية في الشرق الاوسط. وفهم هذا الوضوع بصورة خاصة من قبل قيادة منظمة التحرير في تونس، حيث سارعت الى تقليص حجم الاعمال الارهابية.

في عام ١٩٨٧، بلغت المنظمة مرحلة متقدمة من التعفن، الامر الذي تطلب منها العمل بسرعة على ايجاد دمج جديد بين العنف والدبلوماسة بغية انقاذ مكانتها. عندئذ

اندلعت الانتفاضة. لم تبادر المنظمة اليها، لكنها اثارت المنظمة وبعثت فيها حياة جديدة وهدفاً جديداً.

وقد نجم عن الانتقادات اليومية التي تعرضت لها اسرائيل، ضغط شديد لارغام اسرائيل على اخلاء الضفة الغربية وقطاع غزة، الامر الذي جعل مؤيدي مشروع المراحل في المنظمة يتفوقون على المشككين فيه.

كان واضحا،بالنسبة لمؤيدي مشروع المراحل ،ان الضغط الدعائي الذي نشأ في اعقاب الانتفاضة قد يساعد على تجنيد الولايات المتحدة في سبيل تنفيذ المرحلة الاولى من المشروع- اقامة دولة بزعامة المنظمة في الضفة والقطاع. وهكذا حسم الخلاف نهائيا فى مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد فى الجزائر عام١٩٨٨ حيث اتحدت كافة الفصائل الرئيسية في المنظمة وراء عرفات وابو اياد، وتبنت نظرية القضاء على اسرائيل على مراحل. كانت نتائج مؤتمر الجزائر نصراً شخصياً لابو اياد. الذي كان اكبر مؤيد، لهذه الاستراتيجية، فقد قال ابو اياد، عام ١٩٨٧: وفقا لمشروع المراحل، نقيم دولة فلسطينية في اي جزء من فلسطين ينسحب العدو منه. وستكون الدولة الفلسطينية، مرحلة، في نضالنا المستمر لتحرير كل ارض فلسطين، ولن نستطيع تحقيق الهدف الاستراتيجي المتمثل باقامة دولة فلسطينية، في كل فلسطين، دون أن نقيم اولاً دولة فلسطينية على جزء من الارض.

وبعد بضعة ايام فقط من اعتراف المنظمة باسرائيل، في جنيف، اوضح أبو اياد النوايا الحقيقية للمنظمة بقوله: "في البداية، دولة صغيرة وبعون الله، ستكبر وتتسع شرقا وغرباً، شمالاً وجنوباً.. انني اريد تحرير فلسطين خطوة، خطوة".

وفي مناسبة اخرى قال ابو اياد باختصار: ستكون الدولة الفلسطينية نقطة انطلاق لتحريريافا وعكا، وفلسطين كلها".

ابو اياد، المنظر الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، ظل يوضع دائما أن مشروع المراحل، لا يتناقض مع الميثاق الوطني الفلسطيني، الذي يسعى الى ابادة اسرائيل، انما هو رد تكتيكي على الظروف الجغرافية-السياسية المتغيرة ومن شأنه توفير الوسائل لتطبيق الميثاق.

في ٦ كانون/ ١٩٨٨،قال ابو اياد: "اقسمنا على أن نحرر فلسطين ما قبل ١٩٦٧ ايضا. سنحرر فلسطين مرحلة بعد مرحلة.. ان حدود دولتنا التي أعلنا عنها، تمثل جزءا فقط من طموحاتنا الوطنية. وسنعمل من اجل توسيع هذه الحدود، انطلاقا من هدفنا لتجسيد طموحاتنا على ارض فلسطين كلها.

لم تكن هذه النظرية حكراً على ابو اياد فقط، انما شاركه فيها العديد من زعماء المنظمة، واذا كان هنالك من نسي الهدف الاساسي فقد عمل عرفات على تذكيره مثلما فعل عام ١٩٩٠: "ان نضال الشعب الفلسطيني سيتواصل حتى التحرير الكامل للارض الفلسطينية... يجب تقديم العون لنضال الشعب الفلسطيني حتى تحرير فلسطين الكامل من النهر وحتى البحر".

ومرة اخرى، يمكننا أن ندرك أن عرفات، لم يحدد في تصريحاته باللغة العربية، هدف الفلسطينيين بتحرير مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة فقط، انما وسعه ليشمل فلسطين كلها. من نهر الاردن وحتى البحر المتوسط. وهكذا، قال ايضا، فاروق القدومي، رئيس الدائرة السياسية في المنظمة: اذا اعيد الينا جزء من ارضنا، فلن نتنازل بسببه عن ارضنا... سنقيم خيامنا في المواقع التي تصل اليها حرابنا... وستكون الخيمة نقطة انطلاق لتحقيق المرحلة القادمة.

وكذلك، الشيخ عبد الحميد السائح، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني قال:

حتى لو نجحت منظمة التحرير الفلسطينية في اقامة دولة بالضفة الغربية وقطاع غزة، فان ذلك لن يمنع استمرار النضال من اجل تحرير فلسطين كلها... اذا نجحنا في الحصول

على جزء من فلسطين، نقيم عليه دولة، نستطيع بعد ذلك، ونحن على أرض فلسطين مطالبة العالم بالعمل من أجل نيل حقوقنا كاملة وكشعب... نحن نسعى لتحقيق ما هو ممكن فى المرحلة الحالية... ومن ثم سنطالب بالمزيد.

لقد أيدت كافة فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، بما فيها المتطرفة والرافضة، هذه السياسة المعتدلة الرامية الى القضاء على اسرائيل على مراحل. ها هو بيان منظمة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي سبق أن عارضت بشدة مشروع المراحل، يقول:

"إن انشاء دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة، سيكون بداية سقوط المشروع الصهيوني. نستطيع الاعتماد على هذه الهزيمة، من أجل استكمال النضال وتحقيق هدفنا الكامل، ألا وهو تحرير ارض الوطن الفلسطيني بكاملها".

كما أدلى نايف حواتمة زعيم الجبهة الديمقراطية، باقوال مماثلة: تجب ان يوجّه النضال الفلسطيني حاليا نحو اقامة دولة فى الضفة الغربية وغزة وهذا لن يمنعنا من تحقيق هدفنا النهائي- تحرير فلسطين كلها.

وعلى أية حال، لدى تبني "مشروع المراحل"، تلاشت جميع الخلافات في الرأي حول الاستراتيجية، بين المتطرفين والمعتدلين داخل المنظمة.

والان، ومن خلال انسجام لم يسبقه مثيل بين كافة فصائل المنظمة، انتقل الخلاف الأيديولوجي حول مسالة مشروع المراحل من صراع داخلي، داخل المنظمة نفسها، الى صراع خارجي بينها وبين الحركة الاسلامية المتعصبة حماس.

لقد ارتفعت قوة حماس في اوساط العرب الفلسطينيين بسرعة، الأمر الذي جعل الكثيرين فى العالم الغربي يحثون اسرائيل على الاسراع في ابرام صفقة مع المعتدلين في المنظمة قبل ان تجد نفسها مرغمة على التفاوض مع المتدينين المتطرفين. ولكن يجدر باولئك الذين يريدون مصلحة اسرائيل، ان يصغوا لا يقوله، رفيق النتشة، أحد النشطاء الرئيسين في حركة فتح فى سياق تلخيصه للخلافات القائمة بين منظمة التحرير وحركة حماس.

تقول حماس: فلسطين كلها لنا. نريد تحريرها من البحر وحتى النهر فى ضربة واحدة لكن فتح تعتقد بانه يجب العمل وفقاً لمشروع المراحل. أن الطرفين متفقان بشان ما يتعلق به الهدف النهائي. لكن الخلافات تتركز فقط حول الطريق المؤدية لتحقيق هذا الهدف.

هنالك من ادعى، انه فى ضوء التطرف السائد، سيتمثل الاعتدال، بالاشخاص الذين ستعينهم منظمة التحرير الفلسطينية من بين سكان الضفة الغربية وغزة، كمندوبين عنها في المحادثات السلمية التي كانت جارية آنذاك بين العرب. واسرائيل. ولكن مع مزيد الأسف، لم ينحرف الناطقون الذين عينتهم المنظمة من بين سكان الضفة والقطاع عن خط المنظمة الرسمي. فها هو، ابرز هولاء الناطقين، فيصل الحسيني، يقول في مقابلة مع صحيفة اردنية مفصّلاً نظريته السياسية، قبل بضعة اسابيع من توجهه لمقابلة الرئيس بوش في البيت الأبيض في كانون اول ١٩٩٢، ما يلي: "ان المرحلة التي نعيشها حالياً- كفلسطينيين واردنيين وكعرب- تمثل فرصة تاريخية لن تعود لفترة طويلة قادمة. إنها تذكرنا بالوضع الذي كان سائداً في اعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية- تلك الفترات التي شهدت شطب شعوب ودول من على وجه خريطة العالم. لذا يجب علينا... العمل بحرص شديد، في ضوء هذه الظروف التاريخية الجديدة، ان نضع انفسنا في موقع... نستطيع من خلاله إبرام أحلاف جديدة تقرّبنا من تحقيق استراتيجيتنا العليا.. يجب علينا أن نذكر ان شعار المرحلة الحالية ليس هو "من البحر الى النهر..."، ولَكننا لم ولن نتنازل عن اي من التزاماتنا التي لا تزال قائمة منذ أكثر من ٧٠ عاماً. لذلك يجب علينا التذكير، بأن المجتمع الفلسطيني والعربي الموحّد، قادر على منافسة المجتمع الاسرائيلي الذي لم يكتمل بعد... وعاجلا أم آجلاً، سنرغم المجتمع الاسرائيلي على التعاون مع مجتمع اكبر منه، مجتمعنا العربي، وبعد ذلك سنعمل على تفكيك الكيان الصهيوني تدريجياً.

إن ما يقصده الحسيني، هو انه يجب على العرب أن لا يُخدعوا بالمعنى الحقيقي لشعار الطالبة "فقط" بدولة فلسطينية فى الضفة والقطاع. إذ أن الهدف الاساسي المتعلق بإسرائيل لا

زال قائماً كما كان: "ان الشعب الفلسطيني لم يتخل عن التزامه منذ ٧٠ عاما بشان القضاء على الكيان الصهيوني.

يستشف من هذا، أن لدى منظمة التحرير الفلسطينية وثيقتين توجهان عملها للمدى البعيد. وقد صودق على الوثيقتين في مؤتمرين هامين للمجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة- الأول لدى تاسيس المنظمة عام ١٩٦٤، والثاني بعد ذلك بعشر سنوات.

الوثيقة الأولى، هي الميثاق الوطني الفلسطيني، الذي يتضمن الهدف السياسي المتمثل بالقضاء على اسرائيل. والوثيقة الثانية، هي مشروع المراحل ويتضمن تفصيلاً للاسلوب الذي يؤدي الى تحقيق الهدف الاساسي.

لم تفكر منظمة التحرير الفلسطينية إطلاقا بغير الكراهية السامّة التي تبناها المفتي في حينه، وانهاء رحلة الارهاب التي عمرها عشرات السنين، والتوقف عن الاحلام بشان حرب ابادة ضد اسرائيل، بل فعلت عكس ذلك تماما.

لقد وحّد مشروع المراحل المعسكرات المتنازعة داخل منظمة التحرير، بصورة لم يسبق لها مثيل، وجعل اشدها تطرفا يؤيد تحقيق مكاسب جزئية كخطوة تمهيدية في الطريق الى الحرب الشاملة، التي ينوون شنّها من داخل الدولة الفلسطينية المستقلة التي سيحصلون عليها من اسرائيل، حتى ولو كانت هذه الدولة محدودة في حجمها بداية.

ان الحرب المستقبلية، التي تعتزم منظمة التحرير الفلسطينية المبادرة اليها من داخل الدولة الفلسطينية التي ستقام في الضفة القطاع، ليست السهم الوحيد في جعبة أسهم المنظمة. فقد وضعت المنظمة على رأس قائمة مطالبها، مطلبا اخر، هو "حق العودة" – عودة لاجئي عام ١٩٤٨، الى القرى والمدن التي هجروها.

ان تنمية هذا الحلم الخيالي، لدى أجيال متعدد من الأولاد المحاصرين في مخيمات اللاجئين، يعتبر من أبشع المؤامرات التي قامت بها المنظمة منذ نشأتها. ففي هذه المخيمات،

تحمّل المنظمة اسرائيل مسؤولية التعاسة الانسانية التي تسببت بها الدولة العبرية عندما رفضت استيعاب اللاجئين. ان استمرار وجود المخيمات يضمن عدم التئام جرح عام ١٩٤٨، صحيح ان كثيرين من اللاجئين تركوا المخيمات واندمجوا في المجتمعات العربية المحيطة بهم، لكن الكثيرين أيضاً ارغموا على البقاء في هذه المخيمات، نتيجة لضغوط من جانب منظمة التحرير والدول العربية.

في تلك المخيمات، علّمت المنظمة أبناء اللاجئين أن الطريق الوحيد للخروج، هو العودة الى حيفا ويافا- وهكذا ضمنت المنظمة لنفسها جيلاً جديداً من المجندين لصفوف منظمات "القتلة".

واذا كان قد جرى عمل شيء ما لتخفيف مشكلة اللاجئين منذ عام١٩٦٧، فان اسرائيل هي التي قامت به، وليس الدول العربية.

فقد حاولت اسرانيل، فى اطار خطة متعددة السنوات، تفكيك عدة مخيمات آيلة للسقوط في غزة وموّلت بناء وحدات سكنية جديدة لـ (١١) الف عائلة. وكما هو معروف، فان اللاجئين الذين يملكون بيتا، لم يعودوا مشردين، وليسوا لاجئين، ويصعب تجنيدهم للقيام بعمليات ارهابية.

اما منطمة التحرير فعارضت بشدة المشروع الاسرائيلي، الأمر الذي أرغم قوات الامن الاسرائيلية على توفير الحماية للاجئين الذين ينتقلون للسكن في الوحدات السكنية الجديدة.

بعد مضي حوالي سنة على اندلاع الانتفاضة، قمت بزيارة الى مخيم جباليا للاجئين في غزة وهناك عرفت من المصدر الأول، منطق استراتيجية منظمة التحرير في إبقاء اللاجئين في مخيماتهم. في تلك الأيام كان هدوء نسبي يسود المنطقة. لذا انفردت عن معظم الجنود الذين رافقوني، وتجولت برفقة مترجم، في ازقة المخيم. وبالقرب من أحد المباني الاسمنتية، التقيت عربيا طاعنا في السن واجريت مع الحديث التالي:

س: من أين انت؟

ج: من المجدل (مجدل، هو الاسم العربي لمستوطنة أشكلون).

س: ومن أين اولادك؟

ج: من المجدل، (توقعت أن يكون أولاده من أبناء جيلي، لذلك من المحتمل أن يكونوا من مواليد الجدل حقا. لكن شيئاً ما دفعني للسؤال ثانية).

س: ومن أين احفادك؟

ج: من المجدل.

س: هل ستعود الى المجدل؟

ج: أن شاء اللـه. (يحل السلام ونعود إلى المجدل).

وقلت أنا أيضا إن شاء اللـه، انت تزور المجدل، ونحن نزور جباليا. لكن ابتسامته، تلاشت دفعة واحدة وقال: نحن نعود إلى المجدل، وأنتم تعودون إلى بولندا.

عشرات الالاف من اللاجئين، مستعدون لتكرار حلم العودة الفلسطينية، على مسامع أي صحفي أو دبلوماسي يطرح عليهم اسئلة من هذا النوع.

وهكذا، اصبحت مخيمات- اللاجئين سلاحا سياسيا- هدفه اذكاء الطموح لتحقيق حق العودة، وإثارة معارضة الدول الغربية لهجرة يهود الى اسرائيل. خلاصة القول، يكرر العرب باستمرار القول، كيف أن العربي الذي وُلد في يافا، لا يستطيع العودة الى ارضه، في حين أن يهوديا من اوديسا، الذي لم يسبق أن وطأت قدمه اسرائيل، يستقبل هنا بالترحاب؟

لقد أوضح، هاني الحسن، احد مساعدي عرفات لفترة طويلة، ان عودة العرب، هي التي يجب ان تكون في المرتبة الأولى على سلّم أفضليات العالم. وقال الحسن: "ان المشكلة التي تحتاج الى حل، ليست هجرة يهود العالم الى فلسطين، انما اعاد- لاجئين فلسطينيين الى

فلسطين... ان الدول العربية لن تقبل بتوطين اللاجئين الفلسطينيين فيها.. ة لذا يجب السماح لكـل لاجـئ من عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧ بالعودة الى فلسطين.

ان هدف حق العودة، على أية حال، تقليد حلم اليهود، وان يكون وزنا مضاداً لهذا الحلم والغائه من خلال خلق تجانس كاذب: اليهود، عادوا الى ارضهم- والآن يجب ان يعود العرب الفلسطينيون اليها أيضاً.

ولكن، لا يمكننا معالجة مسالة اللاجئين العرب في عام ١٩٤٨، دون أن نأخذ بالحسبان عدداً مماثلاً من اللاجئين اليهود الذين طُردوا في ذلك الوقت، من الدول العربية. فقد أنفقت الدولة اليهودية التـي كانـت آنذاك في مهدها، مبلغ ١،٣ مليار دولار لاستيعاب مئات الالاف اللاجئـين اليهـود الـذين قـدموا مـن الـدول العربية، ووفرت لهم المساكن والتعليم والعمل، ولا يوجد حاليا أي فرق بينهم وبين بقية مواطني إسرائيل.

في حقيقة الأمر، جرت هنا، عملية تبادل سكاني بين الدول العربية، ودولة اسرائيل- العرب، هربوا خوفا من الحرب، بينما طُرد اليهود من الدول العربية في أعقاب تلك الحرب. لقد حدث تبادل سكاني مرات عديد- خـلال القرن الحالي: تم تبادل ملايين الناس بين بلغاريا وتركيا، عام ١٩١٩، وبين اليونان وتركيـا عـام ١٩٢٣، وبـين الهنـد والباكستان عام ١٩٤٧، وهكذا.

في كل هـذه الحـالات، لم يفكـر اي طـرف باعـادة العجلـة الى الـوراء، ولابالتأكيـد، في إعـادة اللاجئـين التابعين لطرف واحد فقط. إن حقيقة مضي حوالي ٥٠ سنة عـلى تلـك الحـرب، ومـا زالـت الـدول العربيـة ترفض القيام بما هو مطلوب منها بموجب هذه المعادلة، التـي خلقتهـا هـي نفـسها، تحمـل دلالات كثـيرة، فالزعماء العرب، يعرفون جيداً انه لو وافقت اسرائيل على حق العودة للفلسطينيين، فانهـا سـتتلقى ضربـة سكانية ساحقة وستقضى عليها في واقع الأمر.

لـذا، فـشعار حـق العـودة مـا هـو سـوى خدعـة هـدفها القـضاء عـلى الدولـة اليهوديـة، تمامـا كـما اعلــن القــذافي بــصراحة: عندئــذ (أي بعــد عــودة اللاجئــين) لــن تكــون هنالــك اسرائيــل... اذا

وافقوا على ذلك، ستكون نهاية اسرائيل. لم يسبق ان تخلت منظمة التحرير الفلسطينية عن مطالبتها بحق العودة، ولا يزال هذا الطلب على راس شروط السلام التي تضعها المنظمة.

لقد اوضح عرفات هذه المسألة جيداً بقوله:.. لن تنتهي الثورة الفلسطينية، إلا بعد الحصول على الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني، بما فى ذلك حق العودة. كما أن موافقة المنظمة على حق اسرائيل في الوجود (وفقا لقرار ٢٤٢) مشروطة بحق العودة للفلسطينيين، التي قال عنها القذافي أنها ستؤدي الى نهاية اسرائيل. وبنفس المعنى، تحدث عرفات عام ١٩٩١، مؤكداً أن حق العودة، هو شرط مسبق لتحقيق السلام في الشرق الأوسط كله: لن يحل السلام والاستقرار فى المنطقة، طالا ظلوا يتجاهلون الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني والتي لا يمكن التخلي عنها، ويضمنها، حق العودة، وحق تقرير المصير، وإنشاء دولة مستقلة، عاصمتها القدس.

أن هذا التصريح، في حد ذاته، لعلمنا الكثير. فاذا كان كل ما تريده المنظمة هو دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، فما الداعي لاضافة مصطلحات مثل تقرير المصير، وحق العودة، فها هي، فلسطين المستقلة في الضفة الغربية وغزة، كافية لتلبية رغبة الفلسطينيين في تقرير المصير، وقادرة أيضاً على استيعاب كل ما تبقى من اللاجئين. ولكن عن طريق الفصل بين هذه المصطلحات، تلمّح المنظمة، كعادتها، الى الجمهور العربي، بلغة مفهومة جيداً، ان الدولة فى الضفة الغربية وغزة، ما هي سوى مرحلة واحدة من خطتها للقضاء على إسرائيل.

أن مصطلح "تقرير المصير" موجه الى الجمهور العربي في اسرائيل، الذي سيطالب هو ايضا، بعد اقامة الدولة الفلسطينية، بحق تقرير المصير (اي الاستقلال)، في المناطق التي توجد فيها اغلبية عربية، مثل الجليل والنقب.

واذا كان اقتطاع هذه "الاعضاء" لن يؤدي الى نهاية دولة اسرائيل، فان حق العودة سيضمن اغراق ما تبقى من اليهود في فيضانات اللاجئين العرب.

ان الثلاثي، غير المقدس، هنا، والمتمثل بالاهداف العليا للمنظمة- دولة مستقلة، وتقرير مصير، وحق العودة والى جانبها ادوات التنفيذ الثلاثية- الميثاق الوطني الفلسطيني، ومشروع المراحل، والكفاح المسلح- تشكل معا عقيدة منظمة التحرير الفلسطينية. منها يستمد تلاميذها واعوانها، توجهاتهم، وايحاءاتهم، واهدافهم أيضا المتمثلة بالجهاد (حرب مقدسة) هدفها تدمير دولة اسرائيل بصورة نهائية. وحتى بعد بدء مفاوضات السلام بين اسرائيل والعرب في مدريد عام ١٩٩١، ظل عرفات يمتدح "الجهاد"، حلمه المنشود منذ تأسيس منظمة التحرير عام ١٩٦٤.

في ١٥ اذار ١٩٩٢، قال عرفات: من خلال الاتصالات من أجل السلام... خلق الفكر الفلسطيني المبدع ، الضلع الثالث للمثلث ،والضلعان الآخران هما النضال الفلسطيني والجهاد الذى يؤدي الى النصر الأكيد. إننا نعيش الآن في ذروة معركة سياسية ودبلوماسية... الجهاد، هو طريقنا، وفلسطين هي وجهتنا.

كما ادلى عرفات بخطاب مماثل تضمن مناشدة واضحة لكل العالم الاسلامي كي يهب للجهاد من أجل تحرير القدس، عاصمة فلسطين، في أحد مساجد جوهانسبريخ في ٣٢/٥/ ١٩٩٤، اي بعد توقيع اتفاقية اوسلو والقاهرة. حيث قال عرفات: انني اعتبر هذا الاتفاق كالاتفاق الذى وقعه نبينا محمد مع قبيلة قريش في مكة (وخلال وقت قصير الغي الاتفاق وقضى على القبيلة المذكورة)... اننا نقبل اليوم اتفاق السلام، كي نواصل الطريق الى القدس. ان الجهاد سيستمر. فالقدس ليست للشعب الفلسطيني فقط، انما لكل الأمة الاسلامية".

وكعادته، حاول عرفات بعد الخطاب، اخفاء المعنى الحقيقي لكلماته التي كانت واضحة تماماً، وأوضح أنه قصد "الجهاد" من اجل السلام. وقد اعتبرت حكومة اسرائيل الموضوع منتهياً، بعد أن قدم عرفات هذا التفسير الكاذب.

أن اية كلمة، من هذا النوع، لم تصل الى الصحافة الغربية، ولا الى برامج التلفزيون فى العالم الغربي. فهذه الوسائل، لا تهتم بنشر تقارير عما تفعله منظمة التحرير الفلسطينية، داخل

العالم العربي، ولا بالتصريحات التي يدلي بها ناطقو المنظمـة باللغـة العربيـة. ونتيجـة لـذلك، فـان زعـماء العالم الغربي، لا يعرفون شيئا عن التكتيك المعقد، الذي تنتهجه المنظمة.

وعندما نسألهم عن سبب عدم اكتراثهم بتأكيدات عرفات المتكررة: على عزمه القـضاء عـلى إسرائيـل، يجيبون بان هذا الكلام مجرد تمثيلية، أو لعبة، لا قيمة لها.

ينطوي هذا الاسلوب على رسالة تعني:

لا تاخذ على محمل الجد ما يقوله أي عربي عندما يتحدث الى العرب. غير أن هذا القول ينطوي عـلى منطق عكسي. فالأنظمة والمـنظمات الاسـتبدادية، تتحـدث إلى الاجانـب بأكاذيـب تنـسجم مـع مـا يخـدم أهدافها، وان ما تقوله لشعوبها ورجالها فقط، هو الذي يعبّر عن افكارها الحقيقية.

أن من يدرك هذه الحقيقـة، يـستطيع ان يفهـم منظمـة التحريـر ويفهـم طريقـة عملهـا. فالمنظمـة، تواصل المتاجرة ببضاعة السلام في الغرب، وفي نفس الوقت لا تتوقف عـن التاكيـد عـلى مواصـلة الارهـاب وتدمير اسرائيل في الشرق- أي إلى الشعب العربي فى الشرق الأوسط.

كيف يمكن أن تكون أكاذيب منظمة التحرير الفلسطينية مقبولة كحقائق لدى العالم الغربي، في حـين ان الحقيقة ذاتها تُفسّر على أنها أقوال لا قيمة لها؟ في الواقع، ليس كل العالم الغربي، يصدق كل مـا تقولـه المنظمـة. فمـثلاً، حتـى أولئـك المـستهلكين المتحمـسين لأكاذيـب المنظمـة في الغـرب، لم يـستطيعوا ابـتلاع "الخارطة السرية" سيئة الذكر، التي "اكتشفها" عرفات على وجه عملة اسرائيليـة- بـصفتها الـدليل القـاطع على خطة اسرائيل للسيطرة على الشرق الأوسط كله.

ففي موتمر صحفي كبير، عُقد خصيصاً في مقر الأمم المتحدة في جنيف، عرض عرفات خريطة تشمل معظم منطقة الـشرق الأوسـط، مـن النيـل إلى الفـرات، وحتـى جنـوب تركيـا. وأوضـع ان الخريطــة المرســومة بخطــوط بــارزة صــلبة، تــشمل المنــاطق التــي تعتــزم اسرائيــل،

المتعطشة للضم، الاستيلاء عليها في يوم ما. وأن الخريطة، طُبعت على قطع النقد الاسرائيلية حتى يكون كل اسرائيل شريكا في هذه المؤامرة السرية، كلما أدخل يده الى جيبه. وبعد خروج عرفات من المؤتمر الصحفي، ترافقه حاشية من المساعدين والاعوان لم أشهد مثلها خلال سنوات خدمتي في الأمم المتحدة)، دخلت الى القاعة. وأخرجت من جيبي قطعة نقود (عشر اغورات)، وأوضحت أن الرسم المطبوع عليها ما هو سوى نسخة عن قطعة نقد قديمة تعود الى عهد الملك اليهودي متتياهو انتيفونوس،٤٠_٣٧ قبل الميلاد). وتظهر على قطع النقود الاسرائيلية المتداولة حاليا الكثير من رسومات كانت تحملها النقود اليهودية القديمة. كما عرضت صور- مكبّرة لقطعة النقد الأصلية التي نُسخت عنها الخريطة السرية. وقلت ان "الخريطة السرية" التي عرضها عرفات، لم تكن سوى خط الهوامش المهترئة للعملة القديمة.

وهكذا، سرعان ما أحبطت محاولة من جانب عرفات، لابتداع كذبة جديدة.

لكن الأمر يكون مختلفا بالنسبة لأكاذيب أخرى تختلقها المنظمة. ومعظم العالم يتقبل هذه الأكاذيب كحقائق. أو شبه حقائق.

ان جهل السياسيين ووسائل الاعلام بكل ما يتعلق بالمبادئ الاساسية لسياسة منظمة التحرير الفلسطينية لا ينبع من الصورة التي توزع المنظمة فيها أكاذيبها فقط، بل يعود في درجة معينة الى ميل الشعوب الغربية، بما في ذلك شريحة كبيرة داخل اسرائيل نفسها، لتصديق ما تقوله المنظمة.

أن الغربيين يريدون، وككل اخلاص، التصديق بان كل انسان قد يعود الى الرشد وطريق الصواب، وانه حتى اسوأ الأعداء، يمكن أن يصبحوا، مع مرور الوقت، أصدقاء. ولهذا، فبالرغم من توقف الحوار بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير، عام ١٩٨٩، في اعقاب استمرار الاعمال الارهابية من قبل المنظمة، بُذلت في واشنطن جهود كبيرة لاستئناف الحوار بينهما. وبدأت الحكومة الأمريكية تبحث عن طرق لاعادة المنظمة، بصورة علنية، الى الحلبة

السياسية. وهكذا جرت من وراء الكواليس مناورات حثيثة، من خلال وسطاء مقبولين لدى المنظمة. للحصول على موافقة المنظمة على هذا الاجراء الأمريكي أو ذاك. والهدف من هذا كله هو محاولة تحسين صورة المنظمة في نظر الجمهور الأمريكي والكونغرس، وضمان اشتراكها في المسيرة السلمية المستقبلية.

أن السياسيين الغربيين، يحبذون دائما الحلول الوسط، ويجدون صعوبة في تصديق أن "مرض ابادة اسرائيل المستفحل في منظمة التحرير، ليس مصلحة مؤقتة، او تكتيكا عابراً.

في حقيقة الأمر، هذه هي خلاصة جوهر المنظمة، وسبب وجودها، وهذه هي العقيدة التي توحّد اعضاء المنظمة وتضمن ولاءهم لها. وهنا، ايضا، يكمن الفرق بين المنظمة، وبين الدول العربية، حتى اكثرها تطرفا.

واضح ان معظم الدول العربية ستكون مسرورة لو اختفت اسرائيل عن الساحة، لكن حتى أكثر هذه الدول تطرفا مثل ليبيا والعراق، لا تجزم بان حياتهما القومية، مشروطة بابادة اسرائيل. وان أية دولة عربية لا ترى أن بقاءها يتوقف على فناء اسرائيل.

وهذا الأمر يختلف بالنسبة للمنظمة: منظمة التحرير الفلسطينية. تحرير فلسطين من ماذا؟من وجود الكيان الصهيوني بالذات. إن المنظمة تربط امر وجودها بالذات، باختفاء وجود إسرائيل، ولهذا تختلف عن أي عنصر سياسي آخر في العالم العربي.

أن منظمة التحرير الفلسطينية، مكبّلة بفكرة القضاء على إسرائيل. والتخلي عن هذه الفكرة يعني القضاء على المنظمة نفسها.

لو أرادت حكومات الدول الغربية وضع المنظمة تحت الاختبار الحقيقي للتأكد من استعدادها لتعديل نفسها، لكان على هذه الدول أن تطلب من المنظمة التوقف عن كونها منظمة لتحرير فلسطين. وكان يتوجب على هذه الدول ان تصرّ على ان تلغي المنظمة رسميا ميثاقها، ومشروع المراحل، وقرارات أخرى عديدة اتخذتها المنظمة تدعو إلى القضاء فعليا على

اسرائيل. وكان عليها أن تطلب من المنظمة، حل جهازها الارهابي، تحت اشراف دولي، والى توقف عن زرع الكراهية المنهجية لاسرائيل في اوساط الشباب الفلسطيني في مخيمات اللاجئين والتراجع عن معارضتها استيعاب واسكان هؤلاء اللاجئين. أن مثل هذه المطالب الاساسية، لم يسبق ان عرضتها الدول الغربية على المنظمة، لأنه، حتى المراقب المخبول، يعرف بحواسه، ان النظمة لن توافق ابداً على الغاء هنه الايديرلوجية، وذلك لسبب واحد بسيط، هو ان المنظمة ملتزمةَ بكل ما لليها، بالقضاء على إسرائيل بشتى الطرق الممكنة.

هل من المكن حدوث تحول عن هذا الخط؟ وهل يوجد داخل المنظمة من يعارض هذه السياسة؟ نعم. يوجد كهؤلاء. لكنهم لا يعمّرون طويلاً. ان مصيرهم هو كمصير، رجل المنظمة، عصام سرطاوي، الذي قُتل بدم بارد عام ١٩٨٣، لانه دعا الى سلام حقيقي مع اسرائيل، او كمصير الامام الخزندار، الذي قتل في غزة عام ١٩٧٩ خلال حملة اغتيالات نفذها رجال المنظمة ضد العرب الذين اعربوا عن تأييدهم لزيارة السادات لاسرانيل.

لقد أوضح فاروق القدومي "وزير خارجية" المنظمة المنطق في هذه الاغتيالات، بعبارات تجمّد الدم فى العروق حيث قال: ان منظمة التحرير الفلسطينية والشعب الفلسطيني في المناطق المحتلة وخارجها، يعرف جيداً كيف يجب استخدام هذه الاساليب لمنع اشخاص معينين من الانحراف عن خط الثورة ان رجالنا في الداخل يعرفون مسؤوليتهم وهم قادرون على اتخاذ الاجراءات الانضباطية الضرورية ضد اولئك الذين يحاولون الخروج عن الطريق الصحيح.

وهناك المئات من الفلسطينيين الذين حاولوا الانحراف عن خط الثورة،وايدوا سلاما حقيقيا مع اسرائيل، لاقوا حتفهم على ايدي خلايا الموت التابعة للانتفاضة، شأنهم شأن حوالي ٧٠٠ عربي فلسطيني، او يزيد، بينهم ممرضات وطلاب،ومعلمون، أُتهموا بالتعاون مع اسرائيل.

قبل اتفاق اوسلو، تحدثت مع عدد كبير من الفلسطينيين المعروفين، وكانت جميع تلك اللقاءات سرية، وجميعهم قالوا لي، انهم يسعون لتسوية حقيقية وتعايش مع اسرائيل، لكنهم

يخشون الافصاح عن ذلك علانية خوفا من ارهاب المنظمـة وحـماس. ولـيس المقـصود هنـا عربـا مؤيـدين لاسرائيل. لكن هؤلاء تخلوا عن احلامهم اليقظة، بشأن اغـراق اسرائيـل بـاللاجئين العـرب او احـتلال حيفـا ويافا. كانوا يريدون أكثر من غيرهم التوصل إلى حل عن طريق المفاوضـات، يخلـصهم مـن العـبء الثقيـل الذي تلكيه عليهم المنظمة من تونس البعيدة، ليأخذوا مصيرهم بايديهم. وخوفا عـلى حيـاتهم، لم يجـرؤوا على الافصاح علانية عن هذا الوقف، حيث أن الانتفاضـة أصـبحت أداة تخويـف فعّالـة جـدا. لقـد تعلّـم معظم عرب الضفة وغزة بأنه عليهم الانحـراف عـن خـط عرفـات، إلاّ اذا انـضموا إلى خـط حـماس الأكـثر تطرفاً.

إن حقيقة عدم قبول الغرب لهذا الواقع، كما هو، تشير الى صعوبة أعمق بكثير، وهي أنه بغض النظر عن الأدلة، فان الغرب يفقد كليا اتزانه عندما يواجه تعصبا يرتدي بذلة وربطة عنق. وبنفس الدرجة، فـان الغرب غير قادر على الاقتناع بان منظمة التحرير الفلسطينية هي في واقع الأمر مؤيـدة للاسـتبدادية، رغـم التصريحات العلنية الصادرة عنها بهذا الشان. ففي عام ١٩٨٩، عندما نددت كل أمم العـالم الحـرّ، بالـصين، التي قام جنودها بقتل آلاف المدنيين العزّل الذين تظاهروا في ساحة تاينتنمن، من أجل الديمقراطية، أرسل عرفات رسالة تهنئة علنية الى سـلطات بكـين. قـال فيهـا: "بهـذه المناسـبة، أود التعبـير عـن رضـاي البـالغ لنجاحكم في اعادة النظام الى نصابه، في أعقاب الأحداث التي شهدتها مؤخراً الجمهورية الشعبية الصينية".

وعندما افترس صدام حسين الكويت، هتف له عرفات قائلاً: "انني أقول، مباركة، مباركة، مباركة، هذه الحرب... العراق، وفلسطين تمثلان رغبة مشتركة. سنسير جنبا الى جنب، وبعد المعركة الكبرى، بعون اللــه، سنصلى معا في القدس... أن المقاتلين العراقيين وراشقي الحجارة الفلسطينيين، على موعد مع النصر.

وفي آب ١٩٩١، عندما بدا للوهلة الأولى أن محاولة الانقلاب ضد غورباتشوف، وضعت نهاية للمسيرة الديمقراطية في الاتحاد السوفياتي، أعلن عرفات تاييده للمتآمرين، بقوله: كانت منظمة التحرير الفلسطينية تنظر دائما لتجرية البروسترويكا هذه، من خلال شك عميق، وخوف ممزوج بالاسف".

وقبل أن تنتهي محاولة الانقلاب تلك، قالت اذاعة فلسطين صوت منظمة التحرير الرسمي: ان ما حدث فى الاتحاد السوفياتي، يثبت ان النضال ضد الغرب، هو أمر طبيعي، وحتمي، وأن البروسترويكا، كانت تمثل الوضع الشاذ".

أن المعلقين الغربيين الاقلاء، الذين أدركوا هذا التودد البالغ فيه من جانب المنظمة تجاه أنظمة الاستبداد، اكتفوا بالاعراب عن اسفهم كون النجمة تؤيد دائما "الخاسرين"، وكان المسالة مسألة حظ. غير أن الحظ، ليس هو الذي جعل النجمة تختار اصدقاءها، انما الصلة العضوية التي تربط النجمة باهداف واساليب الانظمة الاستبدادية، وهذا ما جعلها ترتبط دائماً بانظمة حكم مثل النظام السوفياتي، والمنظمات الارهابية المختلفة، وانظمة الحكم الدكتاتورية في العالم العربي من مصر وحتى العراق.

يعود تأييد منظمة التحرير الفلسطينية للانظمة الاستبدادية، في جذوره، الى مطلع حزيران ١٩٤٠، عندما أرسل الحاج أمين الحسيني تهنئته الى هتلر باحتلال والقضاء على تشيكوسلوفاكيا، وبولندا، وفرنسا، قائلاً: "أود أن ابلغ فخامة الحاكم والزعيم الكبير، تمنياتي المخلصة بمناسبة انتصاراتكم السياسية والعسكرية الكبيرة التي حققتموها لتوكم... ان الامة العربية، حيثما كانت، تغمرها الفرحة الكبرى، والرضى الذي لا مثيل له بمناسبة هذه النجاحات الكبيرة". الشعب العربي... سيكون على ارتباط ببلادكم في اطار حلف صداقة وتعاون.

لا يمكننا التهرّب من المنطق المشوّه، والدائم فى غايته، الذي رسم لمنظمة التحرير الفلسطينية طريق الدم الذي سارت عليه بدءاً من الحلف الذي أبرمه الفتي مع هتلر بهدف

القضاء على الوطن القومي اليهودي، مروراً بالحلف الذي أبرمه الشقيري مع عبدالناصر بهدف القاء اسرائيل فى البحر، وانتهاءاً بالحلف الذي أبرمه عرفات مع صدام حسين بهدف احراق نصف إسرائيل، صحيح أن كل هذه الاحلاف، فشلت ولم تحقق اهدافها، غير أن ما تركته من الكراهية والحقد لا يزال قائماً ومستمراً.

في عام ١٩٩٣، زُفت الينا البشرى باختفاء هذا الارث "الكراهية" من العالم. فلدى عودة حكومة العمل الى الحكم، عام ١٩٩٢، جرت محادثات سرية، استمرت بضع اشهر، بين المنظمة واسرائيل في اوسلو، في النرويج. وتم خلال هذه المحادثات التوصل الى اعداد "اتفاق مبادئ"، نجم عنه اعتراف المنظمة باسرائيل، واعتراف اسرائيل بالمنظمة، كممثل للشعب الفلسطيني. وتعهد عرفات بالعمل من اجل الغاء بنود الميثاق الوطني الفلسطيني التي تدعو الى تدمير إسرائيل. بصورة رسمية. كما تعهد شخصيا بالتنديد بالارهاب، بتصريحات علنية، والعمل ضد فصائل المنظمة التي تواصل ممارسة الارهاب.. بموجب رسالتين مرفقتين الأول إلى وزير الخارجية النرويجي الوسيط بين الطرفين، يورغان هولست، والثانية إلى اسحق رابين).

وافقت إسرائيل، من جانبها، على تسوية تبدأ باخلاء مناطق غزة وأريحا، وتنتهي بانسحاب الجيش الاسرائيلي من كافة المناطق المأهولة بالسكان في الضفة الغربية وغزة وفي المقابل تقام "شرطة فلسطينية" تدخل الى المناطق التي يتم اخلاؤها، وتكون المسؤولة الوحيدة عن شؤون "الأمن الداخلي"، أي: محاربة الارهاب الذي يكون مصدر. المناطق الواقعة تحت سيطرتها. ولذلك، تنازل رئيس الحكومة، عمليا، عن حق "المطاردة الساخنة" من قبل الجيش الاسرائيلي داخل منطقة مسؤولية المنظمة- ذلك المبدأ الذي لم يسبق ابدا ان تنازلت اسرائيل عنه في أي مكان، بما في ذلك منطقة جنوب لبنان، التي يدخلها الجيش الاسرائيلي متى شاء وحسب مفهومه الخاص به.

اما منظمة التحرير الفلسطينية، فكان من المقرر بموجب التسوية أن تقيم خلال الفترة المرحلية اطاراً يدعى "الحكم الذاتي"، لكنه سيشمل في الواقع بنية الدولة الفلسطينية المستقبلية: مجلس تشريعي، سلطة قضائية وسلطة تنفينية، وكلها، بالطبع، برئاسة عرفات.

اوضحت حكومة اسرائيل أنها تفضل العمل يداً واحدة مع عرفات، ضد حركه حماس، ووافقت على أن تنتقل، عمليا مسؤولية حماية المواطنين الاسرائيليين من "الارهاب العربي"، الذي يكون مصدره الضفة الغربية وغزه من الجيش الاسرائيلي، الى منظمة التحرير الفلسطينية.

أما التسوية الدائمة، فقد تركت ظاهريا بدون حسم، ومفتوحة للتفاوض من جديد، لكن الجميع ادركوا، أنه بانسحاب الجيش الاسرائيلي واقامة البنية التحتية السياسية والعسكرية برئاسة منظمة التحرير الفلسطينية، تكون اسرائيل قد وضعت أسس قيام الدولة الفلسطينية، وفي حفل بهيج، جرى في البيت الأبيض، برئاسة الرئيس كلينتون، تصافح رابين مع عرفات وتم التوقيع على اتفاق المبادئ بين اسرائيل والمنظمة (اشترك في التوقيع ايضاً، شمعون بيرس وزير الخارجية، وابو مازن، من كبار رجال المنظمة).

في ذلك الموقف، منحت اسرائيل منظمة التحرير الفلسطينية الشرعية الدولية التي ظلت تتمناها طيلة الوقت، وحوّلت المنظمة الى دولة على الطريق، وعرفات الى رئيس دولة فلسطين. عندئذ، بدا لعدد كبير من الاسرائيليين أن حلم السلام المنشود اصبح على الأبواب. لكن هذا الاتفاق التاريخي " الذي كان مقررا أن يؤدي الى تقليص الاعمال الارهابية وارساء السلام بين اسرائيل والفلسطينيين، بدأ يتشقق منذ اليوم الأول لتوقيعه.

قبل أيام معدودة من التوقيع على "اتفاق المبادئ" أجرى عرفات مقابلة استوعبت جيداً في العالم العربي، شرح خلالها ماهية الاتفاق الذي يعتزم التوقيع عليه بقوله: "هذه هي الخطة التي وافقنا عليها، عام ١٩٧٤. سيكون اتفاق المبادئ، الأساس لاقامة الدولة الفلسطينية،

وفقا لقرار المجلس الوطني لعام ١٩٧٤". وفعلاً، لم يكن هنـاك أي تنـاقض بـين الاتفاقيـة الدبلوماسـية مـع اسرائيل بهدف اقامة الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة وبين خطة "مشروع المراحـل" لعـام١٩٧٤، الذي يقصد به تحويل هذه الدولة؛ في وقت لاحق، الى أداة لتدمير اسرائيل. وبعـد ايـام مـن التوقيـع عـلى اتفاق أوسلو كرر عرفات وجميع زعماء المنظمة القـول، علانيـة، أن هـدفهم النهـائي هـو دولـة فلـسطينية تكون عاصمتها القدس، وتطبيق حق العودة. وماذا، بالنسبة لتعهد عرفات بالتخلي عن فكـز القـضاء عـلى اسرائيل؟

في كتابه "الشرق الاوسط الجديد" الذي كُتب بسرعة غير عادية بغية اللحـاق بالأحـداث "التاريخيـة"، أكد شمعون بيرس، أن الشرط الأساسي لكل هذه العملية، هـو أن تغـيّر المنظمـة ميثـاق تأسيـسها.وهكـذا أيضاً.كان رأي رابين.وبالطبع،لايوجد هنالك طلب أكثر شرعية من هذا الطلـب. اذْ لم نـسمع في التـاريخ، أن دولة اجرت مفاوضات سلام مع منظمة، ظلت ملتزمة بالعمل على ابادتها (وتقدم لها تنازلات بعيدة المدى الى هذا الحد). غير انه، في غضون وقت قصير، اتـضح أن عرفـات لا يعتـزم عقـد مـؤتمر للمجلـس الـوطني الفلسطيني، لكي يحصل على الأغلبية المطلوبة لالغاء الميثاق، او. تعديله. والمثير للاستغراب، هر أن ما كـان قبل بضعة اسابيع، شرطا اساسيا لدى رابين وبيرس، أصبح بين عشية وضحاها، "أمـلاً لا قيمـة لـه "، "مجـرد كلام لا معنى له، يجب عدم التطرق اليه بجدية. وهذا يعني أن موضوع الميثاق يثقل على عرفات، ويجب ان نأخذ نجا بالحسبان هذه الصعوبات، على حد قول ناطقين رسـميين. أي ان الحكومـة التـي علّقـت كـل امالها على عرفات، تعمل الآن كل ما من شأنه التخفيف عليه".

وفي موضوع الإرهاب ايضاً،أعفت حكومة اسرائيل عرفات من التزاماته.

ففـي الـسنة الأولى التـي تلـت التوقيـع عـلى اتفـاق أوسـلو، قُتـل ٦٧ إسرائيليـا عـلى ايـدي رجـال حماس، وفصائل منظمة التحريـر الفلـسطينية المختلفـة، بيـنهم رجـال فـتح الـذين نفـذوا عمليـات قتـل، بمـا فيهـا "مذبحـة العفولـة". وكـان عـدد القـتلى هـذا، يزيـد عـلى ضـعفي العـدد في الـسنة التـي

سبقتها(٢٣ قتيلاً)، والمعدل السنوي لعدد القتلى الاسرائيليين البالغ(٢٤) قتيلاً، خلال الفترة مـن عـام ١٩٨٨-١٩٩٢، سنوات الانتفاضة. وبالطبع، لم يحرك عرفات ساكنا ضد القتلة، وبـشكل عـام، وفـض مجـرد التنديـد بهم وكاعمالهم.

كانت حكومة بوش، قد أوقفت، كما أسلفنا، المحادثات مـع منظمـة التحريربعـد أن خرقـت المنظمـة التزامات مماثلة، لكن رد الحكومة الاسرائيلية لم يكن كذلك. لقد جعلت من نفسها محاميا للمنظمة. فقـد أوضحت الحكومة الاسرائيلية، أن عرفات غير قادر على السيطرة على مختلف الفصائل، قبل أن يحصل على قوة تتكون من بضعة آلاف من المقاتلين المسلحين على شكل شرطة فلسطينية، ثم ادعت ان هذه الـشرطة بحاجة الى مزيد مـن الوقـت والوسـائل، لـكي تـستطيع تنظـيم نفـسها كـما يجـب (لقـد بـررت الحكومـة الاسرائيلية اقامة نواة الجيش الفلسطيني بما نصت عليه اتفاقيات كامـب ديفيـد. لكـن تلـك الاتفاقيـات لم تتطرق ابداً الى وجود شرطة فلسطينية تهتم بشؤون الأمن الداخلي وتكون بحجم جيش صغير، انماتحـدثت الاتفاقيات عن شرطة قوية، للقيام بالأعمال الشرطية العادية. في كامب ديفيد لم تتنازل الحكومة ابـداً عـن حقها في ملاحقة الارهاب في أي مكان. غير أن الحكومة اليـسارية وافقـت عـام ١٩٩٣، عـلى ادخـال جنـود جيش التحرير الفلسطيني ال المنطقة، وتزويدهم بطائرات هليوكبتر ومدرعات بغيـة مـصادرة هـذا الحـق من ايدي الجيش الاسرائيلي وايداعه بأيدي منظمة التحرير الفلسطينية).

ولا أهمية، كـما يبـدو، لحقيقـة ان عرفـات اثبـت قدرتـه عـلى معاقبـة كـل مـن اراد معاقبتـه خـلال الانتفاضة دون مثل هذا الجيش، وأن المتحدثين باسم المنظمة اوضحوا أنهم لن يعملوا ضـد حركـة حـماس بكل ما يتعلق باسرائيل، وانهم تعاونوا معها فى كثير من الحالات، ولا تصريحات، عباس زكي، الذي عينـه عرفـات مسؤولاً عن الأمن في المناطق، عندما أوضح أن انسحاب إسرائيل لن يجلب السلام حيث قال: إنه وقـف اطـلاق نار فقط، قبل المرحلة القادمة. وأضاف زكي: إننـي أؤيـد المحادثـات، لكنهـا ليـست الوسـيلة الوحيـدة. هـا هـم

الثوريون في الجزائر وفيتنام، كانوا يتفاوضون من أجل السلام، وفي نفس الوقت يحارسون. إن هذه المقارنة، مفهومة لدى الجميع. بما أن ثوار فيتنام الشمالية، كانوا يجرون محادثات سلام مع الولايات المتحدة، ولم يحيدوا قيد أُنملة عن هدفهم تحرير فيتنام كلها، وبما ان الجزائريين تفاوضوا مع الفرنسيين حتى تمكنوا من تحرير الجزائر كلها، كذلك تجري منظمة التحرير الفلسطينية محادثات سلام مع اسرائيل حتى تتمكن من تحرير فلسطين كلها.

كما أن خرق الاتفاق مرات عديدة من قبل المنظمة، وتصريحات ناطقيها الكثيرة، لم تكن قادرة على اخراج الحكومة الاسرائيلية عن المسار الذي حُدد من البداية بناء على الأماني، وليس على دراسة. صحيحة للواقع.

وبعد التدهور الشديد في الوضع الأمني، في انحاء اسرائيل، وتزايد اعمال قتل اليهود على ايدي فلسطينيين ترعاهم وتحميهم المنظمة في غزة، لم تستطع الحكومة الاسرائيلية تغيير سياستها ايضا. بل على العكس، فان التزامها بما تُسمى "عملية السلام" (التي تعني اقتلاع المستوطنات اليهودية تدريجيا، واقامة دولة بزعامة المنظمة ضمن حدود ١٩٤٧)، كان قوياً لدرجة أنها حاولت تسريع العملية بدلاًمن ابطائها.

لقد سنحت للحكومة فرصة ذهبية، في اعقاب المذبحة التي نفذها اسرائيلي وحيد، في الحرم الابراهيمي، وقتل خلالها ثلاثون من المصلين المسلمين. فقد أوقفت المنظمة المحادثات السلمية فوراً، ولكي تعيدها الى طاولة المباحثات وافقت الحكومة الاسرائيلية على تسريع اجراءات اقامة الشرطة الفلسطينية، ووضع مراقبين دوليين في الخليل، حتى أن وزراءها، اعلنوا عن استعدادهم لازالة أقدم مستوطنة يهودية في تاريخ الشعب اليهودي. ومفهوم، أن الحكومة لم تتقدم بطلبات مماثلة لمنظمة التحرير بعد المذابح التي ارتكبها العرب ضد اليهود بالسيارة الملغومة في العفولة، وانفجار الخضيرة، بعد مذبحة الحرم الابراهيمي ببضعة أسابيع فقط. وهكذا، انقلبت الأمور: مشكلة الأمن الحقيقية، والمحافظة على حياة اليهود، وضعتا جانباً، لتحل محلهما مشكلة أخرى، هي: حماية الفلسطينيين.

باستثناء مذبحة الخليل، وبعض الحوادث المتفرقة، لم يكن الفلسطينيون يواجهون أية أخطار. كان باستطاعتهم الدخول دون خوف الى أي مكان في اسرائيل، في حين لم يكن باستطاعة اليهود التجول في أي مكان دون الخوف من الاعتداء عليهم وبدلاً من المحافظة على حق اليهود بالاستيطان فى أي مكان من ارض اسرائيل، قامت حكومة يهودية، دعا معظم وزرائها لطرد اليهود من الخليل.

ودون أي اهتمام بمؤشرات الخطر، وبالسقوط الأمني الذي جاء في اعقاب اتفاق اوسلو، والتصريحات والتلميحات المتكررة من جانب منظمة التحرير الفلسطينية، الدّالة على ان الهدف النهائي للمنظمة لم يتغيّر، واصلت حكومة رابين الركض الى الأمام، وأخلت من جانب واحد مدينتي غز واريحا، ومكّنت بذلك عرفات من اقامة رأس جسر، لمواصلة اتساع الدولة الفلسطينية نحو القدس وخطوط عام ١٩٦٧.

لدى الانسحاب الاسرائيلي من أريحا، قال قائد قوات منظمة التحرير في المنطقة: في أريحا، خطونا الخطوة الأولى نحو القدس، التي ستعود الينا رغم التعنت الصهيوني. وبالفعل، أعلن عرفات، لدى وصوله الى غزة أنه يسعى لاقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس. ولم ينس، في هذه المناسبة، ارسال التحيات الى "اخوانه" في النقب والجليل، ويكون بذلك، قد أشار بوضوح، الى نواياه المعلنة بشان تحرير هذه المناطق أيضاً من الاحتلال الصهيوني، عندما يحين الوقت. ثم تلاه، فاروق القدومي في مقابلة مع اذاعة منظمة التحرير في آب ١٩٩٤، ازال خلالها أي مجال للشك يالنسبة للطريقة التي تفهم فيها المنظمة السلام مع دولة اسرائيل، حيث قال: أن الشعب الفلسطيني يعلم ان هناك دولة اقيمت نتيجة لإكراه تاريخي، ويجب ان ينتهي وجودها.

كانت ردود الحكومة الاسرائيلية على هذه التصريحات ضعيفة ومشوشة وأظهرت الرغبة لديها بتجاهل الحقائق. واعتمد هذا التجاهل، على ايمان اعمى، ساد الصحافة والحكومة في إسرائيل، بانه يمكن الاعتماد على منظمة التحرير الفلسطينية، كونها منظمة

معتدلة أساسا، وتطمع الى التعايش السلمي مع اسرائيل، وانه خلافا للتصريحات التي يطلقها زعماء المنظمة يومياً، ستكتفي بدولة في مناطق الضفة الغربية وغزة، ولن تطالب بالقدس، وحق العودة، وبقية فلسطين. اضف الى ذلك، أن الحكومة تحاول تجاهل حقيقة أن غزة، تحت سلطة المنظمة، ازدادت قوه وتمكن الارهاب المنطلق منها من ضرب اليهود في كل مكان، لا سيما في قلب القدس، وتل ابيب عام ١٩٩٤.

لقد كان واضحا، أن منظمة التحرير حتى لو اوقفت الارهاب مؤقتا، فلا بد أن تستأنفه على نطاق أوسع، في اللحظة التي ستتسلم فيها مسؤولية مناطق الضفة الغربية، وتقيم فيها دولة فلسطينية مستقلة. وكما قال عرفات في غزة، لرجال القوة/ ١٧ التابعة لحركة فتح، بينهم ابو هتلر. "بالدم، والنار، والعرق، سنحرر فلسطين، وعاصمتها القدس. وكي يؤكد بان المقصود هو فلسطين كلها، أكد عرفات بعد بضعة ايام، أن المقصود هو تطبيق مشروع المراحل لعام ١٩٧٤. في عام ١٩٧٤، اتخذنا قراراً بشأن اقامة السلطة الفلسطينية على اية ارض يتم تحريرها من الحكم الاسرائيلي، وسننفذ هذا القرار.

وكان عرفات قد أكد، قبل يوم واحد من هذا التصريح: سنقيم سلطة فلسطينية على اي جزء يتم تحريره من العدو الصهيوني. حققنا المرحلة الأولى من مشروع المراحل، لكن الطريق لا تزال طويلة وشاقة. سنواصل التقدم حتى نستطيع رفع العلم الفلسطيني على القدس، عاصمة دولتنا، فلسطين".

وقال أحد رجال عرفات،ويدعى أبو الفهد،وهو أحد قادة "خدمات الأمن" التابعة للمنظمة في اريحا، بكل بساطة: سنواصل النضال لتحرير القدس وحيفا وبيسان. وبعد بضعة اسابيع فقط، على الادلاء بهذه الأقوال، توجه عرفات إلى اسلو، لتسلّم جائزة نوبل للسلام.

سيأتي اليوم الذي يقف فيه المؤرخون مندهشين امام اللغز المحيّر وهو: كيف استطاع ارهابيون واستبداديون قتلوا مواطنين غربيين طيلة عشرات السنين، أن يخدعوا ويضللوا

الدول الديمقراطية ويجعلوها تفرض، من اجلهم، حصاراً على الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. والأغرب من ذلك، هو: كيف استطاع الطامحون لابادة دولة اليهود، الاستعانة بحكومة اسرائيل ذاتها، لتنفيذ مآربهم.

أن حلّ هذا اللغز، موجود في الاسطورة القديمة- اسطورة حصان طروادة. منظمة التحرير الفلسطينية، هي حصان طروادة العربي- الهدية التي يحاول العرب اقناع الغرب بقبولها منذ ما يزيد على عشرين عاما، لكي يرغم إسرائيل على ادخال هذه الهدية داخل ابوابها. أن الد عائيين العرب، يحاولون صبغ هديتهم بالوان الشرعية الزاهية الجميلة، وعبارات الحب تجاه الأفكار المقدسة الخاصة بالحرية، والعدل، والسلام. لكن هذه الهدية الملونةَ والمموهة جيداً، هدفها واحد، هو: اختراق سور الحماية الاسرائيلي، والرابطة على المرتفعات المشرفة على تل ابيب، ومن ثم التطبيق التدريجي لمشروع ابادة اسرائيل.

ان أية موافقة من جانب الدول الغربية او من جانب اسرائيل (العناوين الرئيسة، الاستقبالات الحارة مكانة المراقب في المؤسسات الدولية، السفارات، أية قطعة ارض تستطيع المنظمة وضع يدها عليها- كل هذه الأشياء، تخدم المنظمة وتقرّبها، خطوة بعد خطوة من تحقيق هدفها.

صحيح، أنه ربما يصعب على الكثيرين ان يتخيلوا كيف سيدمر المتطرفون العرب إسرائيل، مثلما دمّر اليونانيين طروادة عير أن الأمر لا يبدو بهذه الصعوبة، بالنسبة لمن يعرف ظروف وجود اسرائيل:

أن دولة منظمة التحرير الفلسطينية التي ستُزرع على بعد ١٥ كم من شواطئ تل ابيب، ستشكل خطراً مميتا على الدولة اليهودية- تماما، مثلما يؤكد عرفات. ان رضوخ العالم الغربي لمثل هذه المؤامرة، يعتبر فشلاً ذريعا، وقصوراً في الذاكرة والعدالة معا. إذ كم مضى من الوقت، منذ أن أمر عرفات بقتل أمريكيين واوروبيين؟

لكن الفشل الأكثر فداحة من هذا، هو فشل اسرائيل ذْاتها، ليس لأنها لم تمنع نمو مكانة "حصان طروادة" هذا فحسب، انما لأن اوساطا واسعة، داخل اسرائيل، مستعدة لقبول الأكاذيب، والاستسلام للخدعة التي تهدد بالخطر وجود الشعب اليهودي ودولته كلها. والآن لم يبق أمام الاسرائيليين الراغبين في الحياة خيار سوى البدء، ولو في هذا الموعد المتأخر، في شرح وتوضيح معنى السلام "الطروادي" الذي تعرضه منظمة التحرير الفلسطينية على إسرائيل.

يجب على هؤلاء الاسرائيليين أن يوضحوا نوع السلام الذي يعرضونه بدلاً من السلام الكاذب الذي تعرضه المنظمة التي تخدع العالم كله.

الفصل السادس
نوعان من السلام

في هذه المرحلة سنجد من القراء من يسأل نفسه، هل يمكن تحقيق سلام حقيقي فى الشرق الاوسط. فاذا كانت السياسة العربية تميل، في اساسها، الى العنف والكراهية، واذا كانت انظمة الحكم العربية غارقة في الصراع الداخلي المستمر حول مسألة شرعية حكمها، واذا كان المجتمع العربي يضيق بغير العرب والسلمين، واذا كانت الميول المعادية للغرب وللصهيونية متعمقة الى هذا الحد فى المجتمع العربي، كيف يمكن مجرد التفكير بسلام دائم بين العرب انفسهم، ناهيك عن سلام بين العرب واليهود؟

ممكن، وممكن ايضا، في ضوء ما عرضناه حتى الآن، ربما يستغرب القارىء هذا الاستنتاج القاطع، ولكن في حقيقة الامر، لا يوجد سبب للاستغراب، مثلما يوجد سبب اليأس.

بناء على اتفاقيات السلام بين اسرائيل وكل من مصر والاردن، وبناء على امكانية توسيع هذه الدائرة لتشمل دولا اخرى، يمكننا تحقيق سلام في الشرق الأوسط،ولكن في حالة معرفة أي نوع من السلام يمكن تحقيقه في هذه المنطقة. في بادىء الأمر، يجب أن ندرك انه يوجد في العالم نوعان من السلام: سلام بين دول ديمقراطية، وسلام مع دول دكتاتورية- وطابع كل واحد من هذين النوعين يختلف عن الآخر في غايته، وفقا للميول وطرق تصرف انظمة الحكم التي تتولى تطبيق هذا السلام.

اما النوع الاول، السلام بين الدول الديمقراطية، فهو السلام بمفهومه المألوف بين الدول الغربية: حدود مفتوحة، تجارة حرة سياحة، تعاون في مجال العلوم، والثقافة، والتربية، والمحافظة على البيئة، وتقييد الدعاية العادية، وعدم وجود تحصينات وقوات عسكرية على الحدود، وعدم وجود حالات تأهب واستعداد عسكري وتحضيرات للحرب، وفوق هذا كله- الامن المطلق السائد بين الدول التي لا توجد لدى أي منها نوايا بالوصول الى درجة

النزاع العسكري مع جارتها. مثل هذا، هو السلام السائد بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك. ومثل هذا، هو السلام السائد ايضا بين دول اوروبا الغربية التي يستطيع فيها الانسان الانتقال من دولة الى اخرى دون ان يشعر بذلك نهائياً، الا اذا حاول الشراء بنقوده (وهذه العلامة الفارقة بين هذه الدول، قد تزول اذا ما تم تداول عملة اوروبية موحدة، لكن هذا لا يعني عدم وجود نزاعات، وحتى نزاعات شديدة، بين هذه الدول. فهنذ كندا، مثلاً، تتهم الولايات المتحدة بتلويث غاباتها بامطار حامضية مصدرها المشاريع الصناعية الامريكية القريبة من الحدود. كما ان الولايات التحدة تواجه مشاكل صعبة تتمثل في تهريب المخدرات ومجموعات المهاجرين بطرق غير مشروعة من المكسيك الى اراضيها، ولعل مجرد اجراء استعراض سطحي فقط يمكننا من الاشارة الى وجود كثير من الخلافات بين هذه الدول، كما تعاني هذه الدول ايضا من وجود تعصب قومي، ونزاعات تاريخية لايزال آثارها النفسية قائمة حتى اليوم، وقد تتجدد في يوم من الايام. ولكن رغم كل هذا، لا شك بأن سلاماً حقيقياً يسود بين هذه الدول: واضح للجميع ان ايا من هذه الدول لا تعتزم شن حرب لتسوية هذه الخلافات، كما هو واضح للجميع ان سبب ذلك، لا يكمن فى ميزان القوى بين هذه الدول، او في الخوف من رد عسكري من جانب الدولة المجاورة. اذ لا شك في ان الدول القوية من بينها، تستطيع الحاق الهزيمة بالدول الضعيفة دون صعوبة. ان هذه الدول لا تستخدم القوة العسكرية، لسبب بسيط، هو أنها لا تفكر بذلك ابداً لان السلام بينها يستمد قوته من نظريات سياسية ونفسانية اعمق بكثير.

هناك ميزة واحدة لكافة الدول التي يسود بينها هذا النوع من السلام: جميعها دول ديمقراطية، ترفض قيمها استخدام القوة، الا في حالة استنفاذ كافة الامكانيات ففي القرن العشرين، اثبتت الدول الديمقراطية، انها لا ترغب في شن الحروب. وهذا لا يعني انها لم ترد على هجمات فعلية، او هجمات متوقعة، حتى انها خرجت لحرب شاملة، عندما دعت الحاجة لذلك، لكنها فعلت ذلك، بشكل عام، بحذر بالغ. فالولايات المتحدة، على سبيل المثال، لم تنضم الى الحرب العالمية الاولى الا في نهايتها عام ١٩١٧، ولم تنضم الى الحرب العالمية الثانية،

رغم الخطر الذي كان يتهددها من جانب هتلر، الا بعد أن هاجم اليابانيون الاسطول الأمريكي في بيرل هاربر. كما خرجت الولايات المتحدة لحرب الخليج، بعد أن اعتدى صدام حسين على الكويت فقط. وحدث هذا ايضاً بعد أشهر طويلةمن الحوار السياسي ومحاولات دبلوماسية مستمرة لتسوية النزاع بالطرق السلمية.

وفي حرب فيتنام، سادت الجمهور الأمريكي نظرة "ثنائية القيم" بالنسبة للسؤال، هل يجب أن نحارب؟ وفي نهاية الامر انسحبت الولايات المتحدة من فيتنام، نتيجة لمعارضة داخلية متزايدة وهناك نماذج اخرى مماثلة موجودة في تاريخ الدول الديمقراطية في اوروبا الغربية.

ومنذ انتهاء العصر الإستعماري، يصعب العثور على نماذج لأعمال عدوانيةمن جانب الامم الديمقراطية تجاه دول اخرى، الا في حالات الرد على استفزازات من جانب تلك الدول.

أن احد الاسباب لذلك، هو ان الدولة الديمقراطية التي ترغب في شن حرب،يجب ان تحظى بموافقة مواطنيها على ذلك، وهذه ليست بالمهمة السهلة. او ليس من السهل ان يصوت الاباء والامهات لصالح حكومة تعرض للخطر حياة ابنائهم في مغامرات عسكرية لا لزوم لها. لكن هناك سبباً اخر لعدم اقدام هذه الدول على الحرب، لا يقل اهمية عن السبب الاول، وهو ان التردد في الخروج إلى الحرب ينبع من ميول المجتمعات الديمقراطية الى الامتناع عن ممارسة العنف. فالنظام الديمقراطي يستخدم القوة، فقط، ضد من يخرج على القانون. وفي اطار القانون ،يوجد مجال واسع للنزاعات والمنافسات والصراعات السلمية.وكلما كان النزاع اشد، والخلافات اعمق، كلما زادت احتمالات حسم المسألة، موضوع الخلاف عن طريق اجراء انتخابات عامة.

بعبارة اخرى، ان الخلافات الشديدة في المجتمع الديمقراطي يتم حسمها من خلال بطاقات الناخبين، وليس بحراب البنادق. والنقطة الهامة هنا، ان النزاعات في المجتمعات الديمقراطية تحل دائما بالطرق السلمية، والا تعرضت الديمقراطية فيها للخطر من الداخل.

وبما ان الميول النفسية لتسوية النزاعات بالطرق السلمية متأصلة الى هذه الدرجة بوعي مواطني الدول الديمقراطية. فليس من الغريب ان تظهر هذه الميول تجاه اي نزاع يتطرقون اليه، بما في ذلك النزاعات الدولية. اي ان الدول الديمقواطية تميل دائما الى تسوية النزاعات الخارجية، بنفس الاسلوب التي تحل فيه النزاعات الداخلية بالحوار، بمحاولات الاقناع، بممارسة ضغوط مختلفة، وبحلول الوسط احيانا، ولكن ليس بالقوة، وعلى الاقل لا تكون القوة خيارها الاول ولا حتى الثاني أو الثالث. أن الميول لحل النزاعات الدولية بالطرق السلمية التي تتميز بها الحكومات الديمقراطية، هو على اية حال، نتيجة للقيود السياسية التي يفرضها عليها جمهور الناخبين لديها، ولنظريات اخلاقية مشتركة لعامة مواطني الدولة.

أن الرغبة فى تحقيق مثل هذا السلام- سلام الديمقراطيات- تشترك فيها كل الدول الغربية، ولكن لسوء الحظ لا توجد هذه الرغبة فى اماكن كثيرة من العالم.

في حقيقة الامر، بما أن انظمة الحكم الديمقراطية تطورت خلال المائتي سنة الاخيرة فقط، فان السلام المفروض من الداخل الذي مصدره خوف المواطنين من الحرب، يعتبر ظاهرة جديدة نسبيا فى تاريخ الشعوب. وتجدر الاشارة هنا، إلى انه حتى وقت قصير، كانت تحكم معظم دول العالم من قبل أنظمة حكم استبدادية. فالدكتاتوريون، لا يخضعون، بالطبع، لاية قيود أو ارهاصات، يتميز بها النظام الديمقراطي، فهم غير ملزمين بالتصرف بحذر، بسبب الظل الكابح، للانتخابات القادمة. اضف الى ذلك، أن الميل الطبيعي لدى الانظمة الدكتاتورية يتناقض، من اساسه، مع الانظمة الديمقراطية.

ان الأنظمة الدكتاتورية، شأنها شأن الأنظمة الديمقراطية تميل الى حل النزاعات الدولية بنفس الطريقة التي تحل فيها النزاعات الداخلية، الا انه في حالة الأنظمة الدكتاتورية، فان ميلها يؤدي بها الى استخدام القوة، وليس لردعها عن استخدام مثل هذه القوة كوسيلة لحل النزاع.

فالنظام الدكتاتوري، لا يعتمد استمراره على موافقة الشعب، بل على الإكراه العنيف، أو التهديد باستخدام العنف، لذا فالانظمة الدكتاتورية تميل، إلى استخدام هذا الاسلوب في

معالجة النزاعات الخارجية ايضاً. وهذا هو السبب الذي جعل الحروب الكبيرة، ومعظم الحروب الصغيرة، التي شهدها القرن العشرين، تندلع بمبادرات من قبل حكام مستبدين.

أن العلاقة بين شكل الحكم، وبين الميول للحرب والعدوان، تظهر للعيان عندما ندرس حالات دول انتقلت من نظام حكم ديمقراطي، إلى نظام دكتاتوري، ثم عادت لتصبح ديمقراطية. ليس بمحض الصدفة، انه عندما كانت هذه الدول تحكم من قبل رجال عسكريين، كانت تميل إلى المبادرة بالعمليات العسكريةَ، بهدف تحقيق طموحاتها القومية.

فالأرجنتينيون، على سبيل المثال ادعوا دائما أن جزر فوكلاند، تعود لهم، لكنهم خرجوا لاحتلال هذه الجزر بالقوة، عندما كانت الأرجنتين حاضعة لحكم جماعة عسكرية فقط، في حين وافقت الحكومة الديمقراطية التي جاءت خلفاً للحكومة العسكرية، على اجراء مفاوضات سياسية مع بريطانيا بهدف حل النزاع، او على الاقل، معالجته بالطرق السلمية. كما أن نظام الحكم الجنرالات في اليونان اشعل، عام ١٩٧٥، نار الحرب بين تركيا واليونان فى قبرص. ولم يتم حل النزاع بعد انتقال الحكم إلى ايدي حكومات ديمقراطية فى البلدين، الا أن خطره قد تقلص، الى درجة كبيرة وكذلك الصراع الدامي في نيكاراغوا وما حولها، الذي بدا كنزاع سرطاني لا نهاية له، توقف بين عشية وضحاها، تقريبا، بعد تشكيل حكومة ديمقراطية في مناغوا.

ربما كانت هنالك حالات تشذ عن هذا المفهوم، لكن القليل فق يمكن ان يخالفونا بشان المبدأ القائل: ان الدول الديمقراطية تميل الى السلام، بينما تميل الأنظمة الاستبدادية الى الحرب. ان الصعوبة التي تواجه الدول الديمقراطية،تتعلق ،على اية حال ،بمشكلة المحافظة على السلام، مقابل الأنظمة الاستبدادية، التي تعتبر طموحاتها للاحتلال والتوسع ظاهرة دائمة على الصعيد الدولي. وأن تاريخ القرنين الماضيين، يبرهن على انه من الممكن احلال السلام حتى فى مثل هذه الظروف ايضا.

صحيح أن انظمة الحكم الدكتاتورية ليس لديها القوى الداخلية التي تمنعها من الخروج الى الحرب، لكن يمكننا كبح ميولها العدواني من خلال وسائل مراقبة خارجية.

ان اشد الدكتاتوريين واعنفهم، يمكن ان يرتدع عن خوض الحرب اذا عرف، بوضوح، انه سيهزم فيها وان الهزيمة ستجعله يخسر قوة وشرفا، ومناطق، وحكماً، وربما حياته ايضا. هذه هي الفكرة الاوروبية المتمثلة بمبدأ "ميزان القوى" التي حظيت في عهد الرئيس الامريكي رونالد ريغان باسم "سلام من خلال القوة". غير أن الفكرة هي نفس الفكرة وهي صحيحة من أساسها: عندما تواجه خصما دكتاتوريا، احتفظ لنفسك بقوة كافية لردعه عن الخروج للحرب. وطالما بقيت تملك هذه القوة ستحصل، على الأقل، على سلام الردع، ولكن اذا اضعفت وسائل الدفاع لديك، او حتى نشأ انطباع بأنك ضعفت، فانك ستجر على نفسك حربا وليس سلاما. هذا هو الدرس الرئيس الذي استخلصه العالم الديمقراطي من غلطته المأساوية في النصف الاول من القرن العشرين، وهو الدرس الذي طبقته الدول الغربية بحرص شديد، في النصف الثاني من هذا القرن.

في مطلع هذا القرن، صعب على الدول الديمقراطية التمييز بين سلام الديمقراطيات، وسلام الردع، وجاءت الكوارث الكبرى التي شهدها هذا القرن، نتيجة لاخطاء التمييز هذه.

في عام ١٩٢٥، حاولت الدول الغربية جعل كل الدول العظمى العسكرية توقع، على وثيقة "كلبوغ-بريان" التي اعتبرت الحرب امراً غير مشروع الى الابد. وبعد التوقيع على الوثيقة كان هنالك من بين زعماء الدول الديمقراطية من امن حقاً بانه لم يعد بحاجة للاحتفاظ بقوات عسكرية، على امل ان يتصرف الدكتاتوريون على هذا النحو ايضاً. وفي حين، بدأت المانيا واليابان وايطاليا تنمي قواتها العسكرية، التي مكننها، فيما بعد، من غزو دول اخرى، ظلت الدرل الغربية متمسكة بسياستها حتى عشية الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من اكتشاف الوجه البشع للنازية، أضعفت الدول الديمقراطية نفسها، عن طريق

انتهاج سياسة المصالحة، التي منحت هتلر انتصارات عسكرية وسياسية الواحد تلو الاخر. كان كل انتصار يحققه هتلر، يعزز رأيه بأن الغرب لن يستطيع الوقوف في طريقه في الاختبار القادم، كما وفر له السيطرة على موارد ضخمة ساعدته على تقوية آلة الحرب لديه: عشر ملايين مواطن الماني، موقع استراتيجي في قلب اوروبا، وافر من الموارد الطبيعية، وصناعات متقدمة، بما فيها مصانع اسلحة، كلها كاملة وجاهز لخدمة الرايخ. ولكن الاهم من هذا كله، كانت المكاسب النفسية التي حققها هتلر من خلال الانتصارات التي حققها ضد اكبر الدول في العالم، دون اراقة قطرة دم واحدة، كانت باستطاعة هتلر عرض نفسه كبطل، رافع احلام وآمال الالمانيين المستعبدين، (وشعوب اخرى أيضاً، مثل العرب). أن صور البطل الذي لا يقهر هي التي جعلت هتلر لا يواجه اية معارضة أو مقاومة، وجردت خصومه في الداخل من قوة الوقوف في وجهه.

فقد افاد جنرالات المان في محاكمات نيرنبرغ، انه خلال الايام الأولى للحكم النازي، خططوا للاطاحة بهتلر خوفا من ان يقود المانيا الى الدمار. ولكن بعد الموجة الاولى للانتصارات التي حققها، ادركوا انهم لن يستطيعوا اقناع الشعب الالماني بوجهة نظرهم، وتخلوا مؤقتا عن فكرة الاطاحة به.

لدى سقوط نازية هتلر، وصعود شيوعية ستالين، قررت الدول الغربية عدم تكرار غلطتها. اذ سارعت الدول الديمقراطية الى اقامة حلف شمال الأطلسي (الناتو)، وهو حلف دفاع عسكري قوي ضد الشيوعية، التي كانت قد سيطرت على شرق اوروبا، والصين، واجزاء اخرى في اسيا. ولقد تعرضت سياسة الصد الأمريكية منذ عهد الرئيس ترومان، وحتى الرئيس ترومان، والتي طوقت الامبراطورية الشيوعية بسور من التحالفات الدفاعية، للانتقاد في حينه، ووصفت بانها متصلبة تستهدف اثارة الحروب وعقبة في طريق احلال السلام. لكن الحقيقة كانت عكس ذلك تماما. فقد كانت تلك التحالفات، وبخاصة حلف الناتو تمثل تكتلاً عسكريا وسياسيا للدول الديمقراطية، هدفه ردع الانظمة الدكتاتورية عن

القيام باعمال عدوانية. ويفضل الموقف الصلب الذي ابدته الولايات المتحدة والد ول الحليفة لها، وبفضل السياسة المتشددة التي اتبعتها في سنوات الخمسينات، توقف التوسع الشيوعي. وفي الستينات والسبعينات، اصبحت الحرب الباردة تمثل سلسلة من المصادمات والصراعات العقيمة حول مواطئ قدم في العالم الثالث. وادى الموقف الامريكي المتشدد، في الثمانينات، الى اقناع الزعامة السوفياتية، بضرورة التخلي عن احلامها في التغلب على العالم الغربي، وان لا خيار امامها سوى التوصل الى سلام معه. وفى نهاية المطاف، انهارت الامبراطورية السوفياتية، بعد ان لم تستطع الصمود في المنافسة الاقتصادية والتكنولوجية (وبضمنها- العسكرية) مع الدول الغربية، والعبرة من هذا واضحة وهي: ان من يرضخ لتهديدات الدكتاتوريين، يزيد فقط من احتمالات الحرب، وان الوقوف في وجههم بقوة لا يعتبر عقبة في وجه السلام، انما مانع للعدوان.

منذ انهيار الاتحاد السوفياتي، واقامة أنظمة حكم ديمقراطية فى الجمهوريات الاوروبية التي كانت جزءا من الكتلة السوفياتية، حل سلام الديمقراطيات مكان سلام الردع في العلاقات بين شرق اوروبا وغربها. وبعد حل حلف "وارسو"، بدا حلف الناتو ايضا بتغيير طابعه. اذ ترددت الانباء حول وجود نية لجعل هذا الحلف هيئة سياسية، أكثر منها عسكرية، وقد تنضم اليه في يوم ما، الجمهوريات الديمقراطية فى اوروبا الشرقية. اضف الى ذلك، ان جهود تقليص التسلح بين الولايات المتحدة وروسيا، اصبحت اكثر سرعة في اعقاب انهيار الشيوعية، لدرجة دفعت خبراء التسلح الى التفكير بوقف هذا الاندفاع. اذ ان روسيا التي كانت ذروة العملية الديمقراطية، لم تكن بحاجة الى حث، للتخلي عن قوتها العسكرية الزائدة، حتى أنها كانت معنية بتخفيض اسلحتها، وبادرت الى الاقتراح بشان الاسراع في عملية تقليص التسلح. ولم يكن مصادفة، ابطاء هذه العملية، الى درجة ما، لدى زياد- قوة القوى المعادية للديمقراطية في البرلمان الروسي في الانتخابات التي اجريت في روسيا عام ١٩٩٤. وليس مصادفة ايضا، مطالبة هذه القوى، بمناطق مختلفة حول روسيا وارسال تلميحات واضحة بشان نواياها فيما لو تسلمت السلطة.

أن هذا المبدأ نفسه، حدث لالمانيا، ولخاصة في علاقاتها مع فرنسا، عدوها الرئيس منذ مطلع القرن التاسع عشر. فخلال الفترة ما بين ١٨٠٦_١٩٤٥، خاضت المانيا وفرنسا، افظع حروب، كانت من افظع الحروب في تاريخ اوروبا. (حرب نابليون، حرب فرنسا- بروسيا، والحربان العالميتان الاولى والثانية). وسقط في هذه الحروب ملايين الالمان والفرنسيين. وكانت الحدود بين الدولتين محصنة ومحمية، ترابط فيها جيوش نظامية كبيرة مقابل بعضها البعض. وها هي اليوم، حدود مفتوحة، ولا توجد فيها اية حواجز ظاهرة للعيان.

في بعض الاحيان، يطرح هذا التطور، كدليل على امكانية التوصل الى سلام حتى بين اشد واقدم الاعداء لكنهم ينسون أن يطرحوا السؤال التالي: متى اصبح مثل هذا السلام ممكنا بين المانيا وفرنسا؟

لقد حدث هذا الامر، بعد ان قضي نهائياً على بقايا النظام الدكتاتوري في المانيا، النظام النازي، وحل مكانه نظام حكم ديمقراطي. وعلى الفور، توجهت المانيا وفرنسا لابرام سلام بينهما من النوع الثاني- سلام الديمقراطيات- واختفت من الحدود، التحصينات، والجنود والاسلحة، ويعد خمسين سنة من الحكم الديمقراطي في المانيا، لم تعد هذه الاشياء إلى مواقعها. واستطيع المراهنة، على أن هذا الوضع سيظل هكذا في المستقبل، طالا بقيت الديمقراطية في المانيا قرية وسليمة. ولكن إذا ضعفت المانيا، كما حدث بها في عهد جمهورية فايمر، الضعيفة والمترددة، فستزداد قوة التيارات المناهضة للديمقراطية، الأمر الذي سيهدد بالخطر سلام اوروبا والعالم كله، من جديد. والمانيا ليست النموذج الوحيد في هذا العالم. لقد سبق أن ذكرت روسيا، وهنالك الكثير من امثالها.

خلال القرن العشرين، عرفنا، على اية حال، ان هناك طريقين مختلفين في الغاية، لاحلال السلام بين الدول وادامته، وتتوقف ملاءمة هذين الاسلوبين مع الواقع، على طابع نظام الحكم نفسه، الذي نحاول ابرام السلام معه: مصالحة وتعاون مقابل ديمقراطية؟ وقوة وردع مقابل دكتاتورية. وهذا لا يعني انه من غير الممكن المزج بدرجة معينة بين هذين الاسلوبين،

مثلاً، استخدام اسلوب "العصا والجزرة" في التعامل مع الانظمة الدكتاتورية. لكن الاقوال التي نوردها هنا تتطرق الى مركز ثقل السياسة المطلوبة، والى الميزة الاساسية للاسلوب الذي يجب ان يكون مشمولاً ضمن اسس هذه السياسة. ففي اطار العلاقات بين الدول الديمقراطية، يمكن العمل من اجل تقوية كافة الدول في آن واحد، لأنه مع الأيام، سيتحسن مستوى التعاون بينها جميعا. وهذا هو الوضع السائد حاليا في امريكا الشمالية وغرب اوروبا، ومن المحتمل ان يتسع نطاقه قريباً ليشمل اجزاء اخرى من العالم. ان العلاقات الدولية في هذه المناطق تستعين كثيراً بمشاريع تعاونية، هدفها جلب الفائدة لكل دول المنطقة، وفي مثل هذه الظروف، تعتبر التنازلات والحلول الوسط، مؤشرات للنوايا الحسنة على صعيد. جميل يقابله جميل ولكن فى مواجهة انظمة دكتاتورية، يجب اتباع سياسة مختلفة تماما، لان سياسة تقديم التنازلات بعيدة المدى تجاه هذه الانظمة تحقق العكس تماما، لاسلوب المصالحات، وحلول الوسط، وتشجيع هذه الانظمة على المطالبة بالمزيد. لذا، ففي اطار العلاقات مع مثل هذه الانظمة، يمكن تحقيق السلام القائم على الردع، والطريق الوحيدة لتحقيقه، هي زيادة قوة الدول الديمقراطية واضعاف قوة الدول الدكتاتورية. وهذه هي خلاصة الصعوبة في صنع السلام في الشرق الاوسط: إسرائيل، هي الديمقراطية الوحيدة في المنطقة. اذ لم تجر في اية دولة عربية انتخابات حرة، ولا توجد صحافة حرة، ولا حقوق مواطنة حقيقية، ويطبق فيها حكم القانون حسب الفهوم التعارف عليه فى العالم الديمقراطي. لا توجد دولة عربية واحدة، تبدي ولو مؤشراً واحداً ضعيفا، لوجود ديمقراطية فيها. أن الاغلبية الحاسمة من هذه الدول، تسبح ضد تيار الليبرالية الذي يفرق اجزاء ذات اهمية في العالم، مثل دول شرق اوروبا، الجمهوريات السوفياتية سابقا، وأمريكا الوسطى والجنوبية. كما توجد هناك موشرات ملموسة للديمقراطية فى اجزاء من افريقيا، التي كانت حتى الآن حكراً على الانظمة الدكتاتورية، والتي من غير المتوقع اختفاؤها الى الابد. حتى أن دولاً مثل منغوليا، والبانيا، التي كانت اسماء مرادفة للدكتاتورية، والظلام، اجتازت عملية ليبرالية سريعة وتغيرت نهائياً. وهذا لا يعني أن كل هذه الدول ستجتاز العملية بنجاح، وربما تنزلق بعضها

من جديد الى الانظمة الدكتاتورية، لكـن اصرار معظـم العـالم العـربي عـلى رفـض مجـرد التفكـير، ولـشتى التطبيـق، بـأي نـوع مـن الديمقراطيـة في الوقـت الـذي يـشهد انتـشار الديمقراطيـة، يمثـل اشـارة تحـذير للديمقراطيين في الغرب. لذا عليهم أن يستخلصوا الاستنتاج المطلوب، وهو: أن ما يمكـن تحقيقـه فى الـشرق الاوسط، حتى الآن، هو السلام المبني على الردع، ولكن، حسب كـل المـؤشرات، يبـدو أن الـدول الغربيـة لم تستوعب هذا الاستنتاج. اذ ان الولايات المتحدة قامت بدور حاسم في الضغط على انظمة حكم دكتاتوريـة في امريكا اللاتينية، وعلى بعض الحكومـات فى افريقيـا، مثـل النظـام العنـصري في جنـوب افريقيـا، ونظـام موبوتو في زائير، في سبيل تطبيق اصلاحات ديمقراطية، غير ان مثل هذا الضغط لم يمـارس ابـداً عـلى العـالم العربي.

لماذا توقفت الحملة الديمقراطية عند حدود الصحراء. ان الغـربيين الـذين يـسعون لتحقيـق سـلام في الشرق الاوسط على غرار السلام الغربي، يتوجب عليهم ممارسة الـضغط عـلى الانظمـة العربيـة، مـن اجـل تطبيق اجراءات ليبرالية. ولا نقصد هنا مبادىء التعددية الحزبية، وحكم الاغلبية فقط، انما ارساء مفـاهيم اساسية ليست معروفة في العالم العربي، والتي تحمـي الديمقراطيـة، مثـل، حقـوق الفـرد، وحريـة التعبـير، والالتزام بتطبيق القانون.

ان كل هذه الامور، تتناقض تماماً مع الدعوات الكاذبة للديمقراطية التي يطلقها المتعصبون المتدينون، الذين سيكون اول عمل يقومون به في حالة توليهم السلطة، هو سحق هذه الحريات، مثلما فعلوا فى ايران والسودان، ومثلما عزموا عليه في الجزائر، لولا وقوف الجيش فى طريقهم ثمة، بالطبع، ادعاء معـروف وهـو ان العرب والديمقراطية لا ينسجمان ابداً. وهذا الادعاء، غير مقبـول لـدي. فـالمواطنون العـرب في إسرائيـل (وكذلك في الولايات المتحدة، مـثلاً) تبنـوا المعـايير الديمقراطيـة في الدولـة، وهـم يطبقونهـا في الانتخابـات للمجالس المحلية والكنيست، بكل النشاط الذي تمتاز به السياسة الاسرائيلية، وبـدون أيـة مظـاهر العنـف التـي يمتـاز بهـا العـالم العـربي. أن مـا نـستطيع قولـه بالتأكيـد، هـو انـه دون تـشجيع حثيـث ومنهجـي،

لا يمكن ان تتطور مثل هذه المعايير الديمقراطية في العالم العربي. لكن الدول الغربية غير مستعدة لممارسة مثل هذا الضغط لثلاثة اسباب:

* أولاً: يملك العرب معظم موارد النفط في العالم، والدول الديمقراطية، لا ترغب في الدخول في مجابهة مع مزودي اقتصادياتها بالوقود.

* ثانياً: تكتفي الدول الديمقراطية، في اطار سياستها المتساهلة تجاه الانظمة الدكتاتورية العربية، بان يقتصر مفهوم الديمقراطية على المعنى الضيق له والمتمثل بحكم الاغلبية (الذي ينقصه الدستور الذي يحمي حريه الفرد، ولشتمل على اجهزة التوازن والضبط)، بالاضافة الى الادعاء، الذي يبرر نفسه، بأن النظام الديمقراطي سيوصل التطرفين الاسلاميين الى السلطة، في عدد كبير من الدول العربية.

* ثالثاً: حتى لو حاولت الحكومات الغربية حشد قوتها في سبيل التغلب على هذين السببين (العائقين)، فان الموظفين (المستعربين) الذين لا زالوا مسيطرين على دوائر شؤون الشرق الاوسط في معظم وزارات الخارجية في العالم الغربي، سيجدون الطرق والوسائل لاحباط كل توجه يرمي الى ممارسة ضغط حقيقي باتجاه الليبرالية على العالم العربي.فاذا كان الغرب ،غير مستعد للضغط من اجل تطبيق الديمقراطية في العالم العربي، فان عليه على الاقل، ان يعزز قوة الردع التي تملكها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط- اي إسرائيل، والسعي لاضعاف قوة الانظمة الدكتاتورية في المنطقة. أن هذا الاسلوب، ينسجم تماما مع المبدأ الاساسي لمفهوم "سلام الردع ". الذي تبناه الغرب خلال السنوات الخمسين الماضية: الشدة تجاه الدكتاتوريين، وصداقة وود، تجاه الديمقراطيين.

غير انه عندما يتعلق الامر بمنطقتنا، يتلاشى الفرق بين هذين النوعين من السلام، وما يقوم به العالم الغربي هو العكس تماما: انه يضغط باستمرار على اسرائيل لحملها على تقديم تنازلات للدكتاتوريين، ويسارع لارضائهم ومهادنتهم بشتى الطرق الممكنة. وابرز نموذج

لهذا الاسلوب المتقلب، يتمثل في سلوك الدول الغربية تجاه صدام حسين، الذي اصرت الادارة الأمريكية على منحه ضمانات لقروض مالية، قبل أيام معدودة من غزو الكويت. وفي الحرب التي تلت الغزو، وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة لمحاربة السلاح الذي تلقته العراق من فرنسا ويريطانيا وايطاليا والنمسا، وتدمير تحصينات انشأتها شركة بلجيكية، وتزويد جنودها بواقيات من الغاز الذى زودته للعراق شركات المانية وسويسرية. فهل تعلمنا الدرس المطلوب بعد حرب الخليج؟

ليس، تماما، فقد اتضح أن الاسم السيء الذي ناله صدام حسين، دفع الان عدداً من المزودين الغربيين لبيع بضاعتهم الى دكتاتورريين آخرين، مثل سوريا، مقابل استعداد السوريين لتأييد الولايات المتحدة التي سفكت الدم الامريكي فى حربها ضد الخصم الدائم لسوريا- العراق. كما أن استعراضا سطحيا لتاريخ الشرق الاوسط، في السنوات الماضية، يكفي للاثبات بان العرب ينصاعون بحرص شديد لمبادىء "سلام الردع".

في عام ١٩٧٥،عندما كان شاه ايران، في ذروة قوته، وقع صدام حسين على اتفاقية عدم اعتداء مع ايران، لانه كان متأكداً من عدم قدرته على تحقيق شيء من العدوان. ولكن عندما سقط الشاه، وانهار جيشه القوي، مزق صدام حسين الاتفاقية، وهاجم ايران، بادئا بذلك الحرب العراقية- الايرانية الدامية. وبعد ثماني سنوات من الحرب، عندما ادرك ان ايران لن تهزم، طلب صدام ان يبرم معها اتفاقية سلام. غير ان ايران (البعيد عن الديمقراطية) اعتقدت ان لديها احتمالات للنصر، ورفضت وقف الحرب، وبعد ان تمكن صدام حسين من صد الهجوم المعاكس الايراني طلبت ايران ايضا انهاء الحرب، وعاد الطرفان لتطبيق مبدأ سلام الردع على طول الحدود الاصلية بين البلدين.

كما ان الكويت وقعت ضحية للعدوان العراقي، بسبب عدم قدرتها على الدفاع عن نفسها فقط. لكن العراق وسوريا، لم يسبق ان حاربا بعضهما البعض، بسبب خوفهما المتبادل.

اننا نستطيع كبح عدوانية الانظمة العربية الجارحة بطريقتين فقط هـما: بقـوة الـردع- واذا فـشل الـردع- بقوة السلاح. وفي هذه الحالة يمكن وقف عدوانهم اذا توفر من هـو اقـوى مـنهم ليجـردهم مـما احتلـوه. هكذا حـدث عنـدما غـزا الليبيـون تـشاد، وطـردهم الفرنـسيون مـن هنـاك عـام ١٩٨٥. أو عنـدما سـاعد البريطانيون، اليمنيين في صد الغزو المصري في مطلع الستينات. وهكذا حدث، كما هو معـروف، للعـراق في حرب الخليج. بعبارة اخرى، السلام في الشرق الاوسط، يعنـي الـسلام الـذي يتحقـق عـن طريـق الـردع، أو القوة ويعترف الغرب، الى درجة معينة، بذلك، عندما يحث على بيع كميـات كبـيرةمن الاسـلحة الى أنظمـة الحكم العربية التي تعتبر معتدلة. اذ يقول الزعماء الغربيون، يجب علينا تعزيز قـوة هـؤلاء المعتـدلين، في سبيل وقف الاطماع التوسعية لدى الانظمة المتطرفة. غير ان هـذه الـسياسة لا تنطـوي عـلى أي قـدر مـن الحقيقة، لأن كل الاسلحة الموجودة في العالم، لن تجعل من دول ضعيفة مثل الكويت والعربية الـسعودية، دولاً قادرة على صد عدوان من جانب دولة عظمى اقليمية مثل العراق، التي يبلغ حجم جيشها اكـثر مـن عشرين ضعف جيوش هذه ا لدول.

يمكن تسليح "المعتدلين من الرأس وحتى أخمص القدمين، ومع ذلك سيظلون دون "أسنان ". لقد اكتشفت هنه الحقيقة جيداً في حرب الخليج: بعد سنوات طويلة، حصلت فيها العربية السعودية والكويت، على أسـلحة بمليارات الدولارات من الولايات المتحدة وأوروبا، ولم تساعدهما هذه الأسلحة بشيء. وكـان التـدخل العـسكري المباشر من جانب الولايات المتحدة، فقط، هو الذي انقذهما من مخالب صدام حسين.

وفي المقابل، فان سياسة تزويد اسلحة غربية الى الأنظمـة العربيـة "المعتدلـة"،تخلـق ترسـانة ضخمة من الأسلحة المـدمرة ،يـستخدمها المتعـصبون في المـستقبل، الـذين قـد يطيحـون، في يـوم مـا، بالحكـام الحـاليين، عـلى غـرار مـا فعـل القـذافي بالملـك ادريـس، المـوالي للغـرب في ليبيـا، والخمينــي، بــشاه ايــران، والــشيخ حــسن الــترابي، بجعفــر النمــيري في الــسودان. وفي الآونــة الأخـيرة، هنـاك قلـق متزايـد لـدى الغـرب، مـن حـدوث اجـراء مماثـل في مـصر أيـضاَ، واعربـت

المخابرات الأمريكية عن خشيتها الشديدة بشأن قدرة الرئيس مبارك على التغلب على الأصوليين الإسلاميين في بلاده.

كما أن دكتاتوريين عرباًَ، يستطيعون الحصول على الأسلحة التي جمعها جيرانهم، بالسلب والنهب، مثلما فعل صدام حسين في الكويت، أو عن طريق ممارسة ضغوط مختلفة على جيرانهم لارغامهم على تسليمهم هذه الاسلحة.

ومن كل هذه الأمثلة، نستخلص استنتاجا واضحاً هو: أن الهدف الذي ترسل من أجله اليوم هذه الكميات الهائلة من الأسلحة الغربية، لن يكون، بالضرورة، الهدف النهائي لهذه الأسلحة غداً، وأن الهدف الذي من اجله تم شراء هذه الأسلحة اليوم، ربما لن يكون هو نفس الهدف الذي ستستخدم من أجله هذه الأسلحة في المستقبل.

أن النتيجة الأكيدة والوحيدة لتجميع هذه الأسلحة هي تعزيز ايمان اعداء اسرائيل بان الوسائل اللازمة لتدمير دولة اليهود موجودة فعلاً في العالم العربي. وكلما تلقت الدول العربية مزيداً من الأسلحة، كلما تعززت نظرية المتطرفين في العالم العربي، بان الشيء الوحيد الذي يؤخر انتصارهم على دولة إسرائيل، هو الانقسام السائد حاليا بين العرب أنفسهم.

كثيرون هم، العرب الذين يؤمنون بعدم قدرة اسرائيل على مواجهة القوة العسكرية المتعاظمة حالياً في الدول العربية. وان العنصر الوحيد المفقود لتحقيق الانتصار التاريخي على الصهيونية، لا يزال، حسب رأيهم، وجود حاكم قوي، يستطيع حشد كل هذه القوة بيديه واستخدامها.

إن السياسة الغربية المتمثلة في بيع كميات كبيرة من الاسلحة الحديثة، الى عناصر مختلفة في العالم العربي، من شأنها إغراء بعض الغامرين من امثال صدام حسين، للقيام بمحاولة توحيد العالم العربي بالقوة وتحقيق حلم صلاح الدين المتجدد. ونجد أن هذه السياسة الغربية تساعد، بصورة مباشرة، على اضعاف قوة الردع ضد الدكتاتوريين في الشرق الأوسط، وتضر بالجهود الرامية إلى احلال السلام في المنطقة.

يبرر أعداء اسرائيل، بوسائلهم الدعائية، السياسة الغربية الحالية، ويشيرون الى الطابع العدواني لاسرائيل، ويبرهنون على ذلك، بأنها حاربتهم أكثر من مرة منذ عام ١٩٤٨. ولكن من الصعب التصديق بأن اياً كان في العالم الغربي، يمكن أن يصدق هذا الادعاء الكاذب، وبخاصة في اعقاب حرب الخليج.

ففي كل ليلة، كانت المدن الاسرائيلية تتعرض لقصف الصواريخ العراقية، في حين دُفع بالمواطنين الاسرائيليين الى الاختباء في الغرف الامنة، خوفاً من هجوم كيماوي. كل هذا ولم يصدر عن اسرائيل أي استفزاز للعراق، ومع هذا، استجابت الحكومة الإسرائيلية لطلب الولايات المتحدة، ولم ترد على العدوان العراقي، لتجريد صدام حسين من كل ذريعة لإفشال المجهود الحربي للدول الحليفة لأمريكا.

ولكن، على الرغم من ادعاءات العرب الكاذبة، فيما يتعلق بعدوانية اسرائيل، قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل، مساعدات عسكرية سخيّة، منذ حرب الأيام الستة. وقد ساعدت هذه المساعدات الأمريكية كثيراً في مسيرة المصالحة بين العرب واسرائيل، لأنها أقنعت قسما كبيراً من العرب، بانهم لن يتمكنوا من القضاء على اسرائيل. وان تعزيز هذه النظرة وتعميقها لدى الأنظمة والمنظمات العربية، التي لم تستوعبها جيداً بعد، هي الطريق الوحيدة الحقيقية، لتحقيق سلام دائم بين اسرائيل والعرب.

لقد تطور هذا الفهوم بصورة بطيئة، ولكن مستمرة، في نظرة الدول العربية تجاه اسرائيل: في عام ١٩٤٨، اعتقد العرب انهم لن يواجهوا صعوبة في القضاء على ٦٠٠ الف يهودي مجمعين في قطاع أرضي ضيق بينهم، وفي عام ١٩٦٧، كان ذلك القطاع من الارض، سببا في اغرائهم لمهاجمة اسرائيل، حيث انضمت الاردن وسوريا لمصر، في محاولة لخنق اسرائيل. وفي اعقاب فشل محاولة الايام الستة، تحسّن وضع اسرائيل الاستراتيجي بصورة كبيرة جداً. فبفضل الحاجز الطبوغرافي المتمثل بجبال الضفة الغربية، خرجت التجمعات السكانية والمطارات الاسرائيلية عن دائرةخطر هجوم بري مفاجئ، قد تشنه الدول العربية عليها.

وعندما هاجمت مصر وسوريا اسرائيل عام ١٩٧٣، امتنع الملك الحسين عن الإنضمام اليهما. إذ كان يتبوجب عليه اجتياز غور الاردن وقتال اسرائيل على منحدرات جبال الضفة الغربية، الأمر الذي جعله يكتفي بارسال وفده الى هضبة الجولان للانضمام الى الجيش السوري هناك.

باستثناء مبادرة اسرائيل بالهجوم على مصر في حملة سيناء عام ١٩٥٦،يبرز لدينا توجه واضح: في عام ١٩٤٨، تعرضت اسرائيل للهجوم من قبل جيوش خمس دول عربية؛ وفي عام ١٩٦٧ ١، حاربتها ثلاثة جيوش عربية؟ وفي عام ٩٧٣ ١، هاجمتها دولتان عربيتان والثالثة اشتركت في الحرب في مراحلها الأخيرة فقط). وفي ١٩٨٢، عندما خرج الجيش الاسرائيلي لاجتثاث منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، دخلت الحرب مع اسرائيل دولة واحدة فقط، هي سوريا، ولكن في قطاع محدود فقط. وفي حرب الخليج عام ١٩٩١، هددت العراق باحراق نصف اسرائيل بصواريخها، لكنها لم تحاول شن حرب برية عليها.

لا شك انه يجب أن نرى في هذه المسيرة توجهاً مشجعات، ولكن علينا التعرف جيداً على اسبابها، لكي نضمن استمرارها، ولكي لا نتسبب خطأ بوقفها او عكسها. يجب علينا، في بادئ الامر، طرح السؤال المحدد التالي: ما هو السبب وراء تراجع عدد الدول العربية التي كانت مستعدة لمهاجمة اسرائيل؟

واضح أن هذا الأمر لم يحدث لان العالم العربي غيّر رايه بالنسبة لاسرائيل، وتحول فجأة الى مؤيد للصهيونية. فقد اثبتنا ان العداء للصهيونية متعمّق في المجتمع العربي ويصعب التخلص من هذا العداء بسهولة، وبالتاكيد، ليس دون مقابل اجتماعي وسياسي بعيد الاثر، وهذا لا يحدث، بالطبع، بين عشية وضحاها. على الرغم من ذلك ان استعداد الملك الحسين للانضمام للهجوم المصري والسوري على اسرائيل في عام ١٩٦٧، يتناقض بوضوح مع رفضه عمل ذلك بعد ست سنوات فقط. فقد اعتمد قرار الملك الحسين، هذه المرة على الوضع الذي كان ينتشر فيه جيشه لدى اندلاع الحرب. ففي عام ١٩٦٧، كان جيشه ينتشر الى الغرب من جبال الضفة الغربية، أما في عام ١٩٧٣، فكان ينتشر شرق هذه الجبال. وهذا الفرق لا يمكن ان يتجاهله الاّ مجنون، والملك الحسين عاقل بالطبع.

ويمكننا التكهن ايضا، أن نتائج حرب ١٩٧٣، اثّرت الى حد ما، على قرار انور السادات بشان ابرام معاهدة سلام مع اسرائيل. ركما كان السادات قد أعاد الاعتبار للكرامة العربية فقد وقف أمام اسرائيل مدة اسبوعين كاملين ولم يُهزم...)، وربما ايضا كانت لديه الفرصة للتحدث عن الانتصار المصري في تلك الحرب. لكن السادات عرف جيداً أنه رغم مفاجاته الطلقة لاسرائيل في يوم الغفران، ورغم الهزة الشديدة التي أصابت اسرائيل في اعقاب تلك المفاجأة، فقد قلب الجيش الاسرائيلي الأمور رأساً على عقب بعد مضي (١٨)يوماً فقط: لقد طوى الجيش الثالث المصري، ووقف على بعد ١٠١ كم عن القاهرة ولولا وقف اطلاق النار الذي فرضت الولايات المتحدة والأمم المتحدة، لما كانت هنالك أية قوة تمنع الجيش الاسرائيلي من الوصول الى العاصمة المصرية.

إن تناقص عدد الدول العربية المستعدة لمحاربة اسرائيل، باستمرار، يجسّد حقيقة اساسية في الواقع الشرق أوسطي هي: أن السلام بين اسرائيل وجاراتها، هو سلام ردع، وأن احتمال تحقيقه يرتبط بصورة مباشرة على قدرة اسرائيل في الردع. فكلما بدت إسرائيل أقوى، كلما أبدى العرب موافقتهم على ابرام سلام معها، وكلما أبدت ضعفا وترددآَ، كلما زادت احتمالات الحرب ضدها. ان ما نقوله، لا يدو الى الاستغراب، حيث ان هذه هي النظرية الكلاسيكية للردع. فقد امتنع الاتحاد السوفياتي عن مهاجمة الغرب، ليس من خلال تسليمه بوجوده، بل من خلال خوفه من نتائج الضربة المعاكسة التي سيتعرض لها.

ان احتمالات شن هجوم عربي شامل على اسرائيل، تقلّصت ليس بسبب ضعف الشعور بالعداء العربي تجاه اسرائيل، انما بسبب خوف العرب من هزيمة اخرى في الحرب. ان قوة الردع الاسرائيلية لا تحول دون خروج العرب لمحارلة اسرائيل، فحسب، انما ايضا دون خرقهم لوضع السلام معها. وهذا هو السبب وراء نزع السلاح من شبه جزيرة سيناء، في اطار اتفاق السلام المصري- الاسرائيلي. فشبه جزيرة سيناء، هي منطقة واسعة جدً، ونزعها من السلاح جاء كي تضمن اسرائيل أنه فيما لو صدف ان خرقت مصر اتفاق السلام، تكون

لديها المدة الكافية لتعبئة جيشها والشروع في هجوم معاكس، قبل ان تتمكن القوات المصرية من الوصول الى الحدود الاسرائيلية. اما في اِطار اتفاق السلام الثاني، مع الاردن، فقد ظلَت اسرائيل في مواقعها الدفاعية في غور الاردن وجبال الضفة الغربية، وبذلك، تكون قد احتفظت لنفسها بقدرة الردع، تجاه اية محاولة لخرق معاهدة السلام في المستقبل.

لذا، ففي الشرق الأوسط يعتبر الأمن (قوة الردع المعتمدة على قوة الحسم) هو العنصر الحيوي للسلام ولا بديل له: اذ ان السلام الذي لا يمكن الدفاع عنه، لن يصمد وقتا طويلا. لكن العلاقة بين الأمن والسلام، يتم عرضه بصورة معكوسة احيانا، وبخاصة عندما تكون اسرائيل هي المقصودة هناك من يقولون لنا باستمرار أن الأمن الحقيقي هو "السلام"، اي تحقيق وضع سلام رسمي بيننا وبين جيراننا.

ان أي انسان لا يمكن ان يفكّر بان يقول للكويت، مثلاً، ان أمنها منوط بالتوقيع على معاهدة سلام مع العراق، فقد كانت الكويت تملك مثل هذه المعاهدات، ولكن تبين أنها لا تساوي الورق الذي كُتبت عليه. فمنذ اللحظة التي اعتقدت فيها العراق انها قادرة على ابتلاع الكويت،. لم تنفع الكويتيين المعاهدات ولا التعهدات العراقية. ورغم ذلك، يوجد من يخلط بين السلام بين الديمقراطيات وبين "سلام الردع"، ويقولون لاسرائيل، أن عليها أن تأخذ على عاتقها بعض الاخطار الأمنية من اجل السلام. لان السلام، كما يقولون لنا، هو الأمن الحقيقي. لا يوجد تجسيد أفضل من هنا،"لوضع العجلة امام الحصان." وكما أسلفنا، فان السلام الممكن تحقيقه في الشرق الأوسط مع الدول الدكتاتورية، منوط قبل كل شيء بالأمن،. وليس العكس. فالسلام الرسمي بين اسرائيل وسوريا، على سبيل المثال، الذي يشتمل على معاهدة سلام، وفتح سفارات لا يضمن شيئا في حد ذاته، وبخاصة الأمن.

ان مثل هذا السلام، لا يمكن خرقه بعد توقيعه بفترة وجيزة اذا لم يكن مدعوما بالشروط الأساسية المتمثلة بردع سوريا عن شن حرب جديدة. فقد كانت هنالك سفارة عراقية في طهران، وسفارة ايرانية في بغداد، خلال سبع سنوات من ضمن ثمان استغرقتها الحرب

الدامية بينهما. كما أن اتفاقية عدم الاعتداء التي وقعها فى حينه صدام حسين وشاه ايران، لم تلغ رسميا ابداَ. لقد سبق أن قال هنري كيسنجر "ان كل الحروب تبدأ من حالة سلام". وهذا القول مناسب جداً للوضع القائم في الشرق الأوسط، الذي شهد تاريخه حالات لا تحصى من تمزيق معاهدات صداقة وسلام كانت مبرمة بين الدول العربية ذاتها، وان أيا من هذه المعاهدات لم تُحترم، ولم تمنع نضوب حرب عربية-عربية. لا يحق لنا، ونحن في أواخر القرن العشرين، ان نحاول إيجاد ذرائع للاستمرار في الخلط بين نوعي السلام. وهذا ينطبق بشكل خاص على الشعب اليهودي الذي عانى أكثر من أي شعب آخر، بسبب عدم قدرة الدول الديمقراطية على ادراك الفرق الأساسي بين النوعين.

انني أقترح على من لم يكتف بفلسفة السلام وانواعه، أن يفعل كما فعلت انا، حيث بحثت في قاموس انجليزي صدر مؤخراً عن دار النشر Collins عن معنى كلمة سلام، ووجدت أن لها معنيين هما:

١- حالة من الانسجام بين شعوب وجماعات.

٢- الوضع الذي لا تكون دائرة فيه حرب.

ليس هنالك تعريف ادق من هذا لنوعي السلام. فالسلام بين الدول الديمقراطية هو حالة انسجام بين شعوب وجماعات، تعتمد على قيم ثقافية مشتركة، يكون أمن كافة الأطراف معتمداً بوجودها على هذه الشراكة في القيم.

في حين أن سلام الدكتاتوريات، هو "سلام الردع"، وهو الوضع الذي لا تكون فيه حرب، حتى لو لم يسده أي انسجام، ولا امن، باستثناء الأمن الذي يعتمد على ردع المعتدى. وهنا هو السلام الوحيد الممكن تحقيقه حالياً بين اسرائيل والعرب، سلام مسلّح وحذر، يوفر لاسرائيل درجة كافية من القوة القادرة: على ردع الجانب العربي عن استئناف الحرب. حيث أنه حتى نوايا السلام الحقيقية اليوم، يمكن أن تتغيّر غداً، نتيجة للظروف او لاستبدال الحكام في الدول التي وقعت على سلام معنا. لا يحق لنا ابداً، أن نخلط بين السلام الذي يرتكز على

قوة الردع وبين السلام "الانسجامي" الذي يسود بين الديمقراطيات، لأن مثل هذا الخلط سيقودنا حتما إلى حرب جديدة ولهذا، فان الادعاء بان "الأمن الحقيقي" هو السلام هو قول باطل لا قيمة له؟ كما أنه قول خطير لأنه يخدع الجمهور الاسرائيلي بشان امكانية تحقيق سلام حقيقي مع العرب من خلال تقديم تنازلات كبيرة، في حين ستبقي مثل هذه التنازلات اسرائيل، في حقيقة الأمر، دون امن أو سلام.

هنالك طريقة نموذجية لتشويه الادعاء الاساسي الذي أوردته هنا، تتمثل بالقول انني أومن بان السلام ممكن فقط بين الدول الديمقراطية، ولهذا يجب عدم ابرام سلام مع العرب،طالما لم يقوموا بثورات ديمقراطية.لكن كل من قرأ هذا الفصل بتمعن، بعرف بأن هذه أقوال فارغة، هدفها صرف النظر عن الاستنتاج الخاص بوجود امكانية تحقيق سلام لا يرتكز بتنازلات خطيرة من جانب اسرائيل- سلام يرتكز على قوة ردع اسرائيلية دائمة، تعتمد على تعاظم مستمر لقوتها العسكرية. لقد احرزنا تقدماً، فعلياً، نحو مثل هذا الوضع، وما معاهدة السلام مع الاردن والاتفاقيات السياسية مع المغرب وعُمان ودول أخرى، سوى تعبير رسمي عن هذا التقدم. ومفهوم بحد ذاته أن مثل هذه الاتفاقيات لم تكن لتعقد مع اسرائيل ضعيفة. واذا توصل العرب في الجيل القادم إلى الاعتراف بان اسرائيل باقية في الشرق الأوسط الى الأبد، من المحتمل أن يطرأ تحول نفساني في موقفهم من حق اسرائيل بالوجود. إنني مؤمن بان العرب لن يظلوا يضربون الجدار برؤوسهم إلى الأبد. ولكن اذا شعروا ان جدار الأمن الاسرائيلي ينهار، واذا فقدت إسرائيل فجأة الثروة الحيوية للدفاع عن نفسها، فان التقدم التدريجي نحو السلام الاسرائيلي- العربي، الذي تحقق في السنوات الماضية، قد ينقلب بطرفة عين. وهذا هو الخطر الحقيقي الذي ينطوي عليه اتفاق سلام مع منظمة التحرير الفلسطينية، والاستعداد لتقديم تنازلات بعيدة الأثر في الجولان.

لقد وصف، ماكس نورداو، في احد مؤلفاته، تجربة مشهورة اجراها العالم الألماني، كارل اوغست ميبيوس، لمعرفة نظام العلاقات بين المفترس، والفريسة. وقد أجريت التجربة على

نوعين من السمك: "جرى تقسيم حوض ماء الى قسمين بواسطة حاجز زجاجي. ثم وضعت فى احد الأقسام سمكة من نوع كراكي، ووضعت فى القسم الثاني سمكة من نوع، الشبوط. ومنذ اللحظة التي شاهدت فيها سمكة الكراكي، فريستها، سارعت بالهجوم عليها، حيث لم ترى الحاجز الشفّاف. لذا اصطدمت به بقوة اعادتها الى الوراء، مندهشة، وخرطومها مجروح بصورة بليغة... وكررت السمكة هجومها عدة مرات، لكنها لم تنجح سوى في الحاق الضرر براسها وفمها.

ويضيف نورداوة.. أنه، شيئاً فشيئاً، بدأت سمكة الكراكي المفترسة تدرك. أن قوة خفيّة وغير معروفة تحمي سمكة الشبوط (الفريسة)، وان كل محاولاتها لافتراسها ذهبت هباء. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً توقف المفترس عن كل محاولاته لاصطياد الفريسة. عندئذ تم إخراج الحاجز الزحاجي من حوض الماء، وبدأت سمكتا الكراكي، والشبوط تسبحان معاً جنباً الى جنب... وان كل ما عرفته سمكة الكراكي، هو أنه محظور عليها مهاجمة الشبوط، لأن مصيرها سيكون سيئاً ومرّاً. وكان الحاجز الزجاجي الذي سبق أن كان موضوعاً في الماء، غلّف سمكة الشبوط بدرع صد الهجمات القاتلة التي شنتها عليه سمكة الكراكي.

وبغض النظر عن طبيعة الدوافع للـهجوم، لا مبرر لأي هجوم معروف أن مصيره الفشل. وهذه الحقيقة الأساسية تنطبق على بني البشر وعلى الأمم، ليس باقل مما تنطبق على الأسماك. وهذا هو بالضبط الادراك الذي بدأ يتعمّق شيئاً فشيئاً لدى الانظمة العربية، حتى اكثرها تطرفاً. بالنسبة لاسرائيل. ولكن لايزال من السابق لاوانه القول أن حقيقة وجود اسرائيل أصبحت مترسخة في الوعي العربي، لأنه إذا ما أزيل فجاة الحاجز الدفاعي الواقي لاسرائيل، ستعود لتصبح فوراً هدفاً للمفترسين المهاجمين. هذا الحاجز، نظام الدفاع الاسرائيلي، يتألف من عدة أسس هامة هي: الموارد البشرية، والطبيعية، المتوفرة لدى دولة إسرائيل، الثروات النفسانية والمادية التي تحميها، والحاجز الطبيعي الذي يفصل بين اسرائيل وبين الجيوش الضخمة في الجبهة الشرقية. هنا الحاجز هو الجدار الواقي للدولة، السور العالي المتمثل بجبال الضفة الغربية وهضبة الجولان. وسنتحدث في الفصل القادم عن الأهمية العسكرية لهذا الجدار.

الفصل السابع
الجدار الواقي

في ٦ تشرين اول ١٩٧٣، كنت طالباً جامعيا في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من "يوم الغفران" والمسافة الشاسعة التي تفصلنا عن اسرائيل، انتشرت الأخبار بسرعة لتضربنا باقصى قوة، في ساعات ما بعد الظهر. ماذا، ألم تسمع؟ اندلعت حرب. مصر وسوريا تهاجمان اسرائيل.

قام عدد من الطلاب الاسرائيليين الدارسين فى الجامعات الأمريكية، الذين كانوا ضباط احتياط فى الجيش الاسرائيلي بالتوجه فوراً الى مطار كندي في نيويورك، للاقلاع على أول طائرة متوجهة الى اسرائيل. لكن المهمة لم تكن سهلة. فقد تدفق رجال الاحتياط على مطار كندي من جميع انحاء الولايات المتحدة وكندا. واقلعت الجامبو الأولى بحمولة كاملة، ومن ثم بدأ التسابق للصعود الى الطائر الثانية. بذلت جهوداً كبيرة مستغلاً علاقاتي الشخصية. وأخيراً حصلت على مقعد في الطائرة. كانت الطائرة ملاى برجال الاحتياط من مختلف المهن، وكان من بينهم من كانت تلك آخر رحلة في حياته.

كنا واثقين من انه فى غضون بضعة أيام، اسبوع على الأكثر، ستنتهي الحرب بانتصار اسرائيلي ساحق. غير أن هذا لم يكن ما حدث فعلاً. فقد استطاع المصريون والسوريون تحقيق مكاسب فى بداية هجومهما المفاجئ اخترق الجيش السوري هضبة الجولان حتى اقتربت الدبابات السورية من جسر نهر الاردن، وعلى الجبهة الجنوبية اجتاز الجيش المصري قناة السويس، واخترق تحصينات خط بارليف، واخذ مواقع له شرق القناة. والاخطر من هذا، اتضح ان الجيشين كانا مزودين بصواريخ حديثة مضادة للطائرات وللدبابات، اوقعت بسلاحي الجو والدروع الاسرائيليين، خسائر مؤلمة جداً.

وفي إسرائيل، سادت حالة من التشويش والذهول. إذ مضى يومان بعد اندلاع الحرب، ولم يكن قد تـم الانتهاء من تجنيد كل قوات الاحتياط. وكانت جموع كبيرة من جنود الاحتياط ياتون من الخـارج يبحثـون عن وحداتهم. وعندما وصلت إلى وحدتي، تبين لي أنها موزعة على الجبهتين. شكلنا، على أية حال، قـوة مـن العائدين، تزودنا بناقلات جنود مدرعة وسيارات جيب، وتوجهنـا الى الجبهـة الجنوبيـة. ولـدى وصـولنا الى هناك كان قد تم صد الهجوم المصري بهجوم معاكس، الى ما وراء قناة السويس، كان من المقرر أن يبـدأ في غضون بضعة ايام، بقيادة ارئيل شارون، كانت مهمتنـا حمايـة القـوات المدرعـة لـيلاً، مـن هجـمات رجـال الكوماندوز المصريين الذين يتم انزالهم بطائرات هليوكبتر.

بعد الأيام الأولى للحرب، ساد الهدوء المشوب بالتوتر خطوط الجبهة التي شهدت كثـيراً مـن المعـارك. أما في هضبة الجولان، التي نُقلنا اليها بعد ذلك، فقد وجدنا وضعاً مماثلاً. فخـلال معـارك قاسـية، وضـحايا كثيرة، نجحت القوات الاسرائيلية في صد القوات السورية، التي كانت تفوقها عشرات الاضـعاف مـن حيـث العدد، وظلت متمسكة بمواقعها حتى وصلت قوات الاحتياط.

ارغمت قيادة الجيش الاسرائيلي في الجولان، على اخلاء موقعها في نفح، والانـسحاب الى منطقـة مفتوحـة، لان الدبابات السورية وصلت الى سياج القاعدة تقريباً. دبابات، اصيبت، واشتعلت النار فيها، وطواقم دبابات لم يصابوا، انتقلوا الى دبابات أخرى لمواصلة القتال. تم تدمير لواء كامل. وكان المكشوفون من ابراج الدبابات، وهم القادة، عادة، اكثر عرضة للاصابة. وكانت هناك وحدات، قُضي فيها على كل طاقم القيادة، واضطر ضباط صـغار لقيادة الوحدة. وانضمت الوحدات المصابة الى بقايا وحدات أخـرى، لمواصـلة القتـال. الجميـع، كـانوا يـشعرون بأنهم يحاربون من أجل الحيلولة دون.. تدمير الهيكل الثالث، حسب تعبير موشه دايان.

لقد وصف الجنود الذين نجوا من الحرب، شعورهم وهم يقـاتلون، بـانهم كـانوا يـشعرون أن مـصير الشعب اليهودي ملقى على كاهلهم إذا هُزموا هنا، سيضيع كل شيء.

بعد وصول قـوات الاحتيـاط، شرع الجـيش الاسرائـيلي بـالهجوم، وسرعـان مـا تغلغـل داخـل الأراضي السورية. وعلى الجبهة الجنوبية، اجتازت قوات مدرعة اسرائيلية قناة الـسويس، وطوّقـت الجـيش الثالـث المصري. عندئذ بدأ العرب يتوسلون للسوفيات والامريكيين بشأن العمل عـلى وقـف اطـلاق النـار. واخـيراً، وبعد انذار من مجلس الأمن الدولي، تحقق وقف إطلاق النار. وفي نهاية الحـرب، كـان الجـيش الاسرائـيلي يقف على مسافة ٤٠ كم من دمشق، و١٠١ كم من القاهرة.

لقد استطاع الجيش الاسرائيلى قلب الأمور رأسنا على عقب، ولكنه دفع ثمنا باهظا، بلغ (٢٥٥٢) قتيلاً، وهو اكبر عدد قتلى يلحق باسرائيل منذ حرب عام ١٩٤٨ كانت تلك الحرب درسا هاما للعرب والاسرائيليين على حد سواء: إستطاع العرب التقدم على الجبهتين لمسافة عشرات الكيلو مترات قبل وقف هجومهم. ولـو أن هذه الحرب اندلعت من خطوط الحدود عام ١٩٦٧، وتقدم العرب لهذه المـسافة، فمـن المحتمـل أن لا تكون اسرائيـل موجـودة الآن، إذ كـان باسـتطاعة المـصريين الوصـول الى مـداخل تـل ابيـب مـن الجنـوب، والاردنيين الذي لا شك بانهم كانوا سينضمون لمثل هذه الحرب سيصلون الى ساحل البحر ويقسمون بذلك اسرائيل الى قسمين، وكان السوريون سيصلون الى الجليل.

لقد نجح الجيش الاسرائيلي في انقاذ اسرائيل مـن الهزيمـة حتـى بعـد أن بـدأ العـرب حربـا في افـضل الظروف التي يمكن أن يتخيلوها لنفسهم. كما أن اسرائيل لم تتأهـب كـما يجـب، عـلى الـرغم مـن الانـذار الاستخباري. وكذلك الظروف السياسية، كانت لصالح العرب: رفعوا اسعار النفط واوقفوا تدفقه الى الغـرب الأمر الذي مكنهم من ممارسـة ضـغط دولي شـديد عـلى اسرائيـل.فقـد قطعـت عـشرات الـدول علاقاتهـا الدبلوماسية مع إسرائيل، لمدة تزيد على عشرين سنة. وخلال الحرب، عندما أرادت الولايات المتحـدة نقـل معدات عسكرية الى اسرائيل عن طريـق الجـو، لم تجـد ولـو دولـة أوروبيـة واحـدة توافـق عـلى الـسماح لطائرات التزويد الأمريكية بالهبوط فيهـا للتـزود بـالوقود،واخيراً وافقـت البرتغـال عـلى هبـوط الطـائرات الامريكية في اراضيها. ورغم هذه الميزات التي كانت لصالحهم، هُزم العرب خلال ثلاثة أسابيع.

أن حقيقة، تمتع العرب بهذه الميزات الكثيرة في الحرب، والتي لم يحققوا فيها سوى مكاسب ضئيلة، كان لها دور حاسم فى قرار انور السادات، الشروع في مفاوضات سلام مع إسرائيل. وفعلاً، انتهت العملية التي بدأت بحرب "يوم الغفران "، في كامب ديفيد في عام ١٩٧٨ فى اطار اتفاقية السلام الاسرائيلية- المصرية عام ١٩٧٩- أول اتفاقية سلام من نوعها بين اسرائيل ودولة عربية. وعلى الرغم من اعادة سيناء إلى مصر، أتفق على أن تبقى شبه الجزيرة منزوعة السلاح، وان لا يدخل الجيش المصري الى شرق القناة (سوى قوة صغيرة). كما تم تشكيل قوة مراقبة فعّالة اشتملت على قوة مراقبين متعددي الجنسيات، بهدف ضمان بقاء سيناء منزوعة السلاح.

أن مساحة شبه جزيرة سيناء، كبيرة جداً، (تصل الى ضعفي مساحة اسرائيل داحل حدود عام ١٩٦٧، والضفة الغربية معا)، بحيث تتوفر لاسرائيل، في حالة أي خرق لاتفاقية نزع السلاح، الفرصة والوقت لمواجهة أي هجوم مصري، قبل ان تتمكن القوات المصرية من الوصول الى مشارف النقب. ولفضل هذا الحاجز الواسع المتمثل بصحراء سيناء، كان من السهل نسبيا تحقيق مثل هذه الظروف، على طول الحدود مع مصر.

يتوفر على الجبهة المصرية، على أية حال، الشرط الأساسي المطلوب لمعاهدة سلام بين اسرائيل ودولة عربية: امكانية مناسبة لاسرائيل للدفاع عن نفسها في حالة خرق المعاهدة. غير أنه على بقية الجبهات، من الصعب جداً توفير ظروف كهذه. فالجبهة الشرقية تشمل، اولا وقبل كل شيء، سوريا والعراق، الدولتين العسكريتين العربيتين الكبيرتين، اللتين رغم ما بينهما من خصومة، تعاونتا في السابق في الحروب ضد اسرائيل. ويجب ان ناخذ بالحسبان أيضا، العربية السعودية، التي قد تضع ترسانتها من الاسلحة، في ظروف معينة، في خدمة حرب مستقبلية. كما اسلفنا استبعاد امكانية دخيول الاردن الى دائرة الحرب، مثلما أن معاهدة سلام مع سوريا، ليست ضمانا لعدم خرقها في المستقبل.

ولكي ندرك الشروط الواجب توفرها لأدامة سلام مع الجبهة الشرقية هذه، يجب أن نتعرّف على مكونات نظام الدفاع العسكري الاسرائيلي:

أن قدر ةاسرائيل على الردع، تعتمد على ثلاثة عناصر رئيسة: قوتها العسكرية، مقابل القوة العسكرية العربية ؛ المدةّ الزمنية للانذار المبكر المتوفرة لديها لتمكينها من تجنيد قوات الاحتياط لديها، والحد الادنى من المساحة المطلوبة للجيش الاسرائيلي كي يستطيع الانتشار لمواجهة أي خطر محتمل.

أن تفوق العرب على إسرائيل من حيث القوة العسكرية، في التسليح والوسائل القتالية، أخذ بالتزايد منذ سنوات. فمنذ حرب يوم الغفران، أنفق العرب ما يزيد على (١٥٠) مليار دولار على شراء الاسلحة وانشاء المنشآت العسكرية. فالعربية السعودية وحدها، تخصص لجيشها سنويا مبلغا من المال، يضاهي ما تنفقه دولة عظمى على جيشها مثل بريطانيا. اما الجيش السوري فيملك الآن دبابات يزيد عددها على تلك التي كانت بحوزة المانيا عندما غزت روسيا. صحيح أن اسرائيل تتفوق على العرب من حيث النوعية، وكخاصة في مجالات التدريب وتاهيل الجيش، غير ان الكميات الهائلة من الأسلحة التي تتدفق على الدول العربية، من شأنها تغيير ميزان القوة بسرعة، بحيث تصبح كميات الاسلحة الزائدة لدى العرب، جزءاً من التفوق النوعي ايضا. كما ان القوة العسكرية، لها علاقة بحجم السكان. ففي عام ١٩٩٣، بلغ عدد سكان اسرائيل حوالي (٥) ملايين نسمة، مقابل ٣٢ مليون نسمة فى سوريا والعراق، الدولتين الرئيستين اللتين تشكلان الجبهة الشرقيةَ. وهذه الميزة تمكن الدول العربية من الاحتفاظ بجيوش نظامية كبيرة، خلافا لاسرائيل التي يتكوّن معظم جيشها من رجال الاحتياط الذين يتطلب الأمر تعبئتهم للحرب. لذا، فالدفاع الاسرائيلي يتطلب رداً على هجوم يكون فيه الجيش الاسرائيلي منذ البداية أقل عدداً بنسبة ١: ٥ أو ١: ٧، مقابل الجيوش العربية.

وهذه الفجوة الكبيرة لصالح العرب، في مجالي السلاح والطاقة البشرية، التي لايمكن، لإسرائيل تغطيتها ،تزيد من أهمية العنصرين الآخرين من عناصر الأمن الاسرائيلي.

فالمدة الزمنية للانذار المبكر، تعتبر شرطا ضروريا لبقاء اسرائيل. ان اسرائيل بحاجة ماسّة الى وقت كافٍ لتعبئة جنود الاحتياط الذين يشكلون القوة الرئيسة في الجيش. وهذه التعبئة، تتطلب استدعاء مواطنين من بيوتهم في جميع أنحاء الدولة، وتجميعهم في وحداتهم، وتزويدهم بالاسلحة والمعدات العسكرية الأخرى، توجيههم ومن ثم نقلهم الى خطوط الجبهة.

ان تجنيد مئات الالاف من الجنود الاحتياط في وقت واحد، يعتبر مهمة صعبة جداً، لا يمكن، باى حال من الأحوال، تنفيذها باقل من ٤٨- ٧٢ ساعة. الا توجد لدى سوريا مشكلة مماثلة، حيث ان جيشها النظامي يعادل من حيث الحجم قوة الاحتياط الاسرائيلية بأكملها، وربما يكون منتشراً في المنطقة، وليس بحاجة الا الى بضع ساعات فقط للخروج الى الحرب).

وحتى يتم الانتهاء من عملية تعبئة الاحتياط، تكون مسؤولية المحافظة على بقاء إسرائيل، ملقاة على كاهل القوات النظامية المرابطة على خطوط الجبهة. وإذا فشلت هذه القوة النظامية في الاحتفاظ بهذه الخطوط حيثما يتم الحاق قوات الاحتياط، فقط تصل الحرب بسرعة كبيرة الى المستوطنات والمدن الكبيرة فى إسرائيل.

والأخطر من هذا، هو المجال الجوي. فالطائرة المقاتلة التي تقلع عن مطار عسكري في غرب العراق، أو سوريا تحتاج ما بين ٥- ١٠ دقائق فقط للوصول الى التجمعات السكانية في اسرائيل، وأقل مدة زمنية مطلوبة لاقلاع طائرة معترضة لمواجهة طائرة مهاجمة، هي ثلاث دقائق، وهذا أيضا اذا كانت الطائرة المعترضة في حالة تاهب قصوى على مدرج المطار. بعبارة أخرى، بدون انذار مسبق، قد تتعرض المدن الاسرائيلية والمطارات فيها للقصف الجوي دون أي مقاومة. والدليل على حدوث مثل هذه الامكانية، هو أن اسرائيل وجدت نفسها في حرب الخليج، مضطرة للاحتفاظ بجزء من سلاحها الجوي، محلقاً في الجو. فقد كانت الطائرات

المقاتلة تحلق في سماء اسرائيل ليلاً نهاراً طيلة فترة حرب الخليج. وقد تمكنت اسرائيل من اتخاذ هذا الاجراء لان الأمريكيين أبلغونا سلفاً بموعد بدء الحرب.

لذا، فان هذا المستوى من التاهب، غير ممكن ضد هجوم مفاجئ، الامر الذي يجعل سلاح الجو الاسرائيلي بحاجة إلى انظمة مراقبة الكترونية، تمكنه من توفير دقائق ثمينة، في حالة استعداد الطيارين لمواجهة هجوم كهذا.

لكم هي مهمة محطات الانذار المبكر التي أقامتها اسرائيل على قمم جبال نابلس وهضبة الجولان. فقد اقيمت هذه القواعد على ارتفاعات توفر امكانية مراقبة تحركات الجيش السوري، وكل جيش عربي يتحرك داخل الاراضي الاردنية، وكذلك النشاطات الجوية في هاتين الدولتين. ولو أن دولة معادية نجحت في السيطرة على هذه الرتفعات، لأصبح الوضع معكوساً: سيكون باستطاعة العرب مراقبة كل ما يجري على السهل الساحلي والجليل، ولأصبحت اسرائيل عمياء وفاقدة لجزء كبير من قدرتها على تحقيق الانذار المبكر. لذا فان لهذه المحطات، اهمية حاسمة، ولا بديل لها. في حالة الاستعداد لمواجهة هجوم عراقي أو سوري. ولو كانت هذه الواقع في جبال نابلس والجولان، بايدي العرب، خلال حرب الخليج، لكانت محطات الانذار هذه تزود صدام حسين بكل ما يجري في الجيش الاسرائيلي، (ان الاردن نقلت الى العراق معلومات استخبارية بصورة دائمة طيلة أيام الحرب).

صحيح أن امكانيات المراقبة بواسطة الأقمار الاصطناعية والطائرات قدتحسنت كثيراً، غير أن هذه الوسائل الاستخبارية معرضة لتقلبات الجو،والأعطال، وصعوبة الصيانة، بالاضافة الى أثمانها المرتفعة. كما أن العدو قد يسقط الطائرات التي تحمل أجهزة الانذار المبكر. لذا، لا زالت اسرائيل لا تجد بديلاً عن قمة مرتفعة كمصدر للحصول على معلومات استخبارية.

ان أحد اهم الثروات المتوفرة لدى الجيش الاسرائيلي خلال الساعات الـ (٧٢) الأولى الحاسمة في الحرب، هي المجال الارضي. فالجيش الاسرائيلي بحاجة إلى مساحة جغرافية

تمكنه من الاستعداد على صعيدي الطاقة البشرية والسلاح، بعد اندلاع الحرب. ولهذا، فان الجيش الاسرائيلي المضطر حاليا لضغط نفسه داخل الحدود الحالية لاسرائيل، لن يستطيع الانتشار بفعالية فيما لو حُرم من مناطق الانتشار المتوفرة في الضفة الغربية، وكنتيجة لهذا سيجد نفسه مضطراً للانتشار في شوارع القدس ومداخل تل ابيب. والأسوا من هذا هو أن كل مناطق التجمع والانتشار للجيش ستكون ضمن مدى قذائف مدفعية. العدو التي تستطيع اطلاقها من جبال الضفة الغربية ،الأمر الذي يؤدي الى تشويش خطير في شبكة التجنيد باسرها.

إن سور الضفة الغربية، الحاجز الطبيعي، الذي يحمي السهل الساحلي من أي هجوم، لا يحمي بصورة مباشرة سكان اسرائيل الذين يعيشون على الساحل فحسب، إنما يمنع الجيش الاسرائيلي الوقت المطلوب، لنقل قوات الاحتياط الى الجبهة.

إن الشيء الأهم الذي ينبغي أخذه بعين الاعتبار، لدى الحديث عن منطقة عازلة عسكرية هو: مسافة تمنع الوقت. فالمسافة التي سيضطر العدو لقطعها، قبل ان يتغلغل داخل المناطق الاسرائيلية المأهولة بالسكان، ويلحق بها خسائرفادحة، تساوي من حيث القيمة والأهمية، الوقت اللازم لتجنيد قوات الاحتياط الاسرائيلية. وكلما اتسعت المنطقة التي سيضطر العدو لاجتيازها ازدادت احتمالات نجاح الجيش الاسرائيلي في وقف تقدم العدو، من خطر الهجمات الجوية والبرية والحصول على وقت ثمين لتعبئة الاحتياط، والساحة التي توفر امكانية استخدام تكتيك الاعاقة، تسمى "العمق الاستراتيجي".

لقد وضعت قوات "الناتو" فى المانيا خطة الدفاع عن المانيا في وجه التهديد السوفياتي، على اساس عمق استراتيجي يبلغ ٢٣٠ كيلو متراً، وذلك في مواجهة عدد الدبابات التي كانت تحت تصرف حلف وارسو، والتي كانت مماثلة تقريبا لعدد الدبابات في الجبهة الشرقية لاسرائيل. لا نستطيع القول أن مناطق الضفة الغريية، تمنع اسرائيل مثل هذا العمق

الاستراتيجي، لكنه توفر شيئا ما، ودون هذا الشيء، سيكون وضع اسرائيل خطيراً، حيـث أن منـاطق الـضفة الغربية لا تمنح اسرائيل عمقا استراتيجيا فقط، بل تمنحها ارتفاعا استراتيجيا أيضا.

ان الطبوغرافية الجبلية لجبال الضفة الغربية. تتلاءم جيداً مع عمليات الاعاقة المطلوبـة للـدفاع عـن اسرائيل. فهذه السلسلة الجبلية تشكل عائقا يصعب جداً اجتيازه بالنسبة للمهاجم من جهة الـشرق. اذ ان القوة المهاجمة ستدخل إلى مناطق الضفة الغربية عن طريق غور الاردن، الأكثر انخفاضا في العـالم، (يزيـد على ٣٠٠ م تحت سطح البحر). ومن هناك ستضطر القوة المهاجمة لتسلق هـذه المرتفعـات الـصعبة مـن خلال القتال. وهذه المنطقة غير قابلة تقريبا للاجتياز بالـدبابات الآليـات الثقيلـة الأخـرى، مـا عـدا بعـض المحاور الصعبة والملتوية. وأن أي نظام الكتروني، مهما كان حديثاً، لن يستطيع أن يحل محل جـدار جـبلي يزيد ارتفاعه على الف متر، كحاجز أمام قوة مهاجمة.

عندما انسحبت اسرائيل من سيناء، أخذت على عاتقها أخطاراً لا باس بهـا، لكنهـا ليـست كتلـك التـي تهدد وجودها بالذات. فاذا خرق المـصريون معاهـدة الـسلام، وادخلـوا قـوات عـسكرية كبـيرة إلى سـيناء، سيكونون بحاجة الى عدة أيام لاجتياز مسافة ٢٠٠ كم الفاصلة بين قناة السويس، ونتـسانا. وفي المقابـل، لا تزيد المسافة بين جبال الضفة الغربية والبحـر المتوسـط عـلى ١٥ كـم. فـاذا انـسحبت اسرائيـل مـن هـذه المناطق، سيكون بمقدور قوات معادية اجتياز هذه السافة، في غضون بضع ساعات.

يجد الأمريكيون والاوروبيون صعوبة في حقيقة كم هـي اسرائيـل صـغيرة، ومـاهي الاخطـار العـسكرية التـي تهـددها. واعتقـد أن هـذه الـصعوية، تنبـع، إلى درجـة مـا، مـن الانتـصارات الرائعـة التـي حققتهـا اسرائيـل في حروبهـا مـع العـرب، ويبـدو أن هـذه الانتـصارات تجعلهـم ينــسون حقيقــة ان اول هزيمــة تلحــق باسرائيــل ســتكون الأخــيرة أيــضا. عــلاوة عــلى ذلــك،

وكما ان الكثيرين في العالم الغربي يجهلون الواقع الجغرافي والطبوغرافي لاسرائيل. يصعب عليهم الادراك بان وضع اسرائيل المتفوق ضد العرب، قد يتغيّر دفعة واحدة، الى الأسوا بكثير، في حالة تحريك خط الحدود الاسرائيلي بضعة كيلو مترات هزيلة فقط. كيف يمكن تفسير حقيقة ان الوضع الجغرافي لواحدة من أكثر الدول عرضا في وسائل الاعلام العالمية غير معروفة لملايين من بني البشر؟

خلاصة القول، ان خارطة إسرائيل، تظهر دائما من خلال نشرات الاخبار، عبر شاشات التلفزيون في دول كثيرة لكن المشكلة تكمن هنا: يتم عرض الخارطة هناك، دون مقاييس رسم، وفي اغلب الأحيان يتم ابراز اسرائيل والمناطق المحتلة في الضفة الغربية. ولا يخطر ببال المشاهد أبداً، أن ما يظهر امامه هي منطقة لا يزيد عرضها عن حوالى ٥٠ كم، ويعتقد، لسذاجته، بان هذه مساحة ارض معقولة، مثل "الضفة الغربية" لنهر المسيسبي، مثلاً، التي تمتد على مساعة ١٦٠٠ كم.ويبدي الأميكيون الذين يكثرون من زيارة اسرائيل دهشتهم لصغر حجمها.

وفي حرب الخليج فقط، عندما عُرضت على شاشات التلفزيون، خرائط العراق والمنطقة كلها، وبدت اسرائيل بحجمها الصغير الحقيقي، اعرب كثير من المشاهدين عن دهشتهم. لكن، حتى في ذلك الوقت، لم يكن الأمر كافيا لاقناع الرأي العام الغربي بمدى صغر حجم اسرائيل، قياسا بالعالم العربي.

أن مساحة الدول العربية، اكبر بكثير من مساحة الولايات المتحدة كلها. واسرائيل داخل حدود عام ١٩٦٧، هي أصغر من مساحة ولاية ميرلاند، وأن مساحة الضفة الغربية، لا تزيد على ربع مساحة هذه الولاية الصغيرة في الولايات المتحدة. وبعبارة اخرى، لو تخيلنا العالم العربي، ملعبا لكرة القدم، يمكننا أن نضع اسرائيل، بسهولة، في احدى شبكات الاهداف في الملعب. ومبلغ عدد سكان إسرائيل ٥ملايين نسمة. أي اقل من عدد سكان مدينة لوس انجلوس الكبرى مقابل ١٥٠ مليون عربي.

وعلاوة على ذلك، تسمح عائدات النفط الضخمة للدول العربية، بـشراء ترسـانة هائلـة مـن الأسـلحة الحديثة. ويبلغ حجم الجيش الاسرائيلي حوالي السدس فقط، مقارنة بحجم الجيوش العربية المرابطـة عـلى حدود اسرائيل، وحوالي السُبع من حجم جيوش كل الدول العربية. ولهـذا، لم يـشهد تـاريخ الحـروب، مـن قبل، نموذجا واضحا الى الحد، لحقيقة: داوود مقابل جالوت.

منذ قيامها، واسرائيل مرغمة على مواجهة جبهة شرقية تتكون من اعداء قادرين عـلى أن يـستخدموا، خلال وقت قصير، الاف الدبابات والطائرات والمدافع والصواريخ، وملايين الرجال، على غرار الجبهة الشرقية التي كانت تواجه حلف الناتو. ولكن مقابل (١٦٠٠ كـم) كانـت تفـصل بـين خطـوط حلـف وارسـو، وبـين المحيط الاطلسي، لا يزيد عرض اسرائيل مـن نهـر الاردن وحتـى البحـر المتوسـط، عـلى ٦٥كـم، وكـان هـذا الوضع، ليس خطيراً بما فيه الكفاية، لتوجه الى اسرائيل مطالب لا تحـصى مـن جانـب دول مختلفـة، بـشان تقصير هذه المسافة الـ ١٥ كـم فقـط (ويـشارك في هـذه الطالـب أيـضا اسرائيليـون، فقـدوا أي صـلة لهـم بالواقع). واذا وافقت اسرائيل على هذه المطالب، فلن يكون بمقدورها العيش طويلا.

إنني اعرف هذه المسافات جيدا. لقـد اعتـادوا القـول في الجـيش أن الجنـدي يعـرف الارض برجليـه، فخلال خدمتي العسكرية، كثيراَ ما كنا نقوم برحلات سيراَ على الأقدام من البحر إلى البحر في يوم واحد. كنا نخرج في الخامسة صباحا من شاطئ اخزيف بجانـب نهاريـا، وفي الخامـسة مـساءً نـستحم عـلى شـاطيء بحيرة طبريا: خلال ١٢ ساعة يستطيع الشخص ان يجتـاز الـبلاد سـيراً عـلى الأقـدام مـن غربهـا الى شرقهـا- بعرضها الحالي. ولكن بعرضها السابق قبل عام ١٩٦٧، كان بالامكان اجتيازها، بركضة قـصيرة عـلى غـرار مـا كنا نفعل عندما تجندنا للجيش. كانت قاعدة تدريب المستجدين التي التحقت بهـا تقـع مقابـل طـولكرم، القريبة من الخط الأخضر. وخلال أكثر من ساعة بقليل، كنا نركض من القاعدة حتى البحر في نتانيا.

كيف يمكن لانسان يعيش في امريكا، أو بريطانيا، أو فرنسا، أن يدرك مـدى هـشاشة دولـة صـغيرة الى هذا الحد؟ أن رحلة جوية في طائرة ركاب عادية من مونتريال، ال ميابر، على طول الطربئ القصير للولايات المتحد. لستغرق ثلاث ساعات. في حين أن طائة مماثلة تستطيع اجتياز المسافة من خط سـاحل تـل ابيـب، ابيب، الى مطار اللد، القريب من الخط الأحمر، بـدقيقتين فقـط. وإذا تابعـت هـذه الطـائرة رحلتهـا نحـو الشرق فستدخل الاجواء الاردنية خلال خمس دقائق.

بعبارة أخرى، مقابل ثلاث ساعات طيران لاجتياز عرض الولايات المتحدة، في أضـيق نقطـة، تحتـاج الى دقائق معدودة لرحلة مماثلة تجتاز اسرائيل، أما الطائرة المقاتلة فتحتاج الى أقل من دقيقتين لاجتياز هـذه المسافة.

ان الدفاع عن منطقة صغيرة كهذه ضد قوات يعادل حجمها. حجم قوات حلف "الناتو" تقريبـاً، هـي مهمة صعبة جداً.

في احدى المـرات، أضـطررت لـشرح مـدى صـعوبة الـدفاع عـن هـذه المنطقـة. دعـاني أحـد الرؤسـاء الأفريقيين لزيارة خاصة، عندما كنت أشغل منصب نائب وزير الخارجية. وبعد أن استقبلني بحفاوة بالغة، أوضح لي أنه ليس عدواً لاسرائيل، ولكن بصفته صديقاً للفلـسطيين، يدفعـه الفـضول لمعرفـة سـبب عـدم تخلي اسرائيل عن الضفة الغربية لينتهي الأمر. تناولت قصاصة ورق، ورسمت عليها خارطة اسرائيل، مبينـاً حدود مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة، ووضـعت عـلى الخارطـة المـسافات الحقيقيـة. ثـم ذكـرت عـدد القوات التي تقف اسرائيل في مواجهتها على الجبهة الشرقية. ثم قلت له: "سيدي الـرئيس، هـا أنـت رجـل عسكري. لماذا لا ترسم أدنى ما يمكن من الحدود التـي تعتقـد أنهـا ضروريـة لنـا للـدفاع عـن أنفـسنا؟" رد الرئيس بقوله: أنه مقتنع بوجهة نظري.

في حقيقـة الأمـر، قـام قـادة هيئـة الأركـان المـشتركة في الجـيش الأمـريكي برسـم حـدود لخريطـة كهـذه تمامـاً. ففـي ٢١ حزيـران ١٩٦٧، بعـد ١٨ يومـاً عـلى انتهـاء حـرب الأيـام الـستة، طلـب وزيـر

الدفاع الأمريكي آنذاك، روبرت مكمارا، من قادة هيئة الاركان المشتركة للجيش الأمريكي، ان يقدموا له "ورقة موقف" تتضمن تفاصيل أقل ما يمكن من الحدود التي تحتاجها اسرائيل للدفاع عن نفسها، دون اي اعتبارات سياسية. وقام القادة العسكريون الامريكيون برسم خريطة، بناء على اعتبارات عسكرية صرفة، قبل ان تتسبب "اعتبارات سياسية لاحقة" في تشويش تلك الحقائق العسكرية المبردة.

وأوصت وزارة الدفاع الامريكية في التقرير الذي أرفقته مع الخريطة، بأن تحتفظ اسرائيل بأربعة أخماس اراضي الضفة الغربية وقطاع غزة، وبهضبة الجولان كلها. واعرب الخبراء العسكريون الأمريكيون عن رأيهم، بأن المنطقة الوحيدة التي تستطيع اسرائيل السماح لنفسها بعدم ضمّها هي المنحدرات الشرقية لجبال نابلس. تلك كانت وجهة نظر مخططين عسكريين موضوعيين وغير سياسين، من وزارة الدفاع الأمريكية، وليس (خبراء من اليمن).

وبعد ٢١ سنة في سنة ١٩٨٨، وقّع مائة جنرال و أدميرال أمريكي متقاعد، على عريضة قدموها إلى الإدارة الأمريكية، قالوا فيها ان استنتاج وزارة الدفاع الأمريكية في عام ١٩٦٧، لا يزال صالحاً لليوم، اكثر مما كان عليه آنذاكن وجاء في العريضة: (دون المناطق المحتلة، ستكون اسرائيل المقزّمة، هدفاً مغرياً جداً للمغامرات العربية و الارهاب، ولهجوم عسكري شامل قد يضع حداً لوجود اسرائيل... إذا تخلت اسرائيل عن الضفة الغربية... ستظل في الواقع دون أي انذار مسبق عن أي هجوم... وسيكون سكانها جميعاً معرضين للقصف المدفعي. وفي غضون بضع ساعات، قد تكون منطقة الساحل إلى الشمال من تل أبيب مقسومة إلى قسمين من خلال هجوم تقوم به قوة مدرعة. كما ان القدرة على تعبئة جيش المدنيين... سيسهل تشويشها ربما بشكل لا يمكن معالجته.

عام ١٩٩١، زار اسرائيل الجنرال توماس كالي، مسؤوال العمليات في هيئة الأركان المشتركة في حرب الخليج، وفي شهر تشرين ثانٍ من نفس العام تطرق إلى رأي الجنرالات بقوله:" لا يمكن الدفاع عن القدس إلاّ إذا احتفظنا بالمنطقة المسيطرة... إنني أنظر إلى الضفة

الغربية، و أتساءل: لوكنت رئيساً لهيئة الأركان في الجيش الاسرائيلي، فلن أستطيع الدفاع عـن الدولـة دون هذه المنطقة... إنني لا أفهم في السياسة، ولكن إذا طلبتم مني الدفاع عن هـذه الـبلاد، و أردتـم أن أدافـع عن القدس. فإنني مضطر للاحتفاظ بهذه المنطقة.

بالطبع، لم يرتكز موقف الإدارة الأمريكية تجاه اسرائيل، عـلى اعتبـارات اسـتراتيجية مـن هـذا النـوع. فحكومة الولايات المتحدة، لا تتجاهل الضغوط السياسية التي يمارسها عليها العرب منذ عام ١٩٦٧، في حين ان المتطلبـات الأمنيـة الاسرائيليـة، التـي التزمـت الولايـات المتحـدة رسـمياً بـالاعتراف بهـا، "تتغـير" وفقـاً للمتطلبات السياسية للإدارة المريكية. لهـذا الـسبب، يـنجح موظفـو الإدارة المريكيـة في تجاهـل توصـيات جنرالاتهم، ويدعون ان دولة إسرائيل بعرض ١٥-٢٠ كم تستطيع الاسـتمرار في البقـاء. غـير انـه يوجـد حـد للمعجزات التي يستطيع العسكريون القيام بها، وبضمنهم الجنود الاسرائيليون أيضاً. أن أية دولـة لا يحـق لها ان تطلب من جيشها أن يفعل المستحيل، وبخاصة إذا وُضع على رأس دبوس، فلن يستطيع القيام حتى بأبسط المهام .

كما أن المراقبين غير العسكريين الذين يعرفون جغرافيـة اسرائيـل يتفهـون هـذه الحقـائق. إن العقـل السليم يجعلهم يدركون كل ما يعرفه الرجل العسكري: عليك دائماً أن لا تستعد بناء على حرب وقت. غـير ان اسرائيل يُطلب منها دائماً الاستعداد وفقاً لظروف حرب الأيام الستة، مع ان الظروف التي كانت سـائدة قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧، والتي بفضلها نجحت اسرائيل في انقاذ نفسها من الإبـادة، وقـد ولـت إلى غير رجعة.

- أولاً: لا يمكن تكرار الضربة الجوية المفاجئة التي دمّرت أسلحة الجـو العربيـة عـام ١٩٦٧، لنـه منـذ عام ١٩٦٨، لم تعد الطائرات المقاتلة العربية تجثم على مدارج المطارات، بل في ملاجىء أرضية محصّنة.

- ثانياً: منذ عام ١٩٦٩، تزود العرب بصوارخ حديثة ومضادة للطائرات، وقـد أوقعـت هـذه الـصوارخ خسائر فادحة في سلاح الجو الاسرائيلي في حرب ١٩٧٣.

- ثالثاً: لا شك بأن العرب ايضاً تعلموا عدة دروس مهمة، و يمكن الافتراض بـأنهم لـن يمكّنـوا اسرائيـل من تعبئة قواتها وإعدادها لحرب وقائية، مثلما فعلوا عشية حرب الستة.

أن الاعتقاد بقدرة اسرائيل على صد هجوم عربي وهي داخل حدود عام ١٩٦٧، بعد أن أثبتت هذه القدرة في عام ١٩٦٧، هو اعتقاد باطل من أساسه: فقد تغيّرت الظروف، ولذا لابد أن يكون النتائج مختلفة أيضاً.

إن إحدى الطرق لتجسيد هذا الواقع هي ان يقلع المرء بطائرة من مطـار دوف في تـل ابيـب لمـسافة بضعة كيلو مترات نحو الشرق باتجاه خطوط عام ١٩٦٧. تحلق الطـائرة فـوق ضـواحي تـل أبيـب وخـلال دقائق معدودة، تحلّق فوق بيوت كفار سابا، تدور حقل صغير لتصل إلى قلقيليـة، التـي كانـت في الـسابق خارج " الخط الأخضر".

قبل حرب الأيام الستة، كانت هنالك بضعة كيلو مترات تفصل بين كفار سابا وقلقيلية، لكن المـدينتين اتسعتا منذ ذلك الوقت. و اصبح الحقل الضيّق الذي يفصل اليوم بين آخر بيت من كفار سابا، و أول بيت من قلقيلية، في الواقع، هو " العمق الاستراتيجي" الذي يجب ان تكتفي اسرائيل بـه، حـسب رأي الكثـيرين من مؤيدي الانسحاب.

فيما وراء قلقيلية، يرفع سور من الجبال، إذ تبدو سلسلة جبال " الـسامرة" مـن الجـو كـأبراج ترتفـع فوق السهل الساهلي. وعندما أصطحب أحياناً، أحد الضيوف الأجانب، في رحلة جوية، أطلـب مـن الطيـار الاتجاه غرباً مرة ثانية، باتجاه الساحل، والتحليق فوق منطقة السفارات في شارع اليركـون في تـل أبيـب. و إذا كان الضيف أمريكيا، يدور الطيار فوق مبنى السفارة الأمريكية، وإذا كان بريطانيا، يحلّق فوق السفارة البريطانية، وهكذا. وتستغرق الجولة الجوية، حتى الحدود والعودة، أقل من عشر دقـائق. وعنـدما يكـون الضيف دبلوماسياً، تتخذ جكومته موقفاً متشدداً في موضوع المنـاطق المحتلـة، يـستطيع أن يـصوّر لنفـسه بسهولة، كيف يمكن أن يعمل في سفارة تقع على مسافة (٥) دقـائق طـيران بطـائرة خفيفـة مـن الحـدود الجديدة التي تريدها دولته لاسرائيل.

إن معظم مواطني اسرائي، يعارضون عودتنا، إلى حدود عام ١٩٦٧، لكن هنالك أقلية ضئيلة متحمسة للعودة إلى هذه الحدود، أو على الأقل، مستعدة للموافقة على ذلك، وبما أن لهذه الأقلية تأثيراً ملموساً في وسائل الإعلام، وبما أنها تشكل أغلبية بين وزراء الحكومة الاسرائيلية التي شُكّلت في عام ١٩٩٢، يجدر بنا الانتباه إلى إدعاءاتها.

في إطار الرد على الواقع الجغرافي الخطير لاسرائيل، يقول مؤيدو الانسحاب أنه في عصر الصواريخ، لم تعد هناك اهمية للمناطق التي تحتلها اسرائيل. فإذا كان العرب يملكون صواريخ قادرة على المرور من فوق هذه المناطق، وضرب المدن الاسرائيلية، وقواعد الجيش الاسرائيلي، فما الفائدة من الاحتفاظ بقطعة ارض؟ هذه الصيغة المبسّطة تجتذب المستمعين إليها بسهولة، فكل ما في الأمر هو التساؤل، ألم تتعرض اسرائيل لهجوم بصوارخ سكاد عراقية، أُطلقت من مسافة ١٥٠٠كم؟ وماذا استفادت اسرائيل آنذاك من احتفاظها بمناطق الضفة الغربية؟ لكن هذا الادعاء، مهما كان جذاباً، هو ادعاء فارغ: فالصواريخ، لا تحقق النصر في الحروب. إن الصواريخ، قد تلحق خسائر و أضرار، حتى لو كانت جسيمة، لكنها لا تستطيع احتلال منطقة. لقد ادت عمليات القصف الجوي الأميكي العنيف على فيتنام الشمالية إلى دمار فظيع، لكن الجيش المريكي لم يغزها ولم يحتل أرضها، لذا لم يستطع كسب الحرب. كما أن القصف الجوي الأمريكي ضد الجيش العراقي في حرب الخليج، الذي تخلل استخدام هائل للقنابل والصوارخ (من ضمنها القنابل الذكية، والصوارخ الملاحيّة) لم يكن بمقدوره حسم الحرب. إذ من اجل طرد الجيش العراقي من الكويت، كان لابد من شن هجوم بري، وبعد بدء هذا الهجوم فقط، حُسمت الحرب بعد ١٠٠ ساعة.

وكذلك الأمر بالنسبة لاسرائيل، يمكن قصفها من الجو وتكبيدها خسائر كبيرة، ولكن لا يمكن احتلالها دون مهاجمتها بقوات برية. ومثل هذا الهجوم، تستطيع أن تقوم به قوات مدرعة مزودة بدبابات ومدفعية متحركة وقوات مشاة آلية، تكون قادرة على دخول الأراضي الاسرائيلية والسيطرة عليها. وإن المسافة التي يتوجب على هذه القوات اجتيازها، والمناطق

التي ستضطر للقتال عليها، في بداية الحرب، هي عناصر حيوية في تحديد نتائج المعركة. لدى الحديث عـن هجوم بالصواريخ، لا تكون للأرض أهمية كبيرة، ولكن لدى الحديث عن هجوم بقوات بريّة، فإن الأرض قد تغيّر كل شيء: هنالك فرق كبير بين ما إذا كان يتوجب على فرقة مدرعة عربية أن تجتـاز، في بـدء المعركـة، مسافة ٢٠ كم أو ٢٠٠ كم للوصول إلى هدفها، وما إذا كانت الأرض مستوية أو جبلية.(كما ان المـسافة لهـا تأثير، إلى درجة ما، على فعليّـة الـصواريخ أيـضاً، فكلـما كانـت مـسافة طيران الـصاروخ أقـصر، كلـما كـان بالإمكان تزويده برأس متفجر أكبر. ولهذا فإن صواريخ "سكاد" السورية، ستكون اشد فتكـاً مـن الـصواريخ "سكاد" العراقية)..

وفي عصر الصواريخ بالذات، هناك أهمية خاصة للعوائق الطبيعية المتمثلة بجبـال الـضفة الغربيـة في وجه الجيوش العربية القادمة من الشرق. ستضطر اسرائيل، بـالطبع، لتعبئـة جنـود الاحتيـاط لـديها، لـصد مثل هذا الهجوم، ولكن في عصر الصواريخ، يجب أن نأخذ بالحسبان أن الوقت اللازم لتعبئة قوّة الاحتياط، قد يكون أطول مما كـان عليـه في المـاضي. إن صـواريخ بـسيطة كـالتي بحـوزة العـراق، قـادرة عـلى ضرب التجمعات السكانية وتشويش حركة رجال الاحتياط المتوجهين إلى مخازن الطوارىء.

قال لي أحد ضاط الاحتياط: "إذا سقطت صواريخ في مكان سكناي، اذهـب أولاً إلى مدرسـة ابنتـي، كي أتأكد من عدم إصابتها، ثم اتوجه إلى وحدتي". كلما كانت نسبة دقة إصابة الـصواريخ أهـدافها أكـثر، كلـما كان بالإمكان توجيهها إلى قواعد التجنيـد ومفترقـات الطـرق المؤديـة إليهـا، وتـشويش حركـة نقـل قـوات الاحتياط إلى الجبهة. و إذا بدأت القوات البرية المعادية بالتقدم، خلال القـصف الجـوي، فـإن أي تـأخير في تعبئة قوات الاحتياط الاسرائيلية سينتهي بكـارة. لـذا، فـإن طبيعـة الأرض سـتكون لهـا، في بدايـة الحـرب، أهمية حاسمة بالنسبة لقدرة القوات الاسرائيلية النظامية على الصمود أمام هجـوم قـوات عربيـة تفوقهـا كثيراً، من حيث الحجـم إلى حـين وصـول تعزيـزات الاحتيـاط. وفي مثـل هـذه الظـروف، سـتكون اسرائيـل

بحاجـة إلى منطقـة أكـبر، ولـيس أصـغر، كي تـستطيع امتـصاص الـضربة الأولى، ومنحهـا الوقـت المطلـوب لاستعادة وعيها من صدمة الحرب. لذا، نجد أنه في عصر الصواتريخ، يمـنح الجـدار الـواقي، (جبـال الـضفة الغربية)،الجش الاسرائيلي وقتاً أثمن من الذهب. لكن هذا العصر، جلب معه لـيس صـوارخ بعيـدة المـدى فقط، إنما قصيرة المدى أيضاً. فقـرب المنطقـة مـن الهـدف، يعتـبر عنـصراً مهـماً بالنـسبة لهـذه الـصواريخ. فصواريخ مثل سام/٧ السوفياتية الصنع، وصواريخ كتف من نوع"ستينجر" الأمريكيـة الـصنع، قـادرة عـلى إسقاط طائرات هيلـوكبتر وطـائرات مقاتلـة بـصورة فعّالـة. وقـد ثبتـت هـذه الفعاليـة، في أفغانـستان في منتصف الثمانينات. فقد كان المجاهدون الأفغان على وشك الانهزام على أيـدي الجـيش الـسوفياتي، عنـدما قررت الولايات المتحدة تزويدهم بصواريخ"ستنجر". وأدى ذلك إلى أحداث تحوّل في الحرب: خلال سـنوات قليلة، قضي تقريباً علتى كل القوة الجوية السوفياتية في سماء أفغانستان، على أيدي جماعات من المقاتلين الذين يمتطون الخيول ويطلقون الصواريخ من قمم الجبال.

خلال الانتفاضة، أُضطرت اسرائيل لمواجهة آلاف الشباب الفلسطينين الذين قذفوا الحجارة على تـلال" السامرة" وليس من الصعب أن تتخيل بدلاً من هؤلاء قاذفي الحجارة، يظهر يوماص ما، آلاف المقـاتلين مـن منظمة التحرير الفلسطينية، لا يحملون الحجارة، بل الصواريخ المضادة للطائرات.

يجب أن نتذكر، بان مطار اللد يبعد عن الحدود القديمة مسافة أربعة كيلو مترات فقط، وغـن كافـة المطارات العسكرية- باستثناء واحد- تقع في مرمى صواريخ قصيرة المدى من أنواع مختلفة. لذا لـن يكـون من الصعب نصب صواريخ كهذه في الضفة الغربية، وضرب الجيش الاسرائيلي بصورة أدق و أشد مما فعله المجاهدون الأفغان بالجيش السوفياتي.

إن مثل هذه الأسلحة، لم تكن متوفرة بأيدي العرب، قبل حرب الأيام الـستة. امـا اليـوم، وفي أعقاب عدة سنوات من التـزوّد العـسكري مـن الـدول الغربيـة والـشرقية، تحتـل هـذه الأسـلحة مكانــة محترمــة في ترســانة أســلحة الجيــوش العربيــة.كــما زاد مــؤخراص مخــاوف الغــرب

من إمكانية سقوط صواريخ "ستينجر" التي زودها للأفغان والكويتين وغيرهم، بأيدي رجال منظمة حزب الله وغيرهم. وهنا أيضاً ستكون فعاليّة هجمات الارهابيين أشد،بالطبع، لو كانوا يحملون الصواريخ ويرابطون في جنوب لبنان أو في المرتفعات المشرفة على اللد والرملة.

إن الدرس الذي جيب أن تتعلمه دولة صغيرة كاسرائيل هو: أنه في عصر الصواريخ، تزداد أهمية الأرض، و لاتنقص. الأمر الذي يزيد من أهمية السيطرة على منطقة تمنح الجيش الاسرائيلي"قدرة الامتصاص" لهجوم أرضي يُشن خلال قصف صواريخ بعيدة المدى، وتبعد قصيرة المدى عن أهدافها.

إن إسرائيل، ليست بحاجة إلى الاستيلاء على مناطق أخرى، إنما يجب ان تحتفظ بالعمق الاستراتيجي الحالي الذي تمثله مناطق الضفة الغربية.

إن دولة كبيرةن مثل الولايات المتحدة، تستطيع التخلي عن مساحة كبيرة من الأرض، مثل زاوية في ولاية داكوتا الشمالية، بدون تعريض أمنها لخطر حقيقي حيث ستظل تملك العمق الاستراتيجي اللازم لها (مع انه من الصعب العثور على مواطن أمريكي واحد يوافق على التنازل عن أي جزء من الولايات المتحدة).ولكن ليحاول أي أمريكي أن يرسم في مخيّلته دولة معادية، تقع على الطرف الآخر لنهر"بوتوماك" في واشنطن العاصمة، على بعد طلقة بندقية من البيت الأبيض، عندئذ، يستطيع أن يدرك السبب وراء اعتقاد غالبية الشعب الاسرائيلي بأن المنطقة المقابلة للقدس وتل أبيب وحيفا، تعتبر حيوية لأمنه. (انظر الخارطة رقم/١١). الآن، نستطيع ان ندرك حجم الخطر الذي يهدد اسرائيل من وجود دولة فلسطينية في الضفة الغربية، و لا شك أنه مع مرور الوقت، ستتزود هذه الدولة بكميات كبيرة في الأسلحة. كيف تستطيع اسرائيل منع مثل هذا الأمر؟ يجيب المؤيدون للانسحاب على هذا السؤال بالقول أن المناطق التي ستخليها اسرائيل، ستظل منزوعة السلاح. لن في

حالة مناطق الضفة الغربية وغزة، سيكون من الصعب جداص تطبيق مبـدأ نـزع الـسلاح المتعـارف عليـه، وذلك لسببين:

أولاً: لا يمكن تجريد المنطقة من أسلحة صغيرة لكنها فتّاكة جداً. إذ لن تستطيع اسرائيل منع تهريـب صواريخ قصيرة المدى، وقطع أسلحة أخرى لا يزيد حجمها على حجم الحقيبة، إلاّ إذا كانت موجودة فعليـاً في الضفة الغربية. إن هذا النوع من الأسلحة يمكن إحضاره بـسيارات شـاحنة أو سـيارات خاصـة، او نقلـه جواً بطائرات ركاب المدينة. فاليوم رغم وجـود اسرائيـل الفعـلي وسـيطرتها المطلقـة عـلى مـداخل الـضفة الغربية، وحرص جنود الجيش الشديد على تفتيش السيارات المتنقلة عبر نهـر الأردن، لا تـستطيع ان تمنـع نهائياً، تهريب أنواع مختلفة من الأسلحة إلى مناطق الضفة الغربية وغزة، وليس مـن الـصعب الـتكهن بمـا سيحدث فيما لو انسحبت اسرائيل من الضفة الغربية، وتلاشت وسائل المراقبة هذه نهائياً.

إن شبه جزيرة سيناء الواسعة، والخالية تقريباً من السكان، هي منطقة يمكن تجريدها مـن الأسـلحة الثقيلة مثل الدبابات والمدافع. ولو تم تهريب أسلحة خفيفة إلى سيناء، لن تشكل هذه الأسلحة خطراً على اسرائيل نظراً لبُعد الأهداف التي يمكن إصابتها بهذه الأسلحة. لكن أية عملية نزع سلاح، لن تكون فعّالـة، ضد الأسلحة الصغيرة التي تشهدها اليوم (وغداً)، والتي سهل تهريبهـا إلى منطقـة مأهولـة بالـسكان مثـل الضفة و القطاع، لتشكل مصدر تهديد للمنشآت الاسرائيلية البريـة والجويـة. لـذا، فـإن نـزع المنطقـة مـن السلاح، لا يشكل الرد هذا الحد، وتكون المسافات قصيرة إلى هذه الدرجـة، سـيكون بالـدفاع المرتكـز عـلى "نزع السلاح" مجرد أمنية فقط.

ثانياً: لا يمكن الاعتماد على نـزع الـسلاح، لأسـباب سياسـية. فكـل منطقـة تخليهـا اسرائيـل، سـتحتلها منظمة التحرير الفلسطينية، بغض النظر عن الصيغة التي تـستخدم لإخفـاء هـذه الحقيقـة (مثـل، اتحـاد كونفدرالي مع الأردن).

إن الذين يتحدثون عن نزع سلاح الضفة الغربية، غنما يتحدثون في الواقع عن تجريد دولة ذات سيادة كاملة من السلاح- الأمر الذي لم نسمع بمثله في تاريخ الأمم، ولسبب بسيط هو: أنه لا يمكن تطبيقه وإدامته.

وتجدر الإشارة، إلى أنه حتى نزع سلاح من أقاليم محددة داخل دول، أو بينها، يصعب جداً الالتزام به لمدة طويلة. إن نزع السلاح من إقليم "راينوس" في ألمانيا بعد الحرب الأولى، استهدف حماية فرنسا من هجوم ألماني. ولكن بما ان فرنسا وبريطانيا لم تكونا مستعدتين للخروج للحرب في سبيل فرض الالتزام بنزع السلاح من هذا الإقليم، سرعان ما اتضح أن النزع كان عديم الفائدة، مقابل استعداد هتلر لإلغائه.

كما ان التعهدات التي قطعتها على نفسها دول عربية، في الماضي، بشأن نزع سلاح جزئي، لم تكن لها أية قيمة. إذ عندما حصل الملك الحسين، من الولايات المتحدة، على دبابات "باتون" تعهد بعدم وضعها في الضفة الغربية لنهر الأردن، ولكن الملك الحسين لم يصمد أمام ضغوط عبد الناصر قبل حرب الأيام الستة، واحتلت دبابات باتون مواقع لها مقابل القدس. وكذلك، مصر، خرقت اتفاقية وقف اطلاق النار مع اسرائيل في نهاية حرب الاستنزاف، وقرّبت إلى قناة السويس بطاريات صواريخ مضادة للطائرات، خلافاً لتعهدات واضحة قطعتها. وبما أن الدكتاتوريين لا يترددون في خرق مبادىء نزع السلاح، عندما يكون الأمر سهلاً بالنسبة لهم، فلا يوجد أي منطق في الموافقة على تسويات نزع السلاح، إذا كان خرقها، بصورة مفاجئة، من شأنه تعريض أمن الدولة للخطر. لكن، كل هذه الحالات من نزع السلاح الجزئي، لا تشبه نهائياً، نزع السلاح من دولة بأكملها. إن اسرائيل لن تكون قادرة على تفتيش كل سيارة شاحنة أو خاصة تدخل إلى الدولة الفلسطينية التي ستقام في الضفة والقطاع. كما انه لن تستطيع إعتراض كل طائرة مدنية تكون في رحلة إليها، من ليبيا أو أفغانستان، وإنزالها في مطار اللد، لتفتيشها. أي دولة، يمكن أن تسمح بمثل هذا التدخل السافر بتجارتها الخارجية وخطوط مواصلاتها الدولية؟ ستطلب الدولة الفلسطينية لنفسها

الحقوق التي تطلبها أية دولة في العالم: مراقبة حدودها، وحقها" في الدفاع عن النفس"، وإلاّ سرعان ما ستقع ضحية لمؤامرات وتهديدات من جانب دول عربية أخرى ومنظمات إرهابية مختلفة، وسيفسر هذا الحق بالسماح لها بإقامة جيش خاص بها. كما ستطلب الدولة الفلسطينية إبعاد أية قوة عسكرية لدولة مجاورة عن أراضيها، وفقاً لما هو متعارف عليه في الدول المستقلة. أن الخبرة المكتسبة خلال القرن العشرين، تثبت أنه في أغلب الحالات التي نشأت فيها مواجهة بين مبدأ نزع السلاح، وبين مبدأ السيادة، كانت الغلبة للسيادة في نهاية المطاف. هل هناك شك، في ان الدولة الفلسطينية، ستتمتع بتأييد العالم العربي كله، و تأييد دول أخرى كثيرة، لمثل هذه المطالب؟

إن حماس قسم من الجمهور الاسرائيلي للتخلي عن المناطق المحتلة لا يدل على تفكير صافٍ. وإن الشرط الأول لصفاء التفكير، هو الاعتراف بأن نظرية نزع السلاح، ربما تبدو كعلاج عجيب لكل الهموم المنية الاسرائيلية، لكنها لا تنطوي على أي حل حقيقي للمدى الطويل- و لاحتى المدى القصير. حتى و لو استطعنا إقناع بعض الفلسطينين بالموافقة على نزع سلاح كهذا، سيكون ذلك أمراً يصعب عليهم تنفيذه لمدة طويلة. وسرعان ما تفقد اسرائيل سيطرتها على الوضع. إذ أن كل عملية دخول إلى أراضي الدول الفلسطينية تأتي كرد على عملية خرق اتفاق نزع السلاح، ستفسّر على انها اجتياز حدود دولية، ستتولى المحافظة عليها قوات دولية أيضاً.

بعبارة أخرى، نقول، أن العمليات الانتقامية التي ستأتي نتيجة لخرق الاتفاق الخاص بنزع السلاح، إذا كانت هنالك إمكانية لقيام بمثل هذه العمليات أصلاً، من شانها توريط اسرائيل بحرب واسعة النطاق مع الدول العربية، وتعريضها لعقوبات دولية أيضاً. كما أن من يتفحص استراتيجية"مشروع المراحل" لمنظمة التحرير الفلسطينية، سيدرك صعوبة المحافظة على مبادىء نزع السلاح. " فمشروع المراحل" يدعو إلى إقامة دولة فلسطينية بزعامة منظمة التحرير، وتسليحها ومن شن عمليات " إرهابية" ضد اسرائيل، انطلاقاً من أراضيها، تجر

اسرائيل إلى القيام برد عسكري، الأمر الذي سيدفع العالم العربي إلى " حماية فلسطين" والدخول في مجابهة حاسمة مع اسرائيل. وعلاوة على الفلسطينين الذين سيطلقون الصواريخ من جبال الضفة الغربية على اسرائيل، يجب أن تستبعد دخول جيوش عربية أخرى إلى الضفة الغربية لنهر الأردن، لمساعدة إخوانهم. ومن المحتمل أيضاً، أن يتم إنزال قوات عسكرية بطائرات هيلوكبتر على سلسلة جبال الضفة الغربية، حتى قبل اندلاع الحرب. وإذا جرى ذلك خلال ساعات الليل، وفي ظل صمت لاسلكي، على غرار ما حدث في حرب"يوم الغفران"، فستجد اسرائيل نفسها أمام هجوم مفاجىء. ولكن في هذه المرة، لن تكون نقاط بدىء الهجوم من الضفة الغربية لقناة السويس، ومن هضبة الجولان، إنما على بعد بضعة كيلو مترات عن تل أبيب.

من غير الواضح كيف ستقدر إسرائيل على إحباط مثل هذا التطور وهي داخل حدود عام ١٩٦٧. إذا انسحبت من الضفة الغربية، فستكون بحاجة إلى جيش نظامي أكبر بكثير من الجيش الاسرائيلي بحجمه الحالي، لأن الحدود المتعرجة بين اسرائيل والضفة الغربية، هي أطول بحوالي أربعة أضعاف، الحدود الحالية التي تمر في خط مستقيم تقريباً، على طول نهر الأردن. كما ان التكاليف المالية المتعلقة بالدفاع عن جبهة طويلة كهذه، ستلحق ضرراً بالغاً بالاقتصاد الاسرائيلي، وتحدث نقصاً في الطاقة البشرية الحيوية. وعندئذ أيضاص، ليس أكيداً أن تتوفر للجيش الاسرائيلي مساحة من الأرض بين اسرائيل والدولة الفلسطينية، لتمكينه من الانتشار فيها والاستعداد للمعركة.

إن دولة فلسطينية، مثلها مثل اليد الممدودة لخنق شريان الحياة لاسرائيل الممتد على طول ساحل البحر من حيفا وحتى أشكلون. لذا، فليس من الغريب أن تجد معظم الاسرائيلين يرفضون هذه الفكرة، ويرون فيها خطراً مميتاً للدولة.

عندئذ نعرض هذه الحقائق أمام مؤيدي الانسحاب، يردون دائماً بالقول، إن اسرائيل المقزّمة ستكون قادرة دائماً على سحب سيفها النووي من غمده، لتحبط دفعة واحدة كل

الأخطار التي تهدد وجودها. غير أن اسرائيل تعهّدت بـان لا تكـون أول دولـة تـدخل الـسلاح النـووي إلى الشرق الأوسط، وحتى لو غيّرت سياستها، فليس من المؤكد، ما إذا كـان هـذا الـسلاح يمكـن أن يظـل دائمـاً وسيلة ردع كافية ضد هجوم عربي. فإذا أخذنا بالحسبان المسافات القصيرة، نجـد أن أيـة تحركـات لقـوات فلسطينية، من شأنها تشكيل خطر شديد على سلامة دولة اسرائيل. وهل ستهدد اسرائيل باستخدام السلاح النووي، في كل مرة يغيّر فيها لواء فلسطيني مواقعه؟ وهل ستـستخدم الـسلاح النـووي عنـدما يقـوم رتـل مدرعات عربي باجتياز نهر الأردن، أم انها ستنتظر حتى يصل هذا الرتل إلى مرتفعات قلقيلية، على مـسافة ٢٠ دقيقة سفر من تل ابيب؟

إن قدرة الردع النووية المنسوبة لاسرائيل، ستتضرر بصورة خطيرة، لأن أي إنسان لن يشن حرباً نووية بسبب خرق اتفاق لنزع السلاح. لذا فإن أية عملية عدائية ضد اسرائيل، تتطلب رداص دقيقاً، وكل غلطـة مهما كانت بسيطة قد تنطوي على كارثة، لأن أية عملية اجتياز حدود، في قطـاع بعـرض١٦ كـم فقـط، قـد تنتهي بدمار ساحل اسرائيل.

لقد رأينا ان الاقتراح بشأن اقتطاع المناطق التي تشكل الدرع الـواقي، مـن اسرائيـل، وضـغطها ضـمن قطاع ضيق على طول ساحل البحر المتوسط، يؤدي إلى الاستنتاج بأن اسرائيل ستضطر لاستخدام وسائل غير تقليدية للدفاع عن نفسها. إن فكرة وضع"جدار" نووي على طول حدود اسرائيل بحيث يكون هذا الجدار، فقط، ضماناً لأمنها، مـا هـي سـوى ثمـرة لـنقص في التفكير وانعـدام المـسؤولية. إذ أن مثـل هـذا الإجـراء، من شانه تعريض اسرائيل والعالم بأسره، لخطر يتمثل بسلـسلة مـن التطـورات الخطـيرة، التـي لا يـستطيع أحد التنبؤ بها، ولا السيطرة عليها. علاوة على ذلـك: مـا هـي الأهـداف التـي سنقـصفها بالقنابـل النووية؟ نابلس؟ القدس الشرقية؟ فبالإضافة إلى الدمار الفظيع الذي سيحدثه مثـل هـذا الـسلاح سيأتي في اعقابه الغبار الذري الذي سيسمم المنطقة كلها ويودي بحياة آلاف العرب واليهود معـاً. أن الغبار الـذري لا يعـترف " بـالخط الأخـضر". كـما أن خطـر حـصول أنظمـة دكتاتوريـة عربيـة

على أسلحة نووية، لا يهدد اسرائيل وحدها، بل دولاً أخرى أيضاً. هنالك إجراءات معينة تستطيع اسرائيل اتخاذها لتخفيف الخطر النابع من مثل هذا التطور، لكن مثل هذا الموضوع يجب دراسته في دوائر الأمن الاسرائيلية، ولي هنا.

وعلى الرغم من ذلك، يجب أن نوضح أمراً واحداً على الأقل: على غرار الادعاء الذي نسمعه بشأن موضوع الصواريخ، هناك من يدعي أنه في عصر الأسلحة النووية، لم يعد هنالك مغزى لمفاهيم عسكرية مثل عمق استراتيجي. لكن هذه نظرية مغلوطة وخطيرة. صحيح أن اسرائيل قد تواجه يوماً ما، تهديداً غير تقليدي لوجودها، لكن هذا لا يستوجب تعريض نفسها لأخطار الحرب التقليدية. إن حقيقة كون دولة ما مضطرة لحماية نفسها من خطر معين يهدد وجودها، يجب أن لا تدفعها إلى تجاهل خطر آخر يهدد وجودها أيضاً. فالولايات المتحدة لم تتخلص من القوات التقليدية الضخمة التي احتفظت بها لمواجهة قوات حلف وارسو، حتى ذروة الحرب الباردة، رغم أنها كانت تمتلك أسلحة نووية كافية لتدمير هذه السياسة، يمكن استخلاصها من حقيقة أن كافة الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، لم تستخدم فيها الأسلحة النووية مطلقاً، وكانت وسائل القتال التقليدية، هي التي ترجح الكفة دائماً. لذا، يتوجب على اسرائيل ايضاً، ان تفعل كل ما في استطاعتها، لتقليص خطر الحرب النووية، وليس زيادته. ولكن، هل سيقل ارتباط اسرائيل بالأسلحة التقليدية، في ظل شرق أوسط نووي؟ لا أعتقد هذا.

على أية حال، طالما لم تمتلك الدول العربية أو إيران أسلحة نووية، وطالما ظلت هذه الدول تؤمن بأن اسرائيل قادرة على إدخال السلاح النووي إلى المنطقة في أية لحظة، ستبقى هذه الأمور تشكل موانع هامة لردعها عن مهاجمة اسرائيل. ولكن ما الذي سيحدث لو تزودت ايران أو العراق، مثلاً، بأسلحة نووية خلال السنوات القادمة؟ ستتغير المعادلة السياسية في الشرق الوسط بين عشية وضحاها، وستجد معظم الدول العربية أنفسها تعاني من ضغط شديد للسير مع الدول العظمى الجديدة. أضف إلى ذلك، أنه سيزيد احتمال أن

تبدي الجيوش العربية استعداداً أكبر لشن حرب تقليدية ضد اسرائيل طالما توفرت لها المظلة النووية الاسلامية. كضمان ضد احتمال استخدام السلاح النووي الاسرائيلي. أي، يمكن الافتراض، ان امتلاك الدول العربية أسلحة نووية، من شأنه إعادة النزاع العربي- الاسرائيلي إلى ميدان المعركة التقليدي بالذات، وعندئذ سيزداد- بدلاً من ان ينقص- ارتباط اسرائيل بالدفاع الأرضي، الذي توفره لها مناطق الضفة الغربية.

هنالك ظاهرة مماثلة، برزت في علاقات حلف الأطلسي مع الاتحاد السوفياتي. إذ طيلة الوقت الذي كان فيه السلاح النووي حكراً على الولايات المتحدة فقط في مواجهة قوات حلف وارسو. ولكن، منذ اللحظة التي امتلك فيها الاتحاد السوفياتي أسلحة نووية أيضاً، أضطر حلف الأطلسي لزيادة حجم قواته التقليدية بصورة كبيرة. لذا، فأولئك الذين يعتمدون على غدخال الأسلحة النووية إلى منطقتنا، كحل لمشكلة الدفاع الاسرائيلي، يتعلقون بأوهام فقط. ففي المستقبل المنظور، ستضطر اسرائيل للاهتمام بالدفاع عن نفسها، ضد تهديدات نووية وتقليدية في ىن واحد. لهذه الأسباب وغيرها، يوجد في اسرائيل إجماع قومي واسع(و لو أنه غير مطلق)، على ضرورة احتفاظ الجيش الاسرائيلي بالسيطرة العسكرية على الجدار الواقي المتمثل بجبال الضفة الغربية.

في الآونة الأخيرة، يتردد إدعاء بأن ضباطاً كباراً في اسرائيل، وبخاصة مؤيدي اليسار منهم يخالفون هذا الاستنتاج. من المحتمل أن يكون مثل هؤلاء الضباط موجودين، لكن غالبيتهم الحاسمة توافق على الاستنتاج المذكور. هنالك بعض الضباط في الجيش الاسرائيلي، من يريد أن يرى اسرائيل بعيدة عن السيطرة السياسية على شعب عربي، غير ان الجميع يؤيدون استمرار التواجد العسكري الاسرائيلي في مناطق الضفة الغربية .

لقد برز هذا التناقض بصورة جليّة خلال الندوة التي عقدتها جريدة"هارتس" في عام ١٩٨٨، باشتراك ثمانية من كبار ضباط الاحتياط المؤيدين لليسار الاسرائيلي. حيث شرح كل واحد منهم ان يؤيد الانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية، وأكد في نفس الوقت، ضرورة

مواصة الاحتفاظ بالسيطرة على جزء من المنطقة، بهدف تحقيق القدرة على العمل بفعالية في زمن الحرب.

بعد ان عوّد اليساريون الاسرائيليون، العرب على فكرة حصولهم على الضفة الغربية، أصبح من الصعب إجراء مفاوضات معهم. لكن هذه الحقيقة لا تغيّر شيئاً بالنسبة للاستنتاج القائل: أنه كي تستطيع اسرائيل الدفاع عن مدنها، يجب عليها أن تحتفظ بالسيطرة العسكرية على كل منطقة الضفة الغربية. لقد صدق رؤساء هيئة الأركان المشتركة للجيش الأمريكي في عام ١٩٦٧. وأقوالهم هي حقيقة لا جدال بشأنها، حتى في التسعينات.

إن منطقة قطاع غزة، فقط هي التي تشكل خطراً سياسياً وليس عسكرياً بالنسبة لاسرائيل. فخلافاً لمناطق الضفة الغربية وهضبة الجولان، التي تسيطر بصورة مطلقة على الأراضي السهلية تحتها، فإن قطاع غزة هو منطقة منبسطة وصغيرة. كانت غزة في الماضي، قاعدة انطلاق لعمليات ارهابية ضد اسرائيل، ثم عادت لتكون كذلك، بعد أن سحبت اسرائيل جيشها منها. وحتى لو أوقفت منظمة التحرير، لأسباب تكتيكية، مؤقتاً تنفيذ عمليات ارهابية ضد اسرائيل، انطلاقاً من غزة، فلن يتلاشى خطر استئناف هذه العمليات منها مجدداً. لكن هذا الخطر، لا يهدد وجود اسرائيل. كما أن الخطر الكامن في احتمال استخدام غزة قاعدة لهجوم عسكري تقليدي على اسرائيل. سيقل، إذا ظلت سيناء منزوعة السلاح، وإذا واصلت مصر المحافظة على السلام. من المفهوم، إن التخلي عن غزة، أدى إلى قيام "مبنى دولة" بزعامة منظمة التحرير الفلسطينية، تستخدمها كقاعدة لنشاطاتها الرامية إلى تطبيق السيادة الفلسطينية على عرب الضفة الغربية (وعلى عرب النقب والجليل). وفي ضوء اتفاقية الإخلاء، التي وقعتها حكومة رابين، والتي تمكّن منظمة التحرير الفلسطينية من إقامة دولة بمعنى الكلمة في غزة وأريحا، أصبح هذا الخطر أكثر تجسداً. هل يمكن الفصل، على طول المدى، بين السيطرة العسكرية، وبين السيادة السياسية؟ هذه هي الصعوبة الكامنة في كافة المقترحات، بشأن التنازل عن أراضي الضفة الغربية وغزة. في النهاية، نجد أن الجدال

الدائر بين جنرالات الجيش الاسرائيلي اليساريين واليمنيين حول مسألة التسوية الاقليمية، ليس جدلاً عسكرياً. إذ يوجد بهذا الشأن، تطابق واسع جداً في وجهات النظر، وإن معظم الخبراء العسكريين الذين لا يتأثرون بالآراء السياسية، يوافقون على ضرورة احتفاظ اسرائيل بتواجد عسكري في هذه المناطق بغية المحافظة على أمنها. لذا فالجدل الرئيسي يدور حول المكانة السياسية لهذه المناطق: ما هي الترتيبات السيادية، التي يجب أن تتبع في المنطقة، بحيث تضمن لاسرائيل دفاعاً فعلياً؟

هناك من يعتقد بأنه من الممكن الاحتفاظ بوجود عسكري اسرائيلي في المناطق الخاضعة لسيادة عربية. لكن المصريين لم يسمحوا، في حينه، لاسرائيل، بالاحتفاظ ولو بقاعدة جوية واحدة في سيناء، ولا يُعقل بأن أية دولة عربية أخرى، ستتصرف على غير هذا النحو.

ويعتقد آخرون، بأن اسرائيل تستطيع السيطرة على المجال الجوي للدولة الفلسطينية. غير ان كل هذا الخطط ستنهار في نهاية الأمر نتيجة لضغط السيادة، على غرار ما حدث بالنسبة لسيطرة الولايات المتحدة على قناة بنما، وسيطرة بريطانيا على قناة السويس، وحالات أخرى شهدها القرن الحالي. عندئذ، ستقف اسرائيل عاجزة، في ضوء وجود جيوش كبيرة ترابط على بعد كيلومترات معدودة من مدنها ومستوطناتها. لن من يريد السيطرة على منطقة جبلية مثل الضفة الغربية، التي تتكون فيها المواقع الاستراتيجية ومراكز التجمعات السكانية قريبة من بعضها البعض إلى هذه الدرجة، يجب أن تحتفظ بسيطرة عسكرية وسياسية في آن واحد. وان من يتخلى عن السيطرة السياسية، لا بد أن يتخلى في نهاية الأمر عن السيطرة العسكرية أيضاً.

علاوة على هذه المسائل الأمنية، يجب التطرق أيضاً إلى عناصر أخرى تتعلق بالأمن القومي، لدى البحث في موضوع المناطق المحتلة. و أولها، عنصر المياه، الذي لا تستطيع أية دولة البقاء دونه، ولا داعي للتأكيد بأن الشرق الأوسط يعاني من نقص خطير في هذا المجال، وفي كل سنة تستهلك كميات أكبر من تلك التي يتم تعويضها من مصادر طبيعية.

والوضع أخطر ما يكون في سوريا، التي تضطر أحياناً لقطع المياه عن دمـشق في سـاعات الليـل. ولـكي يدوم السلام الحقيقي في الشرق الأوسط، يتوجب على دول المنطقة، أن تطوّر، بصورة مشتركة، مصادر مياه بديلة. وإذا لم تفعل ذلك، فقد تندلع في المستقبل أزمة خطيرة جداً، بسبب نقص المياه. والنموذج لمثل هذا النزاع، قد نجده في المجابهة القائمة بين تركيا وسوريا والعـراق، بـشان ميـاه نهـري دجلـة والفـرات اللـذين ينبعان من جبال تركيا الشرقية. فقد ادت الاجراءات التي اتخذتها تركيا، في السنوات الأخيرة، لتطوير موارد المياه الواقعة ضمن حدودها، والسدود التي أقامتهـا عـلى هـذين النهـرين، إلى إثـارة غـضب جيرانهـا مـن الجنوب، ولا يزال العثور على حل مستقر ودائم لهذا النزاع، بعيد المنال.

إن ما يقل عن ٤٠% من مجمل المياه العذبة التي تستهلكها اسرائيل هي مياه جوفية يتم سحبها من أحواض تحت أرضية توجد غالبيتها في مناطق الضفة الغربية. وهذه الأحواض تشكل مصدراً للميـاه، يمكـن أن تتعرض اسرائيل دونها لكارثة، وأي حل للنزاع في المناطق، لن يكون حقيقياً، مـالم يتـضمن تـسوية لهـذه المسألة. ولكن كيف؟ إذا كان هذا المصدر الحيوي تحت سـيادة دولـة معاديـة، فـلا بـد مـن ان يـؤدي إلى مشاكل كثيرة. فقد نواجه، مثلاً، إمكانية " ابتزاز مائي" وهو احـتمال مخيـف في حـد ذاتـه. كـما ان مـصادر المياه الجوفية هذه، قد تتلوث لسبب ما، عن قصد، أو غير قـصد، وقـد يـؤدي هـذا التلـوث إلى أمـراض و أوبئة في أوساط السكان، أو ربما لأضرار لا يمكن إصلاحها في الحوض المائي نفسه.

وإذا تذكرنا أن أحد الأسلحة التي استخدمها العرب أثناء الانتفاضة، كان إشعال الحرائق في الغابات في جميع أنحاء الدولة، وأن صدام حسين، كان على استعداد لمحاربة الولايات المتحدة عن طريق تلويث ميـاه الخليج العربي بالنفط الخام، فلن نستطيع استبعاد إمكانية حدوث تلويث متعمّد لمصادر المياه الاسرائيليـة أو تحويلها(تجدر الإشارة إلى أن أول عمليات نفذتها حركة فتح في الستينات استهدفت ضرب الناقـل القطـري). كما أن حالة تـسميم غـير متعمّـدة لـن تكـون أقـل خطـورة. وكـذلك سـوء اسـتعمال ومعالجـة ميـاه المجـاري

والفضلات الصناعية والنفايات، قد يكون له تأثير مباشر وفوري على أحواض المياه الجوفية العذبة.

وبغية الحيلولة دون حدوث مثل هذا التلوث، يتطلب الأمر مستوى عالياً من الوعي الحكومي والجماهيري، و انفاق مبالغ طائلة لأغراض الفحص والمتابعة والاصلاح. إن الدول الغربية المتقدمة، تواجه صعوبة بالغة في رصد المخصصات اللازمة لمثل هذه الأعمال، وتوفير الوسائل الكفيلة بمنع حدوث تسمم بيئي، وكذلك اسرائيل، تجد اليوم صعوبة في المحافظة على نقاء هذه الأحواض.

ولكن مالذي سيحدث، عندما تُلقى هذه المسؤولية الجسيمة على كاهل نظام حكم عربي فقير ومعاد في الدولة الفلسطينية، التي يتمنى اليساريون الاسرائيليون إقامتها؟ هذا الأمر، يعني أن اسرائيل ستواجه، بأسرع وقت ممكن، نقصاً خطيراً في المياه، لن تستطيع تعويضه دون إعادة سيطرتها على المناطق التي سلمتها لحكم عربي.

بعد أن نأخذ بعين الاعتبار الهمية الحاسمة للعمق والارتفاع الاستراتيجيين، والعوائق الطبوغرافية والجغرافية التي ستواجهها قوة غازية، وأهمية السيطرة على مصادر المياه، لا بد أن نتوصل إلى استنتاج قاطع هو: أن مناطق الضفة الغربية، حيوية لمستقبل الدولة. وسيتوصل إلى هذا الاستنتاج القاطع، كل من يقف في يوم صافٍ على قمة جبل" يا عل حتسور" في السامرة، ليرى كل البلاد من أقصاها إلى ادناها، من غور الأردن وحتى البحر المتوسط إن أرض اسرائيل الغربية، أي المنطقة الموجودة حالياً تحت سيطرة اسرائيل، هي وحدة إقليمية واحدة، فيها سلسلة جبلية واحدة، تشرف على سهل ساحلي واحد. وكل من يقترح تقسيم هذه المنطقة إلى دولتين ينقصهما الاستقرار والأمن، ويحاول الدفاع عما هو غير قابل للدفاع، يكون كمن يدعو لكارثة.

إن معظم العمق الاستراتيجي والثروة المائية، هما عنصران هامان أيضاً، لدى الحديث عن مستقبل هضبة الجولان. ففي هذه أيضاً، تعرض الحكومة اليسارية الاسرائيلية تنازلات

خطيرة جداً. فالجولان تسيطر على مصادر نهر الأردن وبحيرة طبريا، أي،على ٤٠% أخرى من إحتياطي المياه في اسرائيل. والتنازل عن هذه السيطرة، يعني أن نضع بأيدي السوريين القوة"لتجفيف"اسرائيل، وعلى أكثر المتحمسين للانسحاب من الجولان، أن يعيدوا حساباتهم وتفكيرهم، اكثر من مرة، بالخطر الذي ينطوي عليه الانسحاب، قبل أن يقترحوا "سلاماً" كهذا.

إن هضبة الجولان، التي ترتفع حوالي ١٣٠٠م عن الحقول الخصبة في غور الحولة، تشكل هي أيضاً، حاجزاً طبيعياً يحمي اسرائيل. كما ان هضبة الجولان، تشبه الضفة الغربية في المقاييس أيضاً- لا يزيد عرضها عن ٢٥ كم في أوسع نقطة- خلافاً لما هي الحال في شبه جزيرة سيناء، التي يبلغ عرضها ٢٠٠كم، ولا توجد فيها قطرة ماء. كان باستطاعة اسرائيل أن تكون سخيّة إلى أبعد الحدود في سيناء، والتنازل عنها كلها، مقابل السلام على الجبهة الغربية، غير انها لا تملك مجالاً لتقديم تنازلات مماثلة على الجبهة الشرقية- الضفة الغربية والجولان. وتزداد هذه الحقيقة وضوحاً، لدى التطرق إلى الجيوش الثلاثة الكبيرة، التي تستطيع أن تشكل تهديداً على وجود اسرائيل-جيوش، مصر، سوريا، العراق.

تفصل بين الجيش المصري واسرائيل، صحراء سيناء، التي تمنح اسرائيل، كما أسلفنا، عمقاً استراتيجياً كافياً حتى في حالة خرق اتفاقية السلام. كما ان اسرائيل أوضحت جيداً، في اتفاقية السلام مع مصر، أن دخول جيش مصري إلى سيناء، يعني الحرب.

أما الجيش العراقي الذي يعاود بناء قواته، بعد هزيمته في حرب الخليج، فتفصله عن اسرائيل الصحراء الاردنية- منطقة عازلة تعادل مساحتها مساحة صحراء سيناء. والجيش الذي يحتفظ بهذه الصحراء، هو جيش جيد فعلاً غير أنه، حتى عندما كانت الأردن في حالة حرب مع اسرائيل، كان هذا الجيش أصغر حجماً من أن يعرض اسرائيل لخطر حقيقي.

لقد أعلنت اسرائيل أكثر من مرة، انها تعتبر الأراضي الأردنية منطقة عازلة، ولن تسمح بأي حال من الأحوال بدخول قوات أجنبية إليها. ففي حرب الخليج أوضحت اسرائيل،

المرة تلو المرة، انه إذا دخلت قوات عسكرية عراقية إلى الأردن، بغض النظر عن الأسباب، سترى في تلك سبباً للحرب.

إن معظم مواطني اسرائيل، يعارضون إقامة فلسطينية في الضفة الغربية، لأنهم لا يريدون، على أبوابهم، دولة تبرم حلفاً مع العراق، ومع أكثر القوى تطرفاً في العالم العربي. لأن مثل هذه الدولة، ستلغي نهائياً قيمة المنطقة العازلة الموجودة حالياً على الجبهة الشرقية.

خلاصة القول، هي أن الرد الاسرائيلي"الأرضي" على أكبر عربيين- المصري والعراقي- هو الاحتفاظ بمناطق عازلة واسعة- صحراء سيناء في الغرب، وصحراء شرق الأردن، في الشرق. ولكن، خلافاً لما تتمتع به اسرائيل على الجبهتين الشرقية والجنوبية، لا يوجد لها عمق استراتيجي كاف لمواصلة تهديد الجيش السوري في الشمال، ويجب أن لا ننسى أن الجيش السوري، هو احد أكبر الجيوش في العالم العربي. وترابط معظم وحداته بصورة دائمة. في المنطقة الواقعة بين دمشق، وهضبة الجولان، على مسافة ٢٥كم فقط من الجليل، و٧٥ كم عن حيفا والسهل الساحلي. وخلافاً لجيشي مصر و العراق اللذين يحتاجان عدة أيام للوصول إلى الحدود الاسرائيلية من مواقعهما الحالية، يستطيع الجيش السوري الوصول إلى مراكز التجمعات السكانية الاسرائيلية، خلال ساعات معدودة.

إن العائق العسكري الوحيد في طريق الجيش السوري، هي قوى اسرائيلية صغيرة نسبياً، تنتشر في المناطق المسيطرة في هضبة الجولان. وهذه القوة تكفي لحماية اسرائيل، إذ بعد حرب الأيام الستة، أصبح الجيش الاسرائيلي يسيطر على الأراضي السورية من العلى، من قمم جبل الشيخ، من جبل أبيطال، ونقاط مرتفعة أخرى على طول هضبة الجولان. وهذه النقاط المسيطرة، تعوّض اسرائيل عن عدم وجود عمق استراتيجي، على حدودها مع سوريا.

ولم يكن، محض صدفة، إصرار حكومة اسرائيل، في مفاوضات فصل القوات مع سوريا عام ١٩٧٤، على الاحتفاظ بهذه المنطقة- رغم تذمر الادراة الأمريكية، التي لم تستطع إدراك

سبب إصرار حكومة اسرائيل، برئاسة اسحق رابين نفسه، على الاحتفاظ ببضعة كيلو مترات. كا ان رابين كرر التزامه بهذا الموقف، عشية الانتخابات للكنيست عام ١٩٩٢، عندما قال: إن من ينزل عن هضبة الجولان، يكون قد تخلى على أمن اسرائيل". ولكن، بعد الانتخابات، تبين أن حكومة رابين مستعدة للتنازل عن الجولان مقابل سلام تعاقدي مع سوريا. ويبدو أن معظم أعضاء هذه الحكومة يتجاهلون السبب الذي جعل الحدود مع سوريا أكثر الحدود الاسرائيلية هدوءاً طيلة عشرين سنة. لم تُطلق منها ولو طلقة واحدة، خلافاً لما هي الحال على حدودنا مع مصر والأردن، ولبنان. إن السبب في ذلك، لا ينبثق من رغبة الأسد في الوفاء بتعهداته، مثلما اعتاد ان يقول مؤيدو الانسحاب من الجولان. ففي لبنان، مثلاً، خرق الأسد كل التزاماته تقريباً، بما فيها اتفاقية الطائف، التي التزم بموجبها بإخلاء الجيش السوري من لبنان. كما خرق، المرة تلو المرة، تعهداته لتركيا بشأن إلغاء قواعد المنظمات الكردية السرية المعادية لتركيا، في الأراضي السورية، كما خرق الاتفاق الذي توصل إليه(بوساطة أمريكية) مع اسرائيل في عام ١٩٦٧، بشان تقليص النشاطات الجوية والبرية والسورية في لبنان.

إن السبب وراء حرص الأسد على تطبيق اتفاقيات فصل القوات في هضبة الجولان، بسيط للغاية: فهو يعرف ما سيحدث في حالة خرقه لهذه الاتفاقيات. ويجب ان نستذكر أنه عندما كان الجيش السوري يسيطر على الجولان،ظلت الحدود مع سوريا تشهد حرباً مستمرة طيلة١٩ سنة. إذ ظلت مستوطنات سهل الحولة وبحيرة طبريا، عرضة لقصف سوري مستمر من مواقع الجيش السوري في أعلى الهضبة. وبعد احتلال الجيش الاسرائيلي هضبة الجولان في عام ١٩٦٧، لم يكن واضحاً للسوريين، مدى التغيير الذي طرأ في المنطقة، نتيجة للانتصار الاسرائيلي في الحرب، الأمر الذي دفعهم لمحاولة الهجوم على اسرائيل مرة أخرى.

وبعد وقت قصير، وجدوا الدبابات والمدافع الاسرائيلية تقف على أبواب دمشق. ومنذ ذلك الوقت، يسود الهدوء الشمال، لأن السوريين يعترفون بحقيقة بسيطة هي طالما: بقي

الجيش الاسرائيلي مرابطاً في مواقعه الحالية في الجولان، ليس للسوريين خيار حقيقي للحرب مع اسرائيل، أو لحرب تنطوي على فرصة لا نتصار سوري.

لهذا، فإن استمرار سيطرة اسرائيل على الجولان، يعتبر عنصراً حيوياً للمحافظة على السلام، أو على الأقل لضمان بقاء حالة اللاحرب مع سوريا. وإذا تم استبدال هعذا العنصر، بسلام تعاقدي، فلن نستطيع ضمان صمود هذا السلام، في غياب الكابح الأرضي لهجوم سوري جديد.

رغم كل هذا، يقول الكثيرون رغم المتطلبات المنية والمائية، فإن اسرائيل ملزمة- حسب القرارات الدولية التي قبلت بها- بإعادة هضبة الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة إلى العرب. وتعتمد هذه المطالبات على أساس قرار رقم ٢٤٢ الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي في أعقاب حرب الأيام الستة، والذي تنبته اسرائيل أيضاً. واليوم نسي الجميع الصيغة الأصلية لهذا القرار، والهدف من ياغتها، وفي حالات عديدة نجد أن صيغة القرار التي تُعرض في وسائل الاعلام. كثيراً ما تكون أقرب إلى نوايا أعداء اسرائيل، منها إلى الحقائق.

يتحدث قرار ٢٤٢ عن السلام. أنه يدعو إلى وقف كافة أشكال التصريحات المتعلقة بالحرب أو حالات الحرب، والاعتراف بالسيادة والسلامة الاقليمية والاستقلال السياسي لكافة دول المنطقة. والاعتراف بحق جميع هذه الدول في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها، وعدم تعريضها للتهديدات أو اعمال عنف.

إن اهم ما ورد في هذا القرار، على أية حال، هو مطالبة دول العالم، الدول العربية، بصنع سلام مع اسرائيل: على الدول العربية ان توقف حالة الحرب، والاعتراف بوجود اسرائيل، وضمان سلامة وامن حدودها. فقد أكد السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة آنذاك، آرتو جولدبرغ، الذي كان أحد واضعي صيغة القرار إن هذه هي المواضع الرئيسة التي تحدث عنها القرار قائلاً: "دعا قرار رقم ٢٤٢ إلى الاعتراف واحترام سيادة كافة دول المنطقة. وبما أن

اسرائيل لم يسبق أن أنكرت سيادة الدول العربية المجاورة لها، فمن الواضح أن هذه الصيغة، تطالب هـذه الدول، بالاعتراف بسيادة اسرائيـل". لكـن المـسؤولين عـن الدعايـة العربيـة، ادعـوا دائمـاً، أن اسرائيـل هـي المسؤولة عن عدم تطبيق قرار٢٤٢، معتمدين على بند واحد في القرار، وهو الداعي إلى " انسحاب قوات الجيش الاسرائيلي من أرض أُحتلت في النزاع الأخير" ويدعى العرب أن اسرائيل لم تنصع لدعوة الانسحاب هذه المناطق، فما السبب الذي يلزمهم بإبرام سلام معها وهي ما تزال تحتل الضفة الغربية وهضبة الجولان؟

إن الدول العربية، تتجاهل، عن قصد، حقيقة أن انسحاب اسرائيل من أية منطقة، يجب أن يتم بعـد التوقيع على اتفاقية سلام، وليس قبلها، تلك الاتفاقية التـي تـصر هـذه الـدول نفـسها عـلى عـدم، التوقيـع عليها. و فعلاً، إذا تفحصنا الأمور من خلال عدسة الدعاية العربية المشوّهة للحقائق، فمن السهل الاقتناع، بأن قرار الأمم المتحدة٢٤٢، دعـا بوضـوح، إلى إخـراج اسرائيـل مـن " الأراضي"- أي مـن كـل الأراضي، و ان الصيغة"اراضٍ" (بدون أل التعريف) لم تكن سوى زلّة قلـم. غـير انـه في حقيقـة الأمـر، ويـشهد عـلى ذلـك واضعوا صيغة القرار أنفسهم، لم يكن إخلاء الجيش الاسرائيلي من "الأراضي" هو الموضوع المركزي نهائيـاً، و انه تم شطب "أل التعريف" بصورة متعمدة، كي تستطيع اسرائيل التفـاوض حـول عمـق الانـسحاب و ان تظل تحتفظ بجزء من هذه الالأراضي لأغراضها الأمنية. فقد قـال أرتـور جولـدبيرغ: " الكلـمات المـشطوبة والنتعلقة بالانسحاب الاسرائيلي، سواء أل التعريف، أو كلمة "كل"... يتحدث القرار عن انسحاب من أراضٍ محتلة، ولا يحدد حجم الانسحاب"

وفيما يلي أيضاً، شهادة اللورد كرودن، السفير البريطاني لدى الأمم المتحدة، الذي اشـترك مـع جولـدبيرغ في صياغة القرار: " لم تقل أنه يجب الانسحاب إلى خطوط ما قبل عام ١٩٦٧. لم نـضف أل التعريـف. لقـد قـصدنا عدم قول كلمة كل الأراضي... كنا نعرف جميعنا أن خد الحدود الذي كان قائماً قبل ١٩٦٧، لم يُرسم كخط حدود ثابتة، بل كان خطاً لوقف إطلاق النار تم تحديده قبل ذلك بعشرين سنة... لم نقل إن خطـوط مـا قبـل ١٩٦٧، يجب أن تدوم إلى الأبد".

كما أنّ، يوجين روستاو، الذي كان نائباً لوزير الخارجية الأمريكية للشؤون السياسية، عندما بادرت الأمريكية بالقرار، يؤكد أيضاً، أقوال واضعي صيغة القرار، حيث يقول: "قرارا مجلس الأمن الدولي ٢٤٢ و٣٣٨...يعتمدان على مبدأين. اولاً، يحق لإسرائيل سيطرة على المنطقة إلى حين إبرام معاهدة سلام مع جاراتها الدول العربية. ثانياً، عند صنع السلام، تنسحب اسرائيل إلى حدود آمنة ومعترف بها، وليس إلى خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩، بالذات".

هل انسحبت اسرائيل من"أراضٍ أُحتلت في النزاع"؟ وهل يوجد شك في هذا؟

إن شبه جزيرة سيناء، التي أعيدت إلى مصر في إطار اتفاقية السلام مع اسرائيل، تعتبر ثروة أرضية هائلة وفقاً للمعايير الاسرائيلية، حوالي (٦٥) ألف كيلو متر مربع، أنشأت اسرائيل فيها مطارات كبيرة، وفنادق فخمة، واكتشفت فيها مصادر نفطية. إن سيناء أكبر بعشرات الأضعاف من الضفة الغربية، وتشكل أكثر ٩١% من مساحة الراضي التي احتلتها اسرائيل في عام ١٩٦٧.

إن قرار مجلس الأمن ٢٤٢، لم يحدد ولا في أي بند من بنوده، إن اسرائيل ملزمة بالانسحاب من كافة الجهات (سيناء، غزة، الجولان، الضفة الغربية) لقد ترك واضعوا صيغة القرار، هذه المسألة، بصورة متعمّدة، للتفاوض عليها بين اسرائيل وجاراتها الدول العربية. غير ان كل هذه الأقوال، تبتعد عن الرسالة الرئيسية الكامنة في الصيغة الدبلوماسية للقرار ٢٤٢: إن العرب، هم الذين يجب عليهم التنازل من أجل السلام، فإذا كان القرار يعترف بحق اسرائيل في حدود آمنة، ولم يتوقع منها العودة إلى الحدود التي بدأت الحرب منها، فإن المنطق يقول أنه يجب على العرب أن يضحّوا بجزء من مطالبهم الاقليمية من أجل السلام المضمون.

ولم لا؟ أية تسوية هذه التي يتنازل في إطارها أحد الأطراف عن مطالبه كاملة، في حين لا يتنازل الطرف الآخر عن ١% من مطالبه؟ أي موقف أخلاقي هذا، الذي ييقول إن المعتدي الخاسر، يحق له إستعادة المنطقة التي شن عدوانه منها؟

إن قرار٢٤٢، إذا أنزلنا عنه غبار الدعاية العربية الذي تراكم عليه منذ عشرات السنين، نجد أنـه يقـرر ما يقبله كل ذي منطق وهو: السلام الحقيقي، يجب ان يكون لمصلحة الطرفين، لذا يتوجب عـلى الطـرفين، دفع ثمنه. إن الحدود الآمنة لإسرائيل، هي شرط ضروري لاحلال السلام في اشرق الأوسط. لقد أثبت العـرب أكثر من مرة، عن طريق تكرار هجماتهم على اسرائيل أن قطاعاً أرضياً بعرض ١٦كم، الـذي كانـت اسرائيـل مضغوطة في داخله قبل ١٩٦٧، لا يمكن اعتباره حدوداً آمنة. لذا يجب على العرب تقديم شيء ما من أجـل السلام.

إن الاستراتيجية العسكرية العربية بسيطة وواضحة، وهي ضغط اسرائيل داخل خطوط الهدنـة التـي سبقت حرب الأيام الستة، ووضعها، مرة ثانية، في حالة لا يمكن تحمّلها.

كما أن الاستراتيجية السياسية العربية، هي أيضاً بسيطة وواضحة وهي : ممارسة الضغط عـلى الـدول الغربية بغية إرغام اسرائيل على الانسحاب إلى هذه الخطوط.

منذ تولي الحكومة اليسارية في اسرائيل عام ١٩٩٢، تقلصت هذه الضرورة، في ضوء اسـتعداد اسرائيـل للانسحاب دون ممارسة أإية ضغوط عليها.

ولن تجدر الإشارة إلى القوال التي أدلى بها الرئيس الأمريكي، لبندون جونسون، بعـد وقـت قـصير مـن حرب الأيام الستة، حيث قال: " نحن لا نقول لدول أخرى كيف ترسم بينها الحدود التي توفر لكل واحـدة منها أكبر قدر من الأمن". ومع ذلك، أشار جونسبون: " من الواضح أن العودة إلى الوضع الذي كـان سـائداً في الرابع من حزيران ١٩٦٧، لن تؤدي إلى السلام".

بغض النظر عن الخلافات في الرأي داخل اسرائيل، سواء بين مؤيدي حزب العمـل، أو الليكـود، أو بـين المعارضة، والحكومة- فإن معظم الجمهـور الاسرائـيلي يـؤمن بـأن اسرائيـل لا تـستطيع العـودة إلى حـدود حزيران١٩٦٧، دون أن تعرض وجودهـا للخطـر، وأنـه لا يحـق لهـا التفـريط بالـسيطرة الاسـتراتيجية عـلى الجولان، ومناطق الضفة الغربية.

تبدو مسائل مثل الحدود، والمناطق والعمق الاستراتيجي، اموراً هامشية في نظر سكان الدول التي يكون فيها السلام ظاهرة روتينية. لكن هذه المسائل ذات أهمية مصيرية، في الشرق الأوسط، فإذا أخذنا بعين الاعتبار الأهمية الاستراتيجية لمناطق الضفة الغربية وهضبة الجولان، فلا بد أن نستنتج أن الشعار"أراضٍ مقابل السلام" غير صحيح من أساسه.

إن سيطرة اسرائيل على هذه المناطق ليست" عائقاً أمام السلام" إنما هي عائق أمام الحرب.ولكي نحقق سلاماً دائماً، يتوجب على اسرائيل المحافظة على قدرة ردع قوية طيلة فترة طويلة، أي إلى حين حدوث تحوّل حقيقي في نظرة العرب تجاهها. إن وجود اسرائيل، بالذات، في هذه المناطق، هو الذي ردع العرب عن شن حرب شاملة عليها، وهو الذي زاد احتمالات تحقيق سلام حقيقي في المستقبل.

الفصل الثامن

المشكلة السكانية

يجب على اسرائيل مواجهة حقيقتين اساسيتين مرتبطتين الواحدة بالأخرى. فمن جهة أولى، هنالك أهمية حاسمة للجدار الواقي المتمثل بمناطق الضفة الغربية، في مجال الدفاع عن الدولة، ومن جهة أخرى، يعيش على ظهر هذا الجدار حوالي مليون عربي، وهذه خلاصة المشكلة التي تثار دائماً في النقاش السياسي داخل اسرائيل: اذا تنازلت اسرائيل عن مناطق الضفة الغربية، ستواجه كابوساً أمنياً. ولكن اذا وصلت التمسك بهذه النماطق فيها من سكان عرب، الا تواجه كابوساً ديمغرافياً؟ لا شك أن المسألة الديمغرافية حقيقية وصعبة بالنسبة لاسرائيل. ويجب دراسة هذا الموضوع بجدية والتعرف على حجمه وخططورته، بغية اتباع سياسة معقولة تجاهه، ولكننا لا نستطيع أن تجد طريقة مثلى لمعالجة المشكلة السكانية.

خلال السنوات لاالأخيرة، يتحدثون في اسرائيل عن المشكلة السكانية على أنها "مدمرة"، من خلال الافتراض بأنه اذا وصلت اسرائيل سيطرتها على الضفة الغربية، فان تستطيع المحافظة على الطابع الديمقراطي.

لثد حذر أصحاب هذا الرأي الأسود، بعد حرب الأيام الستة، من أن معدل التكاثر الطبيعي لدى العرب، سيؤدي إلى خلق اغلبية عربية في اسرائيل، في غضون ثلاثين سنة. يقترح اليساريون أن تنسحب اسرائيل من الضفة الغربية من جانب واحد، وليكن ما يكون. في حين يقترح اليمينيون "ترحيل" السكان العرب من الضفة إلى الأردن.

لا يقتصر هذا الجدال على اسرائيل وحدها، فقد شهدنا في السنوات الأخيرة وافراً من المقترحات والنصائح الصادرة عن دول أخرى، كان معظمها على صيغة النصيحة التي اسدتها صحيفة "التايمز" اللندنية للتشيكيين في عام ١٩٣٨: أن المكاسب التي ستجنيها تشيكوسلوفاكيا في حالة كونها دولة قومية، ستكون أكبر بكثير مما ستخسره من فقدانها لاقليم سوديت".

قبل قيام الدولة، تحدث ديمغرافيون يهود عن نهاية سوداء للدول اليهودية، وتعزز هذا الاعنقاج بصورة اعمق بعد حرب الايام الستة، بعد اسبوعين من استيلاء اسرائيل على مناطق الضفة الغربية وغزة، في حزيران ١٩٦٧، نشررا صحيفة هآرتس تنبؤات الدكتور يهودا دون القاتلة: أن المناطق المحتلة والمحررة، حلبت لاسرائيل حوالي ١.٤ مليون عربي... وهذا يشكل شحنة ثقيلة جداً من المشاكل والالتزامات، وبخاصة في ضوء حقيقة ان نسبة التكاثر الطبيعي المتوقعـ ستجعل عدد الشعبيين متساوياً هنا في غضون ١٤ سنة.

لقد أخطأ "دون" بالطبع، اذ بعد مضي ١٤ سنة لم تتغير تقريباً، النسبة العددية بين اليهود والعرب.

كما أن صحيفة "جيوزلم بوست" وصفت كلاً من دون فريدلندر، وكلافين جولدشتايدر، بأنهما من أكبر الديمغرافيين في اسرائيل، وأوردت على لسانهما في عام ١٩٧٤: أنه مع الحد الأقصى من الاستيطان اليهودي (الاحتفاظ بكل المناطق المحتلة) قد يصبح السكان اليهود اقلية عددية واضحة، عام ٢٠٠. وقد أخطأ الاثنان ايضاً. صحيح أنه كان هنالك انخافاض بسيط في نسبة اليهود نسبة إلى المجموع السكاني العام، غير أنه من الواضح اليوم، أنه لا يوجد احتمال لأن يصبح العرب أغلبية في عام ٢٠٠٠.

البروفسور ارنون سوفر، الذي وصفته صحيفة "شيكاغو تربيون" بأنه من أهم خبير اسرائيلي في مجال الديمغرافيا، قال عام ١٩٧٨، أنه جتى عام ٢٠٠٠، ستصل نسبة السكان العرب في "أرض اسرائيل" إلى ٤٦% وأضاف: أن هذه الاحصائية، لا تكذب... وإذا استمر الوضع على ما هو عليه الآن، فستختفي اسرائيل بصورتها الحالية.

ها هي اسرائيل، لا يوجد فيها مؤشرات للاختفاء. أن الكثيرين من هؤلاء الديغرافيين هم ذوو مواقف سياسية يسارية، وجميعهم يعرفون كيف يشرحون أن الخلاص يأتي عن طريق التنازل عن المناطق المحتلة.

وفي أوساط اليمين المتطرف أيضاً، هنالك جماعة متزايدة تقبل بتنبـؤانهم، مـع أنهـا لا تقبـل حلـولهم، فاليمينيون المتطرفون في اسرائيل يقترحون اخلاء السكان العرب من الضفة الغربية، للحيلولة دون حـصول هذه النتيجة الحتمية.

ان من مؤيدي فكرة وجود مشكلة سكانية، من التيارين السياسيين في اسرائيل، يعلنون، بكل ثقـة، أن العرب سيصبحون أغلبية في البلاد، إدا لم نعمل وفقاً لمنصائحهم، غير أن القليلين فقط، هـم الـذين فحـصوا امكانية تحقيق تنبؤات هؤلاء الخبراء السكانية السوداء، التي بنوا على أساسها سياستهم.

أن الديمغرافيا، ليست بالعلم الدقيق، وتوقعاتها، ليست حقائق. اذ عنـدما يقـول لنـا عـالم فيزيـائي أن الكرة الساقطة من علو ٢٠ متراً، ستـصطدم بـالأرض بعـج مـضي ثـانيتين، نـستطيع الافـتراض بـأن هـذا مـا سيحدث فعلاً: لقد اجريت مثل هذه التجربة آلاف المرات، وإذا أردنا التأكد مـن صـحتها، نـستطيع اعـادة التجربة أو اجراءها. أن الكرة شيء جامد. ولا يوجـد أي احـتمال أن تقـرر مـن تلقـاء نفـسها تغيـير مـسار سقوطها، وتتجه فجأة إلى اتجاه آخر. أن سقوط الكرة خـلال ثـانيتين- حقيقـة ثابتـة. لكـن الأمـر مختلـف، عندما نتحدث عن انسان. فالمراقب يستطيع أن يتنبأ بأن شخصاً معيناً سيذهب إلى العمل يوم الجمعـة في تمام الساعة ٨.٣٠ صباحاً لأنه اعتاد هذا، في بقية ايام الاسبوع- لكـن هـذه لـيست حقيقـة علميـة. إذ مـن المحتمل جداً أن يغير هذا الشخص عادتـه، ويـذهب إلى الـشاطئ بـدلاً مـن مكـان عملـه. أي أن النتيجـة النهائية، تتوقف إلى درجة كبيرة، على الشخص نفسه.

في حالات كثيرة، يتعامل الديمغرافيون مع بني البشر، كما يتعاملون مع الكرة المطاطية في التجارب العلمية. فالديمغرافي يحدد رأيه على أساس تطور الاشياء حتى اليوم الذي يحدد فيه رأيه هذا- النسبة العددية بين العرب واليهو، نسبة الولادة، العمر، وهكذا- ويتنبأ بما سيحدث، فيما لو تصرف الجميع على نفس النوع غير أن الحركة الصهيونية اعتمدت، منذ البداية، على نظرية عكسية تماماً. لقد تفحص هرستل الامور، كـما تطـورت حتـى لـك اليوم، وقال أنه ليس من الضروري أن تستمر على نفس النحو، وكتب: ان اردتم، لن تكون هذه خرافة".

لقد كان عدد السكان العرب في البلاد =، آنذاك، يزيد بعشرة أضعاف عن عدد اليهـود. لكـن الـشعب اليهودي اختـار آنـذاك أن يتجاهـل الحقـائق الـسكانية: هـاجر الـصهاينة إلى الـبلاد وبنوهـا، اقـامو المـدن والمستوطنات لاستيعاب المزيد مـن اليهـود، وخلقـوا واقعـاً ديمغرافيـاً جديـداً: دولـة يهوديـة ذات أغلبيـة يهودية.

لقد هاجر جد أمي إلى "أرض اسرائيل" عام ١٨٩٦. وفي تلك السنة، كان عـدد العـرب يعـادلون عـشرة أضعاف عدد اليهود. وظل اليهود متمسكين بالارض من خـلال الايمـان بـأنهم سيـصبحون أغلبيـة في نهايـة الأمر. وعندما هاجر إلى البلاد جـدي لوالـدي عـام ١٩٢٠ كانـت النـسبة (١:٦) وفي عـام ١٩٤٧، عنـدما أقـر مشروع التقسيم في الامم المتحدة، كانت النسبة (١:٢) وبعد حرب "الاستقلال" بدأت هجرة يهودية واسعة النطاق من الدول العربية وغيرها، وخلال ١٥ سنة انقلبت الأممور أصبح عدد اليهود ضـعف عـدد العـرب تقريباً. ولقد تغيرت هذه النسبة قليلاًفي غير صالح اليهود في العقد الأخير، غير أن هذا التوجه العـام يمكننـا استخلاص الاستنتاج العكسي، بالنسبة لمستقبل الدولة اليهودية: سيحافظ اليهود على أغلبيتهم الحالية، بـل سترتفع نسبتها إذا ما استمروا في تنمية هجرة يهودية على نطاق واسع.

لقد أثيرت خلال نقاش جرى داخـل حـزب العمـل، عـام ١٩٦٨، التوقعـات الـسوداء بـشأن "الاختنـاق الديمغرافي" المتوقع لاسرائيل في غضون ثلاثين سنة، إذا لم تتنازل عـن المنـاطق المحتلـة. آنـذاك، رد شـمعون بيرس بقوله: لدي شك بالنسبة للحكم سلفاً، وحسب احصائيات ١٩٦٧، على ما سيحدث خلال الثلاثين سنة القادمة، وأنه لن يحدث خلال الثلاثين سنة القادمة سزى زيادة عدد العـرب بنـسبة ٣.٥% سـنوياً، وتكـون نسبة تكاثر اليهود أقل من اسرائيل، وأن اليهود لن يزيدوا نسبة التكاثر الطبيعي لـديهم؟... وهـل سـتبقى روسيا، على ما هي عليه الأم؟ وهـل سـيظل اليهـود الأمريكيـون كـما هـم اليـوم؟ يهـود فرنـسا وبريطانيـا وأمريكا الجنوبية- كلهم سيظلون على حالهم، دون تغيير؟ هل هذا هو الحلم الصهيوني؟...

ستتاح لنا الفرص خلال السنوات الثلاثين القادمة، لاتخاذ قرارات بشأن تغيير مسارنا، حتى لو تحققت أسوأ التنبؤات. لكن من هو المستعد للتنازل اليوم- وهناك من هم مستعدون للتنازل، حتى دون سلام- لا يتنازل عن المناطق المحتلة فحسب، انما يتنازل عن مستقبل البلاد وفعلاً، لا تزال هذه الأقوال صالحة للتكرار اليوم أيضاً. هيا نفحص الحقائق التي كان من المقرر أن ترجع الكفة لصالح "تراتسفير" يهودي أو عربي من الضفة الغبية وغزة، فور انتهاء حرب الأيام الستة.

بعد الحرب، بدأت تتزود التنبؤات السوداء، التي توقعت أن يصبح العرب في غضون ٢٥ سنة أغلبية سكانية في منطقة غرب نهر الأردن. وبما أنه قد مضت الآن أكثر من ٢٥ سنة، يمكننا التعرف على مدى تحقيق هذه التوقعات. فيما يلي المعطيات العددية لسكان "أرض السلام" في ٢٥ سنة:

	١٩٦٧		١٩٩٣	
	غير يهود	يهود	غير يهود	يهود
اسرائيل ضمن				
حدود ما قبل ١٩٧٦	٣٢٨.٠٠٠	٢٠٣٤٨.٠٠٠	٨١٧.٠٠٠	٤.٥١.٠٠٠
الضفة الغربية	٥٦١.٠٠٠	-	١.٢٤٤.٠٠٠	٢٦٦.٠٠٠
غزة	٣٨١.٠٠٠	-	٧٤٩.٠٠٠	٥.٠٠٠
هضبة الجولان	٨.٠٠٠	-	١٦.٠٠٠	١٣.٠٠٠
المجموع	١.٣٦٨.٠٠٠	٢.٣٨٤.٠٠٠	٢.٨٦٢.٠٠٠	٤.٣٣٥.٠٠٠
المجموع بالنسبة المئوية				
من مجمل السكان	%٣٦.٥	%٦٣.٥	%٣٩.٥	%٦٠.٥
كما هو مذكور اعلاه				
بدون غزة	%٢٩.٣	%٧٠.٧	%٣٢.٤	%٦٧.٦

ملاحظات:

١- علاوة على العرب المسلمين والمسيحيين المشمولين بمصطلح "غير اليهود" هنالك الدروز والشركس، وأقليات أخرى بلغ عددهم، عام ١٩٩٢، (٨٥) ألف نسمة، أي نسبة ١.٣% من مجموع السكان.

٢- تشمل المعطيات المتعلقة بالضفة الغربية، القدس الشرقية أيضاً، حسب احصاء حجم السكان في شرق المدينة: ٦٥.٠٠٠ غير يهود، عام ١٩٦٧، ١٥٥.٠٠٠ غير المصدر: مكتب الاحصاء المركزي في اسرائيل.

في عام ١٩٩٢، لم تكن العلاقة العددية بين اليهود والعرب مختلفة كثيراً عما كانت عليه في عام ١٩٦٧: كانت نسبة اليهود آنذاك ٦٣.٥%، وفي عام ١٩٩٢ وقفت عند ٦٠.٦% بعبارة أخرى، تقول أنه بعد مضي ربع قرن، لم يحدث بعد الانهيار الديمغرافي الذي كثرت التحذيرات بشأنه (ولو لم تسمح اسرائيل بجمع شمل العائلات العربية في الضفة والقطاع، لكانت نسبة اليهود. وعندما نعتمد على هذه الحقيقة فقط، نصل إلى استنتاج واحد تقريباً، هو أن نهاية اسرائيل كدولة يهودية، ليست بعيدة.

هنالك معلومة احصائية اخرى يكثرون من ترديدها، تفيد بأن السكان العرب، هم أكثر شباباً من اليهود، الأمر الذي سيجعل تكاثرهم الطبيعي في المستقبل أعلى. كما أن معلقين اسرائيليين أضافوا إلى هذه المعلومة عنصراً درامياً هو: أن المعركة الآن تدور حول "الرحم"، هكذا بكل بساطة. وهذه المعركة لا بد أن يخسرها اليهود. غير أن الواقع أكثر تعقيداً. أن مستقبل اسرائيل السكاني لن تحسمه "معركة على الرحم" فقط. فالعناصر التي تكون المستقبل الديمغرافي للدولة كثيرة، والصورة العامة ليست بهذه الدرجة من الوضوح. إذ أن الحجم السكاني لا يكثر أو يقل لسبب واحد فقط، إنما يأتي نتيجة لتأثير أربعة عناصر: الولادة، الموت، "والهجرة"، "الهجرة المعاكسة". فالولادة، والهجرة، تزيدان عدد السكان، بينما الموت، والهجرة المعاكسة، يقللان عدد السكان.

وبما أننا نتحدث هنا عن نوعين من السكان، اليهود والعرب، فأننا نتعامل مع ثمانية عناصر، وليس أربعة فقط. ويجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار، كل هذه العناصر مجتمعة، في كل مرة نجري فيها دراسة جدية لمستقبل اسرائيل الديمغرافي، كما أن كل واحد من العناصر الثمانية هذه، يتأثر بمجموعة كبيرة من القوى والظروف. فالهجرة اليهودية، على سبيل المثال، تتأثر بالتقلبات السياسية في روسيا، وفي مجموعة الدول المستقلة، ومن زيادة قوة اللاسامية في أوروبا، وفي أماكن أخرى، ومن وضع العمالة في اسرائيل والعالم، ومن حجم نشاط الحركة الصهيونية، غيرها. إذا، ليس من الغريب أن يخطئ كثيرون من الديمغرافيين في توقعاتهم.

لذا، فإن بناء التوقعات بالنسبة للزيادة السكانية في الضفة الغربية وغزة، على أساس نسبة التكاثر الطبيعي السنوي لدى العرب هناك، ليس له أهمية كبيرة.

أن الطرف االعربي في المعادلة الديمغرافية، كما يعرض في وسائل الاعلام، ينقصه دائماً عنصران: الانخفاض السريع في نسبة الولادة في الوسط العربي، وهجرة العرب الواسعة إلى خارج مناطق الضفة وغزة.

قبل حرب الأيام الستة، كان متوسط عدد أفراد الأسرة العربية في اسرائيل ٩.٢ فرد وانخفض هذا العدد في عام ١٩٨٧ إلى معدل ٤.٦ فرد. في حين انخفضت نسبة الولادة في الوسط اليهودي. وكانت تلم نتيجة مباشرة لارتفاع مستوى المعيشة والمستوى الثقافي في الوسط العربي، وبخاصة بين النساء: الغالبية العظمى من النساء العربيات، يعرفن اليوم القراءة والكتابة، وإذا استمر التطور الاقتصادي والثقافي، فمن غير المتوقع أن تنخفض أيضاً نسبة الولادة في الوسط العربي، غربي نهر الأردن، وأن تصل إلى مستوى نسبة الولادة في الوسط اليهودي.

أما بالنسبة للعنصر الثاني، الهجرة العربية للخارج: فمنذ سنوات الخمسينات، يهاجر عرب الضفة الغربية وعزة بمحض ارادتهم، بمعدل هجرة ثابتة تقريباً، وذلك لدوافع

اقتصادية في معظم الحالات، حيث بلغ معدل الهجرة السنوسة في تلك الفترة حوالي ٢٠ ألف شخص.

وعندما انتقلت هذه المناطق إلى الحكم الاسرائيلي، تحسن الوضع الاقتصادي بصورة جوهرية، ووجد حوالي (٧٠) ألف عربي من هذه المناطق مصادر عمل لهم، داخل الخط الأخضر، وأدى ذلك، إلى تقليص حجم الهجرة من الضفة الغربية إلى الخارج إلى درجة معينة. رغم ذلك، هاجر من هذه المناطق آلاف العرب سنوياً، بسبب الرواتب والأجور المرتفعة التي يمكن الحصول عليها في دول الخليج ودول عربية أخرى وظهور جاليات عربية فلسطينية في أوروبا وأمريكا تجعل من السهل على المهاجرين الجدد العثور على ملجأ لهم.

في منتصف الثمانيات تباطأ معدل الهجرة العربية، لكن التدهور الاقتصادي الذي نجم عن الانتفاضة، وبخاصة الخوف من "الارهاب العربي"، زاد من معدل الخروج من هذه المناطق. وقد برزت هذه الظاهرة بصورة جلية، أمام مبنى القنصلية الأمريكية في القدس الشرقية، حيث كانت تقف طوابير طويلة من المراجعين العرب، الذين يريدون الحصول على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة. (من أن أحدهم قال معلقاً على هذه الظاهرة أنه لو كانت الولايات المتحدة تسمح بدخول عرب الضفة الغربية إليها، كما تسمح ليهود الاتحاد السوفياتي، لحلت مشكلة اسرائيل السكانية في يو واحد). لقد كانت هجرة الغرب من المناطق الخاضعة للسلطة الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٧، عنصراً مهماً في الميزا السكاني. ولكن، إذا كانت الاحصائيات السكانية، تشير إلى وجود "خطر" سكاني حقيقي، فإن هذا الخطر ليس مصدره عرب الضفة الغربية وغزة، بل "عرب اسرائيل" بالذات.

ففي الفترة من ١٩٦٧-١٩٩٢، انخفضت نسبة عرب الضفة الغربية وغزة من ٢٥.٨% إلى ٢٤.٨% من مجمل السكان غرب نهر الأردن. وفي المقابل، زادت نسبة "عرب اسرائيل" من ١٠.٥% إلى ١٣.٤% ولعل أي خبير سكاني لا يقول صراحة، كم يحتاج "عرب اسرائيل" من الوقت، حتى يشكلوا أغلبية في اسرائيل، إذا تخلت عن الضفة الغربية وغزة. فإذا كانت تنبؤات

هؤلاء الخبراء، خالية من اية ميول سياسية، فإن عليهم القول صراحة، أن اسرائيل يجب أن تتخلى أيضاً عن مناطق الجليل والنقب التي يوجد فيها نسبة كبيرة من "عرب اسرائيل".

عندما نأخذ بالحسبان هذه المعطيات، يتضح لنا أن التوقعات الخيالية بشأن "انفجار سكاني مؤكد" بعيدة جداً عن كونها توقعات مؤكدة. ويزيد التأكيد على هذا الاستنتاج أيضاً، عندما نتفحص الطرف اليهودي في المعادلة: يبلغ متوسط عمر الشخص اليهودي ٧٨ سنة لدى النساء، و٧٥ سنة لدى الرجال. ويمكن الافتراض بأن هذا المعدل سيزداد مع التقدم الطبي. كما أن نسبة الولادة في الوسط اليهودي ثابتة منذ سنوات عديدة، عند الرقم ٢.٧ ولد في الأسرة، وهي أعلى معدل ولاجة في العالم الغربي، ويبدو أن هذا هو رد الجمهور اليهودي نتيجة تجاربه في الحروب المتكررة، وخوفه من حرب جديدة، وكتعبير عن رغبته في ضمان بقاء الشعب اليهودي.

لا شك أن هناك مصلحة لدولة اسرائيل، بصفتها دولة يهودية في تشجيع زيادة حجم الأسرة اليهودية. وتجدر الاشارة، فبي هذا المجال، إلى أن دولاً مثل فرنسا وهنغاريا، وبلغاريا، والجمهوريات السوفياتية سابقاً، اكتسبت خبرة ناجحة للغاية في تطبيق برامج وطنية لتشجيع الولادة. وقد وردت في إحدى الدراسات الحكومية مقترحات مختلفة لتحقيق هذا الهدف: منح قروض لانشاء اسر جديدة: مساعدة النساء اللواتي يعانين من صعوبات في الاخصاب، تقديم المشورة أو المساعة النساء اللواتي حملن بصورة غير متوقعة، تقديم المساعدة في مجال اسكان العائلات التي ترغب في زيادة عدد أولادها، لكنها لا تستطيع بسبب النقص في المسكن، تعديل قوانين الشؤون الاجتماعية في مواضيع تتعلق بالاولاد، والأمهات العاملات وغير ذلك.

لا يوجد، بالطبع، أي ضمان بأنه حتى لو اتخذت هذه الاجراءات، ستؤدي إلى تحقيق النتائج المرجوة، غير أن توقعات "مؤكدة" بشأن نسبة ولادة منخفضة في الوسط اليهودي، في الوقت الذي تستطيع فيه اسرائيل تنفيذ برامج لتشجيع الولادة، تشبه التوقعات التي تؤكد

بصورة مطلقة "عدم نزول مطر" أن معدل الولادة في الوسط اليهودي، لا يمكن التنبؤ به بصورة قاطعة، كون جزء من هذه المسألة على الأقل، يتعلق بتصرفات اسرائيل نفسها.

ان العنصر الثاني الذي يؤثر على حجم السكان اليهود، فهو الهجرة المعاكسة، وهذا ينطوي على مشاعر فورية بشكل خاص. أن الهدف الرئيسي للحركة الصهيونية هو تجميع الشعب اليهودي في دولة اسرائيل، ولهذا السبب ينظر معظم الجمهور في البلاد إلى الهجرة المعاكسة باعتبارها تصرفاً سلبياً جداً. إذ أن كل شخص يهاجر من اسرائيل، يعتبر خسارة حقيقية، مثلما يعتبر وصول أي مهاجر جديد مكسباً حقيقياً.

في الثمانينات، عندما بلغ معدل الهجرة المعاكسة من اسرائيل حوالي ألف شخص سنوياً، اعتبر الكثيرون في اسرائيل، هذا الأمر، خطراً حقيقياً على مستقبل الدولة. لكن وفي أعقاب تحسين الوضع الاقتصادي والتشجيع النفساني في اعقاب الهجرة من الاتحاد السوفياتي، توقف هذا التوجه.

يقدر عدد الاسرائيليين الذين هاجروا من اسرائيل منذ قيامها بحوالي ٤٠٠ الف نسمة- حوالي ١٠% من مجموع السكان اليهود حالياً. ويعتبر هذا الرقم كبيراً جداً بالنسبة لدولة لا تزال تبذل الكثير من أجل زيادة عدد سكانها، من عير الممكن أن نتوقع ما إذا كانت الهجرة المعاكسة من اسرائيل ستستأنف على نطاق واسع، أن الأمر متوقف، أولاً وقبل كل شيء، على ما سيحدث داخل اسرائيل نفسها. إذ أن نسبة الهجرة المعاكسة، تتأثر بشكل عام، بالصعوبات الاقتصادية، وليس بالتطورات السياسية أو العسكرية بالذات، وأن معظم الاسرائيليين المقيمين في الولايات المتحدة وفي أماكن أخرى، تربطهم باسرائيل علاقات قوية، وكثيرون منهم يعرفون عن رغبتهم في العودة إلى اسرائيل، فالمهاجرون من اسرائيل يتأثرون جداً بأية مشاريع تشجعهم على العودة إلى اسرائيل. ومن الخطأ الفاحش، عدم أخذهم بنظر الاعتبار لدى الحديث عن التوازن السكاني. فإذا طرأ على الاقتصاد الاسرائيلي تحسن حقيقي، فمن المتوقع أن ينخفض معدل الهجرة المعاكسة من اسرائيل، وزيادة في عدد العائدين إليها،

وبينهم رجال أعمال الهجرة المعاكسة من اسرائيل، وزيادة في عدد العائدين إليها، وبينهم رجال أعمال ناجحون، يستطيعون المساهمة، بدرجة كبيرة، في تطوير الاقتصاد الاسرائيلي.

ان أكثر العناصر أثراً على الهجرة إلى اسرائيل، هو الوضع الاقتصادي فيها. وتعتبر الهجرة، كما أسلفنا، أهم عنصر في الطرف اليهودي من المعادلة السكانية. فمنذ بداية الحركة الصهيونية كانت الهجرة اليهودية مصدراً للحل السكاني الوحيد الذي كان قابلاً للتنفيذ آنذاك. لقد حولت الهجرة اليهودية أرضاً للحل قاحلة، سكانها العرب قليلون، لكنهم يبلغون عشرة أضعاف الجالية اليهودية الصغيرة التي كانت فيها، إلى دولة اسرائيل الحالية، التي يزيد فيها عدد السكان اليهود على العرب بنسبة ملموسة، حتى بعد الأخذ بالاعتبار سكان المناطق التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧.

واليوم أيضاً لا تزال الهجرة اليهودية تنطوي على امكانيات ضخمة لتقوية الدولة في المستقبل، إذ يوجد في جمهوريات الاتحاد السوفياتي المستقلة، حوالي ٢-٣ ملايين يهودي، أي أكثر من عدد العرب في كل "أرض اسرائيل" الغربية. وربما يزيد عدد اليهود في هذه الدول، عن هذا الرقم بكثير نظراً لأن معطيات التعداد السكاني في الاتحاد السوفياتي، لم تكن دقيقة، ولا كثيرين من اليهود السوفيات، لم يرغبوا في إظهار يهوديتهم.

لقد أصبح شبه مؤكد الآن، أن جميع يهود روسيا، واوكرانيا، وجمهوريات أخرى، سيهاجرون إلى اسرائيل فيما لو زادت خطورة الوضع الاقتصادي والسياسي هناك، وإذا استطاعت اسرائيل توفير فرص عمل مناسبة لهم.

هنالك ما يزيد على مليون يهودي في روسيا، قدموا، حتى الآن، طلبات هجرة إلى اسرائيل، وقد يحذو كثيرون آخرون حذوهم، وهذا عنصر آخر مهمم يتوقف استغلاله على اسرائيل نفسها.

ليس بالضروة، أن تكون الهجرة الكبرى من مجموعة الدول المستقلة التي بدأت في مطلع التسعينات، أكبر هجرة في تاريخ الحركة الصهيونية. ففي فرنسا، يقترب عدد اليهود من مليون نسمة، ويعيش حوالي ١٠٠ ألف يهودي في جنوب افريقيا، وحوالي ٣٠٠ ألف يهودي آخرون يعيشون في الأرجنتين. وتشهد فرنسا في السنوات الأخيرة، موجة لا سامية آخذة في الازدياد، مع ظهور القومية المتشددة لليمين المتطرف، كما أت مستقبل الجالية اليهودية في جنوب افريقيا يلفه الغموض، مع التغييرات الدراماتيكية التي تمر بها هذه الدولة.

ومن شأن مثل هذه التطورات الاجتماعية والسياسية التي تهدها هذه الدول، أحداث تيار جديدى للهجرة إلى اسرائيل، وبخاصة إذا تحسن الوضع الاقتصادي في البلاد. وتنطبق هذه الأمور أيضاً على دول أخرى عديدة، توجد فيها تجمعات يهودية، من ضمنها الولايات المتحدة وكندا اللتان تنتظر فيهما أكب قوة يهودية، اليوم الذي تبدي فيه اسرائيل استعدادها لتهجيرهم إليها.

أن تاريخ الصيونية، هو تاريخ هجرة اليهود إلى "أرض اسرائيل" وهذا هو العنصر الذي سيحسم مستقبل الدولة السكاني. لذا فإن المفتاح لمستقبل الدولة والحل لكافة مشاكلها السكانية، يكمنان في استمرار هجر اليهود إلى اسرائيل حتى تصبح مأوى للجماهير اليهودية التي شاهدها مؤسسو الحركة الصهيونية في أحلامهم. ولهذا فإن النضال من أجل الهجرة اليهودية، هو نضال من أجل استمرار بقاء اسرائيل. فإذا ما انتهجت اسرائيل سياسة صحيحة بالنسبة للهجرة والتكاثر الطبيعي، سيكون بمقدورها مضاعفة عدد السكان اليهود في غضون عشرين سنة. ومن المحتمل أن يرى كثيرون من اليهود بذلك هدفاً صعب المنال، لكن العرب يعتقدون غير هذا.

صحيح أنهم يتحدثون إلى الخارج عن انتصار الأم العربية في "المعركة وعلى الرحم" لكنهم يعرفون في قرارة أنفسهم مدى قوة الهجرة اليهودية. لقد كان العرب دائماً يتأثرون بحجم الزيادة السكانية المتكررة. وهذا هو السبب الذي دفع العرب لمحاربة الهجرة اليهودية

بلا هوداة، لأنهم يرون فيها العنصر الحاسم في المنافسة الديمغرافية مع اليهود. كما أن هذا هو السبب وراء حقيقة كون العرب يديرون صراعهم ضد اسرائيل، على محورين متوازيين: محاولة تفويض اسرائيل من الناحية الجغرافية عن طريق اضعاف اختطافها بالارض وتقليص حدودها، ومحاولة اضعافها من الناحية الديمغرافية، عن طريق وقف تيار لهجرة إليها.

وفعلاً، كانت الزيادة في عدد اليهود في اسرائيل مثيرة جداً من ٦٠٠ ألف نسمة من قبل أربعين سنة إلى أربعة ملايين نسمة حالياً. لكن، حتى هذه الزيادة، ليست كافية بالنسبة لاسرائيل كقاعدة ديمغرافية مناسبة لجيشها، ولاقتصادها، ولوجوه أخرى من حياتها القومية.

أن أربعة ملايين نسمة، ليس بالرقم الكبير وفقاً للمفاهيم المتعلقة بالشعوب. ويدفع المواطنون الاسرائيليون ثمناً باهظاً بسبب قلة عددهم- سنوات كثيرة في الخدمة العسكرية النظامية والاحتياط، والضرائب، نوعية الحياة في مجالات عديدة. إذ أن معظم واردات الدولة مخصصة لضمان بقائها، كما أن كثرين من الاسرائيليين الذين كان باستطاعتهم أن يصبحوا علماء، فنانين، رجال صناعة، أو شعراء، وجدوا أنفسهم مضطرين لتكرييس حياتهم للدفاع عن الدولة، ويقتل أحياناً أفضلهم، في ميدان المعركة، لذا فالدولة تدفع ثمناً باهظاً جداً في كافة هذه المجالات. فلو كان حجم السكان أكبر، لكان بالامكان توزيع عبء الدفاع عن الدولة بين شرائح أكبر من السكان، وتحرير قوى خلافة أكثر، للعمل في مجالات الحياة الأخرى. ولهذا السبب، يجب أن نرى في كل مهاجر جديد إلى اسرائيل، مساهمة خاصة لاثراء التجمع البشري في البلاد. وفي المقابل، فإن فرض قيود على الهجرة، وبخاصة قبل أن يبلغ حجم السكان اليهود المستوى المطلوب لضمان مستقبل الدولة، سيؤدي بالتأكيد إلى تفكك اسرائيل (كما حدث للكيان المسيحي في لبنان) ولدمارها النهائي.

هنالك، توافق كامل بهذا الشأن بين العرب وبين عدد كبير من الاسرائيليين. وقد أجاد، محمود عباس، التعبير عن رأي منظمة التحرير الفلسطينية حول الموضوع بقوله: "لكي ندرك

الخطر الذي تنطوي عليه الهجرة اليهودية، علينا أن نتذكر بأن عدد سكان اسرائيل لـدى اقامتهـا كـان ٦٠٠ ألف نسمة... وأنا واثق من أنه لو بقي عدد سكان اسرائيل على ما هـو عليـه، لما اسـتطاعت البقـاء حتـى الآن، أن الهجرة بالنسبة لاسرائيل، تشبه الوريد المتـصل بقلـب الانـسان، فهـي تغـذي الاقتـصاد الاسرائـيلي بالجنود، والعمال، والفلاحين، لذا فإننا نعتبر الهجرة اليهودية أكبر وأهم تحد يواجه الأمة العربية.

ان الاعتراف بالعلاقة المباشرة بين الهجرة وبين استمرارا بقاء كيان يهودي في أرض اسرائيـل... كـان هـو السبب الذي أدى إلى معارضة الزعماء العرب ومقاومتهم لاية هجرى يهوديـة إلى الـبلاد. لكـن، أكـبر خطـأ ارتكبته الحكومات العربية، كان مطاردة وطرد اليهود الذين كانوا يعيشون في الـدول العربيـة بعـد انـدلاع حرب "الاستقلال" عام ١٩٤٨. إذ أصبح كل يهود الـبلاد العربيـة تقريبـاً، لاجئـين بعـد مـصادرة ممتلكـاتهم وتعرضهم لازعاج مستمر، مـما اضـطر معظمهـم لـلــهجرة إلى اسرائيـل، وهكـذا زدا عـدد سـكان اسرائيـل بضعفين أو أكثر خلال السنوات الأولى التي تلت قيام الدولة. وعندما أدرك الحكام العرب فداحـة خطـئهم، استأنفوا جهودهم الرامية إلى منع الهجرة اليهودية من خلال عقـد الاحـلاف مـع الاتحـاد الـسوفياتي ودول الكتلة الشيوعية. وكان آنذاك ملايين اليهود في دول الكتلة الشيوعية معرضين للملاحقة والاضـطهاد شـأنهم شأن يهود الدول العربية. فقد حظر عليهم تعلم اللغة العبرية، وحتى اقامة شعائرهم الدينيـة، مـن خـلال تطبيق سياسة اعتقالات لا سامية رسمية.

في اعقاب انتصار اسرائيل في حرب ١٩٦٧، نشأت في أوسـاط يهـود الاتحـاد الـسوفياتي، حركـة طالبـت بحق هجرة اليهود إلى اسرائيـل ونتيجـة لـضغوط مارسـتها اسرائيـل وجاليـات يهوديـة في الـدول الغربيـة، والاتحاد السوفياتي، مع بداية تحسن العلاقات بينهما وتبني سياسة المصالحة.

واوضـح الكـونغرس الأمـريكي، برئاسـة الـسناتور هـنري جاكـسون للـسوفيات انهـم لـن يحـصلوا عـــلى حنطـــة وقـــروض مـــن الولايـــات المتحـــدة، إذا لم يخفـــضوا شروط الهجـــرة عـــلى اليهـــود.

ونتيجة لهذا الضغط الأمريكي، فتح باب السجن السوفياتي لفترة ما حيث نجح في مطلع السبعينات، حوالي ٢٠٠ ألف يهودي السوفياتي، في الهجرة إلى اسرائيل، وبدأ العرب يمارسون ضغطاً شديداً على بريجنيف. بغية وقف الهجرة اليهودية، لكنه رفض طلبهم. وبعد الغزو السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٧٩، علقت الولايات المتحدة محادثات التقارب مع الاتحاد السوفياتي، والغت التسهيلات التي منحتها له، وهكذا لم يبق لدى الاتحاد السوفياتي أي سبب لابقاء الأبواب مفتوحة أمام المهاجرين اليهود من بلاده، حيث أوقف الهجر، زوج بنشطاء الهجرة اليهودية في السجون. غير أن الأبواب التي أغلقها بريجنيف، فتحت على مصاريعها من جديد على أيدي غورباتشوف، فور تطبيقه لسياسة البروسترويكا. ومنذ عام ١٩٨٩، أصبح يسمح ليهود الاتحاد السوفياتي سابقاً، بمغادرة البلاد دون أية قيود. وهكذا غادر عدد كبير من اليهود، روسيا، في الفترو من ١٩٩٠-١٩٩٢ في طريقهم إلى اسرائيل، بمعدل حوالي ٢٠٠ ألف نسمة سنوياً (أي ما يساوي حوالي ٥% من مجموع السكان في اسرائيل).

وفي عام ١٩٩٠، هجّرت اسرائيل حوالي ١٥ ألف يهودي من اثيوبيا، كما زاد حجم الهجرة من رومانيا ودول أخرى وفي أوروبا الشرقية. وهكذا، أصبحت هنالك امكانيات هائلة لاستمرار الهجرة اليهودية إلى اسرائيل، في أواخر هذا القرن.

بطبيعة الحال، لم تخف هذه الامكانية على أعين العرب، وفي عام ١٩٩٠ استأنفوا، بنشاط ملحوظ، ضغوطهم على الدول الغربية بشأن وقف تدفق المهاجرين اليهود على اسرائيل. وادعى العرب، أن اسرائيل تعتزم توطين المهاجرين الجدد في أراضي الضفة الغربية، وطرد المواطنين العرب من أراضيهم. الأمر الذي دفع بعض زعماء الدول لارسال مبعوثين للاطلاع على حقيقة الوضع، ووجد هؤلاء المبعوثون لأنه لا أساس للادعاءات العربية- أقل من ١% من المهاجرين، استوطنوا في الضفة الغربية وغزو، دون تشجيع من الحكومة، وسرعان ما اتضح أن المعركة ضد الهجرة التي أدارها العرب لم تكن موجهة لمنع استيطان المهاجرين في الضفة الغربية وغزة فقط، انما في أي جزء من "أرض اسرائيل". بناء على طلب

من صدام حسين، وياسر عرفات، قبل الغزو العراقي للكويت ببضعة أسابيع، إلى اتخاذ وسائل متشددة ضد كافة الأطراف، والهيئات، والمنظمان التي تساعد، بأية طريقة كانت، هجرة اليهود إلى فلسطين، وبخاصـة في مجالي النقل والتمويل.ولم يتردد عرفات مرة أخرى في اللجوء إلى سلاح الارهاب، (بعد أربعة أشهر فقط من تظاهرة بالتنديد بالارهاب في جنيف) حيث قال: أود القول بوضوح: اطلقـوا النـار عـلى المهـاجرين اليهـود الجدد، وليكونوا سوفياتيين أو اثيـوبيين، أو مـن أي أصـل آخـر. سـيكون مـن العـار علينـا أن نـرى قطعـان المهاجرين يحتلون بلادنا ويستوطنون أرضنا، ونحن لا نحرك ساكناً. أريد منكم أن تطلقوا النـار عـلى الأرض أو في االجو (في الطريق إلى اسرائيل) على كل مهاجر، يتخيل أن بلادنا واحة جنان، وأن الهجـرة إليهـا، لعبـة اولاد... ولا يهم ما إذا استوطن هؤلاء في يافا، أم في أريحا. أنني آمركم بكلـمات واضـحة وصريحـة بـاطلاق النار. "افعلوا كل شيء في سبيل وقف تيار الهجرة اليهودية".

ولاقت هذه العوة آذاناً صاغية. ففي كانون أول ١٩٩١، انفجرت سيارة مفخخـة بجانـب سـيارة بـاص كانت تقل مهاجرين في طريقهم إلى اسرائيـل، في بودابـست. غـير أن المهـاجرين نجـوا بأعجوبـة، وقتـل في الانفجار شرطي هنغاري كان يرافقهم.

غير أن المعركة ضد المهاجرين اليهود، سرعان ما انحرفت لتسلك مسارات أخرى، بعدما تحولت انظـار العالم إلى معركة عربية أخرى. ففي أعقـاب الغـزو العراقـي للكويـت، أدرك العـرب فجـأة أنهـم يواجهـون أخطاراً أشد بكثير، وتوقفت آلة الدعاية العربيـة ضـد الهجـرة اليهوديـة، دفعـة واحـدة. صـحيح أن حـرب الخليج حملت الشعب الاسرائيلي أعباءً مالية ونفسانية ثقيلة، لكن اسرائيل حظيت من خلالها بفترة هدنة استغرقت بضعة أشهر ثمينة في المعركة ضد الهجرة. فعلى الرغم من أن عدد المهاجرين القادمين من روسيا، انخفض قليلاً، إلا أن المهاجرين واصلوا القدوم إلى اسرائيل، حتى في أصعب الأوقات، عندما كانت الصواريخ العراقية تتساقط على المدن الاسرائيلية.

كان المهاجرون القادمون، يحصلون فور وصولهم مطار اللد، على بطاقة الهوية، وكمام الغاز، وهكذا تبين أنه، حتى خطر استخدام الأسلحة الكيماوية ضد اسرائيل، لم يكن ليردع المهاجرين عن القدوم.

بعد انتهاء حرب الخليج، استأنف العرب المعركة، وبدأوا بالضغط على الادارة الأمريكية كي لا تمنع اسرائيل ضمانانت القروض، التي كانت بحاجة ماسة إليها، لاستيعاب المهاجرين الجدد. فقد بدأت أنظمة الحكم العربية، التي كانت قد نجت لتوها من مخالب صدام حسين، بفضل جهود الولايات المتحدة، تطالب الأمريكين، بكل صفاقة، أن يكافئوا هذه الأنظمة مقابل موافقتهم على الانضمام إلى الائتلاف، ضد العراق، والغريب في الأمر، أن الادارة الأمريكية رضخحت لهذه الطلبات، وبدأت باعاقة منح الضمانات لاسرائيل. ولم تكن مبررات الادارة أن تستغل الأموال التي ستحصل اسرائيل عليها، من هذه القروض، لإقامة المستوطنات، باستثناء المباني التي يجري العمل في انشائها.

لقد كانت الادارة الامريكية تعرف جيداً أن المهاجرين القادمين من روسيا، لم يستوطنوا في الضفة الغربية وغزة تقريباً. ومع ذلك، ربطت الادارة الأمريكية، هذا الموضوع الانساني المتعلق بالمهاجرين، بمواقف العرب السياسية. الأمر الذي شجع الموضوع على زيادة التطرف في مواقفهم.

ما الذي سيجعل العرب يتنازلون لاسرائيل، ما دامت الولايات المتحدة، تبتز منها تنازلات، دون أن تطلب من الجانب العربي أية مقابل؟

او أن الولايات المتحدة، رفضت منح الضمانات لاسرائيل لاسباب اقتصادية، لكانت على الأقل، ثابتة في مومقفها. لكنها اعترفت أن المبرر الاقتصادي ليس مهما في نظرها، وربطت الضمانات بتوجيه انذار سياسي شديد، طلب من اسرائيل، في إطاره، الاختيار بين "الهجرة أو الاحتلال". ومن الواضح للجميع أن المغزى الحقيقي "لتجميد الاستيطان" "ينطوي على شيء ما من الموافقة الاسرائيلية، على إنهاء وجود اليهود في المناطق المتجمدة".

ولهذا، عندما طلبت الولايات المتحدة تجميداً مطلقاً للاستيطان اليهودي في الضفة الغربية وغزة، وضعت اسرائيل أمام الاختيار بين استيعاب المهاجرين دون أموال الضمانات، وبين حنق ديمغرافي، وخنق جغرافي. وفي هذه الحالة، لم يكن أمام اسرائيل خيار حقيقي، إذ ليس بمقدورها الحياة ضمن حدود ضيّقة إلى هذه الدرجة. مثلما ليس بمقدورها التنازل عن استيعاب اعداد جديدة من المهاجرين. وبالطبع، رفضت اسرائيل هذا الاختيار.

وفي إطار الحل الوسط، الذي تحقق أخيراً، أعلنت الحكومة الاسرائيلية التي تشكلت بعد الانتخابات عام ١٩٩٢، عن عدم "البدء بإقامة مستوطنات جديدة أو بناء جديد في مستوطنات قائمة، وأوضحت أن المباني العامة التي هي قيد الانشاء في مناطق الضفة الغربية وغزة، سيستمر البناء فيها. ومكّن هذا الحل الوسط، الادارة الأمريكية من عدم الدخول في مواجهة مباشرة وشديد مع اسرائيل، وفي نفس الوقت منحها الضمانات للقروض، في ذروة معركة الانتخابات القادمة للرئاسة الأمريكية، كما وفّر الحل الوسط، امكانية السماح لليهود بممارسة حقهم في القدوم والعيش في مناطق الضفة الغربية وغزة.

وهكذا، لأول مرة، نتجح الولايات المتحدة، نتيجة للضغوط العربية، في أن تحدد لاسرائيل ماهية الضرورات الحيوية لأمنها. كان ذلك مؤشراً أولياً لنجاح العرب في ضم واشنطن إلى معركتهم ضد الهجرة اليهودية. ومن وجهة نظرهم، كان ذلك تطوراً مثيراً للآمال- انتصار صغير أولي، يمكن توسيعه في المستقبل. وهكذا، أُغلقت دائرة أخرى، من الصراع العربي ضد الهجرة اليهودية. ففي سنوات العشرينات والثلاثينات، تمكن العرب نت إقناع بريطانيا والتأثير عليها لاصدار سلسلة من "الكتب البيضاء" التي خنقت الهجرة اليهودية، وتركت اليهود طعماً للنيران التي التهمت اوروبا فيما بعد.

وفي مطلع التسعينات، حاول العرب ضم الولايات المتحدة، زريثة بريطانيا، إلى الجهود الرامية لتحقيق هذا الهدف نفسه- تفويض المستقبل الغامض لملايين اليهود المقيمين داخل أنقاض الاتحاد السوفياتي.

إن أياً كان، لا يستطيع التنبؤ بما سيحدث في روسيا، أو أوكرانيا، وفي دول أخرى من الجمهوريات السوفياتية سابقاً. لكن اليهود استطاعوا من خلال تجاربهم في الألفي سنة الماضية، معرفة أنه عندما تنتقل السلطة من أيدي الملوك والنبلاء إلى أيدي الجماهير، أو قوات تثير المشاعر الشعبية، يصبح اليهود في خطر كبير. وهذه العبرى، يمكن الإستفادة منها، في الوقت الحالي، بشأن ما يجري في دول الجمهوريات السوفياتية سابقاً.

صحيح، أن الشيوعية، كانت نظاماً دكتاتوراً ظالماً، لكن منذ سنوات الخمسينات، وبعد أن تولى خروتشوف الحكم في الاتحاد السوفياتي، عمل على ضمان الأمن الجسدي لليهود. لكن لا يوجد أي ضمان استمرار هذا النهج الرسمي، في المستقبل في ضوء عدم الاستقرار السائد حالياً في الجمهوريات المستقلة. ففي عدد من الجمهوريات السوفياتية سابقاً، تنمو حركات لا سامية متجددة تدعو صراحة لانهاء مسألة اليهود. وما صعود اليمين للاسامي في روسيا، في انتخابات البرلمان الروسي في ربيع عام ١٩٩٤، إلاّ واحداً من هذه المؤشرات الواضحة لهذا التوجه. وستزداد خطورة هذه التوجهات، إذا ما انهار النظام العام الجماهيري، وسادت الفوضى في هذه الجمهوريات. ولهذا السبب، هنالك ضرورة مزدوجة لتهجير اليهود إلى اسرائيل: الضرورة الملّحة لمغادرة يهود الجمهوريات السوفياتية المستقلة أماكنهم، والضرورة القومية الاسرائيلي، التي تدعو لاستيعبهم داخل اسرائيل.

إذاً، ما الذي يمنع يهود الاتحاد السوفياتي سابقاً من مغادرة أماكن سكانهم في هجرة جماعية؟ أن يهود أوروبا الشرقية، يعرفون جيداً الخطر الذي يتهددهم من انفجار اللاسامية هناك. ويعرفون أيضاً أن أبواب الوطن القومي اليهودي مشرعة الآن أمامهم، وتحكمها دولة يهودية مستقلة، مع ذلك، يعرفون أيضاً أن الأبواب الاقتصادية، التي تعني العثور على عمل محترم، وسكن مريح، في اسرائيل، غير مفتوحة أمامهم. فالاقتصاد الاسرائيلي عاجز الآن عن استيعاب هذا الكم الهائل من المهاجرين خلال وقت قصير.

صحيح، أن يهود روسيا، مستمرون في القدوم إلى اسرائيل، ولكن ببطء، يختلف كثيراً عن موجات الهجرة التي شدتها فترة ١٩٩٠-١٩٩١. ويعود هذا التباطؤ في الهجرة، إلى

المعلومات غير المشجعة التي يتلقاها هؤلاء اليهود من أقاربهم وأصدقائهم الذي سبقومهم إلى اسرائيل ويعانون من صراع يومي في سوق العمل الاسرائيلي.وبما أنه لا توجد لدى يهود روسيا، امكانية الهجرة إلى مكان آخر غير اسرائيل، يفضلون الآن البقاء في أماكنهم ريثما يتضح الوضع.

وهنا، تواجه الحركة الصهيونية تحدياً فريداً. هناك ملايين اليهود يشعرون بأن الأرض تميد تحت أقدامهم. وهم منفتحون لاستيعاب رسالة صهيونية جديدة مصدرها الدولة اليهودية- تلك الدولة التي لم يكن لها وجود في الثلاثينات، وكانت في الخمسينات تصارع من أجل البقاء. فاسرائيل اليوم. بأربعة ملايين يهودي، وقدرة تكنولوجية وعلمية مميّزة، وجيش ربما يكون أفضل جيش في العالم، اسرائيل هذه، تستطيع أن تبعث، من جديد، الحياة في الحركة الصهيونية المتجددة، في الوقت الذي يواجه فيه الشعب اليهودي تحديات القرن الحادي والعشرين. فبواسطة هجرة جماعية متجددة، تستطيع اسرائيل تأمين الحجم السكاني المطلوب، الذي كان دائماً وأبداً الهدف المنشود للصهيونية منذ نشأتها.

لم يقل، هرتسل، نورداو، وفينسكر، أنه يجب على كل الشعب اليهودي الهجرة إلى الدولة اليهودية، لكنهم آمنوا بأن غالبية هذا الشعب ستعيش فيها. أن تجميع اكثر من نصف الشعب اليهودي في اسرائيل، لم يعد حلماً بعيد المنال، وربما يصبح هذا الهدف في متناول اليد، حتى في مطلع القرن القادم.

هذه فرصة، س لم تتوفر للشعب اليهودي منذ ظهور الحركة الصهيونية. ففي النصف الأول من هذا القرن، مِنعت الهجرة الجماعية إلى "أرض اسرائيل" لأن أبواب البلاد كانت مغلقة من قبل الاتراك، ومن ثم البريطانيين. أما في النصف الثاني من هذا القرن، فقد فُتحت ابواب البلاد بعد قيام الدولة، لكن أبواب الهجرة أُغلقت من قبل السوفيات الذين منعوا هجرة اليهود. وبعد سقوط الشيعوية، فُتحت الأبواب، مرة ثانية، أمام الهجرة إلى البلاد على نطاق واسع، لأول مرة منذ مائة عام. إذ لم يعد هناك أي مانع خارجي يحول دون هجرة يهود

العالم الراغبين في القدوم إلى اسرائيل. وهذا تغيير تاريخي كبير، لم يدرك أهميته سوى القليل. ان أياً كان، لا يستطيع القول إلى متى يستمر هذا الوضع. فمن المحتمل إلى أن يؤدي عدم الاستقرار في الجمهوريات السوفياتية المستقلة إلى تولي السلطة من قبل انظمة حكم دكتاتورية، تعيد اغلاق الأبواب أمام الهجرة اليهودية من جديد. لذا، يتوجب على اسرائيل ان تستغل "نافذة الفرص" التاريخية التي فُتحت أمام الشعب اليهويد. يتوجب عليها العمل بجد وسرعة من أجل تهجير اليهود إلى البلاد، والشرط الوحيد لذلك، هو تغيير اسلوب ادارة الدولة، بشكل يبعث الرغبة لدى اليهود بالهجرة إلى اسرائيل.

رغم كل المشاكل التي واجهتها في مجالي الاستيعاب والاسكان، أدركت حكومة الليكود أهمية هذه المسألة، ووجهت كافة الموارد القومية في هذا الاتجاه، في عامي ٩٠ – ١٩٩١. من الصعب القول ان حكومة العمل، التي خلفت حكومة الليكود، أظهرت نفس الادراك، أو انها تعاملت بنفس الجديّة مع مسألة الهجرة. فهذه الحكومة، تشغل نفسها في الركض وراء سلام مضلل مع شركاء، ليسوا بالشركاء. وبدلاً من هذا، كان عليها ان تدرك العلاقة بين هجرة يهودية جماعية، وبين ترسيخ السلام، بيننا وبين العرب.

ان من شأن موجات هجرة جماعية، أن تضع نهاية للحلم العربي برؤية دولة اليهود تنهار كدولة الصليبيين التي ظلّت تصغر وتتقزم، حتى تلاشت نهائياً، ستكون مثل هذه الهجرة اليهودية، خطوة حاسمة نحو تحقيق السلام: وجود ديمغرافي يهودي قوي، إلى جانب السيطر ةعلى المنطقة الجغرافية المطلوبة لضمان أمننا، سيقنعان العالم العربي بأن وجود اسرائيل أصبح حقيقة تاريخية ثابتة، وأن محاولات القضاء عليها لن تنجح. والسؤال الحاسم هو: كيف تستطيع الصهيونية تجسيد الطاقة الكبيرة الكامنة في الهجرة اليهودية، وفي نفس الوقت منع حدوث هجرة معاكسة من اسرائيل، على نطاق واسع ؟

لا شك في أن الاجابة على هذا السؤال، سيكون لها تأثير على مستقبل اسرائيل الديمغرافي، أكثر بكثير من التوقعات الفارغة الصادرة عن الديمغرافيين المحترفين.

يجب ان لا نستخلص من كل ما قلناه، ان اسرائيل لا تعـاني مـن "مـشكلة ديمغرافيـة". ان مثـل هـذه المشكلة موجودة فعلاً، مع أنها أصغر بكثير مما يعرضه علينا المؤيدون للانسحاب. لكنني أُومن أن بمقـدور اسرائيل والشعب اليهودي، ايجاد حل لهذه المشكلة بأبعادها الحقيقية. ان مستقبل اسرائيـل يتوقـف عـلى السياسة العامة التي تتبناها اسرائيل بشأن الهجرة، واصرارها وحكمتها في تنفيذها.

ان هجرة ملايين اليهود إلى اسرائيل، لن تحدث بصورة تلقائية، كما لـن تكـون ثمـرة لاجـرا، درامـاتيكي وحيد. بل يجب حشد وتنسيق كافة الجهود في ثلاثة اتجاهات قد تؤدي، مجتمعة، إلى ظهور حركة هجـرة كبيرة، في أوساط الشعب اليهودي: إحياء الدجافع الـصهيوني في اوسـاط يهـود العـالم؛ إنـشاء علاقـات سـلام مبنية على الأمن ع جيراننا العرب؛ وإحداث تحوّل اساسي في النظامين السياسي والاقتصادي في اسرائيل :

* أولاً؛ يجب ان ننمي بصورة مهجية الدافع لـلـهجرة في أوسـاط كافـة الجاليـات اليهوديـة في العـالم، ونبدأ بالبلدان ذات المستقبل السياسي، غير الواضح. فالى جانب تعميق الثقافـة اليهوديـة، وتـدريس اللغـة العبرية في المهجر، لا توجد وسيلة أفضل من تعميق الفكرة الصهيونية في اوساط الجاليات اليهوديـة هـذه، لمنع عملية انصهار اليهود في بلاد المهجر، الآخذة بالتسارع.

يجب أن نبدأ بشرح الفكرة الصهيونية من جذورها، لهؤلاء اليهود. أن نوضح لهـم، مـا اراده هرتـسل، وهو أن الدولة اليهودية خُلقت لتكون ملجأ لليهود. كما أن هناك رسالة صهيونية أخرى يجب توجيهها إلى يهود الدولة المستقرة، وهي أن الحركة الصهيونية ترى أن دولـة اليهـود ضروريـة، لـيس مـن أجـل حمايـة اليهود من الإبادية، فحسب، إنما لتكون وسيلة لرفع قيمة حياتهم كشعب.

فاسرائيــل، هــي المكــان الوحيــد عــلى وجــه البــسيطة، الــذي يــستطيع اليهــود ان يعيــشوا فيـه كقوميـة مـستقلة، ولـيس كأقليـة تعـيش تحـت رحمـة أغلبيـة. كـان هـذا المبـدأ، في نظـر الجماهـير

اليهودية في العالم، قوة ايجابية، وجذابة، أكثر من الحاجة إلى الفرار من اللاسامية أو لتحسين مستوى الحياة. يجب أن ننمي لدى الشعب اليهودي النظريات التي تمكنه من السعي إلى حياة جديدة، حياة سيادة وكرامة. وهذه، ما زالت أكبر مهمة تواجه اسرائيل والشعب اليهودي.

* ثانياً؛ يجب أن تكون لدى اليهودي الذي يفكر في الهجرة إلى اسرائيل، القناعة التامة، بأن بقاء الدولة مضمون. ان النزاع المستمر مع العرب، لم يمنع الموجات المتلاحقة من المهاجرين اليهود، في السنوات المائة الماضية، من الوصول إلى البلاد، ذلك لأن اليهود قدموا إلى "أرض اسرائيل" التي كانت تقاتل ضد العرب الفوضويين، ومن ثم إلى دولة اسرائيل، التي تصارع ضد الدولة العربية، آمنوا أن الصهيونية، ستتغلب في نهاية المطاف على أولئك الذين يريدون القضاء عليها. ويجب أن نعزز هذا الايمان من خلال عملية سياسية، تسعى لتحقيق سلام حقيقي، اي سلام يتركز على أسس أمنية قوية. وهذا هو التحدي الثاني الذي يواجه دولة اسرائيل.

* ثالثاً؛ يجب إحداث تحوّل في النظامين السياسي والاقتصادي في اسرائيل. إذ دون مثل هذا التحوّل، لن يؤدي تعزيز الدافع الصهيوني إلى تحقيق نتائج بعيدة الأثر. ودون اقتصاد فعّال وقوي، لا يمكن توطين ملايين اليهود في دولة اسرائيل.

ان مصير الاتحاد السوفياتي، يشير إلى انه، على المدى الطويل، لا يمكن استقرار شعب دون اقتصاد ملائم. غير ان الحواجز العالية التي تضغها البيروقراطية الاسرائيلية الرسمية والمتصلّبة في وجه تحرير الاقتصاد الاسرائيلي، أحبطت، أكثر من مرة، مبادرات وصفقات قام بها اسرائيليون ويهود من الشتات. ولو أزالت اسرائيل هذه الحواجز لأُتحيت أمامها فرص كبيرة، ولتدفقت عليها جماهير اليهود من كافة أنحاء العالم.

إذا أصبح الاقتصاد الاسرائيلي حراً مزدهراً، ستفرغ روسيا من يهودها، ويأتي مئات الآلاف من المهاجرين من دول أخرى، ويضمنها الولايات المتحدة، لقد أدهشت اسرائيل

العالم، عندما ضاعفت عدد سكانها في سنواتها الأولى، غير ان استيعاب لاجئين مشردين في الخمسينات، لا يشبه استيعاب مهاجرين مثقفين من دولة متطورة، في سنوات التسعينات.

ها هي اسرائيل تواجه، مرة أخرى، فرصة زيادة عدد سكانها بصورة مثيرة - إذا قررت اغتنام هذه الفصة. إذ ان دولة يهودية، يبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين يهودي، بعد جيل، أي في عام ٢٠٢٠، مع معدل دخل اقتصادي للفردن أفضل مما هو عليه اليوم، تستطيع أن تكون قوة حقيقية على الحلبة الاقتصادية العالمية.

إن اسرائيل كهذه، ستتوفر لها القاعدة الاقتصادية والتكنولوجية المطلوبة لضمان أمن عسكري واستقلال سياسي، وبالتاكيد، لن تظل بحاجة إلى المساعدة الامريكية التي تقيّد حرية حركتها، على هذه الأصعدة. غير أن إدخال إصلاحات على الاقتصاد الاسرائيلي ليس بالأمر السهل. والغريب أن كافة محاولات احداث إصلاح جذري في الاقتصاد الاسرائيلي، باءت بالفشل، لأن هذا الاقتصاد لم يتكن لديه القدرة الكافية على تحمّل هذه الاصلاحات بالذات.

لم يسبق ان وقفت اسرائيل على حافة اقتصادية مثلما تقف اليوم دول اوروبا الشرقية، ففي، براغ، مثلاً، يحدث اليوم تحوّل حاد من اقتصاد شيوعي إلى اقتصاد حر، رغم المعاناة المرتبطة بتحوّل من هذا النوع، ذلك لأن الشعب التشيكي يدرك أنه ليس لديه خيار آخر.

لقد فشل الاقتصاد السابق في هذه الدولة، الذي كان يُدار بقوة أوامر وتعليمات بلشفيّة، جعلت المواطنين يعيشون مستوى حياة دول العالم الثالث، رغم ان هؤلاء السكان، كانوا في مستوى ثقافي وتعليمي يماثل المستوى الذي كان سائداً في الدول الغربية، وفي اسرائيل أيضاً، لا تزال الحياة الاقتصادية تُدار وفقاً لأوامر صادرة من الأعلى،كما جرت العادة منذ خمسين سنة، لكن النتائج هنا لم تكن مخزية، بل متوسط فقط.

لا شك في ان إنجازات الاقتصاد الاسرائيلي، ليست جيدة للغاية، لكنها ليست سيئة إلى درجة تثير لدى الجمهور الاسرائيلي الرغبة في احداث ثورة في النظام الاقتصادي المعمول به

في اسرائيل. واذا لم يطرأ تحوّل، ربما تواصل اسرائيل السير في نفس الطريق، وقد تحقق نمواً اقتصادياً متواضعاً. ففي الواقع، هنالك نموّ كهذا، يتحقق تدريجياً، منذ منتصف الثمانينات، بفضل اجراءات ليبرالية معينة، واستثمارات في مجالات الصناعات العلمية قامت بها شركات اجنبية واسرائيلية. وأدى هذا النشاط الاقتصادي، إلى تحقيق زيادة متواضعة في الناتج العام للفرد. طيلة العقد الأخير. ولكن هذه الزيادة، لم تجعل من اسرائيل مركز اجتذاب للمبادرات الهائلة الكامنة لدى الشعب اليهودي في العالم، وبالتأكيد، ليست كافية لاستعياب ملايين المهاجرين الجدد.

يستمثر رجال أعمال يهود أموالاً طائلة في المكسيك، وتشيكيا، وسنغافورة، لكنهم يمتنعون عن الاستثمار في اسرائيل، ليس لأنهم يعارضون الصهيونية، إنما لأنهم يخشون على مستقبل مشاريعهم. وفي حقيقة الأمر، حاول بعضهم الاستثمار في اسرائيل، لكنهم اكتووا بنار البيروقراطية الاسرائيلية. كان عليهم الانتظار لعدة اشهر أو سنين، للحصول على الموافقات المطلوبة. انَّ نمواً اقتصادياً بعيد الأثر، يمكن ان يتحقق في حالة واحدة فقط، وهي تحرير الاقتصاد من الاشراف الحكومي الخانق.

هناك من يدعي، أنه بعد احلال السلام فقط، سيحقق الاقتصاد الاسرائيلي نمواً حقيقياً، غير أن هذا الادعاء هو مجرد ذريعة، يستخدمها الراغبون في تكبيل ايادي اسرائيل بقيود اقتصادية. لا شك في ان السلام الحقيقي، سيحسّن المناخ الاقتصادي، ويلغي المقاطعة العربية، لكن الادعاء بأن السلام وحده، سيؤدي إلى نموّ اقتصادي ثوري كهذا، تردد بشكل خاص في اعقاب التوقيع على اتفاق أوسلو، وقد اعتمد على الادعاء المعروف، بأن السلام سيؤدي إلى الاستقرار السياسي، والعنصر الرئيسي في اعتبارات المستثمرين.

لا شك في أن الاستقرار السياسي، أمر مرغوب من قبل رجال الأعمال، لكنه ليس شرطاً كافياً لترجيح القرار الاستثماري، لقد كان دول مثل تشيكوسلوفاكيا، وبلغاريا في العهد الشيوعي، من أكثر الدول استقراراً سياسياً، بعد الحرب العالمية الثانية، لكن احداً لم يستثمر

فيها أغورة واحدة، لأنهما لم توفرا للمستثمرين ظروف السوق الحرّ. وفي المقابل، هناك دول مثل تايوان، هونغ كونغ، كوريا الجنوبية، كان وضعها السياسي والدولي بعدياً عن الاستقرار، حظيت باستثمارات ضخمة ومعدلات نموّ اقتصادي مرتفعة، لأنها حوّلت اقتصادها إلى اقتصاد السوق.

عملياً، لا يعتبر السلام مع الدول العربية عنصراً مهماً إلى هذه الهجرة، في مجال التجارة المستقبلية معها. فبعد ١٥سنة من السلام ومع مصر، بلغت التجارة الاسرائيلية مع مصر حوالي (٢٠) مليون دولار سنوياً. وفي ضوء الصادرات الاسرائيلية المصنّعة والموجهة، بشكل رئيس، إلى الاسواق المتقدمة في أوروبا والولايات المتحدة، لا يوجد الكثير مما يمكن عرضه على اقتصاديات الدول العربية، التي في معظمها متأخرة جداً عن الاقتصاد الاسرائيلي. ولكن، لا شك في ان إنشاء علاقات سلام سيفتح أمام الشركات الاسرائيلية، نافذة نحو الشرق، إلى الاسواق الواسعة في جنوب شرق آسيا، واليابان والصين. كما أن موقع اسرائيل الجغرافي، القريب من أوروبا، قد يمكّنها من أن تكون جسراً بين الشرق والغرب، وبين الشق، وبين أوروبا الوسطى، ورابطة الدول المستقلة. وهذه ثورة اقتصادية حقيقية لكن فيها طاقة كبيرة. لقد بنت سنغافورة امبراطورية اقتصادية كاملة، على اساس كونها جسراً بالاتجاه المعاكس، من الغرب إلى الشرق.

ألا يمكن تقليص الاشراف الحكومي على الاقتصاد.

لقد أثبتت المانيا في سنوات الستينات امكانية مثل هذا التقليص، وذلك عندما الغي المستشار الألماني ايرهارد، آلاف الأنظمة والقوانين غير المبررة في الاقتصاد الألماني. ويمكننا أيضاً العثور على نماذج أخرى، في التحرر الاقتصادي الذي طرأ في الثمانيات في كل من اسبانيا وبريطانيا، وفي التسعينات في المكسيك والارجنتين وتشيكيا. لقد ثبت أنه، في أي مكان تقلّص فيه التدخل الحكومي، كان يتدفق رأس مال كبير على الدولة، ويبدأ النمو الاقتصادي فيها بالتسارع.

يمكننا عمل كل هذا، في اسرائيل أيضاً، إذا توفرت الرغبة السياسية لذلك. حيث أن الصعوبات الاقتصادية الاسرائيلية، هي صعوبات سياسية في جوهرها.

ان البروقراطية هي أعشاب طفيلية تنبت في وزارات الحكومة، لكن الوزارات التي ستكون مستعدة للتنازل، بمحض ارادتها، عن القوة والنفوذ للذين تمنحهما لها صلاحيات الاشراف والسيطرة، قليلة جداً. وهذا هو السبب وراء عدم قدرة أي رئيس حكومة في اسرائيل، على تقليص صلاحيات وزيرها، أو وزارة في حكومته. دون تعريض حكومته لخطر السقوط الفوري. إذ أنه بمقتضى النظام السياسي المتبع في اسرائيل، يعتبر كل وزير أو عضو كنيست، "لسان ميزان" قد يتوقف مصير الحكومة كلها على موقفه. لذا، فليس مصادفة، ان يكون حوالي ربع أعضاء الكنيست وزراء، رغم عدم وجود كفاءة لديهم لاشغال منصب الوزير.

كيف سقطت اسرائيل في هذا المستنقع الاقتصادي، وكيف يمكن إخراجها منه؟

بدأ الاقتصاد الاسرائيلي طريقه منطلقاً من ايديولوجية اشتراكية. بالنسبة لمن كان يريد انشاء دولة من لا شيء، وان يقيم في طرفة عين، بنية تحتية لم تكن موجودة نهائياً، كان الأسلوب الاشتراكي منطقياً في نظره. إ أنه في السنوات الأولى بعد قيام الدولة، لم يكن بمقدور الحكومة الاسرائيلية، الاعتماد على رأس المال الخاص في بناء المستشفيات، والمدارس، وشق الطرق، وإنشاء المصانع التي كانت ضرورية للنهوض بالدولة الناشئة.

ولكن، في سنوات الستينات، بعد الانتهاء من إنشاء البنية التحتية الاساسية، أصبح الاسلوب الاشتراكي لا مبرر لاستمراره، وكان من شأن الاشراف الحكومي، خلق الصعوبات، وإفشال النشاط الاقتصادي فقط. وخلال الثلاثين سنة التي تلت ذلك، رفض الجهاز الاقتصادي الحكومي الاعتراف بأنه أصبح قديماً بالياً. لم يكن ذلك إنفلاتاً اقتصادياً فقط. منذ البداية خدمت المركزية، حزب العمل، الذي أوجد هذا الاسلوب، وحقق بفضله فائدة سياسية كبيرة، ومن ثم الليكود الذي سارع بعد توليه السلطة، عام ١٩٧٧ لتولي كافة الصلاحيات التي كانت بأيدي السلطة السابقة.

في الواقع، لم يكن هنالك أي سياسي، في اسرائيل، مستعداً لتقليص صلاحياته بمحض غرادته. ومـن كـان يفكر في ذلك، سرعان ما يحذره الواقع السائد من أن زملاءه سيزدادون قوة على حـسابه. ان نظـام الحكـم الوزاري، على غرار ما هو متبع في اسرائيل غير قادر على التسليم بتطبيق نظام خصخصة، على نطاق واسع، للمشاريع الصناعية التي تملكها الحكومة أو تقع تحت اشرافها.

يبلغ عدد الشركات الحكومية حوالي ١٥٠ شركة، وهي متغلغلة في كـل زاويـة مـن الحيـاة الاقتـصادية التجارية في اسرائيل – من تزويد الماء والكهرباء وحتى رسـم الخـرائط وتقـديم خـدمات الطعـام لـشركات الطيران. صحيح أنه يجب عدم خصخصة كل هذه الشركات، ولكن لا داعي أبداً لأن يكـون معظمهـا ملكـاً للحكومة. لقد تم الان، كما هو معلوم، خصخصة عدد ضئيل من هذه الشركات، لكـن التـدخل الحكـومي، عديم المسؤولية، في البورصة الاسرائيلية، يزيد في صعوبة خصخصة هذه الشركات.

ولكي ندرك كيف يحول النهج السياسي المتبع في اسرائيل، دون تحقيق هذه الخصخصة المطلوبة للاقتـصاد، نفترض ان رئيس الحكومة طلب من الوزير الفلاني، بيع شركة حكومية تسطير عليها وزارته. سيرفض الوزير هـذا الطلب، بشكل عام، أو يقوم بتأخير تنفيذ الطلب، لأن من المحتمل أنه ما كان ليصبح وزيراً لولا أنه تعهد لحزبه بتعيين مجلس إدارة هذه الشركة مـن رجـال الحـزب، ولـن يتنـازل عـن هـذا الحـق بـسهولة. وإذا أصرّ رئـيس الحكومة، وظل يطلب منه بيع الشركة، سيلمح له نفس الوزير، بأنه في اعقاب التصويت على عدم الثقة القادم، بالحكومة، قد يجد رئيس الحكومة نفسه في وضع لن يستطيع بعده أن يطلب أي شيء. وبهذه الطريقة وغيرها، يمنح النظام الـسياسي الاسرائـيلي، لـيس خصخـصة الاقتـصاد فحـسب، إنمـا يحـول أيـضاً، دون تقلـيص الاشراف والسيطرة الحكومية على القطاعات الاقتصادية غير الحكومية.

هنـاك مـن يعتقـد أنـه، خلافـاً لأمـم أخـرىن يعتـبر الاسرائيليـون أقـل قـدرة عـلى إدارة الاعمال، وهذا هو السبب الـرئيس وراء عـدم نجـاح النمـو الاقتـصادي في اسرائيـل. ويقولـون أن

القدرات على إدارة الأعمال، تقف عند ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولا تتجاوزه، غير أن بالامكان تفنيد هذا الادعاء بسهولة إذا ما نظرنا إلى الأعمال المزدهرة التي يديرها اسرائيليون كثيرون هاجروا من اسرائيل إلى الخارج، واصبحوا رجال أعمال بارزين، في ظل مناخ اقتصاد مفتوح، في سهل السيليكون في كاليفورنيا، وفي شارع ١٢٨ في بوسطن، وشيكاغو، وميامي وغيرها.

يجيب أن لا نشكك في كفاءة الاسرائيليين، لأن العيب موجود في النظام السياسي الاسرائيلي، الذي كبّل أيديهم بقيود حديدية من التعليمات والقوانين المانعة، ان الاقتصاد الاسرائيلي قادرة على التغير بسرعة، أو على الاقل بمعدل سرعة التغيير التي شهدها اقتصاد الارجنتين والمكسيك، وتشيلي، بعد أن تم تطبيق الليبرالية المطلوبة. وبما أن مثل هذا التحوّل، هو تحوّل سياسي في جوهرة، فان الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها من أجل تحقيق هذا التحوّل، هي الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية، ليتم بهذه الخطوة تقليص قدرة بعض الوزراء واعضاء كنيست وكتل نيابية صغيرة، على الاحتفاظ بالحكومة كرهينة لتلبية مطالبهم. فلو أن رئيس الحكومة تم انتخابه بالاقتراع المباشر من الشعب، وليس من قبل اغلبية (٦١) عضوا في الكنيست، لأصبح أكثر قوة في مواجهة العناصر المعنية بمنع تطبيق الليبرالية الاقتصادية. هذا الأسلوب، يمنح رئيس الحكومية، صلاحية تعيين أو إقالة أي وزير في حكومته، هذه الصلاحية غير الموجودة حالياً. سوى على الورق فقط. ان من شأن الانتخابات المباشرة، منح رئيس الحكومة حرية العمل المطلوبة، لتنفيذ سياسة قاسية، مثل تقليص حقيقي في عدد الشركات الحكومية، وقوة البيروقراطية، دون أن يخشى سقوط حكومته، كنتيجة لمثل هذه الاجراءات.

لكن هذا لا يكفي بالطبع. فالوضع يتطلب تغييرات أخرى عديدة، مثل إدخال تعديلات على القوانين السائدة الآن، في مجالات العمل والتأمين الصحي، التي تمنح الهستدروت قوة منع تطبيق أي اجراء، من شأنه تقليص احتكارها للاقتصاد العمالي.

فالهستدروت ذاتها، تملك مشاريع اقتصادية كثيرة، ومؤسسات تشغيلية كبيرة وغير ناجعة، والتي يتم انقاذها من الافلاس التام، بفضل دعمها بمبالغ هائلة من أموال دافعي الضرائب. ولكي تقضي على هذه العيوب المختلفة في الاقتصاد، يجب الشروع بنضال شديد ضد اصحاب المصالح المتنوعة، الذين يتخندقون في مواقعهم، منذ ما يزيد على خمسين سنة. ولكي نطوّر الصناعة ونقضي على الضائقة السكنية، تدعو الضرورة إلى نقل اجزاء كبيرة من العقارات والاراضي التي يسيطر عليها الجهاز البيروقراطي، إلى السوق الحرة. ففي اسرائيل، تحتفظ الحكومة بجزء كبير جداً من الأراضي – ٩٣% - مقابل ٣٠% في الولايات المتحدة.

على الرغم من التغيير الذي يبدو في الأفق، في النظام السياسي المتبع في اسرائيل، لا يستطيع احد أن يضمن بأن تخرج اسرائيل من احشائها زعماء سياسيين، لديهم الرغبة في تغيير النظام الاقتصادي.

ان تحرير الاقتصادي الاسرائيلي بصورة جذرية، يعتبر شرطاً حتمياً لاستيعاب موجات هجرة كبيرة، ويمكننا تنفيذ ذلك عملياً، عندما تكون لدى الحكومة الاسرائيلية سياسة اقتصادية صحيحة، واصرار سياسي على تطبيقها.

ولهذا السبب، يجب أن ندخل إلى وعي الزعماء والمشرعين الاسرائيليين المشتغلين، حقائق الحياة الاقتصادية. ان الكثيرين من رجال السياسة والمثقفين في اسرائيل، يعتقدون لسبب ما، ان قوانين الاقتصاد الاساسية لا تنطبق على اسرائيل، وان دولة اليهود معفاة من تأثير قوة السوق، إن هؤلاء لا يميزون بين حاجة اسرائيل لاستثمارات حكومية كبيرة في مجالات شق الطرق، والبنية التحتية لشبكة المياه والكهرباء وما شابه ذلك، وبين الحاجة إلى الغاء الاشراف الحكومي على الصناعة، والتجارة، والخدمات.

يحق للحكومة، وهي ملزمة أيضاً، بشق الطرق وتنفيذ مشاريع يحوية أخرين تفوق كلفتها قدرة شركات خاصة، ولكن في مجالات أخرى، على الحكومة أن تقلص إشرافها. إن جانبي هذه السياسة، يقوّي احدهما الآخر. فمثلاً، وجود شوارع وطرق سريعة وحديثة، يساعد على

رفع مستوى الانتاج في المصانع، بينما تستطيع المصانع ذات الانتاج العالي، المساعدة في تغطية نفقات شق طرق أفضل وأسرع.

وسيكون أول من ينجذب إلى اسرائيل بعد تقليص الاشراف، وتخفيض، الضرائب، هم الاسرائيليون الذين هاجروا.

يعيش اليوم في الولايات المتحدة الآلاف من رجال الاعمال الاسرائيليين، كما في أوروبا وأماكن أخرى أيضاً، ناجحون في أعمالهم، ويرغبون في العودة إلى اسرائيل. وبما أنه لا توجد حواجز لغوية وثقافية بينهم وبين بقية سكان اسرائيل، وبما أنهم اكتسبوا خبرة وعلاقات عمل دولية، يستطيع هؤلاء المساهمة بدور حقيقي في توسيع نطاق الصادرات الاسرائيلية.

وهناك دور مميّز ليهود الولايات المتحدة في هذا الانتعاش الاقتصادي المأمول. إذ يمكن أن تكون مساهمتهم كبيرة في العقد القادم كونهم "مهاجرين اقتصاديين"، أي رجال أعمال ومدراء، يقومون بدور حاسم في أدارة أعمال جديدة في اسرائيل، إذ لا يوجد في العالم مجمعة سكانية مؤهلة ومبدعة، كيهود الولايات المتحدة، في مجالات الصناعة والتجارة والمال. ولا شك أنه في اعقاب حدوث تحوّل جذرين يستطيع الاقتصاد الاسرائيلي ان يجني فائدة كبيرة من قدرتهم هذه. ولا شك أيضاً، أنه في حالة تحسّن صورة الاقتصاد الاسرائيلي، سيأتي إلى اسرائيل ليس اليهود، واليهود المهاجرينمنها فحسب، بل ستجتذب مستثمرين كثيرين من غير اليهود أيضاً.

ان كل هذه الأمور، هي في متناول يد اسرائيل. فحقيقة ان الاصلاح السياسي قد بدأ، والأفكار الليبرالية الاقتصادية بدأت تتغلغل في وعي الاسرائيلي العادي، تدل على ان اسرائيل أصبت ناضجة لادخال تغييرات اقتصادية وسياسية واسعة النطاق.

هذا القول لا يعني الاعتراف باجراءات التحرير الاقتصادي التي اتخذتها حكومة الليكود في أواخر السبعينات والثمانينات اعتراض أيضاً، على الانفتاح التدريجي الذي تشهده

السوق الاسرائيلية منذ ذلك الوقت. ولكنه مع ذلك يعبّر عن حقيقة أساسية واحدة: لا يزال مركز الثقل في النظام الاقتصادي السائد في السياسة الاسرائيلية، يميل نحو المركزية في الاقتصاد، وادارته بواسطة اوامر عليا، صادرة عن الحكومة.

ان من مصلحة الصهيونية اقتلاع "البلشفية"، و "البارونية" وابعادهما عن الساحة الجماهيرية. إذ أن شعباً صمد في مواجهة ظروف التشرد، وتغلّب على معارضة ومقاومة امبراطوريات فورية، والعالم العربي كله، يستطيع، بالتاكيد، أن يجند قوة الارادة المطلوبة، للتغلب على العائق الأخير أمام عودة ملايين من أبنائه إلى وطنهم. أن إذابة الجمود البيروقراطي الذي فرضته اسرائيل على نفسها، ليس بالمهمة المستحيلة. فالمسألة الديمغرافية هي مسألة هجرة في أساسها، والهجرة هي مسألة اقتصاد وثقافة. أن بمقدور اسرائيل ان تضع الأسس القوية والصلبة، لأغلبية يهودية قوية وثابتة في دولة اليهود، إذا رغبت في ذلك فقط، تماماً كما تنبأ هرتسل في حينه.

ان الحلم الصهيوني، الذي أعلن الاحصائيون والضعفاء عن موته، مرات عديدة، لا يزال على قيد الحياة، مثلما تبين لنا بعد أن فُتحت أبواب دولة الكتلة الشرقيةأمام هجرة اليهود. وتبين أيضاً أن كل توقعات الضياع، التي تغلّفت بغطاء الواقعية العلمية، لم تكن سوى اهتزاز الثقة بالاهداف الصهيونية وبقدرة الشعب اليهودي على تخفيفها.

إن العفريت الديمغرافي، ليس من نتاج "الواقع"، انما هو تعبير عن الانهزامية لدى أولئك الذين فقدوا ايمانهم. بما أنهم، هم أنفسهم، لا يرون الطريق المؤدية إلى انتصار الصهيونية، اعربوا عن استعدادهم للاعلان عن هزيمتهم، والانسحاب، حتى لو كان هذا الانسحاب إلى دولة لا يتجاوز عرضها بضعة كيلو مترات، ظهرها إلى البحر، واصبعها ممدودة إلى الزر النووي. لكن الحلم الصهيوني لا يمكن تحقيقه عن طريق التراجع إلى الخلف والهروب من اجزاء من "أرض اسرائيل" التي يخشى كثير من اليهود عدم قدرتهم على الاحتفاظ بأغلبية فيها. لم تقل الصهيونية أبداً، ان الطريق لتحقيق اغلبية يهودية في البلاد، هي الانصراف من

كل منطقة او اقليم، يكون اليهود فيه اقلية. إذ لو تصرفت اسرائيل على هذا النحو، لتنازلت، منذ زمن، عن يافا، عكا، الجليل، واجزاء كبيرة من النقب. ولتقلصت إلى جيب يهودي صغير ذي "أغلبية" يهودية مصطنعة، تنشد الأمن لنفسها، على طول الساحل. ان مثل هذه الدولة الكئيبة، لم تكن لتجتذب الكثيرين للعيش فيها. كما أنها ستفرغ بسرعة من سكانها، ومن قوتها، نتيجة للهجرة المعاكسة، التي ستنبع من الضعف واليأس.

لقد شعرنا بمثل هذه الحالة النفسية القومية، فعلاً في السنوات التي سبقت حرب الأيام الستة، عندما توقفت الهجرة نهائياً تقريباً، وارتفعت نسبة الهجرة المعاكسة من اسرائيل حتى أصبحوا يتندرون في اسرائيل بالقول: "على آخر شخص يهاجر من اسرائيل أن يطفئ أنوار المطار في اللد".

لقد اجتاز المسيحيون في لبنان مرحلة كهذه، لكن الأمر لم ينته هناك بترديد "نكتة". إذ استمرت هجرة المسيحيين إلى خارج لبنان مما أدى إلى خراب الدولة. كان المسيحيون الموارنة في لبنان، في الماضي، طائفة كبيرة وقومية، ولكن لم تكن الديهم "هجرة" وفكرة "صهيونية" تشجعانهم على البقاء في لبنان. وهكذا، غادر المسيحيون لبنان، ومع مرور السنين، لم يبق منهم سوى جيب صغير في ضواحي جونية، شمال بيروت، التي يسيطر عليها المسلمون من الجبال الواقعة إلى الشرق من قطاع الساحل، ثم جاء السوريون أخيراً، لسيطروا على لبنان كلها، وسلبوا الدولة من المسيحيين، ومن بقية سكان البلاد.

ان نفس الشعور بالضياع والضعف، ساد بين الاسرائيليين الذي توصلوا في سنوات الثمانينات إلى استنتاج، هو أن عهد الصهيونية قد ولّى، بعد توقف الهجرة اليهودية. وقبل وقت قصير من بدء موجة الهجرة الكبيرة من الاتحاد السوفياتي، في مطلع التسعينات قال اولئك المتشائمون: "علينا أن نكون واقعيين"، "ان موجات الهجرة الكبيرة، التي حدثت في الماضي، لن تتكرر، لذا، علينا أن نتكيف مع اسرائيل صغيرة، دون هجرة". غير أن الصهيونية لا تزال تواجه مهمتها الرئيسة: جلب غالبية الشعب اليهودي إلى "أرض اسرائيل".

واليوم، يجب أن نسعى، اكثر من أي وقت مضى، نحو تحقيق هذا الهدف الصهيوني. لـذا يجـب علينـا عدم اضعاف الفكرة الصهيونية، بل توقيتها في المجالات الثقافية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية، لـكي تستطيع تحقيق الامكانيات الكبيرة المتاحة لها.

ان دولة اسرائيل، عندما يعيش فيها ما بين ٨ – ١٠ ملايـين يهـودي، بعـد بـضع عـشرات مـن الـسنين، يمكنها أن تتمتع بالازدهار، والحركة، والاستقلال على نحو لا يمكن تخيله في اسرائيل اليوم. وبمـا أن اسرائيـل ستتقوّى إلى هذا الحد، سيضطر العالم العربي، في النهاية، إلى ابرام الـسلام الحقيقـي معهـا. وهـذه النظريـة تتعارض مع النظرية السائدة اليـوم في اسرائيـل، والقائلـة ان اسرائيـل سـتحقق الـسلام، إذا تـصالحت مـع العرب، عن طريق تقديم تنازلات بعيدة المدى لهم، تؤدي إلى اضعافها وتقليص حجمهـا، فقـط. وفي واقـع الأمر، فان السلام الدائم يمكن تحقيقه فقط، اذا استطاع الشعب اليهودي اقناع العرب، انه يجب ان يبقـى معهم والى جانبهم، لأنه موجود هنا، وسيبقى هنا.

الفصل التاسع
"سلام دائم"

إن اسرائيل مؤهلة للتوصل إلى سلام مع كافة الدول العربية المجاورة. ولكن، كي يكون هذا السلام دائما، يجب ان يرتكز على أُسس متينة من الامن، والعدل، والحقيقة بشكل خاص. إذ أن الحقيقة كانت الضحيّة الأولى في المعركة العربية ضد اسرائيل، والسلام الذي يرتكز على أنصاف الحقائق، وعلى التشويه، لا بد أن يتحطم، في النهاية، على صخرة الواقع في الشرق الأوسط.

ان السلام الحقيقي، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار طبيعة المنطقة الحقيقية، وحالات العداء الخاصة والدائمة فيها. وعليه ان يعرض حلولاً واقعية للنزاع الجوهري القائم والدائم بين العالم العربي وبين دولة اليهود. ان النزاع، ينبع من وجود كيان يهودي مستقل بالذات، وليس لهعلاقة بالأرض بشكل خاص، إن كل ما شاهدناه حتى الآن، يدل على ان معارضة العرب لوجود اسرائيل، كانت وما زالت، العقبة الرئيسة، التي تحول دول تحقيق السلام.

ففي مؤتمر مدريد، على سبيل المثال، دعا رئيس الوفد الفلسطيني في كلمته، إلى تسليم المراكز السكانية الاسرائيلية الكبيرة إلى دولة فلسطينية جديدة، وإغراق ما تبقى من اسرائيل باللاجئين العرب. ومنذ ذلك الوقت، ظل عرفات يكرر فكرة "السلام" هذه يومياً تقريباً، وبعد اتفاق اوسلو أيضاً. وفي المؤتمر تساءل وزير الخارجية السوري فيما اذا كان يحق لليهود، وهم ليسو شعباً، على حد تعبيره، إقامة دولة خاصة بهم. وقبل المؤتمر بحوالي سنة، أجاد وزير الدفاع السوري، مصطفى طلاس، تلخيص جذور المشكلة بقوله: "ان النزاع بين الأمة العربية، وبين الصهيونية، هو نزاع وجود وليس نزاع حدود". ومن أجل تجسيد اقوال طلاس، يجدر بنا الاشارة إلى أنه يوجد بين سوريا وتركيا، منذ سنوات كثيرة، نزاع حدود شديد، يتعلق بمنطقة الاسكندرونة التي تقع حالياً تحت السيطرة التركية. تطالب سوريا

"باعادة" هذه المنطقة اليها غير ان هذا الأمر، لا يمنعها مـن الاعـتراف بتركيـا، وإنـشاء، علاقـات دبلوماسـية معها. لكن النزاع الاقليمي، بشأن هضبة الجولان، يتعدى مسألة موقع خط الحـدود، انـه ينبـع مـن رفـض سوريا الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود – الرفض الذي عبّرت عنه سوريا بالهجمات المتكررة على اسرائيـل، عندما كانت هضبة الجولان بأيديها.

إذن، هذه هي نقطة الانطلاق التي يجب ان نبدأ منها في حل النزاع بين العرب واسرائيل، يجـب عـلى الدول العربية أن تعترف وتسلّم بوجود اسرائيل بصورة مباشرة، ودون شروط. لا يكفي إنهاء حالة الحـرب، إنما يجب على أنظمة الحكم العربية، التخلي نهائياً عن سعيها للقضاء على دولة اليهود، ومنح هذا التغيـير مصداقية، عن طريق إبرام سلام رسمي معها. وهذا يعني، الغاء المقاطعة الاقتـصادية ضـد اسرائيـل، وقـف التعاظم العسكري الموجه ضدها، وصنع معاهدات سلام معها. يجب على الدول العربية ان تكيّف نفـسها، مع الواقع الذي ظلت ترفضه حتى اليوم: ليس الاعـتراف بحقيقـة وجـود اسرائيـل فحـسب، إنمـا الاعـتراف رسمياً ودون أي تحفظ، بحق اسرائيل في البقاء بين هذه الدول. وهذا يعني أن عـلى الـدول العربيـة قبـول مبدأ التعايش المتبادل، تقوم على أساسه علاقات هذه الدول مع دولة اسرائيل.

ان اسلوب التعايش، هو اسلوب واقعي، إذ انه يمكّن المجتمعات المتـصارعة مـع بعـضها الـبعض، مـن العيش والتطور، حتى من خلال استمرار النزاعات، وربما مع مرور الوقت، تستطيع هـذه المجتمعـات حـل الخلافات العميقة بينها. ففكرة التعايش المتبادل، تحدد على أية حال، قيوداً للصراع. ولكـن طيلـة ٧٥سـنة، ظلت السياسة العربية رهينة لفكرة معادية لليهود لا تعرف الحدودك بسبب هذه الفكرة، حاول الـزعماء العرب تجنيد النازيين لخدمة اهدافهم. كا أنهم شـنّوا خمـس حـروب عـلى اسرائيـل بغيـة تحقيـق "الحـل النهائي"، ولجأوا للارهاب الدولي، وهزوا اقتصاد العالم بفرضهم الحظر على تصدير النفط، ويحـاول بعـضهم انتاج القنبلة النووية لاستخدامها في المعركة "الأخيرة" ضد الصهيونية. لـذا يجـب اقـتلاع هـذه الفكـرة مـن جذورها – ليس من أجل اسرائيل فقط، بل من اجل العرب نفسهم، ومن أجل سلام العالم اجمع.

إعتاد البعض التقليل من أهمية معارضة العرب لوجود اسرائيل، بصفتها القوة المحركة للنـزاع العـربي الاسرائيلي. ان مثل هذا الغموض، مألوف جداً في أقوال المعلقين حول الشرق الأوسط، ويتم التعبير عنه من خلال اجراء مقارنة كاذبة بين متطلبـات وطموحـات الطـرفين – وكأنـه مقابـل مطالبـة اسرائيـل بـالاعتراف بحقها في الوجود، يجب عليهـا أن تـدفع للعـرب الـثمن متمـثلاً بالاسـتجابة لطلبـاتهم المتنوعـة، وبخاصـة الاقليمية منها. لكن من يجري مثل هذه المقارنة، بين حق الوجود، وبين هذه المطالـب، ويـرى انهـما طرفـا معادلة واحدة، يتجاهل بذلك الحقيقة التاريخية، ويخلط بين الـسبب والمـسبب. والأخطـر مـن هـذا، أنـه يقرر، في إطار معادلته مناقشة ذلك بسهولة، إذا تصورنا وضعاً عكسياً: لنفترض ان اسرائيل رفضت الاعتراف بحق سوريا بالوجود، وتهدد بالقضاء عليها، إذا لم تخرج من قطعة أرض تطالب بها اسرائيل لنفسها، عندئذ سيرى العالم كله، في ذلك طلباً جنونياً – وهو محق في ذلك. غير ان رفض العرب الاعتراف بوجد اسرائيـل اذا لم تستجب لطلباتهم بشأن التخلي عن المناطق التي سبق ان هاجموها انطلاقاً منها، يحظى بـاهتمام بـالغ من جانب معظم الدول. هيا، ننسى، ان حق اسرائيل في الوجود ليس موضوعاً للتفاوض – تماماً كما ان حق سوريا ومصر في الوجود غير قابل للمساومة.

في ردهم على هذا، يدعي العرب ان الظلم الذي الحـق بالفلـسطينيين شـديد، لدرجـة لا تـسمح لهـم بالتسليم بوجود اسرائيل قبل رفع هذا الظلم. غير ان الهدف الوحيد لهذا الادعاء هو اخفاء الحقيقة. ففـي عام ١٩٤٧، عرضت الأمم المتحدة على العرب الفلسطينيين دولة، ورفضوها. وهكذا فعلت أيضاً كافة الدول العربية التي أرسلت جيوشها عام ١٩٤٨ إلى اسرائيل، لاحتلال كل ما تستطيع احتلالـه مـن أراضـيها. اضـف إلى ذلك، انه عندما كانت الضفة الغربية وغزة بأيدي الاردن ومصر بعد عام ١٩٤٨، لم يطالب أي عربي، ولو تلميحاً، باقامة دولة فلسطينية في هذه المناطق. لـذا، فـان العلاقـة التاريخيـة بـين رفـض العـرب الاعـتراف باسرائيل، وبين مطالبتهم بدولة فلسطينية، ليس لها دليل على ارض الواقع.

على هذا الأساس، وكما يتضح من دراسة الحقائق التاريخية لم تكن القضية الفلسطينية القوة المحركة للنزاع العربي – الاسرائيلي، بل جاءت نتيجة له. فلو تم "حل" القضية الفلسطينية، ستبقى هنالك عناصر قوية، في العالم العربي والاسلامي، تسعى للقضاء على اسرائيل.

ان قضية العرب الفلسطينيين، يجب ان تحظى بحل منطقي، يأخذ بالحسبان وضعهم وضائقتهم، إلى جانب حقوق اليهود وأمن اسرائيل. لكن شيئاً واحداً يجب توضيحه منذ البداية وهو ان مطالب العرب الفلسطينيين سواء الحقيقية منها أو الوهمية، لا يمكن أن تكون بمثابة المسدس المحشو والملصق بصدغ اسرائيل.

اليوم، وبعد خمس حروب، أصبحت عدة دول عربية مستعدة للاعتراف بارسائل – لكن هناك دولاً أخرى تقول، انها ستفعل شريطة ان توافق اسرائيل على اقامة دولة فلسطينية، تقسّم القدسن وتحاذي تل أبيب، وتشكل خطراً بكيراً على وجود اسرائيل. ومثل هذا الشرط المسبق، الذي يطرحه قسم كبير من العالم العربي، يشير إلى المسافة التي لا يزال على هؤلاء العرب ان يقطعوها، قبل ان يسلموا حقيقياً بوجود اسرائيل، كدولة يهودية مجاورة لهم.

يجب أن لا نستغرب هذا الأمر، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الدعاية المعادية لاسرائيل، التي غسلت دماغ الجماهير العربية والاسلامية، طيلة عشرات السنين، لقد ظل ملايين الناس، يستمعون يومياً إلى القول ان الدولة الصغيرة "الموجودة بينهم" ليس لها مكان تحت الشمس، ويجب اجتثائها بصفتها "سرطاناً" وان يُلقى بها في سلة نفايات التاريخ"، مثلما استمعت إلى ممثل ايران في الأمم المتحدة وهو يعلن ذلك في عام ١٩٨٥.

وان ظلت هذه الأقوال تتردد، صبح مساء، على مسامع الجماهير العربية طيلة حوالي خمسين سنة، يصعب الاعتقاد بأن هذه النظرة العدائية يمكن أن تتغير إلى حد كبير، في اوساط هذه الجماهير، وفعلاً، حتى بعد مؤتمر مدرير، واتفاقيات أوسو، التي حظيت بتغطية عالمية

واسعة، ووصفت بأنها وضعت حداً لعهد الحروب العربية – الاسرائيلية، اتضح ان كراهية اسرائيل في العالم العربي، عميقة الجذور لدرجة لن يسهل اقتلاعها.

في عام ١٩٩٤، نشرت صحيفة "وول ستريت جورنال" خلاصة استطلاع للرأي العام العربي أجراه البروفسور هلال حسان، من الجامعة الأمريكية في بيروت، عام ١٩٩٣. وشمل الاستطلاع ألف شخص، وتبين منه ان ثلاثة أرباع الجمهور العربي في سوريا ولبنان ومن الفلسطينيين، يعارضون اي نوع من السلام مع اسرائيل، ويؤيدون استمرار حالة الحرب معها. في حين ان الربع الأخير المتبقي، المؤيد لعملية السلام، يعتبرها "وقفا لاطلاق النار فقط" هدفها اضعاف اسرائيل تمهيداً لشن حرب فعّالة ضدها في المستقبل.

رغم ذلك، تجدر الاشارة إلى ان اتفاعية السلام مع مصر كانت بمثابة فسحة أمل جديدة، مثلما كان مؤتمر مدريد، رغم خيبة الأمل منه، نافذة نحو امكانيات جديدة للمصالحة. لقد شرع العرب والاسرائيليون بحوار مباشر، يمكن ان يؤدي إلى ارسا، سلام حقيقي بين اسرائيل وجيرانها، إذا استطاعت اسرائيل ان تواجه الظروف المطلوبة لارساء سلام كهذا. لقد أصبح هذا الحلم حقيقية، مع دولة عربية واحدة على الأقل، هي الأردن. لا شك بأن اتصالات اسرائيل العلنية مع دول عربية مختلفة تقع في اطراف العالم العربي، مثل امارات الخليج، وتونس، تعتبر اتصالات ايجابية، تنطوي على فرص تقليص العداء تجاهها، لكن هذه الاتصالات، لم تمس جذور المشكلة، التمثلة بالمواقف المتطرفة لأنظمة الحكم العربية، التي تشكل مركز الثقل في العالم العربي.

من الواضح، ان هذه الأنظمة، لا تزال تضمر العداء الشديد لاسرائيل، ولكن يجب الاّ تنكر حقيقة، انه في السنوات الأخيرة، طرأ تحرك معيّن نحو الاستعداد لتحقيق تسويات سياسية مع الدولة اليهودية، وهذا التحرّك لا ينبع من حدوث تغييرات في الايديولوجية، إنما جاء لآثار الانتصار الاسرائيلي في حرب الايام الستة، الذي منح اسرائيل حدداً أمنية، ومن التحوّل الجيو – سياسي الكبير الذي تلا انهيار الاتحاد السوفياتي. لقد أدى اختفاء الامبراطورية السوفياتية إلى

تلاشي أكبر تأييد استراتيجي للعدوان العربي ضد اسرائيل، كما أن هزيمة العـراق أمـام ائـتلاف دولي برئاسـة الولايات المتحدة، أوضحت للأنظمة الراديكالية في الشرق الأوسط، بأن عليهم "الأنـصياع"، بـشكل أو بـآخر، للواقع الدولي الجديدت.

كانت هذه هي الاسباب التي جعلتني اومـن في اعقـاب حـرب الخلـيج، بـأن عـلى اسرائيـل اسـتغلال الفرصة، وأن تحاول الشروع في مفاوضات سلام مع جيرانها، من مواقف واضحة، هذه المرة. لقـد آمنـت أن باستطاعتنا أن نطلب من العرب التخلي عن مواقفهم التقليدية، وليس فقط الرد على مطالبهم التـي ظلـوا يطلبونها من اسرائيل منذ حـرب الايـام الـستة، وأيـدت ذهابنـا إلى مـؤتمر مدريـد، بهـدف تـشجيع بـوادر التسليم بوجود اسرائيل، التي بدأت تظهر في العالم العربي. غير انه، مقابـل هـذه البـوادر، هنالـك رغبـة في القضاء على اسرائيل، تشكل عنصراً مركزياً في السياسة الشرق أوسطية.

فمثلاً، قبل مـؤتمر مدريـد بأسـبوعين، عُقـد مـؤتمر الـدول الاسـلامية في طهـران، وكـان يمثـل التوجـه المعاكس في نظرة العرب إلى اسرائيـل. وفي هـذا المـؤتمر، قـرر ممثلـون عـن جميـع اجـزاء العـالم الاسـلامي وبضمنهم ممثلو الدول التي شاركت في مؤتمر مدريد ومنهـا سـوريا، وعـدد مـن فـصائل منظمـة التحريـر الفلسطينية، بأنه يجب تدمير دول اسرائيل.

لقد تخلت منظمة التحرير الفلسطينية، ظاهرياً، عن هذه النيّة في اطار اتفاقية اوسـلو. إذ يتـضح، في الواقع، من تصريحات زعماء المنظمة المتكررة، منذ اتفاق اوسلو، ان خطة المنظمة تهـدف إلى اقامـة دولـة فلسطينية على مراحل، تستطيع انطلاقـاً مـن هـذه الدولـة – بالتعـاون مـع دول عربيـة أخـرى – القـضاء تدريجياً على دولة اسرائيل المقزّمة. وما دعوة عرفات إلى الجهاد، بعد ثمانية أشهر، فقط، من اتفاق اوسلو، إلاّ دليل على النهج الاساسي تجاه اسرائيل، الذي لا يزال سائداً لدى شريحة كبيرة من العـالم العـربي. وهـذه أعراض مرض سياسي شديدن يتطلب وقتاً طويلاً للشفاء منه. وكما هي الحال بالنسبة للاضطرابات نفسانية أخرى، فمن اعراض هذا المرض الرغبة في العنف كوسيلة لتفريغ ضغوط لا ارادية. ان الشرط الأول لتحقيق

سلام، هو الرفض المطلق للتسليم بمثل هذا التعصب، بأن صورة كانت، والتنديد به بشدة في أي مكان كـان في العالم.

ان القرارات المتطرفة التي صدرت عن المؤتمر الاسلامي في طهران، لم تثر ولو جملة تنديد واحـدة مـن جانب أية دولة غربية، في حين حظيت دعوة عرفـات للجهـاد في عـام ١٩٩٤، بتنديـد ضـعيف مـن جانـب حكومة اسرائيل، والتأجيل لبضع ساعات فقط، سلسلة اللقـاءات المـستمر بـين وزيـر الخارجيـة الاسرائـيلي وعرفات، التي تواصلت وكأن شيئاً لم يحدث.

من الخطأ، الاستهزاء بتأثير هذا التعصّب، والنظر اليه باعتباره مراءاة وللاستهلاك الداخلي فقـط، فـاذا لم يواجه هذا الاسلوب المتطرف بمقاومة شديدة قد يؤدي إلى ابعاد وجهات نظر المعتدلين في العالم العـربي، واثارة حماس الجماهير الغربية من جديد، وتفويت فرصة المصالحة بين اليهود والعرب. هنالك الكثيرون في العالم الغربي، الذين يعترفون بضرورة اعتراف العرب باسرائيل، ولكنهم، مع ذلك، يألفون نهجهم "الـواقعي" الذي يعبرون عنه بسؤال: إذا لم تتنازل اسرائيل عن المناطق المحتلة، ماذا نستفيد من الـسلام؟ لنـترك جانبـاً موضوع الاراضي موضع الخلاف (سنعد اليه ثانية)، لنرى أنه دون هذا الموضـوع سـيحقق العـرب مكاسـب كبيرة أيضاً من السلام. يستطيع العرب ان يوفروا على أنفسهم تكاليف الحروب الآخذة بالازدياد، فقد دلّت حرب الخليج على أن الحرب أصبحت الآن أكثر كلفة وأكثر دماراً.

ففي ضوء التقدم التكنولوجي السكري والقنابل الذكية والصواريخ وغيرها من اسلحة الدمار، يتوجب على كل زعيم عربي يصر على الخروج إلى الحرب، ان يأخذ بالحسبان النتـائج المحتملـة للحـرب وهـي: قـد يجد جيشه مدمراً، وعاصمته مدمرة، ونظام حكمه في خطر، وربما يفقد حياته ايضا. لكن اخطـار الحـرب هـذه الايام، ليست عسكرية فقط. الحرب تجلب بين اجنحتها دماراً اقتصادياً فظيعاً ايضا. فقـد جـاء في تقريـر الأمـم المتحدة عن نتائج حرب الخليج، ان الدمار الذي الحق بالطرق، والجسور، والسكك الحديدية، محطات الطاقـة،

ومصافي التكرير، والمصانع في العراق، ترك اثراً بالغ الخطورة على اقتصاد الدولة: لا يمكن توزيع الاغذيـة، أو تطهير المياه، او تصريف مياه المجاري، او ري المزروعات، او تقل العلاجات إلى الاماكن المطلوبة.

باختصار، يقول التقرير ان العراق اعيدت إلى عصر ما قبل الصناعة، لا شـك ان هـذا التقريـر ينطـوي على مبالغة. وقد الحقت هذه الضرار بالعراق، عدو استخدم قوته بحذر نسبي. في حين ان العـراق التـي لم تستخدم بحذر قوتها ضد الكويت، كبدتها خسائر تقدر بحوالي ٣٠ مليار دولار.

اذن، فالحرب الحديثة، تنطوي على دمار مزدوج: دمار عسكري، ودمار اقتصادي. وبعد حرب الخليج، لا شك في انه يجب على الزعماء العرب، ان يأخذوا بالحسبان، ان اسرائيل لن تقف مكتوفة الايدي فيما لـو تعرضت لهجوم آخر، واذا واجهت خطراً يهدد وجودها، فسترد بقوة هائلة. وان اي انسان عاقل، عربياً كان ام يهودياً، لا يمكن أن يرضى عن مثل هذا التطور.

كلما ارتفع ثمن الحرب، ازدادت الفائدة من الامتنع عن الحرب، واحلال السلام، فلاسلام لا يحـول دون الدمار والخراب وهدر طاقات وموارد هائلة فحسبن بل يوفر امكانية استغلال البنية الاقتصادية القائمـة في الدولة، من اجل تحقيق النمو الاقتصادي. كما يمكن السلام، الدولة، من التعاون مـع جيرانهـا بـشكل يعـود بالفائدة على الطرفين، وربما هنا، تكمن الفائدة الكبرى للسلام.

لقد عرفت اسرائيل هذه الحقيقة دائماً، غير ان الزعماء لم يقبلوا بعد بفكرة ان العالم العربي سيستفيد مـن السلام مع اسرائيل، بقدر لا يقل عن الفائدة التي ستجنيها اسرائيل من هذا السلام.

صـحيح، انـه في عـصر الحـرب البـاردة، كانـت الانظمـة العربيـة تحظـى بـدعم عـسكري واقتـصادي مـن الـدول العظمـى – الـدول الراديكاليـة، مـن الاتحـاد الـسوفياتي، والـدول المعتدلـة،

من الولايات المتحدة. ولكن بعد سكون الصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية، تقلصت إلى درجة ما، الاهمية الاستراتيجية لهذه الدول، ولم يعد بمقدورها التمتع بالامتيازات التي كانت تحظى بها آنذاك.

وكلما تركز اهتمام الدول الصناعية على التجارة المتبادلة بين بعضها البعض، زاد تهميش العالم العربي من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. لذا فالسلام مع اسرائيل، يمكن ان يصبح بالنسبة للدول العربية جسراً إلى العالم الغربي الصناعي، من اجل تجنيد الاستثمارات والتكنولوجيا المتقدمة والحصول على خدمات مالية متنوعة وفتح قنوات تجارية جديدة.

كيف يمكن ان يكون شكل هذا السلام فيما لو آمن العرب به باخلاص؟ لن يكون هنوالك مجال من مجالات الحياة لا يتأثر به واولها، على سبيل المثال، المجال التجاري. فمنذ حرب الايام الستة، انتهجت اسرائيل سياسة "الجسور المفتوحة" على نهر الاردن، ورغم ذلكن ظلت طرق التجارة الاسرائيلية نحو الشرق مغلقة، بشكل عام، نظراً لوجود حاجز بري عربي، ومقاطعة سياسية عربية لاسرائيل، في حين ظلت طرق التجارة العربية أيضاً محدودة، ذلك لأن العالم العربي لم يستخدم المنشآت المتطورة في اسرائيل ولا موقعها الجغرافي المميز، ففي عهد السلام، يستطيع العالم العربي استغلال الموانئ الاسرائيلية على البحر المتوسط، ويستفيد من قدرة اسرائيل على ان تكون مركزاً اقليمياً فعالا لاغراض التجارة والخدمات. ولا شك في ان السلام مع الاردن سيساعد على تحقيق مثل هذه الامكانيات. كما ان الاقتصاد المائي، سيجني فائدة كبيرة من السلام. وهذا السائل الثمين، سينافس النفط، كعنصر رئيس في النزاعات التي قد تندلع في المنطقة في السنوات القادمة. وستصبح الاتفاقيات المتعلقة بالمياه اكثر صعوبة في التحقيق في هذا الشرق الاوسط الجاف. فالحجم السكاني الكبير، والمتزايد في هذه المنطقة، يلقي عبئاً ثقيلاً ومتزايداً ايضاً على مصادر المياه القليلة فيها، لذا فان اجراء مفاوضات مبكرة حول موضوع الثروة المائية الاقليمية، سيكون لمصلحة كافة الاطراف، وستكون اول دولة تستفيد من السلام على هذا الصعيد، هي الاردن،

اكثر الدول جفافاً. اذ ان مخصصات الفرد السنوية فيها لا تزيد على ١٥٠م مكعب من المياه (مقابل حوالي ٢٠٠٠م مكعب للفرد في سوريا). لذا فالتعاون بين الاردن واسرائيل، سيؤدي إلى زيادة كميات المياه المتوفرة في الدولتين معاً. فمثلاً، سيوفر السلام امكانية ان تتعاون اسرائيل والاردن في انشاء محطة لتحلية المياه على البحر الاحمر، التي ستكون مشتركة للدولتين، واكثر جدوى على الصيد الاقتصادي من اقامة محطتين منفردتين، بحجم اصغر، وسيكون باستطاعة دولة جافة اخرى تقع على البحر الاحمر، الانضمام إلى المشروع، هي العربية السعودية. وكذلك الامر بالنسبة لسوريا، التي يبدو انها تتمتع بوافر من المياه، حيث انها تخشى من الجهود التركية، الرامية إلى اقامة سدود على نهر الفرات الذي يزود سوريا بالقسم الأكبر من مياهها. وفي اعقاب هذه الجهود التركية، من المتوقع ان يزداد التوتر بشأن اقتسام مياه نهر اليرموك المشتركة لكل من سوريا والاردن واسرائيل. لذا يجب ان يتم في اطار الاستعدادات لابرام معاهدة سلام مع سوريا، وضع ترتيبات ثابتة كاستمرار للترتيبات الخاصة باقتسام مياه اليرموك من عام ١٩٥٥، والتي تم تحديدها بوساطة اريك جونسن، المبعوث الخاص للر ئيس الامريكي ايزنهاور. كما ان السلام، سيساعد سوريا على الاستغلال الافضل لمصادر المياه الاخرى المتوفرة لديها.

لقد طوّرت اسرائيل اسلوباً حديثاً ومجدياً للري مثل اسلوب الري بالتنقيط، الذي يضمن وصول ٨٥% من المياه إلى المزروعات المرويّة. في حين ان نسبة الاستفادة من مياه الري في سوريا لا تزيد على ٤٠%، وبعد تحقيق السلام، سيصبح بمقدور المزارعين السوريين ان يتعلموا من اسرائيل أساليب الري الحديثة والمجدية، مثلما تعلمها المزارعون الفلسيطنيون، في الضفة والقطاع.

كما يستطيع المهندسون الاسرائيليون مساعدة سوريا في إنشاء خطوط قطرية لنقل المياه، إلى المناطق الجافة في الدولة، على غرار الناقل القطري للمياه الذي غيّر وجه الاقتصاد المائي في اسرائيل.

ومن بين المزايا الاقليمية للسلام، السياحة الحرّة وسهولة وصول مواطني الدول العربية إلى المؤسسات الطبية في اسرائيل. ولا شك في أن المستوى الطبي سيتحسن على مستوى المنطقة، ويصبح بمقدور الاطباء العرب الحصول على تأهيل مهني في اسرائيل.

إذا كان السلام سيعود بمثل هذه الفوائد الكثيرة على العالم العربي. لماذا لم ينهض زعماء الدول العربية، ليشرحوا لشعوبهم هذه الفوائد، ويسعوا لتحقيق السلام؟ هل من المعقول ان يكون (١٥٠) مليون نسمة، غيثر مدركين لهذه الحقائق الواضحة والجلية؟ ان الاجابة على هذا التساؤل، هي انهم ليسوا جميعاً مصابين بالعمى. إذ يوجد في كل دولة عربية أشخاص ليسوا بحاجة لأي شرح يحملهم على الاعتراف بضرورة إنهاء حالة الحرب مع اسرائيل، والتوصل إلى سلام معها، والعمل بالتعاون معها من أجل تقدم الشرق الأوسط، نحو مستقبل أفضل في القرن الحادي والعشرين. لكن هذا التوجه يصطدم بعقبتين: الأولى؛ ان عدد العرب الذين يدركون فوائد السلام، أقل من عدد أولئك الذين يرفضونه. كما ان بعض الزعماء العرب الذين يعلنون رغبتهم في تحقيق السلام، لا يعتبرونه هدفاً في حد ذاته، إنما مجرد وسيلة فقط، لاسترداد الاراضي التي فقدوها في الحرب، أو لضمان الحصول على مساعدات عسكرية من الغرب. ان السلام في نظر الكثيرين من الزعماء العرب، هو مجرد كلام يقصد به تحقيق غاية ما. الأمر الذي يجعل بالامكان التخلي عن السلام في الظروف المناسبة، وقد لا تطول المدة التي يحل فيها السلام. وهكذا، يمكن التوقيع على اتفاقية سلام اليوم، والتنكير لها غداً، بعد الحصول على ثمن هذا السلام وهذا الاسلوب "المرن" لتحقيق السلامن يتناقض مع اسلوب مواطني الدولة الغربية، وبضمنهم الاسرائيليون، الذين يعتبرون السلام هدفاً، لا يرقى اليه الشك.

اليسار او اليمين، في اسرائيل، جميعهم يرغبون ويتوقون إلى انهاء حالة الحرب مع العالم العربي، والتوصل إلى سلام مستقر ودائم معه. فالخلافات الداخلية في اسرائيل تتعلق بطرق تحقيق السلامن وليس حول قيمة واهمية السلام نفسه.

ان بعض العرب الذين تنسجم وجهة نظرهم بشأن السلام، مع النظرية الغربيـة، يجـدون أنفـسهم في مواجهة مع شرائح مهمة من المجتمع العربي. فنظرية السلام التي تفهمها هذه الشرائح،تنسجم مع الـسلام الذي يعرضه عرفات على اسرائيل: "سلام صلاح الدين"، ما هو إلاّ هدنة تكتيكية في حرب مـستمرة، أو انـه كما قال في مسجد جوهانسبرغ عام ١٩٩٤، "لا يتعدى الاتفاق الذي وقعه النبي محمد مـع قبيلـة قـريش". اي سلام مؤقت، تمهيداً للقضاء التام على العدو.

والثاني ان أياً من الزعماء العرب الراغبين في تحقيق سلام دائم مـع اسرائيـل، لا يريـد ان ينهـي حياتـه مثل الرئيس السادات، والرئيس اللبناني بشير الجميل، والاف العـرب الفلـسطينيين المعتـدلين، الـذين قُتلـوا على أيدي المفتي، ومنظمة التحرير الفلسيطينة مـن بعـده، ومـنظمات فلـسطينية اخـرى بتهمـة "خيانـة" القضية العربية لدى محاولتهم التوصل إلى سلام حقيقي مع اسرائيل.

الحقيقة هي، ان أية بادرة عربية لتحقيق مثل هذا السلام مع اليهود، تواجه فوراً الارهـاب والتهديـد بالقتل من جانب القوميين العرب المتطرفين والاصوليين المسلمين.

يجب علينا الاعتراف بالواقع المر، وهو أننا سنجد دائماً، في الوسط العربي، جناحاً متطرفاً يرفض السلام. فسياسة الارهاب التي اتبعها المفتين لا تزال قائمة حتى اليوم، كما كانت في عهد المفتي نفـسه. وطالمـا ظـل مثل هذا الجناح المتكرف من السياسة العربية يملك قوة كافية لارهاب وتخويف بقيـة الاجنحـة وارغامهـا على الرقص على انغامه، سيكون من الصعب جـداً، تحقيـق سـلام حقيقـي وثابـت. لـذا فـان تقلـيص قـوة المتطرفين على التخويف والاباتزاز، يعتبر شطراً حتميـاً لادارة مفاوضـات سياسـية ناجحـة مـع أي عنـصر في العالم العربي.

إن المغربن يعتبر نموذجاً لهذا المبدأ: عندما كان القذافي في ذروة قوته، وبعد ان احتل معظم مـساحة تـشاد، وبـث الرعـب في العـالم، مـن خـلال الارهـاب الـدولي الـذي تبنـاه، دخـل الملـك الحـسن الثـاني الـذي يعتـبر "النقـيض المطلـق" للقـذافي، في وحـدة تثـير الاسـتغراب بـين ليبيـا

والمغرب. ولكن بعد بضعة اشهر من القصف الأمريكي لطـرابلس، وهزيمـة القـوات الليبيـة في تـشادن حـل الملك الحسن الاتحاد مع ليبيا، ودعا وزير الخارجية الاسرائيلي لعقد لقاء علنـي معـه. ومنـذ ذلـك الوقـت، يسعى الحسن إلى انشاء علاقات سلام رسمية مع اسرائيل.

وكذلك سوريا، التي أدركت بعد حرب الخليج انه بعد سقوط الحليف السوفياتي، يجب عليها التعامل بحكمة مع عالم أصبحت فيه الولايات المتحدة الدولة العظمى الوحيدة، ولهذا الـسبب اسـتجابت للـدعوة الأمريكية بشأن الدخول في مفاوضات مع اسرائيل، وسمحت لمنـدوبيها بـالجلوس عـلى طاولـة واحـدة مـع المندوبين الاسرائيليين، لمحادثات السلام التي بدأت في مدريد.

غير انه في كثير من الاحيان، يتسبب العالم الغربي في تفاقم خطورة الوضع، وذلـك عنـدما يتبنـى أسـوأ المتطرفين. إذ عندما يقوم هؤلاء، ببادرة حسنة ما، ولو كانت ضـئيلة جـداً، يميـع العـالم الغـربي ويكـثر مـن المديح والثناء عليهم، لدرجة انه يسارع في التوقيع على اتفاقيات اقتصادية او عسكرية معهـم، مـن خـلال الافتراض بأن مثل هذه التسهيلات، ستغري الانظمة المتطرفة بالاعتداء في مواقفها.

لقد برز العيب الشديد في مثل هذا الاسلوب، في الثمانينات عندما كانت الدول الغربية، تتنافس فـيما بينها على تسليح العراق، وقد تكرر هذا الخطأ من جديد، بصورة مدهشة هذه المرة، في مبـادرة الحكومـة الاسرائيلية، بتأييد حماسي من الدول الغربية، لانشاء قوة عسكرية تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية غـربي نهر الاردن، التي قُصد بها ظاهرياً، مواجهة حركة حماس، لكنها ستوجه في يوم ما ضد الدولة اليهودية.

ان الاستنتاج الواضح من كل ما تقدم، هو أنه يجب عدم تـسليح المتطـرفين. ويجـب أيـضاً فـرض قيـود عـلى مبيعات الاسلحة "للمعتدلين"، فالشرق الأوسط، المعتدل اليوم، قد يصبح متطرفاً غداً – في أعقاب ثـورة داخليـة، أو غزو خارجي، أو ضغط سياسي، من جانب العالم العربي.

ان الطابع الدكتاتوري لأنظمة الحكم العربية، وقوة المتطرفين بينها، يتطلبان من اسرائيل التمييز بين "السلام المرغوب" وبين "السلام الموجود"، أي نوع السلام الذي يمكن تحقيقه في منطقتنا. لا يوجد مواطن اسرائيلي. غير راغب او لا يتمنى أن تكون هنالك علاقة سلام مع العالم العربي، على غرار تلك القائمة بين الدول الديمقراطية، في أوروبا الغربية وامريكا الشمالية. ان "السلام المرغوب" الذي يتمناه معظم المواطنين في اسرائيل، هو نوع السلام المتبع بين الدول الديمقراطية الذي لا يحتاج إلى حراب للمحافظة على بقائه. ولو كان من الممكن ارساء مثل هذا السلام على المدى المنظور، لتخلصنا من مسائل الأمن والردع. إذ أنه في ظل سلم كهذا، سيتصالح العرب معنا، صلحاً مطلقاً، ولأصبح بالإمكان التحدث عن "شرق أوسط جديد"، دون الخوف من انهيار الاتفاقيات التي أُبرمت مع العرب في المستقبل.

هل نقف حقاً، على أعتاب عهد سلام من هذا النوع؟ هذا السؤال، يلزمنا أن نبدأ بطرح السؤال التالي: ما هي الاحتمالات المعقولة لحلول حكومات ديمقراطية محل الانظمة الدكتاتورية في الشرق الأوسط؟

يمكننا الجزم أنه دون ممارسة ضغوط خارجية شديدة ومستمرة، ليس ثمة اي احتمال لحدوث مثل هذا التحوّل على المدى القريب، ولا حتى على المدى البعيد. ذلك لأن احتمال حدوث تحوّل ديمقراطي في معظم اجزاء الشرق الأوسط، والى جانبه حدوث تحوّل في نظرية السلام، يتعلق، بصورة مباشرة، بقوة مطالبة العالم الغربي، للعرب باتباع النهج الديمقراطي في أنظمة الحكم العربية.

لقد كانت العلاقة الوثيقة بين القيم الديمقراطية وبين نمو الرغبة في السلام، واضحة دائما للمسؤولين عن السياسة الخارجية في الولايات المتحدة، الأمر الذي دفعهم إلى تقديم مساعدات اقتصادية وغيرها، لدول عديدة في العالم، لتشجيعها لى تطبيق مبادئ الديمقراطية فيها. لكن العرب فقط، كانوا معنيين من مثل هذا الضغط. وكان هذا "الاعفاء الديمقراطي" الممنوح للعرب، في غير مصلحة اسرائيل، المضطرة للعيش في ظل احتمال قيام هذه الأنظمة،

في اية لحظة، بالعمل ضد الدولة اليهودية بنفس البشاعة والوحشية التي تتعامل بها مع مواطنيها أنفسهم.

قبل حرب الخليج، ربما كان من الممكن الافتراض، بأن الغرب يتقدم تدريجياً نحو الطلب من الحكام العرب إتباع النظام الديمقراطي في بلدانهم. وبعد الحرب، تبين أنه لا أساس لمثل هذا الافتراض.

لم يسبق ان شهد التاريخ حاكماً أضعف من الأمير الصباح، حاكم الكويت، الذي ظل في المنفى بالعربية السعودية، ينتظر الغرب لتخليص بلاده من مخالب العراق. ولم تكن هنالك لحظة أفضل أو أنسب من تلك اللحظة لمطالبته بالتعهد باتباع النهج الديمقراطي في بلاده بعد عودته، لكن أحداً لم يفكر في ان يطلب منه ذلك.

يبدو ان الغرب أعفى العرب من مطالبتهم بالديمقراطية، ليس بسبب سيطرتهم على الجزء الأكبر من احتياطي النفط في العالم فقط، بل بسبب النظرة العامة تجاههم، التي ورثها من وزارة المستعمرات البريطانية في نهاية الحرب العالمية الأولى – ان العرب لا زالوا غير مستعدين للديمقراطية، وان الديمقراطية لا تنسجم مع الاسلام، وان أشكال الحكم التقليدية السائدة في العالم العربي، مناسبة لهم، وما شابه ذلك. لذا، فان اسلوب التعذيب، وقطع الاعضاء الجسدية، والعبودية، وعدم حرية الصحافة، والحكم المطلق لعائلة واحدة، لا تعتبر استبداداً أبداً.

إن الثقافة العربية، والعقيدة الاسلامية، لا تنطويان على أية ذريعة لاعفاء العرب من الديمقراطية، أكثر مما تنطوي عليه ثقافة اليابان في عام ١٩٤٥، والتراث الروسي في عام ١٩٨٩، فعلى الرغم من أنه لم يسبق ان كانت في هاتين الدولتين انظمة حكم ديمقراطية، لم يتنازل الغرب عن مطالبه بشأن تطبيق الديمقراطية فيهما، اذن لكي نستطيع تحقيق سلام دائم في الشرق الأوسط يجب على الولايات المتحدة التوقف عن تدليل الانظمة الدكتاتورية العربية. وعليها أن تمارس الضغط على هذه الانظمة، لحملها على احترام الحقوق الاساسية

للانسان في دولها، وتسمح لمن يريد العيش بسلام مع اسرائيل "بالخروج من الخزانة" والاعراب عـن وجهـة نظره علانية. وتشكيل أحزاب سياسية، ومن ثم انتخابه لمناصب تمكنه من اخراج برامجه إلى حيز التنفيذ.

هناك من يدعي بأنه يجب عدم تطبيق الديمقراطية في الدول العربية، خشية ان يؤدي ذلك إلى جلب المتطرفين الاسلاميين إلى السلطة. غير انني لا أقصد بمصطلح "ديمقراطية" حكـم الأغلبيـة فقـط، إنمـا أقـصد مجمل الاجراءات المطلوبة لانشاء نظام حكم تعددي، مثل دستور، حرية صحافة، احترام حقوق الفرد.

ومفهوم في حد ذاته، أن المطالبة بتطبيق الديمقراطية لا تسلب الدول العربية حقها في حمايـة نفـسها من الحركات المعادية للديمقراطيـة، مثـل الحركـات الاسـلامية المتطرفـة. واذا لم تُتبـع الخطـوات الحقيقيـة لتطبيق الديمقراطية في الدول العربية، فلن يزداد عدد أولئك العرب المستعدين لصنع سلام حقيقي (وليس تكتيكياً) مع اسرائيل.

ولكن، في الوقت الذي لا نرى في الأفق احتمالاً حقيقيـاً لتطبيـق الديمقراطيـة في منطقتنـا، فاننـا نـشهد في السنوات الأخيرة، تعزيزاً للاتجاه المعاكس، وبخاصة تجاه التطرف الديني الاسلامي الذي بدأ يحتل مواقع جديدة له كل سنة. وهذا لا يعني انه في ظل واقع الشرق الأوسـط الحـالي، لا يمكـن تحقيـق الـسلام مـع العـرب. لكـن الاستنتاج هو ان السلام الذي سمّيته "سلام ديمقراطيات" ليس مجـالاً للبحـث الآن. وان الـسلام الـذي تـستطيع دولة اسرائيل أن تتوقع الحصول عليه، هو "سلام الردع" فقط، أي تسويات سلمية منوطة بقـدرة اسرائيـل عـلى ردع الطرف الثاني عن خرق هذه التسويات، وشن حرب جديدة عليهـا. فالـسلام مـع مـصر، شـأنه شـأن اتفـاق السلام مع الاردن، تحققا نتيجة اعتراف زعماء هاتين الدولتين بعدم وجـود احـتمال لوحـدة عربيـة قـادرة عـلى الحاق الهزيمة باسرائيل في ساحة الحرب.

مـن المرغـوب فيـه، ان يـتم توقيـع معاهـدات سـلام تـؤدي إلى انهـاء حالـة الحـرب الرسـمية، لكـن مثــل هــذه المعاهــدات لا تــزال غــير قــادرة عــلى كــبح جــماح خطــر انــدلاع حــرب جديــدة في

المستقبل، لذا يجب ان تشتمل أية تسوية سلمية في المنطقة، على ترتيبات أمنية مفصّلة، وعلينا أيضاً، ان ندرس الحد الادنى من المطالب الأمنية التي تمكن اسرائيل من حماية نفسها من العدوان، وفي نفس الوقت تحافظ على استمرار السلام.

ولا أقصد هنا، المطالب الاقليمية فقط، فوجود ترتيبات أمنية متفق عليها بين اسرائيل والدول العربية مثل، "خط أحمر" بين دمشق والقدس، أو التزام كل طرف بابلاغ الطرف الآخر عن المناورات العسكرية الكبيرة، من شأنه تقليل خطر أن يؤدي توتر ما بين اسرائيل ودولة عربية، إلى اندلاع حرب. ويمكن أيضاً انشاء مناطق فاصلة، يُحظر فيها حشد قوات عسكرية كبيرة بالقرب من مناطق حدودية حساسة، بحيث يتم نزع هذه المناطق الفاصلة من الأسلحة الثقيلة مثل الدبابات والمدافع، ويُسمح لضباط من كلا الطرفين بالتجول فيها، والتاكد من تطبيق الاتفاق. وواضح انه لدى تحديد حدود المناطق الفاصلة، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار الفجوة الكبيرة القائمة بين حجم اسرائيل، وبين حجم الدول العربية المجاورة لها (كما يحق لاسرائيل المطالبة بتقليص حجم الجيش السوري المرابط مقابل حدودها).

غير أن هذه الترتيبات كلها، وبغض النظر عن مدى نجاعتها، لن تكون كافية في يوم ما، يقرر فيه اعداء اسرائيل خرق المبادئ المتفق عليها والشروع في حرب ضدها.

لقد سبق ان أوضحنا، أنه من الناحية ا لعسكرية، لن يكون الجيش الاسرائيلي قادراً على وقف هجوم وتجنيد الاحتياط، بغية ضمان بقاء الدولة، دون العمق الاستراتيجي المتوفر حالياً لاسرائيل. كما أن الضمانات الدولية، لا يمكن أن تحمل مكان العمق الاستراتيجي (او ارتفاع استراتيجي، كما هو الحال بالنسبة للضفة الغربية والجولان معاً)، وكذلك، وضع قوة دولية رمزية في هضبة الجولان، لن يكون كافياً لحل هذه المشكلة بالطبع، اذ لا توجد لمثل هذه القوة أية أهمية عسكرية، أو قدرة على صد هجوم. فاذا ما قررت سوريا الخروج إلى الحرب، سوف تتغلب على مثل هذه القوة بسهولة – أو انها ستطلب اخلاءها سلفاً، مثلما فعل عبد الناصر، قبل حرب الأيام الستة، أو من خلال الأعمال الارهابية، مثلما انسحبت القوة الأمريكية من لبنان، بعد نسف قيادة مشاة البحرية في بيروت، على أيدي عملاء سوريين.

وإذا قررت الدول العظمى استخدام قوة عسكرية كبيرة، فمن المشكوك فيه، ان تكون قادرة على ارسال القوات المطلوبة إلى المنطقة، في الوقت المناسب.

فالكويت هي دولة يساوي حجمها حجم دولة اسرائيل (دون الضفة الغربية)، تم احتلالها خلال ست ساعات، لكن تحريرها، تطّلب حشد قوت عسكرية هائلة أحضرها الغرب خلال ستة أشهر كاملة. يجب أن لا نطلب من اسرائيل الاعتماد على إحياء الموتى: إذا هُزمت في ميدان المعركة، فلن تنهض بعدها أبداً. خلافاً للكويت العربية، إذا أُحتلت الدولة اليهودية، سيتم تدميرها كلياً.

لقد أحسنت جولدا مئير في وصفها الضمانات الدولية بشأن اسرائيل عندما قالت: "حتى يأتوا لانقاذنا، لن يجدوا ما ينقذونه".

يمكننا ادراك مغزى وقيمة الضمانات الدولية، مما جرى ويجرى في الصومال والبوسنة. ففي الوقت الذي عُرضت فيه المذابح أمام ملايين المشاهدين في أنحاء العالم، لم تنجح الدول "الراقية" وعلى رأسها الأمم المتحدة، في التغلّب على عصابات غير منظّمة مزودة بأسلحة قليلة، ولا تعتمد على دعم دول عظمى عسكرية أو اقتصادية. فكيف تستطيع هذه الدول صد جيوش عربية نظامية في ذروة الحرب؟

على أية حال، يجب أن يكون الدفاع عن اسرائيل، بأيدي قواتها العسكرية فقط - قوات تكون مستعدة وقادرة على العمل في أي لحظة ضد أي غزو أو هجوم. وبما أن السلام في الشرق الأوسط يرتكز، أولاً وقبل كل شيء على الأمن، يجب أن نوضح ما هي الحدود الامنة بالنسبة لاسرائيل، واضح ان حدود ما قبل حرب الايام الستة، كانت حدود حرب وليست حدود سلام. إذاً فالسؤال الذي يحتاج إلى الاجابة هو:

(إلى أي مدى يجب توسيع هذه الحدود لتحقيق الأمن المطلوب لضمان بقاء السلام).

لقد رأينا أنه ليس المقصود إضافة عمق استراتيجي فقط، إنما السيطرة على سلسلة جبال الضفة الغربية، الجدار الواقي للدولة من أي هجوم قادم من الشرق. وكما أوضحنا، فان

اسرائيل ليست قادرة على التخلي عن السيطرة العسكرية على هذا الجدار، ولا حتى عـن هـضبة الجـولان، التي تحمي شمال البلاد. لذا، فلا يمكن الحديث عن السلام والأمن الاسرائيليـين، وفي نفـس الوقـت نطالـب بانسحاب اسرائيل إلى حدود غير قابلة للدفاع عنها.

ان المقارنة التي يحاولون إجراءها بين الانسحاب من سيناء ونزعها من الـسلاح، وبـين الانـسحاب مـن الضفة الغربية والجولان ونزعها من السلاح، ليست ناجحة. إذ أن نزع السلاح من سيناء التي يبلـغ عرضـها حوالي ٢٠٠كم، يوفر للجيش الاسرائيلي الوقت اللازم لتعبئة الاحتياط، في حالة خرق اتفاق السلام مـن قبـل مصر. غير أنه في هضبة الجولان، يدور الحديث عن عرض لا يزيد، في أقصاه، عن ٢٥كم فقط، وهي منطقة يستطيع الجيش السوري اجتيازها خلال بضع ساعات، فيما لو انـسحبت اسرائيـل منهـا. ولهـذا الـسبب، لا يوجد بديل لاحتفاظ اسرائيل بمنطقة هضبة الجولان المسيطرة، إذ بواسطتها فقط يمكننا صد هجوم سوري في المستقبل. ولكي تصمد معاهدة السلام مع سوريا لوقت طويل، لا يجوز لاسرائيل أن تتخلى عن مواقعهـا الدفاعية والانذارية الموجودة على الهضبة، مقابل ترتيبات أمنية هشّة، ترتكز، بشكل رئيـسي؛ عـلى منـاطق منزوعة السلاح ومقلّصة القوات، يمكن اغراقها بقوات معادية في ساعات معدودة. كما أن استمرار سـيطرة اسرائيل على مرتفعات الضفة الغربية فقط، هو ما يمكن ان يعوضها عـن عـدم تـوفر العمـق الاسـتراتيجي المطلوب للدفاع عن القدس والسهل الساحلي ضد عدوان عربي من الجبهة الشرقية القريبة جداً مـن هـذه الأهداف ويجب على اسرائيل ان تصر على الاحتفاظ بالاماكن التي ترى أنها ضرورية للدفاع عـن وجودهـا. لأن مثل هذه السيطرة السيادية، هي الضمان الوحيد لتحقيق امن عسكري حقيقي، لا ينهار فيما لـو غـيّر الطرف الثاني نواياه.

يوجد، بالطبع، من يستهين بأهمية مناطق الضفة الغربية على الصعيد الأمني، مقابل أهميـة هضبة الجـولان، ويـدعون بـأن هـضبة الجـولان، يـرابط فيهـا جـيش قـوي لدولـة عربيـة ماديـة، في حين سـتقام في الـضفة الغربيـة، "دويلـة" مـع جـيش صـغير، كـما أن الاردن لا تـشكل تهديـداً

استراتيجياً لاسرائيل بسبب صغر حجم جيشها نسبياً، وتوقيعها على معاهدة سلام معنا، غير أنه، كـما سـبق وأوضحنا، ان هذا الوضع قد يتغير في طرفة عين لقد كانت الاراضي الاردنية في المـاضي جـزءاً مـن الجبهـة الـشرقية. وقد اجتاز الجيش العراقي الاراضي الاردنية عام ١٩٤٨، وعام ١٩٦٧ (في عام ١٩٧٣ أرسلت العراق ثلث جيـشها عـن طريق سوريا). صحيح أن الجيش العراقي ضعف بعد حرب الخليج، لكن أي تخطيط مـسؤول يتعلـق باحتياجـات الأمن الاسرائيلية، لا بد ان يأخذ بالحسبان إعادة بناء هذا الجيش في السنوات القليلة القادمة.

ان وجود الاردن كنقطة فاصلة مقابل تهديد كهذا من جانب العراق، هو أمر حيوي بالنسبة لاسرائيل، لكنه ليس شرطاً كافياً ولا بأي حال مـن الأحـوال. فـاذا مـا تقـوض نظـام الحكـم في الاردن نتيجـة لتهديـد خارجي، او مؤامرة داخلية تقوم بها عناصر خارج سيطرة اسرائيل، سيتغير وضـع اسرائيـل الاسـتراتيجي بـين عشية وضحاها.

ان تحويل الاردن إلى منطقة مواجهة، بالاضافة إلى اقامـة دولـة فلـسطينية في الـضفة الغربيـة، يعتـبر كابوساً استراتيجياً: اذ لاول مرة، قد تجد اسرائيل نفسها في مواجهة جبهة شرقية راديكالية، تتمتـع بتواصـل اقليمي من الهضاب المطلة على السهل الساحلي، وحتى بغداد. وهذا هو الخطر الكبير الذي تنطـوي عليـه اقامـة دولـة فلـسطينية في الـضفة الغربيـة: انهـا تهـدد بانهيـار المنطقـة الفاصـلة في الجهـة الـشرقية للدولة،وتسلب قدرة اسرائيل على السيطرة على الجـدار الـواقي الحيـوي جـداً، لـصد التهديـد القـادم مـن السرق، كما يجب ان لا نسخر من قدرة الدولة الفلسطينية على انشاء جيش يشكل خطراً على اسرائيل مع مرور الوقت. اذ سيرابط هذا الجيش في الضفة الغربية، اي في وسط البلاد، ويسيطر على المنـاطق المـشرفة على كل اسرائيل. في هذه الحالة، سيكون باستطاعة جـيش صـغير نـسبياً، مـزود باسـلحة حديثـة (ولو صواريخ كتف، مثلاً) خلق تهديد مباشرة على المدن الاسرائيليـة وقواعـد الجـيش والمطـارات وكافة المراق الحيوية فيها. والشروع في حرب ضـد مثـل هـذا الجـيش، ومحاولـة احـتلال مواقعـه بعد ان يتمركز جيداً في جبال الضفة الغربية ومدنها، يحتاج إلى جهد دامٍ، وينطـوي عـلى سـقوط

اعداد كبيرة من الضحايا، حتى لو لم تتدخل دول دول اخرى من الجبهة الـشرقية في هـذه الحـرب. ولهـذه الأسباب نجد ان دلة فلسطينية لا تشكل تهديداً تكتيكياً فحسب، انما هي تهديـد اسـتراتيجي مـن الدرجـة الاولى على وجود دولة اسرائيل. وسيزداد الوضع خطورة، اذا ما استخدمت الدولة الفسطيينة نقطة انطلاق لتوسع الاسلام الاصولي.

ان الاسلام المتطرف، يهدد الان دولاً عربية مثل الجزائر ومصر والاردن، وقد وجد له قاعدة واسـعة في اوساط السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، ممثلاً بحركتي حماس والجهاد الاسلامي.

ان الافتراض بأن من شأن تحقيـق اتفاقيـة سـلام بـين اسرائيـل ومنظمـة التحريـر الفلـسطينية، وقـف التوسع الاسلامي هو افتراض غير صحيح ابداً، اذ لا توجد علاقة بين هذا التوسع كـما هـي الحـال في الـدول التي ذكرناها آنفاً، وبين النزاع العربي الاسرائيلي، بل تتعلـق بـأمور ثقافيـة وتاريخيـة اعمـق واوسـع بكثـير. والافتراض بأن منظمة التحرير الفلسطينية سـتنبري، بمحـض ارادتهـا، لمحاربـة هـذا التوجـه، مـشكوك فيـه للغاية، فقبل ان يدخل منطقتي غزة واريحـا، عقـد عرفـات اتفاقيـات تعـاون مـشترك مـع حركـة حـماس، والجماعات الاسلامية الأخرى، وفور انـشاء الحكـم الـذاتي، دعـا عرفـات في غـزة، إلى تحـالف بـين المنظمـة والحركات الاسلامية، ووصف الشيخ احمد ياسين، زعيم حماس، بأنه "بطـل المنظمـة والحركـات الاسـلامية" ووصف الشيخ احمد ياسين، زعيم حماس، بأنه "بطل قومي". حتى ولو ادى صراع القوم القائم بين منظمـة التحرير وحماس، إلى صراع علني وعنيف، لا يمكننا معرفة اي من الحركتين قد تنتصر في النهاية.

ان احتمال قيام دولة فلسطينية اسلامية، في الـضفة الغربيـة وغـزة اولاً، ومـن ثـم في الاردن، بشكل خطراً ليس على اسرائيل فقط. اذ ان مثل هذا التطور سيجلب ايران إلى مشارف تل ابيـب، ويمنحها امكانية الاقتراب مـن سـوريا مـن جهـة الجنـوب، وشـبه الجزيـرة العربيـة مـن الـشمال، والى مــصر مــن الــشرق، ومعنــى هــذا التطــور واضــح بالنــسبة لاسرائيــل. ان وجــود دولــة

فلسطينية لا بد ان يلزم اسرائيل، عاجلاً أم آجلاً، بالدخول في مجابهة خطرين شـديدين يهـددان وجودهـا: جبهة شرقية قومية متحدة مع العراق، او جبهة اسلامية متطرفة بزعامة ايران.

لذا فان المطالبة بقيام دولة فلسطينية في الـضفة الغربيـة تتعـارض كليـاً مـع الـسعي لتحقيـق سـلام حقيقي. اذ أن وجودها يضمن حالة عدم استقرار ونزاع مستمر، يؤدي في النهاية إلى حرب حتمية.

كما ان هذه المطالبة تتجاهل حقيقة وجود دولة فلـسطينية قائمـة حاليـاً. فـارض اسرائيـل الانتدابيـة كبيرة لدرجة تجعلها قادرة على استيعاب دولة يهودية صغيرة، اسرائيل، ودولة أكـبر لعـرب فلـسطين، تلـك التي تدعى الاردن. هنالك حل للنزاع بين الشعبين، يتمثل باقامة دولتـين: دولـة يهوديـة للـشعب اليهـودي المقيم غرب نهر الاردن، ودولة عربية للشعب العربي الذي يقيم معظمه شرقي النهر.

واضح ان هذا القول لا يرضي القوميين الفلسطينيين، لكن هذا لا يهم ابداً: يمكـن تحقيـق الطموحـات الوطنية للعرب الفلسطينيين في ارض اسرائيل الانتدابية الموجـودة حاليـاً تحـت سـيطرة العـرب – في دولـة الاردن التي يحكمها الهاشميون.

ان القول بأن الاردن، هي الدولة الفلسطينية، هو تعريف لوضع قائم وموجود، وليس صياغة حقـوق (التي تحدثنا عنها في الفصل الاول). كما انه ليس دعوة للقيام بأيـة عمليـة، ولا لاسـتبدال نظـام الحكـم في هذه الدولة.

ومفهـوم، ان وجـود وطـن قـومي فلـسطيني، لا يـستوجب اقامـة كافـة الفلـسطينيين فيـه، فالفلسطيني من الـضفة الغربيـة، يـستطيع الـسكن في اسرائيـل، والا يختـار الحيـاة في الاردن، مـثلما يوجـد يهـود يفـضلون العـيش في الولايـات المتحـدة او في فرنـسا، وعـدم الهجـرة إلى اسرائيـل. لكـن الفلسطيني الذي اختار العيش في الضفة الغربية، يجب عليه الاعـتراف بحقيقـة انـه اختـار ان يكـون اقليـة في منطقـة خاضـعة لـسلطة الدولـة اليهوديـة. ولا يحـق لـه المطالبـة بدولـة فلـسطينية ثانيـة

في الضفة الغربية، مثلما لا يحق لعرب اسرائيل المطالبة بدولة فلسطينية ثالثة في الجليل ورابعة في النقب.

ان الموضوع الذي يجب مناقشته والتفاوض بشأنه مع عرب الضفة الغربية هو مسألة صفتهم المدنية وليس مطالبتهم بالسيادة العربية على هذه المناطق الحيوية لمستقبل اسرائيل. غير ان الفلسطينيين يواصلون التمسك بمطلهم اقامة دولة فلسطينية ثانية ضمن منطقة ٦٥كم تفصل بين الاردن والبحر.

"اسرائيل للاسرائيليين، الاردن للاردنيين، فلسطين للفلسطينيين". هكذا يعلن الناطقون باسم منظمة التحرير الفلسطينية باستمرار، ومنذ عام ١٩٩٢، انضم اليهم ايضاً الناطقون بلسان حكومة اليسار الاسرائيلية ان الهدف من هذا الشعار، هو خلق الانطباع وكأنه يعيش في فلسطين الانتدابية ثلاثة شعوب لا اثنان، من خلال نية واضحة لتثبيت "حقوق فلسطينية" على حساب اليهود.

ان هذه الشعارات العربية – والاكثر من ذلك استعداد الحكومة الاسرائيلية لقبولها، عندما وافقت في اوسلو على التمكين من اقامة دولة فلسطينية فعلياً في مناطق الحكم الذاتي، أولاً في غزة واريحا، ومن ثم في كل المنطقة، حتى الطرف الشرقي من "الخط الاخضر – قلصت، ان لم تكن قد الغت نهائياً، احتمال تنازل العرب عن شيء ما على المدى القريب، لقد عززت هذه الموافقة، إلى درجة كبيرة جداً، الميول التقليدية لدى العرب، للتنكر للتسوية التي قد تدوم طويلاً وتضمن الاستقرار.

ان موافقة الحكومة اليسارية في اسرائيل، على اقامة دولة ثالثة، بين الاردن واسرائيل، لن تساهم في احلال السلام بين اليهود والعرب، انما ستزيد حماس اولئك المتطرفين بين العربن لزيادة جهودهم الرامية إلى القضاء على اسرائيل.

كذلك الحال، بالنسبة لمطالبة العرب باسترجاع القدس، فها هو عرفات، يعلن منذ سنوات عديدة، صبح مساء، ان السلام لن يتحقق، طالما لم يرفرف العلم الفلسطيني فوق

المسجد الاقصى. وبعد اتفاق اوسلو، اخذ يعلن ان هدفه هو اقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس في اسرع وقت ممكن. ولم ترفض الدول الغربية هذه المطالب نهائياً، حيث تضمنت مشاريع السلام التي عرضته حكومات هذه الدول، حتى اليوم، بنداً يمكن منظمة التحرير الفلسطينية من رفع علمها في المدينة – بشكل عام، في الجزء المسمى بأجهزة الاعلام الغربية "القدس الشرقية العربية".

لا يوجد شيء خاص بالعرب فقط، في القدس الشرقية، فهذا الجزء من المدينة، يضم الحي اليهودي، الذي استطاع الجيش الاردني احتلاله في عام ١٩٤٨. لقد كانت الطائفة اليهودية مقيمة في هذا الحي الالف السنين، لكن هذه الحقيقة لم تمنع الاردنيين من قتل الكثيرين من ابنائها، والذين لم يقتلوهم – طردوهم. ويعيش حالياً في شرق المدينة حوالي ١٥٠ الف يهودي، وعدد مماثل تقريباً من العرب، الذين لم تسمهم اسرائيل بأذى بعد الاحتلال عام ١٩٦٧، بل عرضت عليهم الجنسية الاسرائيلية ايضاً، وذلك خلافاً للتعامل الاردنيين مع اليهود.

كما تشمل القدس الشرقية ايضاً، المسجد الاقصى، وحائط المبكى، ومدينة داوود. كانت تلك العاصمة الشعب اليهودي لاكثر من الف سنة، وتشكل اليوم مركز الطموح للشعب اليهودي في سبيل العودة إلى "ارض اسرائيل" وبعثها من جديد. لذا يجب ان لا يطلب من اسرائيل التفاوض بشأن اي جزء من القدس، ولا بأي ظرف من الظروف، تماماً مثلما لا يجوز ان نطلب من الامريكيين التفاوض على واشنطن ومن الانجليز على لندن، ومن الفرنسيين على باريس.

لقد عرضت اسرائيل على العرب منحهم حقوقاً مدينة بصفتهم سكان المدينة، اي مساواة في الحقوق داخل المدينة – ولكن ليس حكماً سياسياً على القدس.

ونظرا لاهمية القدس بالنسبة للشعب اليهودي، والحقائق التي نشأت في المنطقة بعد بناء الاحياء اليهودية الجديدة بعد تحرير المدينة عام ١٩٦٧ – جيلو، رموت، رموت اشكول،

مزراح تلبيوت، هجفعاه هتسرفاتيت، بسجات زئيف، نفيه يعكوف، معليه ادوميم، وجفعات زئيف – لم تعد فكرة تقسيم القدس من جديد، واردة في الحسبان.

رغم كل ذلك، ليس العرب وحدهم الذين يتيهون في ظل هذا الحكم الخيالي، اذ توجد في معظم وزارات الخارجية للدولة الغربية، وبضمنها الولايات المتحدة، خرائط لا تظهر عليها القدس الشرقية بصفتها جزءاً من القدس الموحدة تحت السيادة الاسرائيلية. وفي الواقع، لا تعترف معظم الحكومات، حتى بالجزء الغربي من القدس كجزء من اسرائيل،مدعية ان المكانة النهائية للقدس ستقرر في اطار المفاوضات، على امل ان تصبح المدينة في نهاية المطاف، دولية، نظراً لمكانتها الخاصة في نظر اليهود والمسلمين والمسيحيين معاً. ولكن طيلة عمر القدس ومنذ نشأتها، لم تكن مفتوحة أمام ابناء كافة الديانات، الا وهي تحت الحكم الاسرائيلي، وتحظى الاماكن المقدسة هذه بحماية متساوية. اذ انه خلال التسعة عشرة سنة التي عاشتها المدينة تحت الحكم الاردني، لم يمنع الاردنيون اليهود من الوصول إلى الاماكن المقدسة لهم فيها وفقاً لاتفاقية الهدنة من عام ١٩٤٩، فحسب، بل بذلوا كل ما بوسعهم لمحو وتشويش اية ذكرى للماضي اليهودي في المدينة. حيث دمروا الكنس، ودنسوا المقابر، وحطموا المواقع الاثرية اليهودية، فاذا سلبت القدس من الشعب اليهودي الوحيد الذي ضمن حرية الوصول إلى الاماكن المقدسة لاتباع كافة الاديان، واصبحت خاضعة لادارة دولية، فلن يشكل هذا الامر خرقاً لحق الشعب اليهودي التاريخي في عاصمته الوحيدة فحسبن انما سيكون بداية لحالة من التدهور يتمكن المتعصبون الاسلاميون خلالها، من تحويل المدينة إلى ساحة اصطدامات دينية لا تنقطع.

يجب على اسرائيل، في اطار اتفاقية سلام مع العرب، ان تضمن حرية وصول المسلمين الذين يريدون الصلاة او الزيارة إلى الاماكن المقدسة الاسلامية، ولكن لا يجوز لها ابداً، ان توافق على اية مساس بالمكانة السيادية في المدينة وقدرتها على ابقاء القدس مدينة مفتوحة وموحدة تحت حكم اسرائيل.

هذا هو السبب الذي جعل كل الحكومات الاسرائيلية بدءا من حكومة ليفي اشكول، وحتى حكومة اسحق شمير، ترفض طرح موضوع القدس للتفاوض مع العرب. ولم يرد اي ذكر للقدس في اتفاقيات كامب ديفيد.

لقد جاء في الاتصالات التي سبقت انعقاد مؤتمر مدريد ان باستطاعة كل طرف طرح مطالبه في المفاوضات، لكن اسرائيل رفضت ادراج موضوع القدس، كبند على جدول اعمال المباحثات.

هنالك مبدأ معروف في ادارة اية مفاوضات، وهو ان الصراع حول جدول الاعمال، هو جزء لا يتجزأ من المفاوضات نفسها. وفي اللحظة التي يوافق فيها احد الاطراف علانية على البحث في موضوع ما، في اطار جدول اعمال المباحثات، تبدا المباحثات في نفس الموضوع بالذات. وهذا. بالضبط، ما فعلته حكومة اسحق رابين بالنسبة للقدس في اتفاقيات اوسلو. لأول مرة منذ تحرير المدينة على ايدي الجيش الاسرائيلي في عام ١٩٧٦، توافق اسرائيل رسميا على اجراء مفاوضات مع العرب بشأن مطالبتهم باعادة تقسيم المدينة. وبعد اتفاقيات اوسلو، بدأنا نسمع تلميحات واضحة صادرة عن اوساط معينة في الحكومة الاسرائيلية، بشأن النية في تقسيم المدينة إلى احياء عربية ويهودية.

كما تراجعت الحكومة عن رفضها السماح لسكان المدينة ترشيح انفسهم لانتخابات المجلس الاداري الفلسطيني، الذي سيكون في واقع الامر، حكومة فلسطين التي تطالب بالقدس عاصمة لها. كما وافقت حكومة رابين ايضا على رسائل مرفقة لاتفاقية اوسلو، تضمنت ضمان حرية عمل مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية في المدينة. وهذا يعني ان الحكومة الاسرائيلية اعترفت واقعياً بنشاطات "الاورينت هاوس" بيت الشرق الذي يستخدم كمقر للحكومة الفلسطينية القادمة.

وفعلاً، بعد اتفاقية اوسلو، بدأ رجال منظمة التحرير الفلسطينية يستخدمون هذه المنشأة بصورة علنية، كوزارة خارجية فلسطينية بكل معنى لكلمة، واستقبلوا فيها رؤساء دول، ووفوداً رسمية ودبلوماسية عن عشرات الدول.

كما افتتحوا مكاتب اخرى للمنظمة في جميع انحاء الجزء الـشرقي مـن القـدس، ومنـذ التوقيـع عـلى اتفاقيات اوسلو، والاعلام الفلسطينية ترفرف في القدس دون ازعاج.

كل هذه الأمور، تشير بوضوح، إلى توجه المعسكر اليساري في اسرائيل، نحو تقسيم القدس من جديد، بناء على طلب العرب. ولهذه الاسباب بالذات، يجب على اسرائيـل اسـتغلال اول فرصـة تتـاح لهـا، لتأكيـد رفضها المطلق، للبحث في مسألة السيادة على القدس. كما يجب عليها اتخاذ اجراءات طوارئ وعلى راسـها، اغلاق مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية في المدينـة، بهـدف ضـمان سـيادتها الوحيـدة عـلى العاصـمة الابدية للشعب اليهودي.

سنجد من يدعي ان اسرائيل بمطالبتها السيطرة على القدس ومناطق الضفة الغربية، تتوضع ان يتخلى العرب عما يطالبون به من حق لهم. وردي على ذلك هو ببساطة:

منذ اكثر من مائة عام يحارب العرب اليهود لأنهم يرفضون تليين نظريتهم المتصلبة بشأن عـدم التنـازل عـن ذرة تراب واحدة من الارض العربية. وحقيقة الامر، لم يشهد تاريخ العرب كله، ان تنازل العرب بمحـض ارادتهـم عـما هـو حتى اقل من ذرة تراب واحدة، لا من اجل السلام، ولا لاي هدف آخر. لقد حان الوقت لندرك ان السلام لـن يتحقـق الا اذا كا الطرفان مستعدين للتنازل، ويحصل كل واحد منهما على الحد الادنى المطلوب لبقائه.

لقد سبق ان قدمت الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل الكثير من اجل التعايش والـسلام. اذ انـه خـلال القرن الحالي، قدمت الحركة الصهيونية، في اربع حالات، على الاقل، تنازلات كبيرة :

* عام ١٩١٩، تنازل الصهاينة عن مطالبتهم بمياه نهر الليطاني في جنوب لبنان، الذي كان من المقرر ان يكون مصدر المياه الرئيس للاستيطان اليهودي.

* عام ١٩٢٢، تم اقتطاع حوالي ٨٠% من اراضي الوطن القومي اليهودي في شرق الاردن، وارغم اليهـود على قبول هذا الاقتطاع.

* في اطار اتفاق السلام مع مصر عام ١٩٧٩، تنازلت الصهيونية من اجل السلام، عن صحراء سيناء، واخلت الاف اليهود وهدمت البيوت والمدارس والموارع التي بنتها في الصحراء طيلة ١٥سن، وتنازلت حتى عن كل مطالبها القومية الاستراتيجية المتمثلة في هذا الجزء من الارض، التي تلقى فيها الشعب اليهودي التوراة، ليصبح امة.

* عام ١٩٨٩، سلمت اسرائيل طابا للمصريين.

غير ان الاسوأ والاخطر من هذا كله، كانت موافقة حكومة اليسار الاسرائيلية في عام ١٩٩٤، على تمكين منظمة التحرير الفلسطينية من السيطرة على قطاع غزة، ورأس الجسر في اريحا، ممهدة بذلك لتوسع سلطة المنظمة إلى بقية الضفة الغربية.

منذ ٧٥سنة، واليهود يقدمون التنازلات المتكررة لقد تنازلوا المرة تلو الاخرى، عن مطالب جوهرية، واستراتيجية، وتقليدية، وتاريخية، في سبيل ارضاء جيرانهم العرب، ومن خلال الامل في شراء السلام. غير انه لا يمكن تحقيق سلام حقيقي طالما ظل اليهود مطالبين بتقديم التنازلات التي لا تنتهي، في حين لا يطلب من العرب التنازل عن شيء، باستثناء اعلانهم التنازل عن الرغبة في ابادة اسرائيل "حتى هذا التعهد، يخرقه العرب احياناً".

ان الانظمة العربية التي تملك مساحات كبيرة من الارض تبلغ ٥٠٠ ضعف مساحة اسرائيل، يتوجب عليهم الان تقديم تنازل ضئيل مقابل التنازلات الكبيرة التي قدمها اليهود: للمرة الأولى في تاريخهم الذي امتاز بالاحتلال وعدم المعاناة، يتوجب على العرب التخلي عن مطالبهم الاقليمية، ومن اجل السلام ايضا، يطلب منهم التنازل عن اربعة اجزاء من عشرة الاف جزء (٠.٠٠٠٤) من المناطق الواسعة التي يسيطرون عليها. وهذا التنازل يجب ان يكون عن منطقة الضفة الغربية، قلب الوطن القومي اليهودي، والسور الواقعي لدولة اسرائيل، والتي تشكل استمرارا للجدار الواقي في هضبة الجولان.

فاذا كان الزعماء، العرب ليسوا على استعداد حتى للتنازل لمرة واحدة، واذا كان يدفعهم حلم انشاء مملكة عربية مترامية الاطراف وخالية من اليهود، لدرجة انهم غير مستعدين

للتنازل عن مساحة ارض صغيرة لتمكين دولة اسرائيل من الحياة بصورة حقيقية، لا يمكننا الافتراض بأنهم مستعدون لسلام حقيقي.

لقد اصبح واضحاً ان المتطلبات القومية لاسرائيل تستوجب استمرار السيطرة على الجدار الواقي المتمثل بجبال الضفة الغربية. ولكن، ماذا سيكون مصير العرب المقيمين في هذه المنطقة ؟

يدعي الكثيرون، بأنه اذا احتفظت اسرائيل بهذه المنطقة، ربما تحقق الامن الذي توفره لها مساحة هذه المنطقة، لكنها ستكون مضطرة، في نفس الوقت، لتحمل اعباء وجود عدد كبير من السكان المعادين لها. لذا يجب على اسرائيل ايجاد طريقة لتخفيف عداء هؤلاء السكان العرب، الذين سيبقون تحت سيطرتها، دون التنازل عن المنطقة التي تعتبر حيوية لوجودها.

اين تقع التجمعات السكانية العربية الكبيرة في المنطقة التي احتلتها اسرائيل في عام ١٩٦٧؟

في هضبة الجولان، لا يوجد عرب تقريباً، (باستثناء ١٦ الف درزي). وفي الضفة الغربية، السكان قليلون نسبيا، والتجمعات البلدية (باستثناء القدس) تقع في نابلس، جنين، رام الله، الخليل، التي تقع على مرتفعات جبلية حيوية من الناحية الاستراتيجية للدفاع عن اسرائيل. في الواقع، توج منطقة واحدة مكتظة بالسكان العرب، وتعتبر اقل حيوية من الناحية الاستراتيجية هي قطاع غزة. اذ يتساوى عدد السكان في هذا القطاع مع عدد سكان الضفة الغربية تقريباً، لكن مساحته تشكل حوالي ٦% من مساحة الضفة الغربية (حوالي ٣٥٠ مقابل ٥.٥٠٠ كيلومتر مربع). ولا توجد في قطاع غزة جبال او مناطق مسيطرة، وتفصله عن مصر منطقة واسعة هي صحراء سيناء. لهذه الاسباب، فان الاهمية الاستراتيجية لقطاع غزة، هي اقل بكثير من اهمية الضفة الغربية. اذ ان اهمية هذه المنطقة الامنية تكمن في قربها من المدن الاسرائيلية.

لقد كتبت في الطبعة الانجليزية لهذا الكتاب، قبل اتفاق اوسلو، واخلاء غزة، ان غزة قد تستخدم قاعدة ينطلق منها "المخربون" لتنفيذ عمليات ارهابية ضد المواطنين الاسرائيليين. وهذا ما حدث بالضبط. فبعد انسحاب الجيش الاسرائيلي من غزة وتسليمها لمنظمة التحرير الفلسطينية، تصاعدت العمليات الارهابية المنطلقة من هذه المنطقة، التي تتمركز فيها قيادات حركتي حماس والجهاد الاسلامي. وهكذا تبين ان افتراض حكومة رابين، بأن يأخذ عرفات دور اسرائيل في مكافحة الارهاب الاسلامي في غزة، لا اساس له من الصحة. من المحتمل، بالطبع، ان يحدث صراع قوي بين حماس والجهاد الاسلامي، وبين منظمة التحرير الفسلطينية من اجل السيطرة على المناطق التي ستخليها اسرائيل، غير انه فيما يتعلق بهدفهم النهائي، لا يوجد فرق بين هذه الحركات كلها. فكلها تسعى للقضاء على اسرائيل في النهاية. لقد خدمت اتفاقيات اوسلو والقاهرة، هذا الهدف إلى درجة كبيرة، وزادات قوة الحركات الاسلامية في مناطق الضفة الغربية وغزة، وبخاصة في غزة.

ان الشرط الذي لا بد منه، لابعاد خطر الارهاب القادم من غزة، ومن اماكن اخرى في البلاد، هو اعادة منح حرية العمل للجيش الاسرائيلي وقوات الامن، بحيث تشمل امكانيات غير محدودة للعمل الوقائي، والمطاردة والاستخبارات التي بدونها لا يمكن محاربة الارهاب. كذلك، يجب الاسراع في تنفيذ استثمارات اقصادية من قبل دول مختلفة في غزة نفسها، تحت اشراف حريص لصمان عدم انتقال هذه الاموال إلى خدمة اهداف معادية لاسرائيل، او لمنافع شخصية. اذ ان مثل هذه الاستثمارات، ستوفر اماكن عمل في غزة وتقلل من حاجة مواطني القطاع، للبحث عن مصادر عمل في اسرائيل. ولكن، على الرغم من اهمية محاربة الارهاب القادم من غزة، يجب الاعتراف بالاهمية البالغة للاخطار التي تهدد وجود اسرائيل بالذات، والكامنة في تخلي اسرائيل عن مناطق الجولان والضفة الغربية. في الضفة الغربية، يجب على اية حال، معالجة مسألة مكانة السكان العرب بطريقة لا تعرض امن اسرائيل للخطر، وفي نفس الوقت توفر حلاً يضمن استمرار الاستقرار والتعايش السلمي. في عام ١٩٧٩، اتفقت

اسرائيل ومصر في اطار اتفاقيات كامب ديفيد، على التفاوض بشأن تسوية الوضع في هـذه المنـاطق، لكـن هذه الاتفاقيات رفضتها كل العناصر العربية التي كان من المقرر ان تتفـاوض مـع اسرائيـل: رفـض العـرب الفلسطينيون، والحكومة الاردنية (التي يوجد لديها معظم الفلسطينيين) البحـث في هـذه المـسألة. وبعـد ذلك، باثنتي عشرة سنة، في مؤتمر مدريد ١٩٩١، ظل العرب يرفضون، اتفاقيات كامـب ديفيـد. فقـد رفـض الوفد الاردني – الفلسطيني البحث في هذه الاتفاقيات، حتى انه امتنع عن ذكر اسمها فقط، لكن كان يبدو ان المندوبين الاردنيين والفلسطينيين يقبلون على الاقـل، بمـدبأين مـن المبـادئ الاساسـية لاتفاقيـات كامـب ديفيد، ليكون قاعدة للبحث هما:

* اولاً: ان يكون هـدف المفاوضـات التوصـل إلى اتفاقيـة مرحليـة تعـالج الترتيبـات المتعلقـة بالحيـاة اليومية للسكان وتؤدي إلى توفير حالة من الهدوء تمكن من بناء الثقة، في حين تبدأ المفاوضات بشأن الحل الدائم بعد ذلك بسنوات معدودة فقط.

* ثانياً: وافق الوفدان على ان تكون التسوية المرحلية على شـكل ادارة ذاتيـة للعـرب الفلـسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، لا تحدد الاطار السيادي في المستقبل.

كانت تلك هي السياسة التي اتبعتها الحكومات الاسرائيلية منذ كامب ديفيد، إلى حين تولي الحكومـة اليسارية السلطة في عام ١٩٩٢، حيث حرقت كل الاوراق.

ظاهرياً، واصلت هذه الحكومة المفاوضات حول "الحكم الذاتي" لكن تفاوضـها مـع منظمـة التحريـر الفسطينية، بالذات، التي تطالب بدولة فلسطينية، وموافقتها، في اطار اتفاق اوسـلو، عـلى تمكـين المنظمـة من التقدم نحو تحقيق هذا الهدف، يعتبر انحرافاً عن هذه السياسة.

كانت نظرية حكومة اسرائيل، عندما وقعت عـلى اتفاقيـات كامـب ديفيـد، تقـضي بـضرورة التوصل إلى تسوية تمنح الادارة الذاتية لعرب الضفة الغربية وغزة، من خلال الابقاء على موضعي الـسيادة والامــن بأيـدي اسرائيـل. ففــي اطـار مثـل هــذه التـسوية، سـتكون اسرائيـل هــي

المسؤولة الوحيدة عن الامن الداخلي في كل المنطقة، وعن التفتيش الحدودي، والسياسة الخارجية، ومميزات اخرى تتعلق بالسيادة. في حين يتم نقل مجالات اخرى إلى ادارة ذاتية فلسطينية، بشكل يبقى عرب الضفة وغزة خاضعين لسلطتهم الادارية، تحت الحكم الاسرائيلي.

لكن، ما فعلته حكومة رابين، عام ١٩٩٣، يتجاوز هذا الحد بكثير. فمن خلال تطبيق اول مرحلة من اتفاقيات اوسلو في غزة واريحا عام ١٩٩٤، تنازلت هذه الحكومة عن اية امكانية للسيطرة الامنية في هذه المناطق، بعدما سلمت هذه المسؤولية لجيش "المخربين" التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، فحتى لو ان منظمة التحرير الفلسطينية وحركتي حماس والجهاد الاسلامي، جمدت عملياتها الارهابية، في الوقت الحاضر، كاجراء تكتيكي، فهي قادرة على استئنافها بسهولة في الوقت المناسب. علاوة على ذلك. استخدمت حكومة رابين مصطلح "حكم ذاتي" الوارد في اتفاقيات كامب ديفيدن لاقامة بنية اساسية لدولة فلسطينية، في كل مناطق الضفة الغربية وغزة، وفقاً لما نصت عليه اتفاقيات اسلو، فقد وافقت الحكومة الاسرائيلية على منح السلطة الفلسطينية بزعامة منظمة التحرير الفلسطينية، صلاحيات الحكم في كافة المنطقة حتى الخط الاخضر (باستثناء المستوطنات اليهودية، القدس، منشآت الجيش الاسرائيلي، التي ستبقى لبحثها في المفاوضات حول الحل الدائم).

كما حصلت السلطة الفلسطينية على اشياء اخرى ذات اهمية مثل المياه الاقليمية في غزة، وحق اصدار جوازات سفر وطوابع، وادارة علاقات خارجية بواسطة ممثليات المنظة في الخارج، ووضع افراد شرطة فلسطينيين على نقاط ينظر عرفات، ص١٣٠، ١٣١. على جسري نهر الاردن ورفح، والحق في رفع علم دولة فلسطين.

في الواقع، لم تبق صلاحيات سيادية لم تسلم لمنظمة التحرير الفلسطينية، في المرحلة الاولى من اتفاقيات اوسلو. وان تطبيقاً مماثلاً لبقية مراحل الاتفاقيات في بقية اجزاء الضفة الغربية سيؤدي حتماً إلى انسحاب اسرائيلي إلى خطوط عام ١٩٦٧، الامر الذي سيعرض اسرائيل

لاخطار جسيمة تهدد وجودها. لذا، يجب ان لا نسمح بأن يكون اتفاق غزة واريحا اولا سابقة لتسويات اخرى في الضفة الغربية. يجب اعادة العمل بمقتضى السياسة التي تبنتها كافة الحكومات الاسرائيلية حتى عام ١٩٩٢، اي تحقيق تسويات تبقي بايدي اسرائيل المسؤولية الامنية، وتحول دون قيام سيادة عربية في الضفة الغربية، وفي نفس الوقت تمكن السكان العرب، من ادارة شؤون حياتهم اليومية بانفسهم، في اطار حكم ذاتي.

ان الحكم الذاتي، لا يعني دولة. انه نوع من نظام حكم داخلي يسمح لاقلية قومية او دينية بادارة شؤونها تحت سيادة شعب اخر.

يختلف الحكم الذاتي عن السيادة "الاستقلال" ببقاء عدة صلاحيات معينة بايدي الحكومة السيادية، وعلى رأسها السيطرة المطلقة على حدود الدولة والامن الداخلي، والعلاقات الدبلوماسية مع دول اخرى، فمثلاً: رغم وجود اقليم يتمتع بحكم ذاتي في شمال اسبانيا، هو اقليم الباسك، يرابط جنود اسبان على الحدود الشمالية، وشرطة اسبانية وليس باسكية، ويرفع العلم الاسباني وليس الباسكي، والمسؤولية عن محاربة الارهاب الباسكي، هي بايدي الحكومة الاسبانية، وليس الجيش الباسكي، ووزارة الخارجية الاسبانية هي التي تقيم علاقات دبلوماسية مع دول العالم وليس وزارة الخارجية الباسكية.

غير انه في اطار اتفاق "الحكم الذاتي"، الذي وقعته حكومة رابين مع الفلسطينيين، سلمت كل هذه الصلاحيات إلى السلطة الفلسطينية، لذا فالاستنتاج الحتمي لما تسميه حكومة رابين "حكما ذاتيا" هو "دولة". لذا يتوجب علينا رفض هذا النموذج المزيف للحكم الذاتي. وعدم تطبيقه في مناطق الضفة الغربية، التي يجري التفاوض بشأنها الان، والعودة إلى نظرية الحكم الذاتي الحقيقي.

كيف يمكننا تحقيق توازن عملي بين مطلبي الامن لليهود، والحكم الذاتي للعرب؟

ان المتطلبات الامنية الاسرائيلية، وحاجة العرب لادارة حياتهم اليومية، يمكن تقسيمها حسب طبيعة الارض تقريباً. فالجيش الاسرائيلي لا يقيم منشآته داخل مراكز المدن، ولا

يجري تدريباته في المناطق البلدية. باستثناء حالات تقع فيها مفترقات او مناطق مسيطرة، داخل حدود البلديات. ان الدفاع العسكري، يعني اولاً وقبل كل شيء، السيطرة على المناطق المفتوحة. وبالطبع، تنطبق هذه الاقوال على الدفاع ضد غزو خارجي من قبل قوات عسكرية نظامية، وليس في اطار مقاومة ارهابيين قادمين من داخل المنطقة، الامر الذي يتطلب الوصول إلى اية نطقة بحرية.

من جهة ثانية، لا مجال للافتراض بان سكان كل مجموعة منازل مقاومة على رأس تلة ما، يحق لهم المطالبة بحكم ذاتي لانفسهم. جيجب ان يمنح الحكم الذاتي للمراكز البلدية، اذ انه في الاماكن التي يسكنها عدد قليل من العرب، تكون مسألة الحكم المحلي لا معنى لها عملياً.

وبمقتضى هذه النظرية، لن نجد صعوبة ابداً في تلبية هذين المطلبين:

يمكن تطبيق الحكم الذاتي على السكان العرب في مناطق التجمع السكاني العربي، وعدم تطبيقه على المناطق قليلة السكان، بحيث تضم هذه المناطق ضمن "مناطق الامن الاسرائيلية" التي اتفق بشأنها مبدئياً في كامب ديفيد، والتي اعترفت بها اتفاقيات اوسلو ايضاً.

مفهوم، انه بمقتضى نظرية منظمة التحرير الفلسطينية، من المقرر ان تكون الضفة الغربية منطقة متصلة واحدة وحكم عربي فلسطيني لمنطقة معظمها خال من السكان، باستثناء مستوطنات ومنشآت عسكرية تكون موزعة كجزر معزولة. بحيث يصبح بالامكان خنق هذه الجزر وابعادها نهائياً لدى اقامة الدولة الفلسطينية على كل المنطقة، حتى "الخطر الاخضر". وفعلاً، لن تكون هنالك اية قيمة عسكرية، لثكنات متفرقة هنا وهناك كجزر متباعدة في احد المحيطات اذ انهن لكي نستطيع الدفاع عن منطقة يجب ان تتوفر حرية الحركة في المنطقة كلها.

يجب ان لا توافق اسرائيل، ولا بأي حال من الاحوال على وضع يقضي بأن تراقب قوات الجيش الاسرائيلي ما يجري في المنطقة، من وراء الاسلاك الشائكة المحيطة بمعسكراتها المغلقة،

دون ان تكون لديها القدرة على العمل والتدخل. ففي هذه الحالة، سيكون بمقدور "المخربين" العرب، ضرب اي هدف يحلو لهم، دون اي ازعاج اذاً، كي نستطيع محاربة الارهاب، يجب تمكين قوات الجيش الاسرائيلي من الوصول إلى اي زاووية في المنطقة، بما فيها، التجمعات السكانية في المدن، التي قد ينطلق "المخربون" منها، ومن ثم يهربون اليها. كما يجب على اسرائيل ان تضمن في اطار اية تسوية تتعلق بالضفة الغربية، مصالحها القومية الحيوية.

ان اول واهم هذه المصالح هو المحافظة على الامن الاستراتيجي اي المحافظة على قدر الدولة في الدفاع عن نفسها، ضد هجوم تشنه جيوش الدول العربية (علاوة على قدرتها في مجال محاربة الارهاب، التي تحدثنا عنها، والتي عليها ان تحرص على الحفاظ عليها)، ان اسرائيل ملزمة بضمان سيطرتها الحتمية على المناطق الحيوية لصد اي هجوم من الشرق: وهذا يعني، السيطرة الكاملة على غور الاردن وعلى المحاور المؤدية اليه من وسط البلاد، والسيطرة على ظهر الجبل، الاحتفاظ بمنشآت عسكرية حيوية في اماكن ذات اهمية استراتيجية في الضفة الغربية. كانت فكرة وضع قواعد عسكرية ومنشآت انذار مسبق اسرائيلية، لمدد غير محدودة، في المناطق التي ستكون حتى تحت سيطرة فلسطينية جزئية، ليست مناسبة على المدى البعيد، لذا، يجب على اسرائيل منع اقامة اية سيادة اجنبية على الضفة الغربية.

* ثانياً: يجب على اسرائيل ضمان سيطرتها على مصادر المياه في الضفة الغربية، اي السيطرة على المناطق الواقعة فوق احواض المياه الجوفية الحيوية للاقتصاد المائي الاسرائيلي. يوجد إلى الاسفل من مرتفعات السامرة "الغربية حوض المياه" يركون – تنينيم" الذي يزود اسرائيل بحوالي ٤٠% من مياهها الجوفية. وان استغلالا مبالغا فيه من قبل الفلسطينيين، قد يفرغ هذا الحوض من المياه، او يلوثه، او يزيد نسبة الملوحة فيه، ودون هذا الحوض، ستواجه اسرائيل مشكلة خطيرة، تهدد وجودها، بصورة لا تقل عن مسألة الامن العسكري، ومفهوم، ان احضار مئات الاف الفلسطينيين إلى المنطقة واسكانهم في غرب "السامرة"، سيزيد من هذا الخطر، لذا، يجب الحيلولة دون تحقيق هذا الامر الذي من شانه خلق مشاكل اضافية خطيرة.

* ثالثاً: يجب على اسرائيل ان تحتفظ لنفسها بحق المراقبة الديمغرافية، فها هي منظمة التحرير الفلسطينية تعلن صراحة عن نيتها اغراق الضفة الغربية بأكثر من مليون لاجئ اضافي. ولا شك في ان معظم هؤلاء سيسكنون على المنحدرات الغربية والشمالية والجنوبية لمناطق الضفة الغربية، بغية خلق اتصال ديمغرافيء عربي يمتد إلى داخل وادي عارة، المثلث، النقب، ومناطق اخرى داخل "الخط الاخضر". ومن هناك، سيطالبون باصرار اكثر، "بحق العودة إلى الوطن السليب"، ولكني نوقف هذا الخطر، يجب على اسرائيل خلق مناطق عازلة، تكون مأهولة باليهود، في نفس المناطق التي يمكن ان تؤدي السيطرة الاسرائيلية عليها إلى الحيلولة دون تطبيق هذا التوجه الفلسطيني الديمغرافي. كما يجب على اسرائيل، ان تحتفظ بسيطرتها على العابر الحدودية، لمنع دخول اعداد كبيرة من السكان المعادين لاسرائيل ويجب عليها ايضاً، العودة إلى مبدأ توطين اللاجئين الفلسطينيين في الاماكن التي يتواجدون فيها حالياً، في لبنان، سوريا، والاردن، غيرها. واذا لم تصر اسرائيل على تطبيق هذه المبادئ، ستجد نفسها، في غضون بضع سنوات، تواجه طلباً عربياً بالعودة إلى مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧، بغية "حل المشكلة السكانية" التي ستنشأ في مناطق الضفة الغربية وغزة.

واخيراً، على اسرائيل ان تبدأ فوراً باتخاذ اجراءات كفيلة بضمان وحدة القدس تحت السيادة الاسرائيلية. اذ ان اعادة تقسيم المدينة، وجعل الجزء الشرقي منها عاصمة فلسطين (في المرحلة الاولى من مشروع المراحل) يعتبر هدفاً مركزياً لكافة الحركات الفلسطينية. ويجب على اسرائيل ايضاً، تعزيز حلقة الاستيطان اليهودية التي تبدأ من غوش عصيون في الجنوب، مروراً بمستوطنة متسبيه يريحو، ومعاليه ادوميم، في الشرق، وتنتهي في مستوطنات منطقة بيت ايل، في الشمال. وبهذه الطريقة تحول اسرائيل دون مهاجمة المدينة من خلال تجمعات سكانية عربية.

لا يوجد امام اسرائيل خيار، سوى الاصرار، وبشدة، للمحافظة على مصالحها القومية، المذكورة آنفاً، بضمنها تعريف واسع، وليس محدوداً، لمصطلح "المناطق الامنية" التي ورد

ذكرها في اتفاقيات كامب ديفيد. وعن طريق تعريف "المناطق الامنية" بالذات، تستطيع اسرائيل تقليل الخطر الذي تنطوي عليه امكانية خلق اتصال اقليمي عربي من نهر الاردن حتى الخط الاخضر، ومن بئر السبع حتى الناصرة. اذ دون مثل هذا الاتصال الفلسطيني، لن يكون من السهل اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية، وسيتوقف إلى درجة كبيرة، خطر تحول الحكم الذاتي في هذه المناطق، إلى دولة بكل معنى الكلمة.

ان الدمج بين الاصرار على الاحتفاظ بمناطق امنية واسعة، والاحتفاظ بصلاحيات مركزية في كل المنطقة، يعتبر المفتاح لدفاع، طويل الامد، عن وجود اسرائيل.

ولكي تحافظ اسرائيل على مصالحها هذه، يجب ان توضح بصورة لا تقبل التأويل، ان الحكم الذاتي في الضفة الغربية، يجب ان يكون حكماً ذاتياً فقط، وليس دولة عربية جديدة. ويجب ان تركز ادارة الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية، على مجموعة الوية يكون اهمها: جنين، نابلس والخليل، بحيث يشمل كل واحد من هذه الالوية، المدينة الرئيسية فيه، والبلديات والقرى المحيطة بها، وتضم هذه الالوية الاغلبية العظمى من السكان العرب في الضفة الغربية. وباستثناء مواضيع حيوية، مثل الامن، واراضي الدولة، والمياه، التي يجب ان تبقى بايدي السلطة المركزية الاسرائيلية، يتم تطبيق الحكم الذاتي في كافة المجالات الادارية الاخرى، ويصبح بمقدور الفلسطينيين بناء مجتمعهم بالطريقة التي تحلو لهم. ويجب تطبيق هذه التسوية المكونة من مناطق امنية، والوية ادارية للحكم الذاتي، في البداية لفترة انتقالية ثم يتم دمجها في المفاوضات حول التسوية الدائمة. على ان تشتمل التسوية الدائمة على حل مشكلة الجنسية لسكان الحكم الذاتي في الضفة الغربية، الذين يحمل معظمهم الجنسية الاردنية، والتي يجب ان نسعى لكي يبقوا يحتفظون بها. ويجب على العرب، سكان الضفة الغربية، ان يبرهنوا بوضوح، انهم يريدون السلام وليس الحرب، طيلة فترة تمتد لعشرات السنين، قبل ان تفكر اسرائيل بمنح الجنسية الاسرائيلية لمعظمهم، او لجزء منهم.

من شان هذه الخطة، منح اسرائيل السيطرة على المنطقة الحيوية للدفاع عن نفسها، وتوفر استمرار السيادة اليهودية على قلب بلادنا، بالاضافة إلى تطوير الاستيطان في مناطق الضفة الغربية وغزة، وفي نفس الوقت، ستوفر للعرب في هذه المناطق، الظروف التي تمكنهم من ممارسة الحرية الفردية، والحكم الذاتي الجماعي.

واذا ما اخرجت هذه الخطة إلى حيز التنفيذ، لن يبقى إلى الغرب من نهر الاردن، ولو عربي واحدن لا يملك حق التصويت. وبما ان هذه الخطة معدة لكي تدوم فترة طويلة، يستطيع العرب واليهود معاً، بناء ثقة متبادلة وتكييف انفسهم مع الظروف الجديدة.

وهل سيقبل العرب الفلسطينيون بالحكم الذاتي، كما هو مقترح هنا؟ سيقبلون به، اذا ادركوا بأن اسرائيل لن توافق ابداً على السماح لهم باقامة دولة مستقلة في الضفة الغربية.

من خلال هذا الادراك، جاءوا إلى محادثات السلام مع حكومة الليكود في مدريد، رغم معرفتهم الجيدة بمواقف اسرائيل. غير انه بعد اتفاقيات اوسلو، اعتادوا حالة عدم وجود حدود لما يستطيعون الحصول عليه من حكومة اسرائيل، ولا يوجد اي سبب يجعلهم يقبلون بأقل من دولة فلسطينية مستقلة، على كامل الارض. وعندما يعلم الفلسطينيون ان في اسرائيل حكومة ترفض تمكينهم من اقامة دولة فلسطينية، ستزداد احتمالات التوصل إلى اتفاق معهم، حول انشاء حكم ذاتي وليس دولة.

في مثل هذه الظروف، قد تجد بين العرب عناصر ذات اهمية تفضل تسوية الحكم الذاتي المقترحة آنفاً، على اقامة دولة فلسطينية. فنظام الحكم الاردني لا يريد، بالتأكيد، رؤية دولة بزعامة منظمة التحرير الفلسطينية في الضفة الغربية، يمكن لها أن تهدد وجوده، كما يمكن ان تفضل سوريا والعربية السعودية ايضاً استمرار وجود نظام الحكم الاردني، على دولة فلسطينية – اسلامية قد تتوسع بسرعة من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، وتنشئ حلفاً مع صدام حسين او مع ايران، وتشكل عندئذ تهديداً لوجود هذه الانظمة بالذات.

ان الركض الجنوني، الذي تقوم به حكومة رابين في سعيها لاقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية، يعيد إلى الاذهان، تأييد الدول الغربية لاقامة جمهورية اسلامية في ايران عام ١٩٧٩. وعلى غرار ما حدث آنذاك، ستكون النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة الطائشة، الدمار ليس لاسرائيل وحدها. انما للشرق الاوسط، في النهاية – للعالم كله ايضاً. لذا فان مشروع الحكم الذاتي تحت السلطة الاسرائيلية، هو البديل الوحيد للحيلولة دون وقوع هذا الخطر الذي ينطوي عليه مشروع "السلام" بمقتضى اتفاقيات اوسلو، وهو الضمان الذي يقوم به التيار اليساري في اسرائيل، بين "مؤيدي السلام"، و "معارضيه" داخل اسرائيل، ليس مضحكاً فحسب، انما لا اساس له من الصحة ابداً. اذ لا يوجد في الشعب الاسرائيلي، من يعارض السلام، لكن يوجد معارضون كثيرون للسلام الوهمي، الذي يهدف فقط، لاقامة دولة فلسطينية، ومن ثم إلى حرب خطيرة، واشد بكثير مما شهدناه حتى اليوم.

وفي نهاية الأمر، نقول ان الفرق الرئيسي بين نظرية اليسار الاسرائيلي، وبين النظرية الواردة هنا، هو كما يلي: يؤمن اليساريون بأن السلام سيتحقق عن طريق تقزيم اسرائيل ورضخوها لمعظم الماءات العرب، في حين نؤمن نحن السلام سيتحقق عن طريق تعزيز قوة اسرائيل، من خلال تمسكها بخطوط الدفاع الحالية، والصارار على حقوقها، وفي حين ان اليساريين يريدون دولة وليس حكماً ذاتياً، نريد نحن حكماً ذاتياً، بدلاً من دولة. كما ان الفرق بيننا ينبع من مبدأين اساسيين هما: نحن نؤمن بضرورة توسيع الاستيطان اليهودي، وليس العربي، وزيادة الهجرة اليهودية، وليس تحقيق فكرة "العودة" الفلسطينية، وتعزيز قوة الجيش الاسرائيلي بدلاً من الاعماد على جيش "المخربين" ليدافع عنا.

نستطيع تلخيص البديل الذي ننادي به بكلمتين: تقوية الصهيونية. فقد كانت قوة الصهيونية وثباتها، اي "دولة اسرائيل" دائماً وابداً، المفتاح الحقيقي للسلام مع العالم العربي. وهكذا، فان اسرائيل قوية، هي فقط القادرة على لاتوصل إلى تسويات سلام حقيقية مع العرب. لكن، ليست اسرائيل والدول العربية فقط، هي المسؤولة عن احلال السلام الدائم

في منطقتنا اذ توجد اهمية بالغة ايضاً للمساعدات السياسية والاقتصادية من جانب الدول الغربية، لتحقيق مثل هذا السلام عملياً.

لقد حدثت الخطوة الاولى في هذا الاتجاه، لدى افتتاح المحادثات متعددة الاطراف في اطار مفاوضات السلام التي بدأت عام ١٩٩١. فاذا قدمت عناصر خارجية كهذه مساعدات في مجالات، مثل تطوير مصادر مائية وحماية البيئة، فان المنطقة ستجني فائدة كبيرة، ويقل فيها خطر اندلاع حرب جديدة، تكون ناجمة عن احتكاكات في مجالات حساسة كهذه.

في هذه المرحلة، يرتكز التدخل الدولي في المساعدات، على تنفيذ المطلب الفلسطيني، بشأن اقامة دولة فلسطينية بالذات. وبدلا من ذلك، كان على حكومات الدول الغربية، تركيز مساعداتها على مجالين محددين يتطلبان تدخل هذه الدول، واللذين بدونهما ربما لن تتوفر امكانية احلال سلام مستقر ودائم هما: اعادة توطين اللاجئين العرب، ومنع تطوير اسلحة غير تقليدية في الدول العربية وايران. فخلال عشرات السنين الماضية، تبين ان مخيمات اللاجئين المنتشرة في ارج٦٢٧٠ الشرق الاوسط، هي عبارة عن مستنبتات لنمو الكراهية وبؤر للغليان والارهاب. اذ بدون هذه المخيمات، لن تستطيع منظمة التحرير الفلسطينية الاستمرار في البقاء.

بالنسبة للدولة الغربية، لا يعتبر حل مشكلة اللاجئين، مجرد مسألة اخلاقية. اذ توجد لهذه الدول مصلحة حيوية واضحة في القضاء على وجود هذه المخيمات وانهاء معركة الارهاب، التي يديرها زعماء المخيمات ضدها، وستكون الدول الغربية ملزمة بتنفيذ مشاريع للبناء وانشاء البنية التحتية التي من شأنها تحويل المخيمات إلى احياء سكنية دائمة، ويتوجب عليها ايضا ان تستثمر اموالا طائلة في مجالات التربية الثقافية والاقتصاد في سبيل رفع مستوى حياة اللاجئين.

صحيح ان الدول العربية قادرة وبسهولة على تمويل عملية توطين اللاجئين بقدرتها الذاتية، لكن وفي ضوء تصرف هذه الدول في الماضي، سيكون مكسباً كبيراً، فيما لو ساعدت بشيء ما في مشروع توطين كهذا. ولكن، يجب عدم التنازل عن ضرورة مساهمة الدول العربية

في توطين اللاجئين: الدول العربية، هي التي خلقت مشكلة اللاجئين منذ البداية،وهي المسؤولة عن عدم حلها حتى اليوم. وان اشتراك هذه الدول بالذات، في توطين اللاجئين في اماكن تواجدهم الحالية، يعتبر اختباراً بالغ الاهمية بالنسبة لالتزاماتها بأنهاء النزاع مع اسرائيل.

غير ان الدول الغربية لا تضغط على العرب لحملهم على التخلي عن حلم "حق العودة". وعندما سئلت الولايات المتحدة، عما اذا كانت لا تزال تؤيد قرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ١٩٤ في كانون اول ١٩٤٨، الذي دعا إلى اعادة اللاجئين إلى اماكن سكناهم، لم يتجرؤ على القول "لا" وبعد ثلاثة ايام من التردد، تفوه ممثلوها بكلام ليس له معنى: هذا القرار، لا يتعلق بمسيرة السلام. ان مثل هذه المواقف، تبقي العرب في ظل الامل، بأن يحل اليوم الذي يتمكنون فيه من غمر اسرائيل بمئات الاف اللاجئين، الامر الذي سيؤدي إلى انهيار الدولة.

يجب على العالم الغربي ان يعلن، بصورة لا تقبل التأويل، ان قرارات الأمم المتحدة، التي مضى وقتها، والمتعلقة باللاجئين، اصبحت ملغاة، وعليه ان يضع الفلسطينيين والعالم العربي امام الامر الواقع، فالعرب، غير قادرين على القول، مثلاً، انهم يوافقون على مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧، الذي رفضوه قبل خمسين سنة تقريباً.

ان الظروف تتغير مع الزمن، ويجب على العرب ان يدركوا بأنه لا يمكنهم ارجاء عقارب الساعة إلى الوراء كلما ارادوا ذلك. لذا يجب ان نكمل، على اية حال، المسيرة التي بدأت في الامم المتحدة، في اعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي، وان نلغى كافة القرارات المعادية لاسرائيل، التي اتخذتها هذه المؤسسة الدولية خلال الحرب الباردة.

ان كل هذه الاجراءات، تشكل في الواقع مشروع سلام واحداً، يتألف من ثلاثة عناصر هي:

* اتفاقيات ثنائية بين اسرائيل والدول العربية، بما فيها تحديد رسمي للحدود بينها وتسويات سلمية.

* تقديم مساعدات دولية من قبل بقية دول العالم.

* اتفاقيات ثنائية بين اسرائيل والفلسطينيين، يتحدد فيها كيف يمكن ان يعيش العرب واليهود معاً، ويتم الاتفاق على مسائل الحكم الذاتي والامن.

وكل واحد من هذه العناصر الثلاثة، يتطلب بلورة صيغة دقيقة ومفصلة تأتي نتيجة لمفاوضات متعمقة.

من المحتمل، بالطبع، ان يرطأ من خلال المفاوضات تعديل على بعض هذه العناصر، بأن تضاف اليها عناصر جديدة، مثلاً، لكنني على قناعة تامة، بأن الفكرة العامة التي اوردتها في هذا الفصل، يمكن ان تكون اطاراً لاحلال سلام حقيقي واقعي ودائم بين العرب واسرائيل.

ان محاولة تحقيق سلام بين، اسرائيل والعرب، يجب ان تشمل علاو ة على مسألة الاراضي المختلف عليها، العناصر الآتية: معاهدات سلام رسمية بين الدول العربية واسرائيل. ترتيبات امنية مع الدول العربية تحمي اسرائيل من أي هجوم، وتمكن الاطراف من التاكد بأن الاتفاقيات تنفذ نصاً وروحاً، تطبيع العلاقات بين الدول العربية واسرائيل والغاء المقاطعة الاقتصادية على اسرائيل، وقف الدعاية اللاسلامية واللاصهيونية الرسمية في المدارس ووسائل الاعلام في الدول العربية. هيئة دولية تمنع بيع اسلحة ووسائل قتال غير تقليدية لانظمة الحكم المتطرفة في الشرق الأوسط: مشروع دولي لتوطين اللاجئين، وتعاون اقليمي لتطوير مصادر للمياه وحماية الطبيعة والبيئة.

هذه هي الطريق لتحقيق سلام بيننا وبين العرب في الشرق الاوسط، كما هو في حقيقة الامر – منطقة متوترة، غير مستقرة، غير ديمقراطية، مشبعة بالعداوات المتأصلة، وهذه العداوات والشعور بالكراهية لن يختفيا بسرعة لذا، يجب ان نبني المصالحة العربية مع اسرائيل على اسس من الاستقرار والامن والتعاون، وبالتدريج، فالاسلوب التدريجي سيوفر للاطراف امكانية تغيير نظريتهم بشأن تطبيق السلام وشكله، فيما لو طرأ تغير جوهري نحو الافضل، في الظروف السياسية والعسكرية الاساسية السائدة في المنطقة.

منذ انتصار اسرائيل في حرب الايام الستة، يتنافس في الوسط العربي توجهان متناقضان :

* توجه ايجابي يقضي بالتسليم بوجود اسرائيل والتصالح معها، من خلال الافتراض بأنها لن توافق على تقليص مجالها الامني، وتوفير خيار عسكري عربي للقضاء عليها نفسها.

* توجه تتزعمه منظمة التحرير الفلسطينية، يدعو إلى اعادة اسرائيل، على مراحل، إلى خطوط عام ١٩٦٧، بوسائل دبلوماسية وعسكرية معاً، وخلق الظروف المطلوبة للقضاء عليها.

برز التوجه الاول في مؤتمر مدريد، عندما حضرت كل الدول المجاورة لاسرائيل إلى التفاوض معها، دون ان تتنازل اسرائيل، سلفاً، عن متطلباتها الامنية الحقيقية. في حين برز التوجه الثاني معززاً في اتفاقيات اوسلو والقاهرة، عندما بعثت اسرائيل في العرب الامل من جديد، بأنها ستتقلص ضمن حدود عام ١٩٦٧.

ان اصرار العرب على اعادة اسرائيل إلى حدود حرب عام ١٩٦٧، لا يمكن ان يلاقي رداً ايجابياً من جانب كل من يرغب في تحقيق سلام حقيقي. يجب ان نقول للعرب، انه لن يحل السلام دون امن، ولسنا على استعداد للمغامرة بوجودنا، من أجل تلبية مطالبهم. واذا لم يوافق العرب، اليوم، على هذا، يجب ان نتحلى بالصبر على امل ان يوافقوا عليه غدا. وعلى اية حال، لا يجوز ابداً ان نتأثر بتصريحاتهم بأنهم لن يوقعوا على معاهدات السلام معنا، اذا لم نوافق على انسحاب من شأنه وضعنا في حالة خطر دائم.

في الشرق الاوسط، يتقدم الامن على السلام ومعاهدات السلام، وكل من لا يدرك هذا، سيظل دون امن ودون سلام، وفي نهاية الامر – محكوم عليه بالفناء. ولكن، علاوة على كل ما اسلفنا، توجد مشكلة خطيرة جداً، يجب على كل اولئك الراغبين في احلال سلام حقيقي في منطقتنا، تكريس اهتمام بالغ بها. وهذه المشكلة، تتطلب منا النظر اليها على انها مسألة اولى

على رأس سلم الاولويات، تتقدم من حيث الاهمية على كافة المواضيع المتعلقة بالنزاع العربي – الاسرائيلي.

ان مشكلة توسع الاسلام المتطرف واحتمالات حصول ايران على اسلحة نووية، مشكلة لا تحظى بمعالجة مناسبة من جانب الدول الغربية. فعلاوة على الارهاب، كان التعصب الديني موجوداً في الشرق الاوسط طيلة مئات السنين، غير انه اصبح قوة دولية في السنوات الاخيرة فقط، عندما حظي بادارة نشر دولية، بصورة دولة مستقلة ذات سيادة. فمنذ اللحظة الأولى لاقامة الجمهورية الاسلامية في ايران، عملت هذه الدولة، دون كلل، على اثارة الاقليات الاسلامية في آسيا وافريقيا، واوروبا الغربية. ووجهت جهودها، بشكل رئيس، لاثارة الجماهير الاسلامية في الشرق الاوسط وشمال افريقيا.

في العقد الاول لقيام الجمهورية الاسلامية. كانت مواردها مخصصة للحرب مع العراق، وبعد انتهاء الحرب، تفرغت لاذكاء نار الارهاب ضد اهداف غربية، وبوساطة مبعوثيها، نظمت ايران سلسلة هجمات ارهابية ضد عناصر غربية في الشرق الاوسط، وعلى رأسها اسرائيل، وعلى اهداف غربية في العالم، بما فيها تفجير المركز التجاري في قلب نيويورك.

ان ظهور التعصب الديني بزعامة ايران، يعيد إلى الاذهان، إلى درجة كبيرة، ظهور الشيوعية بزعامة الاتحاد السوفياتي، في سنوات العشرينات والثلاثينات من القرن الحالي: ايديولوجية قتالية، تنشرها دولة تستخدم ملايين المؤيدين في دول مختلفة، لديهم قناعة بان هدفهم، هو احتلال العالم. لكن هناك فرقاً واحداً اساسيا بين الحركتين: ففي حين ان الشيوعيين، اظهروا سلوباً واقعياً تجاه امكانيات توسعهم، نفضلين التعايش على تحقيق هدفهم الايديولوجي، نجد ان المتعصبين الاسلاميين يلجأون إلى الاسلوب المعاكس، بحيث ينمون لدى مؤيديهم الاستعداد للموت في سبيل تحقيق حلمهم الديني، وهكذا، شهدنا "ارهابيين انتحاريين"، وشباباً ارسلتهم امهاتهم للموت في سبيل الاسلام.

كل هذه الامور، تعتبر مؤشرات لتوشهات نفسانية وثقافية عميقة، تجعل من التعصب الاسلامي "ورماً سرطانياً" يهدد بصورة حقيقية المدنية الحديثة. ومن شان حصول هـذه الحركـة عـلى قنبلـة نوويـة زيـادة خطورتها على العالم كله، عشرات الاضعاف: علاوة على التشجيع العظيم الذي سيمنحه مثـل هـذا التطـور، لملايين المؤمنين، ولا يمكن، ولا بأي حال من الأحوال، الغاء احتمال قيام ايـران باسـتخدام الـسلامح النـووي، ليس ضد اسرائيل فقط، بل ضـد دول اخـرى، وسـتنخدع الـدول الغربيـة وفي مقـدمتها الولايـات المتحـدة، وستحاول بهذه الطريقة تحقيق الحلم القديم، المتمثل بانتصار الاسلام على الكافرين.

لذا، يجب ان لا يظل الرد على هذا الخطر الجسيم مقتصراً على وقف او احتواء ايران (Containment) فقط، بل يجب ان يكون اكثر شمولاً. فمثلما ادت التغييرات في نظام الحكـم الـروسي إلى انهيـار الـشيوعية، فان احداث تغيير في مواقف نظام الحكم الايراني، قد يؤدي إلى وقف توسع وباء التعصب الديني.

من اجل ضمان مثل هذه النتيجة، يجب على الولايات المتحدة ان تقود عملية دولية، على غـرار تلـك التي قامت بها ضد العراق – اي فرض حظر دولي عـلى صـادرات الـنفط مـن ايـران، وعقوبـات اقتـصادية وسياسية ضدها، تنمية ورعاية طموحات ديمقراطية لدى جماعات مختلفة داخلها، واتخاذ اجراءات اخـرى كفيلة بوقف المسيرة الخطيرة التي تقوم بها ايران وعلاوة على كل هذا، يعتبر التدخل الدولي امـرا ضروريـا لمنع انتشار الاسلحة غير التقليدية في ايران، والعراق ايضاً. حيث انه بعد هزيمـة العـراق، لا تـزال تكتـشف لديه منشآت اسلحة نووية، لذا، فان الطريقة الرئيـسية لمنـع، او ابعـاد اليـوم الـذي سـتتملك فيـه الـدول العربية وايران القدرة على تدمير المدن الاسرائيلية (ومدن دول اخرى) بضغطة زر، هي فرض حظـر شـديد وشامل على تزويد الوسائل والمعلومات التكنولوجية النووية، لانظمة حكم دكتاتوريـة في الـشرق الأوسـط، وتطبيق هذا الحظر عن طريق فرض عقوبات مشددة على الدول التي تخرقه.

ان الولايـات المتحـدة الامريكيـة، هـي الدولـة الوحيـدة القـادرة عـلى تطبيـق مثـل هـذا الـنهج العقـابي. فـاذا لم يتخـذ الاجـراء الـدولي المناسـب بهـذا الـشأن، فـستكون مـسألة وقـت فقـط، حتـى

تمتلك ايران، او اية دولة اخرى من الدول الدكتاتورية في الشرق الاوسط، اسلحة نووية، وعندئـذ لـن تهـدد وجود اسرائيل فقط، بل سلام العالم اجمع.

واخيراً، يجب ان ندرك ان اي تقدم، او عدم تقدم في تحقيق التسويات في الـضفة الغربيـة والجـولان، لن يغير شيئاً مقابل هذا الخطر المتميز.

الفصل العاشر
مسألة القوة اليهودية

في عام ١٩٨٧، زرت بولندا، عندما كانت تحت الحكم الشيوعي. هبطت بنا الطائرة في مطار عسكري بالقرب من كركوب، حيث سافرنا من هناك بالسيارة، وسط مناظر طبيعية رتيبة. وسرعان ما مررنا بقرية صغيرة، كان فيها شيء واحد يميزها هو الاسم: "اوشفاينتشي" (اوشفايتس). وبعد وقت قصير، وصلنا إلى باب المعسكر الذي لا زال يحمل العنوان الفظيع "العمل يحرر". واوضح لي المضيفون، ان عملية الابادة الرئيسية التي قتل فيها حوالي مليوني يهودي، لم تكن تجري هنا. صحيح ان عدة الآف من اليهود ماتوا في المعسكر الرئيس في اوشفايتسن لكن هذا المعكسر كان يتسخدمه الالمان كمركز تحقيقات وتعذيب، بينما تتم عملية القتل والابادة في مكان آخر.

وبعد ذلك توجهت سيرا على الاقدام برفقة اعضاء كنيست وشباب اسرائيليين ويهود من دول اخرى، على طول خط سكة الحديد من اوشفايتس إلى بركناو، القريبة. وبعد مسير ١ – ٢كم، قادتنا قضبان سكة الحديد عبر بوابة اخرى، إلى باب معسكر "بركناو"، حتى وصلنا على بعد بضع مئات الامتار داخل المعسكر، إلى بقايا ثكنات محروقة، كانت تصلها يومياً عدة قطارات محملة بآلاف اليهود، الذين يتم انزالهم في هذا المسعكر ثم يقتادون بسرعة إلى حجرات الغاز.

قبل وقوفي هناك، في بركناو، لم اكن اتخيل كم كان صغيراً وحقيقاً ذلك المكان. لقد كان بالامكان وقف العمل في ذلك "المسلخ" من خلال طلعة جوية واحدة يقوم بها سرب من القاذفات، ولم يكن ذلك الامر يتطلب جهداً خاصا. اذ ان دول الحلفاء قصفت اهدافاً متنوعة قريبة من هذا المعسكر. لم تكن هنالك حاجة سوى لاعطاء امر بسيط واحد، لاحدى الطائرات لكي تنحرف قليلاً، وتوقف تلك المجزرة. لكن ذلك الامر لم يعط ابداً.

يعتقد الكثيرون من زوار "بركناو" ان دول الحلفاء لم تكن تعلم بأن الالمان يبيـدون، بـصورة منهجيـة، كل يهود اوروبا. لكن تلك ليست هي الحقيقة.

طيلة سنة ونصف السنة، هي فترة عملي كمندوب لاسرائيل لدى الامم المتحدة، عملنا انا وزملائي على فتح الارشيف السري الذي كان يحتوي على ملفات الامم المتحدة الخاصة بمجمري الحـرب النـازيين. وبعـد ان نجحنا في التوصل إلى الملفات تبين لنا ان "لجنة جرائم الحرب" التابعة للحلفاء والتي شكلت في بريطانيا عام ١٩٤٢، وضمت مندوبين عن ١٧ دولة كانت تعرف جيداً ما يدور في معسكر "بركناو" منـذ مطلـع عـام ١٩٤٤ - قبل سنة ونصف السنة من هزيمة المانيـا النازيـة. ولـو ان دول الحلفـاء تـصرفت بنـاء عـلى تلـك المعلومات المتوفرة، لكان بالامكان انقاذ ملايين اليهود من الابادة. غير ان الحلفاء عرفـوا، ولم يفعلـوا شـيئاً، بذلك حكموا على يهود اوروبا بالموت.

كيف وصل اليهود هذا الحد من حالة الضعف والوهن المطلق. وكيف حـدث ان شـعباً كـاملاً، اقتيـد كالأغنام إلى المسلخ، دون القدرة على مقاومة هذا الهجوم المخيف، الـذي اسـتهدف وجـوده؟ ومـا الـسبب الذي منع الشعب اليهودي من التأثير على دول العالم كي تفعل شيئاً، ولو ضئيلاً لانقاذه؟

ان مسألة الضعف اليهودي تحتل مركز التجربة المأسـاوية التـي اجتازهـا الـشعب اليهـودي، وتـشكل جانباً واحداً لعمله الوجود اليهودي.

اما الوجه الثاني، فهو اعادة تعبئة القوة اليهودية في جيلنا الحالي. وهذان هما القطبـان اللـذان تحـرك بينهما تاريخ الشعب اليهودي في العصر الحديث.

ولا شك في ان السنوات المائة الاخيرة، التي يتطرق اليها هـذا الكتـاب، مثلـت تجربـة مريـرة خاضها الشعب اليهودي. من المذابح في روسيا، ومحـاكمات درايفـوس، واللاسـامية المتـصاعدة في اوروبا والـسياسة البريطانيـة لمنـع دخـول اللاجئـين اليهـود الفـارين مـن اوروبـا، بفعـل الكارثـة،

إلى "ارض اسرائيل"، كلها، كانت مراحل مأساوية في مسيرة تدهور الشعب اليهودي إلى حالة الضعف المهينة التي اصابته. في حين ان قيام دولة اسرائيل، واحياء القوة العسكرية اليهودية وتغلبها على اعداء اكبر منها بكثير، تعبر عن تحرك المؤشر نحو القطب المضاد.

وعلى الرغم من الدراما العظيمة التي شهدها تاريخ اليهود في القرن الحالي، يمكننا ان نفهم قيام اسرائيل من خلال زاوية نظر تاريخية اوسع، تتعلق بالالف السنين من الوجود اليهودي. فالشعب اليهودي هو من اقدم الشعوب في العالم، ويمتاز عن بقية الشعوب بقوة ذاكرته. والصهيونية، هي عبارة عن تجربة معروضة لنسج مستقبل جديد، لشعب عريق، بخيوط الارادة القومية التي غزلت في فجر التاريخ اليهودي ولا تزال مستمرة حتى يومنا هذا.

لكي نفهم العلاقة المتبادلة بين مسألة القوة اليهودية، وحالة الوهن والضعف الذي تميز بها شعبنا في عهد الكارثة، يجب علينا دراسة وضع اليهود خلال فترة اطول بكثير من العهد الجديد.

اولاً، يجب ان ندرس وضع اليهود في العالم القديم، حيث انه، في التاريخ القديم، حدثت احداث حاسمة في حياة الامة، تركت بصماتها إلى درجة كبيرة على طابع اليهود، ووجهات نظرهم، وآمالهم المستقبلية.

خلافاً للشخصية التي الصقت باليهود، خلال مئات السنين الماضية، لم يكن اباؤنا في العصر القديم معروفين كضحايا، لا حول لهم ولا قوة. فالتاريخ الروماني وغيره يشير إلى ان اليهود لم يكونوا مرغوبين كثيراً في العالم القديم، لكن الجميع كانوا يكنون لهم الاحترام بفضل اصرارهم وصمودهم في وجه اي هجوم يستهدف حقوقهم وحريتهم، اذ، في حقيقة الامر، قل ما نجد شعباً يحارب بهذا الاصرار والاستمرارية، ضد قوات اكبر منه بكثير.

لقد تم احتلال وطن اليهود مرات عديدة، من قبل الاشوريين والبابليين والفرس، والمكدونيين، والرومانيين والعرب، لكن الشعب اليهودي، صمد في الاحتلال وفي الشتات، طيلة ما يقرب من الفي عام وبقي موجوداً.

خلال المرحلة الأولى والطويلة من تاريخ الشعب اليهودي خرج من ابنائه رجال جيش وزعماء مرموقون قادوه في صراعه المستمر. ولا توجد امم تستطيع الافتخار باشخاص مثل: موسى، يهوشع، جدعون، شمشون، دبورا، شاؤول، يهونتان، داوود، ملوك اسرائيل ويهودا، نحميا، المكابيون، يهود هجليلي، اليعازر بن يئير. شمعون بارجيورا، باركوخفا، وغيرهم من الزعماء الاقل شهرة، الذين صمدوا وقادوا التمرد ضد روما وبيزنطة.

لقد وقف يهود "ارض اسرائيل" وحدهم، في وجه روما، تلك الدولة العظمى التي خضعت لها معظم شعوب العالم في تلك الايام، وظلوا يقاومون باصرار طيلة سنوات كثيرة ضد الحكم الروماني.

اذا كانت هنالك ميزة واحدة، على الاقل، تبرز في ثنايا التاريخ اليهودي القديم، فهي تلك المتمثلة برفض الشعب اليهودي الشديدن للتنازل عن استقلاله السياسي، والديني، واستعداده لمواصلة الكفاح، ضد من ارادوا استعباده. لقد نجح اليهود في كفاحهم عدة مرات، وفشلوا عدة مرات اخرى، لكن الكفاح في حد ذاته ساعدهم في المحافظة على هويتهم وقيتهم، وبفضله، لم ينصرهوا ولم يختفوا مثل امم اخرى كثيرة تلاشت تحت وطأة امبراطوريات عظمى.

كيف اختفت هذه القدرة على المقاومة، وكيف استبدلت بشخصية اليهودي الضعيف؟ لم يحدث ذلك في يوم وليلة. لا شك في ان الصراع الطويل والمأساوي ضد الرومان، قد استهلك قسطاً كبيراً من طاقة الامم اليهودية. هناك من حدد زمن السقوط النهائي للشعب اليهودي، بقمع تمرد باركوخفان الذي حدث بعد ستين سنة من فشل التمرد الاول، وخراب القدس، وخلافاً لهذا الاعتقاد، لم تعضف سلسلة الهزائم التي الحقت بالشعب اليهودي، مقاومة اليهود، والشاهد على هذا، هو ثورتهم ضد البيزنطيين، بعد تمرد باركوخفا.

طالما، ظل الشعب اليهودي يعيش على ارض وطنه، كان يجد طريقة للقيام بعمل عسكري وسياسي. حتى في مطلع القرن السابع للميلاد، كانت لا تزال هناك قدرة على

المقاومة لدى اليهود، وذلك عندام ابرم يهود البلاد حلفاً مع الغزاة الفرس، ضد الحكم البيزنطي. ولكن، بعدما طردوا من بلادهم وتشردوا في انحاء العالم، لم تعد لدى اليهود الظروف المطلوبة للدفاع عن النفس. صحيح ان اليهود في اوروبا عاشوا في احياء محصنة خاصة بهمن لكنهم فقدوا القدرة على حماية انفسهم شيئاً فشيئاً. ففي المانيا، حرموا حق حمل السلاح للدفاع عن انفسهم، رغم انهم كانوا، في تلك الدولة، اكثر عرضة للهجوم من اي دولة أخرى.

ان من يحرم من حمل السيف، سرعان ما ينس كيفية استخدامه، ويبدأ استعداده النفسي للمقاومة يتلاشى. وهكذا اصبح اليهود اقلية اجنبية بحاجة إلى حماية الحكام الذين لم يسارعوا، في كثير من الاحيان، لتوفير هذه الحماية لهم.

ان الضعف في حد ذاته يغري بالعدوان على الضعيف، وهذا ينطبق، بشكل خاص، على اليهود، الذين دمجوا النجاح الاقتصادي مع الضعف السياسي والعسكري، وهكذا اصبح اليهود هدفاً للمطاردة والطرد.

عندما كان يطرد اليهود من دولة ما، يجدون ملجأً في دولة اخرى، ولكن بعد ان يعقدوا صفقة مع حاكم تلك الدولة، او مع المقربين اليه. وعندما يطاح بهؤلاء الذين منحوا الحماية لليهود، يصبح اليهود عرضة للمطاردة والاعتداء عليهم من جديد. الامر الذي جعل من الشعب اليهودي ضحية لاعمال التنكيل والقتل على ايدي شعوب اخرى، وتلاشت قدرته على المقاومة نهائياً. واصبحت كلمة "يهودي" شتيمة تثير الاشمئزاز والسخرية. وفي لغات عديدة في العالم اصبحت كلمة "يهودي، كلمة مرادفة لمعنى "جبان". والاخطر من هذا، ان اوساطاً واسعة بين اليهود سلموا بهذه الشخصية المهينة، وبدأوا يرون انفسهم كما يرونهم الغرباء.

زئيف جيوتنسكي، كان احد القلائل من زعماء الجيل الثاني للصهيونية، الذين ادركوا إلى اين يتجه اليهود. فطيلة سنوات الثلاثينات لم يتوقف جيوتنسكي عن دق جرس الانذار والتحذير من الخطر القادم الذي يتهدد اليهود، في اوروبا.

ففي التاسع من آب ١٩٣٨، قال في ذكرى خراب بيت المقدس (الهيكل)، في وارسو مخطباً اليهود: منذ ثلاث سنوات، وانا اناشدكم يا يهود بولندا واحذركم، من اقتراب الكارثة. ان قلبي يقطر دماً لرؤية اخواني واخواتي الاعزاء لا يحسون بالبركان الذي سيبدأ قريباً بقذف لهب الابادة. اناشدكم بالله ان ينقذ كل منكم نفسه، طالما وجدت امامه فرصة لذلك – والوقت قصير. لكنني اود ان اقول لكم شيئاً آخر في هذا اليوم، التاسع من آب: ان من يستطيع ان يفر بنفسه من الكارثة، لا بد ان يشهد الفرحة اليهودية لاكبرى: ولادة وقيام دولة يهودية من جديد. لا اعرف ما اذا كنت أنا سأحظى بذلك – لكن ابني، "نعم". ا نني مؤمن بهذا، مثلما انني واثق بأنه غداً صبحاً ستشرق الشمس من جديد، انني مؤمن بهذا ايماناً كاملاً.

في تلك الفترة، اي سنة واحدة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، كان هنالك عدد قليل فقط من اليهود يتوقعون الكارثة القادمة، وقليلون ايضا هم الذين شاركوا جيبوتنسكي ايمانه، بأن الشعب اليهودي سيتغلب على الكارثة ايضاً.

عام ١٩٤٢، اجتمع حكام المانيا النازية في بيت واسع في حي فنزا في برلين، لوضع خطة "الحل النهائي"، وعلم، فيما بعد، من خلال وثائق مؤتمر فنزا، ان النازيين خططوا لابادة اليهود، في جميع انحاء اوروبا، من بريطانيا وحتى الاتحاد السوفياتي. واعدوا قوائم مفصلة للقضاء على (١١) مليون انسان. كان النازيون يقصدون في البداية القضاء على يهود اوروبا فقط، ولكن عندما وصلت جيوشهم إلى شمال افريقيا، بدأوا يطردون اليهود من هناك إلى معسكرات الموت. وكانت هزيمة هتلر، فقط، هي التي انقذت يهود شمال افريقيا وروسيا من الابادة.

يبدو ان تلك كانت النتيجة الحتمية للتغيير المستمر الذي طرأ على وضع اليهود: تحول ابناء المكابيين إلى خراف تقاد إلى الذبح، وتقرر اخفاؤهم من على وجه الارض. ولكن، من تلك النقطة بالذات، في الدرك الاسفل من الانحطاط اليهودي، بدأ التحول الكبير الثاني في تاريخ الشعب اليهودي: لقد اكتشف، من جديد، قدرة المقاومة اليهودية، ففي مطلع القرن السابق، كانت قد بدأت تظهر في الوسط اليهودي اول مؤشرات للثورة. اذ ان الجيوش

الضخمة التي تشكلت في اوروبا بعد هزيمة نـابليون، بـدأت تجنـد في صـفوفها جنـوداً يهـوداً. وفي الحـرب العالمية الاولى، قدم عدد كبير من الجنود اليهود في مختلف الجيوش، وكان من بينهم قـادة بـارزون. في وفي الحرب العالمية الثانية، برزت القوة اليهودية في اطار جيوش الحلفاء، غير ان المؤشر الذي كان له بالغ الاثـر بشأن قرب حدوث التحول الكبير في تاريخ الشعب اليهـودي الحـديث، اكتـشف في قـاع الهـوة بالـذات. في "جيتو" وارسو، في معسكرات تربلنكا وسوبيبور واماكن اخرى، حيث تمـرد اليهـود عـلى الجنـود النـازيين في صراع بطولي لا مثيل له في تاريخ البشرية. تلك الحالات من التمرد التي وقعـت في ظـل ظـروف يائـسة ولا امل فيها، اثبتت انه لم ينقطع بعد، الخيط القديم، الذي نسج منه الطابع اليهودي.

اصبحت نهضة القدرة اليهودية على المقاومة، جزءا من سياسـة موجهـة، في اطـار الحركـة الـصهيونية فقط. ففي الحرب العالمية الأولن بدأ الصهاينة باعادة بناء القوة العسكرية اليهودية التي اهملهـا اليهـود طيلة مئات السنين. بدأت الجهود في هذا الاتجاه، بتشكيل تنظـيمات دفاعيـة يهوديـة، ضـد العـصابات في روسيا، في الفترة ما بين ١٨٨١ – ١٨٨٢، والمذابح التي تلت ذلك.

ثم تكررت في تشكيل منظمـة "هـشومير، (الحـارس) في "ارض اسرائيـل"، قبـل الحـرب العالميـة الاولى وخلالها، واستمرت من خلال تشكيل الكتائب العبرية في اطار الجيش البرطاني، و "سرايا الليل" التي نظمها، اورد فينجايتن في الثلاثينات، واللواء اليهودي، والوحدات اليهودية من "ارض اسرائيل" التي قـدمت في اطـار الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية. ومن خلال هذه البـدايات المتواضـعة، نمـت المـنظمات الـسرية اليهودية – الهجناه، ايتسل، ليحي – التي مهدت الطريق لتأسيس الجيش الاسرائيلي، مع قيام الدولة.

بعد قيام دولة اسرائيل، ادرك معظم اليهود في العالم، الاهمية الحاسمة لبناء قـوة عـسكرية يهودية، وخصصت اسرائيل معظم مواردها لتقوية جيشها، وكلفـت افـضل ابنائهـا لهـذه المهمـة. ومما ادهش العالم، ان اسرائيل افرزت من ابنائها افضل المقاتلين في العـالم، وانـشأت جيـشاً اثبـت

المرة تلو الاخرى، قدرته على الحاق الهزيمة بآلة حرب كبيرة وعظيمة. اضف إلى ذلك، ان جنود الجيش الاسرائيل اثبتوا في حربهم ضد الارهاب، ان الدول المتحضرة ايضاً، قادرة على محاربة هذا الوباء الخبيث.

لم يؤد هذا التطور إلى احداث تغيير جذري في وضع اليهود في "ارض اسرائيل" بعد ان استطاعوا ان يصدوا بنجاح، هجمات استهدفت القضاء عليهمن فقط، بل تحسنت صورة اليهودي في نظر الاجانب ايضاً.

غير ان التحول الدرامي، طرأ على الشكل الذي اصبح اليهود يرون انفسهم فيه. بدا هذا التحول في سنوات التسعينات من القرن الماضي. اذ كان من يزور "ارض اسرائيل". في تلك الفترة، يشاهد التغيير الذي طرأ على ابناء الجيل الاول من اليهود، الذين ترعرعوا خارج الاحياء اليهودية القديمة والمغلقة في صفد والقدس. كان يشاهد شباباً، معظمهم من ابناء وبنات مهاجرين يهود، وصلوا منذ فترة وجيزة إلى البلاد، يحرثون الارضن ويركبون الخيول،ويتعلمون الرماية، يتحدثون اللغة العبرية الحديثة، يتصادقون مع جيرانهم العرب، وتيصارعون معهم اذا دعت الحاجة ايضاً، حتى انهم كسبوا احترامهم.

كانت عائلة اهرونسون، من زخرون يعقوب، نموذجاً واضحاً لهذا اليهودي الجديد. كان ابناء العائلة، فلاحين اثرياء، حتى ذاع صيتهم في "ارض اسرائيل" وخارجها في بداية القرن الحالي، بفضل انجازات الابن الاكبر للعائلة، اهرون. كان اهرون اهرونسون، شخصية متعددة الصفات، مهندساً زراعياً ناجحاً، اثبتت تجاربه العلمية، في المجال الزراعي، القدرة على احياء الارض القاحلة، واستغلالها بنجاح، كما كانت له افكار سياسية، واكن زعيماً مؤهلاً للقيادة ايضاً.

لقد قرر اهرونسون المساعدة في طرد الاتراك من البلاد، والعمل من اجل احتلالها من قبل البريطانيين. عندئذ اقام هو، وشقيقته، سارة، ومجموعة من الشباب اليهود، بينهم الرومانسي الحساس، ابشلوم فاينبرغ، والمغامر المثير، يوسف ليشنسكي، شبكة "نيلي" وهي

شبكة تجسس نقلت معلومات إلى السفن البريطانية، من مزرعة عائلة اهرونسون، التي اكنت قريبة من ساحل البحر.

لقد قتل جميع افراد هذه الشبكة، فيما بعد في ظروف مأساوية: سارة، انتحرت بعد ان القي القبض عليها من قبل الاتراك وعذبوها: ابشلوم، قتل على ايدي البدو في رمال رفح، بينما كان في طريقه إلى مواقع البرطانيين في مصر: ليشنسكي، اعدم شنقاً على ايدي الاتراك في دمشق، بعد ان القي القبض عليه في شمال البلاد: واهارون، قتل في عام ١٩١٩ في حادثة طائرة غامض، فوق بحر المانش، وكان في التاسعة والثلاثين من عمره. لكن تلك الروح والجرأة المستمدتين من التراث اليهودي، خلقا نموذجاً جديداً للتقدير والتقليد من قبل جيل كامل من الشباب، الذين نشأوا في "ارض اسرائيل".

لقد حدث هذا التحول الجوهري في طبيعة اليهود في "ارض اسرائيل" في النصف الاول من القرن الحالي. فعشية قيام الدولة اليهودية، كان قد نما وترعرع جيل جديد، كان مستعداً لأن يحمل على كاهله مهمة الصراع من اجل تحرير الامة.

ان ابناء الجيلين الثاني والثالث الذين ولدوا وكبروا في اسرائيل، بعد حدوث التحول المذكور، بدأوا ينسون، او ربما لم يعرفوا كلياً، ماذا كانت تعني حياة اليهودي في "جيتو" في اوروبا في اليمن.

ثمة يهود كثيرون ترعرعوا في اسرائيل، لا يعرفون الشعور بعدم الامن الذي يمتاز به يهود كثيرون في المهجر، وبضمنهم ايضاً، اليهود الذين يعيشون في اغنى الدول واكثرها استقراراً. صحيح، ان اسرائيل نفسها عرضة دائماً لهجمات مستمرة، وان مواطنيها معرضون لعمليات عدائية قاتلة، لكن في احيان متباعدة فقط، يشعر اليهودي بعدم الراحة بسبب يهوديته. وصحيح انه بين الحين والآخر، تجد من يتساءل بشأن اهمية وجود دولة اسرائيل بالذات، وفيما اذا كان العيش في المهجر افضل من العيش فيها. لكن هذه حالات شاذة فقط،

اذ ان الغالبية العظمى من يهود اسرائيل يشعرون بان اسرائيل هي بيتهم رغم كل الصعوبات التـي تواجـه الدولة.

ومقابل هذا، رغم ان يهوداً كثيرين يقولون انهم يشعرون بان امريكا بيتهم، فان وقوع عـدة حـوادث لا سامية شديدة كافية لسلبهم هـذا الـشعور بـالامن، هـذا لا يعنـي ان يهـود اسرائيـل يتفوقـون بـالجرأة والشجاعة على اليهود خارج اسرائيل، لكن ما يمتاز به اليهود في "ارض اسرائيل" هو شعور داخلي بالانتماء الذي يخلق في اعماق القلب شعوراً بالامن بهوية اليهودي وبقوتـه. وهـذه هـي النتيجـة الثانيـة العظيمـة لعودة صهيون.

لكن التحول لم يكن مكتملاً، كما لم يكن متوقعـاً ان يكـون مكـتملاً في هـذه الفـترة الزمنيـة القـصيرة. فالشعب اليهودي الذي عاش خارج العمل السياسي الحقيقـي، ولم تكـن لديـه قـوة سياسـية طيلـة مئـات السنين، لم يكن قادراً على التكيف في يوم وليلة، مع وجود مستقل. اذ بعد مضي اجيال عديدة، كان الغرباء هـم الذين يقررون مصير اليهود، اصبح من الصعب على الكثيرين منهم هضم فكرة انتهاء الوضع الذي كـان يفـرض فيه الاجانب عليهم رغبتهم وارادتهم، وانه اصبح بمقدورهم رسم سلوكيات الآخرين وفقاً للمصلحة اليهودية.

ان التربية السياسية الحقيقية، تعترف بحقيقة انه بين الحين والآخر، يجب على الشعب ان يمـارس ضـغوطاً ويعبئ قوة، لكي يحقق هدفه، وهذا الاجراء هو جزء طبيعي وحتمي من الصراع المستمر من اجل البقاء.

غير ان هذه النظرية، لم تكن بالامر الطبيعي ابداً، بالنسبة للغالبية العظمى مـن اليهـود. الامـر الـذي تطلب، في النـصف الاول مـن القـرن الحـلي كفاحـاً مـراً مـن اجـل اقنـاعهم بـضرورة بنـاء قـوة عـسكرية، وتجريدهم من لنظرية التي تعمقت لديهم وهي انه لا يجوز لليهود "تدنيس" ايـديهم بحمـل الـسلاح. اذ واجهت محاولات هرتسل وجيبوتنسكي وغيرهما، في تحدي هذا الـسلوك، وخلـق قـوة عـسكرية وسياسـية يهودية، الاستهزاء والسخرية من قبل كثيرين من اليهود، الذين اعتبروها سجوداً فاشياً للقوة.

كان هناك الكثير من اليهود الذين حذروا مـن ان انـشاء قـوة عـسكرية يهودية سيؤدي باليهود إلى السلوك العسكري والقومية المتطرفة، وكأن حمل السلاح بالذات امر محظور من الناحية الاخلاقية.

لم تستجب الغالبية العظمى من يهود اوروبا إلى نداءات الصهيونية السياسية، لتنظيم قوة مقاومة سياسية وعسكرية، وهدرت اربعة عقود اثمن من الذهب، كان باستطاعتهم ان يحصلوا خلالها، على السلاح والحلفاء وان يفتحوا ابواب البلاد"، او على الاقل طرقاً للهروب خلال الحرب. وكانت النتيجة الحتمية لعدم الاستجابة تلك هي – معسكر اوشفايتس.

في ايامنا هذه، يصعب ان نفهم اصرار معظم اليهود، قبل مئة سنة، او حتى قبل خمسين سنة، على عدم اعتبار الدفاع الذاتي ضرورة واضحة ومفهومة في حد ذاتها. كان ذلك هروباً من الواقع، نابعاً من ابتعاد اليهود عن مجالات العمل السياسي والعسكري طيلة ما يزيد عن الف سنة.

وفمهوم، انه بعد الكارثة، ادرك يهود كثيرون ان عدم قدرتهم على وضع قوة مقاومة شديدة، في مواجهة النازيين، جعل من السهل عليهم تنفيذ عملية ابادة ستة ملايين يهودي. وقد ترجم الشعب اليهودي هذا الفهم المتجدد إلى عمل، عندما انشأ الجيش الاسرائيلي، اذ كان واضحاً لكل ذي عقل، انه دون وجود مثل هذه القوة، ستحل باليهود كارثة جديدة – هذه المرة، على ايدي العرب.

هذا الامر، لا يمنع الكثيرين من الاسرائيليين الذين سبق ان اعترف اباؤهم بضرورة مثل هذه القوة العسكرية في حرب "الاستقلال" وبقية حروب اسرائيل، من التشكيك في ضرورة الابقاء على هذه القوة وتطويرها.

من المحتمل، انه نتيجة للرحلة المؤلمة التي قطعها الشعب اليهودي، اصبحت النفس اليهودية تبحث عن طريقة للخلاص من ضرورة البقاء في صراع دائم. وأصبح هؤلاء الاسرائيليون يتساءلون: متى سينتهي هذا الأمر؟ هل محكوم علينا أن نبقى نحارب إلى الأبد؟

لا يمكننا إعطاء إجابة كاملة عن هذه التساؤلات. إذ أن ايا كان، لا يستطيع ان يتنبأ بما اذا كان السلام افضل بالنسبة لنا أم الاستمرار في الحروب، لأن أي انسان غير قادر على ان يتنبأ بنتائج وحجم تلك الحروب المستقبلية. هل ستندلع حروب؟ وهي ستنجح الجهود الدبلوماسية في منع وقوعها؟ ام ستتوقف الحروب بسبب وجود قوة الردع؟

رغم اننا غير قادرين على اعطاء اجابات قاطعة على هذه الاسئلة، نستطيع القول، بالتاكيد، ان النزاعات السياسية والدينية في الشرق الاوسط، لن تنتهي في المستقبل المنظور، إلاّ إذا قبلنا بفكرة أن "نهاية التاريخ" تقف على الأبواب وان عهد عودة المسيح يقترب.

لا توجد بلاد في العالم يسودها الميول والرغبة لرؤية كل شيء يأخذ مكانه بسلام وبسرعة، مثلما هي الحال في اسرائيل. دولة، تحاصرها باستمرار منذ نشأتها جيوش تريد القضاء عليها، وابناؤها وبناتها يكرسون معظم حياتهم في الخدمة العسكرية النظامية والاحتياطية، لا بد ان تصبح لديها رغبة شديدة في السلام.

وهكذا حدث، ان انجرفت طبقات واسعة من الجمهور الاسرائيلي، وكثير من زعمائه ايضاً، وراء نظريات مجردة وغير واقعية، وخيالية بشأن الوضع في الشرق الأوسط.

إنني أذكر جيداً، المزاج الذي ساد اسرائيل، بعد هزيمة العرب، في حرب الايام الستة، لقد توقع الكثيرون ان العرب، سيطلبون فوراً إنهاء النزاع، "نحن بانتظار مكالمة هاتفية"، كما قال ديان آنذاك. لقد بدت لي تلك الفكرة آنذاك، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، فكرة صبيانية، لكن المدهش، هو ان معظم الاسرائيليين تملكتهم، آنذاك، فكرة ان العرب سيطلبون انهاء النزاع، ولم يفكروا ابداً بأن العرب سيظلون يحاربون بوسائل أخرى، حتى يصبحوا قادرين على خوض جولة عسكرية قادمة. لم يقدّر الكثيرون آنذاك، كم من الجولات والهزائم الأخرى، يتطلب الأمر، حتى يبدأ التغيير البطيء في نظرة العرب تجاه اسرائيل.

يبدو ان الكثيرين من اليهود في اسرائيل، توصلوا إلى استنتاج بأن العرب يرغبون في التوصل إلى سلام مع اسرائيل لاعتقادهم بأن العرب يحملون نفس المشاعر، متجاهلين

الاختلافات القائمة من حيث الثقافة والتاريخ والدين والقيم السياسية التي تفصل بين المجتمع الاسرائيلي، والعالم العربي.

اعتقد كثير من الاسرائيليين أيضاً، أن العرب يمقتون الحرب مثلهم، وأنهم اذا شرحوا لهم نوايا السلام الاسرائيلية كما يجب، سيرحبون بنا.

لقد سبق ان وُجد مثل هذا الاسلوب الساذج، لأول مرة في "ارض اسرائيل" في العشرينات بواسطة حركة "بريت شلوم" (حلف السلام)، بزعامة الحاخام الأمريكي يهودا لايب مجنس، الذي استوطن في القدس وعُيّن رئيساً للجامعة العبرية. فقد فسّر مجنس مقاومة العرب للحركة الصهيونية بمصطلحات استمدها من الثقافة السياسية الأمريكية مباشرة: صراع العرب ضد اليهود ناجم عن سوء اتصال. وآمن انه من الممكن اجراء حوار منطقي مع المفتي لاسكاته وارضائه. ولا يجوز لليهود ان يحملوا السلاح، ولا بأي حال من الأحوال، لان هذا من شأنه، فقط، تعميق العداء العربي لهم.

لكننا منا لصعب ان نصدق اليوم، بأن المفكرين اليهود البارزين من مستوطني "أرض اسرائيل" ظلوا متمسكين بهذه النظرية في سنوات الثاثينات بعدما تمادى المفتي في تصريحاته التحريضية وتعاونه مع النازيين. ولكن، مع مزيد الاسف، لا يزال مؤيدو هذه النظرية موجودين بين ظهرانينا حتى اليوم. انهم يواصلون تجاهل الواقع السياسي في العالم العربي، يسخرون من نوايا أولئك الذين قرروا تدمير اسرائيل، والمناداة بمصالحة وإرضاء الاعداء بأية وسيلة.

ان معظم سكان اسرائيل، يرفضون هذه النظرية السطحية المجردة لمشكلة العالم العربي، لكن التيار الفكري آنف الذكر، يضم شرائح ذات اهمية في المجتمع، ولدى تولي الحكومة اليسارية السلطة، عام ١٩٩٢، ترسخ هذا التيار في اوساط الحكم الاسرائيلي أيضاً.

ينبع هذا التيار من رغبة اليهود الشديدة، في رؤية نهاية هذا الصراع والتوصل بسرعة، إلى حالة سلام وأخوّة، التي تنبأ بها الأنبياء في آخر الزمن، وهذا الاسلوب غير سياسي، وغير

واقعي، وخطير على حياة الأمم. لكن مؤيدي هذه النظرية يؤمنون بأن تاريخ الشرق الأوسط، سيصل أخيراً إلى نهاية محددة، أو إلى الوضع الذي يدعى "السلام" الذي سيكون خالياً من أية منغصات تقض مضاجعنا: لن تكون هنالك حروب، ولا نزاعات خارجية، ولا خلافات داخلية. سيسلّم العرب بوجود اسرائيل، ويعيش اليهود بسعادة ورفاه إلى الابد. وستصبح دولة اسرائيل جنّة الدنيا، يحظى اليهود فيها بالراحة اخيراً، من معاناتهم وصراعهم المستمر.

ولا بأس في الرغبة لتحسين الواقع شريطة ان لا نجمّله بالاماني. لكن هذا، بالضبط، ما يريده كثيرون من الاسراييليين ويحاولون عمله. فمن خلال خيالهم الابداعي الخصب، يؤمنون بامكانية انهاء النزاع العربي – الاسرائيلي بالكلام الفارغ، وكأننا لا نعيش في ذروة عاصفة صحراوية تغمرنا بخليط من التعصب والعداء، وكأننا نعيش في الغرب المتوسط الأمريكي، وليس في الشرق الأوسط.

ان هذه النظرية الخيالية لوضع اسرائيل والايمان بقدرتها على تحقيق نهاية مفاجئة للمقاومة العربية والاسلامية، كانت تسطير على التربية التي منحت للأجيال الصاعدة قبل قيام الدولة وبعده. لكنه بعد قيام دولة اسرائيل وتزايد الهجمات عليها، وبعد ما بدأ يلوح في الأفق السلام المنشود، بدأت الفجوة بين المثالية والواقع، وزاد الشعور بالاحباط لدى الجمهور، وخاصة في الاوساط التي تشكل قطبي الخارجة السياسية الاسرائيلية.

حسب نظرية هذه الأوساط، لم يكن الخطأ في المثالية، ولا حاجة لدراستها من جديد، انما نحن المذنبون، لأننا انحرفنا عن الطريق الصواب. إذ ان رفض العرب الاعتراف بنا، هو عقاب على خطيئتنا. واذا اصلحنا طريقنا لخاطئة نستطيع تحقيق حلم السلام المثالي، الذي تتوق اليه النفس الاسرائيلية

ان هذا الايمان الشديد، السائد في الاوساط اليسارية الاسرائيلية، ينبع من وعيهم للايمان "بالخيطئة القديمة"، خطيئة "الاحتلال" التي ارتكبتها اسرائيل في حرب الايام الستة. وهذه الاوساط، تتوق بشدة إلى السنوات التسعة عشرة التي سبقت حرب الايام الستة، والتي

كانت اسرائيل تعيش فيها كالطفل "الخداج". انهم قادرون على ان يبعدوا من ذاكرتهم ذلك الخطر الفظيع الذي كان يهدد الدولة، في تلك الأيام، ويتذكرون فقط الوحدة الوطنية القوية التي نـشأت آنـذاك لمواجهـة ذلك الخطر.

حسب نظرية اليساريين الاسرائيليين، كان احتلال الضفة الغربية وغزة وشـمولها باسرائيـل، في اعقـاب حرب الأيام الستة، السبب الرئيس لجعل اسرائيل دولة لا إنسانية، حيث أدى إلى قمع العرب الفلـسطينيين وتلويث النفس الاسرائيلية. واصبحت هذه الادعاءات، نظرية تثبت صحتها، في أعقاب المذبحة التي نفـذها أحد مستوطني كريات أربع ضد المصلين في الحرم الإبراهيمي في الخليل، رغم ان اياً كـان، لم ينتبـه إلى انـه بعـد سـت سـنوات مـن الانتفاضـة والاف العمليـات والاصـابات ضـد المـستوطنين في الـضفة وغـزة، فقـد المستوطنون قدرتهم على ضبط النفس وخرقوا القانون في حالات عديدة.

ويقول اليساريون، انه من أجل انقاذ نفسها، يجب على اسرائيل ان تجري عملية جراحية مؤلمة وتبـتر عضواً من اعضائها، فاذا تخلصت اسرائيل من "المناطق" سيتغير كل شيء فيها نحـو الأفـضل دفعـة واحـدة: سيتحسن الاقتصاد، وتتقلص الخدمة الاحتياطية، تنشأ أمـاكن عمـل لمهـاجرين الجـددن وسـتتوفر الأمـوال الكافية لشق طريق جديد وآمنة.

كانت هذه إحدى الرسائل التي نشرها حزب العمل لدى تسلمه السلطة عام ١٩٩٢، ولا يـزال يحـاول ترسيخ هذه الرسالة في أذهان الجمهور الاسرائيلي. وعلاوة عـلى ذلـك، تنـشر هـذه الادعـاءات في الـصحافة الأجنبية، على شكل مقالات تتحدث عن التأثير السلبي للاحتلال الـذي يتعـرض في ظلـه، الاطفـال والنـساء للتعذيب والتنكيل. ان هذه النظرية تنطوي على استنتاج هو: أُخرجوا من لمناطق وأنقذوا أنفسكم".

ان مؤيـدي هـذه النظريـة، عـلى قناعـة تامـة بأننـا نقـف، في الواقـع، عـلى أبـواب الخـلاص، لكننـا لا نـزال أغبـى مـن أن نـدخلها. وفي المقابـل، يمكننـا العثـور عـلى صـورة طبـق الاصـل لهـذه النظريـة

في اوساط الحركات اليمينية، التي تعتقد ان باستطاعة اسرائيل ان تنعم بالاستقرار الحقيقي فيما لوتخلصت من العرب الذين يعيشون فيها بواسطة "الترانسفير" (الترحيل).

وهكذا، يعتقد اليساريون أنه اذا تخلصنا من المناطق المحتلة سيحل الخير على اسرائيل، في حين تعتقد الحركات اليمينية انه اذا تخلصنا من العرب، سنحقق نفس النتيجة.

ان هاتين النظريتين تدلاّن على عدم وجود رؤية واقعية للواقع السياسي الاسرائيلي، وعلى أحلام كاذبة تنبع من محاولة الهروب من الصراع الصعب المحتوم علينا، نتيجة لوجودنا كأمة بين الشعوب العربية. إن الصراع المستمر، لا يعني بالضرورة حرباً إلى ما لا نهاية. غير انه سيتطلب، بالطبع، جهداً قومياً طويل المدى، وربما ندخل، بين الحين والآخر، في مجابهات دولية شديدة. حتى لو توصلنا إلى انهاء حالة الحرب مع العرب، وأحللنا السلام الرسمي معهم، وحتى لو نتج عن ذلك انخفاض حقيقي في مستوى النزاع العربي – الاسرائيلي فلن تتلاشى نهائياً أخطار الحرب والمجابهات في المستقبل، تماما مثلما لم تنته كلياً النزاعات بين الشرق والغرب، بعد انتهاء الحرب الباردة، ومثلما لم تنته نزاعات أخرى في اماكن أخرى. لذا، لا يمكننا الابتعاد عن صراع البقاء، دون ان نتخلى عن الحياة نفسها. وهذا هو الشيء الذي يصعب على اليهود عامة، والاسرائيليين خاصة، التكيّف معه. فالشعب اليهودي، الغني بالمثاليات، بعدها سري، والآخر علني، لا يزال يفتقر إلى تجارب السنين في السلطة السيادية وادارة حياة دولة، وهي امور مطلوبة لجعل الرؤية السياسية اكثر دقة وحدّة.

ان مثل هذه الأمة، تجد صعوبة في التكيّف مع ظروف واقع السياسة الدولية، فيمول السياسة الاسرائيلية للهروب إلى الخيال، تنبع من عدم قدرة اليهود على التسليم بوجودهم الدائم مع الصراعات، ومع ضرورة الاحتفاظ دائماً بقوة يهودية لمواجهة هذه الصراعات.

مفهوم، أنه بعد عشرات السنين من النزاع الدامي مع العرب، أصبح معظم الاسرائيليين يقبلون بالنظرية القائلة ان القوة العسكرية، هي مؤسسة لا بديل عنها للمحافظة على أمن

اسرائيل، على الأقل، في المستقبل المنظور. غير ان انتصارات الجيش الاسرائيلي بالذات، هي التي شوشت الحقيقة الحاسمة التالية: ان القوة العسكرية لا تكفي لضمان بقاء الأمة، في الماضي، فشل يهود كثيرون نتيجة لعدم قدرتهم على فهم اهمية القوة العسكرية؛ واليوم يفشلون نتيجة للمبالغة في أهمية هذه القوة، باعتبارهم انها القوة الوحيدة المطلوبة لضمان بقاء الدولة، ونتيجة لعدم ادراكهم ضرورة وجود انواع أخرى من القوة، وعدم وجود رؤية شاملة لعناصر القوة لقومية التي ترتكز على طاقات ثقافية واقتصادية وسياسية. ولهذا السبب يبدي كثير من الاسرائيليين استعدادهم للدفاع عن بلادهم بقوة، لصد اي هجوم عسكري، وهذا ينطوي على ميل واضح ومثير للقلق، للانحناء أمام أي ضغط دولي، سياسي أو اقتصادي. إنهم يتساءلون: من نحن الذين سنقاوم العلم كله؟ فاذ كانت الدول العظمى تريد ذلك، فما علينا سوى الرضوخ".

ان فكرة انه يجب على دولة ما ابداء مقاومة شديدة لرغبة الدول العظمة أحياناً، لا تخطر ببال هؤلاء الاسرائيليين. كما ان هناك عددا اقل، أيضاً، يعتقدون بأن مثل هذه المقاومة يمكن أن تعود علينا بالفائدة. ان عادة الانحناء والاستسلام التي اتكسبها الشعب اليهودي طيلة سنوات التشرد، لا تزال سائدة إلى درجة كبيرة على الصعيد السياسي. وكما تنبأ هرتسل في حينه، حيث قال: ان من أصعب التغييرات التي يمكن ان يجتازها الشعب اليهودي هي الاقلاع عن هذه العادات. اذ كتب في يومياته: "ان اصعب شيء سنواجهه هو العثور على دبلوماسيين يهود". لقد ثبت في القرن العشرين، ان القوة السياسية لا تقل اهمية عن القوة العسكرية، في النزاعات الدولية. ها هو هتلر، مثلاً، فهم هذا الأمر جيداً، في حين لم يحاول ضحاياه التشيكيين صد هجومه السياسي: لقد مكنّوه من دفعهم إلى زاوية سياسية في مؤتمر ميونخ، واضطروا اخيراً للاستسلام، دون ان يطلقوا ولو طلقة واحدة.

ولكن، ليس ضحايا العدوان فقط هم الذين يدفعون احياناً ثمن استهانتهم بالقوة السياسية، فالمعتدون ايضاً، قد ينسون احياناً، اهمية القوة السياسية ويدفعون الثمن باهظاً. ها

هو، صدام حسين، مثلاً، لم يأخذ بعين الاعتبار أهمية الرأي العام الدولي، عندما خرج لاحتلال الكويت.

لقد تغلب الجيش العراقي، في غضون ساعات فقط، على الجيش الكويتي، لكن صدام حسين، لم يكن مستعداً نهائياً للصراع السياسي الذي استمر طيلة الشهور الستة التي تلت الغزو. انه لم يستطع اقناع دول العالم بعدالة حربه، ولذا لم يتمكن من منع نشوء جبهة حربية ضده استهدفت انقاذ الكويت. ولو أدرك صدام حسين الخطر السياسي الذي كان ينتظره، لحاول بالتأكيد، ان يمهد للغزو من خلال حملة دعائية محكمة، توفر له خلفية تبرر الاحتلال، كأن يدعي ان حكام الكويت يقمعون شعبهم بوحشية، او ان الكويتيين هم جزء من الشعب العراقي، أو أن الشعب الكويتي سيرحب بالجيش العراقي الذي سيحررهم، وهكذا، ولكن، لأن صدام أهمل ميدان المعركة الدولي، ألحق بنفسه هزيمة مهينة. حيث كان وحيداً على الحلبة الدولية. ولم يهب أحد لمساعدته، وأخيراً نجا صدام نفسه بسبب عدم اصرار الامريكيين، في الساعات الاخيرة، من الحرب. وكما تعلم صدام بالطريقة الصعبة، لكي ينتصر المرء في ميدان المعركة، يجب ان ينتصر أيضاً على حلبة السياسية، ولكي ينتصر سياسياً يجب ان يضمن النصر على صعيد الرأي العام، ولكي يضمن النصر في هذا الصراع، يجب ان يقنع الجمهور بصحة طريقه.

ان مثل هذه الأمور التي تستهدف تجنيد الرأي العام على نطاق واسع وتأييد الجماهير، لا تعتبر زائدة عن الحاجة، وبمقدور اي أمة تعيش حالة صراع، ان تتنازل عنها. ففي ظل المفاهيم الديمقراطية في العالم، وعلو شأن وسائل الاعلام الجماهيرية، أصبح الرأي العام الدولي ميداناً رئيساً، يتم فيه حسم الصراعات السياسية، وبغض النظر عن كون الصراع عادلاً، او ظالماً، يتوجب على كل طرف في صراعات سياسية وعسكرية، ان يحاول اقناع العالم بعدالة هدفه.

ولكي نفهم قوة الرأي العام في عصر وسائل الاعلام الجماهيرية، تكفينا المقارنة بين التأثير المكهرب لخطابات تشرتشل في الحرب العالمية الثانية، التي كان يستمع اليها، عبر الراديو، الملايين من البشر، وتأثير خطاب الرئيس لينكولون في جستبرغ، الذي كان معدوماً تقريباً.

كان خطاب لينكولن، إبان الحرب الأهلية في امريكا، ينطوي على كثير من الايحاء، ولا يقل في فحواه عن افضل خطابات تشرتشل، وهناك من يعتبر أحد الخطابات القوية التي سُمعت في التاريخ، لكن ذلك، استمع اليه عدد قليل من الناس فقط، ولم يكن له اي تأثير على مجريات الحرب الأهلية.

وهناك من يقول أيضا، أنه لو وجدت اذاعة في تلك الفترة، خلال الحرب الاهلية الامريكية، وكان باستطاعة لنكولن بث خطابه عبرها، فلن يكون قادراً على نقله إلى الجماهير بالقوة المطلوبة نظراً لضعف صوتهن خلافاً لصوت تشرتشل الجهوري. لكن كل هذه الأمور، تؤكد الواقع الجديد في القرن الحالي وهو: في الصراعات السياسية والعسكرية، هنالك أهمية بالغة للرسالة القوية، المصوغة كما يجب، والتي يجري بثها عبر وسائل الاعلام بالشكل المناسب.

كثيرون من المتورطين في صراعات دولية في هذه الايام، ادركوا هذا المبدأ، فهذا، ستالين، حاول تقديم نفسه وكأنه منقذ البشرية، وعرض نظام حكمه الاستبدادي امام ملايين الناس على انه ديمقراطية راقية. وقد خلّف هتلر وستالين تركة "الكذبة الكبرى" هذه، لعدد من أنظمة الحكم الاستبدادية والدكتاتوريين الصغار بعدهما، أمثال عبد الناصر، وهوشي منه، وفيدل كاسترو.

لقد استخدم هؤلاء جميعاً نفس التقنية في محاولاتهم للتأثير على أبناء شعوبهم، وعلى حلفائهم، وعلى أعدائهم أيضاً، بغية اضعاف قوة المقاومة لديهم، أو لحملهم على تأييدهم.

فيتنام الشمالية، مثلاً، ادارت اثناء الحرب الفيتنامية حرباً دعائية ضد الجنوب، بحيث عرضت نفسها كنموذج حسن، في حين عرضت الجنوب كنموذج سيء للحكم. كما أن

الحرب الدعائية التي ادارتها فيتنام الشماية، والتي كانت موجهة إلى الرأي العام الامريكي، ساهمت كثيراً في اضعاف رغبة الأمريكيين في مواصلة الحرب.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين، تفوّقت الأنظمة العربية على أي عنصر آخر في استغلالها الدعاية كأداة لخدمة سياستها. لقد ادركت الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية اهمية هذه الاداة وتسخيرها لتحقيق الهدف المشترك وهو القضاء على اسرائيل.

ففي أعقاب انتصار اسرائيل في حرب ١٩٦٧، أدرك العرب انه من أجل اعادة العجلة إلى الوراء، يجب عليهم الحاق الهزيمة باسرائيل على الحلبة السياسية، اي، في الصراع على كسب الرأي العام، ولهذا وجدوا ان عليهم مخاطبة حاسة العدل، لدى الانسان العادي، في العالم الغربين وفي اسرائيل ذاتها. ولهذا السبب، بدأ العرب ينسجون "قناعا واسعاً من الأكاذيب"، التي سبق ان تطرقنا إلى معظمها: الادعاء ان القضية الفلسطينية هي قلب النزاع في الشرق الاوسطن وتحويل السبب إلى المسبب، وعرض منظمة التحرير بأفضل صورة، وغير ذلك.

لقد ركز العرب سعيهم في الدرجة الأولى على تجريد اليهود من كل جانب أو رمز يحتوي على ما يشير إلى عدالة نضالهم، وشوّهوا تاريخ اسرائيل بصورة مدهشة، وزرعوا بدلاً منها تاريخاً فلسطينياً كله من نسج الخيال، والأكاذيب: حل العرب مكان اليهود في كونهم أبناء هذه الارض منذ بدء الخليقة، في حين ان اليهود احتلوا مكان العرب في الدور التاريخي "لغزاة" الاجانب؛ وأُستبدل الشتات اليهودي، "بشتات" فلسطيني فظيع.

كل هذه الأمور، استهدفت اقناع شعوب العالم بأن اسرائيل ألحقت ظلماً شديداً بالعرب، وأنهم، أي العرب، يحاولون رفع هذا الظلم فقط، وان اهل المنطق في كل العالم، يجب ان يساعدوهم على رفع هذا الظلم.

ومقابل العرب الذين بدأوا معركة منهجية ومستمرة لكسب الرأي العام، هجرت اسرائيل كلياً تقريباً، هذا الميدان وما أثقل على اليهود بشكل خاص، كان عدم خبرتهم في

الحلبة الدوليـة النـابع مـن انقطـاعهم الطويـل عـن حيـاة الدولـة. كـما ان التركيـز الاسرائـيلي عـلى القـوة العسكرية، كان خطأً. إذ بقي الاسرائيليون سنوات عديدة يؤمنون بعدم ضرورة الرد على الدعاية العربية.

ألم ينقذ الجيش اسرائيل من الدمار في عام ١٩٤٨ و ١٩٦٧؟ وألا يستطيع ان يفعـل هـذا مـرة أخـرى؟ وحتى لو واصل العرب "الكذب" في الأمم المتحدة ووسـائل الاعـلام والجامعـات الغربيـة. هـل يجـب عـلى اسرائيل ان تزعج نفسها بهذه التفاهات، طالما توجد لديها قوة عسكرية قادرة على صد هجماتهم؟

بهذا المعنى تماماً، جاءت اقوال بن غوريون في احدى المـرات وهـو يخاطـب الأمـة الفتيّـة في سـنوات الخمسينات: "ليس مهماً ما يقوله الغرباء، بل ما يفعله اليهود".

لقد صدق إلى حد ما في قوله هذا، إذ دون عمـل يهـودي لا يمكـن ترسـيخ الدولـة. ولكـن دون دعـم سياسي دولي، سيكون من الصعب المحافظة على مكاسبها. لذا فان ما يقوله الغرباء، قد يكون بالغ الأهمية في ظروف معينة، ويجب ايجاد طرق للتأثير على مـا يقولونـه. كـما ان بـن غوريـون. ارتكـب خطـأ فاحـشاً عندما استهام بأهمية الرأي العام الدولي، بعد ان احتل الجيش الاسرائيلي سيناء عام ١٩٥٦، حيث أعلن بن غوريون آنذاك، ان اسرائيل ستبقى في سيناء ألـف سـنة، لكنـه لم يفعـل شـيئاً لكـسب التأييـد الـسياسي في اوساط الرأي العام الأمريكي، الذي كان بحاجة ماسة له، لاضعاف معارضة الرئيس الامـريكي ايزنهـاور لهـذه الخطورة. لذا أُغرم على الانسحاب من سيناء ومن قطاع غزة، انسحاباً سريعاً بعـد بـضعة اشـهر فقـط مـن الحرب.

ان ايمان الاسرائيليين بتفوق قوتهم العسكرية بالذات، هو الذي قلص جهود اسرائيل كي تضمن لنفسها أحلافاً سياسية، التي بدونها يصعب على أيـة أمـة، وبخاصـة اذا كانـت أمـة صـغيرة، العمـل عـلى الـساحة الدولية.

من هنا، ينبع الرأي السائد حالياً، بأن مصير اسرائيل قد حُسم وحُكم عليها بالعزلة، وان العالم كله ضدنا، واننا لا نستطيع ان نفعل شيئاً بهذا الشأن، وانه لا توجد لاسرائيل طريقة اخرى، سوى تعبئة قوتها (العسكرية) لمواجهة الضغوط التي تُمارس عليها، أو حسب نظرية اليسار الاسرائيلي، الاستسلام، والرضوخ لكافة المطالب العربية، لتحظى بشعبية قصيرة المدى.

غير ان حقيقة تعرّض اسرائيل، اكثر من مرة في تاريخها، للعزلة المطلقة، لا تستوجب ان يكون الوضع هكذا، دائماً. فدول العالمن تقرر عقد الاحلاف السياسية، وفقاً لمصالحها الآنية، وفي الدول الديمقراطية – حسب ميول الرأي العام ايضاً.

ولهذا، تستطيع اسرائيل ان تعمل على هاتين الجبهتين معاً – جبهة المصالح، وبجهة الرأي العام – لكي تقنع حكومات دول كثيرة وشعوبها أيضاً، بأن دعم اسرائيل له ما يبرره، ومناسب أيضاً لهذه الدول. لن يؤدي هذا إلى كسب كل دول العالم إلى جانب اسرائيل، ولا حتى معظمها، لكنه يكفي لكسب قسم منها إلى جانبنا، وتخفيف عداء القسم الآخر لنا. كانت هذه هي بالضبط، نظرية هرتسل عندما سعى بنجاح لكسب التأييد للصهيونية، لم يدركوا عمق نظريته ولم يطبقوها بنجاح، ربما لان هرتسل كان احد اليهود الاقلاء من أبناء جيله، الذين ادركوا كيفية ادارة هجوم دبلوماسي ومعركة على الرأي العام، ونفذ ذلك بكفاءة. غير ان هرتسل توفي ولم يترك وراءه تلاميذ يسيرون في طريقه. فمعظم الزعماء الصهاينة الذين جاءوا بعده، سلّموا تقريباً، ودون مقاومة تذكر، بالظلم الذي تعرض له اليهود على أيدي البريطانيين، في الفترة بين الحربين العالميتين، كان معظمهم يعتقدون ان اليهود غير قادرين على مصارعة دول عظمى مثل بريطانيا، رغم ان الرأي العام البريطاني، ومن ثم الامريكي، كان متعاطفاً للغاية مع الحركة الصهيونية.

كان جيبوتنسكي، هو الوحيد، من تلاميذ هرتسل، الذي فهم أهمية المقاومة السياسية، وقال انه من الممكن، ويجب، مقاومة الضغوط التي تتعرض لها الصهيونية. وأكد جيبوتنسكي

أهمية ما أسماه "نظرية الضغط الجماهيري" إلى جانب بناء القوة العسكرية اليهودية التي تتولى حماية السمتوطنين اليهود.

ان السياسة لا تتحمل الفراغ: إذ مارس أحد الاطراف الضغط السياسي والدعائي، في حين بقي الطرف الثاني مكتوف اليدين، سيضطر الطرف السلبي للرضوخ للضغط في نهاية الأمر. قال جيبوتنسكي ان الطريق الوحيد المتوفرة للشعب اليهودي هي مقاومة الضغط الذي تتعرض له الصهيونية، بممارسة ضغط مضاد يكون موجهاً ضد الحكومات الاجنبية، وجماهير المواطنين فيها. ومن أجل القيام بذلكن يجب ان يبدي اليهود روحاً قتالية في المعركة السياسية، لا تقل عن تلك المطلوبة في المعركة العسكرية.

وجيبوتنسكي، شأنه شأن هرتسل، مات دون أن يفهمه كثير من الصهاينة. لقد مات جيبوتنسكي صغيراً نسبياًن عندما كان يعمل في الولايات المتحدة عام ١٩٤٠ في مجال الاعداد لمعركة اعلامية استهدفت اقناع الرأي العام الامريكي بعدالة المطالبة باقامة دولة يهودية. لقد أدرك معظم السائرين في طريق جيبوتنسكي افكاره العسكرية والاقليمية، لكن قليلاً منهم فقط، هم الذين أدركوا المبدأ الثالث، السياسين في نظريته: "ضرورة بذل جهود متواصلة من الاقناع وممارسة الضغوط على الساحة الدولية، بغية الدفاع عن مصالح الشعب اليهودي".

لقد قامت حكومات الليكود في اسرائيل والتي حذت حذو جيبوتنسكي في نواح عديدة، بجهود متواصلة على الصعيد الدولي، ولكن بصورة جاءت مناقضة تماماً للمبادئ المذكورة آنفاً. لقد نفذت حكومات الليكود عدة أعمال بالغة الأهمية، لكنها لم تفعل شيئاً لاقناع العالم بعدالة هذه الأعمال. إذ أن هذه الحكومات. ابدت اصراراً وجرأة في أعمالها، لكنها لم تحاول توضيح الضرورة والمنطق في هذه الأعمال، لكي يعترف الجمهور في اسرائيل والعالم، بضرورتها وفائدتها.

ببساطة، نقول، ان ضرورة كسب الرأي العام، لم تكن مسألة ذات اهمية في نظر حكومات الليكود، لذا لم توجد الوسائل المطلوبة لتحقيق هذا الكسب على الساحة الدولية.

هنالك نموذج بارز جداً لهذا السلوك، يتمثل في هجوم سلاح الجو الاسرائيلي على المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١. كانت تلك العملية، هدفاً للانتقاد والشجب من كل مكان في العالم تقريباً، لان اسرائيل لم تفعل شيئاً ضد الدعاية العربية والانتقادات الغربية للهجوم. وعندما غزت اسرائيل لبنان، عام ١٩٨٢، ارتبكت خطأ فاحشاً: فبدلاً من ادارة حرب دعائية، عملت اسرائيل العكس تماماً، حيث فرضت على نفسها صمتاً اعلامياً في الايام الأولى والحاسمة للحرب، وبذلك، مكنت اعداءها من غمز العالم بوجهات نظرهم المشوّهة لما يجري. فقد اختفتن من الصورة، التي عرضتها وسائل الاعلام العالمية حقيقة ان مستوطنات شمال اسرائيل كانت تعاني من قصف وهجمات "الارهابيين" التابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية، طيلة عشر سنوات كاملة. وان جيلاً كاملاً من الاطفال الاسرائيليين نشأ في الملاجئ؛ وان سكان المدن الاسرائيلية الشمالية بدأوا يهجرون منطقة الحدود مع لبنان. كما لم تُذكر أيضاً. أعمال القتل والاغتصاب والسلب التي ارتكبها رجال منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان، خلال السنوات العشر التي سبقت الحرب، وحقيقة انه، حتى المسلمين الشيعة، في جنوب لبنان، استقبلوا جنود الجيش الاسرائيلي بالترحيب.

عندئذ قفزت منظمة التحرير الفلسطينية إلى هذا الفراغ في الاعلام العالمي، وأكثرت من نشر القصص والروايات الملفقة حول جرائم الاسرائيليين في جنوب لبنان. فقد نجحت المنظمة، على سبيل المثال، في اقناع وسائل الاعلام العالمية، ان الهجوم الاسرائيلي على جنوب لبنان ترك حوالي ٦٠٠ألف نسمة دون مأوى (ولم ينتبه احد إلى ان هذا الرقم يزيد على عدد سكان المنطقة). وعندما رفعت اسرائيل ستار التعتيم التي فرضته على نفسهان كانت تلك "الاكاذيب"، قد أصبحت حقائق ثابتة، لدرجة ان افضل اصدقاء اسرائيل، صعب عليهم تأييدها. وهكذا كانت المعركة السياسية فاشلة قبل ان تبدأ. لكن النتائج كانت أخطر بكثير. فاذا كان هناك شيء ما لا يزال عالقاً في اذهان العالم، من حرب لبنان، فهو المذبحة التي ارتكبها مسيحيون لبنانيون ضد مئات الفلسطينيين في مخيمي اللاجئين صبرا وشاتيلان

القريبين من بيروت. ان جنود الجيش الاسرائيلي لم يرتكبوا تلك الجريمة البشعة، بل نفذها عرب جاءوا للانتقام لمقتل الرئيس المسيحي المنتخب للبنان. بشير الجميل. ولم تشترك قوات اسرائيلية في المذبحة، كما لم تمهد لها، حتى انها لم تعلم بها. وقد أوصت لجنة التحقق برئاسة رئيس المحكمة العليا الاسرائيلية القاضي كهان، باقالة وزير الدفاع اريئيل شارون، لانه لم يعلم بان المذبحة ستحدث فقط. كان رأي لجنة التحقيق هو انه بحكم وظيفته كان يجب عليه ان يتوقع قيام المسيحيين بارتكاب هذه المذبحة وكان من واجبه منع وقوعها. لكن الدعاية العربية، بدعم من اليسار الاسرائيلي، خلقت الانطباع بان اسرائيل المعتدية، انحطت إلى الدرك الاسفل، وارتكبت مذبحة بحق عرب ابرياء.

تركت تلك الحرب آثاراً ملموسة، اذ لم يدرك الجمهور في الدولة الغربية ان العملية الاسرائيلية في لبنان، أنزلت ضربة قاصمة بالارهاب الدولي، بل على العكس، اعتبرها حرباً عديمة المنطقة وليس لها اي مبرر. ولذا زادت معارضة الدول الغربية للعملية الاسرائيلية في لبنان، وزاد أيضاً الضغط على اسرائيل لمنعها من القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، بعد ان حاصرتها قواتها في غرب بيروت.

فالعالم الغربي، الذي اختطف رجال منظمة التحرير الفلسطينية طائراته ومواطنيه وقتلوا ممثليه، أصبح يكافح الآن من اجل انقاذ المنظمة من ايدي الجيش الاسرائيلي. واخيراً رضخت اسرائيل للضغوط الغربية. وغادر بيروت عشرات الالاف من "القتلة" مع اسلحتهم، ونُقلوا إلى مكان آمن في تونس (كمرحلة انتقالية في طريق العودة إلى غزة واريحا بعد ١٢سنة).

كان أهم حدث في حرب لبنان، أبرز أهمية الصراع السياسي، هو قضية الرئيس الامريكي ريغان والطفلة الفلسطينية مبتورة اليدين، فبعد ان طرد الجيش الاسرائيلي قوات منظمة التحرير الفلسطينية من جنوب لبنان، بدأ عملية قصف انتقائية وحذرة على معقل المنظمة الاخير في غرب بيروت. وكان الهدف ارغامها على الاستئسلام وتجنب الخسائر البشرية الجسيمة، التي كانت ستلحق بالطرفين فيما لو تم اقتحام المدينة. وفي ذروة حصار بيروت،

عُرضت على الرئيس ريغان صورة لطفلة فلسطينية صغيرة فقدت ذراعيها نتيجة للقصف الاسرائيلي. عندئذ اتصل ريغان، وهو بحالة تأثر وغضب شديدين، برئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن، وأبلغه بأن القصف الاسرائيلي يجب ان يتوقف فوراً. واستجاب بيغن لهذا الطلب.

في تلك الايام، كنت اعمل بوظيفة سكرتير سياسي في سفارة اسرائيل بواشنطن. وعندما شاهدت الصورة طلبت تكبيرها. وكلما زاد تكبير الصورة، زاد الشك لدي بأنها مزيفة، اي انها صورة لم تلتقط أثناء الحرب نهائياً. وأخيراً طلبت من قيادة الجيش الاسرائيلي في بيروت العثور على الطفلة. وبعد بضعة ايام عُثر عليها، وتبين فعلاً انها مصابة ولكن منذ سنوات عديدة قبل الحرب – في الحرب الاهلية في لبنان – أي ايدي عرب. ولكن لم يكن آنذاك بالامكان اصلاح ما حدث. فقد تغلغلت حقيقة وحشية اسرائيل في وعي ملايين الناس في الولايات المتحدة وفي العالم كله.

بعد كل هذه الاحداث، كان من المتوقع ان تعترف اسرائيل بحقيقة عدم الفصل بين السياسة والاعلام. لكن هذا لم يحدث.

في دول اخرى، يعتبر هذا الامر مفهوماً في حد ذاته. فالرئيس الامريكي ومعظم زعماء العالم لم يتخذون بشكل عامن قرارات ذات اهمية قبل ان يفحصوا الرد المتوقع على قراراتهم لدى الرأي العام العالمي (والرأي العام داخل بلدانهم، بالطبع).

في حقيقة الامر، يشمل اجراء اتخاذ القرارات، مناقشة مستفيضة للسؤال: "كيف يمكن ان يرد الجمهور على هذا القرار، وما الذي يجب عمله لكي يكون الرد ايجابياً". ان هذا المبدأ، يمكن ان تتجاهله الدول الكبرى، في بعض الاحيان، لكن دولة صغيرة، يتوقف وجودها إلى درجة كبيرة على نظرة دول العالم اليها، لا يحق لها بأي حال من الأحوال، تجاهله. ربما تضطر دولة ما لاتخاذ قرارات من المتوقع ان لا تلقى التأييد المطلوب، الا انه لا يوجد ما يمنعها من

محاولة تقليص المعارضة إلى ادنى حد ممكن بوسائل مختلفة. لكن الوضع في اسرائيل، وبخاصة حسب نظرية اليساريين، فان الاسلوب السائد هو ان الطريقة الوحيدة لكسب تعاطف العالم مع اسرائيل في النزاع العربي – الاسرائيلي، هو قبول املاءات العرب.

ان اسرائيل، التي اكتشفت قوتها العسكرية، لا تبدي نفس القدرة السياسية المطلوبة لاستمرار بقائها في عالم متغير وخطير. لذا يجب علينا احداث تحول بعيد المدى في الصراع الاسرائيلي على هذه الحلبة، وعرض مواقفها وسياستها بصورة مختلفة عن تلك الصورة التي عُرضت بها حتى اليوم.

خلافاً للنظرية المألوفة، لا توجد مشكلة اعلامية تقتصر على تزويد صورة معينة، لعرضها على شاشات التلفاز. اذ ان قدرة العدو على خلق الأمور واضحة بواسطة الصيغ اللغوية، تعتبر المرحلة الحاسمة الأولى في اي جدل سياسي، وتُحسن هذه المرحلة، بشكل عامن بواسطة الصحيفة والكتاب في كثير من الاحيان، قبل وصولها إلى شاشات التلفاز.

فخلال السنوات التي عملت فيها كممثل لاسرائيل في الولايات المتحدة، تبين لي، انه خلافاً لما يعتقده الكثيرون، فان كلمة واحدة تساوي احياناً، من حيث قيمتها ألف صورة: مثلاً، الاصطلاحات "احتلال اسرائيل"، "شعب مشرد"، "أرض عربية"، "أراض مقابل السلام"، وما شابه ذلك، قدمت خدمة للعرب، اكثر من كل صورة الانتفاضة مجتمعة.

لقد بذل العرب جهوداً كبيرة، في نشر المقالات، والرسائل الصحفية والكتب، والنشرات الاعلامية ضمنوها صيغاً لغوية، تظهر ان مقاومتهم لاسرائيل عادلة واخلاقية.

لذا يتوجب على اسرائيل شن حملة واسعة النطاق لانقاذ نفسها من المصيدة التي وقعت فيها، بسبب عدم مبالاتها. يجب عليها تفنيد "الاكاذيب" العربية، من خلال طرح الايضاحات والحقائق التي لا تقبل التأويل ونشرها في الصحف والنشرات والكتبن في الغرب، وفي سائر أرجاء العالم. يجب على اسرائيل ان توضح للجميع، قاعدة حق اليهود في

هذه الارض، وتاريخ النزاع العربي – الاسرائيلي، واهداف وتكتيك اعدائها، والشروط المطلوبة لاحلال سلام دائم وحقيقي في المنطقة.

عندما أؤكد على أهمية الكلمة المكتوبة في الصراع ضد من يحاول تشويه سمعة اسرائيل، لا أقصد بالطبع، التقليل من أهمية الكلمة المذاعة، وبخاصة عبر شاشة التلفاز. فكما اتضح خلال حرب الخليج، كانت شبكات التلفزيون الدولية، المصدر الرئيس للمعلومات، سواء للزعماء أو الجمهور. إذ أن ما شاهده جورج بوش ع لى شاشة التلفاز في البيت الابيض، شاهده صدام حسين في فندقه تحت الأرض في بغدادن وشاهده ميخائيل غورباتشوف في الكرملين، واسحق شمير في مكتب رئيس الحكومة في القدس، وكان لما عُرض وسُمع عبر هذه الشبكات، تأثير فوري على وجهات نظر زعماء العالم، وعلى مواطني الدول الحرة. فإذا كان للرأي العالم الدولي أهمية كبيرة في النصف الأول من هذا القرن، فان أهميته الآن لم تكن تخطر ببال أحد، قبل ثلاثين او أربعين سنة. لذا، فان اسرائيل التي تواجه عواصف سياسية كثيرة ومتلاحقة، لن تستطيع الاستمرار في ادارة شؤونها السياسية والدبلوماسية، في ظل تجاهل هذا العنصر بالغ الاهمية. ولكي تفند "الاكاذيب" التي تلصق بها، يجب على اسرائيل ان تجند أفضل العقول والكتاب لخدمتها.

وهذا الأمر يستوجب "تحسيناً عاما" في مكاتب الحكومة ذات العلاقة بمسألة الاعلام مثلاً: يجب إعادة النظر في تعريف واجب الشخص الدبلوماسي. وتعيين الدبلوماسيين حسب الكفاءة،وحسب قدرتهم على الظهور أمام وسائل الاعلام في البلاد التي يعملون بها. كما يجب اعادة النظر في المخصصات المرصودة لاغراض اجراء الدراسات والبحوث والاصدار، والابقاء على علاقات مناسبة مع وسائل الاعلام. والأهم من هذا كله، يجب ادراك مبدأ، انه لا يمكن النجاح في الصراع السياسي الدولي دون كسب تأييد الرأي العام الدولي. والغريب في الأمر، ان اليسار الاسرائيلي غير القادر على هضم هذه الحقيقة، على الصعيد الدولي، يفهمها جيداً ويطبقها بأدق تفاصيلها على الصعيد القومي. فاذا كانت هنالك جهة يحاول

اليساريون السيطرة عليها بصورة كاملة، فهي وسائل الاعلام الاسرائيلية. إذ لا توجد صحيفة، أو قناة تلفزيونية، أو دار نشر كتب او نشرة اعلامية، تخلو من وجود دائم لليساريين فيها. ان معظمهم يسيطر، بصورة عملية، ولا يترددون في استخدام هذه القوة، لرسم أفكار ووجهات نظر المواطنين في اسرائيل، والحسم في مواضيع سياسية هامة. لكن، ما يبدو لهم مفهوماً داخل اسرائيل، يعتبر في نظرهم؛ لا لزوم له، أو غير ممكن تحقيقه خارج حدودها. ما السبب وراء هذا التناقض؟ في نظر الكثيرين من اليساريين، لا حاجة أصلاً، لبذل جهد سياسي دولي، لانهم يعتقدون بأنه إذا انتهجت اسرائيل السياسة "الصحيحة"، سيضمها العالم فوراً إلى أحضانه. والتفسير العملي لهذه النصيحة، هو التخلص من "المناطق المحتلة" التي يكرهونها، لأنهم يعتقدون بأن كل ما تتعرض له اسرائيل الآن، مصدره "الكارثة" التي أصابت اسرائيل في حرب الأيام الستة، عندما سيطرت على هذه المناطق. لقد نسي اليساريون الحروب الفظيعة التي خاضعها العرب ضد اسرائيل في السنوات التي سبقت حرب الايام الستة. ويمحون من ذاكرتهم الخطر الجسيم الذي كان يهدد اسرائيل عشية تلك الحرب، وحقيقة ان تلك الحرب شنها العرب عليها، انطلاقاً من جبال الضفة الغربية.

كما يرفض اليساريون التطرق إلى امكانية ان لا تتوقف مطالب العرب من اسرائيل، عند اخلاء الضفة الغربية وغزة (مثلما لم تتوقف عند اخلاء سيناء).

إنهم لا يفكرون بأنه بعد سقوط المناطق التي احتلتها اسرائيل في حرب الايام الستة، بأيدي العرب، سيطالبونها بالقدس الشرقية، وبحق العودة، وباستقلال عرب الجليل والنقب، وما شابه ذلك، سلسلة لا تنتهي من الطلبات، التي ستعرض اسرائيل لخطر فادح، ستضطر اخيراً لدفع هذا الخطر باللجوء إلى الدفاع عن وجودها بالذات، ان الحاجة لادارة معركة سياسية – اعلامية لكسب تأييد العالم، لن تتلاشى حتى لو تغيرت الظروف السياسية.

إن العالم الذي اعتاد رؤية اسرائيل كمعتدية، سيصفق لها على كل انسحاب تقوم به من المناطق حسبما يطلب العرب. وستحظى اسرائيل بالثناء والتربيت على اكتافها، طالما ظلت

تقدم التنازلات من طرف واحد، غير انه في اليوم الذي تقرر فيه حكومة اسرائيلية ما – ولا بد ان يأتي هـذا اليوم – بأن عليها ان ترسم خطاً لا تستطيع الانسحاب منه، ستتوقف فوراً صيحات التأييد، ليعود الـضغط الدولي عليها من جديد.

مخطئ، كل من يدعي بأن مشاكل الاعلام الاسرائيليـة، سـتُحل مـع انـشاء الدولـة الفلـسطينية. إذ ان العرب سينمون الفارق القومي في اوساط العرب في اسرائيل المقزّمة، وعندئذ ستواجه الدولـة خطـراً يهـدد وجودها، وورطة اعلامية في آن واحد.

ان الاسرائيليين الذين لا يولون أهمية لتأثير الرأي العام، يعتقدون، بـشكل عـام، ان المطالـب العربيـة هي عادلة من البداية. وهذا هو نوع خاص لعقـدة المطـاردة: "اذا كـان اعـدائي يطـاردونني، فيبـدو أننـي أسأت لهم. واذا كان اعدائي يطلبون مني – مقابل فك الحصار عني – ان افتح لهم ابواب جـداري الـواقي، يجب ان افتحها، لكي اتحرر من عبء الحصار الثقيل".

وبغية تبرير هذا الاسلوب، يطرح مؤيدو الاستسلام كل انواع الادعاءات اتي يمكن ان تساعدهم مثل: "العدو لم يعد عدواً"، والجدار الواقي لم يعد واقياً" وما شابه ذلك.

وإذا لم يقبل أحد بهذه الاقوال، يمكنهم الادعاء دائماً بأنه طرأ "تغيير د\راماتي" في العالم المحيط بنـا. ألم يطرأ في تاريخ الانسانية تحوّل حقيقي، بحيث جعل الاعداء اصدقاء؟ فلماذا يجب ان تبقى اسرائيل بالذات ظاهرة شاذة سيئة؟ إذاً فلنفتح الابواب، ونعانق اعدائنا، ونعيش معاً بهدوء وسعادة من الآن والى الأبد.

ان مثل هذا الادعاء، محبب بشكل خاص، لدى مؤيدي "الشرق الاوسط الجديـد" الـذين يـدعون بـأن ثـورة البروسـترويكا في الاتحـاد الـسوفياتي الـسابق، وسـقوط نظـام التمييـز العنـصري في جنـوب افريقيـا، وتغييرات كثيرة أخرى شهدها العالم، تبرهن على ان الشرق الأوسط أيضاً، يقف على عتبة عهد جديد، عهـد السلام.

ان حقيقة حدوث تغييرات معيذنة في مناطق عديدة من الكرة الارضـية، لـيس بمقـدورها الاثبـات ان نفس الشيء يمكن ان يحدث في الشرق الأوسط.

صحيح ان أنظمة متطرفة، كالنظام السوري، أُرغم على الجلـوس إلى مائـدة المفاوضـات مـع اسرائيـل، بعد سقوط راعيه السوفياتي، وان أنظمة أخرى أكثر اعتدالاً، تجرأت على انشاء علاقات علنيـة مـع اسرائيـل بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وهزيمة العراق، غير انه ومن نواحٍ عديدة، تغيّر الوضع في منطقتنـا إلى الاسـوأ بالذات، أو على أية حال، لم يحدث فيه تحسّن. على تغيّر صدام حسين إلى الأفضل؟ أو القـذافي؟ هـل يبـدو في الأفق ثورة ديمقراطية في العراق؟ أو في ايران؟

لم يحدث أي تحوّل على الأنظمة الدكتاتوريـة في الـشرق الأوسـط. فمـشترياتها مـن الاسـلحة الـشرقية والغربية آخذة في التزايد، ولم تعـد بحاجـة إلى موافقـة الاتحـاد الـسوفياتي للخـروج في مغـامرة عـسكرية. والأخطر من هذا، هو أن تطوير الاسلحة النووية في ايران، يتقدم بسرعة، والتعـصب الاسـلامي يـزداد قـوة ونشاطاً.

ولكن، يبدو ان أياً من هذه الأمور، لا يزعج أولئك الذين يدعون بأنها مجرد محاولة لتـشويه الـصورة النقيّة للواقع الذي يرونه في مخيلتهم.

أحياناً، يعرض هؤلاء الاسرائيليون، أنفسهم، صيغة مختلفة لتبرير يأسهم. يقولون، ما الفائدة من رفض مطالب العرب، اذا كانت الولايات المتحدة، وبقية الدول العظمـى في العـالم، تؤيـد هـذه المطالـب بـصورة مطلقة؟ إنهم لا يفكرون أبداً بـأن مهمـة الزعامـة الاسرائيليـة هـي اقنـاع الادارة الامريكيـة، بـأن مـصلحة الولايات المتحدة تلزمها بانتهاج سياسة تتناسب والمصالح الاسرائيلية وليس العكس.

ان مــن يؤيــد وينــادي بهــذا الموقــف الاستــسلامي الــذي ذكرتــه آنفــاً، لا يــدرك ان الولايــات المتحــدة دولــة ديمقراطــي فيهــا عــدة قــوى فاعلــة ومــؤثرة عــلى رســم الــسياسة الامريكيــة: الادارة،

الكونغرس، وبخاصة الرأي العام، وان كل واحد من هذه العناصر، منفتح للحوار والاقناع، والنقاش. وبالتالي فان لاسياسة الامريكية تجاه اسرائيل تتقرر بناء على مزج لمواقف هذه القوى مجتمعة، ولدى اسرائيل الفرصة الممتازة لمحاولة اقناع كل واحد من هذه العناصر، بعدالة قضيتها.

هنالك دول قضاياها ليست عادلة، تحاول الاقناع، فلماذا لا تفعل اسرائيل أيضاً؟ غير ان هذا هو بالضبط ما حدث في الثلاثينات، عندما وقف الشعب اليهودي مكتوف اليدين ولم يناضل في سبيل عدالة مطالبه، في وجه السياسة البريطانية المعادية، ولم يحاول تجنيد الرأي العام البريطاني الذي كان آنذاك يتعاطف مع الصهيونية. واليوم أيضاً، يوجد في اسرائيل تيار يعارض أية مقاومة اسرائيلية للضغط الامريكي، خشية ان يؤدي هذا إلى تعكير صفو العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة.

ان هذا منطق أعوج، إذ لا يجوز أبداً لارسائءيل ان تضحي بمصالحها الحيوية في سبيل المحافظة على علاقات تكمن اهميتها في قدرتها على ضمان هذه المصالحن وليس التضحية بها.

ان الكثيرين من الاسرائيليين، يميلون إلى نسيان ان اسرائيل لم تحصل على مساعدة امريكية في الفترة ما بين ١٩٤٨ – ١٩٦٧، تلك الفترة التي بدت فيه اسرائيل دولة ضعيفة يهددها الخطر.

لقد بدأ الدعم الأمريكي الواسع لاسرائيل، بعد حرب الايام الستة فقط، بعدما تبين، دون أدنى شك، ان اسرائيل، هي أقوى دولة عسكرية في الشرق الاوسط. وان من يطالب باستمرار بالعودة إلى حدود عام ١٩٦٧ الخطيرة، ينسى هذه الحقائق، ويدعي ان استمرار التمسك بالمناطق المحتل، هو الذي سيعرض الدعم الامريكي للخطر. لا شك بأن اصرارنا على البقاء في الضفة الغربية سيؤدي إلى خلافات مع الولايات المتحدة، لكنه في الواقع ل يوجد شيء يمكن ان يعرض للخطر الدعم الامريكي لاسرائيل على المدى الطويل، أكثر من

اعادة اسرائيل إلى وضعها الهش. عندئذ لن تجد اسرائيل دولة في العالم تقف إلى جانبها وهي ضعيفة خائرة القوى، تماماً كما كان وضع الشعب اليهودي، قبل قيام الدولة.

كذلك الأمر بالنسبة للضعف الاقتصادي. فاسرائيل الضعيفة اقتصادياً، لا تنجح على عقد الاحلاف معها سواء اقتصادية او سياسية. لكن، عندما تتخلص اسرائيل من القيود السياسية والبيروقراطية التي تحول دون تحقيق نمو اقتصادي، ستصبحن في اسرع وقت، دولة اقتصادية عظمى، الجميع يخطبون ودها، مثلما حدث لتايوان، وكوريا الجنوبية: لقد استطاعت هاتان الدولتان التغلب على عزلتهما السياسية من خلال تعاظمهما الاقتصادي.

علاوة على هذا، وبما ان هناك امكانية معقولة بأن تتقلص المساعدات الامريكية لاسرائيل في السنوات القادمة، او ربما تتوقف نهائياً (لاسباب امريكية داخلية لا علاقة لها بالشرق الاوسط) فمن الافضل ان تبدأ اسرائيل باجتذاب الاستثمارات اليها من الولايات المتحدة، بدلاً من الاعتماد على التبرعات فقط. الأمر الذي سيجعل للولايات المتحدة مصلحة محددة في اسرائيل، ربما ستكون أقوى مما كانت عليه ابان الحرب الباردة.

هنالك من يعتقد انه من اعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي وتحييد تهديديه للمصالح الغربية في المنطقة، تقلصت كثيراً، أهمية اسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة. لكنني لا أشاركهم هذا الرأي. لقد استبدل انهيار الاتحاد السوفياتي، خطراً، بخطر أشد.

لقد حرص السوفيات على كبح الدوافع العدوانية لدى الدول التابعة لهم، وكانوا دائماً يعرفون كيف ينسحبون في المرحلة المتقدمة من صراع خطير ربما كان سيؤدي إلى مجابهة مباشرة مع الولايات المتحدة. فمثلاً، امتنع الاتحاد السوفياتي دائماً على السماح لوصول التكنولوجيا النووية لأنظمة الحكم الحليفة له، لأنه كان يدرك جيداً، حجم الخطر الذي ينطوي عليه تسليم حكام مغامرين امثال صدام حسين والقذافي، اسلحة مدمرة كهذه. لكن هذا هو الخطر الذي لا زال يهدد العالم حالياً. فايران والعراق، وربما سوريا أيضاً، تبذل جهوداً حثيثة لتطوير قنابل نووية، وصواريخ تستطيع حمل هذه القذائف إلى اهدافها. كما ادى

انهيار الاتحاد السوفياتي، إلى تمكين أنظمة الحكم العسكرية في الشرق الأوسط من التزود بالاسلحة دون رقابة، ولم يعد في المنطقة عنصر قادر على كبح طموحاتهم العدوانية سوى اسرائيل. فاسرائيل، تعتبر عنصراً مساعداً على تثبت الاستقرار في منطقة مضطربة. ولكن ليس اسرائيل الضعيفة، التي ستكون غارقة، طيلة الوقت في محاولات للمحافظة على بقائها، تكرّس كل مواردها وطاقاتها من أجل الدفاع عن حدودها الهشّة. إذ ان اسرائيل كهذهن لن تكون مؤهلة للقيام بدورها في ردع الدوافع العدوانية لدى أنظمة الحكم الدكتاتورية في الشرق الأوسط، كما أن صعود نجم ايران كمركز عالمي لنشر التعصب الديني الاسلامي، ينطوي على اخطار لم يسبق ان عرفنها إبان الحرب الباردة.

كل هذه الأمور، هي أخطار حقيقية، لم تختفي من العالم، مع اختفاء التهديد السوفياتي، وقد تزداد خطورة في السنوات القادمة. وهنالك مصلحة اسرائيلية مشتركة مع دول اخرى كثيرة، في دفع هذه الاخطار، وهذا القاسم المشترك، قد يشكل قاعدة لاحلاف سياسية ذات أهمية في المستقبل.

لكن، مع انهيار الدولة السوفياتية، برزت مجالات أخرى لمصالح متبادلة كانت سرية حتى الوقت الأخير. إذ أن دولاً عديدة لم تكن تقيم علاقات دبلوماسية مع اسرائيل، أو انها كانت قطعت علاقاتها معها بعد حرب الايام الستة وحرب "يوم الغفران"، أنشأت علاقات مع اسرائيل بزعامة حكومة الليكود في الفترة ما بين ١٩٨٨ – ١٩٩٢: الصين، روسيا، الهند، نيجيريا، وغيرها، حوالي ثلاثين دولة (وهناك دول أخرى عديدة أعادت علاقاتها مع اسرائيل، بعد تولي حكومة العمل في ١٩٩٢).؟

كانت العملية الديمقراطية التي تشهدها دول اوروبا الشرقية، احد اسببا هذا التغيير، لكن هناك دافعاً قوياً ومهماً آخر، كان وراء تدفق الدبلوماسيين والزعماء من هذه الدول، على اسرائيل، هو تقديرهم بأن لاسرائيل قدرة مميزة في التأثير على سياسة الولايات المتحدة التي تعتبر الآن الدولة العظمى الوحيدة في العالم.

ان الدول الديمقراطية تتصرف بدرجة كبيرة. وفقاً للرأي العام الجماهيري داخليها. ولا توجد دولة في العالم، تبرز فيها هذه الحقيقة أكثر من الولايات المتحدة. فالدعم الامريكي لاسرائيل، لا ينبع من المصلحة فقط. فالولايات المتحدة، أكثر من أي دولة ديمقراطي اخرى في العالم، ترسم سياستها الخارجية وفقاً لتوجيهات جمهور الناخبين الامريكيين، ومنذ وقت طويل، يرى هذا الجمهور باسرائيل، دولة ذات قيم مشتركة مع الولايات المتحدة، وان تنمية هذا التعاطف والتأييد، هو واجب كل حكومة اسرائيلية.

ورغم ذلك، فانني أُؤكد من جديد، انه إذا كانت اسرائيل دولة ضعيفة ومهددة بالخطر، لن تحظى بأي دعم من جانب الولايات المتحدة، سوى الاعراف عن تعاطفها معها. ولا نتحدث هنا عن تقديرات نظرية؛ إذ انه قبل حرب الايام الستة، وعندما فرض الائتلاف العربي بزعامة عبد الناصر، حصاراً على اسرائيل، أبدت الادارة الامريكية تعاطفً شديداً مع اسرائيل. لكن الادارة الامريكية، آنذاك، لم تحرك ساكنا لمساعدتها. فاذا لم تكن قادراً على حماية نفسك، ربما لن تجد من هو مستعد للدفاع عنك". ان ضائقة الامر، في مطلع هذا القرن، واليهود في منتصفه، والاكراد في اواخره، تعتبر أفضل نموذج للمذابح التي ارتكبت بحق شعوب لا حول لها ولا قوة.

كل ما تقدم يقودنا إلى استنتاج واضح هو: القوة، هي حجر الزاوية لكل جهد يستهدف كسب حلفاء جدد، والمحافظة على تحالفات قائمة. ولكن دون حملة تستهدف اثارة التأييد السياسي العالمي، لن تكون القوة العسكرية والاقتصادية كافية لضمان استمرار هذا الدعم من قبل دول العالم. وبنفس الدرجة، لا يعتبر التأييد الدولي، بديلاً عن الدفاع الذاتي. لذا، يجب على الشعب اليهودي ان يرفض بشدة، الادعاء العقيم، الذي يردده اليسار الاسرائيلي، وهو انه اذا تنازلت اسرائيل عن اجزاء ذات اهمية في جدارها الواقي، فانها ستكسب قوة اخلاقية تكسبها تأييداً مستمراً من جانب الدول الكبرى في العالم. إذ ان الضعف لا يكسب شيئاً. وأنه لن يضمن استمرار تأييد هذه الدول، بل سيكون سبباً لضمان عدم اكتراثها باسرائيل. وفي

نفس الوقت، يجب ان ترفض اسرائيل أيضاً، النظرية الفجّة السائدة في اوساط اليمين الاسرائيلي وهي ان ما قيل حتى الان، لن يغير شيئاص، لان العالم يعادينا، ولا مجال لتغيير هذا الوضع، ويقول اصحاب هذه النظرية، ان الافعال هي التي تقرر الاشياء وليس الكلمات، لذا نستطيع ان نتنازل عن الكلام.

انهم مخطئون. إذ يمكننا تنمية التأييد والتعاطف مع اسرائيل في اوساط الشعوب، وخاصة في الدول الديمقراطية الغربية، عن طريق حملة اعلامية مستمرة تستهدف كسب تعاطف الجمهور. ولو ان الشعب اليهودي عرف هذه الحقيقة في الثلاثينات. لاستطاع حمل الولايات المتحدة وبريطانيا على مساعدته آنذاك. ولو ان اسرائيل أدركت هذا ايضاً، لما سمحت للدعاية العربية المشوّهة للحقائق، بأن تسيطر على الرأي العام الدولي.

كيف يمكننا توضيح حقيقة ان هذه الاقوال غير واضحة ولا مفهومة. في اوساط الشعب اليهودي، وبخاصة في أعقاب المطاردة التي عانوا منها في السنوات المائة الأخيرة؟ يجب أن نذكر هنا انه لو نظر عدة اشخاص إلى لوحة "كلمات متقاطعة" فقد يتوصلون إلى آراء مختلفة بشأن طريقة حلّها. فعلى سبيل المثال؛ هناك اسرائيليون يدركون أن القوة العسكرية لا تكفي، ويستنتجون من ذلك، انه لا حاجة لقوة عسكرية كبيرة. وآخرون يشككون في نبوءة هرتسل، ويبرهنون على ذلك بحقيقة ان مطاردة اليهود لم تتوقف، حتى بعد قيام الدولة اليهودية التي تتعرض للاعتداء، مثلما كان يتعرض اليهود للاعتداء في المهجر. لكن هؤلاء يخطئون باصابة النقطة الرئيسة وهي؛ ان هرتسل لم يتنبأ بان الدولة اليهودية ستلغى كل احتمال لتعرض اليهود للمهاجمة، إذ لا توجد دولة يمكن ان تضمن لشعبها عدم تعرضه للاعتداء. لكن هرتسل والصهاينة الاوائل، رأوا في الدولة اليهودية إطاراً لوجود قومي رسمي، وأفضل أداة دفاعية بيد الشعب عند الخطر.

وفعلاً، لا يمكننا تجاهل التغيير الكبير الذي طرأ على مصير الشعب اليهودي منذ قيام الدولة. إذ انقذت اسرائيل جاليات يهودية تتعرض للاضطهاد، مثل يهود اليمن، واثيوبيا الذين تم احضارهم إلى وطنهم العتيق على اجنحة النسور.

وتشكل اسرائيل ملاذاً آمناً للملايين اليهود من روسيا وأوكرانيا وأماكن أخرى تشهد موجة متجددة من اللاسامية. ويشعر كل هؤلاء اليهود، بما لميشعر به يهود اوروبا، قبل خمسين سنة: بأنهم ليسوا معـزولين في العالم، وان لديهم مكاناً يلوذون به، ودولة تتوق لرؤيتهم، وهي على اسـتعداد للعمـل والتـدخل مـن اجـل ضمان أمنهم وسعادتهم عند الحاجة.

ولو ان اسرائيل أُقيمت قبل موعدها ببضع سنين، لما حدثت الكارثة، او لربمـا كانـت أضـيق نطاقـاً. إذ ستكون هنالك بلاد تـستوعب اللاجئـين اليهـود الـذين طـردتهم الولايـات المتحـدة وبقيـة دول العـالم مـن اراضيها. ولكانت هنالك دولة تعمل من اجل السماح ليهود اوروبا بـالخروج، وجـيش مـستعد للقتـال مـن اجل تحقيق هذا الهدف. لكن ما كان ناقصاً في الماضي، لن يكـون ناقـصاً في المـستقبل ابـداً: لم يعـد اليهـود ضعفاء، بل اصبح بمقدورهم الكفاح في سبيل قضيتهم، وتجنيد الآخرين لصالح هذه القضية. هناك حقيقة لا تقبل التشكيك فيها، وهي انه منذ قيام الدولة تولى اليهود مهمة السيطرة على مصيرهم.

دولة اسرائيل هي الآن في قلب دوّامة دولية، وتحتاج إلى حكمة سياسية بالغة لـكي تـستطيع المنـاورة على هذه الحلبة، ولا تكون مسيّرة من قبـل الاخـرين. يجـب عليهـا ان تتجـاوز، بـسرعة، مرحلـة الـشباب، والانتقال إلى مرحلة النضوج السياسي. لقد اجتاز الشعب اليهودي عملية تحوّل سريعة في مجال بناء قوتـه العسكرية، ويجب عليه الآن، اجتياز عملية أخرى مماثلة لتعزيز قدرته الـسياسية. إن العـالم كلهـن يـشهد التغيير التاريخي الذي يمر به الشعب الاسرائيلي، من وضع الضعف المتنـاهي، إلى وضـع القـوة، مـن حالـة عدم القدرة على مقاومة قوى الظلام، إلى ترسيخ قوة قومية تمكنه من أخذ زمام مصيره بيديه.

وهذا تحوّل لا يمكن تصديقه بسهولة. وهو ينطبق كثـيراً عـلى اعـداء اسرائيـل بـشكل خاصـن الـذين يعتقدون بأن وجود القوة اليهودية ليس سوى انحراف مؤقت عن مسار التاريخ الثابت، وان مصير الدولـة اليهودية الزوال عاجلاً أم آجلاً، على أيدي القوى السياسية والدينية والعسكرية المحيطة بها.

غير ان أولئك المتعاطفين أيضاً مع المعاناة اليهودية، والذين يرغبون في ان يروا نهاية لهذه المعاناة، يصعب عليهم التكيّف مع وجود قوة يهودية. ان هذا النوع من المؤيدين لاسرائيل، يجد صعوبة في رؤية اليهود كمجموعة قومية تملك قوة، لأن القوة لا بد أن تجلب معها ضرورة مواجهة مسائل أخلاقية، وان من يملك القوة، معرض أيضاً لارتكاب الأخطاء. وعندما يكون لليهود جيش ودولة، يصبح بالامكان اتهامهم بالقيام بأعمال مختلفة تنبع من هذا الوضع الجديد، وهذه النظرة بالذات، تعتبر أحد أُسس نجاح الدعاية العربية: إنها تخاطب عالماً لم يعتد بعد على واقع يشهد قوة يهودية عسكرية وسياسية. فالدعاية العربية تشجع المتعاطفين مع اليهود، على الرغبة في العودة لى العصر الذي كان فيه اليهود متهمين بكل شيء، لأنهم كانوا الضحية التي لا يوجد من ينقذها.

وعلى هذه الخلفية، لم يتعرض العرب لأي انتقاد عندما طردوا مئات الالاف من الناس، مثلما فعلت السعودية بمواطنيها من أصل يمني عام ١٩٩٠، والكويت بالفلسطينيين عام ١٩٩١، في حين تعرضته اسرائيل للشتائم والانتقادات الشديدة، عندما طردت لمدة سنة، مجموعة "ارهابيين) متعصبين من حركة حماس، أقسموا على القائها في البحر. وهذا هو المقياس الذي تتعرض اسرائيل وفقاً له للتنديد والشجب بسبب مرابطة بضعة الاف من جنودها، في قطاع ضيق في جنوب لبنان، من اجل حماية نفسها، في حين لم يتفوّه أحد ولو بكلمة واحدة، ضد سوريا التي ضمّت معظم الاراضي اللبنانية؛ كما لم يتعرض اي انسان للدول العربية التي تطبق التمييز العنصري العلني الذي يمنع اليهود من الاقامة على اراضيها، وفي نفس الوقت تُتهم اسرائيل بالعنصرية، عندما تحاول قمع أعمال شغب يقوم بها العرب الذين يتمتعون بالحرية اكثر من مواطني اية دولة عربية، وهذه النظرة لا تقتصر فقط على أعداء اسرائيل، بل يوجد كثيرون من المتعغاطفين والمؤيدين لها الذين يؤمنون حقاً بفكرة الدولة اليهودية، لكنهم لا يستطيعون قبول الواقع المرافق لهذه الفكرة – أي ان الدولة المضطرة للعيش في هذا الواقع الصعب المحيط بها، لا بد ان تجد نفسها مرغمة احياناً، على اتخاذ اجراءات مثل، خلق مناطق فاصلة، أو طرد "مخربين" وقمع اضطرابات.

ومع ذلك، توجد في المجتمع الحديث الذي لا يزال متأثراً بالقيم "التناخية" رغبة قوية لرؤية نهاية لرحلة العذاب للشعب اليهودي. لقد عبّر الفيلسوف الايطالي، جوباني بتستافيكو، الذي عاش في القرن السابع عشر، عما بدا له قانون التاريخ الذي لا مفرّ منه: "ان دورة حياة الأمم تتألف من لسلة متوقعة من المراحل – ولادة، شباب، نضوج، وموت".

وقد تبنى مؤرخون كثيرون جاءوا بعد ذلك، من، هيجل، حتى توينبي، هذه الفكرة، وكبرهان على صحتها اوردوا الحقائق المتعلقة بمصير الاشوريين، البابليين، الفُرس، المصريين، اليونانيين، الرومانيين وحتى الشيوعيين في عصرنا الحاضر – حضارات، وُلدت، ازدهرت، ذبلت، ثم ماتت. على هذا الاساس، يؤكد لنا المؤرخون، أنه اذا انتظرنا فترة طويلة للغاية، فان التاريخ كفيل بارضاخ الجميع، دون استثناء. غير ان اليهود يشكلون ظاهرة شاذّة عن هذه النظرية: لق تلقوا ضربات أكثر من أي شعب آخر، ورغم كل ذلك، رفضوا الموت.

وربما نجد الصواب أكثر، في أقوال أحد اليهود من تلاميذ (هيجل) وهو الحاخام نحمان كروكمل، الذي يقول: ان اليهود أيضاً شهدوا فترات ذبول وانحطاط شأنهم شأن الأمم الأخرى، لكنهم تهربوا من الموت المرة تلو الاخرى، من خلال ولادة جديدة، فتحت امامهم دورة حياة جديدة. ويمكن ان تكمن هنا الحقيقة المدهشة:

عندما طلب فريدريك الأكبر من طبيبه ان يأتيه ببرهان على وجود اللـه، اكتفى بالقول: (ان وجود اليهود هو الدليل على وجود اللـه)

لقد عادت خاصيّة الشعب اليهودي للبروز بشكل اكبر مع نهضة القومية الجددية. يمكننا الاشارة إلى بقايا شعوب قديمة أخرى موزعة في جميع انحاء العالم كشرر لحريق كبير انتشر في انحاء العالم. لكن اليهودن فقط، هم الذين لم تنطفئ جمرتهم بعدما خبت نارهم. والشعب الاسرائيلي، فقط، هو الذي عرف كيف يشعل ناراً جديدة من الجمرات المتقدة.

أما الآن، فقد بدأت مرحلة جديدة في تاريخ شعبنا. منذ قيام دولة اسرائيل، تغيّر جوهر طموحاته. ففي المهجر، كان الهدف الرئيس للشعب هو استعادة ما فقده، أما اليوم، فأصبح هدفه المحافظة والاحتفاظ بما استعاده.

نحن الآن في بداية هذه المهمة، وستكون لنتائج نضالنا أهميـة بالغـة، لـيس بالنـسبة لمـصير الـشعب اليهودي فقط، بل بالنسبة للانسانية أجمع.

هنالك أمل لدي الكثيرين في العالم، بأن يستطيع اليهود التغلب عـلى العقبـات الكـأداة التـي تعـترض طريقهم، ويجتازوا النهر الهائج الذي يفصل بـين المـوت والحيـاة، وان يعـودوا لبنـاء أرضـهم المختـارة مـن جديد. واذا كانت اقوال، النبي عموس؛ "في ذلك اليوم سأبني عريشة داوود الساقطة" بدأت تتحقق، يجب أن نرى فيها برهاناً على وجود الأمل لكل الشعوب والأمم تحت الشمس".

ان نهضة شعب اسرائيل، هي على أية حال، أحد الرموز الكبرى للانسانية. فهذه لـيست قـصة اليهـود فقط، إنما هي روح الانسان التي ترفض باصرار وعناد، الاستسلام لحكم التـاريخ. هـذه رحلـة لا مثيـل لهـا. رحلة شاقة لشعب صمم على العودة من جديد ليحظى بالمكانة التي يستحقها فين الشعوب.

اول مائة يوم من
حكم نتنياهو

فيما يلي بشرى جيدة لبنيامين نتنياهو: بعد ١٠٠ يوم من تشكيل ادارة الرئيس بيل كلينتون، كان القسم الاكبر من الوظائف الكبيرة في الادارة لم تشغل بعد.

ووجدت تعيينات الرئيس بأنها غير مناسبة، ولم تكن للادارة سياسة خارجية حقيقية، والهدف الرئيس على صعيد السياسة الداخلية – التأمين الصحي الحكومي – لم يتحقق.

لقد سار كلينتون على مدى سنتين من فشل إلى فشل، ومن قضية لى قضية، على الصعيد الشخصي، حتى عرف كيف يحكم، وفي السنة الثالثة، عرفت امريكا رئيسا مختلفا، واليوم، قبل ثمانية اسابيع من موعد انتخابات الراسة الامريكية، ثبت كلينتون نفسه كزعيم للعالم الحر، وعلى صعيد السياسة الداخلية، تحرك كلينتون من اليسار إلى الوسط.

وتبين نتائج استطلاع الرأي العام بأنه يتقدم بشكل ملموس على المرشح الجمهوري، بوب دول والبشرى السارة لنتنياهو هي ان العمل الذي حظي بهن يمكن ان يتعلمه من خلال العمل نفسه، ولديه الوقت الطويل جدا، فالشيء الذي يربكه اليوم، سينسى غدا والانتخابات، من المقرر لها ان تجري في تشرين ثان عام ٢٠٠٠، اي القرن القادم، لكن البشرى غير السارة هي ان نتنياهو، ليس كلينتون لقد ترعرع الاثنان في نفس الجيل، وعاشا نفس الثقافة، ونتنياهو يصغر كلينتون بثلاث سنوات فقط، وهو أكثر ثقافة من كلينتون، ولا يقل عنه طموحاً، واكثر منه تركيزاً، ولغته الانجليزية متطورة أكثر، ولكن لم تظهر لديه حتى الآن الحرارة الداخلية والتواصل الشعوري، والروح المعنوية العالية والمرحة التي مكنت كلينتون من أن يصبح، رغم صغر سنه نسبيا، ابا للامة، في الاسبوع الماضي، واثناء حديث جرى في ساعةو متأخرة من الليل، سألناه، هل يعتقد بأنه سيحدث له ما حدث لكلينتون: فترة اولية فاشلة، ثم تلتها فترة توازي فكري، ورد نتنياهو بقوله: "محتمل جداً".

واشار إلى ان للرئيس الامريكي ميزة على رئيس الحكومة الاسرائيلية هي ان القانون الامريكي يحدد فترة انتقالية مدتها شهران بين الادارة السابقة لادارة اللاحقة، لتسهيل عملية البدء، اما لدينا فان المسؤول يصحح اخطاءه اثناء الحركة.

يوم الاثنين من الاسبوع الحالي، زار نتنياهو، كلينتون وعلى صعيد الاجواء، كان اللقاء بين الاثنين جيدا، على خلاف اللقاء السابق في شهر حزيران الماضي، الذي اتسم بالتوتر والعصبية، وكان نتنياهو قد ادعى في شهر حزيران، ان اللقاء مع كلينتون كان ممتازا، لكنه، اليوم يتطرق إلى ما حدث خلال اللقاء، بصورة مختلفة قليلا.

من حيث المضمون، كان اللقاء هذا الاسبوع مخيباً للآمال، على حد تعبير مصدر امريكي، وربما تدل خيبة الامل هذه، على ان نتنياهو "شعر بالأمن، اثناء اتصالاته مع الرئيس الامريكي، فاذا كان اعتقد في اللقاء السابق معه بان عليه ان يفرض "بمكعبات الحلوى" طريقه إلى البيت الابيض، فقد ادرك الان انه لا حاجة لذلك، فالانتخابات الرئاسية على الابواب، والرئيس ليس مضطرا للموافقة، بل للتفهم فقط.

قال رجال نتنياهو، ان اللقاء مع الرئيس كلينتون، كان مهما جدا فقد حاول نتنياهو دون حدوث ازمة لكنهم رفضوا الادلاء بتفاصيل، وهذا ما يتميز به عهد نتنياهو، كل شيء علني، وكل شيء على الطاولة، وفي نفس الوقت لا يوجد شيء، وكأنها اعمال ساحر.

يتحدث نتنياهو مع كلينتون، حديث الند للند، غير مبال بالفارق القائم بين حجم الدولتين، ولا بين المنصبين، اذ ان لديه قناعة، بأنه منذ عهد جولدا مئير، لم يكن في اسرائيل رئيس حكومة مثله يعرف كيف يتعامل مع الثقافة الامريكية.

كما ان كلينتون ونائبه ال غور، يعرفان ايضا انه يعرف هذا، لذا فهما يتنازلان سلفا عن محاولة اللعب عليه.

اثناء لقاء يوم الاثنين، تطرق كلينتون ونتنياهو إلى عدم تفهم الرئيس الاسد لثقافة السياسة الامريكية، فالاسد، يعتقد انه بعد انتخابات تشرين ثان القادم، سيحدث تحول (١٨٠) درجة في

سياسة الادارة الامريكية تجاه اسرائيل، وبعد ان يتحرر كلينتون من الصوت اليهودي، سيبدأ الضغط على اسرائيلن وقال نتنياهو لكلينتون: هل ترى كيف لا يفهم الاسد امريكا.

في احتفالات العام الاربعين لتأسيس مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية التي اقيمت في "نيويورك هليتون" كانت زوجة نتنياهو، سارة، فقط هي التي تفصل بين نتنياهو وآل غور،نائب الرئيس الامريكي، وقال نتنياهو بعد ذلك، انهما تبادلا الدعابات.

كان نتنياهو اول املتحدثين في الحفل، وكان جمهور اليهود واليهوديات، يحيط به كما تعانق "الام اليهودية ولدها العجيب". لقد تغير مؤتمر الرؤساء كثيرا في السنوات الاخيرة اذ اصبح يضم الكثيرين من المتدينين ومنهم المتزمتون ايضاً.

وتحدث نتنياهو اليهم باللغة الامريكية، بلهجتهم الصحيحة، وبحركات الرأس الصحيحة، ثم تحدث بعده، آل غور، الذي اظهر لهم بأنه نتنياهو أكثر من نتنياهو.

غير ان هنالك شيئً ما في هذا الود الظاهري حيث قال لنا احد رجال كلينتون، في البيت الابيض، ان نتنياهو لن يحظى ابداً لدى كلينتون، بالاحترام، الذي كان يحظى به رابين، فقد كبر رابين في نظره، ليصل إلى مكانة "شيخ القبيلة"، اما السياسيون "المنمقون" امثال نتنياهو فانه يلتقي بهم يوميا، وهو يعرف كيف يتعامل معهم.

نتنياهو يرى نفسه كالغريب الذي يطرق باب امريكا، انه يفهمها كأي مواطن محلي فيها، لكنه ابقى لديه كل صفات الغريب.

ومما يدعو إلى السخرية، هو ان كثيرا من الاسرائيليين ينظرون إلى نتنياهو بصورة معكوسة: كأمريكي طرق باب الثقافة الاسرائيلية، اكتشف كل رموزها الداخلية ثم سيطر على البيت.

يبدو أن نتنياهو، هو ابن الثقافتين فهو ينتقل بسهولة من لهجة إلى لهجة، ومن ثقافة إلى ثقافة، دون ان يحمل معه من هنا إلى هناك أية رائحة، وعدم وجود هذه الرائحة، هو الذي يقلق الكثير من الاسرائيليين.

لقد مضت الآن ١٠٠ يوم من الجهود في عهد نتنياهو، وهو يوافق في هذه المرحلة على، تقدير واحد ان حكومته مختلفة عن الحكومات التي سبقتها، وسلامها مختلف، ومفاوضاتها مختلفة، وسلطتها الداخلية مختلفة. وهو في الواقع، يتهم حكومتي رابين وبيرس، بأنهما كانتا مسخرتين لخدمة مصالح الطرف الثاني، لقد كرستا نفسيهما للعملية السلمية.

انه يراهن على النتائج، وفي هذه الاثناء، لا توجد نتائج، لذلك من الاسبق لاوانه اصدار الحكم الان.

يمكننا مهاجمته والقول انه لم يحدث شيء حقيقي خلال الايام المائة التي مضت حتى الان على حكمه، ويمكننا ايضا ان نقول هذا لمصلحته: انه لم يطلق طلقة واحدة لا مبرر لها على لبنان، مثلما انه لم يتركب مغامرة في العراق، او ايران او ليبيا او غزة، هناك حكومات تحظى احيانا بالشهرة العالمية نتيجة لقصورها، مثل حكومة شامير في حرب الخليج.

قال لنا احد الوزراء: "انكم تعيشون معركة الصحافة، ولديكم قناعة بأنه توجد في مكتب رئيس الحكومة عقول مبدعة، تعمل بموجب اجراءات مخطط لها وثابتة، وبعيدة الاثر، لكن الحقيقة هي انهم يعيشون من يوم إلى يوم، وقلنا له، المصيبة هي ان قراءنا اكثر الحاحاً من ناخبيكم.

يعترف نتنياهو، ان الاشهر الثلاثة الأولى، من رئاسته للحكومة، واجهت مشاكل، هناك اخطاء واضحة فعلا، ويقول نتنياهو ان المسؤولية الرئيسة لا تقع على عاتقه هو، بل تنبع من الصعوبة التي يواجهها الوزراء واعضاء الكنيست والضابط والموظفون، في فهم التغيير الذي احدثه قانون الانتخابات المباشرة. فالسياسيون لدينا، اعتادوا الاسلوب السياسي القديم، وعلى نظام ائتلافي يعيش على ممارسة الضغوط والتهديدات، من خلال عدم الانصياع لسلطة رئيس الحكومة.

اما القانون الجديد، فيقضي بأن يكون الوزير مسؤولا امام رئيس الوزراء كما ان التوترات الشخصية تغطي دائماً على المواضيع المهمة حقاً، والطريقة الصحيحة لاختبار هذه الامور،

هي ان نسأل بعد سنة، ماذا بقي، في اعقاب المـشاكل والازمـات والخـصومات الشخـصية، ومـاذا فعلنـا في جميع المجالات.

لدى نتنياهو قناعة بأنه تسلم دولـة في وضـع سيء، وانـه رغـم مـشاكل الاشـهر الأولى، فقـد اسـتطاع اعادتها إلى وضع جيد.

ويقول: "لقد ورثت حكومتي وضعا مدمرا بصورة شاملة، قطيعة سياسية، وتدهور امني بأحجام مثيرة للدهشة، ويجب عليها ان تغير الاتجاه، وهي فعلا تقوم بهذا. ان اقوال نتنياهو هـذه، هـي مـا تبقـى مـن لغة الانتخابات، غير ان الحقيقة هي ان نتنياهو بدأ مهام منصبه وسط اجواء ازمة سياسية، كانت تنبع من مخاوف العالم العربي منه من حكومته، اما من الناحية الامنية فقد كان الوضع معقولا، لكن التركة المعقدة التي ورثتها حكومته، كانت على الصعيد الاقتصادي.

لقد قام نتنياهو بسلسلة اجراءات استهدفت طمأنة العالم العربي، واحبطت في مهدها، محاولة سوريا بلورة جبهة عربية موحدة ضد اسرائيل، حيث اوجد علاقـة شخـصية مـستمرة مـع الـرئيس مبـارك والملـك الحسين، وخلال الاشهر الثلاثة الأولى لعمل الحكومة حظيت بهدوء امني غير عادي، فقد توقـف الارهـاب، وهدأت لبنان، نسبيا.

ومقابل هذا النجاح، اضطر نتنياهو لدفع الثمن، فقد اعتزم التوجه إلى الولايـات المتحـدة، مـع حملـة دعائية واسعة ضد النظام السوري، حملة كان من شأنها ضم سوريا إلى الدول المجنونة مثـل ايـران وليبيـا، لكـن الخـوف مـن انـدلاع الاشـتباكات في الـشمال جعلـه يهـدأ، ثـم طـرح فكـرة "لبنـان اولا" كبـديل عـن المفاوضات حول هضبة الجولان، ثم تراجع عنها حينما لم يجد من يشتريها، ثم قام السوريون بحشد قـوات بالقرب من الحدود مع اسرائيل، مما جعل نتنياهو يخفف لهجـة تـصريحاته. والأهـم مـن هـذا كلـه، انـه اضطر للالتقاء شخصيا بياسر عرفات.

هكـذا، نـشتري الهـدوء، لقـد حـدث هـذا بعـد عـدة اسـابيع مـن الـتردد، الـذي عـرض الحكومـة الاسرائيليـة إلى انتقـادات شـديدة في الغـرب وفي اوروبـا بـشكل خـاص، بلهجـة لم تعـرف مثلهـا

خـلال الـسنوات الاربـع الاخـيرة، ولحقـت اضرار بأسرائيـل ايـضاً نظـرا لكـون الاقتـصاد الاسرائـيلي مرتبطـاً بالاستثمارات الاجنبية، ودور اوروبا الرئيسي في تمويل عملية السلام.

لكن نتنياهو مقتنع بأنه كسب على صعيد التفاصيل فقد اغلق عرفـات مكاتـب الـسلطة في القـدس، وتعهد بمواصلة التعاون مع اسرائيل في مكافحة الارهاب، غير ان نتنياهو لم يـستطع اقنـاع وزراء حكومتـه، فرائيل شارون وبنيامين بيغن، يقولان ان نتنياهو يكذب، المكاتب لم تغلق، اما الآخرون الذين ايـدوا اللقـاء مع عرفات سأتفاوض معه بصورة مختلفة، انا لست بيرس، ولا رابين.

ويعترف نتنياهو ايضاً، انه خفف من حدة تصريحاته ضد سوريا في الويات المتحدة لاسباب تكتيكيـة، انه يفرق بين المفاوضات مع سوريا وبين المفاوضات مع الفلسطينيين. ويقول: "انني قلـق جـدا مـن المـسار السوري، ستكون هنالك مشاكل على المسار الفلـسطيني، لكـن هنـاك خـط واضـح يتوجـب عـلى الطـرفين الالتزام به، وهنالك مصلحة للطرفين لمواصلة السير فيه، كل حسب اهدافه، لكن الامور ليـست هكـذا مـع السوريين، فهم لا يبدون اية رغبة في الاستجابة لدعوتي واستئناف المفاوضات في ميريلاند انهم يصرون عـلى ان اقبل بمواقفهم النهائية في بداية المفاوضات، وكل من يضع مثـل هـذا الـشرط، يبـدو انـه غـير راغـب في التفاوض، لقد بعثت إلى الاسد برسالة تقول انني لن افرض عليك فكرة (لبنان اولا)، كشرط للتفاوض، وانت لا تفرض علينا الجولان أولا" حيا نتحدث عن الموضعيين معا، وفي هذه المرحلة لا ترد سوريا عـلى اي طلـب من جانبي".

منذ يومه الاول في السلطة، وجد نتنياهو نفسه في تناقضات، كان هناك التناقض الـسياسي: الرغبـة في الاحتفاظ بالمناطق الفلسطينية والجولان وعدم الثقة المطلقة بالعرب، الذي عبر عنهـا في الـسنوات الاربـع، التي أمضاها على مقعد المعاضة، مقابل ضرورة تنفيذ الالتزامات الدولية، والخوف من تدهور الوضع الذي قد يؤدي إلى تنفيذ عمليات ارهابية.

وكأن هناك التناقض على صعيد القوي: توقعات العنصار التي بـذلت الكثـير مـن أجـل فـوز نتنيـاهو، وعلى رأسهم اليهود المتدينون المتزمتون (حرديم)، في الحصول على مقابـل حقيقـي لاصـواتهم، في مواجهـة الرغبة في المحافظة على التقليد الدستوري والقانوني، الذي تقدسه اغلبية الجمهور الاسرائيلي.

وواجه نتنياهو صعوبة في اتخاذ القرار وعلى غرار حملة التحـريض التـي سـبقت اغتيـال رابـين، فـتح نتنياهو بابا امام الاتهامات بأنه غير حساس تجاه الجانب الاخلاقي والقانوني لمكانته، وكان رده عليها بطيئا للغاية، "متزنا" للغاية، وغير حاسم.

سألناه، لماذا لم يسمع صوته تقريباً، حينما بلغـت هجـمات المتـدينيين المتـزمتين عليـه ذروتهـا، ولا في قضية التهديدات ضد رئيس المحكمة العليا وقـضاتها، ولا ممارسـة العنـف ضـد العـاملات في وزارة التربيـة والتعليم.

ورد نتنياهو بقوله: "لقد اسمعت صوتي، شجبت اعمال العنف، انني ارفض العنف في اي قطـاع مهـما كان ومع ذلك، اعتقد انه من الخطأ توجيه التهمة إلى جمهور ينظر كامل فالمقصود هنا بعض الاسـتفزازات من جانب بعض الشواذ، ان مشكلة العلاقات بين العلمانيين وبين المتدينيين المتزمتين (حرديم) معقدة، انها تتعلق بالسؤال، ما هو الجهاز الكفيل بأيجاد التوازن لادارة حياتنا في الدولة.

ان احدى المسائل المركزية تتعلق بتحديد صلاحيات المحكمـة العليـا امـام الكنيـست، وهـذه مـسألة مشروعة، وذات اهمية.

وثمة هنالك وجهات نظر مختلفة، سألناه: وما هي وجهة نظرك انت؟ قـال نتنيـاهو: "اننـي التقـي في الاونة الاخيرة مع رجال قانون كبار، لكي افهم منهم الموضوع، واعمل من اجل ايجاد التوزان الصحيح.

هـل تؤيـد انـضمام عـدد اكـبر مـن المتـدينيين إلى المحكمـة العليـا؟ نتنيـاهو: "لا اعتقـد ان المـسألة الرئيـسية تتعلـق بقبعـات القـضاة (المتـدينين) او اجـراء الاختيـار/ ففـي موضـوع مكانـة المحكمـة

العليا، نحن نميل إلى السير سريعا نحو النموذج الامريكي، ومحاولة فرض دستور بصيغة امريكية، في هذا الوقت، لن تكون مفيدة، ولن تنجح انني مع القوانين الاساسية، لكن واقعنا لا يمكن من تطبيق دستور.

لقد كانت الولايات المتحدة في بدايتها مجتمعا متجانسا، ما بين ٢ – ٣ ملايين مهاجر من انجلترا، استطاعو التوصل إلى اتفاق على دستور، وخلال المائتي سنة التي تلتها اجريت تعديلات ملائمة لتوافق التنوع الهائل في وسط المهاجرين القادمين إلى امريكا.

اما لدينا، فالاجراء معكوس، اولا استوعبنا مهاجرين من اكثر من ١٠٠ دولة، الان يتوجب علينا التوصل إلى اتفاق.

ان هذه المسألة تزعجني جدا، لدى شعور بأنني يجب ان افهمها، والقاة ورجال القانون، الذين احترم رأيهم، يقولون لي، انه لا توجد اية نية لاخضاع هذا التنوع الاجتماعي الواسع في اسرائيل لنظرية قانونية ضيقة.

في الجلسة الاولى للحكومة، اعلن نتنياهو بابتهاج، انه قرر تشكيل طاقم لشؤون الامن القومي في مكتبه، برئاسة دافيد عفري، وقضية صعود وهبوط هذا الطاقم، تشكل ميزة لحداثة وعدم خبرة نتنياهو، فوزير الدفاع الذي يعمل عفري مديرا عاما لوزارته، لم يكن يعلم شيئا لا عن الطاقم ولا عن التعيينات. لذا شرع فورا بنشاطات تهدف إلى احباط القرار، ولم يكن بحاجة إلى بذل المزيد من الجهود، اذ انه لعى غرار قرارات اخرى، ولد قرار تشكيل الطاقم، ميتا.

وكل ما تبقى لنتنياهو، انقاذ هيبته وكأن له هيبة، فالسكرتير العسكري لرئيس الحكومة، سيدعى منذ الآن رئيسا لطاقم الامن القومي. وهناك عدة اسماء، بينهم عضو حركة ميرتس (في الاحتياط) ابراهام تامير، سيعملون كمستشارين، وسيهتم السكرتير العسكري بعدم تخصيص مكاتب لهم، انما سيرسلون نصائحهم بواسطة الفاكس، كان هذا سقوطا واحدا من عدة.

لقد وضع نتنياهو على رأس جدول اولويـات حكومتـه موضـوع الخـصخة، ولـكي يـضم التنفيـذ، نقـل سلطة الشركات الحكومية إلى مكتبه، وعزل مدير عام اسلطة، تامي بن دافيد، وعرضت على نتنيـاهو عـدة اسماء لشخصيات كبيرة من القطاع الخاص، ابدوا استعدادهم لان يأخـذوا عـلى عـاتقهم عمليـة الخـصخة، كمهمة وطنية.

اختار نتنياهو، تسيفي لبني، التي سـبق ان كانـت مرشـحة لزعامـة الليكـود، وهـي محميـة معروفـة بهدوئها ونعومتها، ولكن ليس لديها ما يقربها من عالم الاستثمارات الدولي، ويكـون مـسؤولا عنهـا، موشـه ليئون، الذي سبق ان كان امينا لصندوق الليكود، ويعمل حاليا مساعدا لمدير عام مكتب رئيس الحكومة.

لقد صفق المصرفيون في "وول ستريت" لنتنياهو حينما بسط امامهم في زيارته الأولى للولايات المتحدة خططا طموحة ورائعة للخصخصة وبعدسنة سيتساءلون، ماذا حدث؟، ونتنيـاهو الـذي لا يجـب ان يبقـى بدون اجابة على هذه التساؤلات، سيسارع إلى بيع الشركات الحكومية، كمن ركبه الشيطان.

وحول كل صفقة، ستدور الشبهات والفضائح والتحقيقات، ومنذ وقـت قريـب تنـاول نتنيـاهو طعـام الغداء بصحبة الملياردير اليهودي شاؤول ايزنبرغ الذي يبدي اهتماما بشراء ما تبقى من اسهم الحكومـة في "شركة اسرائيل"، والثمن الذي يعرضه، هو اقل بكثير من ثمن الاسهم في البورصة، وحسب احدى الروايـات، اقترح عليه نتنياهو الاجتماع مع موشيه ليئون، لكن ايزنبرغ تساءل: من هذا، موشه ليئون؟

هناك وزراء يكثرون من مهاجمة نتنياهو دون ان يرغبوا في الكشف عن هوياتهم، حيث يقولـون انـه تعهد بتشكيل حكومة "نخبة". لكنه شكل حكومة متوسطة، مستجدة لا زالت حتى الان، لا تقـوم بعملهـا كحكومة ابدا.

ونتنيـاهو، حاليـا، هـو قائـد فرقـة موسـيقية، بـدون فرقـة وبـدون آلات موسـيقية، انـه عـازف الغيتـار الأول لفرقـة موسـيقية مؤلفـة مـن رجـل واحـد، انـه راض عـن بعـض وزراء حكومتـه،،

ويصفهم بأنهم ممتازون، وهناك عدد اخر من الوزراء ينوي استبدالهم، وهذا يتعلق حسب قوله بعملية الانتقال من الاسلوب القديم إلى الاسلوب الجديد.

لقد ألمح نتنياهو، اكثر من مرة، إلى الوزيرين بنيامين بيغن، وارئيل شارون، بأنه ينتظر منهما تقديم استقالتيهما، او انه سيقيلهما اذا لم يتصرفا بصورة منطقية. وحينما يلتقي بوزرائه، فانه يدير الجلسة بصورة مختصرة وبشدة، يستوعب بسرعة، ويترك انطباعا رائعا، لكن هذه الجلسات، حسب اقوال الوزراء، لا تتمخض عن قرارات، بل بيانات للصحف فقط، لا يوجد اجراء لاتخاذ القرارات في الحكومة، ولا توجد قرارات كل شيء يتوقف على الضغوط الانية.

قال لنا نتنياهو: بعض الوزراء لم يستوعب بعد، اننا غيرنا اسلوب الادارة، ربما لم اوضح هذا الموضوع بصورة كافية، الامر الذي خلق احساسا بعدم التصميم من جانبي، وكل من يعرفني عن قرب يسخر لسماع هذه الاقوال.

كان الصدام الاشدن بين نتنياهو وبين المؤسسة المدنية والأمنية، مع الموظفين وكبار القادة العسكريين، والقضاة، والموظفين السابقين الذين اصبحوا رؤساء جهاز العمل والتشغيل، لقد وصل إلى مكتب رئيس الحكومة وهو يجر وراءه شكوكا عمرها جيلان، اذ ان والد نتنياهو قرر مغادرة البلاد نتيجة تعرضه للظلم من جانب المؤسسة الاكاديمية، ونتنياهو، ترعرع في ظل الشعور بالظلم الذي زادت حدته بعد ان دخل معترك الحياة السياسية فهو لم ينس حينما كان زعيماً للمعارضة لم يدعه اي مدير او رئيس مجلس ادارة في اي بنك لالقاء محاضرة، يشرح فيها وجهة نظره، ناهيك عن القول، بشأن عدم قيام قادة الجيش بأطلاعه على ما يستجد من أمور.

ان حالة نتنياهو، شاذة في مجموعة قيادة الحكومة، اذ ان كبار وزرائه - يستحق مردخاي، دان مريدور، دافيد ليفي - لا يحملون على ظهورهم عبء الشعور بالظلم، من هذا النوع،

لقد نضجوا في المؤسسة لاسياسية وحقيقة فان احدا منهم لم يسارع إلى قصاء كبار موظفي وزارته.

وهناك وزراء اخرون مثل كتساف، وشيرانسكي، فضلوا اجراء تعيينات سياسية من داخل الوزارة، على تعيين اشخاص من الخارج، لقد افترضوا بأن الموظفين الموجودين حالياً في وزاراتهم، سيخدمونهم بدون صعوبة.

اما ايفوت ليبرمان، مدير عام مكتب نتنياهو، فقد دخل المكتب وبيده بلطة، ففي يوم واحد، اقال ستة من كبار الموظفين، ولم يكن يعرف في تلك المرحلة، من هم هؤلاء الموظفون، وماذا يعملون، وما هي اجراءات الاقالة الصحيحة، حيث توجه احدهم، وهو رئيس ديوان الموظفين، يتسحق بن نور، إلى محكمة العدل العليا، وفاز بالقضية.

وكذلك، المستشار القانوني، احاز بين اري، الذي اقاله ليبرمان بتهمة الولاء الزائد للحكومة اليسارية، جرى تعيينه مستشاراً قانونياً لوزارة البني التحتية، وعين بدلا منه آبي هليفي، وهو محام صغير، ليست لديه الخبرة القاانونية التي تؤهله للعمل كمستشار قانوني.

وبعد مضى ثلاثة اشهر على تشكيل الحكومة، لا يوجد رئيس لمكتب نتنياهو، لقد جرى تعيين احدهم، فيني فيشلر، الذي استقال بعد ذلك، او ارغم على الاستقالة في ظروف غامضة، وحتى كتابة هذه السطور لا يزال نتنياهو يبحث عن مرشح لهذا المنصب.

ان المجابهة بين نتنياهو وبين المستشار القانوني للحكومة، ميخائيل بن يئير، تجسد الفجوة القائمة بين اسلوب الادارة الجديد، الذي يقتنع نتنياهو بوجوده، وبين مبادئ اللعبة القديمة، عشية تشكيل الحكومة، وحينما كان نتنياهو يستقبل الناس في قبول الكنيست، حذره بن يائير من مغبة تعين، يعقوب نئمان، وزيرا للعدل، وغضب نتنياهو على هذا التحذير، لدرجة انه اراد ان يعزل المستشار القانوني فورا، اراد، لكنه لم يفعل.

لقد مضت ثلاثة اشهر منذ ذلك الوقت، ونئمان لم يعمل كوزير للعدل، واحتمالات عودته إلى الوزراء ضعيفة جدا.

وها هو المستشار القانوني ما يزال جالسا على كرسيه ويقرر مصير الوزراء واعضاء الكنيست سواء للخير او للشر.

بموجب القانون، كان بساطاعة نتنياهو عقد جلسة للحكومة وعزل المستشار، لكن الذي يقرر في الحقيقة، في النظام الديمقراطي، ليس القانوني، انما التراث السياسي، وحتى رئيس الحكومة الي ينتخب بصفة شخصية، يكون قليلا بضرورة التظاهر بالمنطقية والنظافة.

اما قيادة اجهزة الامن، فلم يكن باستطاعة نتنياهو استبدالها، نظرا لعدم وجود جيش اخر، ولا شاباك اخر، ولا موساد اخر.

ويعترف نتنياهو اليوم، انه واجه صعوبة في البداية في التعامل مع رؤساء هذه الاجهزة، وبعد ذلك، ترتبت الامور. يبدو ان نتنياهو استطاع التوصل إلى علاقات عمل مرضية مع كل من رئيس الشاباك، عامي ايلون، والموساد، داني يتوم.

اما مع رئيس هيئة الاركان العامة الجنرال امنون شاحك، فقد بدأت العلاقات متعثرة، حيث ان صورة كبيرة لاسحق رابين ما تزال معلقة بشكل بارز في مكتب شاحك، الذي لم يسبق ابدا ان اخفي حنينه إلى رئيس الوزراء الراحل، سواء في عهد بيرس او نتنياهو.

وفي الاونة الاخيرة، عقد لقاء شخصي بين نتنياهو، وبين شاحك، بوساطة طرف ثالث.

هناك جانبان للتوتر بين نتنياهو، وبين المؤسسة الحكومية: نتنياهو وشكوكه، والمؤسسة وشكوكها، نتنياهو ليس "واحدا منا" وهذه الغربة ليست مجرد موضوع سياسي، رغم وجود عنصر الحقد السياسي والغضب والشعور بالاهانة نتيجة للخسارة في الانتخابات.

فالأمر يتعدى هذا الشيء، ان مصدر غربة نتنياهو يكمن في السيرة الحياتية، في نمط الحياة في النمط السياسي، اريئيل شارون، نعم ان نتنياهو، فلا.

لقد حضر احد كبار موظفي الحكومة حفل افتتاح شارع الانفاق الذي يربط بين القدس وبين غوش عصيون، وقال متذمرا: ان نتنياهو ورجاله لا يتكلمون بلغته، ولا يعيشون الواقع، ولا يدركون المشاعر، "انها حكومة غريبة".

ان الطبقة القديمة في اسرائيل، لم ترغب ابدا في تقاسم مراكز النفوذ مع آخرين، انه ناد للاعضاء فقط، وهم على استعداد لخدمة السلطة الجديدة دون اي تحفظ.

يقول نتنياهو: لا يوجد لدي شعور بعدم الثقة، بالنسبة للموظفين يجب تغيير الطاقم الكبير في وزارات الحكومة، ويجب ملاءمة الاشخاص مع السياسة، ففي الدول المنتظمة يتم استبدال كبار الموظفين، مع تغيير السلطة، انه امر طبيعي جدا، ولكن لدينا، فأننا نحتاج وقتا طويلا حتى يدرك الجهاز الوظيفي، إلى اين تسعى الحكومة كما يحتاج رؤساء اجهزة الأمن إلى وقت للتكيف.

كان هناك وضع، كانوا يتدخلون بصورة شخصية، ليس فقط في تحديد الاعتبارات السياسية، انما كانوا روادا سياسيين، لكنني غيرت هذا الوضع، فرؤساء اجهزة الامن، يجب ان يقتصر عملهم على المسائل الامنية فقط. والسياسيون هم الموجهون.

سألناه، ما رأيه الحقيقي برؤساء اجهزة الامن، فقال انني اقدرهم جدا، ولكنه رفض الادلاء بالتفاصيل.

سألناه، هل تعتقد بأنه منذ الانقلاب السلطوي، تدور حرب الطبقة القيادية، اي ان القيادة السابقة غير مستعدة لاخلاء مكانها لكم.

اجاب نتنياهو: في كل الدول الغربية التي اعرفها، توجد حركة قيادية من اليسار إلى اليمين، وبالعكس، اما لدينا فقد حدث هذا على الصعيد الاقتصادي: في احدى المرات ايدت الطبقة القيادية، الاقتصاد المركزي، واليوم تؤيد اقتصاد السوق الحرة لكن مثل هذا التحركن لم يحدث على الصعيد السياسين حيث لا يوجد في اسرائيل طبقة قيادة مؤسسة، تنتمي للتيار المركزي واليميني، وبسب مركزية السوق الفكري، اختفى اليمين، يوجد مثقفون لكنهم في "التوابيت" غير فاعلين، والاحباط، يقود اليمين ضد وسائل الاعلام، حيث ان معظم رجال الاعلام، هم خريجو المدارس والجامعات التي تسيطر عليها وجهة النظر اليسارية، لكنني اؤمن بأنه خلال فترة حكمنا، سيتغير هذا الوضع، نحن بحاجة إلى تشجيع التعددية الفكرية.

سألنا نتنياهو: هل تعتقد بان الانتقادات الموجهة اليك، ناجمة عـن مـرض الـشعور بالاضـطهاد، لـدى التيار اليساري؟ فأجاب: "لم اكن اتوقع غير هذا، ما توقعته وجدته".

شمعون شيفر و ناحوم بارنيع

يديعوت احرونوت ١٩٩٦/٩/١٢

خاتمة

تربع بنيامين نتنياهو على سدة الحكم، وسط مجموعة من المتطرفين والاكثر تطرفا، وبدا للوهلة الأولى، انه مصر على تطبيق شعاراته التي رفعها قبل واثناء الانتخابات، وفي مقدمتها لاءات التعامل مع السلطة الوطنية الفلسطينية، ذلك ان اتفاقيات اوسلو وما يتبعهان لدى توليفة الحكم الجديدة، بدءا من الليكود مرورا بالاحزاب المؤتلفة في الحكم، وانتهاء بالمستوطنين الذين اقاموا الافراح والليالي الملاح، فور فوز نتنياهو في الانتخابات، باعتباره تجسيدا لروح الصهيونية، المتمثلة في الهجرة والاستيطان.

لقد وجد نتنياهو، نفسه وجها لوجه، امام متطلبات الرئاسة محليا واقليميا ودوليا، من جهة، وامام الاستحقاقات التي ينبغي ان يدفعها لاولئك الذين ايدوه واوصلوه إلى سدة الحكم، ذلك الحلم الذي عاش على ذكراه سنين طويلة.

هل القضية الفلسطينية هي لب النزاع الشرق اوسطي، والصراع العربي – الاسرائيلي؟ وهل هي اساس المشكلات التي تواجه اسرائيل؟ يبدو ان نتانياهو لا يعترف بذلك، ومع ذلك لم يجد بدا من الاجتماع بالرئيس الفسلطيني، وهو يعلم مسبقا ان حلفاءه ستثور ثائرتهم.

عالق مع عرفات

تحت هذا العنوان كتب حامي شيلون التعليق التالي في صحيفة معاريف الاسرائيلية، يبين من خلاله افكار نتنياهو، على حقيقتها، على المسار الفلسطيني وما يتفرع عنه من اشكالات، يقول التعليق :

يتحدث بنيامين نتنياهو، في كتابه "مكان تحت الشمس" عن مجابهة حدثت في شهر ايار من عام ١٩٩٠، بينه وبين عدد من رؤساء لجنة رؤساء المنظمات اليهودية في الولايات

المتحدة، حيث هاجموه بشأن نشاطات الحكومة السرائيلية فيما يتعلق بقضية فندق سان جون، في القدس الشرقية، ورد عليهم بقوله : "انتم صادقون، انها مشكلة كبيرة بالنسبة لنا الان، لكنها ستختفي في غضون اسبوع، لدينا مشكلة اكبر بكثير، وهذه لن تختفي تلقائياً". سألوا نتنياهو: وما هي؟ اجاب: "صدام حسين، فصدام يعتبر المشكلة الرئيسة الأولى بالنسبة للشرق الاوسط، ولنا".

ردوا عليه بقولهم: "هراء، انه مجرد محاولة لصرف الانظار من جانب الليكود".

ويجمل نتنياهو بقوله: "قليلة هي، الاشياء التي تجسد تشويه الواقع في الشرق الأوسط، اكثر من تبادل هذه العبارات، قبل غزو الكويت بثلاثة اشهر فقط ففي اوساط اصدقاء اسرائيل واعدائها معا، ساد الاعتقاد الكاذب، بأن القضية الفلسطينية هي اسم مرادف للنزاع في الشرق الاوسط.

لقد كرس نتنياهو سنين عديدة وخطابات لا تعد ولا تحصى في حياته، في محاولة للقضاء على الفرضية المألوفة بأن الفلسطينيين هم قلب النزاع في الشرق الاوسط.

وهناك فصول واسعة في مؤلفات نتنياهو، تتناول الاحداث التاريخية التي تثبت "ان القضية الفلسطينية "اخترعها" العرب، و "غرست" جيدا في عقول مصممي الرأي العام في العالم وفي اسرائيل.

ويقول نتنياهو في كتابه، ان النظرية القائلة بأن الفلسطينيين هم محور النزاع كانت قوية لدرجة انه طيلة عشر سنوات كاملة من ١٩٨٠ – ١٩٩٠، مكنت العراق من اخفاء عملية تسلحه الحثيث وكانت غطاء مريحا لتزويده بالمعدات والاسلحة والذخائر.

ويقول نتنياهو، ان حرب الخليج برهنت على عدم صحة هذا الادعاء، واكدت للعالم بأن "ميول الزعماء العرب إلى العنف، هو السبب الرئيسي لاندلاع الحروب".

ويواصل نتنياهو القول: "غير ان تقديس محورية القضية الفلسطينية لم ينته بعد، كما انـه مـع مـرور الوقت تلاشت قضية الكويت من الاذهان، وبدأت محورية القضية الفلسطينية تبرز مـن جديـدن لتـشوش الصورة الحقيقية للشرق الاوسط.

منذ تولي نتنياهو السلطة في اسرائيل، صادفته احداث يمكن ان تساعده في تـرويج نظريتـه المعارضـة، لكون القضية الفلسطينية هي محور النزاع، فالانفجار في طائرة (TWA) والانفجار في اطلنطا، وغزو صـدام حسين للاقليم الكردي، وفرت الارضية المريحة لصرف اهتمام العالم عن القضية الفلسطينية وبعثت الحياة، ظاهريا، في نظرية نتنياهو.

غير ان نتنياهو بدأ يعرف الان ان العلام يختلف عـن الواقـع، فقـد "شرح" للعـالم الوضـع الجغـرافي – الاستراتيجي في الشرق الاوسط، وربط سوريا بالارهاب، وشاهد نمو وازدهار الارهاب الـدولي، بعيـون براقـة من السرور، لكن كل ما سمعه من زعماء العالم، ردا على ما قالهن هو "التق بعرفات".

كان الرئيس كلينتون يطلق صواريخ توما هوك عـلى صـدام حـسين، ومـع ذلـك، بقـي نتنيـاهو عالقـا مـع عرفات، لقد اكتشف رئيس الحكومة فجأة، بـان الفلـسطينيين ربمـا لم يعـودوا يـشكلون قلـب النـزاع في الـشق الاوسط كله، لكن اتفاقيات اوسلو جعلتهم هم ومصيرهم بمثابة الروح للازدهار السياسي والاقتصادي الاسرائيلي، وهذه الرسالة، التقطها نتنياهو من جميع الجهات.

فها هي دول، قطر، عمان، تونس، والمغرب، اعلنت او المحت بـصورة واضـحة بـأن مـستقبل علاقتهـا مـع اسرائيل منوط بمدى رضى عرفات، وكذلك الاردن التي سرها تبادل السلطة في اسرائيـل، حثـت نتنيـاهو عـلى ان يفعل اي شيء من اجل الاشقاء في المناطق الفلسطينية.

ومصر، التي ربما سرها فوز نتنياهو الذي اعادها للقيام بدور مركزي في الشرق الاوسـط، بعـد انقـضاء "عهد الجامعة العربية" اثناء حكم بيرس، ولكنها اشترطت عقد المؤتمر الاقتصادي في القاهرة، بتحقيق تقدم على المسار الفلسطيني.

صحيح ان المسؤولين الاسرائيليين، تبجحوا بأن المصريين بحاجة إلى المؤتمر اكثر منا، غير انه من الواضح تماما، بالنسبة لواضعي السياسة الاسرائيلية، بأن الغاء المؤتمر، على خلفية ازمة مع الفلسطينيين، سيلحق باسرائيل ضررا بالغا، وقد يصبح كرة ثلج تتسبب باضرار اقتصادية تصل إلى مليارات الدولارات.

اضف إلى ذلك، تهديدا مصريا، لم ينشر عنه شيء، بشأن مقاطعة اجتماع لجنة التوجيه المنبثقة عن مباحثات السلام متعددة الاطراف الذي من المقرر عقده في موسكو، الشهر القادم، اذا لم تخل اسرائيل مدينة الخليل قبل هذا الموعد.

ففي العهد الجديد، عهد نتنياهو، يستطيع المصريون السماح لانفسهم بشد اعصاب اسرائيل في الموضوع النووي، والمحادثات حول مراقبة الاسلحة، والعودة إلى القضية الفلسطينية، وان يحظوا بتأييد العالم كله.

لقد بدأت الدول الأوروبية تزداد عصبية حتى ان الامريكيين، المؤيدين المتحمسين لنتنياهو، ضغطوا عليه للقيام بشيء ما.

ومرة اخرى، جرى ربط اسرائيل بالنزاع العراقي: الشيء الوحيد الذي يحتاجه الامريكيون الان، هو انهيار عملية السلام وتصعيد سريع في تبدل التصريحات شديدة اللهجة بين العرب واسرائيل، لكي يسارع صدام في استغلاله لخدمة اغراضه.

لقد المح الامريكيون لنتنياهو، بأنه اذا اراد ان يكون جزءا من الجهد الحربي ضد العراق، من الافضل له ان يهتم بتهدئة الوضع في المناطق، حتى البيت الابيض بعث بتلميحات بشأن اهمية اللقاء مع عرفات، وعذَّب قليلاً مكتب رئيس الحكومة الاسرائيلية، فقد اجل موظفو البيت الابيض حتى اللحظة الأخيرة، تحديد موعد اللقاء بين كلينتون ونتنياهو، الاسبوع القادم. لقد بذل مستشارو نتنياهو جهدا كبيرا هذا الاسبوع، ليقنعوا الآخرين بأن اللقاء مع عرفات جرى حسب ما خططله نتنياهو سلفا، لكنهم لم يتحدثوا هكذا، وكذلك نتنياهو لم

يتحدث هكذا فور تسلمهم السلطة، حينذاك كان يفهم بأن لقاء مع عرفات، هـذا اذا حـدث فعـلا، فهـو موضوع متروك للمستقبل البعيد، الغامض، وبالتأكيد لن يتم قبل الانتخابات الامريكية في شهر تشرين ثان.

لقد اراد نتنياهو ترسيخ اهم مبادئ سياسته تجاه الفلسطينيين، على ضرورة تحسين مـستوى حيـاتهم، لذا تبنى فكرة "البنك الاقليمي" التي طرحها شمعون بيرس، وواضح للدولة المانحة ولاصدقائه العديدين في الكونغرس الامريكي، انه في موضوع المساعدة للفلسطينيين، سيكون "بيرس اكثر من بيرس".

ومن وراء هذا الموقف الذي يتناقض مع دعاية حزب الليكود اثناء الحملة الانتخابية التي كانت ترفع شعار "الاموال، للاحياء اليهودية، وليس لمنظمة التحرير الفلسطينية"، يكمن الافتراض بأنه بواسطة الـسخاء الاقتصادي، سيكون بالامكان تأجيل تنفيذ اتفاقيات اوسـلو، وكـسب الوقـت ريـثما تنتهـي الفـترة المحـددة للمفاوضات حول التسوية الدائمة في عام ١٩٩٩.

وكان وزير المالية الاسرائيلي، دان مريدور متحمسا جدا لهذه السياسة غير ان الجدول الزمني المكثـف لتنفيذ اتفاق اوسلو، والوضع السياسي الهش للسلطة الفلسطينية، لم يسمحا بكسب الوقت الـضروري لـكي يحدث التركيز الاسرائيلي على اقتصاد المناطق، الدفعة المطلوبة. كما ان ضرورة الحسم في موضـوع الخليـل، واقتراب الموعد المقرر لتنفيذ المرحلة الثانية من اعادة الانتشار في الضفة الغربية، والمراوغات الحكوميـة في موضوع المستوطنات، كل هذه الامور جعلت موضوع العلاقات مع الفلسطينيين يحتل العناوين الرئيسة.

وشعر عرفات بهذا التوجه، مما دفعه إلى مهاجمة نتنياهو، محـدثا هـزة للجميـع، امـا نتنيـاهو الـذي شعر بخطر الانهيار السريع الذي يهدد مكانـة اسرائيـل الدوليـة، وعلاقتهـا مـع الـدول العربيـة، ومكانتهـا الاقتـصادية واسـتعداد المـستثمرين الاجانـب للاسـتثمار فيهـا - اضـطر لان يـدفع للفلـسطينيين بالعملـة السياسية.

لقد ادرك نتنياهو ان امتناعه عن الالتقاء بعرفات، اصبح شعارا لفتور العلاقات العامة مع السلطة الفلسطينية، واختار ان يدفع بالشعارات وليس بالجوهر، وبعبارة اخرى، اي ان احدا في العالم، لم يفهم ما يدور في رأس نتنياهو، حول هذا الموضوع.

على الصعيد السياسي، وحسب ما هو معروف، لم يتنازل نتنياهو عن شيء من اجل المقابلة، لقد فضل ان يدفع بالعملة "الشخصية" وعدم التزام اسرائيل باجراءات مستقبلية في المناطق الفلسطينية.

يمكننا اعتبار هذا السلوك عملاً اصيلا، ولكن، في نفس الوقت، يمكننا اعتباره مؤشرا مثيرا للقلقن على الضعف والتهرب من اتخاذ القرارات.

على اية حال، وعلى الصعيد الشخصين بدا نتنياهو كمن كانت المقابلة مع عرفات صعبة عليهن ففي كثير من مؤلفاته وخطاباته، كان يصف عرفات بأنه وريث هتلر على لارض، ومنظمة التحرير، تشكل استمرارية للنازيين.

فقد سبق ان قال نتنياهو في كلمة امام الجمعية العامة للامم المتحدة في عام ١٩٨٥، ان هذا التحالف الفظيع بين التطرف العربي وبين النازية، ما زال مستمرا حتى هذا اليوم، ليس في دمشق فقط، وانما في معسكرات منظمة التحرير الفلسطينية.

وفي كتاب الفه نتنياهو قبل اقل من سنه حول مكافحة الارهاب، قارن بين منح جائزة نوبل للسلام، إلى عرفات، وبين اقتراح الدعابة الذي طرح في عام ١٩٣٩ بشأن منح الجائزة لهتلر، ويقول نتنياهو في كتابه: "ان الذي اقترح كدعابة في عام ١٩٣٩، اصبح كوميديا سوداء في عام ١٩٩٤.

لقد حظي نتنياهو هذا الاسبوع بانتقادات شديدة من جانب المعسكر اليميني بسبب التحول الحاد الذي طرأ عليه منذ توليه السلطة، وقال قدامى الصديقة لها، باسم مبدأ توسيع المستوطنات، وكانت من ضمن النتائج خسارة السلطة، وتسليم مفاتيح الدولة إلى حزب العمل، وتمهيد الطريق الاتفاقيات اوسلو.

لذا يبدو ان نتنياهو قرر ان الاجتماع بعرفات، مهما كان قاسيا بالنسبة له شخصيا، سيخدمه على الصعيد الدولي، ويكسبه بعض النقاط في الرأي العام الاسرائيلي الذين تعلم كيف يتعايش مع عرفات.

والآن، بقي ان نعرف ما اذا كان التنازل السياسي الذي قدمه نتنياهو للفلسطينيين هو مجرد صرف انظار فقط، ام انه مؤشر لتحول حقيقي في مواقفه.

لقد كنت المحلل المشهور، توم فريدمن، هذا الاسبوع في صحيفة "نيويورك تايمز" ان نتنياهو مشغول طيلة الوقت في محاولات لازالة الضغوط عن نفسه عن طريق تقديم تنازلات.

والسؤال هو، ما اذا كانت هذه المحاولات تأتي من ضمن سياسة شاملة تساهم في دفع عملية السلام إلى الامام.

ان الاختبار لهذا، لن يكون في الخليل، فعلى الرغم من ان معظم النقاش المضني الذي اجري في الاسابيع الثلاثة الاخيرة تمهيدا للاجتماع في حاجز ايرز، دار حول السؤال هل يجب ان تتولى لجنة التوجيه "معالجة" الاتفاق في الخليل، ام "تطبق" الاتفاق، يبدو ان اسرائيل والفلسطينيين توصلا إلى اتفاق مبدئي هادئ بشأن اجراء تعديلات على الترتيبات الامنية في المدينة، تمهد الطريق لاعادة الانتشار.

ومن المقرر، ان يقدم وزير الدفاع اسحق مردخاي، الذي اثنى في نهاية الاسبوع على جهود السلطة الفلسطينية، لمكافحة الارهاب، إلى عرفات، التغييرات التي تطالب اسرائيل بها، والاعتقاد السائد هو انه بعد مساومة قد تشتمل على منح تسهيلات واسعة في اوامر الاغلاق، وتنفيذ الوعد الاسرائيلي المتكرر، والذي لم ينفذ بعدن بشأن الافراج عن المعتقلات الفلسطينيات، سيتوصل الطرفان إلى تسوية، تقوم بموجبهغا القوات الاسرائيلية بأخلاء الاحياء العربية في مدينة الخليل.

غير ان الاختبار الحقيقي لاتفاقيات اوسلو، سيأتي بعد ذلك، اثناء المحادثات حول موضوع المرحلة الثانية من اعادة الانتشار في الضفة الغربية، حيث ان اتفاقيات اوسلو تنص على انه يجب على اسرائيل تنفيذ المرحلة الثانية من اعادة الانتشار في الضفة، على ثلاث مراحل، على مدى ستة اشهر، ابتداء من اليوم.

وفي نهاية العملية، من المقرر ان تنسحب اسرائيل إلى "مواقع عسكرية" وتبقى بأيدي السلطة الفلسطينية، مناطق الضفة الغربية، باستثناء المواضيع التي سيجري بحثها في اطار مفاوضات التسوية الدائمة، وهي المستوطنات، والقدس، والحدود، ولا توجد لدى نتنياهو حاليا اية نية لتطبيق ما نصت عليه اتفاقية اوسلو بهذا الشأن، لا نصا ولا روحا.

يقول نتنياهو في كتابه، ان مناطق الضفة الغربية تشكل جزءا من الجدار الواقي الحيوي لبقاء اسرائيل ويبرهن على ان التنازل عن السيطرة العسكرية في مناطق الضفة الغربية، يعتبر انتحارا وطنيا.

ويؤكد انه بغض النظر عن آراء الاسرائيليين بشأن صورة التعايش بين العرب واليهود في الضفة الغربية، قليلون هم الذين يشككون في الحاجة الملحة لسيطرة عسكرية دائمة في هذه المنطقة الحيوية وفي منحدرات هضبة الجولان.

ويبرهن اخيراً على ان من يتنازل عن السيطرة السياسية، سيضطر في نهاية المطاف للتنازل عن السيطرة العسكرية ايضا.

ولدى تسلمه رئاسة الحكومة، طلب نتنياهو من المتسائلين المزعجين التوجه إلى مؤلفاته، وكل من عمل بموجب نصيحته هذه وقرأ كتبه، وجد انساناً لديه نظريات مبلورة واضحة، فهو لا يبدو كمن هو على استعداد للموافقة على التنازل عن مناطق اخرى في الضفة الغربية.

لذا، فان الانفجار السياسي القادم، سيحدث بعد اخلاء الخليل، ويبدو الان في الافق.

من جهة اخرى، كل من قرأ الكتاب، كان على استعداد للمراهنة على انه لا يوجد اي احتمال في العالم بان نتنياهو سيصافح يد عرفات.

الكتب الصادرة عن دار الجليل

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
١.	عمود النار "الأسطورة التي قامت عليها إسرائيل"	ترجمة : غازي السعدي
٢.	الاستيطان "التطبيق العملي للصهيونية"	عبد الرحمن أبو عرفة
٣.	حرب الجليل (نافذ)	بدر عبد الحق وغازي السعدي
٤.	الكتاب السنوي "١٩٨١"	غازي السعدي ونواف الزرو وغسان كمال
٥.	الكتاب السنوي "١٩٨٢"	غازي السعدي ونواف الزرو وغسان كمال
٦.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (١) شهادات ميدانية	غازي السعدي وبدر عبد الحق
٧.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (٢) معركة بيروت	مايكل جانسن – ترجمة : محمود برهوم
٨.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (٣) وثيقة جرم وإدانة	غازي السعدي
٩.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (٤) أهداف لم تتحقق	غازي السعدي
١٠.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (٥) معتقل أنصار وصراع الإرادات (نافذ)	سليم الجنيدي
١١.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (٦) الحرب المضللة	زئيف شيف وايهود يعاري - ترجمة : غازي السعدي
١٢.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (٧) فظائع الحرب اللبنانية	دوف يرميا – ترجمة : زكي درويش
١٣.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (٨) هزيمة المنتصرين وانتصار القضية	إعداد : اللجنة ضد الحرب في لبنان
١٤.	الحرب الفلسطينية الإسرائيلية في لبنان (٩) الأسرى اليهود وصفقات المبادلة	غازي السعدي

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
١٥.	رسائل من قبل الحصار	أبو عمار
١٦.	يوميات من سجون الاحتلال "زنزانة رقم ٧"	فاضل يونس
١٧.	المثلث الإيراني: العلاقات السرية الإسرائيلية الإيرانية الأمريكية "الكتاب الأول"	شموئيل سيغف – ترجمة: دار الجليل
١٨.	المثلث الإيراني: العلاقات السرية الإسرائيلية الإيرانية الأمريكية "الكتاب الثاني"	شموئيل سيغف – ترجمة : دار الجليل
١٩.	هل يوجد حل للقضية الفلسطينية؟ "مواقف إسرائيلية"	ألوف هوروبين - ترجمة : غازي السعدي
٢٠.	عملية الدبويا كما يرويها منفذوها	درويش ناصر – محامي الدفاع
٢١.	مراكز القوى ونموذج صنع القرار السياسي في إسرائيل (نافذ)	د. نظام بركات
٢٢.	مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية	منير الهور وطارق الموسى
٢٣.	غوش أيمونيم – الوجه الحقيقي للصهيونية	داني روبنشتاين ترجمة : غازي السعدي
٢٤.	رؤى مستقبلية عربية في الثمانينات	د. أحمد صدقي الدجاني
٢٥.	أيام دامية في المسجد الأقصى	د. أحمد العلمي
٢٦.	حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير	يوسف محمد القراعين
٢٧.	الأحد الأسود	توماس هارس – ترجمة: حسن مشعل
٢٨.	برتوكولات حكماء صهيون (المجلد الأول)	عجاج نويهض
٢٩.	برتوكولات حكماء صهيون (المجلد الثاني)	عجاج نويهض
٣٠.	الأردن وفلسطين	د. سعيد التل
٣١.	الاقتصاد الإسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام	د. فؤاد بسيسو
٣٢.	الاستعمار وفلسطين	رفيق شاكر النتشة
٣٣.	الحرب من أجل السلام	عيزر وايزمن - ترجمة : غازي السعدي
٣٤.	الموساد "جهاز المخابرات الإسرائيلية"	دنيس ايزنبرغ - ايلي لاندو - واوري دان

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
٣٥.	التوازن العسكري في الشرق الأوسط	إعداد مركز الأبحاث الاستراتيجي التابع لجامعة تل أبيب
٣٦.	الكتاب الأسود عن يوم الأرض ٣٠ آذار ١٩٧٦	إصدار اللجنة القطرية للدفاع عن الأراضي العربية في فلسطين المحتلة
٣٧.	في سربية الصحراء	الشاعر سميح القاسم
٣٨.	الخيار النووي الإسرائيلي	شاي فيلدمان - ترجمة : غازي السعدي
٣٩.	انتهاك حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة	إعداد منظمة القانون في خدمة الانسان ترجمة سليم أبو غوش
٤٠.	نقاط فوق الحروف	خالد الحسن
٤١.	قراءة سياسية في مبادرة ريغان	خالد الحسن
٤٢.	فلسطينيات	خالد الحسن
٤٣.	الاتفاق الأردني الفلسطيني	خالد الحسن
٤٤.	من ملفات الإرهاب الصهيوني في فلسطين (١) جرائم الأرغون وليحي	تأليف : يعقوب إلياب – ترجمة : غازي السعدي
٤٥.	من ملفات الإرهاب الصهيوني في فلسطين (٢) مجازر وممارسات	غازي السعدي
٤٦.	من ملفات الإرهاب الصهيوني في فلسطين (٣) دور الهاغناة في إنشاء إسرائيل	د. حمدان بدر
٤٧.	فلسطين تأريخا ونضالا	نجيب الأحمد
٤٨.	فلسطينيات في سجن النساء "طيور نفي ترتسا"	المحامي وليد الفاهوم
٤٩.	شوكة في عيونكم	مائير كهانا - ترجمة غازي السعدي
٥٠.	اتفاقيات السلم المصرية – الإسرائيلية	محمد الرفاعي
٥١.	الجذور "وثيقة الأوقاف الإسلامية"	فتحي فوراني
٥٢.	فلسطين الأرض والوطن "قرية الدوايمة"	موسى عبد السلام هديب
٥٣.	خط الدفاع في الضفة الغربية	آرييه شليف – ترجمة : غازي السعدي

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
٥٤.	تشريقة بني مازن	د. عبد اللطيف عقل
٥٥.	القمع والتنكيل في سجن الفارعة	إعداد : لجنة الحقوقيين الدولية
٥٦.	صورة العربي في الأدب اليهودي	د. رايز دومب – ترجمة : عارف عطاري
٥٧.	الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث	غانم مزعل
٥٨.	فلسطين أرض وتاريخ	د. محمد نحال
٥٩.	القدس ماضيها حاضرها ومستقبلها	فايز فهد جابر
٦٠.	القضية الفلسطينية في القانون الدولي	د. جابر الراوي
٦١.	المؤسسة العسكرية الصهيونية في دائرة الضوء (١) إسرائيل عسكر وسلاح	بشير شريف البرغوثي
٦٢.	المؤسسة العسكرية الصهيونية في دائرة الضوء (٢) أزمة الاستخبارات الإسرائيلية	تسفي لينر
٦٣.	حرب الاستنزاف (نافذ)	د. محمد حمزة
٦٤.	المطامع الإسرائيلية في مياه فلسطين	بشير البرغوثي
٦٥.	إسرائيل عام ٢٠٠٠ "تصورات إسرائيلية"	إعداد : قسم الدراسات
٦٦.	القرار	رشاد أحمد الصغير
٦٧.	ندوة مشاكل التعليم الجامعي في الوطن المحتل والروح الجامعية	إعداد : المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم في منظمة التحرير
٦٨.	القضية الفلسطينية	أكرم زعيتر
٦٩.	شخصيات صهيونية (١) مذكرات رفائيل ايتان	ترجمة: غازي السعدي
٧٠.	شخصيات صهيونية (٢) شلومو هيلل وتهجير يهود العراق	ترجمة : غازي السعدي
٧١.	شخصيات صهيونية (٣) ثيودور هرتسل	إعداد : قسم الدراسات
٧٢.	شخصيات صهيونية (٤) آرئيل شارون	عوزي بنزيمان – ترجمة : غازي السعدي

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
٧٣.	شخصيات صهيونية (٥) آباء الحركة الصهيونية	ترجمة : عبد الكريم النقيب
٧٤.	شخصيات صهيونية (٦) موشيه ديان	ترجمة : غازي السعدي
٧٥.	شخصيات صهيونية (٧) بن غوريون والعرب	شبتاي تيبت – ترجمة : غازي السعدي
٧٦.	شخصيات صهيونية (٨) رسائل بن غوريون	ترجمة: الأميرة دينا عبد الحميد
٧٧.	شخصيات صهيونية (٩) حياتي – لجولدا مائير	ترجمة : دار الجليل
٧٨.	شخصيات صهيونية (١٠)حركة التصحيح الصهيونية	ليني برينر – ترجمة : دار الجليل
٧٩.	شخصيات صهيونية (١١) مذكرات اسحق رابين-جزآن	اسحق رابين
٨٠.	شخصيات صهيونية (١٢) ناحوم غولدمان	ترجمة دار الجليل
٨١.	شخصيات صهيونية (١٣)اسحق شامير	ترجمة : دار الجليل
٨٢.	شخصيات صهيونية (١٤)مكان تحت الشمس	بنيامين نتنياهو
٨٣.	فلسطين الأم وابنها البار عبد القادر الحسيني	عيسى خليل محسن
٨٤.	دعوى نزع الملكية	آرييه.ل.افنيري – ترجمة : بشير البرغوثي
٨٥.	شخص غير مرغوب فيه	قصائد : سميح القاسم
٨٦.	نادية برادلي "الفدائية المغربية الشقراء"	ترجمة : غسان كمال
٨٧.	عرب التركمان	علياء الخطيب
٨٨.	المرأة الفلسطينية والاحتلال الإسرائيلي	ميسون الوحيدي
٨٩.	الإعلام الإسرائيلي	غازي السعدي ومنير الهور

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
٩٠.	الوجه الحقيقي للموساد (نافذ)	د. وجيه أبو غالب وأنور خلف
٩١.	العمق الاستراتيجي في الحروب الحديثة	ترجمة : بدر عقيلي
٩٢.	آه يا بلدي	أكرم النجار
٩٣.	الحافلة رقم ٣٠٠	ترجمة : احمد بركات
٩٤.	من رواد النضال في فلسطين (١)	زياد عودة
٩٥.	من رواد النضال في فلسطين (٢)	زياد عودة
٩٦.	من رواد النضال في فلسطين (٣) (نافذ)	زياد عودة
٩٧.	فلسطين في سيرة البطل عبد الحليم الجيلاني	د. حسن صالح عثمان
٩٨.	الحركة العمالية في فلسطين	سليم الجنيدي
٩٩.	الموسوعة العسكرية الإسرائيلية (١) سلاح الجو الإسرائيلي	زئيف شيف - ترجمة : دار الجليل
١٠٠.	الموسوعة العسكرية الإسرائيلية (٢) سلاح الاستخبارات	عوديد غرانوت
١٠١.	الموسوعة العسكرية الإسرائيلية (٣) سلاح الهندسة	عمي شامير – ترجمة : دار الجليل
١٠٢.	الموسوعة العسكرية الإسرائيلية (٤) سلاح المشاة	نتان روعي – ترجمة : دار الجليل
١٠٣.	الموسوعة العسكرية الإسرائيلية (٥) سلاح المظليين	إيلان كفير
١٠٤.	الموسوعة العسكرية الإسرائيلية (٦)سلاح الدروع	اريبه حشافيا
١٠٥.	معجم المصطلحات الصهيونية	إعداد افرايم ومناحيم تلمي - ترجمة : أحمد بركات
١٠٦.	حرب سيناء ٥٦	مردخاي باراون
١٠٧.	وجه قبيح في المرآة	بروفيسور أدير كوهين
١٠٨.	تاريخ ما أهمله التاريخ (نافذ)	عبد الهادي جرار
١٠٩.	أيام الصبا	د. يوسف هيكل

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
١١٠.	جلسات في رغدان	د. يوسف هيكل
١١١.	ربيع الحياة	د. يوسف هيكل
١١٢.	الإعلام الفلسطيني	د. حسين أبو شنب
١١٣.	تحت السياط	فاضل يونس
١١٤.	دراسات في تعليم الكبار	د. عدنان أبو عمشة
١١٥.	النزاع العربي الإسرائيلي بين فكي كماشة الدول العظمى	بقلم : موشه زاك – ترجمة : دار الجليل
١١٦.	الغضب (نافذ)	أكرم النجار
١١٧.	منجل في النجمة السداسية	أيسر هارئيل – ترجمة : بدر عقيلي
١١٨.	صرخة في وجه العالم "ألبوم الانتفاضة"	إعداد : دار الجليل
١١٩.	اشكالية الديموقراطية والبديل الإسلامي	خالد الحسن
١٢٠.	الاستخبارات والأمن القومي	ترجمة : دار الجليل
١٢١.	الأحزاب والحكم في إسرائيل	غازي السعدي
١٢٢.	تعليم الفلسطينيين ماضيا وحاضرا ومستقبلا	الدكتور عبد القادر يوسف
١٢٣.	قبس من تراث المدينة والقرية الفلسطينية	صباح السيد عزازي
١٢٤.	اشتعالات حمدان	أكرم النجار
١٢٥.	من القمع إلى السلطة الثورية	قدري أبو بكر
١٢٦.	هذه قضيتك يا ولدي	سليم عبد العال القزق
١٢٧.	معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية	فؤاد إبراهيم عباس – احمد عمر شاهين
١٢٨.	صناعة قرارات الأمن الوطني في إسرائيل	يهودا بن مئير - ترجمة : بدر عقيلي
١٢٩.	قمع شعب	بشير البرغوثي
١٣٠.	أسلحة وارهاب	أهارون كلايمن
١٣١.	جليلة	أكرم النجار
١٣٢.	حدود أرض إسرائيل	البروفيسور موشيه برافر- ترجمة : بدر عقيلي

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
١٣٣.	الأحواز في الماضي والحاضر والمستقبل	نصار أحمد الخزعلي
١٣٤.	الفاشية الإسرائيلية	المحامي درويش ناصر
١٣٥.	الأمن القومي العربي ونظرية تطبيقه في مواجهة الأمن الإسرائيلي	العميد محمد يوسف العملة
١٣٦.	النظرية العسكرية الإسرائيلية "دفاع وهجوم"	ارئيل لفيتا
١٣٧.	خرافات يهودية (نافذ)	أحمد الشقيري
١٣٨.	دقيقتان فوق تل أبيب	محمد أزوقة
١٣٩.	سياسة إسرائيل الأمنية	زئيف كلاين ويهودا شيف – ترجمة: بدر عقيلي
١٤٠.	الهجرة اليهودية "حقائق وأرقام"	د.عمران أبو صبيح
١٤١.	الانتفاضة	زئيف شيف وأيهود يعاري
١٤٢.	جواسيس المخابرات الإسرائيلية	يوسي ميلمان/دان رافيف- ترجمة : دار الجليل
١٤٣.	دولة إسرائيل زائلة	يعقوب شريت - ترجمة دار الجليل
١٤٤.	داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم	أحمد عيسى الأحمد
١٤٥.	الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية	محمد خالد الأزعر
١٤٦.	بقايا من خبز وكتاب	أكرم النجار
١٤٧.	إسرائيل في حرب الخليج	غازي السعدي
١٤٨.	المثلث المحتوم	أحمد عز الدين بركات
١٤٩.	الاستيطان الإسرائيلي "جغرافيا وسياسيا"	اليشع ايفرات – ترجمة : دار الجليل
١٥٠.	حرب السكاكين	زياد أبو صالح ورشاد المدني
١٥١.	انتفاضة العصافير	نجوى قعوار
١٥٢.	انهيار نظرية الأمن الإسرائيلية	أحمد بركات
١٥٣.	موسوعة عشائر وعائلات فلسطين"١" القدس مدنها وقراها	فائز أبو فردة
١٥٤.	عشيرة آل العملة "العمرو"	محمد يوسف عمرو العملة
١٥٥.	الأسرة والانتفاضة	لجنة أبحاث المرأة/نابلس

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
١٥٦.	قصة جاسوس.. بولارد	برنارد ر.هندرسون – ترجمة: دار الجليل
١٥٧.	أبو عجاج العينبوسي "الدكتور الثائر	عيسى خليل محسن
١٥٨.	الأسلحة الكيميائية والبيولوجية وتأثيراتها البيئية	د.عادل أحمد جرار
١٥٩.	قناع القناع	العميد محمد نور الدين شحادة
١٦٠.	تشريعات القضاء في دولة فلسطين (نافذ)	أحمد محمد المبيض
١٦١.	الشبح	عبد اللـه عواد
١٦٢.	دولة مجدو	عبد اللـه عواد
١٦٣.	"هشاي" مخابرات منظمة الهجناة	إعداد دار الجليل
١٦٤.	أنساب العشائر الفلسطينية	العميد محمد يوسف العملة
١٦٥.	طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين	بني موريس – ترجمة : دار الجليل
١٦٦.	الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل	إبراهيم عبد الكريم
١٦٧.	دليل المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة(١٩٦٧-١٩٩١)	د.عمران أبو صبيح
١٦٨.	حرب في الخليج "أبعاد على إسرائيل"	طاقم مركز الأبحاث الاستراتيجية الإسرائيلي – يافه ترجمة: بدر عقيلي
١٦٩.	ثلاثون قضية استخبارية وأمنية في إسرائيل	يوسف أرجمان - ترجمة: دار الجليل
١٧٠.	معجم المواقع الجغرافية في فلسطين (نافذ)	قسطندي نقولا أبو حمود
١٧١.	الشرق الأوسط الجديد	شمعون بيرس
١٧٢.	الأدب العربي في جزر البليار	عبد الرزاق حسين
١٧٣.	الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود	غازي السعدي
١٧٤.	أسلحة الدمار الشامل	وليم بوروس / روبرت ويندرم – ترجمة دار الجليل
١٧٥.	المفصل في تعلم اللغة العبرية مع الكاسيت. تعلم العبرية بدون كاسيت	بدر عقيلي
١٧٦.	القاموس العملي عبري-عربي	أمين أبو عيسى
١٧٧.	دوائر القمر	عبد الرزاق حسين

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
١٧٨.	أحاديث في العلم والقيم	يشعياهو ليفوفيتش- ترجمة: سلمان ناطور
١٧٩.	فلسطيني بلا هوية	صلاح خلف (أبو إياد)
١٨٠.	الحوار الفلسطيني-الأمريكي	د.محمد ربيع
١٨١.	قرية جمزو	عطية عبد الحفيظ النجار
١٨٢.	الانقلاب السياسي في إسرائيل	أوري أزولاي ترجمة:بدر عقيلي
١٨٣.	مشكلة الأراضي في النزاع القومي بين العرب وإسرائيل منذ وعد بلفور	جاك كنو- ترجمة : محمد الدويري
١٨٤.	الموساد في العراق	شلومو نكديمون - ترجمة: بدر عقيلي
١٨٥.	دولة فلسطين-الوضع القانوني	سالم أحمد قواطين
١٨٦.	اسحق رابين-اغتيال سياسي	أمنون كبليوك - ترجمة بدر عقيلي
١٨٧.	سومخي قصة للشبيبة عن الحب والمغامرات	عاموس عوز
١٨٨.	نايف حواتمة يتحدث	نايف حواتمة
١٨٩.	سورية وإسرائيل من الحرب إلى صناعة السلام	موشيه ماعوز – ترجمة : لينا وهيب
١٩٠.	اتفاقيات أوسلو	دار الجليل
١٩١.	الحرب الاقتصادية (١٠٠) سنة من المواجهة الاقتصادية بين اليهود والعرب	يوفال اليتسور – ترجمة: بدر عقيلي – محمد الدويري
١٩٢.	البستان – من الادب العبري	بنيامين تموز
١٩٣.	أنثولوجيا-الوجه الآخر	غرشون شكيد ودافيد سجيف – .ترجمة :دار الجليل
١٩٤.	المسيرة خفايا أوسلو من الألف إلى الياء	أوري سبير كبير المفاوضين ا لإسرائيليين في أوسلو. ترجمة بدر عقيلي
١٩٥.	أوسلو والسلام الآخر المتوازن	نايف حواتمة
١٩٦.	أيهود باراك.. الجندي الأول	بن كسبيت وإيلان بيران – ترجمة بدر عقيلي ونور البواطلة
١٩٧.	الصهيونية .. النظرية والتطبيق	يوئيل رفيل – ترجمة : نور البواطلة
١٩٨.	الحسين والسلام (مسلسل العلاقات الاردنية – الاسرائيلية)	موشيه زاك - ترجمة دار الجليل
١٩٩.	مهنتي كرجل مخابرات "٢٩ عاما من العمل في الشاباك"	يعقوب بيري رئيس جهاز الشاباك السابق - ترجمة : بدر عقيلي

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
٢٠٠.	أبعد من أسلو ... فلسطين الى أين	نايف حواتمة
٢٠١.	جاسوس إسرائيل في دمشق	يشيعياهو بن فورات و اوري دان – ترجمة : زكي درويش
٢٠٢.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب الأول قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢٠٣.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب الثاني قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢٠٤.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب الثالث قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢٠٥.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب الرابع قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢٠٦.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب الخامس قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢٠٧.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب السادس قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢٠٨.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب السابع قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢٠٩.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب الثامن قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢١٠.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب التاسع قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢١١.	انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ الكتاب العاشر قصص دامية وحكايات الشهداء	إعداد دار الجليل
٢١٢.	آرئيل شارون (سجل خدمة وعمليات انتفامية)	ترجمة وإعداد : دار الجليل
٢١٣.	قاب قوسين أو أدنى من السلام	غلعاد شير- ترجمة: بدر عقيلي
٢١٤.	إسرائيل والقنبلة النووية	أفنر كوهين –ترجمة: بدر عقيلي
٢١٥.	فلسطين تحطم الجدار	دار الجليل
٢١٦.	الجواسيس (عشرون قضية تجسس على إسرائيل	يوسي ميلمان وايتان هابر- ترجمة: خالد أبو ستة العياصرة

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
٢١٧.	قضية شراء الاراضي والاستيطان االصهيوني في الأردن وحوران والجولان	دراسة وإعداد : دار الجليل
٢١٨.	الرواية الجديدة عن حرب اكتوبر "دروس في علوم الحرب وصراع الجنرالات في إسرائيل"	خالد أبو ستة
٢١٩.	الانتفاضة الاستعصاء – فلسطين الى أين	نايف حواتمة
٢٢٠.	اليهودية "ديانة توحيدية أم شعب مختار"	عمر مصالحة
٢٢١.	تاريخ فلسطين قبل الميلاد	هشام أبو حاكمة
٢٢٢.	انقلاب عسكري في اسرائيل – الاحتمالات والوقائع	تسفيكة عميت- ترجمة: بدر عقيلي
٢٢٣.	كفاح شعب فلسطين ومسيرة حركته الوطنية	إعداد دار الجليل
٢٢٤.	التلمود"المرجعيةاليهودية للتشريعات الدينية والاجتماعية"	عمر مصالحة
٢٢٥.	الأساطير المؤسسة للتاريخ الاسرائيلي القديم	هشام أبو حاكمة
٢٢٦.	الوعد الصادق حزب اللـه وإسرائيل وجها لوجه	هشام ابو حاكمة
٢٢٧.	رسالة الى شعب اسرائيل	محمد ابو سمرة
٢٢٨.	بين العسكرية والسياسة ذكريات	عبد الرزاق اليحيى
٢٢٩.	حروب الظلال الإسرائيلية وسياسة الاغتيالات	دار الجليل
٢٣٠.	السلام أولا .. تحديث مسارات السلام	أوري سافير
٢٣١.	مسجد داود وليس هيكل سليمان	هشام أبو حاكمة
٢٣٢.	مصطلحات ومناسبات وتواريخ وشخوص صهيونية	إعداد : دار الجليل
٢٣٣.	العرب الدروز والحركة الوطنية الفلسطينية حتى ال ٤٨	النائب سعيد نفاع
٢٣٤.	النظام الانتخابي الإسرائيلي انتخابات الكنيست ٢٠٠٩- الأحزاب الإسرائيلية- تـشكيل الحكومـة- برامجها السياسية	غازي السعدي
٢٣٥.	الموساد .. الشاباك.. أمان وأسلحة الدمار الشامل الإسرائيلية	دراسة/ بدر عقيلي
٢٣٦.	اليسار العربي رؤيا النهوض الكبير (نقد وتوقعات)	نايف حواتمة
٢٣٧.	نجوم في سماء فلسطين	زياد عودة

تسلسل	العنوان	المؤلف او المترجم
٢٣٨.	جرائم الحرب الإسرائيلية في غزة	بدر عقيلي
٢٣٩.	هدنة – أمل من أجل الشرق الأوسط	أيال آرليخ
٢٤٠.	الإرهاب على فلسطين وشاهد من أهلها	مفيد المبسلط
٢٤١.	الموساد العمليات الكبرى	ميخائيل بار زوهر والصحفي نسيم مشعل ترجمة : بدر عقيلي
٢٤٢.	العداء الإسرائيلي للسياسة الواقعية الفلسطينية	حمادة فراعنة
٢٤٣.	العلاقات العربية – التركية	حمادة فراعنة
٢٤٤.	خطاب البرنامج الفلسطيني في مواجهة المشروع الإسرائيلي	حمادة فراعنة
٢٤٥.	المؤتمر السادس لحركة فتح وتداعياته	حمادة فراعنة
٢٤٦.	تطورات المشهد السياسي الأردني	حمادة فراعنة
٢٤٧.	المفاوضات وصلابة الموقف الفلسطيني	حمادة فراعنة
٢٤٨.	موسوعة المصطلحات والمفاهيم الفلسطينية	تحرير د. محمد شتية
٢٤٩.	تحديات الأمن الوطني الأردني وأثره على الاستقرار السياسي	رعد فواز الزبن
٢٥٠.	الثورة الشعبية العربية "أدواتها وأهدافها" ٢٠١١	حماد فراعنة
٢٥١.	الإخوان المسلمون ودورهم السياسي	حمادة فراعنة
٢٥٢.	ملفات ساخنة(١) حرب التحكم الآلي سلاح الحرب الخامس	دار الجليل
٢٥٣.	ملفات ساخنة (٢) الربيع العربي بعيون إسرائيلية	دار الجليل
٢٥٤.	ملفات ساخنة(٣) أضواء على الحكومة ال ٤٤ والكنيست ال ١٩ وبرامجهما	دار الجليل
٢٥٥.	ملفات ساخنة(٤) دول الخليج العربي بعيون إسرائيلية	دار الجليل
٢٥٦.	تباين الحدود بين تاريخ بني إسرائيل وتاريخ اليهود في العصور القديمة	هشام أبو حاكمة

هذا الكتاب

مثال صارخ، على مضامين الفكرة الصهيونية؛ التي لا تتغير بتضاريس الزمان أو المكان، وانموذج للعقلية التي تحجرت عند منطق القوة، الذي سفح التاريخ، وطمس الجغرافيا، ليبرز من بين أطلالهما شعب الله المختار، الذي دانت له حضارات الأمم، ونطقت باسمه الديمقراطية،وشدت الرحال إلى اعتابه طلبا للعلم والمعرفة، شخوصه هم الكمال بعينه، وفيما عداهم رعاع... خدام. وهو برنامج عمل، يلبي أطماع المتطرفين الذين وجدوا في نتنياهو ضالتهم، فحملوه على الأعناق إلى سدة الحكم رمزا لاسرائيل الحلم، التي لا تنتظمها حدوده وإلى ذلك، فالكتاب خلط لأوراق الزيف، والاتهامات مشفوعة بحقائق مستخرجة من صكوك الاستعمار، واشياع الصهيونية، ممن تخرجوا في مدارس الهيمنة واستعباد الشعوب،

المؤلف ، بنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء الاسرائيلي الحالي، مقدم احتياطن ولد عام ١٩٤٩ في تل أبيب، وشارك في عدد من الحروب، انهى دراسته الجامعية وحصل على الماجستير في ادارة الأعمال من جامعة فيلادلفيا، وهو عضو نشط في حركة حيروت - الليكون وبعد أحد أكثر المتطرفين فيها.

شغل عدة مناصب رفيعة، منها مندوب دائم لاسرائيل في الأمم المتحدة، انتخب للكنيست الثانية عشرة، وعين نائبا لوزير الخارجية، وعضو الوفد الاسرائيلي إلى مؤتمر مدريد، انتخب زعيما لحزب الليكود اليميني، وخاض منافسة على رئاسة الوزراء في انتخابات ١٩٩٦، مع شمعون بيرس، حيث فاز بفارق بسيط قاده إلى الحكم.

بقي ان نقول، ان المترجم محمد عودة الدويري، ومن خلال سعة اطلاعه، ومعرفته بأعماق اللغة العبرية، استطاع ان يضع بين ايدينا كتاباً يتميز بسلامة التعبير والامانة العلمية .

حقوق الطبع محفوظة

اصدار



دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية

هاتف : ٥١٥٥٦٢٧ - ٥١٥٧٦٢٧
فاكس : ٥١٥٣٦٦٨
عمان - ص.ب ٨٩٧٢ - رمز بريدي ١١١٢١
بريد الكتروني: darjaleel@gmail.com